تراثنا

صبح الأعشى

في

صناعة الإنشا

تأليف

أبي العباس أحمد بن علي القلقشندي

٨٢١ هـ - ١٤١٨ م

الجزء الثاني عشر

نسخة مصورة عن الطبعة الاميرية
ومذيلة
بتصويبات واستدراكات وفهارس تفصيلية
مع دراسة وافية

وزارة الثقافة والإرشاد القومي
المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

تراثنا



في
صناعة الإنشاء

تأليف

أبي العباس أحمد بن علي القلقشندي

٨٢١ هـ - ١٤١٨ م

الجزء الثاني عشر

نسخة مصورة عن الطبعة الاميرية
ومذيلة
تصويبات واستدراكات وفهارس تفصيلية
مع دراسة وافية

وزارة الثقافة والارشاد

مطابع كوستاتسوماس وشركاه

٥ شارع وقف الخربوطلي بالظاهر — ٩٠١١٨

القاهرة

فهـــــرس

الجزء الثـانى عشر

من كتاب صبح الأعشى للقلقشندى

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

(تم فهرس الجزء الثانى عشر من كتاب صبح الأعشى)



في

صناعة الإنشاء

تأليف

أبي العباس أحمد بن علي القلقشندي

٨٢١ هـ - ١٤١٨ م

الجزء الثاني عشر

نسخة مصورة عن الطبعة الاميرية
ومذيلة
بتصويبات واستدراكات وفهارس تفصيلية
مع دراسة وافية

مطابع كوستاتسوماس وشركاه

٥ شارع وقف الخربوطلي بالظاهر — ٩٠١١٨

القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه

القسم الثانى

(مما يكتب من الولايات عن الأبواب السلطانية ـ [ما يكتب لأ] رباب الوظائف بالممالك الشامية)

ـ واعلم أنّ نوّاب السلطنة فى التولية على ضربين :

الضربُ الأوّل

(مَنْ لا تصدُر عنه منهم توليةٌ فى عمل نيابته)

وهم نُوّاب الديار المصرية : من النائب الكافل ، ونائب الإسكندرية ، ونائب الوجه البحرى ، ونائب الوجه القبلىّ ، فليس لأحد منهم تصرُّف فى ولاية ولا عَزْل لنائب ، ولا كاشف ، ولا والى حرْب . إنما النائبُ الكافلُ يكتُب فى بعض الأمور على القِصَص ، والسلطانُ هو الذى يباشر الكتابة على الولايات بنفسه ، والنائبُ الكافل يكتُب بالاعتماد على ما يكتُبُ عليه السلطان ، كما تقدّمت الإشارةُ إليه فى موضعه .

الضـــرب الثـانى

(من تصدُر عنه التوليةُ والعزلُ فى عمل نيابتـــه)

وهم نُوّابُ السلطنة بالممالك الشامية السبعةِ المقدّمِ ذكرُها : من النِّيابات الصِّغار، والوظائف الدِّيوانية، والوظائفِ الدِّينيَّة، ووظائفِ مَشايخ التصوُّف ، والوظائف العاديَّة : كرِيَاسة الطِّبّ ونحوها؛ ووظائف زُعَماء أهل الذِّمّة : من رِيَاسة اليهودِ، وبَطْرَكِيَّة النصارىٰ، وغير ذٰلك .

فأمّا النياباتُ الصِّغار التى فى أعمـال النِّيابات العِظَام : فما كانت نيابتُه إمْرةَ عَشَرة فأكثرَ يولِّى فيه النوّابُ ؛ وربمـا ولّى فيه السلطانُ . وما كانت نيابتُه إمرةَ طبلخاناه فأكثر : يولِّى فيه السلطانُ، ورُبّمـا ولّى فيه النوّابُ . وما كانت نيـابتُه تقدِمةَ ألف، فولايته مختصّة بالسلطان دُونَ النوّاب .

وأما الوظائفُ الديوانيّـــةُ، فمـا كان منها صغيرا ككتابة الدَّرْج وما فى معناها ، فأكثرُ ما يوليها النُّوّاب . وما كان منهـا جليلًا : ككتابه السِّرّ وما فى معناها، ونظَرِ الجيش، ونظَرِ المـال ، فتوليتُه مختصّـة بالسلطان . وما كانَ منها متوسِّطا بين الطَّرَفين : ككتابة الدَّسْت ونحوها : ففى دِمَشْقَ تارةً يولِّى فيها السلطانُ، وتارةً يولِّى فيهـا النائبُ . وفيما دُونَهـا من النيابات غالبُ من يولِّى فيها النُّوّابُ، وقد يولِّى فيها السلطانُ .

وأما الوظائف الدينيّة، فمـا كان منها صغيرًا : كالتداريس الصِّغار، والخَطَابات بالجوامع الصِّغار، وأنظار المَـدَارس والجوامع الصِّغار، ونحو ذٰلك، فإنه يولِّى فيها

النوّابُ ولا يولّى فيها السلطانُ إلا نادرًا . وما كان منها جليلًا : كقضاء القُضاة ، فإنّ توليتَه مختصّة بالسلطان . وما كان منها متوسّطا بين الرتبتين : كقضاء العسكر ، وإفتاء دار العَدْل ، والحِسبة ، ووَكالة بيت المال ، ومَشْيَخة الشيوخ ، ونحو ذٰلك : فتارةً يولّى فيها السلطانُ ، وتارةً يولّى فيها النُّوّاب . إلا أنّ توليةَ السلطان فيها فى النيابات الكِبَار كالشام أكثرُ ، وتوليةَ النوّاب فيها فيما دُونَ ذٰلك أكثرُ .

وأما مشيخةُ الخَوانق فقد يُولّى فيها السلطانُ ، وقد يُولّى فيها النوّابُ : إلا أن توليةَ السلطان فى مَشْيخة الشيوخ بالشام أكثرُ ، وتوليةَ النوّاب فى غير مشْيَخةِ الشيوخ بدِمَشْق وفى غيرها من وظائف الصُّوفية فى غيرِ دمَشْق أكثرُ .

وأما الوظائف العاديّة : كرِيَاسة الطب ونحوها ، ففى جميع النيابات تولِيتُها من النوّاب أكثرُ ، وربّما ولّى فيها السلطان .

وأما وظائفُ زعماء أهل الذمّة : كرِياسة اليهود ، وبَطْرَكيّة النصارىٰ ، فيستبدّ بها النوّابُ دُونَ السلطان : لزيادة حَقَارتها فى الوظيفةِ والبُعْد عن حضرة السلطان .

وقد تقدّم فى الكلام علىٰ ترتيب الممالك بالبلاد الشامية أنه كان بها سبع ممالك عظام ٱستقرّتْ سبع نيابات :

النيابة الأولىٰ

(نيابةُ دِمَشْق ويعبّر عنها بكَفَالة السلطنة بالشام)

ووظائفُها علىٰ نوعين :

النـــــوع الأوّل

(ما هو بحاضرة دِمشــق ، ويشتمِلُ ما يُكتَب به من وظائفها
عن الأبواب السلطانية علىٰ أربعة أصناف)

الصــــنف الأوّل

(أربابُ الســيوف ، وهـــمْ علىٰ طبقات)

الطبقـــــة الأُولىٰ

(مَنْ يكتب له تقليدٌ فى قطع الثلثين بـ«المَقَرّ العـالى» مع الدعاء
بـ«عِزّ الأنصار» : وهو نائب السلطنة بها)

وهذه نسخة تقليد بكَفَالة السلطنة بالشام ، كُتِب به عن السلطان الملكِ العادل «كُتُبُغا» للأمير «سـيف الدِّين غرلو العـادِلى» من إنشاء الشـيخ شهاب الدين محمودٍ الحلبى ، وهو :

الحمدُ لله الذى جعل لسيف دولتنا علىٰ عاتق الملك الأعزّ نِجادًا ، وآدّخر لكَفَالة مملكتنا من الأولياء مَن تَناسبَ وصْفاه آجتهادا فى مصَالح الإسلام وجِهادًا ، وعَدَق أمورَ رعايانا بمن أيْقَظ لها سيْفَه وجَفْنَه فآمتلأتْ عيُونُهم بمـا وهَب وسَلَب من نومه ونَوْمِ العِـدا رُقَادا ، ورفَع ألويَةَ إحساننا علىٰ مَنْ زادَ برفعها ظِلُّ عدْله آنبساطا على الرعية وآمتِـدادا ، ووطَّد قواعدَ ممـالِكنا بمن أجَلْنا الفِكْرَ فى حُسن آختياره آنتقاءً لمصالح الإسـلام وآنتِقَادا ، وأدّى لشُـكْرِ نِعم الله التى لا يؤدّى شـكْرُ بعضها ولو أنَّ ما فى الأرضِ من شجرةٍ أقلامٌ أو كان البحرُ مدَادا .

نحمده على نِعَمِه التى جعلَتْ عزائمَنا على الأبد منْصورَه، ومقاصِدَنا على مصالح المسلمين مقْصُوره، وآراءَنا تفوّض زَعامَةَ(١) الجيوش إلى من تُصْبح فِرَقُ الأعداء بِفَرَقِه مغزوّة وممالكُهم بمهابته محصُوره .

ونشهد أنّ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لاشريكَ له شهادةً لاتَزال تَنْشر دَعوتَها فى الآفاق، ونُرْهِف لإقامتها فى ممالكنا سَيْفا يَصِلُ ما أمَرَ اللهُ بقَطْعه ويَقْطَعُ إلّا الأرزاق ، ونُرهِبُ من ألحدَ فيها بكل ولىّ لرُعْبِه فى القلوب رَكْض ولرايته فى الجوانح خَفْق ولأسنّته فى الصُّدور إشْراق ؛ ونشهد أنّ محمدا عبدُه ورسوله أشرفُ من فَوّضَ حُكْما فى أيّامه إلى من آعتَمَد عليه، وأرأفُ من آستخْلَفَ على من بَعُدَ عنه من أُمَّته مَنْ يعلم أنّ صلاحهم فى يدَيْه، وألطَفُ من عَدَق شيئا من أمور أهل ملّته بمن أعانَه الله وسدّدَه فى دَفْع عدوّهم وصلاح ما يُرْفَع من أحوالهم إليه ؛ صلّى الله عليه وعلى آله وصَحْبه الذين وُلُّوا على الأمّة فعدَلُوا، وأُمِروا بما جبلَه الله عليه من الرأْفة والنِّعمة والرحمة فامتثَلُوا، وعلِمُوا أنّ الحق فيما نَهَج لهم من طُرُق طريقته المُثْلَىٰ فما مالُوا عن ذٰلك ولا عدلُوا ؛ صلاةً لاتَغْرُب شمسُها، ولا يَعزُب أُنْسُها، ولا تُعْتَبر أوقاتُ إقامتها إلا ويُقَصِّر عن يومها فى الكثْرة أمسُها ؛ وسلم تسليما كثيرا .

وبعدُ ، فإن أوْلىٰ ما أعملْنا إليه ركائب الآراء المؤيَّده، وصرفْنا إليه أزِمَّة نجائب الأفكار المسدَّده ، وأجلْنا فيه طِرْفَ النظر الذى لايُشَقُّ فى بلوغ الغاية غُبارُه ولا يُدْرَك ، وأحلْنا الأمرَ فيه على التأييد الذى هو عمدتُنا فيما يؤخَذُ من ثَواقب الآراء وما يُتْرك ؛ وقدّمْنا فيه مُهِمَّ الآستخارة الذى يتلُوه التوفيق ، وعلِمْنا أنّ ألذَّ أسبابِ الآهتداء إليه سلوكُ طريقِ النُّصح لله ولرسوله وللإسلام فسلَكْنا إليه من ذٰلك

(١) فى الأصل «بفرض عامة» وهو تصحيف .

الطريق ؛ وقصَرْنا النيّة فيه على مصالح الأمة التى هى فرضُ العيْن بل عَيْن الفرض، وأطلْنا الارتيادَ فيه لتعيُّن من نرجُو له ممَّن عناهم الله بقوله : ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِى الْأَرْضِ﴾ . وندَبْنا له سيفًا لم يزَل فى صدُور الأعداء صَدْرُه وفى يَد جَبَّار السموات قائمُه، وأردْنا لتقدِمة الجيوش فيه زعيمًا طالمَا ملَّ ضَوءُ الصبح مما يُغبّره وملَّ سوادُ الليل مما يزاحمُه، وقدّمْنا له من نَشَأ فى حَجْر وَلائِنا ، وغُذِّى بلبان بِرِّنا وآلائنا ؛ وشهِدَ الوقائعَ بين يدَيْنا ، وخَبَرْنا من سيرته النُّهُوضَ فى الرعايا بما كَتَبَ الله لهم من الرأْفة والرحمة علينا ــ أمرُ نيابةِ سلطنتنا الشريفة بالممالك الشاميَّة التى نابَتْ فيها مهابَتُنا، عن الإقامة فيها، وجعلَتْها عنايَتُنا، من أشرف ممالِكنا التى نَخُصُّها على البُعْد بدوام الملاحظة ونُصْفيها ؛ وهى واسطةُ عِقْد ممالِكنا ، ومَحطُّ رحال طُرُقنا إلى جهادِ الأعداء ومَسالِكنا، وهالةُ أهِلَّة سَرَى القصد إلى لَحْظها فى أديم الأرض مواقِعُ سَنابِكنا ؛ ومواطنُ القُرُبات التى نصَّت الآثارُ الصحيحةُ عليها ، ومظانُّ العبادات التى طالمَا نَصَّتْ ركائبُ العِبَاد العُبَّاد إليها ؛ ومقامُ الأبدال الذين هم أهلُ دارِ المُقَامه، ومستقرُّ طائفة الدِّينِ الذينَ لا يزالون ظاهرين على أعدائهم لا يَضُرُّهم من خَذَلهم إلى يوم القيامه ؛ وفَلَكُ الثغور الذى تُشْرِقُ منه كواكبُ سعودها ، وتتصرَّف من نوئه إلى مَنْ جاورها من العِدا خاطفاتُ بروقها وقاصفاتُ رُعُودِها ؛ فكَمْ ذى جنودٍ أمَّها فهَلَك وما ملك، وسلك إليها بجيوشه فزلَّت وتزلزلت قدمه حيثُ سلَكْ ؛ ولجيْشها البأسُ الذى وجُودُ الأعداء به عدم ، والحدُّ الذى يعرفه أهلُ السِّياق و[ان] أنكرتْه أعناقهم «فما بالعَهْد من قِدَم» .

وأن نفوض [أمرها] إلى من ينْشُر بها على الأمة لواءَ عدلنا ، ويبسُط فيها بالرأْفة والرَّحْمة رداءَ فَضْلنا ، ويُحيى بها سُنَنَ الإحسان التى مَبْدأُ أيامها غايةُ من سَلَف من قبلنا ؛

ويقيم مَنَـار المُلْك من بَأْسه علىٰ أرفع عِمَاد ، ويُنيم الرعايا من عَدْله فى أَوْطَإ مِهَاد ؛ ويَكُفُّ أَكُفَّ الظُّلم إلىٰ ما يتجاسر[1] إلىٰ إعادة يده إليهـا عادٍ ومَنْ عاد ، ويُجرِّدُ إلىٰ العِـدَا من خَيَاله وخَيْله سرايَا تَطرُدُ عن موارد جفونهم بقوائِمِها الرُّقَاد ؛ وتَسْـتَعيد عَوَارِىَ أرواحهـم من مُسْتَوْدَعَات أجسادِهم فهى بحكم العارِيَّة غيرُ مُسْـتَقِرَّةٍ فى الأجساد ، ويَصُونُ الرُّتَبَ عن تَطرُّقِ مَنْ يُفسِد أحوالها لعدم أهليته : فإنَّه ماسَلَكَ أحَدٌ فى أيامنا طُرُقَ الفَسَاد فَسَاد ؛ ويُعْلَم به أنَّا جَرَّدْنا علىٰ العدَا سـيْفًا يَسْبِقُ إليهـم العَذَل ، ويزاحِمُ علىٰ قَبْض نفوسِهم الأَجَل ، ويَتَحلَّىٰ بتقليده الدُّوَل ، ويُحقِّق بفتكه أنَّه لا حاكِمَ بيننا وبينهم إلَّا السَّيْفُ الذى إن جَارَ فيهم فقد عَدَل .

ولذلك لمـا كان المجلسُ العالى الفلانىّ : هو الذى ٱخْتَرْناه لذلك علىٰ عِلْم ، وقلّدْناه أمور الممالك : لمـا فيه من حِدَّة بأْسٍ وأَناةِ حِلْم ؛ وعَجَمْنا عُودَه فكان لَيِّنًا على الأولياء فَظًّا على العِـدَا ، وبَلَوْنا أَوْصَافَه فعلمنا منه السَّدَادَ الذى لا يَضَعُ به النَّدَىٰ فى مَوْضع السَّيف ولا السَّيْفَ فى مَوْضع النَّدىٰ ، وعرضنا سَدَادَه علىٰ حُسْن ٱعتبارنا للأَكفاء فكان سميرًا (وحِملَ ، فزَيَّنَ مَعْرُوضًا ورَاعَ مُسَدَّدا) ؛ وهَزَزْناه فكان سَيْفًا يُنَصِّل حَدُّهُ الخَطْبَ إذ أعْضَل ، وأعطيناه أمر الجُيُوش فلم يختلف أحَدٌ فى أنَّه أفضـلُ من الأفضل .

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف ــ لازال يَصْطَفِى من الأوليـاء كلَّ كُفْءٍ كريم ــ أن تفوّضَ إليه نيابةُ السَّلْطنة الشريفة بالممالك الشامية : تَفْويضًا يُعْلِى قَدْرَه ، ويبسُطُ فى مصالح الملك والممالك أمْرَه ؛ ويُطْلِقُ فى مصالح الدولة القاهرة سَيْفَه وكَلِمَـه ، ويُدِرُّ علىٰ الأولياء إحسانَنَا الذى إذا جَارَى الغَيْثَ أخجَل دَوَامُه دِيَمَه ؛ ويرفعُ بالعدل

(١) الصواب «حتى لا يتجاسر» الخ .

مَنارَ دوامِ مُلْكنا الذى قرنه الله للأمة بجُودنا ، ويضيف باسترفاع الأدْعِيَة الصالحة لدولتنا من كل لسان جُنُودَ اللَّيل إلىٰ جنودنا ؛ وينظرُ فى أمور الممالك الشامية نَظَرًا عامًّا ، ويُعمِلُ فى سِدَادِ ثغورها وسَدَادِ أمورها رَأْيًا ثاقبًا وفكْرا تامّا ؛ ويأمر النُّوّاب من سدّ خَلَلها بما كفَايتُه أدْرَىٰ به منهم ، وينبِّههُم من مصالحها علىٰ ماظهر لفكره المُصيبِ وخَفِيَ عنهم ؛ ويُلاحظُ أموال ما بَعُـدَ من البلاد كَمُلاحَظَته أموالَ مادَنَا ، وينظرُ فى تَفَاصيل أمورها : فإنّها وإن كانت على السَّداد فليس بها عن حُسْنِ نَظَرِه غِنَىً ؛ ويَسْلُكُ بالرعايا سُنَنَ إنصافه التى وَكَلْته معرفَتُنَا به إليها ، ويُجْرِيهم علىٰ عوائد الإحسان التى كانت من خُلُقه سَجِيّةً وزدناه تَحْرِيضًا عليها .

وهو يعلم أن الله تعالىٰ قد أقامنا من الجهاد فى أعدائه بسُنّته وفَرْضه ، ومكّنَ لنا فى الأرض : لإقامة دعوته وإعلاء كلمته وتطهير أرْضه ؛ وعَضّدَنا بتأييده لنُصْرة الإسـلام ، وأمدّنا من عَدَدِ نصره بكلِّ سَيْف تروّعَ الأعداء به اليَقَظَةُ وتَسُلُّه عليهم الأحلام ، وبثّ سرايا جيوشنا برّا وبحرا : فهى إمّا سَوَارٍ فى البرّ تمرّ مَرَّ السَّحاب أو جَوَارٍ مُنْشَآتٌ فى البَحْر كالأعلام ؛ ويتعاهد أحوال الجيوش الشامية كُلّ يوم بنفسه ، ويعدُهم فى غَده باعادة ما اعتبره من عرضهم فى أمْسه ؛ ويرتب أمْرَ كلِّ إقليم وحَالَه ، ويَتَفَقّدُ مَنْ يباشر بالتقدمة تقدّمه إلى الأطراف وارتحَاله ؛ ويأمرهم كل يوم بالتأهُّب للعَرْض الذى يباشره غدا بين يدَيْنا ، إن شاء الله تعالىٰ .

***

وهذه نسخة تقليد بكَفَالة السلطنة بالشام ، كتب به للأمير « جمال الدين أقُوش الأشرفىّ » فى جمادىٰ الأولىٰ ، سنة إحدىٰ عَشْرَةَ وسبعمائة ، من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبىّ رحمه الله تعالىٰ ، وهى :

الحمــدُ لله الذى جعلَ الدِّينَ فى أيامنا الزَّاهرةِ زَاهيًا بجَمَــاله ، سَاميًا بتقــديم مَنْ إذا أَرْهَفَ فى الذَّبِّ عنه بسيفِ عَزْمه غَدَتِ الجنَّة تحتَ ظِلاله ، حَاليًا بتفويض زَعَامَة جُيُوشِــه إلىٰ مَنْ لو فَاخَرَبه البُدُورَ تعجَّبتْ من نُقْصانها وكماله ، عاليا بإيالة من تتولَّد معانى النصر والظفر بين الكَامِلَيْنِ : من رَوِيَّة رَأْيِه وَٱرتِجَاله ، راقيًا علىٰ هَام الكُفْر بعزائم من لا يزال تُصَبِّحُ مَهَابَتُه العِدَا بطلائع خَيْلِه وتُبَيِّتُهُم بطوارق خَيَاله ، ناميا بإسناد الحكم فيه إلىٰ من يقطع إنْصَافُه بين المُبْطِل ورَجَائه و يَصِلُ العَدْلُ[منه] بين المُحِقِّ و بين آمَالِه .

نحمده علىٰ نِعَمِه التى أنَامَتِ الرَّعايا من مَعْدِلَتِنا فى أوْطَإِ مِهَاد ، وأدامتِ الدُّعَاءَ الصالحَ لأيامنا بإعلاء كَلِمَتَى العَدْلِ والجِهَاد ، وأقامت الإيالة فى أسْنَىٰ ممالِكنا بمَنْ هو أجْرَىٰ من الغُيُوث ، وأجْرأُ من اللُّيُوث ، فى مصالح البلاد والعباد .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً لا تزالُ الألْسُنُ لإقامتها مُدِيمه ، والضمائرُ علىٰ إدامتها مُقِيمه ، والقلوبُ تَعْقِدُ من كَلِمة إخلاصها و إخلاص كلمتها فى جِيدِ الإيمــان تَمِيمَه ، والتوحيــدُ يُظْهِر أنوارَهَا فى الوُجُوه الوســيمه ، بمَأْمَنِ مطالع القلوب السليمه .

ونشهد أن محمدا عبدُه ورسولُه الذى جَبَلَه علىٰ خُلُقٍ عَظِيم ، وجعله وإنْ تأخَّرَ عَصْرُه من مَقَام النبوّة فى أعلىٰ رُتَب التقــديم ؛ ومَنَّ على الأمّة بإرساله إليهــم من أنفسهم وأنه بالمؤمنين رَءُوفٌ رحيم ؛ صلى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه الذين دُعُوا إلىٰ طاعته وأجابوا ، وحكَمُوا بسنته وأصابوا ، وجَاهَدُوا المُعْرِضين عن مِلَّته حتّى رجعوا إلى الهدىٰ وأنابوا ؛ صــلاة لا تغيبُ أنْوَاؤُها ، ولا يُفَارِقُ وجوهَ أهلهــا وقلوبهــم رُوَاؤُها و إرْوَاؤُها ؛ وسلم تسليما كثيرا .

وبعد، فإنه - لما أجرانا اللهُ عليه من عوائد نَصْره، وأغرانا به من حَصْد الشِّرْك وحَصْره؛ ومنحنا من بَسْطَة ملك زُيِّنَتْ بها أسارِيرُ البسيطة وأَسِرَّتُها، ووهبنا من فواتح فتوحٍ عَلَت علىٰ وجوه الكفر مَسَاءَتُها وبَدَتْ علىٰ وجوه الإسلام مَسَرَّتُها - لم نَزَلْ نُؤَدِّى شكر نعم الله بالإحسان إلىٰ عباده، ونَسْتَزِيد منها بتفويض أمورهم إلىٰ من يقومُ فى الذَّبِّ عنهم مقامَ الجَيْش على انفراده؛ فلا نقدّم على الرأفة بخَلْقِ الله أمرا، ولا نُحَابِى فى بَسْطِ المَعْدَلَة عليهم زَيْدًا ولا عَمْرا؛ ولا نعدِلُ بهم عمَّنْ إذا رَكِبَ فى مَوْكِب نيابتنا زَانَهُ وجَمَّلَه، وإذا جلس علىٰ بِساط عَدْلِنا زَادَه وكَمَّلَه؛ وإذا رَسَم أمرنا أصْغَتِ السُّيُوفُ إلىٰ مَرَاسِمِه، وإذا نظر بعَيْنِ عنايتنا ثغرًا أهدَىٰ الشَّنَبَ إلىٰ مَبَاسِمِه؛ وإذا رام فى مصالح الإسلام أمْرًا قرَّب علىٰ رأْيِه بَعِيدُه، وإذا رمىٰ فى حماية الممالك عدوًّا سَبَقَ إلىٰ مقاتله قَبْلَ السيوفِ وَعِيدُه؛ وإذا جرّدَ جيشا إلىٰ أعداء الإسلام جَرَّتْ قبل اللّقاء ذُيُولَ هزائمها، ورَأَتِ الفِرارَ أمْنعَ لها من صَوَارِمها، وتَلَتْ مافى كَنَائِنِها من سِهَامٍ ضَعُفَتْ عن الطَّيَرَانِ قُوَىٰ قوادمها.

ولما كان الجناب العالى الفلانى هو معنىٰ هذه الفرائد، وسِرُّ هذه الأوصاف التى للشِّرْك منها مَصَائِبُ هى عند الإسلام فوائد، وفارسَ هذه الحَلْبة، التى أحرز [قصَبَ] سبقها، وكُفْءَ هذه الرُّتبة، التى أخَذَها دون الأكفاء بِحَقِّها؛ لاتأخذُه فى الحَقِّ لَوْمَةُ لائم، ولا يأخذ أمر الجهاد إلا بجِدِّه «وما ليل المُجِدِّ بنائم» يَسْرِى إلىٰ قلوب الأعداء رُعْبُه وهو فى مَكَانه، وتُؤَدِّى مهابَتُه فى نكاية الكُفْر فَرْضَ الجهاد قبل إمكانه؛ ويَشْفَعُ العَدْلَ فى الرعايا بالإحسان إليهم، ويجمع بين إرهاب المعْتَدِينَ وشِدَّة الوَطْأة عليهم؛ ويقف فى أحكامه مع الشريعة التى أعلى اللهُ تعالى مَنَارَها، ويَسْتَضِىءُ بأحكامها التى هى لأبصار النُّظَّار تُعِير أنوارَها.

وكانت المملكة الشامية المحروسة من الممالك الإسلامية بمنزلة القُوّة فى اليمين ، والواسطة فى العقد الثّمين، والإدراك فى الصُّدور، والإشراق فى البُدُور، وبها الأرضُ المقدّسه، والحُصونُ التى هى علىٰ نكاية الأعداء مؤسّسه، ولها الجيوش التى أَلِفَتْ فى الجهاد السُّرَىٰ ، وأنِفَت لسيوفها فى الجُفُون الكَرَىٰ ؛ ومَرَّتْ علىٰ مَقَاتِل العِدَا أسنَّتُها ، وصُرِّفَتْ فى مَسَالك الحربِ أعِنَّتُهَا ؛ وراعَتْ مُلُوكَ أهلِ الكُفرِ سُمْعَةُ أمرائها، وحاطَتْها أمدادُ النَّصر فى حروبها من بين يدَيْها ومن ورائها؛ وفيها من الأئمة العلماءِ الأعيانِ من يعدِلُ دَمَ الشهداءِ مِدَادُ أقلامهم ، ومن الأتْقياءِ الصُّلَحاءِ مَنْ لا تَطِيش دونَ مقاتل أهل الكفر مواقِعُ سِهَامِهم — ٱقتضت آراؤنا الشريفة أن نُمَتِّعَ هذه الرتبة السنِيَّة بجمالها، وأن نُبَلِّغ هذه الدرجة السريَّةَ بمن حوىٰ هذه الأوصافَ الفاخرةَ غايةَ آمالها؛ ليُصبِحَ بها لِوَاءُ عدلِنا، مَرْفُوعَ الذوائب، ومَنْهَلُ فَضْلِنا، مَدْفُوعَ الشوائب؛ وكلمةُ جهادنا، نافذةً فى المشارق والمغارب، وقبضةُ بَأْسنا، آخذةً من أعداء الدين بالذُّرَا والغَوَارِب، وطليعةُ كتائبنا مؤتَمَّةً بمن تُوقِنُ الطَّيرُ أنَّ فَرِيقَه إذا ما ٱلتقى الجمعَانِ أوّلُ غالب .

فلذٰلك رسم بالأمر الشريف — لازالتْ صوارمُه للشِّرك قامعه، ومراسمُه لمصالح الدين والدنيا جامعه — أن تفوّضَ إليه تفويضًا يرفع عَلَمَه ، ويُمْضِى فى مصالح الإسلام سَيْفَه وقَلَمَه؛ ويَنْشُرُ فى آفاق الممالك الشاميـة عَدْلَه ، ويبسُطُ علىٰ رَعَايا تلك الأقاليم المحروسةِ فَضْلَهُ وظِلَّه؛ فيَطْلُع فى أُفُقِ المواكب هَالَةَ أهلّتها ، وطِرَازَ حُلّتها ؛ وطَلْعة لوائها ، وواسطةَ عقودِ مقدّمها وآرائها؛ وزينةَ تسييرها ووقوفها، وحِلْيَةَ طلائعها وصُفُوفها؛ ويَجْلِسُ فى مواطن الجلوس صَادعًا بالحق فى حكمه ، آمرًا بإدامة التأنيب للعدو فى أيام سِلْمِه؛ مُعْطيا مَنْصِبَ النيابة الشريفة حَقَّه من الجلاله، مُوفِيًا رُتْبَتَها المنيفةَ مايجب لها من أُبَّهَة المهابة وكفاءة الكَفَالَه؛ ولا يزالُ

لمصالح الجيوش المنصورة مُلَاحِظًا ،وعلىٰ إزَاحة أعذارهم مُحَافظا ، وإلىٰ حركات عَدُوّ الإسلام وسَكَنَاته مُتَطَلِّعا ، وإلىٰ مايتعين من إبطال مكايده متسرِّعا ، ولِبَوَاطِن أحوالهم بحسن الاطلاع مُحَقِّقا ، ولجموعهم بِمن الاجتماع للقائهم مُفَرِّقا ، فلا يُضمِرُونَ مَكِيدَةً إلّا وعلْمُها عنده قبل ظهورها لديهم ، ولا يُسِرُّون غارة إلا ورَايَـاتُ خَيْـلِه المُغِيرَة أسبقُ منها إليهم .

ولْيَكُن لِمَنَار الشَّرع الشريف مُعْلِيا ، ولأقدار أربابه مُغْلِيا ، ولرُتَب العلماء رافعا ، ولأقوالهم فى الأحكام الشرعية سَامعا ، ولِذَوِى البيوتُ القديمة مُكْرِما ، ولأهل الوَرَع والصَّلاح مُعَظِّما ، وعلىٰ يَد الظالم ضَارِبا ، وفى اقتناء الأدعية الصَّالحة لدولتنا القاهرة رَاغِبا ، وبجميل النَّظَر فى عِمَارة البلاد مُدِيمـا ، وبحُسْن الفِكر فى أمور الأموال مُعْمِلًا رَأْيًا بمصالحها عليا ، ولجهات البِرّ بجليل العناية والإعانة عامرا ، وعن كُلِّ مالا يَجِبُ اعتمادُه ناهيا وبكل مايتعين فعلُه آمرا . وفى كَمَال خِلَاله ، وأَدَوَات جَمَاله ، مايُغْنِى عن الوصـايا إلّا علىٰ سبيل الذِّكرىٰ التى تنفع المؤمنين ، وتَرْفَع المتقين ، ومِلَاكُها تقوى الله تعالىٰ وهى من خصائص نَفْسه الكريمه ، وعوائد سِيرَته الحديثة والقديمه ، والله تعالىٰ يُسَدِّدُه فى القول والعَمَل ، ويُؤَيِّده وقد فعل ، إن شاء الله تعالىٰ .



وهذه نسخة تقليد بكَفَالة السلطنة بالشام ، كتب بها للأمير «سيف الدين تنكز الناصرى» فى ربيع الأوّل سنة اثْنَتَىْ عَشْرَةَ وسبعمائة ، من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحَلَبِى ، وهى :

الحمد لله مُفَوِّض أسْنَى الممـالك فى أيامنا الزاهرة إلىٰ مَنْ تَزْهُو بتقليده ، ومُشَـيِّد قواعد أسْمَى الاقاليم فى دولتنا القاهرة بمَنْ يعلو بإيالتـه ما يُلْقَىٰ إليه مَعَاقِدُ مَقَالِيده ،

ومُسَدِّدِ الآراء فى تصريف أَعِنَّة جيوشنا المنصورة بتقديم مَنْ تَغْدُو سيوفُه من عُنق كُلّ مُتَوَّج من العِـدا قلَادَةَ جِيدِه ، وناشرِ لِوَاءِ العَدْل فى رعايانا وإن بَعُـدُوا بمن تُنيم كلًّا منهم فى مَهْـد الأمْنِ والدَّعَةِ يَدُ مَهَابَتِه وتمهيـده ، ومُعْلِي مَنَـار الجهاد فى سبيله بمَنْ إذا جرّد سَيْفَه فى وغًى تَهَلَّتْ نَوَاجِذُ أفواه المنايا الضواحِك بين تَجْرِبِته وتجـــريده .

نحمده علىٰ نِعَـمه التى أيَّدَت آراءَنَا بوضْعِ كلّ شَىْءٍ فى مُسْتَحِقّه ، وقلَّدت سَيْفَ النَّصرِ من أوليائنا مَنْ يأخذه فى مصالح الإسلام بحَقّه ، وجدّدت آلاءنا لمن إذا جارت الحُتُوفُ سُيُوفَه إلىٰ مقاتل العِدا فاتها وفاقها بمَزِيَّتَىْ كِفَايَتِه وسَبْقِه .

ونشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له شهـادةً لا تَزَالُ ألْسِنَتُنا تَرفع مَنَارَها ، وسُيُوفُنا تصلى من جَحَدها قبلُ نارَها ، وآراؤُنا تُفَوِّض مصالحَ جُمْلَتِها إلىٰ مَنْ إذا رَجَتْه لِنُصْرَةٍ أنالهـا وإذا أَسْدَىٰ مَعْدِلَةً أنارها .

ونشهد أنَّ محمدا عبـده ورسوله الذى أيَّده الله بنَصْره ، وجعله سابق مَنْ تقـدّم من الرُّسُل علىٰ عَصْره ، وآتاه من الفضائل ما يَضِـيقُ النُّطقُ عن إحصائه ومن المعجزات ما يَحُولُ الحَصَرُ دون حَصْره ، صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه الذين تمسَّكُوا بهُـدَاه ، وهجروا فى طاعته مَنْ عاداه ، ونَهَضُوا فى رضا الله تعـالىٰ ورضاه إلىٰ مظَانِّ الجهاد وإن بَعُـدَ مَدَاه ، صلاة يشْفَعُها التسليم ، ونَبْتغِى إقامتَها عنـد الله واللهُ عنده أجْرٌ عظيم ، وسلم تسليما كثيرا .

أما بعـد ، فإنّ أولىٰ ما أَعْمَلْنا فى مَصَالِحه الفِكَرَ ، وتَدَبَّرنا أحواله بكل رأْيٍ يُسَدِّده الحَزْم المُرَوَّىٰ ويؤيده الإلهَـامُ المُبْتَكَر ، وقدّمنا فيه الاستخارةَ علىٰ ما جَزَم اليَقينُ بأنّ الخِيرَةَ للإسلام والمسلمين فى اعتماده ، وتَمَسَّكْنا فيه بحَبْل التوفيق الّذى مازال تَكَفَّل

لنا فى كُلّ أمْرٍ بسَدَاده وفى كُلّ ثَغرٍ بسِدَاده ـ أمرُ الممالك الشامية التى هى وَاسِطَةُ عِقْد الممالك، ومُجْتمَع ما يُفضِى إلىٰ مواطن النّصْر من المسالك؛ ومَرْكَزُ فَلَك الأقاليم الذى تَنْتَظِمُ عليه بُرُوجُ ثُغُورِها ، ونُقْطةُ دائرة الحُصُون التى منها مادّتُها وعليها مَدَارُ أمورِها ؛ وغِيلُ لُيُوثِ الحرب التى كم أَنْشَبت أظفارَ أسِنَّتِها فى طُرّة ظَفَر ، ومَوَاطِنُ فُرْسان الوَغَى التى كَمْ أسفَرَعن إطلاقِ أعِنَّتها إلىٰ غايات النَّصْروجْهُ سَفَر ؛ وأن نَرْتَادَ لكَفَالة أمورها، وكِفَاية جُمْهُورِها ، وحمايةِ مَعَاقلها المَصُونة وثُغُورها؛ وزَعَامة جُيُوشها ، وإرْغَامِ طَارِقى أطرافها من أعداء الدين وثَلِّ عُرُوشِها ، مَنْ جَرَّده الدِّينُ فكان سَيْفًا علىٰ أعدائه ، وٱنتقاه حُسْنُ نَظَرِنا للسلمين فكان التوفيقُ الإلٰهىُّ مُتَوَلِّىَ جميل ٱنتقاده وٱنتقائه ؛ وعَجَمْنَا عُودَ أوصافه فوجدْناه قَوِيًّا فى دِينه، مُتَمَكِّنًا فى طاعته بإخلاص تَقْوَاه وصِحّة يَقِينه؛ متيقِّظا لمصالح الإسلام والمسلمين فى حالَتَىْ حَرَكَته وسُكُونه ، آخذًا عِنَانَ الحَزْم بيُسْر يُسْرَاه وسِنَانَ العَزْم بيُمْنِ يَمِينه؛ وَاقِفًا مع الحق لذاته ، مقدِّما مَشَاقَّ الجهاد علىٰ سائر مآربه ولَذَّاته ؛ مَاضِيًا كَسَيْفِه إلّا أنه [لا] يألف كالسيف الجُفُون ، رَاضِيًا فى رَاحة الآخرة بمتاعبِ الدُّنيا ومصاعبها فلا يَرْعىٰ فى مَوَاطِن الجهاد إذا حَلّها أَكْنَافَ الهُوَيْنا ولا رَوْضَ الهُدُون ، مَانِعًا حِمَى الإسلام لا "حِمَى الوَقْبَىٰ بِضَرْبٍ" يُفَرِّقُ بين أسباب الحياة و "يُؤَلِّف بين أشْتَاتِ المَنُون" .

ولمّا كان فلان هو الذى تشوّفت هذه الرتبة إلىٰ أن تَجَمَّل به مواكبُها، وتَكمل به مَرَاتِبُها، وتَنْتَظِم علىٰ دَسْته هَالَةُ أمرائها كما تنتظم علىٰ هالة بَدْرِ السماء كَوَاكِبُها ؛ فإذا طلع فى أُفُقِ مَوْكِبٍ أَعْشَت الأعداءَ جَلالَتُه ، وأعْدَت الأولياءَ بَسَالَتُه ؛ وسَرَىٰ إلىٰ قُلُوب أهل الكُفر رُعْبُه ، وفعل فيهم سِلْمُه مايفعلُ من غيره حَرْبُه ؛ وإذا جلس علىٰ بِسَاطِ عَدْلٍ خَرِسَ الباطل ، وأنجز مافى ذِمّته المَاطِل ؛ وتكلّم الحقُّ بمِلْء فيه ، وتبرا الباطل حتّى ممّن يُسِرُّه ويُخْفيه ؛ وإن نَظَر فى مصالح البلاد أعان الغَيْثَ علىٰ

رَبِّها برِفْقه ، وأعاد رَوْنَق عمـارتها بكَفّ أكُفّ الظلم ووصول كلّ ذى حَقّ إلىٰ حَقّه ـ اقتضت آراؤنا الشريفة أن تجعل فُنون أفنانه بيُمْـن إيالته دانيةَ القُطوف ، وأن نُصيِّر جَنّتها تحت ظِلَال سَيْفه : فإن «الجنة تحتَ ظِلَال السُّيوف» .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف ـ لازال زَمَنُ عَصْره ، مؤرِّخًا بالفُتُوح ، وسَيْفُ نَصْره ، علىٰ من كفَر دَعْوَةَ نُوح ـ أن تفوّض إليه نيابةُ السلطنة الشريفة بالشام المحروس : تَفْويضًا يُحْسنُ به المَنَـابَ فى تلك الممـالك عنّا ، ويَنْشُرُ فيها من العَدْل والإحسان ما يُلقّاه منّا ؛ ويُلْبِسُها من حُلَل المَهَابة مايُضَاعِفُ به أَمْنَ سِرْبها ، وتُصْبحُ به السُّيوف المجرّدةُ أَحْفَظ لها من قُرْبها ؛ ويطلُعُ فى أُفُق مواكبها الجليلة طُلُوعَ الشَّمس التى يعمّ نَفْعُها ، ويُعْشِى النَّوَاظرَ لَمْعُها ؛ ويجلسُ فى دَسْتِ نيابَتنا حاكمًا فيهـا بأمرنا ، جازمًا بحُكْم الشرع الشريف الذى قد علِمَ أنه حِلْيَـةُ سِرّنا وجَهْرنا ؛ نَاشرًا من مَهَابَة المُلْك ما تَرْجُفُ له القلوب من العِدا ، وتُصبِّحُهم به سَرَايا رُعْبِه علىٰ بُعْد المَدَى ؛ مُلْزمًا مَنْ قِبَـلَه من الجيوش المنصورة بمُضَاعَفَة إعْداد القُوّه ، وإدامة التأَهُّب الذى لاتبرح بسُمْعته بِلَادُ أهلِ الكُفْر مَغْزُوّه ؛ مُطّلِعا علىٰ أحوال العدا بلُطْف مقاصده ، ونِكَاية مَكَايِده ، وحُسْن مصادره فى التدبير ومَوَارِده ؛ فلا يُبْرِمُون أمْرًا إلا وقد سَبَقَهم إلىٰ نَقْض مُبْرَمه ، ولا يقدِّمون رِجْلًا إلا وقد أخَّرَها بوَثَبَاتِ إِقْدامه وثَبَاتِ قَدَمه . ولْيعظِّم مَنَـارَ الشرع الشريف بتكريم حُكَّامه ، والوُقُوف مع أحكامه ؛ ويرفَعْ أقدارَ حَمَلَة العلم بترفيه أسرارهم ، وتسهيل مَآرِبِهـم وأوطارِهم ؛ وليَعُمَّ الرعايا بعَـدْله وإنْصافه ، ويسترفِعْ لنا أدْعِيَـةَ الأولياء والصُّلَحَاء بإسْعَاده وإسعَافه . وفى خصائص أوصافه الكريمه ، وسَجَايَاهُ التى هى لمصالح الإسلام مُسْـتَدِيمَه ؛ ما يُغْنِى عن تَشَدُّدٍ فى القول والعمل ، والله تعـالىٰ يؤيده وقد فعل ، ويجعله من أوليائه المتقين وقد جعل ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

* * *

وهذه نسخة تقليد بكفالة السلطنة بالشام، كتب به للأمير «يلبغا الكاملىّ» بعد نيابته بحلَب وحَمَاة، من إنشاء المقرّ الشِّهابىّ بن فضل الله ، وهى :

الحمد لله مُجْرِى الأقدار ، برفْعَة الأقدار ، ومُثْرِى آمالِ مَنْ حَسُنَتْ له فى خدمتنا الآثار، بمَواهبِ العطايا والإيثار، ومُمْرِى غُرُوسِ نِعَمِ أوليائنا التى رَعَىٰ عَهْدَها عِهَادُ سُحُبِ جُودِنَا الغِزار، جَاعِلِ أصفياء مملكتنا الشريفة كُلَّ حين فى آزدياد، ومانح المخلصين فى خدمتنا مَزِيدَ الإسعاف والإسعاد، وفاتح أبواب التأبيد بسيوف أنصارنا التى لا تَهْجَعُ فى الأغْمَاد .

نحمده على مواهب نَصْره ، ونشكره علىٰ إدراك المآرب من جُوده الذى يَعْجِزُ لسانُ القلم عن حَصْره ، ونشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له شهادةً تؤيد قائلها فى مَوَاقفه، وتجمعُ له من خَيْرِ الدُّنيا بين تَالِده وطَارِفه؛ ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذى هَدَى اللهُ به هـذه الأمةَ من الضَّلَال، وفَضَّل به المجاهدين حيثُ جعل الجَنَّةَ تحت ما لِسُيُوفهم من ظِلَال . صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه صلاةً لا آنفصامَ لعُرْوَتها ولا آنفصال، ولا آنقضاءَ لأسبابها ولا زَوَال؛ وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد، فإن أَوْلىٰ مَن آنْتُدِبَ لحِفْظ ممالك الإسلام، وأُتُمِنَ علىٰ صَوْنها بعَزْمِه الذى لا يُسَامىٰ ولا يُسَام؛ وأُسْنِد إليه من أمور الرعايا بأجَلِّ الممالك ما يَقْضِى بمَزِيد التكريم ، وآعْتُمِد علىٰ صِيَانته ودِيَانَته لَمَّا شَهِد الآختبارُ بأنه أهْلٌ للتقديم؛ وجَرَّبَت الدول مُخَالَصَتَه ، وتُحُقِّقَ آهتمامُه الذى بلَّغَه من العِزّ غَايَتَه؛ وأَثْنَتْ علىٰ حُسْن سِيرَته وسَرِيرَته سوابقُ خِدَمه ، وشُكِرَ آهتمامُه فى المخالصة التى أعْرَبَتْ عن عزمه؛ ففاق أشْبَاهًا وأنْظَارا ، وكَفَلَ الممالك الشريفة الحَلَبِيَّةَ والحَمَوِيَّةَ فأيدها أعوانا وأنصارا؛

وبسط فيها من العَدْل والإنصاف ما أعلى له شأنا ورَفَعَ له مِقْدارا ، وسلك فيها مَسْلَكًا شَنَّفَ أسماعا وشرَّف أبصارا .

ولما كان المقر الكريم (إلى آخره) هو صاحبَ هذه المناقب ، وفارسَ هذه المَقَانب ، ونيِّرَ هذه الكواكب ، كم أبهج النفوس بمَآلِهِ من عَزْمٍ مشكور ، وحزم مأثور ، ووصف بالجميل موفور .

فلذلك رسم بالأمر الشريف ــ لازال لسيف أوليائه مُرْهِفًا ، ولا بَرِحَ لأخصائه مُسْعِدًا ومُسْعِفا ــ أن تفوض إلى المشار إليه نيابةُ السلطنة الشريفة بالشام المحروس ، على أجمل عوائد من تقدّمه فى ذلك وأكمل قواعده . فليتناولْ هذا التقليد الشريف بيدٍ لم يَزَلْ لها فى الوَلاءِ البَاعُ المديدُ الطويل ، ويتلقَّ هذا الإحسانَ بالشُّكْر الذى هو بدوام النعمة خَيْرُ كفيل ، ويضاعفْ ماهو عليه من آهتمام لم يزل منه مألوفا ، وآعتزام إذا لاقَى غَيْرُه مُهِمًّا واحدًا لاقَى هو أُلُوفا ، ويُمْعِن النظرَ فى مصالح هذه المملكة الشامية المحروسة ، ويعتمدْ من حُسن تدبيره ما تغدو رُبُوعُها بحسن ملاحظته عامِرَةً مأنوسه . وهو يعلم أن العَدْلَ من شِيَمِ دولتنا الشريفه ، وسَجِيَّةِ أيامِنَا التى هِىَ على هَامِ الجَوْزَاء مُنِيفَه ، فليسلك سَنَنَه ، ويتبع فَرْضَه وسُنَنَه ، ويعلمْ أنَّ عدل سَنَةٍ خيرٌ من عبادة ستين سَنَه ، ولينشُرْ على الرعايا مَلَابِسَه الحَسَنَه ، ويعظِّمِ الشَّرعَ الشريفَ وحُكَّامه ، ويُعَيِّنِ الإقطاعات لمن يستحقها من الأيتام أو يوجبُ الاستحقاق إكْرَامَه ، والله تعالى يجعل السَّعْد خَلْفه وأمامه ، ويؤيِّدُه تأييدًا يُبَلِّغُه مُرَادَه من النَّصْر ومَرَامَه ، إن شاء الله تعالى .

وهذه نسخة تقليد بكفالة السلطنة بالشام :

الحمد لله الذى طَهَّرَ الشَّامَ وقَدَّسَه ، وصَانَه وحَرَسَه ، وجعل لسلطاننا فيه قواعدَ بالنَّصر مُؤَسَّسه ، وأنوارا للهُدىٰ مقتَبَسه ، وكَفَلَه بمن إذا صَفَّ له العدوُّ آفترسه ، وأَذَلَّه وأَرْكَسَه ، وأرغم مَعْطسَه ، وقَطَفَ بسَيْفه أَرْؤُسَه ، ومَنْ يُعْطَى النَّصرَ إذا آمْتطىٰ فَرَسَه ، ومن كَرَّم الله نَفْسَه ، وكَثَّر أُنْسَه ، وعَطَّر نَفَسَه ، ومن يُنْصِفُ المظلومَ من ظالمه ويبلِّغ السائلَ مُلْتَمَسه ، ومن لَبِس ثوبَ العفاف والتُّقىٰ فكان خيرَ ثَوْبٍ لَبِسَه .

نحمده علىٰ أَصْلِ جُودٍ غَرَسَه ، وعارِضِ سَوْءٍ حَبَسَه ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريكَ له شهادةً أزالت الشِّرْكَ ومَحَتْ نَجَسَه ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذى أنبع الله من أصابعه عَيْناً مُنْبَجِسَه ، وآخْضَرَّ العُودُ اليابسُ لَمَّا لَمَسَه ، وأضعف الوساوِس المُخْتَلَسه ، وآنتزعَ الحَقَّ ممن بَخَسَه ، وحماه الله من الشيطان لما وُلِدَ فما نَخَسَه ، ونَوَّرَ القَلْبَ الذى خيم عليه الضلالُ وطَمَسَه ، وكان الشِّرْكُ قد انْبَثَّ فى الأرض فطواه دينُه وكَبَسَه ، ومحاه ودَرَسَه ، وجاء بالقرءان فطُوبىٰ لمن تلاه ودَرَسه ، وأنزل عليه : ﴿وَٱعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلّٰهِ خُمُسَهُ﴾ صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه ما أولَجَ اللهُ اللَّيلَ فى النهار وغَمَسَه ، وميَّز بنصف العدد من الثلث سُدُسَه ، وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد ، فإن الشَّامَ هو عِقْدُ النِّظَام ، وأَجَلُّ ممالك الإسلام ، ومَعْدِنُ النَّصر الذى بُرُوقه تُشَام ، ومُسْتَقَرّ البركات الوِسَام ؛ وعَسْكَرُه أفضلُ عَسْكَرٍ فى حسن الآعتزاء والآعتزام ، لا يَرْهَبُون الحِمَام ، ويخوضون لُجَجَ المَنُون بالحُسَام ؛ ونيابةُ السلطنة الشريفة به من أَجَلِّ النيابات مقدارا ، وأكرمها آثارا ، وأعَزِّها أنصارا ؛

إذ هو تلقّاء أوامرنا الشريفة المنطوية عليها أسرارُ البَريد، ومن عنده تتفرّع المهمات للقريب والبعيد ، وعنه يَصْدُرُ البريد، وإليه يَرِدُ بكل ثناء جديد ، ومنه يأتى إلىٰ مسامعنا الشريفة بما نُريد ، فلا يَحُلُّ دارَ سعادتها إلا من هو منصورٌ سعيد ، وذُو رأْيٍ سديد، وحزم حديد ، وقد آخترنا لها بحمد الله كُفْأَها المعيد .

ولما كان فلان هو الضّارِىَ علىٰ العدا، وٱلغَيْثَ المتوالِىَ النّدىٰ ، والهمامَ الذى جَرّد سيفَ عَزْمِه أبدا فلا يُرَىٰ مُغْمَدا، وٱتّصَفَ بحسن الصفات فما سَادَ سُدَىٰ ؛ قد تجملت الممالك بآرائه ورَاياته ، وثَبَاته ووَثَبَاته ، ورَوْض تَدْبيره وطِيب نَبَاته ، وحُسْنِ ٱعتماده فى خدمة مُلْكنا الشريف ومهمّاته ؛ إن ذُكِرَت المُوَالاة الصادقة كان رَاوِىَ مُسْنَدِها ، وحَاوِىَ جَيِّدِها ، والآوى إلىٰ ظِلِّها المَديد وطيب مَوْرِدها ؛ وإن ذُكِرَت الشجاعةُ كان زعيمَ كَتَائِبها ، ومَظْهَرَ عجائبها، ولَيْثَ مَضَارِبها، ومُجَرِّد قَوَاضِبِها ، وفارسَ جَنَائِبها ، ومُطْلِبَ أطلابها ومُنْجِحَ مَطَالِبها ، ومُجَلِّىَ غَيَاهِبِها — اقتضى حُسْنُ الرأْيِ الشريف أن يُعقَد عليه لواء الاحتشام ، فى الشام؛ وأن يُخَصّ بالبركات، المُخَلِّصَة من الدّرَكَات .

فلذلك رسم بالأمر الشريف أن تفوّض إليه نيابة السلطنة الشريفة بالشام المحروس، علىٰ عادة من تقدّمه وقاعدته ، وأن يكونَ داخلا فى نيابته الشريفة ما هو مضافٌ إلى الشام المحروس : من مَمَالِكَ وقِلَاع ، ومُدُنٍ وضِياع، وثُغُورٍ ومَوَانِى ، وسَوَاحِلَ فى أَقَاصٍ وأدانى ؛ تفويضا ٱتّسَقَتْ دُرَرُه ، وأشرقت غُرَرُه ، وتُلِيَتْ آياتُه وسُوَرُه .

فلْيُمَهِّد بالعدل أَكْنَافَ البلاد ، ولْينظُرْ بعين الرعاية والسَّدَاد ؛ ولْيَنْشُرْ لواء الإنصاف، لتكون الأمّة تحت ظلّه الضّافى وإليه الحقّ مضاف. ولْيُدِرّ الأرزاق

من الأخلاف ، وليأمرْ بإقامة الحدود علىٰ شارب السُّلَاف ، وعلى السارقين بالقطع من خِلَاف ؛ وليَسْتَرْهِف عزائمَ العَسَاكِر المنصورة فى القتَال والجهاد ، وليأخُذْهم بحسن الاستعداد ، وليَعْرِف للأمراء منازلَهم : فإنهم أركانٌ وأعضاد ، وأنصارٌ وأمْجَاد، وأولياءُ دَوْلَتِنا الشريفة المَاحُونَ للفَسَاد، وممَّن تتجمل بهم المَوَاكِب وتتَفَطَّر بهم للعدا الأكباد ؛ والله اللهَ فى الشَّرع الشريف وإقامة مَنَاره ، وتنفيذ كَلِمَة أحكامه وإزَالَة أعذاره؛ والتَّقْوىٰ فهى أفضل شِعَاره، وقُرَّةُ أبصاره؛ والوصايا فمنه يُشْرِقُ هِلَالُهَا إلىٰ أن يَتِمَّ فى إبداره، ويتكَمَّل بأنواره ، وهو غَنِيٌّ عن إكثاره . فخذْ تقليدَنا هذا باليمين ، وآلْبَسْ من هذا التفويض المَلْبَسَ الأسْنَى الثمين ؛ وأخْبَارَ البريد المنصور فلا تَقْطَعْها عنا، فمنه إلينا تَرِدُ أخبارُ البريد وإليه تَرِدُ المهماتُ منّا، والله تعالىٰ يخوّله كُلَّ يوم من إحساننا فى الزيادة والحُسنىٰ؛ والخط الشريف أعلاه.

الطبقة الثانية

(مَن يُكتب له تقليدٌ شريفٌ فى قَطْع النصف بـ«المجلس العالى»
وهو الوزير من أرباب السيوف، وهو بالمملكة الشامية
علىٰ حدّ الوزير بالديار المصرية)

وهذه نسخة مرسوم من ذلك :

الحمد لله مُسَدِّدِ سهام الاختيار، ومُسَيِّرِ الأولياء إلىٰ منازل العَلْياء مَسيرَ الأهِلَّة إلىٰ منازل الإبْدَار، الذى جدّدَ نِعَما ، وعدّد كَرَما، وعَلِم مَوَاقِعَ الاضطرار، إلىٰ مَوَاقِع الأوزار، فأرسل إليها مَنْ تستهلُّ آراؤه دِيَما .

نحمده حمدا كثيرا ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له لم يَتَّخِذْ صاحبا ولا وزيرا؛ ونصلِّى علىٰ سيدنا محمد الذى عَمَّر الله به البلاد تَعْميرا، وأحسن بالعَدْل

تقريرا ؛ صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين ظاهَرُوه بالسيوف والأقلام كاتبا وأميرا ؛ صلاةً لا ينقطع تَوَاليها، ولا تزال الآفاق تَتَنَاقلُها وتَسْتَمْليها .

وبعد، فانَّ أولى من عَظُم شانُه، وكَرُم مكانُه، وثبت إمكانُه، وأُنبِتَ فى مَنابِت الرماح قلمُه الذى هو ترجمانه، وبُسِطَتْ فى تشييد الممالك يَدُه وأُطلِق لِسَانُه ــ من كان علَامة العِلْم، وغَدَا بالنشاط فى كِبَرِه فَتِيَّ السِّنِّ كَهْلَ الحِلْم؛ الذى فاق جلالةً ونَسَبا، واستعلى هِمَّةً وأدبا، وعُرِف بالديانة التى طار صيتُها فى الآفاق شرقا ومغربا؛ والهِمَّةِ التى سواء عليها أَحَمَلت قلمًا أم انتضت قُضُبا .

ولما كنتَ أيُّها المجلس الفلانى ــ أدام الله تأييدَك، وتسديدَك وتمهيدَك؛ وكَبَتَ حَسُودَك، وضاعف صُعُودَك ــ أنتَ المَعْنِىَّ بهذه المآثر، المَنَضَّدَةَ عليك هذه الجواهر، الدالةَ على مناقبك هذه المَفَاخِر؛ الذى وجَدْناك على الانتقاد تزيد استخلاصا، وتعلُو على السَّبْك خَلَاصا .

فلذلك خرج الأمر الشريف أن تُوَزِّر، وتُمْضِىَ مواردُ آرائك لتُستغزَر؛ ويكونَ لك الحكم فى المملكة الشامية عموما، وتتَصَرَّف فى معاملاتها مجهولا ومعلوما؛ على أكمل قواعد الوزراء وأتمها، وأجلها وأعمِّها؛ متصرِّفا فى الكثير والقليل، والحقير والجليل؛ تعزل وتُوَلِّى مَنْ شِئت، وتكْفِى وتَسْتَكْفِى من ارتضيت . ونحن نُوصيك بالرِّفْق الذى هو أخْلَق، والعدل الذى تُسْتَدَرُّ به سُحُب الأموال وتُستَغْدَق؛ والحقِّ فإن كل القضايا به تتعلَّق، ويُمْنِ السياسة فإن الرِّياسةَ بها تكمل وتُغْدَق؛ وإيَّاك والغرضَ الذى هو يَهْوِى بصاحبه، ويُرْدِيه فى عواقبه؛ واتَّقِ اللهَ الذى لا تتم الصالحات إلا بتقواه، واحذر أن تكون مع من ضلَّ سبيلَه واتبع هواه؛ واللهُ تعالى يُنْجِحُ رجاءَك ويُوَضِّح منهجك، ويُعْلِى دَرَجك، ويلقِّنك إذا خاصمت واختصمت حُجَجَك؛ إن شاء الله تعالى .

الطبقة الثالثـــــة

(من يُكْتَبُ له مرسومٌ شريف، وهى علىٰ مرتبتين)

المرتبـــــة الأولىٰ

(من يُكْتَبُ له فى قطع النصف وهو نائب قَلْعة دِمَشْق)

إن كان مقدَّم ألف كما كان أوّلا ، كتب له بـ « المجلس العالى » . أو طبلخاناه كما هو الآن ، كتب له بـ « السامى » بغير ياء ؛ وبالجملة فإنه يكتب له مفتتحا بـ « الحمد لله » .

وهذه نسخة مَرْسوم شريف بنيابة قَلْعة دِمَشْق المحروسة، من إنشاء المقرّ الشّهابىّ ابن فضل الله رحمه الله، وهى :

الحمد لله مُشَرِّف القِلَاع ، ومُصَرِّف رجالها فى الامتناع ، ومُعَرِّف من جادَلَها أنّ الشَّمْس عاليةُ الارتفاع .

نحمَدُه حمْدًا يُشَنِّف الأسماع ، ويُشَرِّف الإجماع ، ويُحَلِّق فى صُعُوده الملائكةُ أُولِى أَجْنِحَةٍ مَثْنَىٰ وثُلَاثَ وَرُبَاع ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً نرجو بها لمَا بَقِى من قلَاع الكُفْر الاقْتِلاع ، واسْتِعَادةَ ما قَرّ معهم من قُرًى وضَاعَ من ضِيَاع ؛ ونشهد أن سيدنا محمدا عبدُه ورسولُه الذى حَمىٰ به دِرّة الإسلام من الارْتِضَاع ، وصَانَ به حَوْزَةَ الحق أن تُضاع ، صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه صلاةً دائمةً ما أُسْبِلَ للّيل ذَيْلٌ وامْتَدّ للشَّمْس شُعَاع ؛ وسلم تسليما كثيرا .

وبعد ، فإن الحُصُونَ حواضِرُ كالبِلَاد، وحَوَاضِنَ تَضُمُّ بقاياها ضَمّ الأمّهَاتِ للأولاد ؛ ومَعَاقِلَ يُرْجَعُ إليها إذا نابَتِ النُّوبُ الشّدَاد ، ومَعَاقِد يعتصم من منَعَتِها بجبال ويتمسك بأطواد؛ وقلعةُ دمَشْق المحروسةِ هى التى تفتخر بقايا البِقَاع[1] بالاتّصال

(١) لعله القلاع .

بسببها، والتمسك في الشدائد بذيل حسبها، لا يهتدى في السلم والحرب إلا بمنارها، ولا يقتدى في التسليم والامتناع إلا بآثارها، ولا يستقى إلا بما يفيض على السحب من فيض أمطارها، قد ترجلت لتبارز، وتقدمت لتناهز، ودلت بقواها فما احتجبت من سجوف الجبل بحجاب ولا احتجزت من الغمام بحاجز، بل ألقت إلى قرار الماء حجلها، وأثبتت في مستنقع الموت رجلها، وكشفت للحرب العوان قناعها، وأشعلت أبنيتها من الذهب شعاعها، وأشغلت أفنيتها البروق أن تطاول باعها، أو تحاول ارتفاعها، قد جاورت قبتها الزرقاء أختها السماء، وجاوزت بروجها منطقة البروج اعتلاء، وهى معقل الإسلام يوم فزعهم، وأمن قلوبهم أعاذها الله من جزعهم، وقد نزل العدو عليها ونازلها زمانا بجموعه وأعانه عليه قوم آخرون، وأقدموا وتقدموا وهم متأخرون، وطاولوها فكانت حسرة عليهم، ونكالا لما خلفهم ومابين يديهم، وثبت الله بها أقدام بقية القلاع، وقوى بعزائمها إقدام من فيها على الامتناع، وقلعة الجبل المحروسة وإياها كالأختين، وهى لها ثانية اثنين، وكلتاهما لكرسى ملكنا الشريف منزل سعيد، ومتنزه يود صفيح الأفلاك لو ترامى إليه من مكان بعيد.

فلما رسمنا بنقل من كان في النيابة الشريفة بها في منازلها من مكان إلى مكان، وقدمناه أمامها كما يهتز في قادمة الرمح السنان، واتخذنا من بروق عزائمه لبعض ثغورها الضاحكة شنبا، ومن هممه المتصلة المدد بها ما تمد منها إلى سمائها سببا — اقتضى رأينا الشريف أن نعول في أمرها المهم، وبرها الذى به مصالح كثير من ممالكنا الشريفة تتم، ونحلى مشارقها بمن تضاحك البروق سيوفه في ليل كل نقع مدلهم، ونحمى حماها برجل تمنع مهابته حتى عن نقل الأسنة (؟) طارق الطيف أن يلم، وهو الذى لا تزعزع له ذرا، ولا يناخ لبادرة سيله في ذرا، ولا يقدر معه

الأَسَدُ أن يَبِيتَ حول غَابِهِ مُصْحِرًا، ولا الطَّيْرُ أن يُحَلِّقَ إليه إلا مَاسِحًا بجَنَاحِه على الثَّرَىٰ، ولا أَدْلَجَتْ إليه زُمَرُ الكواكب إلا تَقَاعَسَت فلا تَسْتَطِيعُ السُّرَىٰ.

وكان فلانٌ هو حَامِيَ هذا الحِمَىٰ، ومَانِعَ ما يَحْلُو فى الثُّغُور من مَوَارِدِ اللَّمَىٰ، وغَيُورَ الحَىِّ فلا تَبْرُزُ له إلا من عَقَائِل المَعَاقِل قاصِرَاتُ الطَّرْف كَالدُّمَىٰ، وحَافِظَ ما ٱسْتُودِعَ من مَصُون، وٱسْتُجْمِع من حُصُون، وٱستجهرَ من مَوَارِد تَرِدُها من زَرَدِ الدروع عيون، ويُفَرِّق منها المجانيقَ سَحَائِبَ مُمْطِرَةً بالمَنُون؛ فصَمَّمَ رأيُنَا الشريفُ على ٱختياره ليُوَقِّلَ(1) صَهْوَةَ هـذا الجواد، ويُوَفِّيَ ما يجب لهـذه العقيلة من مرتمق لحظ ومرتمىٰ فؤاد، ويبحث من الشغف بها عن أمل آمل أو مراد مراد، ويُعجب من عقيلتها المصونة أن أبراجها تَتَبرّج وما لنُعْمَاهَا إنعامٌ ولا لسُعَادِهَا إسْعَاد.

فرسم بالأمر الشريف العالى المَوْلَوِىّ، السُّلطانىّ، المَلَكِى، الفلانىّ — أعلاه الله وشرفه، وأدام فى الأرض ومَنْ عَلَيها تَصَرُّفَه — أن تفوّض إليـه النيابة بقَلْعة دِمَشْقَ المحروسة: علىٰ عادة من تقدّمه وقَاعِدَته، ومُقَارَبته ومُبَاعَدَته، وتَحَلِّيه ومساعدته؛ وكل ما جرت به العوائدُ فى رجالها ورجالها، ومالها ومآلها؛ وهـذه نِيَابَةٌ شريفه، وسَحَابَةٌ مُطِيفَه؛ ونعمةٌ تُقَابَلُ برعايتها، وتُكْتَمُ نَوَافِجُها بإذَاعَتِها؛ وتَقوىٰ الله حلْيَـةُ عنقها، وحُلَّةُ أُفُقِها، ومَجْرَى المَجَرَّة إجلالا فى طُرُقِها.

فعليك بحفظها لَيْلا ونهارا، وتَفَقُّدِ أحوال مَن فيها سِرًّا وجِهَارا؛ وفَتْحِ بابها وغلقِها مع الشمس، وتَصَفُّحِ ما بها من لِبْس، وتَتَبُّعِ أسبابها كما فى النفس؛ والتَّصَدِّى للازمة الخدمة الشريفة فى أبوابنا العالية ببابهـا، والأَخْذِ فى أدوات حِفْظها بمجامع أطرافها دون التمسك بأهدابها؛ والتَّجَسُّسِ علىٰ مَن يُلِمُّ فيها جَفْنَهُ بكَرًى وما أثقله مناما،

(1) ليوقل ليصعد.

وإلزام كلّ واحد بما يلزمه من الوظائف فى ليله ونهاره، وإدلاجه وابتكاره، ومن عليه فى هذا المعقل إشراف من شرفاته أو تسوّر على أسواره، وإنهار الزّجر والصّيت والسمعة بالاهتمام فى كلّ ليلة بزفاف عروسها، وضرب الحرس لنواقيسها، والإعلان لصباح الخير لنا فى صبحاتها والدعاء الصّالح فى تغليسها؛ وصيانة ما فيها من حواصل، أو يصل إليها من واصل؛ وما فيها من ذخائر، وما فى خزائنها العالية من مدد البحر الزّاخر؛ وما تشتمل عليه دار الضّرب من أموال تضرب للهبات برسمنا، وأموال الناس [التى] جلبت إليها لتشرّف نقودها باسمنا؛ وخزائن السلاح المنصورة وما يستكثر فيها من عدد، وما يستغزر من مدد، والمجانيق التى تخطر منها كلّ خطّارة كالفنيق، وتصعد ومرماها إلى السماء كأنّما تخطفه الطّير أو تهوى به الرّيح فى مكان سحيق؛ شائلة عقاربها، آفلة بالأعمار كواكبها؛ والخوذ والقسىّ والرايات وغير ذلك من سلاح، أو دروع تردّ السّهام على أعقابها وتحنى قامات العوالى وتضيّق صدور الصّفاح. والبحريّة وغيرهم من رجال هذه القلعة المحروسة من نجوم آفاقها، وغيوم إرعادها وإبراقها، وديمها إذا أسبلت المسالمة ذيولها وأعوانها إذا شمّرت الحرب عن ساقها. وبقيّة المستخدمين وأرباب الصنائع الذين هم عمارة أوطانها، وأمارة العناية بها من سلطانها؛ فكل ذلك مذخور لمنافع الإسلام، وما ريش السّهم لأنّه فى كل ساعة يرمى ولا طبع السيف لأنه فى كل بارقة يشام؛ فاحفظ لأوقاتها تلك المواد المذخوره، واحفظ هؤلاء الرجال فإنهم ظهور العساكر المنصوره؛ وخذ بقلوبهم وأوصل إليهم حقوقهم، واجمع على طاعتنا الشريفة متفرّقهم وأكرم فريقهم؛ ومنهم المماليك السلطانية وهم إخوانك فى ولائنا، والذين تشركهم فى آلائنا؛ وبالغ فى حفظ المعتقلين فى سجونها، ولفظ المعتقدين خلافا فى مكنونها؛ ونحن نعينها بالله أن تقول: تفقّدها بالترميم والإصلاح، ولكنّا نأمرك

أن نتعهدها بما نتعهده من الزَّيْنِ المِلَاح ؛ ولك مِنْ معاضدة مَنْ فى ذلك الإقليم ، مَنْ لَكَ برأيه طريقٌ مستقيم ؛ ومَنْ تُرَاجِعُه فيما أشكل عليك من الأمور ، وتَجِدُ به فى طاعتنا الشريفةِ نورًا علىٰ نُور ، واتبعْ مَرَاسِمَنا المُطاعةَ فهى شِفَاءٌ لِمَا فى الصُّدُور ؛ والوصايا كثيره ، والله تعالىٰ يجعلك علىٰ بَصيره ، ويتولّاك بما فيه حُسْنُ السِّيره ، وصَلَاحُ السريره ؛ والاعتماد ... ...

* * *

وهذه نسخة مرسوم شريف بنيابة قلعة دِمَشْقَ المحروسة ، كُتِب بها لحُسَام الدين «لاچين الإبراهيمىّ» من إنشاء الشريف شِهَابِ الدين، رحمه الله، وهى :

الحمد لله الذى صان الحُصُون بانْتِضَاء الحُسَام، وزَانَ المُلْكَ بارتضاء ذَوِى اليَقَظة من الأولياء والاهتمام ، وأبَانَ سبيلَ السَّعادة لمن أحْسَنَ بفروض الطاعة وأجْمَلَ القيام .

نحمده علىٰ أن جعل نِعَمَنا لأصفيائنا وَافِرةَ الأقسام، ونَشكره علىٰ أن أقبل عليهم بأوْجُه إقبالنا الوِسَام ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريكَ له شهادةً لعُقُود إخلاصها انتظام ، ولسعود اختصاصها التئام ، ونشهد أن سيدنا محمدا عبدُه ورسولُه الذى مَنَحَه الإجْلَالَ والإعظام، ومَدَحَه بالإفضالِ والإكرام، ورَجَّحه بمزايا الفضل علىٰ جميع الأنام ، صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه بُدُورِ التمام ، ورَضِىَ عن أصحابه الذين لهم صِدْقُ الاعتزام ، صلاةً ورضْوانًا لها تجديدٌ ومزيدٌ وتأبيدٌ ودوام ؛ وسلم تسليما كثيرا .

وبعد : فإن آلاءنا لا تزال تَخْتَارُ الأكفاء، وآراءنا لا تبرَحُ تمنحُ ذَوِى المناصحة الإصفاء، ونَعْماءنا تُدِيمُ للملابس إجلالها علىٰ أُولى الخِدَم الإفاضةَ والإضْفَاء ، وتَفِى بوُعُود جودها لمن أدام لمناهج المُخَالصة الاقتفاء .

ولما كان فلانٌ هو الذى عُرِفَتْ له فى مُهِمَّاتنا خِدَمٌ سالفه، وأُلِفَتْ منه هِمَّةٌ عَلِيَّةٌ خَصَّتْه بكلِّ عَارِفَه، وخَوَّلْناه نِعَمنا الوَاكِفه ، وأهَّلْناه لأستحفاظ الحصون فساعده تَوَفُّرُ التوفيق وسَاعَفَه ، ونَقَّلْناه فى الممالك فسار سِيرةً حميدةً اقتضت لِمَوَاهِبِنا لَدَيْه المضاعفه ـ اقتضىٰ حسنُ الرأى الشريف أن نَرْفَع محلَّه بأعزِّ القِلَاع، ونُطْلِعه بأُفُقِ سعدها أَيْمَن إطلاع ، ونندُبَه لضَبْطها فيَحْسُنُ له فيها الاستقرارُ ويُحمَدُ منها له الاستيداع .

فلذلك رسم بالأمر الشريف ـ لا زالت صدقاتُه تُحَقِّقُ الأطماع ، وهِبَاتُه تُفِيضُ ملابِسَها التى ليس لها انتزاع ـ أن يستقرَّ فى نيابة قلعة دمَشْق ... .

فليباشر النيابةَ بالقلعة المذكورة بَاذِلًا الاجتهاد، مُوَاصِلًا للعَزْم والسَّدَاد ، عامِلًا بالحَزْم فى كلِّ إصْدَارٍ وإيراد ، كافِلًا منها بحسن الاعتماد ، حافظًا حَوَاصِلَها من الضَّياع ، مقرِّرا أحوالَها علىٰ أجمل الأوضاع ، ولْيَأْخُذْ رجالَها بالائتلاف على الخدمة والاجتماع ، ولْيُحَرِّضْهم على المبادرة إلى المراسيم والإسراع ، ولْيُطالِعْ من أمورها بما يتعين عليه لأبوابنا العالية فيه المطالَعة ويَجِبُ لعلومنا الشريفة عليه الاطِّلاع ، وليراجِعْ كافل الممالك الشامية بما جَعَلْنا لآرائه فيه الإرجاع ، وليكنْ له إلىٰ إشارته إصْغاءٌ واستماع، وإلىٰ سبيل هَدْيه اقتفاءٌ واتِّباع ، ولْيَقِفْ عند ما يَتَقَدَّمُ به إليه فبذلك يحصل له الرُّشْد والانتفاع، والله تعالىٰ يجدِّدُ عليه سَوَابِغَ نِعَمِنا التى جادت بأجْناسٍ وأنواع ، ويجدِّدُ فى نُصْرَتِنا حُسَامَه الذى من بأسه الأعداءُ تَرْهَبُ وتَرْتَاع ، ويديمُ له ولجميع الأولياء من صَدَقَات دَوْلتِنا الشريفة الإمتاع ، والخط الشريف اعلاه ، حجة بمقتضاه ، إن شاء الله تعالىٰ .

*
* *

وهذه وصية نائب قلعة أوردها فى "التعريف" :

وعليه بحفظ هذه القلعة التى زُفَّتْ إليه عقيلتها المُمَنَّعه، وجليَتْ عليه سافرة ودُونَها السماء بالسُّحُب مُقَنَّعه؛ وسُلِّمت إليه مَفَاتِيحُها، وخواتيم الثُّريَّا أقفال، وأُوقِدَتْ له مَصَابِيحُها، وفَتَائِل(١) البروق لا تُشَبُّ لقفّال . فليبدأ بعمارة ما دَعَت الحاجة إليه من تجديد أبنيتها ، وتشييد أَقْبِيَتِها ؛ وشدّ عقُودها ، وعدّ مالا يحصىٰ [فى الذخائر(٢)] من نُقُودها ؛ [وتنبيه أعينِ رجالها والكواكبُ قد همَّتْ برُقُودها(٢)] ، والأخذ بقلوب من فيها ، وتَدَارُكِ بقية ذَمائهم بتَلافيها ؛ وجَمْعِهم على الطاعه . وبَذْر الإحسان فيهم إذا عَرَف أرضًا تزكو فيها الزراعه ، والتَّنادى لهم : قُربَّ رجال تجزى عن عِدّة سنين فى ساعه؛ وتحصين هذا الحصن المنيع بما يتحصّن به أهله ، ويستمدُّ بعمارة البلاد المختصة به من واصله ؛ وما يكون به من المجانيق التى لا تُرَقّ عقَارِبُها ، ولا تُوقىٰ منها أقاربها ؛ ولا تُرَدُّ لها مَضَارِب ، ولا يُكَفُّ من زُبَانَى زَبَانِيَتِها كلُّ ضارب ؛ ولا يُخْطِئُ سَهْمُها، ولا يَخْفىٰ بين النجوم نَجْمُها؛ ولا يُعرَف مافى صُنْدوقها [المقفل]، من البلاء المُرْسَل ، ولا ما فى نَخِذِها المُشَمِّرِ السّاقِ من النشاط الذى لا يكسل؛ وغيرها من الرايات التى فى غيرها لا تُشَدّ ، ولسوى خيرِها لا تُعقَد ؛ وما يُرْمىٰ فيها من السهام التى تَشُقُّ قلبَ الصَّخر، وتُبْكى خَنْسَاءَ كلِّ فاقدة علىٰ صخر ؛ وكذلك قِسِىُّ اليد التى لا يَدَ بها ولا قِبَل ، وكَنَائِنُ السِّهام التى كم أصبح رَجُلٌ وبه منها مِثْلُ الجبل؛ وما يُصَان من اللّبوس ، ويعدّ للنعيم والبُوس(٣) ؛ وما يمدّ من الستائر التى

(١) الذى فى "التعريف" «وقناديل» .
(٢) الزيادة من "التعريف" (ص ٩٥) .
(٣) فى "التعريف" «من العدد والعدد واللبوس» .

هى أسوارُ الأسوار ، ولمعَاصِم عقائِل المَعَاقِل منها حِلًى سوى كلّ سِوار ؛ وهى التى تَلاثُ لُثُمها علىٰ مَبَاسِم الشُّرُفات ، وتُضْرَبُ حُجُبُها علىٰ أعالى الغُرُفات ؛ وسوىٰ هـذا مما تعتصم به شوامخُ القلال ، ويُتَبَوَّأُ به مَقَاعِد للقتال ؛ فكُلُّ هذا حَصِّله وحَصِّنْه ، وأحْسِبه وحَسِّنْه ؛ وأَعِدَّ منه فى الأمْنِ لأوقات الشدائد ، وأَجْرِ فيه علىٰ شَأْوِ مَنْ تقدّم وزِدْ فى العَوَائد ؛ وهكذا مايُدَّخَرُ من عُدَد أرباب الصنائع ، ومَدَد التحصين المعروف بكثرة التَّجَارِب فى الوقائع ، والأزواد والأقوات ، وما لا يَزال يُفَكَّرُ فى تحصيله لأجل بعض الأوقات ؛ وكُنْ من هـذا مُسْتَكْثِرًا ، وله علىٰ ما سواه مُؤْثِرًا ؛ حتَّى لا تزالَ رِجَالُك مُطْمَئِنَّةَ الخَوَاطِر ، طيِّبة القلوب ماعليها إلا السُّحُب المَوَاطر ؛ واْعمل بعادة القِلَاع فى غَلْق أبْوَابِ هذه القلعة وفَتْحها ، وتَفَقُّد متجدّدات أحوالهـا فى مَسَاء كُلِّ ليلة وصُبْحِها ؛ وإقامة الحَرَس ، وإدامة العَسَس ، والحِذَارَ ممَّن لعلَّه يكونُ قد تَسَوَّر أو اْختَلَس ؛ وتَعَرَّفْ أخبارَ مَن جاورك من الأعداء حتى لاتزال علىٰ بصيرة ، ولا تبرح تُعِدُّ لكلِّ أمرٍ مَصِيرَه ؛ وأَقِم نُوَبَ الحَمَام التى قد لاتَجِد فى بعض الأوقات سواه رَسُولا ، ولاتَجِدُ غيرَه مخبرًا ولاسواه مسْئُولا ؛ وطالِعْ أبوابنا العالية بالأخبار ، وسَارِعْ إلىٰ ما يَرِدُ عليك منها من اْبتِدَاءٍ وجَوَاب ؛ وصُبَّ فكْرَكَ كُلَّه إليها وإلىٰ ماتَتَضَمَّنُه من الصواب .

المرتبة الثـانيـــة

(من المراسيم التى تكتب بحاضرة دمشق لأرباب السيوف — ما يكتب فى قطع الثلث ، وفيها وظيفتان)

الأولىٰ — شَـدُّ الدواوينِ بدمَشْقَ . وصاحبُهـا يتحدّث فيما يتحدّث فيه شادّ الدواوين بالديار المصرية ، وقد تقدّم .

وهذه نسخة مرسوم شريف بشدّ الدّواوين بدمشق :

الحمد لله الذى أرهف لمصالح دولتنا القاهرة من الأولياء ، سيفا ماضيا ، وجرّد لمهمّات خدمتنا الشريفة من الأصفياء، عضبا يغدو الملك عن تصرّفه الجميل راضيا ، وجدّد السّعود فى أيامنا الزاهرة لمن لا تحتاج همّه فى عمارة البلاد المحروسة متقاضيا .

نحمده على نعمه التى تستغرق المحامد ، وتستوجب الشّكر المستأنف على الحامد ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة مجاهد لأعدائها ، مجاهر لإعلائها ؛ ونشهد أن محمدا عبده ورسوله أشرف الأنبياء قدرا ، وأولهم فى الرتبة مكانة وإن كان آخرهم عصرا ؛ صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين نهضوا بما أمروا ، وعمروا الدّين قبل الدنيا فلم تتمكن الأيّام من [نقض] ما عمروا ؛ صلاة يتأرّج نشرها ، ويتبلّج بشرها ؛ وسلم تسليما كثيرا .

وبعد ، فإن أولى من علق به من مهماتنا الشريفة أعمّها نفعا ، وأحسنها فى عمارة البلاد وقعا ، وأكثرها لخزائن الأموال تحصيلا وجمعا ؛ وأجمعها لمصالح الأعمال ، وأضبطها لحواصل الممالك التى إذا أعدّ منها جبالا تلا عليها لسان الإنفاق : ﴿ ويسألونك عن الجبال ﴾ من زانت عزمه نزاهته ، وكملت قوّته فى الحق خبرته ونباهته ؛ وكان من أولياء دولتنا المعدّين لشدّ أركانها ، وإشادة بنيانها ؛ والنّهوض بمصالحها المتنوعه ، ونشر كلمة عدلها التى تغدو بالأدعية الصالحة مبسوطة وبالأثنية العاطرة متضوعه .

ولما كان فلان هو الذى أشير إلى محاسنه ، ونبّه على إبريز فضله المظهر من معادنه ؛ مع صرامة تخيف اللّيوث ، ونزاهة تعين على عمارة البلاد الغيوث ؛ وخبرة بإظهار المصالح الخفية وفيه ، وبإبراز معادن الأموال من وجوهها الجليّة مليه ؛

ومَعْرِفَة تَعُمُّ البلادَ بين الرغبة والرهبه، وتجعل مَثَل ما يُودَعُ فيها بالبركة والنماء مَثَل حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّة ـ آقتضت آراؤنا الشريفةُ أن نُنَبِّهَ علىٰ حسن آعتنائنا بأمره ، وآعتمادنا بما قدّمه من أسباب إسناء رُتبته ورفعة قَدْره ؛ فلذلك رسم ـ زاد الله فى علائه ـ أن يفوّض إليه ... ...

فَلْيباشِرْ ذلك مُظْهِرًا من مصالح الدولة القاهرة ما كان فى ضَمِير كِفَايَته مكْنُونا ، مُبْرِزًا من تثمير الأموال وتَعْمير الأعمال ما يُحقِّق به : من خِصْبِ البلاد بمشيئة الله تعالىٰ ما كان مظنونا ؛ مُوَالِيًا إلى الخزائن المعمورة من حُمُول تدبيره ما يُمسِى به طَائِرُ تَصَرُّفه ميمونا ، وسَبَبُ توقفه مأمونا . ولْيكُنِ النَّظَرُ فى عِمَـارَة البلاد هو المهمَّ المقدَّمَ لَديْه ، والأمْرَ الذى يتعيـنُ تَوَفُّرُ آهتِمامه عَلَيْه ، فَلْيَجْتَهِدْ فى ذلك آجتهادًا يَظْهَرُ أثَرُه ، ويُجتنىٰ ثَمَرُه ، ويُحمَد وِرْدُه وصَدَرُه ؛ ولتتفرعُ عنـه أنواعُ المصالح ، وتَتَرتَّبُ عليه أسبابُ المَنَاجِحِ ؛ ومِلاكُ ذلك بَسْطُ المَعْدَلَة التى هى خيرٌ للبلاد من أن تُمْطَرَ أربعينَ يوما ، وآعتمادُ الرِّفْقِ الذى لا يَتَضرَّرُ معـه البأسُ قوما ، ولا يجلُبُ علىٰ فاعله مع الحزم لَوْما ، ولا يَطْرُد عمنْ أنَامه العَـدْلُ فى مِهَادِ الدَّعَة نَوْما ؛ ولْيَصْرِف إلى آستجلابِ الأموال ومُوَالاة حَمْلها هِمَّةً ناهِضَه ، وعَزْمَةً إلىٰ ماقَرُب ونَأَىٰ من المصالح رَاكِضَه ، وقُوَّةً بأسـباب الحَزْمِ آخِذَةً وعلىٰ أَعِنَّـة التدبير قَابِضَـه ؛ وفيما خَبَرْنَاهُ من عزائمه المشكوره ، وسِيرتِهِ التى ما بَرِحَتْ بين أولياء دولتنا القاهرة مَشْهُوره ؛ ما يُكْتَفَىٰ به عن الوصايا المُؤَكَّدَه ، ويُوثَقُ به فيما عُدِقَ به من الأمور المسنّده ؛ لَكِنْ تقوَى الله تعالىٰ أوْلَى الوَصَايا وأوَلُهـا ، وأحقُّ ما تُلِيَتْ عليه تَفَاصيلُها وجُمَلُها ؛ فَلْيقدِّمْ تقوى الله بين يديه ، وليجعلْهَـا العُمْدَةَ فيما آعتُمِد فيـه عليه ؛ بعـد الخط الشريف أعلاه الله تعالىٰ أعلاه .

الوظيفة الثانية — شدّ المهمّات . وصاحبها يتحدّث فيما يُطْلَبُ للأبواب السلطانية من المستعملات وغيرها . وقد ذكر فى "التثقيف" أنّ عادته أن يكون مقدّم ألْفٍ .

وهذه نسخة توقيع بشدّ المهمات بدمشق ، وهى :

الحمد لله الذى شَدّ عُرَا المَصَالح من الأولياء بكل ذى أَيْد ، وكُلّ مَنْ هو فى المهمات أبطَشُ بعَمْرو من زَيْد ، ومن له تدبيرٌ كَمْ أغنىٰ باقتناصه لشَوارد الأمور عن حِبَالَة صَيْد ،

[وبعد](١) فإن أحق من آستُخْلِص لآستخلاص الأموال ، وآختير لصَوْنها من الآختزال وحِفْظها من الآختلال ، وأُهّل قَلَمُه وكَلِمُه : هذا للتمثيل وهذا للامتثال ؛ وفُوِّضَ إليه التّصَرّفُ فى الترغيب والترهيب ، والآجتهادُ فى التّميز والتّحرير والتّوفير إذ كلّ مجتهد مُصيب — من اشتهر بأنه ذُو حَزْم لا يَنِى ، وعَزْم عن المصالح لا ينْثَنِى ، وآحتفالٍ بالأحوال التى منها نُكْرٌ لمن يجْنِى وشُكْرٌ لمن يجْتَنِى ؛ وله نَبَاهَةٌ يدرِكُ بها كلّ إيهام وكلّ إبهام ، ويطّلع [بها] علىٰ فَلَتَات أَلْسِنَة الأقلام ، ويفهمُ بها مقاصدَ كُلّ من هو من الجِنَّة فى كل وَادٍ يَهِيم ، ولايخفىٰ عليه جَرَائرُ الجرائد ولامَخَازِى المَخَازِيم ؛ وفيه رحْمَةٌ كم أصْبَحَ بها وهو الأتْقىٰ ، ولم يأت قَسَاوةً يكون بها هو المُنْبَتّ الذى لا أَرْضًا قَطَعَ ولا ظَهرًا أَبْقىٰ ؛ وكم ساسَ الأمورَ ودبّرها فأحسنَ فيها السياسةَ وأجْمَلَ التدبير ، وآستخرج [الشَّىءَ الكثير] بالتخويف اليسير ؛ حتّى جمع حُسْنَ تدْبير واسْترعا ، وصنع حَسَنًا وأحْسَنَ صُنْعا .

(١) زدنا هذه اللفظة للزومها واستقامة الكلام بها . فتنبه .

رتبة ا كان فلان هو لهذا الأمر الجليل المُسْتَرْعَىٰ، واسْمُه فى أول مدارج التنويه والتنزيل خَيْرُ مُسْتَدْعَىٰ؛ وفيه من جميــل الأوصــاف ما يُرضى حسن الاقتراح وقد خَبَرَ أمور الكَتَبَه ، وقد عَلِمَ من أحوالهم ما هو أحْرَىٰ لهم بالتَّجْرِبه ؛ وعَرَفَ خَفَايا المعــاملات معرفةً تامَّه ، وأحاط بجزئيات الجهات وكُلِّيَّاتِها إحَاطَةً خاصَّة وعامَّه ــ اقتضىٰ حُسْنُ الرَّأْيِ المُنِيف ، أن رسم بالأمر الشريف ــ لا بَرِحَ يَشُدُّ عَضُدَ كلِّ مُهِتّمٍ من الأولياء بِأَحى كل عَزْم، ويجعلُ له سلطانًا لا يَكِلُ مصلحةً إلىٰ حزم ذى حزم ــ أنْ يفوّض إليه شدّ المهمات بالشامِ المحروس .

فلْيَضْــبِطِ الأمورَ ضَــبْطًا مُسْــتَوْعِبا ، ولْيَنْتَصِبْ لذلك انْتِصَاباً مُتَرَتِّبًا، ولْيَحْتَرِزْ مُنَفِّــذًا ومُصَرِّفا ، ومُسْرِعا ومُسْــتَوْقِفا؛ ومَتَىٰ ظهر حَقٌّ يَتَمَسَّكُ به تَمَسُّكَ الغَرِيمِ ، ولا يُحَابِ فيــه ذَا بَأْسٍ قَوِىٍّ ولا ذَا مَنْهَجٍ إلى المَنْع والدَّفْعِ غيرِ قَوِيم؛ وما مِنْ جِهَــة إلا ولهــا شروطٌ صَوْبَ الصَّوَاب، ولا يعتمدْ علىٰ غَيْرِ الحقِّ منكبًّا عن تَرْوِيجِ الكُتَّاب، ولْتَكُنِ الحمولُ مُسَيَّره ، والمتحرِّجات مُتَوفِّره؛ وجهات الخـاصّ مقرّره، إذ الضُّمَّانُ لا يُنْتَظَرُ لهم نَظِرَةٌ إلىٰ مَيْسَرَه؛ فإنهم سُوسُ المعاملات، وكَوَاسِرُ الجهات؛ ومنهــم يُحْفظ أو يُضَــاع ، وبهــم يترقَّى أو يَنْحَطُّ الارتفاع ؛ وجِهَاتُ المُقْطَعِينَ الواجبُ له أن يجعل عليها وَاقِيَةً بَاتِيــه، ولْتُحْمَ لهم حتَّى لا يتطاول إلىٰ دِرْوَتِها امتدادُ الأيدى المُخْتَرِلَة ولا خُطَا العُدْوان الرَّاقِيَه ؛ ولْيَصْرِفْ وجْهَهُ بحفظه إلىٰ مراقبة من فى باب الشَّــدِّ من مُقَدَّمين ومن رُسُلٍ يأكلون أموال الناس بالباطِل، ويبيعُون الآجِلَ بالعَاجِل؛ ويُخِيفُونَ العامَّ والخاص، وكل منهم يروم الغِنَاءَ وهو رَقَّاص .

هــذه زُبْدَةٌ من الوصايا مُقْنِعه ، وعَزَمَاتٌ غَنِيَّة عن تكثيرٍ فى القَوْل أو تَوْسِعَه ؛ والله تعالىٰ يكونُ له ويُعِينُه ، بمنه وكرمه، إن شاء الله تعالىٰ .

الصنف الثانى

(من الوظائف بدمشق الوظائف الدينية، وجميع ما يكتب فيها تواقيع، وهى على مرتبتين)

المرتبة الأولى

(ما يكتب فى قطع النصف بـ«المجلس العالى» بالياء» مفتتحا بـ«الحمد لله»)

وبذلك يُكتَب للقضاة الأربعة بحاضرة دِمَشْق .

وهذه نسخة توقيع بقضاء قضاة الشافعية بدمَشْق المحروسة، كُتِبَ به لقاضى القضاة «بهاء الدين أبى البقاء السُّبكى» وهى :

الحمد لله الذى أَقَرّ أحكام الشَّرع الشريف، فى أيامنا الزاهرة على أكمل القَواعد، وأَمَرّ مَدَارَ الحُكم المنيف، فى دولتنا القاهرة على أجمل العوائد؛ وأمضى فَصْلَ القَضَاءِ فى ممالكنا الشامية بيد إمَامٍ غنِيَتْ فضَائلُه عن الشواهد، وأَمّتْه الأئمةُ لاقتباس الفوائد؛ وعُدِقَتْ أحكامُ المِلّة منه بمُجَاهِرٍ فى الحق مجاهد، مُسَدَّدٍ فى الدِّين سَهْمَ ٱجتِهَادٍ رَمىٰ به شَاكِلَةَ الصَّواب عن أثبت يَدٍ وأشدّ سَاعِد .

نحمده على نِعَمه التى حَلّتْ مَنَاصِبَ الدين فى ممالكنا الشريفة بأكْفَائها، وعَلّتْ رُتَبَ العِلْم فى دَولتنا القاهرة بٱستقرار من جَعَلَتْه فضَائلُه غَايَةَ ٱختيارها ونِهَايَةَ ٱصْطِفَائِها ، ودَلّتْ على ٱعتنائنا بتنفيذ أحكام مَنْ أتعبتْ سيرتُه الجَمِيلَةُ مَن سَهِد فى ٱتباعها وجَهَد فى ٱقتفائهـا ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحْدَه لا شَرِيكَ له شهادةً لا تزال أعلامُنا بهـا تَنْتَصِر ، وأيَّامُنا على الجهـاد لتكُونَ كَلِمَتُها هِىَ العُلْيا تقتصر ، وأقلامُنَا لنَشْرِ دَعْوَتِها فى الآفاق تُسْهِبُ ولا تُوجِز وتُطْنِبُ ولا تختَصِر؛ ونشهد أن محمدا عبدُه ورسولُه أشرفُ من قَضَتْ أمّتُه بالحقّ فعَدَلَت، وتَلَقَّتْ عنه أحْكَامَ مِلّته

ففاقت بذلك الأمم وفضلت ، وحكمت بما أراها الله من شرعته فما مالت عن سننه القويم ولا عدلت؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين أسلموا لله فسلموا ، وعملوا فى دين الله بما علموا ، وبذلوا النفوس فى طاعته فما استكانوا لما أصابهم فى سبيل الله ولا ألموا ، صلاة تؤدى بها من أمر الله المفترض ، ونرغم بإقامتها الذين فى قلوبهم مرض؛ وسلم تسليما كثيرا .

وبعد ، فإن أولى من تنقل فى رتبه السنية ، ووطدت له بمصر والشام قواعد سيرته السرية ، وأطلقت جياد البراعة فى إمضاء حكمه فى المملكتين مثانى أعنتها ، وأنطقت صعاد البراعة فى إعلاء بهائه فيهما [ألسنة] أسنتها ، وأردنا أن نرده إلى أعز الممالك علينا لتقر عينها ، وقصدنا أن نعيده إلى رتبته بها لنوفى باستعادته دينها ، واخترنا أن نجدد لهذه الوظيفة سالف عهده ، وأن نريه اعتناءنا بأمر منصبه الذى لم يله مثله من الأئمة من بعده ، وعلمنا أن الديار المصرية قد اختصت بفضائله زمنا طويلا ، وأن البلاد الشامية قد ألفت من أحكامه ما لم ترد به بديلا — من ظهرت فضائله ظهور نعته ، وتهادت فوائده رفاق الآفاق : من علماء زمانه وأئمة وقته ، وعلمت أوصاف الصدور الأول من علمه وورعه وسمته ؛ ونشرت الأيام من علومه ما لم يطو بل تطوى إليه المراحل ، ونقلت الأقلام من فنونه ما يروى فيروى به السمع الظامى ويخصب به الفكر الماحل ؛ وألفت الأقاليم من حكمه ما غدت به بين مسرور بإشراقه ، ومروع بفراقه ، فمن أقضية مسددة ، وأحكام مؤيدة ؛ وأقوال متزهة عن الهوى ، وأحوال صادرة عن زهادة محكمة القواعد ونزاهة مجتمعة القوى ؛ وإصابة دالة على ما وراءها من علم وورع ، وإجابة فى الحق تحيا بها السنن وتموت البدع ، وشدة فى الدين تصدع فى كل حكم بالحق وإن صدع ، وعدل لا يستلان

جَانبُه، وحَزْمٍ لايُسْتَزَلّ صَاحبُه، ولايُسْتَنْزَلُ رَاكبُه، وقُوَّةٍ فى الحقّ تمنع المُبْطِلَ من الإقدام عليــه، ولِينٍ فى الله يَفْسِحُ للحقّ مَجَالَ القَوْلِ بين يديه، ومَجَالس غَدَتْ بالعلمْ طَيِّبَةَ الأَرَج، وفَضَائِلَ يُحَدَّثُ فيهــا عن موادّ فكره عَن البَحْرِ ولَا حَرَج، وَبَدائِــعَ تُضْرَبُ إلىٰ آستماعها أَكْبَادُ الإِبِل، وبَدَائِهَ تَهْرَمُ الأيامُ وعُمْرُ شَبَابِها مُقْتَبِل .

ولمــا كان المجلس العالىّ ــ أدام الله نعْمتَه ــ هو الذى وَرَدَ علىٰ أبوابنَا العالية ونُورُ وَلَائه يسعَىٰ بين يَدَيْه، وصَدَرَ الآنَ عَنْها وحُلَلُ آلَائنَا تَضْفُو عَلَيْه، وأقام فى خدْمتنا الشريفة مَحْمُودًا فى أكرمِ مَنْ بها قَطَن، وعَادَ إلىٰ الشَّام مجموعًا له بين مُضَاعفَةِ النِّعَم والعَوْدِ إلىٰ الوَطَن . وهو الذى تختال به المَنَاقب، وتَخْتَار فَضْلَه العواقب، ويُشْرِقُ قلمُــه بالفَتَاوَىٰ إشراق النَّهَــار، وتُغْدِقُ مَنَافعُه إغْدَاقَ السُّحُب بالأمْطار، وتُحْدِقُ الطَّلَبَــةُ به إحداق الكِمَامَة بالثَّمَر والهَالَات بالأقْمَــار، وهو شَافِى عِىِّ كُلِّ شَافِعِىّ، ودَوَاءُ أَلَمِ كُلِّ أَلْمَعِىّ، طَالَمَــا جَانَبَ جَنْبُه المضَاجِعَ سُهَادا، وقَطَعَ اللَّيــلَ ثم آستمدّه لمَدَدِ فَتَاوِيهِ مِدَادا، وجمع بين المَذْهَبَيْنِ نظرا وتقليدا، والمُذْهَبَيْنِ من القَوْلَيْن قديما وجديدا، وسَلَكَ جميعَ الطُّرُق إلىٰ مَذْهَبِ إمَامه، ومَلَكَ حِسَانَها فأسْفَرَ له كُلُّ وَجْهٍ تَغَطَّى منْ أوراق الكُتُب بِلِثَامه، وآنفتحت بفَهْــمه للتصانيف أبوابٌ شَــغَلَتْ «القَفَّالَ» أقفالُها، وتفتحتْ [له] نَفَحَاتُ ما «للماوَرْدِىّ» مثالُها، ومَنَحَت حُلَلا يَفْخَرُ «الغَزَالِىّ» إذا نُسِجَ علىٰ مِنْوَالِهِ سِرْبَالُها، فلو أدركه «الرَّافِعِىُّ» لشَرَحَ "الوَجِيزَ" من لفظه، وأمْلَىٰ أحكامَ المَذَاهِب من حِفْظه، وصَــدَّرَ المســائل بأقواله، وأَعَدَّ لكُلِّ سُؤَالٍ وَارِدٍ حُجَّةً من بَحْثه وبُرْهانًا من جِدَاله، فلَه فى العِــلْمِ المُرْتَقَى الَّذى لا يُدْرَكُ، والمنْتَهَىٰ الذى لا يُنَــازَعُ فى تَفَرُّده ولا يُشْرَكُ، والغَايَةُ التى أحرزها دون غيره فلولا المشقةُ لم تُتْرَكْ، وهو الذى ما زال بهذه الرتبة مَلِيًّا، وبمــا عُلِقَ بذِمَّته من أحكامها

وَفِيًّا، وبكلّ ما يُرضي الخليقةَ عنه من أحوالها قائما وكان عند ربّه مرضيًّا، وبأعبائها مُستقلًّا من حين منحه الله العلم ناشئًا وآتاه الحُكمَ صبيًّا . وما برح تدعوه التقوى فيجيبها، ويترك ما لا يُريبُ نفسه تنزيهًا عمّا يُريبها، فكم فجّر بالبلاد الشاميّة من علمه عيونا ، وغرس بها من أفنان فضله فنونا ؛ وكان لها خيرَ جارٍ ترك لها ما سواها ، وأكرم نزيل نوى بالوصول إليها مصلحةَ دينه فلم يُضيّع الله له نيّته التى نواها ؛ وألف قواعدَ أهلها وعوائدَهم ، وعرف بحُسن اطلاعه ما جبل الله عليه غائبَهم وشاهدَهم ؛ وعدّوه من النِّعَم المقبلة عليهم ، واقتدوا فى محبّته بالذين تبوّءوا الدّار والإيمانَ من قبلهم يُحبّون من هاجر إليهم ؛ ثم قدم إلى الدّيار المصرية وما كان قدومه إلا علينا، ووفد إليها بحُسن مودّته ومحبته اللّتين ما وفد بهما إلا إلينا ؛ فرأينا منه إمامًا لا يُحكّمُ فى توليته الحكمَ بالهوى، ولا يَنوى فى تقليده القضاءَ غيرَ مصلحةِ المسلمين « ولكلّ امرئٍ ما نوى » ؛ وهو ــ بحمد الله ــ لم يزل بقواعد هذا المنصب خبيرا، وبعوائد هذه الرتبة بصيرا ، وبإجرائها على أكمل السُّنَن وأوضح السَّنَن جديرا ، وبإمضاء حُكم الله الذى يُحقّق إيجادُ الحقّ فيه للأمّة أنّه من عند الله ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ ؛ مع ما تكمّلت به فضائله من الوقوف مع الحقّ المبين، والتّحلّى بالورع المتين ، والتّخلّى للعبادة التى أصبح من اتّصف بها مع النّبيّين والصّدّيقين والشّهداء والصّالحين .

فلذلك رسم بالأمر الشريف الأشرفىّ النّاصرىّ ــ لا زال علَمُ العلم فى أيامه مرفوعا، وألَمُ الجهل بما خصّ الله به دولته من الأئمة الأعلام مدفوعا ــ أن يفوّض إلى المشار إليه قضاءُ القضاة الشافعيّة، ونظرُ الأوقاف بدمشق المحروسة وأعمالها بالبلاد الشامية، وما هو مضاف إلى ذلك من الصدقات والتّداريس والتصدير وغير ذلك، على عادة من تقدّمه فى ذلك وقاعدته ومعلومه .

فليُقَابِل هذا التقليدَ السعيدَ بيَدٍ زِيدَ فى الحَقِّ تمكُّنُها، وعلى الخير تمرُّنُها، وفى العَدْل آنبِسَاطُها، وفى احكام الله تعالىٰ بحسن المعاضدة على الحقِّ قوّتُها وآحتياطُها، ولْيَمْض علىٰ ما أُلِفَ من سِيرَتِه التى زان العلمُ أوصافَها، وزان الوَرَعُ آتّصافَها، وحلَّى العَدْلُ مَفَاخِرَها، وأحيَا التُّقَىٰ مآثِرَها، وتناقلت رِفَاقُ الآفاق أحْكَامَها، وآستَصْحَبَتْ من هدايا هُدَاهَا ما تُتحَفُ به حُكَّامها، وفيما نُعِتَ من مَحَاسِنه ما يُغْنِى عن الوصايا المجدَّدة، والإشارات المردَّدة؛ لكن الذكرىٰ بتقوى الله تنفع المؤمنين، وتَرْفَعُ المُتَّقِين، وتجمع مصالح الدنيا والدين؛ فلْيَجْعلْها خُلُقَه ما استطاع، ولْيَرَ حُكْمَها هو الحُكْمَ المتبعَ وأمْرَها هو الأمْرَ المُطَاع، والاعتماد ... ... رابع عشر المحرم سنة خمس وسبعين وسبعمائة.

قلتُ: ولم أقف علىٰ تفويض لقَاضٍ من كتابة من تقدّم سوىٰ تفويض واحد، من إنشاء المقر الشِّهابىّ بن فضل الله، كتبه لقاضى القضاة «شهاب الدين بن المجد عبد الله» بالشام المحروس، علىٰ مذهب الإمام الشافعىّ. وهذه نسخته:

الحمد لله على التَّمسُّك بشرائعه، والتَّنَسُّك بذَرَائِعِه، والتَّوسُّل إلى الله بتأييد أحكام شارعه، والتوصل به إلىٰ دِينٍ يُقطَع به من الباطل أعْنَاقُ مَطَامعه.

نحمده حمدًا يأخذ من الخَيْر بمَجَامِعِه، ويُضاهِى الغَمَامَ فى عموم مَنَافعه، ويُباهِى السيفَ بقلم الشرع فى قَهْرِ عاصِيه وحماية طَائِعه. ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً تؤدِّى للإيمان أمَانَةَ وَدَائِعه، وتَهْدِى إلىٰ صِيانَةِ مَشَارِعه، وتقيمُ من العلماء كُلَّ شِهَابٍ تُقْسِم الأنوارُ بلوَامِعه، وتُقْسِم الأبصارُ ببدَائِعه، وتُجُولُ الفَتَاوَىٰ فى صدره الفسيح وتَتَجَوَّلُ فى شوارعه، وتُرْهِف منهم للحكم العزيز كُلَّ قَلَمٍ يَدُلُّ السهمَ علىٰ مَوَاقِعه، ويُنَبِّه الرُّمح من مَقَاتِل الأعداء علىٰ مواضِعه، ويَسْرِى

غمَــامُه إلى الأعداء بصواعقه وإلىٰ الأولياء بهوَامِعه ؛ ونشهد أن سـيدنا محمدا عبده ورسوله الذى أسعد الأمّة بطَالِعه، وأصْعَدَ الأئمة فى مَطَالِعه، وأسْعَفَ المِلّةَ بمـا أبقى الله فيها من حسن صــنائعه ويُمْن طلائعه، ومن شَريعته التى أَمِنَ حَبْلُها المَمدودُ من جذب قاطعه، وكُفِيَ شَرَّ قَاطِعِه ؛ صلى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه صلاة [تتوالىٰ إليه توالِيَ] العذب إلىٰ مَنَابِعِه ؛ وسلم تسليما كثيرا .

وبعد، فإن الله لَمَّـا أقامنا لحماية شَرْعِه الشريف أَنْ يُسْتَبَاحَ حِمَاه، أو يُبَاحَ لأحد من حُكّامِه أن يرْكَبَ هواه، أو يَتَعَدّى حُدُودَه فى سُخْطِه أو رِضَاه، أو يُحْدِث فى أمره ما ليس منه إلا أن يكون رَدًّا علىٰ سِوَاه ـ [جعلنا] نُجِدُّ علىٰ إقامة مناره أن يُطْمَس ؛ وإدامة مَبَارِه أن يُقْلَعَ مَنارُها أو يُبْخَس ؛ آستدامةً لتأبيس حُكّامه، وتأبيد أحكامه ؛ لأنّه سَحَائِبُ أنوَاءٍ يعمّ الربيعَ رُبُوعُهَا ، ومِشْكَاةُ أنوارٍ يُكَاثِرُ الصَّبَاحَ لُمُوعُها، وأَفَاوِيقُ وِفَاقٍ تُقيم به الأمّةَ ضروعُها، وشجرةٌ مباركة إسلامية زَكَتْ أُصُولُهـا ونَمَتْ فُرُوعُهَا ؛ شُكْرًا لله علىٰ ما خَصّنا به : من تَحْصِينِ ممالك الإسلام، وتَحْسِينِ مَسَالكِ دَارِ السلام ؛ لِنَمْنَعَ المِحَنَ أن تُسَام، وبُرُوقَ الفِتَنِ أن تُشَام، ووُجُوهَ الفَتْوىٰ أن تَتَرَيَّنَ إلّا بِشَامَةِ الشّام ؛ غِبْطَةً بأن الله جعل للإسلام منها ما هو خَيْرٌ وأَبْقىٰ ، وأَشْرَفُ وأَنْقىٰ ، وَأَعْظَم بَلَدٍ تتشعّبُ بالمذاهب طُرُقا ، وتَوَدُّ المَجَرَّةُ لو وقفَتْ بهـا عَلىٰ الشريعة نَسَقا. تَتَزَاحَمُ فى مراكزها الأعلام، وتَتَضَافَرُ على الجهاد فى الله بالجـلاد والجـدال تارةً بالسـيوف وتَارَةً بالأقـلام . ودِمَشْقُ حرسهـا الله هى أمّ ذلك الإقليم ، ومَدَدُه الذى يَحْنُو علىٰ مشارعها حُنُوَّ الوالدة على الفَطِيم ، وتنبت بها فوائدُ لا تأمن معها الغوانى حَتّى تَلْمُسَ «جانب العِقْدالنَّظِيم» ؛ وهى دَارُ العِلْم ، ومَدَارُ الحُكْم ، ومَوْطِنُ علماءَ تتعاقب

فيها كواكبهم ، وتَتَناوبُ سَحائبُهم ؛ وتتناهىٰ إلىٰ حكمها العزيز الشكوىٰ ، وتنفصل بحكم حاكمها الدعوىٰ ، ويَمْتَدُّ جَنَاحُ طَيْلَسَانه علىٰ رَضْوىٰ ، ويُحَلِّقُ البَرْقُ وراء فَهْمه ولا يبلغ غايته القُصْوىٰ ؛ ويَطُولُ قَلَمُه على السيف المُشْهَر ، ويُرَفْرِفُ سِجِلُّه على الشرع المُطَهَّر ؛ كَمْ حَلَّتْ فى صُدوره صُدُور ، وكم طلعَتْ منهم شُمُوسٌ وبُدُور ، وكَمْ حُمِدَتَ منهم أمورٌ عاقبة ولله عاقبةُ الأمور ؛ كَمْ أَدَاء دَرْسٍ بهم ذُكِر ، وكَمْ أَدَب نَفْسٍ شُكِر ؛ كَمْ بِهِم مَجْدٌ رَسَخ ، وجَدٌّ لمِلَّة مِمالاةٍ نَسَخ ؛ كَمْ أَقْضِيَةٍ لهم بالحق وَصَلَتْ ، وقضيَّةٍ للحقِّ فَصَلَت ، ومهنة من غَلَبِهم اللاحق حصَلَت ؛ كم سِجِلٍّ صاحبُ هذا المنصب حاملُ عَلَمِه المنشور ، ومصباح دِيمِه الحافلة علىٰ مَرِّ الدُّهور ؛ بشرف مُدَرِّس عِلْمٍ يطْلُع من محرابه ، ونَسَّاك حلم يبدو بَدْرُه التَّمامُ خلف سحابه ؛ ومَجْلِس إفادةٍ ، آنعقد عليه فيه الإجماع ، ومَحْفِلِ سَادَةٍ ، كان فيهم وَاسِطَةَ عِقْدِ الأجتماع .

[ولما] تزلزلت قَدَمُ مَنَابِره ، وآنْتُهِكَ حِجَابُ ضَمَائِره ، وآستزلَّه الشيطانُ بكيده المتين ، وأضله علىٰ علمه المبين ؛ وسَبَق القَلَمُ الشَّرعيُّ ، بما هو كائن ، ومَضَى الحكمُ القَطْعِيُّ ، بما هو من تصرُّفه بائن ــ تردّد الأختيار الشريف فيمن نُحَلِّى جِيدَهُ بتقليدها ، ونُؤَهِّلُ يَرَاعَهُ لتسليم مقاليدها ؛ وصَوَّبْنا صَوَاب النَّظَر فيها مِصْرًا وشَاما ، وآستشرفنا أعلاما ، وتَيَقَّنا لأقوىٰ ما يكون [لها] قواما ؛ وابتكرنا أنه لا يصلُح إلا من كان لحُلَّة المَجْد طِرَازا ، ويزيدُ العَمَلَ إليه آعتزاء والعِلْمَ به آعتزازا ؛ إلىٰ أن أَجْمَعَ رأيُنَا العالى علىٰ من لا يُنْكِر ذُو قَدَم ولَا قَدَم ولا قَلَم ، أنه السابق ؛ ولا يَجْحَدُ رَبُّ عِلْمٍ ولا عمل ولا عَلَم ، أنه الباسق . ولا يُشَكُّ أنَّ مِنْ فوائده يُسْتَمَدُّ المَطَر ومن توقُّد ذهنه يُقْدَحُ زِنَادُ البَارِق ، ولَا يرتَاب البحر أن فرائده ما يُطَوِّقُ العُنُق ويُشَنِّفُ الأُذُنَ ويُتَوِّجُ المَفَارِق ؛ ولا يُمَارَىٰ فى فَضْله الذى لو طُلِبَ له مَثِيلٌ لم يُصَبْ ، ولو آدَّعَىٰ الكَوْكَبُ السَّارى أَنَّه له شَبِيهٌ لَمَسَّهُ النَّصَبْ ، أو تَلَفَّتَتْ أعناق القنا إلىٰ قَلَمه لأيْقَنَتْ أنها كَلٌّ على القُضُبْ ؛

وهو الذى أفنىٰ عُمْرَه فى تحصيل العلم آشتغالا ، وجدّ فى الطَّلَبِ لصالح العَمَلِ وإن تَعَالَىٰ ؛ وبَقِىَ فَقِيهَ قَوْمٍ ما جَدَّ منهم مِثْله مَاجِد ، ولا جَادَتْ يَدُ كَرِيمٍ منهم تمتدّ بما هو جَائِدْ ؛ ودَرَجَ أقرَانُه إلى الله وخُلِّىَ دونهم شَرْعًا لا يرِدُ واردا ، وخُلِّفَ بعدهم سَهْمًا فى الكنانة وَاحِدًا .

وكان المجلس العالى ــ أدام الله تأييده ــ هو الذى تَخْتَالُ به المَنَاقِب ، وتَخْتَار فَضَائِلَه العواقب ؛ وتُشْرِقُ بقَلَمِه الفَتَاوَىٰ إشراق النّهار ، وتُغْدِق مَنَافِعُه إغداق السُّحُب بالأمطار ، وتُحْدِقُ به الطَّلَبَةُ إحداق الكِمَامَة بالثَّمَر والهَالَات بالأقمار ؛ وهو شَافِى عِىِّ كُلِّ شَافِعِىّ ، ودَوَاءُ أَلَمِ كُلِّ أَلْمَعِىّ ؛ طالما جَانَبَ جَنْبُه المَضَاجِعَ سُهادا ، وقَطَعَ الليلَ ثم آستمدّه لمدد فتاويه مِدَادًا ؛ وجَمَع بين المذهبين نَظَرًا وتقليدا ، والمُذْهَبَيْنِ من القولين قَدِيمًا وجديدا ؛ وسلك جَمِيعَ الطرق إلىٰ مذهب إمامه ، وملك حِسَانَها فأسفر له [كل] وجه تَغَطَّى من أوراق الكتب بِلِثَامه ؛ وآنفتحت [بفهمه] للتصانيف أبواب شَغَلَت « القَفَّالَ » أَقْفَالُهَا ، ونَفَحَتْ له نَفَحَاتٌ ما « للمَاوَرْدِىّ » مِثَالُهَا ، وسفحت دِيَمٌ غِزَارٌ يسق «المزنى» سِجَالُهَا ، ومنحتْ حللا يَفْخَر «الغَزَالِى» إذا نُسِج علىٰ مِنْواله سربالُهَا .

فرسم بالأمر الشريف ــ لا زال يجدّد مَلَابِسَ فَضْلِه ، ويقلِّدُ كُلَّ عَمَلٍ لصالح أَهله ــ أن يفوّض إليه قضاءُ قضاة الشافعية بدمشق المحروسة وأعمالها وجُنْدها وضَوَاحِيها ، وسَائِر الممالك الشامية المُضَافَةِ إليها والمَنْسُوبةِ لها والمحسوبَةِ فيها ؛ يُوَلَّى ذلك ولايةً صحيحةً شَرْعِية ؛ علىٰ عادة من تقدّمه وقَاعِدَته المَرْعِيَّة ؛ مع ماهو مضاف إلىٰ من كان قبله من تدريس المدارس ، تَفْوِيضًا لا يُنَافِسُه فيه مُنَافِس ، ولا يجالسه فى درسه إلا من ارتضىٰ من النجوم ان يجالس ؛ وأَذَنًا له أن يَسْتَنِيبَ عنه من

لا يَخْجَلُ عند الله ولا عِنْدَنا باسْتِنابَتِه، ولا يُدَاخِلُهُ ظَنٌّ فى خَلَاص ذمته بإنابته إلى الله فى نيابته ؛ على أنه يتفقدُ أعْمالَهم، ويتصفَّحُ أحْوالهم : فمن نَقَلَ إليه ثِقاتُه أنه على طَرِيقٍ مُسْتقيم أقرّه، وإلا صَرَفه ثم لايكون لَهُ إلى عَمَله كَرَّه؛ وهو القائم بحُجَّة الشرع الشريف وحجةُ الله عليه قائمه، وعليه إن قَصَّر ــ والعياذ بالله ــ فى أموره تَعُودُ اللّائمه؛ وأنت تعلم أنّا ما كُنّا نعرفك عِيَانا، وإنما وُصِفْت لنا حتى كأنَّا نَرَاك وسَمِعْتَ بما نحن عليه حتى كأنَّك تَرَانا؛ فَشَيِّدْ لمن شَيَّدَ لك شُكْرَهم أركانا، وأَعْلِ ذِكْرَهُم لِمَجْدِك بنيانا، وجَعَلَ لك قَدْرُهم الجميلُ مِنّا سلطانا؛ وأَقِمْ بحُسْنِ سُلُوكك على ماقالوا فيك بُرْهَانا؛ واعْرِفْ لهم حَقَّ معروفهم وجَازِهِمْ عن حُسْن ظَنِّهم بالحسنات إحسانا .

ونحن نُوصيك بِوَصَايَا تشهد لنا يوم القيامة عَلَيك بِبَلَاغِها، ويَعْتَرِضُ منها فى الحُلُوق شَجًا : فأَىُّ الرجالِ يَقْدِر على مَسَاغِها؛ فإن قُمْت بها كَانَ لَنا ولك فى الأجر آشتراك، وإنْ أَضَعْتَ حقوقَها فالله يَعْلَم أنا أخرجنا هذه الأَمَانَةَ من عُنُقِنا وقَلَّدْنَاك، وَالله وملائكتُه بيننا و بينك شهود على ماأوليناك وما وَلَّيناك ؛ فعليك بتَقْوى الله فى السِّرِّ والإعلان، والعَمَلِ بما تعلمه سَوَاءٌ رَضِىَ فُلَانٌ أو سَخِطَ فُلَان ؛ والانتهاء إلى ما يقتضيه عُمُومُ المصالح، وإمْضاء كل أمْرٍ على ماأمر الله به رسولَه صلّى الله عليه وسلّم وكان عليه السَّلَفُ الصَّالح ؛ وإِقَامَة حُدُود الله ولا تَتَعَدَّ حدودَه، وقَمْع البِدَع لإظهار الحق لا لإثارة فِتْنَةٍ مَقْصُودَه؛ فقد عَلِمْتَ ما أنكرتَه أنْتَ وأمْثالُك من الأئمة العلماء عَلى من تَقَدَّمَك من تَسَرُّعِه فى مِثْل ذلك، وتَطَلُّعه إلى مَطَالبَ سقط دُونَها فى مَهَاوِى المَهالك؛ فإيَّاكَ إِيَّاكَ أن تَتَّبِعَ فى هذا النَّحْوِ سُبُلَه، أو «تَنْهَ عن خُلُقٍ وتَأْتِىَ مِثْلَه» .

والصدقات الحكمية علىٰ مادّة المَسَاكين، وحادّة الشّاكين؛ ففرّقها علىٰ أهلها، وآجمع لك الحسنات عند الله بتبديد شملها؛ ولا تُبْقِ منها بقية تَبْقَىٰ معرّضة لآكلها، فلو أراد وَاقفُوهَا — رحمهم الله — أنها تَبْقَىٰ مخزونة، لَمَا سَمَحُوا ببذلها؛ وبقية الأوقاف شارِفْ في أمورها، وشارِكِ الوَاقفِينَ — رحمهم الله — في أجورها؛ وخُصّ الأسارَىٰ — أحسَنَ اللهُ خَلاَصَهُم — بمـا يصل به إحسانك إليهم، ويَضَعُ عنهم إصْرَهُمْ والأغْلاَلَ الّتي كَانَتْ عَلَيهِم .

والأيتام — جَبَرَهُمُ اللهُ — : منهم الطّفل والمُمَيِّز والمُرَاهِقُ ومَنْ لم يملك رُشْدَه، أومن يحتاج أن يبلُغ في جواز التصرّف أَشُدَّه؛ وكُلُّ هؤلاء فيهم من لا يعلم من يضرّه ممن ينفعه ، ولكن الله يعرفه وفي أعمـاله يَرْفَعُـه؛ فاجتهد أن تكون فيهم أبًا برّا ، وأن تَتّخِذَ فيهم عند الله أجْرا ، وأنْ تُعامِلَ في بَنِيكَ بمثـل ماعَامَلْتَهم إذا آنقلبت إلى الدّار الأُخرىٰ، وآحْفَظْ أموالَهُم أن تَنْتَهِكَهَا أُجْرَةُ العُمّال، وترجع في قِراضها إلىٰ مايُجْحِف بِرءوس الأموال؛ ومَثّل أَعْمَـالَكَ [المعروضة] على الله في صحائفها المعروضه، وآحْذَرْ من المعاملة لهم إلا بفَائِدَةٍ ظاهرة ورُهُنٍ مَقبُوضَه .

والجِهَاتُ الدِّينِيّةُ هي بِضَاعَةُ حِفْظك، ووَدَاعَة لحظك، فلاتُوَلِّ كُلَّ جِهَةٍ إلا مَن هو جامعٌ لشرطها، قَائِمٌ بموازين قِسْطِها .

والشهود هم شهداءُ الحَقّ، وأُمَنَاءُ الخلق ؛ وعلىٰ شَهَادَاتِهم تُبْنَىٰ الأحكام ، فإيّاك والبِنَاءَ علىٰ غير أَسَاسٍ ثابِتٍ فإنّه سريعُ الآنهدام؛ ومنهـم من يشهدُ في قِيمَةِ المِثْـل ويتعين أن يكون من أَهْلِ البَلَدِ الأمْثَل، لأنه لايَعْرِفُ القيمةَ إلّا مَن هو ذُو سَـعَةٍ مموّل؛ ومنهم مَنْ أُذِنَ له في العُقُود فامنع منهم من تسهل بسَبَبٍ من الأسباب ، وما تمهّل إشْـفَاقا لآختـلاط الأنسال والأنساب؛ يقبـل بالتعريف مايخلو من الموانع

الشرعية مَنْ كان، ولا يُحْسِن فى تزويجه يُمْسك إمْسَاكًا بمعْرُوف ولا يُسَرِّحُ تَسْرِيحًا بإحسان؛ وهؤلاء مَفَاسِدُهم أكثرُ من أن تُحْصَى، والبلاء بهم أكبر من أن يُسْتَقْصَر أو يُسْتَقْصَى؛ فاعْتَبِرْ أحوالَهُمُ اعتبارا جليًّا، وفكِّرْ فى استدراك فَارِطِهم فكرًا مَلِيًّا؛ ومَنْ لم يكُنْ له من العِلْمِ والدِّينِ ما يُوضِّحُ له المُشْتَبِهات، فإيَّاكَ وتَرْكَه فرُبَّ مُعْتَقِدٍ(١) أنَّه يَطَأُ وطأً حَلَالا وقد أوقعه هذا ومثلُه فى وَطْءِ الشُّبُهات؛ ومنهم من يعمدُ إلى التَّحْليل، ويرتكبُ منه محْذُورًا غيرَ قليل؛ وهو بعَيْنِه نِكَاحُ المُتْعَةِ الذى كان آخِرَ الأمرين من رسول الله صَلَّى اللهُ عليه وسلم النَّهْىُ عنه، وقام أمير المؤمنين عُمَرُ ابن الخطاب رضى الله عنه مُحَذِّرًا منه؛ فاحْسِمْ هذه المادّة الرَّدِيَّةَ التى تُؤْلِمُ عضوا فيسرى إلى سائر الأعضاء أَلَمُهَا، ويَبْقَى فى كثير من الذَّرارِىِّ المولودة من هذه الأنكحة الفاسدة تَلَمُّهَا.

والرُّسُلُ والوكلاءُ بمجلس الحكمِ العزيز ومَنْ يَلْمِزُكَ فى الصَّدَقات، وما نزل فى أمورٍ ما يريدون بها تقليدَ حكمك بل ما يقضون به الأوقات؛ فلا تَدَعْ ممن تريد منهم إلا كلَّ مَشْكُورِ الطريق؛ مشْهُورِ القصة بين الخصوم بطلب التوفيق.

والمَكَاتِيبُ هى سهامك النَّافِذَه، وأحكامك المؤاخذه؛ فَسَدِّدْ مَرَامِيها، ولا تُرْدِفها ماعرض عليك من الأحكام حتى لا يسرع الدخول فيها؛ والمَحَاضِرُ هى محل التقوِّى، فاجتهد فيها اجتهادا لاتَذَرُ معه ولا تُبْقِى.

وأما قضايا المتحاكِمين إليك فى شكَاوِيهم، والمُحَاكَمِين فى دَعَاوِيهم، فأنْتَ بهم خَبِير، ولهم نَاقِدٌ بصير؛ فإذا أَتَوْكَ لتَكْشِف بحكمهم لَأْوَاءَهُم، فاحْكُمْ بينهم بما أَرَاكَ اللهُ ولا تَتَّبِعْ أهواءَهُمْ؛ وقد فَقَّهَكَ الله فى دِينِه، وأوردَك من مَوَارِدِ يَقِينِه، ماجعله لك

(١) فى الاصل: منفعة وهو خطأ.

نُورًا، وجَلَاه لك سُــفُورًا ؛ وأقَامَه عليك سُورًا، وعَلَّمَك مالم تَكُنْ تعلمُ منه أُمُورًا، فإن أشْكَلَ عليك أمْرٌ فرُدَّه إلىٰ كتاب الله وسُنَّة رسوله صلَّى الله عليه وسلم و إجْمَاع أصْحَابِه فإن لم تَجِدْ فعِنْدك من العلماء من تَجْعَلُ الأمر بينهم شُورَىٰ ؛ ولأمير المؤمنين عمرَ بنِ الخَطَّاب رضى الله عنــه كتابٌ كَتَبَه إلىٰ بعض القُضَاه، فَاْعْمَــلْ بمقتضاه، وٱعلم بأنَّ الله تعالىٰ قد ٱرتضاك لخلْقِه فاعمل علىٰ رِضَاه .

والأئمة العلمــاء هم إخوانك فى الدِّين ، وأعوانُك علىٰ رَدْعِ المُبْتَدِعِين، ولِسَانُك فى المَحْفِلِ وجَنَاحُك إذا جلسوا ذَاتَ الشمال وذَاتَ اليَمِينِ ؛فَنَزِّلْهم منازلهم التى أحلهم الله فى شُرُفَاتِهــا ، وبَوِّأْهُمْ رفيــع غُرُفَاتِها ، وتَأَلَّفْ خَوَاطِرَهم فإنَّك تنظر إلىٰ كثــير من الأمور فى صَفَاءِ مُصَافَاتِها .

ومن نُسِب إلىٰ خِرْقَة الفــقر وأهل الصــلاح هم أولياء الله المقَرَّبُون ، وأحِبَّاؤُه الأقربون ، فعَظِّمْ حُرُمَاتِهم، وجَانِبْ محاباتِهم، فما منهم و إن ٱختلفت أحوالهم إلا من هو علىٰ هُدًى مُبِين، وٱحْرِص أن تكون لهم حِبًّا يملأ قلوبهــم (١) فإنَّ الله ينظر إلىٰ قَوْم من قُلُوب قَوْمٍ آخَرِين .

وٱنْتَصِبْ للدروس التى تَقَدَّمْتَ بها علىٰ وافد الطلبة فإنَّ الكرم لا يمحقه الٱلْتماس، والمصباحَ لايُفْنِي مُقَلَه كثرةُ الٱقتباس، والغمام لايَنْقُصُه تَوَالِى المَطَر ولا يَزِيدُه طُولُ الٱحتباس، والبحر لايَتَغَيَّرُ عن حاله وهو لايخلو عن الوُرَّادِ فى عَدَد الأنفاس.

والوَصَايا كثيرة و إنَّمــا هذه نُبْذَةٌ جامعه ، و بارِقَةٌ لَامعَه ؛ ومنك يُسْــتَفَاد بِسَاطُ القَوْل، وٱنبساط الطَّوْل؛ ولهذا يُكْتَفَىٰ بمــا فيك ، والله تعــالىٰ يَكْفيك ، ويُحْصِى حِسَابَ أعمالك الصَّالِحة ليوفيك؛ حَتَّى تَجِدَّ فلا يتخلَّفُ بك السير،وتَسْتَعِدَّ ليُخْتَمَ لك بخاتمة الخَيْر ، والٱعتماد على الخط الشريف .

(١) فى الأصل «حبلا يملا فى قلوبهم» فتأمل .

*
* *

قلت : وهذه نسخة توقيع بقضاء، أنشأتُه بدمشق للقاضى «شرف الدِّين مسعود» وهى :

الحمد لله الذى شيَّد أحكام الشَّرع الشريف وزَادَ حُكَّامَه فى أيَّامنا شَرَفا ، ورَفَع مَنَارَ العلم علىٰ كُلِّ مَنارٍ وبوَّأَ أَهْلَه من جَنَّات إِحْسَانِنَا غُرَفًا، وأَبَاحَ دَمَ مَن أَلْحَدَ فيه عنادًا أو وَجَّهَ إليه طَعْنا، وأَوْجَبَ الانقيادَ إليـه بقوله تعـالىٰ : ﴿ إِنَّمَـا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾؛ وألهَمَ الصواب فى آختيار من لم يَزَلْ لهذه الرتبة مُعَدًّا ومن رجالها مَعْدُودا ، وصَرَفَ وجه إقبالنا إلىٰ من آرتضيناه للسلمين حاكما فأصبح بنظرنا مَسْعُودا .

نحمده حَمْدَ مَن آعتنىٰ بالقيـام بشرائع الإسلام وتَعْظيم شَعَائِرِه ، ونَصَحَ للرَّعيَّـة فيمَنْ وَلَّاه عليهم وأعطىٰ مَنْصِبَ الشرع حَقَّه بتقديم أكابره. ونشهد أن لا إله إلا الله وحدَهُ لاشريك له شهادة يَقْضىٰ لصاحبها بالنَّجاة من النَّار، ويُسَجِّلُ لقائلها بالثبوت فى ديوانِ الأبرار ؛ وأن محمدا عبـدُه ورسولُه الذى شَرَطَ الإيمَـانَ بالرضا بحكمه وأَوْجَبَ طاعته أمْرًا ونَهْيًا وآستجابةً وتحكيما، فقال تعالىٰ : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِـدُوا فِى أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّـا قَضَيْتَ وَيُسَـلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ . صـلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه الذين نحن بسِيَرِهم مُهْتَـدُون، وبآثارهم مُقْتَدُون، وعلىٰ آله وصحبه الغُرِّ الكِرَام الذين قَضَوْا بالحقِّ وبه كانوا يَعْدِلُون؛ صلاةً لا يختلف فى فَضْلِها آثنان، ولا يتنازَعُ فى قبولها خَصْمان؛ وسلَّمَ تسليما كثيرا .

وبعـد، فلما كانت مرتبة الشرع الشريف هى أعْلَى المراتب، ومَنْصِبُ حُكَّامه فى الورىٰ أرفَعَ المناصب؛ إليه تَنْتَهِى المخاصمات فيفصلها ثم لا تَعْدُوه، ويحكم فيه على

الخصم فيذعن لحكمه ثم لا يشنؤه، بل يفترق الخصمان وكل منهما بما قضي له وعليه راض، ويقول المتمرد الجائر لحاكمه: قد رضيت حكمك فاقض في ما أنت قاض. وناهيك رتبة كان النبي صلى الله عليه وسلم هو المتصدي للقيام بواجبها، والخلفاء الراشدون – رضوان الله عليهم – محافظين على أداء رواتبها؛ ثم اختص بها العلماء الذين هم ورثة الأنبياء من الخليقة، واستأثروا بها دون غيرهم من سائر الناس فهم أهلها على الحقيقة، إذ لا يؤهل لهذه الرتبة إلا من ارتقى إلى درجات الكمال، واتصف بأحسن الأوصاف واحتوى على أنفس الخصال، وتضلع من العلم الشريف بما يرويه، وفاق في العقل والنقل بما يحثه ويرويه.

ولما كان المجلس الفلاني: هو عين هذه القلادة وواسطة عقدها، وقطب دائرتها وملاك حلها وعقدها، إذ هو «شريح» الزمان ذكرا، و«أبو حامد» سيرة و«أبو الطيب» نشرا، لا جرم ألبسته أيامنا الزاهرة من الحكم ثوبا جديدا، وأفاض عليه إنعامنا نحلة نعقبها – إن شاء الله تعالى – مزيدا.

فلذلك رسم بالأمر الشريف – لا زالت الشريعة المطهرة بمناصرته في أعز صوان، وحكامها بمعاضدته في أعلى درجة وأرفع مكان – أن يفوض إليه ... ...

فليباشر هذه الوظيفة مباشرة مثله لمثلها، وليعمل بما يعلمه من أحكامها فهو ابن بجدتها والخبير بمسالك وعرها وسهلها؛ فهو الحاكم الذى لا يساوى، والإمام الذى يقتدى به في الأحكام والفتاوى؛ فعليه بالتأني في الأحكام، والتثبت فيما يصدر عنه من النقض والإبرام؛ ولينظر في الأمر قبل الحكم المرة ثم الأخرى، ويكرر النظر في ذلك ولو أقام شهرا؛ ويراجع أهل العلم فيما وقف عليه ويشاورهم فما ندم من استشار، ويقدم استخارة الله تعالى في سائر أموره فما خاب من استخار؛ وليحذر

مع الحقّ كيف دار ، ويتّبع الصّواب أنّى توجّه ويقتفى أثره حيث سار ؛ وإذا ظهر له الحقّ قضى به ولو على ابنه وأبيه ، وأعزّ أصدقائه وأخصّ ذويه ، غير مفرّق فى فصل القضاء بين القوىّ والضّعيف ، والوضيع والشّريف ؛ ولا مميّز فى تنفيذ الحكم بين الغنىّ والفقير ، والسّوقة والأمير ؛ وليُسوّ بين الخصوم حتّى فى تقسيم النظر إليهم ، كما فى موقف الحكم وسماع الدّعوى وردّ الأجوبة فيما لهم وعليهم ؛ وليستخلف من النوّاب من حسُنت لديه سيرتُه ، وحُمِدت عنده طريقتُه ؛ ويوص كلّاً منهم بما نوصيه به ويبالغ فى تأكيد وصيته ، ويستحضر السر فى قوله صلى الله عليه وسلم : « ألا كُلُّكُمْ راعٍ وكلكم مسئول عن رعيّته » . وليُمعن النّظر فى أمر الشهود الذين تترتب على شهادتهم أمور الدنيا والفُروج والأموال ، ويتفقّد أمرهم فى كل وقت ولا يغفل عنهم فى حال من الأحوال ؛ ويحملهم من الطرائق على أحسن وجهها : وأحقّهم بإمعان النظر شهودُ القيمة والعمائر ، الذين يُقطع بقولهم فى أملاك الأيتام والأوقاف مما تنفر عنه القلوب وتنبو عنه الضمائر .

والوكلاء والمتصرّفون فهم قوم فضل عنهم الشرّ فباعوه ، واستُحفظوا الوُدّ فلم يرعوا حقه وأضاعوه ؛ فهم آفة أبواب القضاة بلا نزاع ، كيف وهم الضّباعُ الضّارية والذّئابُ الجياع . وما تحت نظره من أوقاف المدارس والأسرى والصّدقات ، وغيرها مما يقصِدُ به واقفوه وجهَ البر وسبيل القُرُبات ؛ يُحسنُ النظر فى وجوه مصارفها ، مع حفظ أحوالها الذى هو أغيا مراد واقفها .

وأهل العلم أبناءُ جنسه الذين فيهم نشأ ومنهم نجم ، وجُنده الذين يقصدونه بالفتاوى فيما قضى وحكم ؛ فليوفّر لهم الإحسان ، ويصنع معهم من المعروف ما يبقى ذكره على ممرّ الأزمان ؛ ومثله لا يحتاج إلى كثرة الوصايا ، وثوقاً بما عنده من العلم

بالأحكام والمَعْرِفَة بالقضايا ؛ لَـٰكِنْ عليه بتقوى الله ومراقبته يكن له ممـا يتبوءه ظهيرا ، ويَسْتَرْشده فى سائر أموره يجعـلْ له من لَدُنْه هاديا ونصـيرا ؛ والله تعالىٰ يبلغ وَاثِق أَمَلِه من كَرَمِنا مَرَاما ، ويُوَطِّئُ له المِهَادَ ببلدٍ حَسُنتْ مسـتقَرا ومُقاما . إن شاء الله تعالىٰ .

⁂

وهذه نسخة توقيع بقضاء قُضَاة المـالكية بالشام، من إنْشَاء الشيخ شِهَاب الدّين محمود الحلبيّ تَغَمَّده الله برحمته، وهى :

الحمد لله جاعل المَذَاهِبِ الشَّرعيَّـة فى أيامنا الشريفة زَاهِيَةً بأركانهـا الأربَعَه ، مستقِرّةً على النِّظام الذى غدتْ به قواعدُ الحُجَّةِ محكمَةً ومَوَاقِعُ الرحمة مُتَّسِعه، فإذا خلا رُكْنٌ من مُبَاشَرَةٍ أَقَمْنَا من تكون القلوب علىٰ أولَوِيّته مُجْتَمِعه، وٱنتقينا له من الأتقياء من تَغْدُو به الأئمةُ حيث كانت مُنْتَفِعَه ، وٱستدعينا إليه من تَغْدُو الأدعية الصالحة لنـا بتفويض الحكم إليـه مُرْتَفِعَه ؛ الّذى خَصَّ مذهبَ « إمام دار الهجرة » بكل إمام هَجَرَ فى التَّبَحُّر فيه دواعى السُّكُون وبَوَاعِثَ الدَّعَه ، وجَمَّلَ مَنْصِبَ حُكْمِه بمن كَمُلَ بعلوم الدين فَخْرُهُ فإذا حكم غَدَت الأَقْضيَةُ لحكمه مُنَفَّذَةً وإذا قَضَىٰ أَضْحَتِ الأحكام لأقضيته مُتَّبِعه .

نحمَـده علىٰ نِعَمه التى جَعَلَت مُهِمَّ الشَّرع الشريفِ لَدَيْنَـا كالٱسـتفهام الذى له صدر الكلام ، وبِمَثَابَةِ النِّيَّة المقدّمة حتّى [علىٰ] تكبيرة الإحرام ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة أَثْبَتَ الإخلاصُ حُكْمَها ، وأَحْكَمَ الإيمـانُ عِلمها ، وأَبْقَىٰ اليقـينُ علىٰ صَفَحَا تِ الوُجُوه والوُجُودِ وَسْمَها المُشْرِقَ وٱسْمَها ؛ ونشهد أن محمدًا عبـدُه ورسولُه الذى أَخَذَ الله ميثاق النَّبِيِّـين فى الإقرار بِفَضْلِه ، وأرسله ﴿بالهدىٰ

ودِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾؛ وخَصَّه بالكتاب الذى أَخْرس الأُمَمَ عن مُجَارَاته فلو ﴿ٱجتمعت الإِنْسُ والجِنُّ علىٰ أن يأتوا بمثل هذا القرءان لَايَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾؛ صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبِه الذين تمسكوا بسَنَنِه وسُنَّتِه، وأَوْضَحُوا شَرْعَه الشريفَ لمن تلقّاه بعدهم من أئمة أمته؛ صلاة لا تزال بِقَاعُ الإيمـان لأحكامها منْبته، وأنواء الإيقان لأُوَامها مُقْلِتَة(١)؛ وسلم تسليما كثيرا.

وبعـد، فإنه لمـا كانت الأحكامُ الشرعيةُ تتوقفُ علىٰ ملاحظة قضاءِ قُضَاتها فى غالب الأمور، وتستند إلىٰ مُرَاجَعَةِ أُصُول حُكَّامها فى أكثر مصـالح الجمهور، لم يكن بُدٌّ من مُرَاعَاةِ أُصُولهـا التى إنمـا تَثُوبُ الفروعُ عنها، وتَدَبُّرِ أحوال أحكام حُكَّامِها التى تَنْشَأُ أقضية النوّاب منها؛ ولذلك لمَّـا أَصبح منصب قضاء القضاة علىٰ مذهب الإمام «مَالِك بن أَنَس» رضى الله عنه بالشَّام المحروس لضَعْف مباشره المتـدّ، فى حكم الخـالى، وتعطل بعجزه المشتدّ، ممـا أُلِف به قديمـا حال حكمه الحالى؛ وتمَـادَىٰ ذلك إلىٰ أن تَرَقَّىٰ الناسُ منه إلىٰ دَرَجة اليَقِين؛ وتَنَاهَى الحكمُ فيه إلىٰ أن يعين أن يُرْتَادَ من يَتَعَيَّنُ لمثله من الأَئِمَّة المُتَّقِين؛ لئلَّا يخلُوَ هذا المذهبُ من قاضى قضاة يُقِيمُ مَنَارَه، ويُدِيمُ أنوارَه، ويرفع شِعَارَه، ويُحْيِى مآثِرَ إمَامِه وآثَارَه، ويُؤَمِّنُ كَمَالَ أفقه أن يُعَاوِدَ سِرَارَه؛ وكان المجلس السامى، القاضوىّ، الفخرىّ، هو الذى لا يَعْدُوهُ الاَرْتِيَاد، ولا يَقِفُ دونَه الانْتِقاءُ والانْتِقاد، ولا تجاوَزُه الإصابة فى الاجتهاد: لمَـا عليه من عِلْمٍ جعله مخطوبا للمناصب، وعَمَلٍ تركه مَطْلوباً للمراتب التى لا تُذْعِنُ لكلِّ طالب؛ وتُقًى أعاده مُرْتَقِيًا لكلِّ أُفُقٍ لا يصـلح له كلُّ شارق، ووَرَعٍ فتح له أبواب التَّلَقِّى بالاَسـتدعاء وإن لم تُفْتح لكلِّ طارق؛ وقد هَجَرَ الكَرا فى تحصـيل مذهب «إمام دار الهجرة» إلىٰ أن وَصَل إلىٰ ما وَصَـل، وأَنْفَقَ مُدَّة

---

(١) الأوام شدّة العطش ومقلته مهلكه.

عُمْره فى ٱقتناء فوائده إلىٰ أن حَصَل من الثَّرْوَة بها علىٰ ما حَصَل ؛ فسارت فَتَاوِيه فى الآفاق ، ونَمَتْ بَرَكَات فَوَائده التى أَنفقها على الطَّلَبَـة فزَكَتْ على الإنفـاق ـ ٱقتضت آراؤنا الشريفة أن نُبْقِى فخْرَ هذا المنصب الجليل بفَخْرِه ، وأن نخُصَّ هذا المَذْهَبَ النبيل بذخره ، وأَنْ نُحَلِّيَ جِيدَهُ بمن نَقَلْنا إلىٰ وِشَام الوسام ما كان من حُسْن شَنَبِ العلم مُخْتَصًّا بثَغْرِه .

فرسم بالأمر الشريف ـ لا زالَ لأحكـامِ الشرع مُقيما ، وللنظر الشريف فى عموم مصالح الإسـلام وخصوصها مُدِيمًا ؛ أن يفوّض إليـه ... ... لمـا تَقَدَّمَ من تَعَيُّنه لذلك ، وتَبَـيَّنَ من أنَّه لحكم الأولوية بهـذه الرتبة فى مذهب الإمام مالك مالك .

فَلْيَلِ هـذه الوظيفةَ حَاكِمًا بمـا أراه الله من مَذْهَبِه ، مُرَاعِيًا فى مباشرتها حقَّ الله فى الحكم بين عباده وحَقَّ مَنْصِبِه ، مجتهدا فيما تَبْرَأُ به الذمةُ من الوقوف مع حكم الله فى حَالَتَىْ رضاه وغَضَـبِه ، وَاقِفًا فى صِفَةِ القَضَاء علىٰ ما نُصَّ فيه من شروطه وأُوضِحَ من قواعده وشُرِح من أَدَبِه ؛ مُمْضِياً حقوقَ رسول الله صلَّى الله عليه وسلم فيما يقتضيه رَأْىُ إِمَامه ، مُتَوِّجًا الحكمَ بنصوصه المجمع عليها من أَئِمَّة مذهبه فى نَقْض كُلِّ أَمْرٍ وإِبْرامه ؛ جَارِيًا فى ذلك علىٰ قواعد أَحْكام هذا المَذْهَب الذى كان مُشْرِقا فى ذلك الأُفُق بجماله وزَيْنه ، وَاقِفًا فى ذلك جميعه مع رضا الله تعالىٰ فإنَّه فى كُلِّ ما يأْتى ويَذَر بعَيْنه ؛ والله تعالىٰ يسدّده فى قوله وعمله ، ويبلّغه من رضاه نِهَايَةَ سُوله وغَايَةَ أَمَله ؛ بمنّه وكَرَمه ! إن شاء الله تعالىٰ .

***

وهـذه نسخة توقيع بقضاء قضاة الحنـابلة ، كُتِبَ بها للقاضى عَلَاءِ الدِّين «منجى التنوخى» وهى :

الحمد لله الذى رفع بعلاء الدين قضاء قضاته، وأوضح الهدى فى القيام فى توليتهم بمفترضاته، وأعلى منار الشرع بما أوقفهم عليه من أحكامه ووفقهم له من مرضاته.

نحمده حمدا نستعيذ من بركاته، ونستعيذ به أن نضل فى ضوء مشكاته، ونستعين ليه برب كل حكم يمدنا قلبه بسكونه وقلمه بحركاته، ويثبت من جميل محضره لدينا ما يرفع مس شكاته؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة يستودع إخلاصها فى قلوب تقاته، وتفوض أحكامها إلى ثقاته، ويحمى سرحها من أبطال الجلاد والجدال بكل مشتاق إلى ملاقاته؛ ونشهد أن محمدا عبده ورسوله أفضل من حكم بما أنزل الله من آياته، وجاهد فى الله برأيه ورآياته، وشرع من الدين ماينجى المتمسك به من غواياته؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين أقام شرعه منهم بكماته، وجعل حكمهم دائم النفوذ أبدا بأقلام علمائه وسيوف حماته؛ وسلم تسليما كثيرا.

وبعد، فمنصب الحكم الذى به تفصل الأمور، وتنفرج له الصدور، وتسدد أقلام حكامه سهاما، وتفيض غماما، وتتعلم منه الأسود زئيرا، ويطول السيف صليلا والرمح صريرا، وتنتصب بين يدى حكامه الأقدام، وتنتصف على أحكامه الخصام[1]، وتنكس الرءوس لهيبته إطراقا، وتغض المقل فما تدير جفونا ولا تقلب أحداقا، ويجرى بتصريفه قلم القضاء، ويجارى مرهفه البروق فتقر له بالمضاء؛ وقد شيد الله مبانيه فى ممالكنا الشريفة مصرا وشاما على أربعة أركان، وجمع فى قضائه الأئمة الأربعة لتكمل بهم فصول الزمان؛ ومذهب الإمام أبى عبد الله «أحمد بن حنبل» رضى الله عنه هو بالسنة النبوية الطراز المذهب، وطريقة

(١) الخصام جمع خصم كبحر وبحار. انظر المصباح.

السلف الصالح فى كُلِّ مَذْهب؛ وقد تَجَنَّبَ من سَلَف من علمائه التَّأْوِيلَ فى كَثِير، ووَقَفَ مع الكِتَاب والسُّنَّة وكلٌّ منهما هو المصباح المنير.

وكانت دِمَشْقُ المحروسةُ هى مَدَارَ قُطْبِهِم، ومَطْلَعَ شُمُوسِهِم ونُجُومِهم وشُهُبِهم؛ وأَهْلُها كثيراً مَّا يحتاجون إلىٰ حاكم هـذا المذهب فى غالب عقد كل بيع وإيجـار، ومُزَارَعَةٍ فى غِلَالٍ ومُسَاقَاةٍ فى ثِمَار، ومُصَالَحَةٍ فى جوائِحَ سمَاوِيَّةٍ لا ضَرَر فيها ولا ضِرَار، وتَزْوِيجِ كُلِّ مَمْلُوكٍ أَذِنَ له سَيِّدُه بِحُرَّةٍ كَرِيمَة، وٱشْتِراطٍ فى عَقْدٍ بأن تكون الأمْرَأَةُ فى بلدها مُقِيمة؛ وفَسْخٍ إن غاب زوجُها ولم يترك لهـا نفقةً ولا أَطْلَقَ سَرَاحَها، وبَيْعِ أَوْقَافٍ دَائِرَةٍ لا يجـد أَربابُ الوَقْفِ نَفْعًا بها ولا يستطيعون إِصْـلَاحَها.

فلمـا ٱستأْثَرَ الله بِمَنْ كان قد تَكَمَّلَ هذا المَنْصِبُ الشريفُ بشَرَفه، وتَجَمَّـلَ منه بَبَقِيَّة سَلَفه؛ حصلَ الفِكْرُ الشريفُ فيمَن تقلده هذه الأَمَانَةَ فى عُنُقه، وتَنَهِّى هذا المنصب بطلوع هلاله فى أُفُقه؛ إلىٰ أن ترجح فى آرائنا العالية المُرَجَّحُ المُرَجَّى، وتَعيَّنَ واحدا لمَّـا ٱبْتُلِىَ الناس بالقضاء كان المُنَجِّى ٱبنَ المُنَجَّى؛ طالمـا تطرَّزَتْ له الفَتَاوىٰ بالأقلام، وٱلْتَفَّتْ به حَلْقَةُ إِمَام، وخاف فى طَلَبِ العِلْمِ من مُضَايَقَةِ اللَّيالى فمـا نام ـ ٱقتضىٰ حُسْنُ الرأى الشريف أن يفوّض إليـه قضاء القضاة بالشام المحروسة علىٰ مذهب الإمام الربانىّ «أَحْمَدَ بنِ حَنْبَل» الشيبانىّ، رضى الله عنه.

فَلْيَحْكُم فى ذلك بمـا أَرَاه الله من عِلْمِـه، وآتاه من حُكْمِه؛ وبَيَّنَه له من سُـبُلِ الهُدَىٰ، وعَيَّنَه لبصيرته من سُنَنِ نَبِيِّه صلَّى الله عليـه وسلم التى مَن حادَ عنها فقد جار وٱعْتَـدىٰ؛ ولْيَنْظُر فى أُمور مَذْهبِـه ويَعْمَلْ بكل ما صَحَّ نَقْلُه عن إمامه، وأَصْحَـابِه من كان منهـم فى زَمَانه ومن تَخَلَّف عن أَيَّامه؛ وقد كان ـ رحمـه الله ـ إمَامَ حَقٍّ

نَهَضَ وقد قَعَدَ الناسُ تلك المُدَّه، وقام نَوْبَةَ المِحْنَة وقام «سَيِّدُ تَيْمٍ»(١) رضى الله عنه نَوْبَةَ الرِّدَّه، ولم تَهُبَّ به زَعَازِعُ «المَرِّيسِيِّ» وقد هَبَّتْ مَرِيسًا، ولا «ٱبْنُ أَبِى دُوادٍ» وقد جَمَع كلَّ ذَوْدٍ وسَاقَ له من كُلِّ قُطْرٍ عِيسًا، ولا نَكَثَ عهدَ ماقدَّم إليه «المأمونُ» فى وَصِيَّة أَخِيهِ مِن المَوَاثِق، ولا روّعه صوتُ «المعتصم» وقد صَبَّ عليه عذابَه ولا سَيْفُ «الواثق» ؛ فَلْيَقِفَّ علىٰ أَثَرِه، ولْيَقِفْ بمسنده علىٰ مذهبه كله أَوْ أَكْثَره، ولْيَقْضِ بمُفْرَدَاته وما ٱختاره أصحابُه الأخيار، ولْيُقَلِّدْهم إذا لم تختلف عليه الأخبار، ولْيَحْتَرِزْ لدينه فى بَيْع مادَثَر من الأوقاف وصَرْفِ ثَمَنِه فى مِثْله، والاستبدال بما فيه المصلحة لِأَهْـلِه ؛ والفَسْخِ علىٰ مَن غَابَ مُدَّةً يَسُوغُ فى مِثْلها الفَسْخُ وتَرَكَ زَوْجَةً لم يترك لها نَفَقَه، وخَلَّاهَا وهى مع بقائها فى زَوْجِيَّتِه [illegible] إطلاق [illegible]احها لتتزوّج بعد ثبوت الفَسْخ بشروطه التى يبقىٰ حكمها به حكمَ المُطَلَّقَه؛ رفقا [illegible] الجار، وما تَفَرَّع علىٰ قوله صلَّى الله عليه وسلَّمَ : «لَاضَرَرَ ولَاضِرَار» . وأَمْرِ وَقْفِ الإنسان علىٰ نَفْسِه وإن رآه سِوَىٰ أَهْـلِ مَذْهَبِـه، وطلعت به أَهِلَّةُ عُلَمَـاءَ لولاهم لما جَلَا الزمانُ جُنْحَ غَيْهَبِه . وكذلك الجوائح التى يخفّف بها عن الضعفاء وإن كان لا يرىٰ بها الإلزام، ولاتَجْرِى إلا مَجْرَى المصالحة دَلِيلَ الالتزام . وكذلك المُعَامَلَةُ التى لولا الرُّخْصَـة عندهم فيها لَمَـا أَكَلَ أَكْثَرُ الناس إلا الحرام المحض، ولا أُخذَ قسم الغـلال والمُعَامَلُ هو الذى يزرعُ البذر ويَحْرُثُ الأرض؛ وغير ذلك مما هو [محيط] بمفرداته التى هى للرفق جامعـه، وللرعايا فى أكثر مَعَايِشِهم وأَسْبَابِهم نَافِعَه، وإذا ٱستقرّت الأُصُولُ كانت الفُرُوع لها تَابِعَـه، والخط الشريف أعلاه، إن شاء الله تعالىٰ .

---

(١) سيد تيم هو أبو بكر الصديق رضى الله عنه .

المرتبـــة(١) الثـانية

(من تواقيع الوظائف الدينيـة بدمشـق ، ما يُكتب فى قطع الثلث مفتتحا
بـ«الحمـد لله» إن علت رُتبـةُ المُتَولِّى أو بـ«أمّا بعد حمـد الله»
إن آنحطت رُتْبَتُه عن ذلك بـ«المجلس السامى» وفيها وظائف)

الوظيفة الأولىٰ — قَضَاءُ العَسْكر . وبها أربعة قضاة من المذاهب الأربعة ، كما بالديار المصرية .

الوظيفة الثـانية — إفْتَاءُ دار العدل بِدِمَشْق . وبها أربعة : من كل مذهبٍ واحدٌ، كما بالديار المصرية .

الوظفية الثـالثة — الحســبة .

وهذه نسخة توقيع بالحسبة الشريفة :

الحمد لله مُجَدِّدِ النِّعَمِ فى دَوْلتنا الشريفـة لِمَن ضَفَتْ عليـه مَلَابِسُها ، ومُضَاعِفِ المِنَنِ فى أيامنا الزاهرة لمن سَمَتْ به نَفَائِسُها ، ومُولِى الآلاءِ لِمَن بَسَقَ غَرْسُها لَدَيْه فزهت بجماله ثَمَرَاتُها وزَكَتْ مَغَارِسُها .

نحمده علىٰ نِعَمِه التى تُؤْنَس بالشكر أَوَانِسُها ، وتُؤَسَّسُ علىٰ التَّقْوىٰ مَجَالِسُها ؛ ونشهد أَنْ لا إلٰه إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً آستضاء بنور الإيمان قَابِسُها ، وآجْتَنَىٰ ثَمَر الهُدَىٰ غَارِسُها ؛ ونَشْهدُ أَنَّ محمّدا عبدُه ورسولُه أَشْرفُ من أَمْرقَتْ به معالمُ التوحيد فَعَمَرَ دَارِسُها ، وأشْرَقَ دَامِسُها ، صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبِه الذين قلوبهم مَشَاهِدُ الذِّكْرِ وأَلسِنَتُهم مَدَارِسُها ، وسَلَّمَ تسليمًا كثيرا .

(١) فى الأصل الطبقة الثانية .

وبعد، فإنّ أَوْلىٰ من أُمضِىَ له ما كان به أُمِرَ ورُسِم، وجُدِّدَ له من المَنَاصِب الدِّينية ما عُرِف به من قَبلُ ووُسِم، وأُثبِتَ لترَقِّيه ماحُتِم له به من المراتب السنية بمقتضىٰ الاستحقاق وحُكِم ــ من رَقَمَتْ أَوَامِرُنا له حُلَّةَ مَنْصِب يجدّدها الإحسان، وأَمَرَتْ له مَرَاسِمُنا بوظيفة تُؤَكِّد عَوَارِفَنا الحِسَان، وأَنَلْتَ[له] نِعَمُنا مَنْصِبًا أَعدَّ له من كَمَالِ الأَهْلِيَّة أَكْمَل ما يُعدُّه لذلك الإنْسَانُ .

ولما كان فلان هو الذى تحلّىٰ من إِحْسَانِنَا بما يأمن [معه] سعيد رتبته [من] العَطَل، وأَتَمّ من بِرِّنَا وامْتِنَانِنا بمــا هو فى حكم المستَقَر له وإن ألوىٰ به الدَّهْرُ ومَطَل ــ اقتضىٰ إِحْسَانُنا أَنْ نُجَدِّدَ له مَوَاقِــعَ النِّعَم، ونُشَيِّدَ من رجائه مواضعَ ما شَمِلَه من البِرِّ والكَرَم، ونُرِىَ من عَدَقَ بِنَا رَجَاءَ أَمَلِه أَنَّنَا نَتَعَاهَدُ سُقْيَا آمَالِ الأَوْلِيَاءِ والخَدَم .

فلذلك رسم ... ــ لازال بِرُّه شامِلا، وبَدْرُه فى أُفُقِ الإحسان كامِلا ــ أن يُفَوَّضَ إليه نظر الحِسْبَة ويَسْتَمِرّ فى ذلك علىٰ حكم التوقيع الشريف الذى بيَده: لِمَا سبق من اختياره لذلك واصْطِفَائه، وادِّخَاره لهذا المَنْصب من كُفَاة أَعْيَانه وأَعْيَان أَكْفَائه ؛ ولِمَا تَحَلَّىٰ [به] من رِيَاسَــةٍ زانته عُقُودُها، وتَكَمَّلَ له من أَصَالَةٍ ضَفَتْ عليه حِبَرُها وسَمَتْ به بُرُودُها ؛ وتَجَمَّلَ به من نَزَاهَــةٍ أَشْرقت فى أُفُقِ صُعودِها إلى الرتبة الجَلِيلة سُعُودُها، واتَّصَفَ به من كَمَال مَعْرِفَةٍ نُجِّزَتْ له به من مَطَالِبِ المَنَاصب وُعُودُها .

فَلْيُبَاشِرْ ذلك مُعْطِيًا هٰــذه الوظيفةَ من حُسْنِ النَّظَر حَقَّها، مُحَقِّقًا بجميــل تَصَرُّفه تَقَــدُّمَ أَوْلَوِيَّتِه وسَــبْقَها ؛ ولْيَكُنْ لأَمْرِ الأقوات مُلَاحِظا، وعلىٰ مَنْع ذَوِى الغَــدْرِ من الاحتكار المُضَيِّق على الضُّعَفَاء مُحَافِظا ؛ وعلى الغشِّ فى الأَقْوَات مُؤَدِّبًا ؛ ولإجراء المَوَازِين علىٰ حُكْم القِسْط مُرَتِّبًا ؛ ولمن يَرْفَعُ الأسعارَ لغير سَبَب رَادِعا ، ولمن لا يَزَعُه الكلام من المُطَفِّفِينَ بالتَّأديب وَازِعا ؛ ولِقِيَمِ الأشــياء مُحَرِّرًا ، ولقانون الجَوْدَة

فى المَزْرُوع والمَوْزُونِ مُقَرِّرا، ولِذَوِى الهيئات بلزوم شرائط المُرُوءَة آخِذا، وعلىٰ تَرْك الجُمَع والجَماعَاتِ لعامة الناس مُؤَاخِذا، ولتَقْوى الله تعالىٰ فى كُلِّ أَمْرٍ مُقَدِّما، وبما يُخَلِّصُه من الله تعالىٰ لكل ما تقع به المعاملات بين الناس مُقَوِّما، وفى خَصَائِص نَفْسه مايُغْنِيه عن تأْكيد الوَصَايا، وتَكْرارِ الحَثِّ علىٰ تقوى الله تعالى التى هى أَشْرَفُ المزايا، فلْيَجْعَلْها شِعَارَ نَفْسِه، ونَجِىَّ أُنْسِه، ومُسَدِّدَ أَحْوالِه التى نظْهر بها مَزِيَّةُ يَوْمِه علىٰ أَمْسِه، والخط الشريف أعلاه الله تعالىٰ أعلاه، حُجَّةٌ بمقتضاه .

⁂

وهذه نسخة توقيع بنظر الحِسْبَة الشريفة، من إنشاء المَقَرِّ الشِّهابى بن فضل الله، مضافا إلىٰ نظر أَوقاف المُلُوك، وهى :

الحمد لله مُثِيبِ من احْتَسَب، ومُجِيب المُنِيب فيما اكتسب .

نحمده حمدا رسب الأدب صرب الطُّوب[1]، (؟) ونشهد أَنْ لا إله إلَّا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةً ظَاهِرَةَ الحَسَب، طاهرة النسب؛ ونشهد أَن سيِّدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه أَفْضَلُ مَن انتدىٰ وانتدب ، وأَدَّبَ أُمَّتَهُ فَأَحْسَنَ الأَدَب، صلَّى اللهُ عليه وعَلىٰ آلِه وصَحْبِه صَلاةً يُكْتَبُ أَجْرُها فيكتتب، ويستتم بها كل صلاح [ويغتنم بها كل فلاح] ؛ وسَلَّمَ تَسْليماً كثيرا .

وبعد ، فانَّ الحِسْبَةَ الشَّرِيفَةَ هى قَانُونُ جَوادِّ الأوضاع ، ومَضْمُون مَوَادِّ الإجماع، تَجمع إلى الشريعة الشريفة سِيَاسَةً يُرْهَبُ حِدُّها، ويُرْهَفُ حَدُّها؛ وتخشى الرعايا سطوات مباشرها ، وتَتَنَحَّىٰ عما تصُبُّه سيول بوادرها؛ وأَصحابها الآلة التى هى أُخْتُ السَّيْف فى التأْثير، ولكُلٍّ منهما سَطْوَةٌ تُخَافُ لافرق بينهما إلَّا ما بَيْنَ

(١) كذا فى غير نسخة بالاهمال ولم نهتد الى تثقيفه .

التأنيث والتذكير، وله التصرف المطلق، والتعرف الذى يفتح من الحوانيت على أربابها كل باب مغلق؛ ولركوبه فى المدينة زينة يحشر لها الناس ضحى، ورهبة يغدو بها كل أمين لشأنه مصلحا؛ وإليه الرجوع فى كل تقويم، وهو المرجو فى كل أمر عظيم؛ وهى بدمشق - حرسها الله تعالى - من أجل المناصب التى تتعلق [عو]اليها بيد متوليها وتؤمل منازل البدور، وإن ربها ترجع إلى تصريفه أزمة الأمور، وينتجع سحابه الهطل عمامة الجمهور؛ وتحيا به سنة عمرية لولاها لضاقت رحاب المعاملات، وضاعت بالغش المعايش المتداخلات؛ وظهر الغبن فى غالب مايشرى ويباع، وانتشر التطفيف [الذى] يزيل راجحة الميزان وتو الزراع؛ ولكم ناب بحسن تدبيره عن الغمام، ونظر فى الدقيق والجليل لخاص والعام؛ طالما انحط به سعر غلا أن يقوم، ووجد من الأقوات صنف لا يوجد ولو بذل من الشمس دينار والبدر درهم.

وكان المجلس السامى، القضائى، الأجلى، الكبيرى، الصدرى، الرئيسى، العالمى، الكافلى، الفاضلى، الأوحدى، الأثيرى، الماجدى، الأصيلى، العمادى؛ مجد الإسلام، شرف الرؤساء، بهاء الأنام، جمال الصدور، فخر الأعيان، خالصة الدولة، صفوة الملوك والسلاطين: أدام الله علوه، هو الذى ربته السيادة على وسادها، ولبته السعادة إلى مرادها؛ وبنت العلياء قواعدها على عماده، وثنت المراتب أعناقها متشوقة إلى حسن اعتماده؛ وباشر الجامع المعمور خصوصا والأوقاف الشامية عموما فعمرها، وكثر أعدادها وأنمى من بركات نظره متحصلاتها وثمرها؛ وشيد فى كل منها مواطن عباده، وملتقى حلقة ومدار سبحة ومفرش سجاده، وأبى الله أن يقاس به أحد والجامع الفاروق وللذين أحسنوا الحسنى وزياده؛ فأوجب له جميل نظرنا أن نضاعف له الأجر فى كل عمل إليه ينتسب، ونزيده

فى رزقه سَعَةً : من حَيْثُ يَحْتَسِبُ ومن حَيْثُ لايَحْتَسِبُ؛ فرأينا أنّه أحقُّ أنْ يُقلَّدَ من أمور الحِسْبَة الشريفة حُكْمها المُصرَّف، وحَكَمها المُعرَّف؛ ويقام فيها بهَدْيِ من تَقَدَّمه فى تقرير أُمورها علىٰ أثْبَتِ القواعد، وتَقْدير مصالحها علىٰ أجْمَلِ ما جرت به العوائد؛ ويُطَهِّر اقواتَهـا من الدَّنَسِ فيما يحضر على الموائد، وإخافـة الأعناق من مضاربه التى تقطع ماغفا السيف عنه من مَنَاط القلائد.

فرُسِمَ بالأمر الشَّريف العالى ـ لا زالت بَمَرَاسِمِه تَتَلَقَّىٰ كُلُّ رُتْبَه، وتُتَوَقّىٰ الدنايا بمن يقوم بالحِسْبَه ـ أَنْ يفوّض إليه النَّظرُ على الحِسْـبَة الشَّريفة بدِمَشْقَ وما معها من الممـالك الشامية المضافة إليها، بالمعلوم المستقرّ، الشاهد به الديوانُ المعـور إلىٰ آخروقت : مضافا إلىٰ ما هو بيده : من نظر الأوقاف المَبْرُورَة بالشَّام، وأوْقاف الملوك. خَلاَ نَظَر الجـامع المَعْمُور إلىٰ آخروقت بحكم إفراده لمن عين له، تَفْوِيضًا يَضُــمُّه إلىٰ رَبَائب كَنَفِه، ويعُمُّه بمَوَاهِبِ شَرَفِه، ويُحِلُّه فى أعْلىٰ غُرَفِه، ويُحَلِّيه بمـا يَحْسُدُ الدُّرُّ مارَمىٰ من صَدَفِه.

فاتّقِ اللهَ فى أحْوالك، وآنتَقِ من يُجْمَع عليــه من النّوّاب فى أعْمَـالك، وأْمُرْ بالمعروف وآنْهَ عن المُنْكَر، فبك المُنْكَر لا يُعْرَفُ والمَعْرُوف منك لا يُنْكَر؛ وآعْتَـبِرْ أحْوَال أرْباب المَعَايِش آعْتِبَارًا يُصْلِحُ للناس أقْواتَهـم، ويُرغِدُ أوْقاتَهم؛ ولا تَدَعْ صَاحِبَ سِلْعَةٍ يتعدَّىٰ إلىٰ غيْر ماأحلَّه اللهُ له من المَكَاسِب، ولا صَاحِبَ مَعِيشَةٍ [يقدم] علىٰ تَخَلُّلِ خَلَلٍ فى المَآكل والمَشَارِب؛ وآقْصِد التَّسْوِيَةَ بالحقِّ فإنه سواء فيه البائـعُ والمشـترى، ولا فَرْق بين الرَّخيص والثمين؛ وأَقِم المَوازين بالقِسْطِ حتَّىٰ لا تمكن كفّاتها أن تحامل ولا تحمل، ولا يستطيع قلْبُها أن يَمِيلَ مع من يَتَمَوَّل، ولا يَقْدِرُ لِسَانُها أنْ يَكتُمَ الشهادة بالحق وإنْ كَانَ مثقالَ حَبَّـةٍ مِنْ خَرْدَلٍ؛ وآجعـلْ لك علىٰ

أهـل المبايعات حفظة لتظلّ أعمالهم لك تُنْسخ . وتفقّد الأسواق مما يتولّد فيها من المفاسد فإنّ الشيطان ربّما باض فى الأسواق وفرّخ. وأربابُ الصنائع فيهم من يُدلّس، وفقهاءُ المكاتب منهم من لعرضه يُدنّس، والقُصّاص غالبُهم يتعمّدُ الكذب فى قصصه ، وأهلُ النّجامة كم منهم من لعب مرّةً بعقل آمرأة وأمات رجلا بغُصصه، وآخرون ممن تضلّ بهم العقول، وتظلّ حائرةً فيهم النّقول، وكثيرٌ ممن سوىٰ هؤلاء يدُكَ مبسوطةٌ عليهم، وأحكامُك محيطة بهم من خلفهم و بين يديهم، فقومٌ منهم من مال، وقلّد مالكًا رضى الله عنه فيما رآه من المعاقبة تارةً بإنهاك الجسد وتارةً بإفساد المال، فربما أطغى الغنىٰ والمصباحُ فربما قطّب ... ...(1) وثَمَّ من لا يستقيم حتّى يُؤدّب، ومن لا يُلَمّ علىٰ شعث وأىُّ الرّجال المهذّب، وفيك من الألمعية نورٌ باهر، وكوكبٌ زاهر، فلا حاجة إلىٰ أن تُلقِىَ الوصايا أقلامها أيّها يكفُلُك ، ولا تنبّهك علىٰ زينة العفاف فيها وهو حُلَلُك ، والله تعالىٰ يُوفّق اعتمادك، و يُوفّر من التّقوىٰ زادك ، والاعتماد على الخط الشريف أعلاه الله تعالىٰ أعلاه، حجة بمقتضاه . إن شاء الله تعالىٰ .

الوظيفة الرابعة — وكالة بيت المال المعمور .

وهذه نسخة توقيع بوكالة بيت المال، من إنشاء القاضى تاج الدين البارنبارىّ ، للقاضى نجم الدين أبى الطّيّب .

الحمد لله الذى جعل الطّيّبات للطّيّبين، وهدىٰ بالنّجم المنير السّبيل المبين، وعدق بأئمة الدّين مصالح المسلمين، وآتانا بتفويضنا إليه، وتوكّلنا عليه، شرفًا فى الشّأن وقوّة فى اليقين .

(1) بياض بالأصل .

نحمده على أن أعان بخيره وهو خير معين ، ونشكره على أن بصّرنا فى الإرادات ، بالملائكة المقرّبين ، ونصرنا فى الولايات ، بالقوىّ الأمين ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً أنوارها فى القلب مشرقةٌ على الصفحات والجبين ، وأذكارها على اللسان جعلت الإنسان من صالح المؤمنين ؛ ونشهد أنّ سيدنا محمدًا عبده ورسوله هادى المهتدين ، وموضّح شرعة الإحسان للمحسنين ، و « أبو الطيّب » و « أبو القاسم » كُنِىَ بأولاده المطهّرين ، صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين منهم من كان من السابقين الأوّلين ، ومنهم من كان مهيّئًا الكفؤ مهين ، ومنهم من تزوّج بابنتى الرسول ولم يتفق ذلك لغيره فى سالف السنين ، ومنهم من كان الخير ملء يديه : فشمول البركة بشماله وذو الفقار فى اليمين ؛ وسلّم تسليمًا كثيرا .

وبعد ، فأكرم التفويض ما صادف محلًّا ، وأبرك الولايات ماوجد قدرًا معلَّى ، وأحسن الإحسان ماأصبح به الحال محلًّى ، وأسنى الأنجم ما أشرق فى مطلعه وتجلّى ؛ وأحقّ [الولاة] بإعلاء منصبه من أقبلت عليه وجوه الإقبال حين تولّى ؛ وأولى [الولايات] بإجمال النظر وإمعانه ، فى تشييد شانه ، وتمكين مكانته ومكانه ، وحفظ حوزته من سائر أركانه ــ وكالة بيت المال المعمور التى بها تصان الأرض المقيسه : ومنها تستبصر الآراء الرئيسه ؛ وبها يؤمن الاستيلاء على المحالّ والأبنية من كل جائر ، وبها تزاد قيم المبيعات مما هو لبيت المال ما بين عامر ودائر ؛ وإلى متوليها تأتى الرغبات ممن يبتاع أرضا ، وبه تمضى المصالح وتقضى ، وبه يظهر التمييز فى الثمن الأرضى ؛ وهى فى الشام نفيسة المقدار ، كريمة الآثار ، مرضيّة بالربح فى كل أرض بيّنة المصالح فى كل بناء دائرة بالنجح فى كل دار ؛ فلا يشيم برقها ، ويتروّج فوقها ، ويوفّيها حقها ، إلا من له صلّمٌ وتبصره ، وعرفان أوضح الطريق وأظهره ، وحسن رأى فى آثره وأثره ، وصداقةٌ ورد بها منهل الكرام البرره .

وكان فلان هو ذو السؤدد العريق، والباسق فى الدوح الوريق، والمنتسب إلى أعز فريق، والطيب أصلا وفرعا على التحقيق، والإمام فى علومه التى أصلت التفريع وصلت التفريق، والموفق فيما يأتى ويذر والله ولى التوفيق؛ قد أشرق بدمشق نجمه نورا، وابتسم البرق الشامى به سرورا، وتصدر بمحافلها فشرح صدورا، وابتنى له سؤددا وجعل مكارم الأخلاق عليه سورا؛ تلقى بحضره المسائل فتلقى منه وليا مرشدا، وتذكر لديه المباحث فتجد على ذهنه المتوقد هدى، وإذا اضطرب قول مشكل سكن بإبانته وهدا؛ إن تأول أصاب فى تأويله، وإن نظر فى مصلحة كان رأيه فى السداد موافقا لقيله، وقد استخرنا الله تعالى ـ وهو نعم الوكيل ـ فى توكيله.

فلذلك رسم بالأمر الشريف أن يفوض إليه ... ...

فليأت هذا المنصب المنصب وبل بركته من بابه، وليخيم فى فسيح رحابه، ولينعم بجناته فى جنابه؛ وليحرر ما يباع من أملاك بيت المال بشروطه ولوازمه المسطورة فى كتابه، وليردع من استولى على أرض باغتصابه، فليس لعرق ظالم حق: وهو إما بناء بإنشائه وإما غراس بإنشابه، وما يرتجع إلى بيت المال المعمور من أرض وعقار، وروضات ذات غراس وأنهار، وقرى وما يضاف إلى ذلك من آثار؛ فليحرر مجموعه، وليسلك فى ذلك الطريقة المشروعه. وليشفق إشفاق المتقين الساهدين لمالهم، ولينصح لنا وللمسلمين فهو وكيل بيت مالهم. ومن مات ولا وارث له من عصبة أو كلاله، فإن لبيت المال أرضه وداره وماله.

وقد وكلنا إليك هذا التقليد وقلدناك هذه الوكاله؛ ووالدك ـ رحمه الله ـ كانت مفوضة إليه قديما فلذلك أحيينا بك تلك الأصاله.

وأعلم – أعزّك الله – أنّ الوصايا إنْ طالت فقد طاب سَبْحها ، وإن أُوجزتْ فقد كفىٰ لَمْعُها ولمحُها ، وعلى الأمرين فقد أنارها هنا بالتوفيق صُبْحُها ، وحسَّنَ بالتصديق شرْحُها ، وأطرب من حَمام أقلامها صَدْحُها ، والتقوىٰ فهى أوّلها وآخرها وختْمُها وفتْحُها ، والله تعالىٰ يَسْقِى بك كُلّ قَضْبَةٍ [ذوى] صَبْحُها(١) ، والخير يكون إن شاء الله تعالىٰ .

* * *

وهذه نسخة توقيع شريف بوكَالة بيْتِ المَال بالشَّام أيضا :

الحمد لله كافِى مَنْ توكّل عليه ، ومُحسِنِ مآلِ مَن فوّضَ أمْره إليه ، ومُجمِّل مآبِ مَن قدَّم رَجاءَنا عند الهجْرة إلىٰ أبوابنا بين يديه ، ومُقرِّعَيْنِ من أشهر فى آستمطار عَوارفنا بكمال الأدوات ناظِرَيْه .

نحمده علىٰ نِعَمه التى جعلت سَعْىَ مَنْ أمّ كرَمَنا ، مَشْكُورا ، وسَعْد من قصَد حَرَمَنا ، مَشْهُورا ، وإقبالَ مَن أقبل إلىٰ أبوابنا العالية مُحقّقا يتقلّب فى نِعَمِنا مَحْبورا ، وينْقلبُ إلىٰ أهله مَسْرُورا ، ونشهد أنْ لا إلٰه إلّا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةً نعتَضِدُ فيها بالإخلاص ونعتصِم ، ونتمسَّك فى الدُّنيا والآخرة بعُروتها ، التى لاتنفصم ، ونُوكّلُ فى إقامة دعوتها ، سُيوفَنا التى لاتزال هى وأعناقُ جاحِديها تختصِم ، ونشهد أنّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أضاءتْ شريعته ، فلم تخْفَ علىٰ ذى نظَر ، وأنارتْ ملّتُه ، فأبصرها القلب قبل البَصر ، وعمّتْ دعوتُه ، فاستوىٰ فى وجوب إجابتها البَشر ، وآختصّت أُمّتُه ، بعلماء يبصِّرون من فى طَرْفه عَمًى ويُظْهِرُون حَقّ مَن فى باعه قِصَر ، صلّى الله عليه وعلىٰ آله الذين عمِلُوا بما علِموا ، وعدَلوا فيما حكَموا ، وحفظُوا بالحَقّ بيوتَ أموال الائمّة

(١) القضبة الرطبة من النبات وذوى يبس والصبح فى الأصل خروج العنقود من كمامه .

فاشترك أهل الملة فيما غنموا؛ صلاةً توكَّل الإخلاص بإقامتها ، وتكفَّل الإيمان بإدامتها؛ وسلَّم تسليماً كثيرا .

وبعد : فإن أهمّ ماصُرِفت إليه الهِمَم ، وأعمّ ماتوجب فى اختيار الأكفاء له بَراءة الذِّمَم؛ وأخصّ ما اتخذنا الاستخارة فيه دَليلا ، وأحقّ ما أقمنا عنّا فيه من أعيان الأُمّة وَكِيلا ، لا يَدَعُ حقًّا للأمّة ما وجد إليه سَبِيلا - أمرُ بيت مال المسلمين الذى هو مادّةُ جهادِهم ، وجادّةُ جِلادِهم ؛ وسَبَبُ استطاعتهم ، وطَريقُ إخلاصهم فى طاعتهم ؛ وسِدادُ ثُغُورِهم ، وصَلاح جُمْهورِهم ، وجِمَاعُ مافيه إتقان أحْوالهم واستِقرارُ أُمورِهم ؛ ومن آكَد مَصالحِه وأهمِّها ، وأخصّ قواعِدِه وأعمّها ، وأكمل أسباب وُفُوره وأتمّها ؛ الوَكالةُ التى تصون حقوقه أنْ تُضَاع ، وتَمْنعُ خَوَاصّه أن تُشَاع ؛ وتُحْسِنُ عن الأمّة فى حفظ أموالها المَنَاب ، وتتولّى لكُلّ من المسلمين فيما فرض الله لهم الدعوىٰ والجواب ؛ ولذلك لم تَزَلْ تَتَخَيّر لها من ذخائر العلماء من زانَ الوَرَعُ سَجاياه ، وكَمّل العِلْمُ مَزَاياه ؛ وانعقد الإجماعُ علىٰ كَمَاله ، وقَصُرت الأطماع عن التحلّى بجَمَالِ عِلْمه : وهل يُبَارَىٰ من كان عِلْمُه من جَمَاله .

ولما كان المجلس السامىّ ، الشَّيْخىّ ، الفلانىّ ، هو الذى ظهرت فضائلُه وعلومُه ، ودلّ علىٰ بلوغ الغاية منطوقُ نعته ومفهومُه ؛ وحلّىٰ علمَه بالوَرَع الذى هو كمال الدين علىٰ الحقيقة ، فسلك طريقة أبيه فى التفرّد بالفضائل فكان بحكم الإرث من غير خلاف صاحب تلك الطريقة ؛ مع نسب لنسيب ماأمرّ حلاله ، وتُقىً ما وَرِثه من أبيه عن ثلاثة ، وتثبّت فى ثُبُوت الحقّ لاتستفزّه الأغراض ، وأناة فى قَبُول الحكم لاتُحيله بتوسّط الأغراض ؛ ووقوف مع الحقّ لايبعدُه إلىٰ ما [لا] يجب ، وبسطة فى العِلْم بها يأتى ما ينبغى ويجتنب مايجتنب ، وتحقيق تجرى الدَّعاوَى الشرعيّة علىٰ محجّته ، وإنصاف لا ينفر خصمه معه كونُه ألحنَ منه بحجّته ؛ مع وفادة إلىٰ

أبوابنا العالية تقاضت له كَرَمنا الجَم ، وفضلنا الذى خَصّ وعَمّ ـ اقتضت آراؤنا الشريفة أن يَرجع إلىٰ وَطَنه مشمولا بالنِّعَم ، مخصوصا من هذه الرتبة بالغاية التى يَكْبو دونها جَوادُ الهِمَم ؛ منصوصا علىٰ رِفعة قَدْره التى جاءت هذه الوظيفة علىٰ قَدَر ، مُداوِمًا [لشكر أبوابنا](1) علىٰ اختياره لها بعد إمعان الاختيار وإنعام النَّظر .

فرسِم بالأمر الشريف أن تُفَوَّض إليه وَكالةُ بيتِ المال المعمور بالشّام المحروس .

فليرقَ هذه الرتبة التى هى من أجَلِّ ما يُرتَقىٰ ، وليتلقَّ هذه الوَكالة التى مَدارُ أمرِها على التُّقىٰ وهو خير ما يُنتَقىٰ ، وليُباشِرْ هذه الوظيفة التى مَناطُ حُكمِها فى الوَرَى الذى لا تَستخِفُّ صاحبَه الأهواءُ ولا تَستفِزُّه الرُّقىٰ ؛ ولينهَضْ بأعبائها مُستقلًّا بمصالحها ؛ مُتصدِّيًا لمجالس حكمها العزيز لتحرير حُقوقِ بيت المال وتحقيقها ، مُتلقِّيًا ما يَرِد من أمرِ الدَّعاوَى الشَّرعية التى يُبَثُّ مثلُها فى وجهه بطريقها ؛ مُنقِّبًا عن دَوافِع ما يثبت له وعليه ، مُحسِنًا عن بيت المال الوَكالةَ فيما جرّه الإرثُ الشرعىُّ إليه ؛ مُستظهِرًا فى المعاقَدة بما جرت به العادة من وجوه الاحتراز ، مُجانِبًا جانبَ الحَيْف فى الأخذ والعطاء بأبواب الرُّخَص وأسباب الجَواز ؛ مُتنكِّبًا فى تشدُّده عن طريق الظُّلْم الذى من تحلَّىٰ به كان عاطلا ، سالكًا فى أموره جادّةَ العدل فإنّه سِيّان من تَرَك حقَّه وأخذ باطلا ؛ مُجتهِدًا فى تحقيق ما وَضَح من الحقوق الشرعية وكَمَن ، مُتتبِّعًا ما غالَتِ الأيامُ فى إخفائه فإنّ الحقّ لا يَضيعُ بقِدَم العَهْد ولا يَبطُل بطُولِ الزَّمَن .

وفى أوصافه الحسَنه ، وسَجاياه التى غَدَت بها أقلام أيّامنا لَسِنَه ، وعُلومه التى أسرت إليها أفكارُه والعيونُ وسِنَه ، ما يُغنِى عن وَصايا يُطلَق عِنانُ اليَراعة فى تحديدها ، أو قضايا ينطقُ لسانُ البَراعة فى توكيدها ؛ مِلاكُها تقوَى الله وهى سَجِيّة نفسه ،

(1) فى الأصل « مداوما لها على الخ » .

ونَجِيّةُ أُنْسِه، وحِلْيَة خِلَالِه المعروفة فى يَوْمه وأَمْسِه؛ فلْيقدّمْها فى كُلِّ أَمْر، ويَقِفْ عِنْد رضا الله فيها لارِضَا زَيْد ولا عَمْرو؛ واللهُ الموفق بمنّه وكَرَمه :

[الوظيفة الخـامسة — الخَطَابه(١)] .

وهـذه نسخة توقيع بالخَطَابة بالجامع الأُمَوِىّ، كُتِب بهـا لزَيْن الدِّين الفارقىّ، من إنشاء الشيخ شِهَاب الدِّين محْمُود الحَلَبىّ :

الحمد لله رافِع الَّذِين أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَات، وجَاعِل أَرْجَاءِ المَنَابِر بفضائل أئمّة الأُمّة أَرِجَات، وشَارِح الصُّدُور بذِكْرِه بعد أَنْ كانت من قَبْـل المواعظ حَرِجات؛ الَّذِى زان الدِّينَ من العلمـاء بمن سُلِّمت له فيه الإمَامَه، وصَانَ العِـلْمَ من الأئمة المتقين بمن أَصْحَبَ(٢) له جَامِحُ الفَضْـل يُصَرِّفُ كَيْفَ شَاءَ زِمَامَه؛ ووَطَّدَ ذِرْوَةَ المِنْبَر الكَرِيم لمن يحفَظ فى هِـدَاية الأُمّة حَقَّـه ويَرْعَىٰ فى البِدَايَة بنَفْسِـه ذِمَامَه، وَوَطَّأَ صَـدْرَ المحراب المنير لِمَن إِذَا أَمَّ الأُمَّة أَرَتْه خَشْيَةُ اللهِ أَنَّ وجْهَ اللهِ الكَرِيم أَمَامَه .

نَحْمَـده علىٰ ما مَنَحنَا من صَوْنِ صَهَوَاتِ المَنَابِر إلا عن فُرْسَانِها، وحِفْظِ دَرَجَات العِلْم إلا عمَّن ينظر بإنْسَانِ السُّـنَّة ويَنْطِقُ بلِسَانِها . ونشهد أَنْ لا إلٰه إلَّا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةً لاتزال أَفْوَاهُ المَحَارِب تُثْبِتُ طُرُوسَها، وأَنْوَاءُ المَنَابِر تُنْبِتُ غُرُوسَها، وأَلْسِنَةُ الإخلاص تُلْقِي على المَسَامِع من صُحُف الضَّمَائِر دُرُوسَها . ونشهد أَنَّ محمَّدا عبدُه ورَسولُه الذى شُرِّفتِ المَنَابِر أوّلًا بُرقِيِّه إليها، وآخرًا بذِكْر آسْمِه الكَرِيم عَلَيْها؛ فهى الرُّتْبَـةُ التى يَزِيدُ تَبْصِرَتَهَا علىٰ مَمَرِّ الدُّهُور بَقَاؤُها، والدَّرَجَة التى يطول إلا علىٰ ورثة عِلْمِه آرْتِقَاؤُها؛ صلَّى الله عليـه وعلىٰ آله وصَحْبِـه الَّذِين ذَكَّرهم بأَيَّامِ اللهِ فذَكَرُوها،

(١) أضفنا هذه الزيادة لاقتضاء الكلام لها .

(٢) أى ذلّ وانقاد بعد صعوبة .

وبصّرهم بآلاء الله فشكروها، وعرّفهم بمواقع وحدانيته فجادلوا بسنته وألسنته الذين أنكروها، صلاة لا تبرح لها الأرض مسجدا، ولا يزال ذكرها مغيرا فى الآفاق ومنجدا؛ وسلّم تسليما كثيرا .

وبعد، فإنه لما كانت الخطابة من أشهر شعائر الإسلام، وأظهر شعار ملة سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، شرعها الله تعالى لإذكار خلقه بنعمه، وتحذير عباده من نقمه، وإعلام بريته بما أعدّ لمن أطاعه فى دار كرامته من أنواع كرمه؛ وجعلها من وظائف الأئمة العامة، ومن قواعد رتبة النبوة التامة؛ يتنبّه التلبس بها موقف الإبلاغ عن الله لعباده، ويقوم الناهض بفرضها مقام المؤدّى عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى أمته عن مراد الله ورسوله دون مراده، ويقيمها فى فروض الكفايات على سنن سبله(١) ، ويستنزل بها موادّ الرحمة إذا ضنّ الغيث على الأرض بوبله؛ وكان المسجد الجامع بدمشق المحروسة هو الذى سارت بذكره الأمثال، وقيل هذا من أفراد الدهر التى وضعت على غير مثال؛ قد تعيّن أن نرتاد له بحكم خلوّه من الأئمة من هو مثله فرد الآفاق، وواحد العصر عند الإطلاق، وإمام علماء زمانه غير مدافع عن ذلك، وعلّامة أئمة أوانه الذى يضىء بنور فتاويه ليل الشك الحالك؛ وناصر السنة الذى تذبّ علومه عنها، وحاوى ذخائر الفضائل التى تنمى على كثرة إنفاقه على الطلبة منها؛ وشيخ الدنيا الذى يعقد على فضله بالخناصر، ورحلة الأقطار الذى غدت نسبته إلى أنواع العلوم زاكية الأحساب طاهرة الأواصر؛ وزاهد الوقت الذى زان العلم بالعمل، وناسك الدهر الذى صان الورع بامتداد الفضائل وقصر الأمل؛ والعابد الذى أصبح حجة

(١) فى الأصل "نبيه" .

العَارِف وقُدْوَةَ السَّالِك ، والصّادِعُ بالحقّ الذى لا يُبَالِى من أَغْضَب إذا رَضِىَ اللهُ ورسُولُه بذلك .

ولما كان فلانٌ هو الذى خَطَبَتْه لهذه الخَطَابة علُومُه التى لا تُسَامَى ولا تُسَام، وَعيَّنَتْه لهذه الإمامة فَضَائِلُه التى حَسُنَت بها وجُوهُ العِلْمِ الوِسَامُ، حتّى كأنَّها فى فَمِ الزمن ٱبْتِسَام، وأَلْقَىٰ إليه مَقَالِيدَها كَالُه الذى صَدَّ عنها الخُطَّاب، وسَدَّ دونَها أبوابَ الخِطَاب ، وقيل : هذا الإمام الشافعىّ أَوْلَىٰ بهذا المِنْبَر وأَحْرَىٰ بهذا المِحْرَاب ــ ٱقتضت آراؤنا الشريفة أَنْ نُحَلِّىَ أَعْطَافَ هذا المِنْبَر بِفَضْلِه الذى يُعِيدُ عُودَه رَطيبا ، ويَضَمَخُ طِيباً منه مَاضَمَّ خَطِيبا ، وأَنْ نصَدِّرَ بهذا المِحْرَابِ مَن نعلم أَنَّه لَدَى الأمَّة مُنَاجٍ لرَبِّه ، واقِفٌ بين يَدَىْ مَن يَحُولُ بين المَرْء وقَلْبِه .

فلذلك رُسِم ... ... ــ لا زال يُوَلِّى الرُّتَب الحسانَ ، ويَجْرِى بما أَمَر اللهُ به من العَدْل والإحْسان ــ أَنْ تفوّض إليه الخَطَابة والإمامة بجامع دِمَشْق المحروس علىٰ عادة من تقدّمه .

فَلْيَرْقَ هذه الرُّتْبَةَ التى أَمْطَاه اللهُ ذِرْوَتَها ، وأَعْطَاه الفَضْلُ صَهْوَتَها ، وعَيَّنَه تَفرُّده بالفضائل لإذْكَارِ الأُمَّة عليها ، وَرَجَّحه لها ٱنعقادُ الإجْمَاع علىٰ فَضْلِه حتّىٰ كادت للشَوْق أَنْ تَسْعىٰ إليه لَوْ لَمْ يَسْعَ إليها ؛ حتّىٰ تَخْتَالَ منه بإِمَامٍ لا تَعْدُو مَوَاعِظُه حَبَاتِ القلوب ، لأنها تَخْرُجُ من مِثْلِها ، ولا تَدَعُ خُطَبُه أَثَرًا للذُّنوب ، لأنَّها تُوَكِّلُ مَاءَ العُيُون بِغَسْلِها ؛ ولا تُبْقِى نَصائحُه للدُّنيا عند المُغْتَرِّ بها قَدْرًا : لأنَّها تبَصِّره بخِدَاعها ، ولا تترك بَلاَغَتُه لِلْمُقَصِّر عن التَّوبة عُذْرًا : فإنَّها تُحَذِّره من سُرْعَة زوال الحياة وٱنْقِطَاعِها ؛ ولا تجعل فَوَائِدُه لِذَوِى النَّجْدَة والبَأْس ٱلتِفَاتًا إلىٰ أَهْل ولا وَلَد لأنَّها تُبَشِّرُه بما أعدّ اللهُ

لمن خرج فى سَبِيلِه، ولا تُمكِّنُ زواجِرُه من نَشَر الظلم أن يَمُدَّ إليه يدًا لأنّها تُخبِره بما فى الإقدام علىٰ ذلك من إغضاب الله ورسوله .

فَلْيُطِلْ — مع قِصَرِ الخُطْبَة — للظَّالِمِ مجالَ زَجْرِه ، ولْيُطِبْ قَلْبَ العالِم العامل بوصف ما أَعَدَّ اللهُ له من أَجْرِه ، ولْيَجْعَلْ خُطَبه كلَّ وقتٍ مقصورةً علىٰ حكمه ، مقصودةً فى وُضُوح المقاصد بين من يَنْهَض بسُرْعة إدرَاكه أو يَقْعُدُ به بُطْءُ فَهمه ؛ فخيرُ الكلامِ مادَلَّ ببَلَاغته وإنْ قَلَّ ، وإذا كانَ قِصَرُ خُطْبَةِ الرجلِ وطُولُ صَلَاته مَئِنَّةً من فِقْهِهِ فما قَصَّرَ من حَافَظَ علىٰ حُكْمِ السُّنَّة فيهما ولا أَخَلَّ .

⁂

[وهذه] نسخة توقيع بالخطابة بالجامع الأُمَوِىّ ، كُتِبَ به للقاضى «تقىّ الدّين السبكى» .

الحمد لله الذى جعل دَرَجَاتِ العلماء آخذةً فى مَزِيدِ الرُّقِى ، وخَصَّ برفيع الدرجات من الأئمة الأعلام كُلَّ تَقِى ، وأَلْقَىٰ مَقَالِيدَ الإمامة لمن يصون نَفْسَه النَّفيسة بالوَرَعِ ويَقِى ، وأعَاد إلىٰ معَارِجِ الجَلَال ، مَن لم يَزَلْ يختار حميد الخلَال ، ويَنْتَقِى ، وأَسْدَلَ جِلْبَابَ السُّؤْدَدِ علىٰ من أَعَدَّ للصَّلَاة والصِّلَات من قَلْبِه وثَوْبِه كلَّ طاهرٍ نَقِى .

نحمده علىٰ أنْ أَعْلىٰ عَلَمَ الشَّرْعِ الشَّرِيف وأَقَامَه ، وجعل كلمةَ التَّقْوىٰ بَاقيةً فى أهل العلم إلىٰ يَوْمِ القِيَامَه ، ونشهد أَنْ لا إله إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةَ عَدْلٍ[1] قيَّد الفَضْلَ بالشكر وأَدَامَه ، وأيَّد النِّعمة بمزيد الحَمْد فلا غَرْوَ أَنْ جَمَع بين الإمامه .

(١) فى الأصل «شهادة عدل فيها قيد الخ» وضبب علىٰ لفظة «فيها» .

والزَّعَامَة ؛ ونشهد أنَّ محمدًا عبــده ورســوله الذى أعلى الله به عقــيرة مُرَتِّل الأذان ومُــدْرِج الاقامه ، وأغلىٰ ببركته قيمةَ مَن تمسَّك بسبيل الهُــدَىٰ ولازم طريق الاستقامه ، صلّى الله عليه وعلىٰ آله الذين عقدوا عُهودَ هذا الدِّين وحفظوا نظامَه ، وعلىٰ أصحابه الذين مامنهم إلا مَن اقتدَىٰ بطريقه فاهتدَىٰ إلىٰ طُرُق الكرامه ، صلاةً لاتزال بركاتُها تُؤيِّد عَقْد اليقين وتُديم ذِمَامَه ، وسلّم تسليمًا كثيرا .

أمّا بعــدُ ، فإنَّ من شِيَم دولتنا الشريفة أن ترفعَ كُلَّ عالِي المِقْدار مكانًا عليّــا ، وتجعــل له من اسْمِه وصِفَته قولًا مسموعًا وفعلًا مَرْضيًّا ، وتُوطِّد له رُتَب المعــالى وتَزيدَ قــدْرَه فيها رُقِيًّا ، وتكسُوهم من جِلْبَاب السُّــؤْدُد مِطْرَفًا مباركا وَطِيًّا ، وتُطْلِق لِسَان إمَامه بالمواعظ التى إذَا تعقَّلَها أُولُو الألْبَاب خَرُّوا لطاعة ربِّهم سُجَّدًا وبُكِيًّا .

ولمــا كان المجلسُ العالِى هو الذى أعزَّ أحكام الشريعة الشَّريفــة وشَــادَها ، وأبدىٰ من ألفاظه المباركة المَوَاعِظَ الرَّبَّانيَّــةَ وأعادها ؛ وأذَاع فيهــا أسْرَارَ اليَقــين وزَادَها ، وأصْلَح فسادها ، وقوّم مُنْآدَهَا ؛ وكَيْفَ لا وقد جَمَع من العُــلُوم أشْــتَاتا ، وأحْيــا من مَعَالِم التُّقَىٰ رُفَاتا ، وأوْضَح من صفات العلمــاء العاملين بهَدْيِه وسَمْته هَدْيًا وسَمْــاتا ، فلذلك خرج الأمر الشريف الصالحىّ العادى ... ...

❖

قلتُ : وهــذه نسخة توقيع بخَطَابتــه أيضا ، أنشأتُه للشَّــيخ « شِهَاب الدين ابن حاجِّى » :

الحمد لله الذى أطلع شِهَابَ الفَضَائِل فى سَمَاءِ مَعَالِيها ، وزَيَّن صَهَوات المَنَابِر بمن قَرّت عُيُونُها من وِلَايته المباركة بتَوَالِيها ، وجَمَّل أعْوَادَها بأجَلِّ حَبْرٍ لو تَستطيع ن ق

قدرتها لَسَعَتْ إليه وقارَقتْ ـ خَرْقًا للعادَة ـ مَبَانيها، وشَرَّف دَرَجَها بأكْمَلِ عالم ماوَضَعَ بأسافلِها قَدَمًا إلا وحَسَدَتْها على السَّبْقِ إلى مَسّ قَدَمه أعاليها .

نحمده على أنْ خَصَّ مَصاقِعَ الخُطَباء من فَضْل اللَّسَنِ بالبَاع المَديد، وقَصر الجامعَ الأُموىّ على أبلغ خَطِيبٍ يَشيبُ فى تَطَلُّبِ مِثْلِه الوَلِيد، وأفرد فَرِيدَ الدَّهْر باعتبار الاستحقاق بِرُقِىّ دَرَجِ مِنْبَره السَّعِيد . ونشهد أنْ لا إله إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شَهادةً تَخْفُقُ على مَواكِب الصُّفُوف أعْلامُها ، وتَتَوفَّر من تذكير آلاء الله تعالى أقْسامُها : ولا تُقَصِّر عن تَبْليغ المَواعظ حَبَّاتِ القُلُوب أفْهامُها ؛ ونَشهد أنَّ سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه أفضلُ نبيٍّ نَبَّهَ القُلُوب الغافلة من سِنَاتِها، وأيْقَظ الخَواطرَ النائمة من سُبَاتِها ، وأحْيا رَمِيمَ الأفئِدَة بقَوَارِع المَواعظ بعد مَمَاتِها؛ صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وصَحْبِه الذين عَلَا مَقَامُهم ، فَفَاتَت أعْقَابُهم الرُّءُوس ، ورُفِعَت فى المَجامِع رُتَبُهم، فكانت مَنزلتُهم منزلةَ الرَّئيس من المَرْءُوس؛ صلاةً لا تزالُ الأرضُ لها مَسْجِدا ، ولا يَبْرَح مُفْتَرِقُ المَنَابِر باختراق الآفاق لاجتماعها مَوْرِدا .

وبعد، فإنَّ أوْلى ماصُرِفَت العنايةُ إليه، ووَقَع الاقتصار من أهَمِّ المُهِمَّات عليه ـ أمْرُ المَسَاجد التى أُقِيمَ بها للدِّين الحَنِيف رَسْمُه، وبُيُوتِ العبادات التى أمَرَ اللهُ تعالى أنْ تُرْفَع ويُذْكَر فيها اسْمُه ؛ لا سِيَّما الجوامِعُ التى هى منها بمنزلة المُلُوك من الرَّعِيَّه، وأماثِل الأعْيان من بين سائر البَرِيَّه؛ ومن أعْظَمِها خَطَرا، وأبْيَنِها فى المَحاسن أثَرا، وأسْيَرِها فى الآفاق النَّائية خَبَرا ؛ بَعْد المَسَاجِد الثلاثة التى تُشَدُّ الرِّحالُ إليها، ويُعَوَّل فى قَصْد الزيارة عليها ـ جامعُ دِمَشْقَ الذى رَسَت فى الفَخْر قَواعِدُه، وقامَتْ على مَمَرّ الأيام شَوَاهِدُه؛ وقَاوَم الجَمَّ الغَفيرَ من الجَوَامع وَاحِدُه؛ ولم تَزَل الملوكُ تَصْرِفُ العناية إلى إقامة شَعَائرِ وَظَائفه ، وتَقْتَصِر من أهْلِ كُلِّ فَنٍّ على رئيس ذلك الفَنّ وعَارِفِه ؛

فما شَغَرَتْ به وَظيفةٌ إلا اختاروا لها الأعْلَى والأرْفَع، ولا وَقَع التَّرَدُّدُ فيها بين اثنين إلّا تَقبَّلُوا منهما الأَعْلَمَ والأَوْرَع؛ خصوصًا وظيفة الخَطَابة التى كان النبىُّ صلّى الله عليه وسلّم للقيام بها مُتَصَدِّيا، وعَلِم الخلفاءُ مقَامَ شَرَفِها بعدُ فباشروها بأنفسهم تأسِّيا.

ولما كان المجلس العالى، القاضوىّ، الشَّيْخىّ، الكَبِيرىّ، العالمىّ، الفاضلىّ، الأَوْحدىّ، الأكملىّ، الرَّئيسىّ، المُفَوَّهىّ، البَلِيغىّ، الفَريدىّ، المُفِيدىّ، النَّجيدىّ، القُدْوىّ، الحُجّىّ، المُحَقِّقىّ، الوَرَعىّ، الخَاشِعىّ، النَّاسِكىّ، الإمَامىّ، العَلّامىّ، الأثيلىّ، العَرِيقىّ، الأصِيلىّ، الحَاكِمىّ، الخَطِيبىّ، الشِّهَابىّ: جَمَال الإسلام والمسلمين، شَرَف العُلماء العَاملين، أوْحَد الفُضَلاء المُفِيدين، قُدْوَة البُلَغاء المجتهدين، حُجّة الأُمّة، عُمْدَة المُحَدِّثين، فَخْر المدَرِّسين، مُفْتِى المسلمين، مُعِزّ السنة، قَامِع البِدْعَة، مُؤَيِّد المِلّة، شَمْس الشَّرِيعة، حُجّة المتكلِّمين، لِسَانُ المُنَاظِرِين، بَرَكَة الدَّوْلة، خَطِيبُ الخُطَبَاء، مُذَكِّر القُلُوب، مُنَبِّه الخَوَاطِر، قُدْوَة الملوك والسَّلاطين، وَلِىُّ أمير المؤمنين «أَبُو العَبّاس أحمد» أدَام اللهُ تعالَى نِعْمَته: هو الذى خَطَبَتْه هذه الخَطَابة لنفسها، وعلِمت أنّه الكُفْءُ الكامِلُ فنَسِيَت به فى يومها ما كان من مَصَاقِع الخطباء فى أمسها؛ إذْ هو الإمَامُ، الذى لا تُسَامَى عُلُومُه ولا تُسَام، والعلّامة الذى لا تُدْرَك مَدَارِكُه ولا تُرَام؛ والحَبْر الذى تُعْقَد على فَضْله الخَنَاصر، والعَالِم الذى يعترِف بالقُصُور عن مُجَارَاةِ جِيَاده المُنَاظِر؛ والحَافِظُ الذى قَاوَمَ عُلَمَاء زَمَانه بلا مُنَازِع، وعَلّامَةُ أئمّة أوَانِه من غير مُدَافِع؛ ونَاصِرُ السُّنّة الذى يَذُبُّ بعلومه عنها، وجَامِعُ أشْتَات الفُنُون التى يَقْتَبِس أمَاثِلُ العُلَمَاء منها، وزَاهِدُ الوَقْت الذى زَانَ العِلْمَ بالعَمَل، ونَاسِكُ الدَّهْر الذى قَصَّر عن مَبْلَغ مَدَاه الأَمَل؛ ورُحْلَةُ الأَقْطار الذى تُشَدُّ إليه الرِّحَال، وعَالِمُ الآفَاق الذى لم يَسْمَح الدَّهْرُ له بمِثال — اقتضى

حسن الرأى الشريف أن نرفعه من المنابر على درجها ، ونقطع براهينه من دلائل الإلباس الملبسة داحض حججها ؛ ونقدمه على غيره ممن رام إبرام الباطل فنقض ، وحاول رفع نفسه بغير أداة الرفع فخفض .

فلذلك رسم بالأمر الشريف العالى ، المولوى ، السلطانى ، الملكى ، المنصورى ، المعزى - لا زال يرفع لأهل العلم رأسا ، ويحقق لذوى الجهل من بلوغ المراتب السنية يأسا - أن يفوض إلى المجلس العالى المشار إليه خطابة الجامع المذكور بانفراده ، على أتم القواعد وأكملها ، وأحسن العوائد وأجملها .

فليرق منبره الذى تاقت فيه راحة الطالع أعزل غيره الغارب ، وليتبوأ ذروة سنامه الأرفع من غير شريك له ولا حاجب ، وليقصد بمواعظه حبات القلوب ، ويرشق شهاب قراطيسها المناسبة فإنها الغرض المطلوب ؛ وليأت من زواجر وعظه بما يذهب مذهب الأمثال السائرة ، ويرسلها من صميم قلبه العامر فإن الوعظ لا يظهر أثره إلا من القلوب العامرة ، ويقابل كل قوم من التذكير بما يناسب أحوالهم على أكمل سنن ، ويخص كلا من أزمان السنة بما يوافق ذلك الزمن ؛ والوصايا كثيرة وإنما تهذيب العلم يغني عنها ، وتأديب الشريعة يكفي مع القصد اليسير منها ؛ وتقوى الله تعالى ملاك الأمور وعنده منها القدر الكافى ، والحاصل الوافى ؛ والله تعالى يرقيه إلى أرفع الذرى ، ويرفع على الجوزاء مجلسه العالى : ذروة نرجو فوق ذلك مظهرا .

*
* *

الوظيفة السادسة — التداريس الكبار بدمشق المحروسة .

وهـذه نسخة توقيع بتدريس المدرسة الريحانية ، كتب به لقاضى القضاة «عماد الدين الطرسوسى» الحنفى ، عوضا عن جلال الدين الرازى . كتب بسؤال بعض كتاب الإنشاء ، وهى :

الحمد لله الذى جعل عماد الدين عليا ، وأحكم مبانى من حكم فلم يدع عصيا ، وقضى فى سابق قضائه لإمضاء قضائه أن لا يبقى عتيا .

نحمده على ما وهب به من أوقات الذكر بكرة وعشيا ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تنبه بالعلم بوحدانيته من كان غبيا ، وتكبت لمقاتل سيوف العلماء من كان غويا . ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله الذى كان عند ربه رضيا ، وعلى ذبه عما شرع من الدين مرضيا ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة لا يزال فضل قديمها مثل حديثها مرويا ، وسلم تسليما كثيرا .

وبعـد ، فلما كانت رتب العلم هى التى يتنافس عليها ، ويتطاول إلى التنقل إليها ، ويختار منهـا ما كنى بمباشرة المتقدم ملابس الجلال ، وآن له أن ينتقل إليه البدر بعد الهلال ؛ وكانت المدرسة الريحانية بمحروسة دمشق هى ريحانة المجالس ، وروضة العلم الزاكية المغارس ، وبحر الفوائد الذى يخرج الفرائد ، ومسرح العلماء الذى قد آن أن يظفر به منهم من الألف زائد .

ولما توفى من آلت إليه ، وعالت مسألتها إلا عليه ، وكان ممن قد ولى الأحكام آستقلالا ، وكان لبصر الدنيا جلاء وللدين جلالا ؛ لم تكن إلا لمن ينسى به ذلك

الْمَذاهبُ ، ويُنسب إليه علْمُ مذْهبه كلّه وإن كان لا يقتصر به على بعض المذاهب؛ ويُعرَفُ مَن هُوَ وإن لم يُصرّح باسْمه ، ويعرفُ مَنْ هُوَ وإن لم يُذْكر بعَلاء قدْره العَليّ وعلْمه؛ وَلا يُمترَى أنّه خَلَف «أبَا حَنيفَةَ» فيمن خلف، وحَصَل على مِثْل ما حَصَل عليه القاضي «أبُو يُوسُف» وذهب ذلك في السَّلَف الأوّل مع من سَلَف ؛ وأعْلَمَ بِجِدَاله أنّ « محمّدَ بنَ الحَسَن» ليس من أقْرَان أبي الحَسن ، وأنّ « زُفَر» لم يُرْزَق طيبَ أنْفَاسه في بَراعة اللّسَـنِ؛ وأنّ « الطّحَاويّ» ما طَحَا به «قَلْبٌ إلى الحِسَانِ طَرُوب» و «القاضي خَان» لَدَيْه منه الأنْبُوب؛ وتلقّب «شَمْسَ الأئمة» لما طلعَ عِلْمَ أنّهُ قد حَانَ من شَمْسِ النّهَـار غُرُوب، و « الرّازيّ » لما جاء تَيقّنَ أنّه يروزه[2] عن علم الجيوب، و «المَرْغِينَانِيّ» مُسّ ولم يَرْغَنْ[3] لهُ في مطلوب؛ و «الثّلْجيّ» ما بَرّد لطالبٍ غُلّه، و «الخَبّازيّ» لم يُوجَدْ عنده لطَعَامٍ فَضْلَه، و « المُنْدوَانيّ» ما أجْدَى في جِلَاد الجِدَالِ ولَا هَزّ نَصْلَه؛ ولم يَزَلْ يُشَار إليـه والتّقْليدُ الشريف لَه بالحكم المُطْلَق بمـا تَضمّنَه من مَحَاسِن أوْصَافه شَاهد، ودَسْتُ الحُكْم على عُلَى كيوانَ شائد؛ ومدارس العلم تُسرّ من حُبّه ، ما حُنيت عليه من محاريبها الأضَالع، ومَجَالسُ القضاء تُظْهرُ بقُرْبه، مالم يكن تُدَانِي إليه المواضع .

وكان الجناب الكريم، العالي، القضائيّ، الأجلّيّ، الإماميّ، الصّدْريّ، العالميّ، العامليّ، العلّاميّ، الكامليّ، الفاضليّ، الأوْحديّ، المُفيديّ، الوَرَعيّ، الحاكميّ، العِمَاديّ؛ ضياءُ الإسلام، شَرَف الأنام، صَدْر الشّام، أثير الإمَام، سيد العلمـاء والحكّام؛ رَئيسُ الأصحاب، مُعزُّ السُّـنّة، مُؤيّد المِلّة، جَلَال الأئمّة؛ حَكَمُ الملوك والسلاطين، خالِصة أمير المؤمنين، أبُو الحسن عليّ بن الطّرَسوسيّ الحنفيّ، قاضي

(١) كذا في الأصل ولعله من زيادة قلم الناسخ . (٢) يروزه يسأله ويختبره . يريد يسأله عن علم الجيوب الفلكية . (٣) من أرغن له في كذا . أطاعه فيه .

القضاة بالشام – نشر مُلاءة مَذْهَبه، وحلّى بجلوسه للحكم طرفى النهار إضاءة مفضضه وتوشيع مُذْهَبِه؛ طالما ساس الرعيّة بحكمه، وساد نظراءه فى معرفة العلوم الشرعية بعلمه وحكمه؛ وسار مَثَلُ فضله فى الأقطار وضوءُ الشمس مَرَدُّ شعاعه، فطال إلى السماء وقصر الأفق الممتدّ على طول باعه، وفاض فيض الغمام وما آكال البحرُ بكيله ولا صار مثل صاعه؛ وعرضت عليه هذه المدرسة التى لم يكن لغيره أن يحيى ريحانتها، ولا أن تؤدّى إلى يد سواه فيودع أمانتها؛ فآثرها على أنه ترك المدرسة المُقَدَّمية المتقدّم له درسُها، المعظّم به فى كلّ حين غرسُها؛ ليوسّع بها على الطالب مذهبه، ويفرغ لها ساعة من أوقاته المنتهبه، ويهب [لها] من حقّه الذى هو فى يده مالو شاء ما وهبه .

فرسم بالأمر الشريف – لا زال يقرّب الآماد، ويُرضى القوم وأقضاهم على وأثبتهم طودًا العماد – أن يفوّض إليه تدريس المدرسة الريحانية المعيّنة أعلاه، على عادة من تقدّمه وقاعدته إلى آخر وقت؛ بحكم تركه للقدمية ليَهُبّ عليه روحها وتهب له السعادةُ ريحها؛ ولها من البُشرى بعلمه ما تميس به ريحانةُ ريحها سرورا، وتميدُ وقد أكنّت جبلًا من العلم وقُورا؛ وتمتدّ وقد تالفت فى مسكة الليل عبيرا، وفى أقحوانة الصباح كافورا؛ وما نوصى مثله – أجلّ الله قدره – بوصية إلا وهو يعلمها، ويلقّنها من حفظه ويعلّمها؛ ومن فصل قضائه تؤخذ الآداب، وتنفذ سهام الآراء والآراب . وتقوى الله بها باطنه معمور، وكلّ أحد بها مأمور؛ وما نذكّره بها إلا على سبيل التبرّك بذكرها، والتمسّك بأمرها . والفقهاء والمتفقهة هم جنده، وبهم يجدّ جدّه؛ [فليجعلهم له فى المشكلات عدّه، وليصرف فى] الإحسان إليهم جهده؛ والله تعالى يُحيِّه على ما ولى، ويمينه لكلّ علياء لا يصلح أن يحلّها إلا على، وسبيلُ كلّ واقف عليه العملُ به بعد الخط الشريف أعلاه .

*
* *

الوظيفة السابعة — التصادير بدَمَشْق المحروسة .

وهــذه نسخة توقيع أنشأتُه لقاضى القضاة «بَدْر الدِّين محمد» ابن قاضى القضاة بَهَاء الدِّين أبى البَقَاء، وولده جَلَال الدِّين محمد، بإعادة تصديرين كانا باسمهما، بالجامع الأموىّ بدِمَشْق : أحَدُهما انتقل إليهما عن سَلَفِهما، والثانى بنُزُول، وخرج عنهما عند استيلاء «تنم» نائب الشّام على الشّام فى سنة اثنتين وثمـانمـائة، ثم أعيدَ إليهما فى شوّال من السنة المذكورة، فى قَطْع الثُّلُث، وهى :

الحمد لله الذى جعل بَدْرَ الدِّين فى أيّامنا الزاهرة مُتَواصِـلَ رُتَبِ الكمال، مُتَرَدِّدًا فى فَلَك المَعَـالِى بأكْرَم مَسَاغٍ بين بَهَاءٍ وجَلَال، مُنَزَّهًا عن شَوَائب النَّقْص فى جميع حالاته : فإما مُرْتقب الظهور فى سِرَارِه، أو مُتَّسِمٌ بالتَّمَـام فى إبْدَارِه، أو آخِــذٌ فى الازدياد وهو هِلَال .

نحمده علىٰ أنْ أقَرَّ الحقوقَ فى أهْلِهـا، وانتزع من الأَيدِى الغَاصِبَة ما اقتطعته الأيامُ الجائرةُ بجهْلِها، ونشهدُ أنْ لا إلٰه إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تَحْمِى قائلَها من شَوَائب التَّكْدِير، وتَصُونُ مُنْتَحِلَها من عَوَارِض الإصدار إذَا وَرَدَ أصْفَىٰ مَنَاهِل التصــدير، ونشهدُ أنَّ محمّدًا عبــدُه ورسولُه أفْضلُ نبىٍّ اقتفت أمّتهُ آثارَه واتَّبعَتْ سَنَنَه، وأكْرَمُ رَسُــولٍ دَعَا إلىٰ سبيل رَبِّه بالحِكْمَة والمَوْعِظَة الحَسَنَه، صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه أئمّةِ الحَقّ وأعْلَام الهُدَىٰ، وحُمَاة الدِّين وكُفَاة الرَّدَىٰ، صَلاةً يبقىٰ علىٰ مَدىٰ الأيّام حُكْمُها، ولا يَنْدَرِسُ علىٰ مَمَرِّ اللّيالى رَسْمُها، وسلّم تسليمًا كثيرا .

وبعــدُ، فإنَّ أوْلىٰ من رُعِيتْ له الحقوقُ القَدِيمَه، وحُفِظَتْ له مَسَاعيه الكَرِيمَه، وخُلِّدتْ عليــه النِّعَم الّتى حقّ لهـا أنْ تكونَ بأهْلِها مُقيمَه، من كَرُم أصْلًا وطَابَ

فرعا ، وزكا منبعًا وعذب نبعا ، ووقع الإجماعُ على فضله المتواتر فأُعْدِقَ الحُكْمُ بتفضيله قطعا ؛ ومن إذا تكلم فاق بفضله نثر اللآلى ، وإذا قُدِرَ قَدْرُه انحطت عن بلوغ غايته المعالى ، وإذا طلع بدرُه المضىءُ من أُفُقِ مجلسه الموروث عن أبيه وأعمامه قال : ليتَ أشياخى شهدوا هذا المجلس العالى ؛ ومن إذا جلس بحلقته البهية غشيته من الهيبة جلالة ، وإذا أطافت به هالة الطلبة والمستفيدين قيل : ما أحسنَ هذا البدرَ فى هذه الهالة ! ، ومن تتيه طلبته على أكابر العلماء بالانتماء إليه ، وتشمخ نفوس تلامذته على غيره من المتصدرين بالجلوس بين يديه ؛ ومن إذا أقام بمصر طلع بالشام بدره ، ولو أقام بالشام بقى بمصر على الدوام ذكره .

وكان المجلس العالى ، القاضوىّ ، الكبيرىّ ، العالمىّ ، العاملىّ ، الأفضلىّ ، الأكملىّ ، الأوحدى ، البليغىّ ، الفريدىّ ، المفيدىّ ، النجيدىّ ، القدوىّ ، الحجّىّ ، المحققىّ ، الإمامىّ ، الأصيلىّ ، البدرىّ ، جمال الإسلام والمسلمين ، شرف العلماء العاملين ، أوحدُ الفضلاء المفيدين ، قدوةُ البلغاء ، حجّة الأدب ، عمدة المحدّثين ، فخرُ المدرّسين ، مفتى الفرق ، أوحد الأئمّة ، زينُ الأمّة ، خالصة الملوك والسلاطين ، ولىّ أمير المؤمنين ، أبو عبد الله ، محمد ابن المجلس العالى ، القاضوىّ ، الكبيرىّ ، المرحومىّ ، البهائىّ ، أبى البقاء الشافعىّ ، السبكىّ ، ضاعف اللهُ تعالى نعمته : هو عين أعيان الزمان ، والمحدَّثُ بفضله على ممرّ الليالى وليس الخبر كالعيان ؛ ما ولى منصبا من المناصب الدينيّة إلا كان له أهلا ، ولا أراد الانصراف من مجلس علم إلا قال له مهلا ؛ ولا استبدل به فى وظيفة إلا نُسِبَ مُسْتَبْدِلُهُ إلى الحيف ، ولا صُرِفَ عن ولاية إلا قال استحقاقُه : كيف ساغ ذلك لمتعاطيه فكيف وكيف .

وكان ولدُه المجلسُ السّامىّ، القَضائىّ، الكَبِيرىّ، العَالِمىُّ، الفَاضِلىّ، الكَامِلىّ، البَارِعىّ، الأَصِيلىّ، العَرِيقىّ، الجَلَالِىّ، ضِيَاءُ الإسلام، فخر الأَنَام، زَيْن الصدور، جَمَال الأَعْيان، نَجْلُ الأَفاضل، سَلِيلُ العُلَماء، صَفْوَةُ الملوك والسلاطين، خالصة أَمير المؤمنين، أبو (١) محمد بلّغ الله تعالىٰ فيه [عارفيه] غَايَةَ الأَمَل، وأقرّ به عَيْنَ الزّمان كما أقرّ به عَيْنَ أَبِيه وقَدْ فَعَل؛ قد أُرْضِعَ لِبَانَ العلْمِ ورُبِّىَ فى حِجْرِه، ونَشَأَ فى بَيْتِه ودَرَج من وَكْرِه؛ وكَمُلَ له سُؤْدُدُ الطَّرَفَيْنِ : أَبًا وأُمًّا، وحصل علىٰ شَرَف المَحْتِدَيْنِ : خَالًا وعَمًّا؛ لم يقَعْ عليه بَصَرُ مُتَبَصِّر إلّا قال : نِعْمَ الوَلَد، ولاَ تأَمَّلَه صَحِيحِ النَّظَرِ إلّا قال : هذا الشِّبْلُ من ذَاكَ الأَسَد؛ ولا رمَىٰ والدُه إلىٰ غَايَةٍ إلّا أَدْرَكَها، ولا أَحَاط به مِنْطَقَةُ طَلَبَةٍ إلا هزَّها للبحث وحَرَّكَها؛ ولا ٱقتفىٰ أَثَرَ أَبِيه وجَدِّه فى مَهْيَع فَضْلٍ إلّا قال قَائِلُه : أَكْرِمْ بِهَا من ذُرِّيَّةٍ مَا أَبْرَكَها ! .

وٱتّفق أَنْ خرج عنهما ما كان بٱسْمِهما من وَظِيفَتَى التَّصدير بالجَامِع الأُمَوِىّ المعمور بذكر الله تعالىٰ بدِمَشْق المحروسة : المُنْتقِلَة إحْدَاهما إليهما عن سَلَفِهِما الصَّالح قِدَما، والصَّائرة الأُخرىٰ إليهما بطريقٍ شَرْعىّ مُعْتَبَرٍ وَضْعًا وثَابِتٍ حُكْمًا ـ ٱقتضى حسن الرَّأْى الشريف أَنْ يحفظ لهما سَالِفَ الخِدْمه، ويُرْعَىٰ لهما قَدِيمُ الوَلَاءِ فالعِبْرة فى التَّقْدِيم عند الملوك بالقُدْمَه .

فلذلك رسم بالأمر الشريف ـ لا زال لِذَوِى البُيُوت حَافظا، وعلى الإحسان لأَهْلِ العِلْم الشَّريف علىٰ مَمَرّ الزمان مُحَافِظًا ـ أَن يُعَادَ ذلك إليهما، ويُوَالىٰ مَزِيدُ الإحسان عليهما؛ فلْيَتلَقَّيَا ذلك بالقَبُول، ويَبْسُطَا بالقَوْل أَلْسِنَتَهُما فَمَن شَمِلَه إنْعَامُنَا الشريفُ حقّ لَه أَنْ يَقُولَ ويَطُول؛ ومِلَاكُ أَمْرِهِما التَّقوىٰ فهى خَيْرُ زَاد، والوَصَايا

(١) بياض بالأصل .

وإن كَثُرَتْ فعنهما تؤخذ ومنهما تُستفاد، والله تعالىٰ يُقِرُّ لها بهذا الاستقرار عينا، ويُبهج خواطرَهما بهذه الولاية إبهاجَ من وَجَدَ ضالَّته فقال: ﴿هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾. والاعتماد فى ذلك على الخطِّ الشريف أعلاه الله تعالىٰ أعلاه، حُجَّة بمقتضاه، إن شاء الله تعالىٰ.

الوظيفة الثامنة — النَّظَــر.

وهذه نسخة توقيع بنظر البِيمارَسْتان النُّورِىّ، كُتِب بها لمن لقبه «شهابُ الدِّين» وهى:

رُسِمَ ... ... — لا زال يُطْلِعُ فى سماء المناصب السَّنِيَّة من ذَوِى الأَصالة والكفاية شِهابا، ويُوزِعُ المستحقِّين بجهات البِرِّ شُكْرَه إذ اختارَ لهم من أهل النَّهْضة من ارتدىٰ العَفَاف جِلْبابا، ويُودِعُ صحائفَ الأيّام ذِكْرَه الجميلَ حين أحيا قُرُبات الملوك السالفين بانتخاب مَن يُجدِّد لهم بحُسْنِ المُباشَرة ثوابا — أن يُحمَل «مجلس الأمير» فُلان: أعزّه الله تعالىٰ فيما هو بيده من نظر البِيمارَسْتان النُّورِىّ بدِمَشْق المحروسة، علىٰ حُكْم التوقيع الكريم والولاية الشرعية اللَّذَيْن بيده، واستقراره فى ذلك بمقتضاهما استقرارا يَبْسُط فى هذا المَنْصِب يَدَه ولِسانَه، ويُظْهِرُ شِهابَ عَدْلِه الذى يُحْرِقُ من الجَوْرِ شَيْطانَه؛ ويُبْرِزُ من مُباشَرته ما عُرِفَ جَوْهَرُه بحُسْنِ الانتقاء وإبريزُه بحُسْن الانتقاد، ومن تأثيره ما تبلُغ به الأنفسُ المُرادَ بأوسع مَراد؛ ويُبْدِى من تدبيره، ما يُنْتِج تمييز الوقف وتثميره.

فليُباشِرْ ذلك علىٰ عادة مُباشَرته الحَسَنَة، وليَسْلُكْ فيها ما عُهِدَ من طريقته المُستحسَنة؛ مُحَصِّلًا من المفردات ما يصرفها لمُستحقِّها وقت الحاجة إليها، مُثابِرًا

علىٰ حُسْن مُعَالجَة المَضْرُور الذى لا تَقدِرُ يَدُه من العَجْز عليها ؛ مُوَاصِلًا فعْلَ الخَيْرِ بآستمرار صدقات الواقف ليُشَارِكَه فى الأَجْرِ والثَّوَاب ، مُسْتَجْلِباً له من الدعاء ولنـا بمُشَارَكته فى الأَمْر بالعمَل بسُنَّته إلىٰ يَوْم المَآب ، ضَابِطًا أَمْوال هـذه الجهة بتحرير الأُصُول والمطلق والحِسَاب والحُسَّاب ؛ متقدما إلى الخُدَّام والقَوَمَة بحسن الخدْمة للعَاجز والضَّعيف ، مُؤَكِّدا عليهم فى أَخْذهم بالقَوْل اللَّيِّن دُونَ الكلام العَنيف ؛ مُلْزِمًا لهم بجَوْدَة الخدمة لَيْلًا ونَهارا ، مُؤَاخِذًا لهم بمـا يُخِلُّونَ به من ذلك إهمـالا وإقْصَارًا ؛ مُتَقَدِّمًا إلىٰ أَرْباب وَظَائف المعالجة ببَذْل النَّصيحه ، وآستدراك الأَدْواء المُسْقِمَة بإتقان الأَدْوية الصَّحيحَه ؛ وليَتَفَقَّد الأَحْوال بنَفْسِـه : ليَعْلَم أَهْلُ المكان أَنَّ وَرَاءَهم من يقابلهم على التَّقْصير ، ولْيَبْذُلْ فى ذلك جُهْدَه فإنَّ الآجتهادَ القَليـلَ يُؤَثِّر الخَيْرَ الكَثير . والوَصَايَا كَثيرةٌ وعنده من التَّأَدُّب بالعِلْم وحُسْنِ المُبَاشَرة ما فيـه كِفَايَه ، وفى أَخْلاقه من جَميل المَآثر وما حَازَه فى البِدَايَة ما يَنْفَعُه فى النِّهَايَه ؛ ولكِنْ تَقْوى الله عَزَّ وجَلَّ هى السَّبَبُ الأَقْوَىٰ ، والمَنْهَلُ الذى مَن وَرَدَه يَرْوَىٰ ؛ فلْيَجْعَلْها له ذَخِيرةً لِيَوْم المَعَاد ، ومَعْقِلًا عند الخُطُوب الشِّدَاد ، والله تعالىٰ يُبَلِّغُه من التوفيق الأَمَلَ والمُرَاد ، بمنّه وكَرَمه ! ، والآعتماد ... ... إنْ شاء اللهُ تعالىٰ .

الصنف الثالث

(من تواقيع أرباب الوظائف بحاضرة دِمَشْق ـ تَوَاقِيعُ أَرْباب الوظائف الدِّيوَانِيَّة، وفيها مرتبتان)

المرتبة الأولى

(ما يكتب فى قطع النصف بـ«المجلس العالى» وهى على ضربين)

الضرب الأوّل[1]

(تواقيع الوزارة بالمملكة الشَّامِيَّة على ما آستقرّ عليه الحال)

فقد ذكر فى "التعريف" أَنَّه يكتب بالشام للصاحب [عز][2] الدين أَبِى يَعْلَى «حَمْزَة بن القَلَانِسِىّ» رحمه الله بـ«الجناب العالى» لجَلَالَة قَدْره، وسَابِقَة خِدَمِه، وعناية من كَتَب له بذلك. لٰكنَّه لم يُبَيِّن مقْدَارَ قَطْع الورق لذلك. ولا يخفى أنه كُتِب به فى قَطْع الثُّلُثَيْن، على القاعدة فى أَنَّه يُكْتَب للجَنَاب فى قَطْع الثلثين. وقد ذكر بعد ذلك أَنَّ الذى آستقرّ عليه الحال أَنَّه يكتب للوزير بالشَّام «المجلس العالى» بالدعاء، كما كُتِب للصَّاحب أَمِينِ الدِّين أَمِينِ المُلْك.

[وفيه وظائف:

الوظيفة الأولى ـ ولاية تدبير الممالك الشامية][3].

وهذه نسخة تَوْقِيع للصاحب «أَمِينِ المُلْك» المذكور بتدبير الممالك الشَّامِيَّة والخَوَاصّ الشريفة والأَوْقاف المَبْرُورة، من إنشاء الصَّلَاح الصَّفَدِىّ، وهى:

---

(١) لم يذكر الثانى.

(٢) بياض بالأصل والتصحيح من "التعريف" (ص ٧٥)

(٣) زدنا ما بين القوسين لاقتضاء المقام وتتميم الكلام.

الحمد لله الذى جعل وَلِىَّ أيّامنا الزّاهرة، أمينا، وأحلّه من ضمائرنا الطاهرة، مكانا أيْنَمَا توجّه وجده مكينا، وخصّه بالإخلاص لدولتنا القاهرة، فهو يقينا يقينا، وعضد بتدبيره ممالكنا الشريفة فكان على نَيْل الأمل الذى لا يَمِين يمينا، وزيّن به آفاق المعالى فما دجا أمرٌ إلّا كان فكره فيه صحيحا مبينا، وجمّل به الرّتب الفاخرة فكم قلّد جِيدها عقدا نفيسا ورصّع تاجها درّا ثمينا، وأعانه على ما يتولّاه فهو الأسد الأسدّ الذى اتّخذ الأقلام عرينا.

نحمده على نِعمه التى خصّتنا بولىّ تتجمّل به الدّول، وتغنى الممالك بتدبيره عن الأنصار والخول، وتحسُد أيّامنا الشريفة [عليه] أيّامُ من مضى من الدّول الأُول. ونشهد أنْ لا إله إلّا الله وحده لا شريك له شهادة نستمطر بها صوب الصّواب، ونزْلف منها فى ثوب الثّواب، ونعتدّ برّها واصلا ليوم الفصل والمآب، ونشهد أنّ محمدا عبده الصّادق الأمين، ورسوله الذى لم يكن على الغيب بضنين، وحبيبه الذى فضل الملائكة المقرّبين، ونجيّه الذى أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى حجّة على الملحدين، صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين صحبوا ووزروا، وأيّدوا حزبه ونصروا، وعدلوا فيما نهوا وأمروا، صلاة تكون لهم هدًى إذا حشروا، وتتضوّع لهم عرفهم فى الغُرَف وتطيّب نشرهم إذا نُشِروا، وسلّم تسليما كثيرا إلى يوم الدّين.

وبعد، فإنّ أشرف الكواكب أبعدها دارا، وأجلّها سُرى وأقلّها سرارا، وأعلاها منارا، وأطيب الجنات جنابا ما طاب أرجا وثمارا، وبحر خلاله كلّ نهر «يروع حصاه حالية العذارى»، ورنّحت معاطف غصونه سُلاف النّسيم فتراها سكارى، ومدّت ظلال الغصون فتخال أنّها على وجنات الأنهار تدبّ عذارا.

وكانت دِمَشْقُ المحروسةُ لها هـذه الصِّفَات ، وعلىٰ صَفَاها تَهُبُّ نَسَمات هَذه النَّسَمات ، لم يتَّصِفْ غيرُها بهذه الصِّفَه ، ولا اتَّفق أُولُوا الألْباب إلّا علىٰ مَحَاسِنها المُخْتلِفَه؛ فهى البُقْعَة التى يطْرَبُ لأَوْصَافِ جَمَالها الجَماد، والبَلَد الذى ذَهَب بعضُ المُفَسِّرينَ إلىٰ أنَّها إِرَمُ ذَاتُ العِمَاد؛ وهِى فى الدُّنيا أُنْموذَجُ الجَنَّة الَّتى وُعِدَ المُتَّقُون، ومِثَالُ النَّعيم لِلَّذين عندَ رَبهم يُرْزَقُون ؛ وهى زَهْرَة مُلْكنا، ودُرَّةُ سِلْكِنا؛ وقد خَلَتْ هَـذِهِ المُدَّةَ مِمَّن يُرَاعِى تَدْبِيرَها ويَحْمِى حَوْزَتَهـا ويُحَاشِـيها من التَّدْمير ويَمْلأُ خَزائِنَها خَيْرا يُحْلِىٰ، إذَا مَلأْنَا سَاحَتَها خَيْلًا ورَجْلًا ــ تَعَيَّن أنْ نَنْتَدِبَ لها من جَرَّبْنَاه بُعْـدا وقُرْبا، وهَزَزْنَاهُ مُثَقَّفًا وسَلَلْنَاه عَضْبا، وخَبَأْنَاه فى خَزائِن فِكْرِنا فكان أَشْرَفَ مايُدَّخَر وأَعَزَّ مايُخْبىٰ؛ كَمْ نَهَىٰ فى الأَيَّام وأَمَر، وكَمْ شَدَّ أَزْرًا لما وَزَر، وكم غَنِيَتْ به أيَّامُنا عن الشَّمْس ولَيَالِينا عن القَمَر، وكَمْ رفَعْنا رَايَةَ مَجْد تلقَّاها عَرَابَةُ فَضْلِه بِيَمِينِ الظَّفَر، وكَمْ عَلَا ذُرَا رُتَبٍ تَعِزُّ علىٰ الكَوَاكِب الثَّابِتَـة فَضْلًا عمن يَتَنَقَّل فى المبـاشرات من البَشَر، وكَمْ كانتِ الأَمْوالُ جُمَادىٰ وأعَادَها ربيعا غَرَّدَ به طَائِرُ الإقبال وصَفَر .

و [لمـا] كان [الصاحب أمين الملك][1] هو مَعْنى هذه الإِشَارَه، وشَمْسُ هذه الهَالَة وبَدْرُ هذه الدَّارَه ؛ نَزَل من العَلْيَاءِ فى الصَّمِيم، ونَخَرْنَا بأَقْلامه الَّتى هى سُمْرُ الرِّماح كما نَخَرتْ بقَوْسِها تَمِيم ؛ وحُفِظَت الأَمْوال فى دَفَاترِه التى يُوَشِّيها فَأَوَتْ إِلَى الكَهْف والرَّقِيم، وقَالَ لِسَانُ قَلَمِـه : ﴿ اجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيم ﴾ وعَقِمَ الزَّمَانُ أَن يَجِىءَ بمثْـله «إنَّ الزمانَ بِمِثْلِه لَعَقِيم» وتَشَبَّه به أَقْوامٌ فَبَانُوا وبَادُوا، وقام منهم عُبَّاد العِبَاد فلَمَّـا قام عَبْدُ الله كَادُوا ــ أَرَدْنا أَنْ تَنَال الشَّامُ فَضْلَه كما نَالَتْه مصْرُ فما تَسَاهَمَ فيه سواهُما، ولا يقولُ لِسَانُ المُلْك لغيرِه :

حَلَلْتَ بهٰـذا حَلَّةً ثُم حَلَّةً * بهٰذَا فطَاب الوَادِيَان كِلَاهُما

(١) بياض بالأصل والتصحيح مما تقدم .

فلذلك رسم بالأمر الشريف أن يفوض إليه تدبير الممالك الشريفة، ونظر الخواص الشريفة والأوقاف المبرورة على عادة من تقدمه فى ذلك .

فليتلق هذه الولاية بالعزم الذى نعهده، والحزم الذى شاهدناه ونشهده، والتدبير الذى يعترف الصواب له ولا يجحده، حتى يثمر الأموال فى أوراق الحساب، وتزيد نموا وسموا فتفوق الأمواج فى البحار وتفوت القطر من السحاب ؛ مع رفق يكون فى شدته، ولين يزيد مضاء حدته ، وعدل يصون مهلة مدته ؛ والعدل يعمر، والغدر يدمر، ولا يثمر ؛ بحيث إن الحقوق تصل إلى أربابها ، والمعالم تطلع بدور بدرها كاملة كل هلال على أصحابها ، والرسوم لا تزداد على الطاقة فى بابها ، والرعايا يجنون ثمر العدل فى أيامه متشابها ؛ وإذا أنعمنا على بعض أوليائنا بنحل فلا يكدر وردها بأن تؤخر، وإذا استدعينا لأبوابنا بمهم فليكن الإسراع إليه يخجل البرق المتألق فى السحاب المسخر، فما أردناك إلا لأنك سهم خرج من كنانة، وشهم لا ينتهى إلى الباطل عيانه وعنانه ، فاشكر هذه النعمة على منائحها، وشنف الأسماع بمدائحها ؛ متحققا أن فى التنقل، بلوغ العز والأمل، وأنه لو كان فى شرف المأوى بلوغ منى «لم تبرح الشمس يوما دارة الحمل» ؛ فاستصحب الفرح والجذل، بدل الفكر والجدل .

الوظيفة الثانية — كتابة السر بالشام .

ويعبر عنها بصحابة ديوان الإنشاء الشريف بدمشق . وشأنه هناك شأن كاتب السر بالأبواب السلطانية .

وهذه نسخة توقيع بصحابة ديوان الإنشاء بالشام ، كتب بها لفتح الدين بن الشهيد، من إنشاء القاضى ناصر الدين بن النشائى، فى مستهل ذى القعدة سنة أربع وستين وسبعمائة ، وهى :

الحمدلله مُجزِل المَنّ والمَنح، ومُرسِل سَحائب العَطاء السَّمح، ومُعمِل فكرِنا الشَّريف فى انتخاب من أَوْرَى زَنْدَ الخير بالقَدح، ومُنْتَقِل السَّريين الأفاضل من صَدْرٍ إلى صَدْرٍ يحمى يصونُ له السّرح، ويُغنِي مَشهورُ أَلفاظه عن الشَّرح، ومُجمِّل بِناءِ الدين، بما سَكن به من صميم الفَضل المُبين، وما اقتَرنَ بأَبوابه من حَرَكةِ الفَتح .

نحمده على نِعَم عاطِرةِ النَّفح، ونَشكره على مِنَنٍ عاليةِ السَّفح . ونَشهدُ أنْ لا إلٰه إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ لهُ شهادةً تُنجِّى قائلَها من حَرِّ الجَحيم وتَقيه شَرَّ شَرَرِ ذلكَ اللَّفح، وتَخطُبُ بها أَلسِنةُ الأقلام على مَنابرِ الأَنامِلِ فتَنْثنى عندها من مُطرِبات الوُرْقِ على غُصونِ الأوراق هَديلَ الصَّدح . ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى بلَّغ الرِّسالةَ وأدَّى الأمانةَ وعامَل الأُمّةَ بالنُّصح، وأزالَ عنهم التَّرح وأمِنه اللهُ على أسرار وَحيِه فكان أشرَفَ أمينٍ خَصَّه اللهُ فى مُحكَمِ آياتِه بالمَدح، وجعلَه أعظَمَ من أمَرَ بالمعروف ونَهى عن المُنكرِ فلم تأخُذْه فى اللهِ لَومةُ لائمٍ ممَّن لَحا وممَّن لم يَلْحُ؛ صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وأصحابه أهلِ الوَفاء والصَّفاءِ والصِّفاحِ والصَّفح، والذين جاهَدوا فى اللهِ حَقَّ جِهادِه بالنَّفسِ والمالِ والكَدِّ والكَدح؛ ورَفَعوا أعلامَهم المُظلِّلَه، ونَصَبُوا أقلامَهم المُعدَّلَه، فكَمْ لهم فى المُشركين من جِراحٍ لا تَعرِف الجَرح؛ وذادُوا عن حَوْزةِ الدِّين، بإراقةِ دَمِ الكُفّار المُتمرِّدِين، فحَسُن منهم الذَّبُّ والذَّبح؛ وكانُوا فُرسانَ الكَلام، وأُسُودَ الإقدام، الَّذين طالَما خسأتْ بهم كِلابُ الشِّرك فلم تُطِق النَّبح؛ صلاةً دائمةً باقيةَ الصَّرح، ما اقتَرنَ النَّظَرُ باللَّمح، وما هَطَل السَّحابُ بالسَّح؛ وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا .

وبعد، فإنَّ أولى من خَطَبَت المَناصِبُ العَليَّه، مَحاسنَه الجَليلةَ الجَليَّه، ورَغِبَت المَراتِبُ التى هى بالخَير حَريَّه، فى جَميل حالَتِه التى هى بعُقُود المَفاخِر حَليَّه، وسَحَبت

سَحَائبُ الإقبال الوابِلِيَّه، ذُيُولَ فضائِلِه الفاضلِيَّه، واكتسب العُلومَ الفَرْعِيَّة والأَصْلِيَّه، من مجاميع فُنُونه التى تُعرب عن أنواع الفوائد الجُمْلِيَّة والتَّفصيلِيَّه ـ من شَهِدَت المَفَاخِرُ بأَنَّه لم يَزَل الشَّهِيدَ لها وابْنَ الشَّهيد، وحُمِدَت المآثرُ التى هو الشَّهيرُ بها فما عليها فى جميل الأدوات من مَزِيد؛ وتَشَيَّدت مَبَانِى مَعَالِيه التى اقترن بابُ خَيْرِها منه بالفَتْح المُبِين، وتَمهَّدت مَعَانِى أمالِيه بالتَّخيُّل اللَّطِيف واللَّفْظ المَتِين؛ وتعدَّدت أوصاف شِيَمِه فهى لمحاسن الدَّهر تَزِيدُ وتَزِين، وغدا من الكاتِبِين الكِرَام والكِرَام الكاتِبِين؛ الذين تَضِحُ باطِّلاعِهم مَرَاصِدُ المَقَاصد وتَبِين. طالما اتَّسَق عِقْدُ نَظْمِه المَتين، وبَسَق غُصْنُ قَلَمِه المُثْمِر بالدِّين، وأضاف إلى أدَبِ الكُتَّاب حِلْيَةَ العُلَماء المُتْقِنين، وارتقب أفعال الجميل التى استوجب بها حُسْن التَّرَقِّى إلى أعلىٰ دَرَجات المُتَّقين، وقلَّد أجيادَ الطُّروس جَوَاهِرَ ألفاظه التى تفُوقُ الجَوْهر عن يَقِين؛ فهى بنُضَار خَطِّه مَصُوغَةٌ أبهجَ صِيَاغَه، وفى طَرِيق الإنشاء سالِكَةٌ نَهْجَ البلاغَه، وكذا بِحَارُ الفَضائل وارِدَةٌ مناهلَها المُسَاغَه؛ كم أعْرَبَ كَلِمُهُ الطَّيِّب، عن سَحِّ سَحَاب الصَّوَاب الصَّيِّب؛ وكم أغنَىٰ فى المُهِمَّات بكُتُبِه، عن جَيْش الكَتَائب وقُضُبِه؛ وكم هزأت صحائفُه بالصَّفائح، وكم أغنت راشِقاتُ فِكْره الثابتة العِلْم عن سَهْو السَّهْم الرَّائِح؛ وكم تَشَاجَرت أقلامُه البِيضُ الفِعَالِ هى وسُمْرُ الرِّماح فكان نَصْرُها اللَّائِح، وكم تَعَارَضَ نَشْرُ وَصْفه وشَذَا الطِّيب فألْفَى الزَّمانُ ثناءه هو الفائح، وكم اشتمل على أنواعٍ من النَّفاسة فاستوجبَ مِنَّا مِنَنًا يقضى له بأجْزَلِ المُنَىٰ والمَنَائح.

ولما كان المجلسُ العالى، القاضوىّ، الأَجَلِّىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، الفاضلىّ، الكاملىّ، الأوحدىّ، الأثيرىّ، الرَّئيسىّ، البليغىّ، المُفيدىّ، المجيدىّ، الأصيلىّ، العَرِيقىّ، العابدىّ، الزَّاهدىّ، المؤتمنىّ، الفتحىّ؛ جمالَ الملوك والسلاطين، وَلِىَّ

أمير المؤمنين ، محمد بن الشهيد ، أدام الله نعمته : هو الذى أعرب القلم عن صفاته ، وأطرب المسامع ما أدّاه اليراع عن أدواته ، ورام البنانُ أنْ يستوعب بيان شكره فلم يُدرك شأو غاياته ، وتسارعت بدائع البدائه من أفكاره فسابقت جريان يراعه فى أبياته ، وراقت أماليه ، لناقلى ألفاظه ومعانيه ، فشكر السمع والفهم بها هبّات هباته ؛ فآدابه مشهوره ، وعلومه مذكوره ؛ وتحليه بمذاهب الصوفية ارتاضت به نفسه الخيّرة الخبيره ، وإخلاصه فى عبادة الله تعالى حسنت به منه السيرة والسريره ؛ وصيانته للأسرار الشريفة استحق بها إسناد أمرها إليه ، وإيداع غوامضها لديه ، والتعويل فى حفظها وفى لفظه للفظها عليه ـ اقتضى حسن الرأى الشريف أن نجتبيه لما تحققنا منه من ذلك ، ونخصه بصحابة ديوان الإنشاء الشريف فى أجل الممالك ، ونجعل قدمه ثابتة الرسوخ ، والصعود فى مشيخة الشيوخ ، ليسلك فيها أحسن المسالك .

فلذلك رسم بالأمر الشريف (١) الأشرفى ، الناصرى ـ لا زال لأبوابه الشريفة فتح فى الخير يقدمه النصر ، ولسحابه منح ما يعرف مدد أمداده القصر ـ أنْ تفوض إليه صحابة ديوان الإنشاء الشريف ، ومشيخة الشيوخ بالشام المحروس ، على عادة من تقدمه وقاعدته ومعلومه الشاهد به الديوان المعمور إلى آخر وقت .

فليباشر ذلك بوافر عفافه ، ووافى إنصافه ، ومشهور أمانته ، ومشكور صيانته ؛ كاتما للأسرار ، كاتبا للبار ، ليكون من الأبرار ؛ عالقا مصالح الأنام بإرشاد رأيه وصوابه ضابطا أحوال ديوانه ، متحريا فى كثير الأمور وقليلها : فإن الكتاب يظهر من عنوانه ؛ محررا لما يملى معتبرا لما يكتب ، مجملا للطالعات الكريمة بفكره المتسرع

(١) بياض بالأصل ولعله «العالى» .

وتصوّره الأرتَب ، حافظًا أزِمَّةَ ما يصـدُر من مِثال وما يَرِدُ فى المُهِـمّات الشّريفة فهو أدرىٰ وأدرَبُ بمـا علىٰ ذلك يَترتَّب ، مُحافظًا كمادَته علىٰ دينه ، لازمًا لصـدْق يَقينِه ، خافضًا لأهْلِ الخيْر جَناحَه ، مانِحًا لهم نَجاحَه ، مُعامِلاً للفقراء بكَرَم نَفْس بالله غَنيِّه ، مُلاحِظًا لأحْوالهم بالقَوْل والفِعْل والعَمَل والنيَّه ، مُحترمًا لكَبيرهم ، حانيًا علىٰ صـغيرهم ، مُفكِّرًا فيما يعودُ نَفعُه عليهم ، راكِنًا فى الباطِن والظّاهِر إليهـم ، مُعينًا لهم بالاشْـتِغال بالعِبَاده ، مُسَلِّكًا لهم الطَّريق إلى الله فإنّهـا الطريقُ الجادَّه ، مُسْـتَجلبًا لدَعَواتهم الصّالحـه ، مُسْتَفيدًا من مَتاجِر بركاتهـم الرّابِحَه . والوصَايا كثيرةٌ ومن نُور إفادَته تُقتَبَس ، ومن مَشْهُور مادَّتِه تُلْتَمس ، وملاكُها التَّقوىٰ وهى أوّلُ كُلّ أمْرٍ وآخِرُه ، وبمُلازَمتها تتِمُّ له مَفـاخِرُه ، والله تعالىٰ يَحرُسُـه فى السِّرّ والنَّجْوىٰ ، ويُظْهِر بإرشاده للمَعانِى والبَيان كُلّ نَجْوىٰ ؛ بمنّه وكَرَمه ! إنْ شاء اللهُ تعالىٰ .

*

وهـذه نسخةُ توقيع بكِتَابة السِّرِّ بالشّام ، كُتِبَ به للقاضى « شَرَف الدِّين عبـد الوهّاب » بن فَضْـل الله ، عنـد مارُسِم بنَقْله من القـاهِرَة إلىٰ دِمَشْـق ، فى ذى الحِجّة سنة إحْدىٰ عشرة وسَبْعِمائة ، من إنْشاء الشّيخ شِهَاب الدِّين « محمود الحَلَبِىّ » وهى :

الحمد لله الذى خَصّ دَوْلَتنا الشّريفـة برِعَاية الذِّمَم ، وحِفْظ ما أسْلَفَ الأوْليـاءُ من الطّاعات والخِدَم ، وإدَامَة ما أسْدَتْه إلىٰ خَدَم أيّامنا الزّاهِرة من الآلاءِ والنِّعم ، وإفاضَة حُلَل اعْتنائها ، التى هى أحَبُّ إلىٰ مَن شَرُفَ بوَلائها ، من حُمْر النَّعَم ، وأبْقىٰ عَوارِفَها علىٰ مَن لم يَزَلْ مَعْرُوفًا فى صَوْن أسْرارِها بسَعَة الصَّـدْر وفى تَدْبير مَصَالحها بصِحّة الرَّأى وفى تَنْفيذ مَرَاسِمها بطاعة اللِّسَان والقَلَم .

نحمده على نعمه التى ما ٱستهلّت على ولىّ فأقلع عنه غمامُها، ولا ٱستقرّت بيد صفىّ فٱنتزع من يده حيث تصرّف زمامُها؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً لا نزال نعتصم بحبلها المتين، ويتلقّى عرابةُ إخلاصنا راية فضلها باليمين؛ ونشهد أنّ محمدا عبدُه ورسولُه أكرمُ مبعوث إلى الأمم، بالإحسان والكرم، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين كرُمت أنسابُهم، وأضاءت لهم وجوهُهم وأحسابُهم؛ فرفلوا فى حُلَل ما ٱكتسوه من سُنَنه، وٱكتسبوه من سَنَنه، فحسُن منها ٱكتساؤُهم وٱكتسابُهم؛ صلاةً لا تزال لها الأرض مسجدا، ولا يبرح ذكرُها مُغيرا فى الآفاق ومُنجدا؛ وسلّم تسليما كثيرا .

وبعد، فإنّ أولى من خوّلته مكارمُنا الإقامة حيث يهوىٰ من وطنه، وبوّأته نعمُنا الجمع بين ذمام برّنا وبين ما فارقه من سكنه؛ وملّكته عواطفُنا، زمام التصرّف حيثما أمكن من خدمتنا الشريفه، وعرّفته عوارفُنا، أنّ مكانته عندنا على حالها حيث أدّى ما عُدق به من وظيفه — من لم يزل قلمُه لسانَ مراسمنا، وعنانَ ما نُجريه فى الآفاق من سوابق مكارمنا، وترجمانَ أوامرنا، وخطيبَ آلائنا التى غدت بها أعطافُ التقاليد من جملة منابرنا .

ولمّا كان المجلس العالى : هو الذى لم يبرح صدرُه خزانةَ أسرارنا، وفكرُه كنانةَ إعلاننا فى المصالح وإسرارنا، وخاطرُه مرآةَ آرائنا، ويراعُه مشكاةَ ما يُشرق: من أنوار تدبيرنا، أو يبرق: من أنواء آلائنا؛ ينطق قلمُه فى الأقاليم عن ألسنة أوامرنا المُطاعه، وينفذ كلِمُه عن مراسمنا فى ديوان الإنشاء بما تقابله أقلام الجماعة بالسمع والطّاعه؛ وكانت سِنُّه قد علت فى خدمتنا إلى أن رأينا توفير خاطره على البركات، عن كثير ممّا يتبع ركابنا الشريف من لوازم الحركات؛ وأن نُعفيه ممّا يلزم الإقامة بأبوابنا

الشريفـــة من كَثْرة المُثُول بين يَدَيْنا، وأَنْ تَقْتَصِر به عَلىٰ أَخَفِّ الوَظِيفَتَيْن إذْ لا فَرْقَ في رُتْبَة السِّرَّيْنَ ما يَصْدُر عَنَّا أَوْ ما يَرِدُ إلَيْنا .

فرُسم بالأَمْر الشّريف ، العَالى ، المَوْلَوِيّ ، السُّلطانيّ ، المَلَكيّ ، الفُلانيّ ، الفلاني ، أَنْ يكونَ فلانٌ صاحبَ دِيوانِ الإنْشاء الشّريف بالشام المَحْرُوس ، بمَعْلومه الشّاهد له به الديوان المعمور بالأَبْواب العَالِية ، عِوَضًا عن أَخِيه المجلس السامىّ ، القضائىّ ، المُحْيوىّ « يَحْيى بن فَضْـل الله » ويستـمرّ أَخُوه القاضى « مُحْيي الدّين » المـذكور مع جُمْـلة الكُتّاب بديوان الإنشاء الشّريف بالشّام المحروس ، بالمعـلوم الشّاهد به الدِّيوانُ المَعْمُور .

فلْيُباشِر هذه الرُّتْبَةَ التى تَأَثّلَتْ به قَوَاعِدُها وعن تَقْرِيرِه وتَحْرِيره أَخَذَ كُلّ مَن كَانَ بأَنْواعها وَأَوْضَاعِها عليما ؛ فإنّه لم يخرج عن أَخِيه شَيْءٌ وَصَل إليْه ، ولا فُوِّضَ له إلّا ما هو بحكم عموم الأَوْلَوِيّة والأَوَّلِيّة فى يَدَيْه ؛ وأمّا ما يتعلّقُ بذلك من وَصَايا تُبْسَط ، وقَوَاعِدَ تُشْرَط ؛ فإنّها منه استفادها من رَقَّمها ، وعَنْه ارْتَوَىٰ بها وروَاها من تَعلَّمها ؛ ونَحْنُ نعلَمُ من ذلك ما لا يحتاجُ إلىٰ أَنْ يزدادَ فيه يَقِينًا ، ولا أَنْ تَزِيدَه بذِكْرِه مَعْرِفَةً وتَمْكِينًا ، والاعْتماد ... ...

قلتُ : ومن غَرِيبِ ما وقع : أنّه كتب للمَقَرّ الشّهَابِيّ بن فَضْـل الله بكِتَابَة السِّر بالشّام ، حين وَلِيَها بعد انفصاله من الديار المصرية تَوْقِيعٌ مُفْتَتَح بـ«أمّا بعدَ حَمْد الله» من إنشاء المَوْلَى «تاج الدّين بن البارنبارى» وكَأَنَّه إنّما كَتَب بذلك عند تغيّر السلطان الملك النّاصر «محمد بنِ قَلَاوُون» عليه ، علىٰ ما هو مذكور فى الكلام علىٰ كُتّاب السِّر فى مُقَدّمة الكتّاب .

وهذه نسخة توقيع بكتابة السر بالشام المحروس :

أما بعد حمد الله مُنقّل الشهب فى أحبّ مطالعها ، ومُعلى الأقدار بتصريف الأقدار ورافعها ، ومُبهج النفوس بمعادها إلى أوطانها ومواضعها ، ومُمضى مشيئته فى خليقته بالخيرة فيما يشاء لطالعها ؛ والشهادة له بالوحدانية الآخذة من القلوب بمجامعها ، والصلاة على سيدنا محمد الذى بصّر الأمة بهديها ومنافعها ، وصان شرعته الشريفة بتلو الملل بنسخ شرائعها ، وعلى آله وصحبه الذين استودعوا أسرار الملة فحفظوا نفيس ودائعها ــ فإن ممالكنا الشريفة هى سواء لدينا فى التعظيم ، وأولياء دولتنا الشريفة يتنقلون فيها فى منازل التكريم ؛ وعندنا من « فضل الله » رعاية للعهد القديم ، وتأكيد لأسباب التقديم ؛ فلا غضاضة لمن نقلناه من أبوابنا إليها ، ولا وهن يطرأ على علو المراتب ويعتريها ؛ حيث صدقاتنا دائمة ، وثغور إقبالنا باسمه ، ومراسمنا لمساعدة الأقدار فى الأيام حاكمة ؛ و « الشهاب » لو لم يسر فى سمائه ، لما اهتدى الناظرون بضيائه ؛ والدرة لو مكثت فى صدفها ، لما حظيت فى العقود بشرفها .

وكان المجلس العالى ، القضائى ، الشهابى ، قد أقام فى خدمتنا الشريفة بالأبواب العالية حافظًا للأسرار ، قائمًا بما نحب ونختار ؛ ثم لما أخذ حظه من القرب من أيدينا الشريفة : رأينا أن عوده إلى أوطانه ، وأهله من تمام إيمانه ؛ وأن مرجعه إلى محله ، من نعم الله عليه وفضله ؛ وما سار إلا والإقبال يزوده ، والاستقبال به وأهل بيته يسعده ويصعده .

فلذلك رسم بالأمر الشريف أن ينقل إلى كتابة الإنشاء الشريف بدمشق المحروسة ، وأن يكون متحدثًا عن والده ، على ما كان عليه بالديار المصرية ، وليقرر له من المعلوم كذا وكذا .

فَلْيَسِرْ إلىٰ دَارِ كَرَامَتِه، ولْيَسْتقِرَّ فى مَوْطِن إقَامَتِه، قَرِيرَ العَيْن، مَمْلُوءَ اليَدَيْن، مَسْرُورًا برفْع المَحَلِّ فى المَمْلَكَتَين؛ ولْيَكُنْ لِوَالِده - أعزَّه الله تعالىٰ - عَضُدا، ولْيُصْبِحْ له فى مهماتنا الشريفة سَاعِدًا ويَدا، ولْيُضْحِ به اليومَ بَرًّا لِيجِدَ رِضَا الله غَدَا؛ فإنَّ والِدَه بَرَكَةُ المَمالك، وله قَدِيمُ هِجْرَة، وسَالِفُ خِدْمَة، وحُسْنُ طَوِيَّة، فنَحْن نَرْعَاه لذلك، والمُهِمَّاتُ الشريفةُ يَتَلقَّاهَا بنَفْسه، ولْيُصْدِرْ فُصُول المطالعة مُدَبَّجة علىٰ عَادَتِه فى تَدْبيج طِرْسِه؛ ولْيَسْتَعِنْ بالله فهو وَلِيُّ الإعَانَة، ولْيَعْتَمِدْ على الرِّفْق فى أمْرِه فما كان الرِّفْقُ فى شَىْء إلَّا زَانَه؛ وما بَعُدَ عنَّا، مَن كان بَعِيدًا بالصورة قَرِيبًا بالمَعْنىٰ، والله تعالىٰ يَزِيده مِنَّا مَنًّا! ؛ والخط الشريف أعْلاه حُجَّةٌ فيه؛ إن شاء الله تعالىٰ .

الوظيفة الثالثة — نَظَر الجيوش بالشَّام .

وشَأْن صَاحِبِها كِتَابة المُرَبَّعَاتِ التى تُنْشَأُ من الشَّام، وتَنْزِيلُ المَنَاشِير الشريفة التى تصدر إليه .

وهذه نسخة تَوْقِيع شريف من ذلك، كُتِبَ به «لموسىٰ بن عبد الوهاب» من إنْشَاء السيِّد الشريف شِهَاب الدِّين، وهى :

الحمدُ لله الذى جعل إحْسَانَنا عَائِدًا بصِلاته، وفَضْلَنا يجمع شَمْلَ الإسْعاد بعد شَتَاته، وعَوَاطِفَنا تُنَبِّه جَفْنَ الإقْبال من إغْفَائه وسِنَاته .

نحمدُه علىٰ أنْ نَصَرنَا جَيْشَ الإسلام فى أرْجاء مُلْكِنا الشَّريف وجِهَاته، وجعل البَرَكَةَ واليُمْنَ بِأمْرِنا فى حَالَتَىْ مَحْوِه و إثْبَاته؛ ونشهدُ أنْ لا إلٰه إلَّا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةً زادت فى جَزَاء المُخْلِص وحَسَنَاته، وأضْحتْ نُورًا يَسْعَىٰ بين يديه إلىٰ رحمة رَبِّه و إلىٰ جَنَّاته؛ ونشهدُ أنَّ سيدَنا محمدًا عبدُه و رسُوله الذى أظْهَر اللهُ به وَاضِحَ آيَاته،

وأصبح النشر عابقا من نشر راياته، ومحا الفترة بهديه وسر سرائر أوليائه وأكمد قلوب عداته ؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ماتأرج النسيم فى هبابه، وأبهج العطاء بجزيل هباته؛ وسلم تسليما .

وبعد، فإن من النعم ما إذا عادت أقرت العيون، وحققت الآمال والظنون؛ ورفعت الأقدار وإن لم يزل رفيعا محلها، وجمعت المسار الممتد على الأفئدة ظلها وعمرت ربوع الإحسان، وغمرت بمنائحها الحسان؛ كهذه النعمة التى تلقت الإقبال من حافل غمامه، وجمعت شمل التقديم مشفوعا بإكرامه؛ وأعادت سماء التكريم هادية بقطبها، مشرقة الأرجاء بنور ربها؛ وسفرت بدورها بمن هو أولى باجتلائها، وتهيأت رتبها لمن هو جدير باعتلائها؛ وحقيق بأن تعود المواهب بعد فترتها، وأن تقبل عليه وجوه المنائح بعد لفتتها، لتصبح كواكب الإسعاد كأنها ما أفلت، وعطايا التخويل كأنها ما انتقلت؛ ويعود عليه اليوم كأمسه، ويرجع أفق العوارف الجسام مشرقا ببدر الاجتباء وشمسه .

ولما كان فلان هو الذى حسنت فى الخدم الشريفة آثاره، وحمد إيراده فى المهمات الشريفة وإصداره؛ وشكره شامه ومصره، وسما فى كل جهة حلها محله وقدره؛ وتحققت منه رآسة قضت له بإبداء النعم وإعادتها، وأن تجرى له الدولة من الإكرام على أجمل عادتها؛ وأن ترعى له حقوق ألفها حديثا وقديما، وتنشر عليه ظلال الفضل حتى لايفقد منها على طول المدى تكريما .

فلذلك رسم بالأمر الشريف ... ... لازال ... ... أن يستقر ... ... تجديدا لملابس سعده، وتأكيدا لقواعد مجده، وترديدا للفضل الذى حلا منهل ورده؛ ورعاية لخدمه التى أكبت عليها السيوف والأقلام، وشكرت تأثيرها جنودنا ـ نصرها الله

تعالىٰ ـ بمِصْرَ والشّام ؛ ولمـا له من حُسْنِ سَمْتٍ زَادَه وقَارُه ، وأصْلٍ صَالحٍ طَابَتْ منه ثِمَـارُه .

فَلْيَسْتَقِرّ فى هذه الوظيفة المباركة : عَالِمًا أنّ لِسَانَ القَلَم أمْسَك عن الوصايا لأنه خَبَرَ هَذِه الوظيفةَ فَرْعًا وأَصْلا ، وألِفَتْ منـه نَاظِرًا عَلَا قَدْرًا وكَرُم مَحْتِدًا وفَضْـلا ؛ وهو بحمد اللهِ أدرىٰ بسُلُوك منَاهِجِهَا القَوِيم ، وأدْرَبُ باقتفاء سَنَنِهَا المُسْتَقِيم ؛ والخير يكون ، والاعتماد فى ذلك علىٰ الخَطّ الشّريف إن شاء الله تعـالىٰ أعْلاه ، حُجّة بمقتضـاه .

المرتبـــــة الثـانية

(من مَرَاتب أرْباب التّواقيع الديوانية بدِمَشْقَ ـ مَن يُكتب له فى قَطْع الثلث بـ«المجلس السامىّ» باليـاء مفتتحا بـ«الحمد لله» إن عَلَت رُتْبَته وإلا بـ«أما بعدُ» ، وتشتملُ علىٰ وظائفَ)

منها ـ نَظَر الخِزَانَة العاليـة ، وشأْنها هناك نظير الخِزَانَة الكُبرىٰ بالديار المصرية فى القديم ، ونَظِيرُ خِزانة الخاصّ الآن .

وهذه نسخة تَوْقيع بنَظَر الخِزَانة العَالية :

أمّا بعدَ حمـدِ الله علىٰ نِعَمِه التى خَصّت المَنَاصبَ السنيةَ فى أيّامنا الزّاهـرة بكُلّ كُفْءٍ كريم ، وجعلت علىٰ خَزَائِن الأرْض من أوْلياء دَوْلَتِنا القاهرة كُلّ حَفِيظٍ عَلِيم ؛ وأفَاضت ظِلّ إنْعامنا علىٰ من إذا أُنْعِمَ النّظَر فى حقّ ذَوِى البُيُوت القديمة كان أحَقّ بالتّقْديم ؛ والصّلاة علىٰ سيدنا محمد أفْضل من حَبَاه بفَضْله العَمِيم ، واجْتَباه لهِـدَايَة خَلْقه إلىٰ السَّنَن القَوِيم ، وجعل سلامةَ الصّلاة المقبولة من النقص مقرونةً بالصلاة عليه والتّسْـليم ـ فإنّ أوْلىٰ من رجّحَه لخِدْمَتِنا الاخْتيار ، وقدّمه فى دَوْلَتِنا الاخْتبار ؛

وأخلصه حسنُ نظرنا الشريف رُتبةَ أبيه من قبل ، وأغدق له سحابُ برّنا صَوبَ إحسانٍ فلم يُصِبه طَلٌّ بل وَبل - من حُمِدَ سَيرِه وسِيَره ، وشُكرٍ فى طاعتنا وِرْدُه وصَدَرُه، وزانَ الأصالةَ بالنَّباهه، والرِّآسةَ بالوجَاهه، والمعرفةَ بالنَّزاهه، وجمع بين الصَّلَف والاطِّلاع، والتَّضَلُّع من العِفَّة والاضْطِلاع، والصِّفات التى لو تخيَّرها لنفسه لم يَزِدْها على مافيه من كَرَم الطِّبَاع .

ولما كان نَظَرُ الخزانة العاليــة بدمشق المحروسة رُتبــةً لا يَرقَىٰ إليها من الأكْفَاء الا مَنْ ومَنْ، ولا يُقَدَّم لهـا من الأولياء إلا مَن تعَــيَّن من رُؤَساء العصر وفُضَــلَاء الزَّمن ؛ وكان فلانٌ هو الذى عَيَّنه لهـا ٱرْتيادُ الأكْفاء ، وٱصْطُفِى هو من أهْــل الصَّفَاء ، وتقَدَّم من وَصْف محَاسِـنه ما لا يرَوع تَمَـامُ بَدْره وظهورُه بالنَّقص والاخْتِفَــاء .

فلذلك رسم بالأمر الشَّريف أنْ يفوَّض إليه نَظَرُ الخزانة المذكورة .

فليُباشِرْ ذلك مباشرةَ من يحقِّقُ فى كفايته وتَضِبيلته التَّأميل ، ويُظْهِرُ حسنَ نَظَره الذى هو كالنهار لا يحتاجُ إلىٰ دَلِيل ؛ ولْيَجْرِ علىٰ جميل عادته فى النهوض فى خِدْمَتنا بالسُّــنَّة والفَرْض ، ويُضَاعِف ٱجْتِهَــادَه الذى بمثله جُعِــل مَن ٱخْتيرَ علىٰ خزَائِن الأرْض؛ وهو يعلم أنَّ هذه الرتبةَ مآلُ الأمْوال، وذَخَائِرِ الإسلام التى هى مادَّة الجُيوش ومَوَارِدُ الإفْضَال؛ فلْيُعمِلْ فى مَصَالحِها فِكْرَه ودأْبَه، وإذا كان حسنُ نَظَرنا الشريف قدجعله المُؤْتَمَن عليها:(فَلْيُؤَدِّ الَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَانَتَه وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ).وفى سيرته التى عُرِفت ، وصِفَاته التى إنْ وُصِفَت فـا أُنصِفَت، مايُغْنى عن تفَاصِيل الوَصَايا وجُمَلِها، وإعَادَة مزايا التأكيد : قَوْلهـا وعَمَلِها؛ لَكِنْ مِلَاكُها الصِّيَانَة التى هو بها مَوْصوف، والتَّقوى التى هو بها معْروف؛ والاعْتِماد علىٰ الخط الشَّريف أعْلاه .

ومنهـا ــ صَحَابةَ دِيوانِ النَّظر، وصَحَابة دِيوانِ الجَيْش ونحو ذلك من الوظـائف الديوانية بدِمَشْق .

قلتُ : هـٰذا إن كتب من الابْواب الشَّريفة السُّلطانية ، وإلَّا فالغالبُ كِتَابة ذلك عن نائب السَّلطنة بدِمَشْق .

الصــــــنف الرابع

(من الوظائف بدِمَشْـــق وظائفُ المُتَصَوِّفة ومَشَايخ الخَـوَانِق، وفيهـا مَرْتبتان)

المرتبــــــة الأولى

(ما يكتب فى قَطْع الثُّلث بـ«المجلس السَّاميّ» بالياء، مفتتحا بـ«الحمدُ للهِ» .
وبذلك يُكْتَب لشَيْخ الشُّيوخ بالشَّام، وهو شَيْخ الخَانِقاه الصَّلاحية، المسماة بالشميصاتية)

وهذه نسخة تَوْقِيع بذٰلك ، وهى :

الحمدُ للهِ الذى آختار لعِمَارَة بُيُوته أوْلِياءَ يُحِبُّونَه ويُحِبُّهم ، وأصْـفِيَاءَ حَقَّهُم برَحْمته فاجْتَهدوا فى طَاعَته فازداد قُرْبُهم ، وأتْقِيَاءَ زَهِدُوا فى الدُّنيا وأبْدلوا الفَانِىَ بالبَـاقِى وطَابَ فى مَوْرِدِ الصَّفَاءِ شِرْبُهم .

نحمدُه حَمْدَ من جعل حُبَّ اللهِ دِثَارَه ، ومَلَابِس التَّقوىٰ شِعَارَه ؛ ونَشْكُره والشُّكْرُ لمَزِيد النِّعَم أمَارَه، وللقُلُوب الدَّائرَة عِمَارَه؛ ونشهدُ أنْ لَاإلٰه إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةَ مُخْلِص فى التَّوْحيد، يَتَبَوَّأُ بهـا جِنَانَ الخُلْدِ ويَخْلُص من سَمَاع قَوْل جَهَنَّم :

هَلْ مِنْ مَزِيد ؛ ونشهدُ أنَّ سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أسْرَىٰ به إلىٰ حَضْرة أُنْسه ، وحَظِيرة قُدْسه ؛ صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين منهم مَن سَبَق الأُمَّة بشَىْءٍ وقَرَّ فى صَدْره ، ومِنهم من دلَّت وَاقعةٌ سَارِيةٌ علىٰ عُلُوِّ شأْنه ورفعة قَدْره ؛ صلاةً لا تَزالُ الأرضُ لها مَسْجِدا ، ولا يبرحُ ذِكْرُها مُغيرًا فى الآفاق ومُنْجِدًا ؛ وسَلَّمَ تسليمًا كثيرا .

وبعد ، فإنَّ أحقَّ مَن عُومِل بالتَّقديم ، وأجْدَرَ مَن يُخَصُّ بالتَّكْريم ؛ مَن كان قدْرُه فى الأولياء عَظِيما ، وذِكْرُه فى الآفاق بين أهْل المَعْرفة قَدِيما ؛ وتَجْرِيدُه عن الدنيا مَشْهورا ، وسَعْيُه علىٰ قَدَم الطاعة مَشْكورا ؛ وشُهُوده لمَقام الكَمَال مُسْتَجْليا ، وٱسْتِجْلَاؤُه لموادّ الأُنْس مُسْتَمْليا ؛ فهو فى هذه الطائفة الجليلة سَرِىُّ المِقْدار ، مَعْرُوفُ الصفة فى حلْية الأوْلياء ومَنَاقِب الأبْرار ، والمُتَقَدِّم من الإمامة فى مجمع الأخْيار .

ولما كان المجلسُ السامىّ ، الشَّيْخىّ ، الكَبِيرىّ ، العَالِمىّ ، العَامِلىّ ، الأوْحَدىّ ، الزَّاهدىّ ، الوَرَعىّ ، الأصِيلىّ ، الفُلَانىّ ؛ جَلَال الإسلام والمسلمين ، وشَرَف الصُّلَحاء فى العالَمِين ، شيخُ الشُّيوخ ، قُدْوَة السَّالكين ، مُعْتَقَد الملوك والسَّلَاطين ، أعاد اللهُ تعالىٰ من بَرَكاته : هو المقصودَ من هٰذه العِبَاره ، والملْحُوظَ بهذه الإشَاره ـــ ٱقتضَىٰ حسنُ الرَّأْى الشريف أنْ يُخَصَّ فى الدنيا بالتَّعظيم ، ويُمَيَّزَ فى هذه الأُمَّة بالتَّكْريم .

فلذلك رُسِم بالأمْر الشَّريف ـــ لا زالَ له من جُنُود اللَّيل جيْشٌ لا تَطِيشُ سِهَامه ، ومن فُرسان المَحَارِيب مَدَدٌ لا تَزِلُّ فى مُلَاقاة الرِّجال أقْدامهُ ـــ أنْ يستقرّ فى كذا .

فلْيُقَابِلْ هٰذه النعمةَ بالسُّرور ، وليتأثَّلْ هٰذه الفَضِيلة بحَمْد الله الشَّكُور ؛ ولْيُوَاظِبْ علىٰ وظيفة الدعاء بدَوَام أيَّامنا الزَّاهِره ، ولْيَسْتَمْطِرْ جَزِيل الفَضْل من سَحَائب جُودنا

الماطرَه؛ وليَبْسُطْ يدَه فى عَمَل المَصالح؛ وليَسْتَمِرَّ على السَّعْيِ الحَسَنِ والعَمَل الصَّالح؛ فإنّ هٰـذه البُقْعَةَ مأْوى القَادِم والقَاطِن، وتَسْمُو علىٰ أَمْثالهـا من المَوَاطن؛ وليَكُنْ لأَسْرَارِهم مُوَقِّرا، ولِأَقْوَاتِهـم المُعِينَة على الطَّاعة مُيَسِّرًا ؛ والله تعالىٰ يجعـل خَلَواتِه مَعْمُوره، وأفعَالَه مَبْرُوره؛ والاعتماد فى ذلك علىٰ الخطِّ الشَّريف .

قلتُ : هٰذا إن وليهـا شَيْخٌ من مَشَايخ الصُّوفية، علىٰ عَادَة الخَوَانق . وقد يَليها كاتبُ السِّرِّ بالشَّام، فيُكْتَب تقليده بكِتَابة السِّرِّ فى قَطْع النِّصف «بالمجلس العَالى» علىٰ عادة كُتَّاب السِّرِّ، ويُشَارُ فى تقليده إلىٰ بعض الألفاظ الجامعة بين المقامين، ويُضَاف إلىٰ ألقاب كِتَابة السِّرِّ بعضُ ألقَـاب الصُّوفية المُنَاسِـبة لهذا المقام . علىٰ أنّه رُبَّمـا كُتِبَ بولَايَتِها عن نائب السَّلطنة بالشَّام لكَاتِب السِّرِّ أو غيره .

المرتبـــة الثـانية

(من يكتب له فى قَطْع العادة مفتتحا بـ«رُسِم»)

وهذه نسخة تَوْقيع من ذلك، وهى :

رُسِمَ بالأمْر الشَّريف ــ لا زالت أوَامِرُه تُحِل القُرُبات مَحلَّها، ومَرَاسِمُه تُسْـنِد الرُّتَبَ الدِّينيةَ لمَن إذا خُصُّوا بمَوَاقعها كانوا أَحَقَّ بِهـا وأَهْلَها ــ أنْ يُرَتَّب فلانٌ فى كذا : إذ هو أَوْلَى من خُصَّ بمَوَاطِن العِبَاده، ونَصَّ بتَرْفِيـه الأسرار على التَّحَلِّى بإفَاضَــةِ الإفاده؛ ووَفَّر كَدَّه علىٰ اجتلاء وجوه المعارف من أفق المراقبـه، وجَمَع خَاطِرَه لاجتناء ثَمَرة الأُنْس من أَفْنانِ الطَّاعات النَّابِتَة فى رِيَاضِ المُحَاسَبَه؛ مع تَمَسُّكه بعُلُوم الشريعة الذى [خلص] معرفته من الشَّوَائب، وأحْيَا الدُّجَىٰ من اقتبال شَبِيبَة

ظَلَامِه إلى أن تَشِيبَ منه الذَّوائِب ، ونَفْع متعدٍّ إلى كلّ طَالِبِ فَضْـلٍ وملتمس ، ودين باهر من مصباح مِشْكَاة العِلْم والعَمَل لكُلّ بَاغِى نُورٍ ومُقْتَبِس .

فليستقِرّ شَيْخًا بالمكان الفُلَانىّ : لتعمُرَ أرجاؤه بتَهجُّده، وتُشْرِق خَلَوَاته بتَعبُّده ، وتعذُبَ مَوَارِدُه بأوْرَاده ،وتُطْلِعَ مجالِسُه نُجُومَ مَعْرفته البَازِغَةَ من أُفُق إيرادِه ؛[و]لتغدُوَ هـذه البُقْعَة رَوْضَةَ أفكار، وقِبْـلَةَ أذْكار ، ومَرَاقِيَ دَعَوات ، ومَرَافِعَ بَرَكَات ، تُستنزَل بين مـ[...] مقبوله وخلَوات ؛ وليَتَناوَبِ المعلومَ المستقرَّ له تَرْفِيهًا لِسِرِّه ، وتَنْزِيهًا لِفِكْرِه ؛ وإعَانَةً على الانقطاع بهـذه البقعة التى تتصل به أسْـبابُ السَّعادة فى أرجائها ، وتَخْصِيصًا لها منه بإمَامٍ تَقِىّ لو كان لبُقْعةٍ أن تَجْتَنِيَ بَرَكَته لكان مُنْتَهَى [...] ؛ وليُكْثِر من الأدْعية الصالحة لأيّامنا المباركة مالا تَزَال مَوَاطِنُ القَبول لنفحَاته المترقَّبـه متنقِّبه ، وما لا تبرح النفوسُ لخَشْيَته المـانعة مُتَوَقِّيه ؛ والاعتماد على الخطّ الشّريف أعْلاه ، حجّةٌ بمقتضاه .

قلتُ : هٰذا إن كُتِب عن الأبواب السُّـلطانية . وإلّا فالغالبُ كتَابة ذلك عن نائب السلطنة بالشَّام .

النـــــوع الثـانى

(من وظائف دِمَشْق ماهو خارج عن حاضرتها)

وقد تقدّم فى المقالة الثانية : أنَّ لدِمَشْق أرْبعَ صَفَقات ، وهى : الغَرْبية ، والشَّرقية ، والقِبْلية ، والشَّمالية .

فأمّا الصَّفْقة الغَرْبية : وهى المعبَّر عنها بالسّاحِلِيَّة والجَبَلِيَّة ، على ماتقدّم فيها ، ففيها من وظائف أرْباب السيوف عدّةُ وظَائف ، وتُوَلِّى فيها الأبْوابُ السُّلْطانية .

منها ــ نِيَابَةُ القُدْس . وقد تقــدّم أنّها كانت فى الزّمن المتقدّم وِلَايَةً صغيرةً يَلِيها جُنْدِىٌّ، ثم آستقرّت نيابةَ طَبْلَخَاناه. فى سنة سبع وسبعين وسبعمائة، وأنّ العادةَ جرت أنْ يُضَاف إليها نَظَر الحَرَمَيْن : حَرَمِ الخَلِيل عليه الســلام، وحَرَمِ القُدُس . والذى يكتب له مرسومٌ فى قَطْع الثُّلث بـ«السّامىّ» بالياء .

ومنها ــ نيابة قلعة الصُّبَيْبَة . وقد تقدّم أنّها من أجَلِّ القِلَاع وأمْنَعها، وأنّه كان يَلِيها نَائبٌ مُفْرَد من أجْناد الحَلْقَــة أو مُقَدَّمِيها عن نائب دِمَشْــق ، ثم أُضِيفت إلىٰ وَالِى بَانِيَــاس . ثم آستقرت فى ســنة أرْبَعَ عَشْرةَ وثمــانمــائة فى الدولة الناصرية « فرج » نِيَابَةً .

ومنها ــ نيابة قَلْعة عَجْلُونَ . وقد تقــدّم أنّها علىٰ صِغَرِها حِصْنٌ حَصِينٌ، مَبْنِيَّــةٌ علىٰ جَبَل عوف(١)، بناها أُسَامَة بن مُنْقِذ، أحَدُ أُمَراءِ السُّلطان صَلَاح الدِّين «يوسف آبن أيُّوب» فى سَــلْطَنة العادل أبِى بَكْر، وأنّه كان مَكَانَها رَاهِبٌ آسمه عَجْلُون، فسُمِّيت به . ثم آستقرّت فى الدولة الناصرية « فَرَج » فى سنة أرْبعَ عَشْرَةَ وثمانمائة إمْرَةَ طَبْلَخَاناه .

وقد تقدّم أوّلَ هذا القِسْم مايُكْتَب للقدمين، وما يكتب للطَّبْلَخَاناه، وما يكتب للعَشَرات .

أمّا أرباب الوظائف الدِّينيّة .

فمنهــا ــ مَشْيَخَة الخَانقَاهِ الصَّلَاحية بالقُدُس . وتَوْقِيعُها يُكْتب فى قَطْع الثلث مفتتحا بـ«الحمــد لله» .

(١) فى تقويم البلدان ص ٢٢٨ أن جبــل عوف كان أهله عصاة فبنىٰ عليهم أسامة حصن عجلون وهو معقل حصين مشرف على الغور .

ومنها ـ خَطَابَة القُـدْس ، وتوقيعها كذلك .

ومنها ـ مَشْيخة حَرَم الخليل، وتَوْقِيعُها فى العَادَةِ يكتب مفتتحا بـ«رُسِم» .

وأمّا الصَّفْقَةُ القِبْلِيّـة ، فالّتى يولّى بها من الأبواب السُّـلطانية نِيَابةُ صَرْخَد . وقد تقدّم فى الكلام علىٰ ترتيب المملكة الشّامِيّـة أنّه قد يحصل فيها من يَقْرُب من رُتَبِ السَّلْطنة ، وحينئذ : فإن وَلِيَها مُقَدّم ألْفٍ ، كان مَرْسُومُه فى قَطْع النّصف بـ«المجلس العالى» . وإنْ وَلِيَها أميرُ طَبْلَخَاناه، كان مَرْسُومه فى قَطْع النّصف أيْضا، بـ«السّامىّ» بالياء .

وأما الصَّفْقَة الشَّرْقية فالنِّيَابات بها على طَبَقَتَيْن :

الطبقـــــة الأولىٰ

(ما يُكْتَب به مرسومٌ شريفٌ فى قَطْع النّصف، وهو ما يَلِيه مُقَدَّمُ أَلْفٍ أو طبلخاناه ، وفيهـا نيابات)

النيـابة الأولىٰ ـــ نيـابة حِمْص .

وقد تقدّم أنّها كانت نِيَابةً جليلةً، كان يَلِيها فى الدّولة النّاصرية «محمد بن قلاوون» مقدّمُ ألْفٍ ، وأنه ذكر فى " التّثقيف " أنّها صارت الآن طَبْلَخَاناه . وحينئـذ : فإن كان بها مُقَدّمُ ألْفٍ، كان مَرْسومُه فى قَطْع النّصف بـ«المجلس العالى» . وإن كان طبلخاناه، كان مَرْسومُه فى قَطْع الثّلث بـ«المجلس السامىّ» بالياء .

وهذه نسخة مرسومٍ شريفٍ بنيابة السلطنة بِحِمْص :

الحمد لله مُقَدّرِ كلِّ أجلٍ إلىٰ حِين، ومُقَرّرِ أُمُورِ الممالك فى عبَاده الصّالحين، الذى جعل بنَا أوْلِيَاءَنا من الرّاجحين، وحَفِظ ما ٱسْتَرْعَانا من أُمُور عِبَاده بولَايَةِ النّاصحين .

نحمدُه على اختيارٍ لا يصلُ إليه قدْحُ القادِحين، ونشهدُ أنْ لا إلٰه إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً نكونُ بها فى غمرات الحروب على السَّوابح سابحين؛ ونشهدُ أنَّ سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه أكرم المانِحين، وأعظم الفاتحين، وأشرفُ من ولَّى الأعمال الكُفاةَ الوفاةَ المكافِحين؛ صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وأصحابه صلاةً لا تزال فيها الحفظَةُ على أعمالنا مُماسِين ومُصابِحين، وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

وبعدُ، فإنَّ مَراسيمنا الشَّريفةَ وإنْ تأخَّر وقتُها إلى أجلٍ معْدُود، وأمَدٍ ممْدُود؛ ومضتْ أيامٌ وليالٍ ولها بابٌ مسْدود، وعمَلٌ سبَبُهُ غيرُ مشْدُود ــ فإنَّا كالسَّيف يتلاهى ثم إذا صمَّم لا يرجِع، وكالغَمام تتمادى مُدَدُ مدِّه ثم يجُود فلا يُقلِع؛ ولم نزَل منذ فوَّض اللهُ أمورَ بلاده إلينا، وصرَّف أمُور جُمْهور عباده بيدَيْنا؛ نَرى أنْ نحمِيَ غاباتِها بأشدِّ الأُسُود، ونرمِيَ غاياتِها بمَن هو لأمْرٍ مّا يَسُود؛ ونحُوطَ جنَباتِها بمَن لا يَستبيحُ حرَمَه إلا الوُفود، ونحُطَّ ركائبَ رعاياها منه على من هو المقْصود؛ ونُنيب إلى مايترجَّح من مصالحهم لدَيْنا، ونستَنيبُ لِمَن يترجَّى الحُسنىٰ إذا عرضَت متجدِّداتُ أُمورهم علَيْنا؛ وإذا انفرد بحُكْمٍ لا يظُنُّ إلَّا أنَّه بمَسْمَعٍ من أُذُنَيْنا، ومرْأًى من عيْنينا؛ لأنَّ نُوَّابَ الممالك الشريفة فُروع عدْلنا الشَّريف ونحن أصْلُها، وأسْبابُ إحْسانٍ بأوامِرنا المُطاعة قطْعها ووَصْلُها .

...وكانت حِمْصُ المحروسةُ من أكبر الممالك القديمه، والمُدُن العظيمه؛ تغرق الأقاليمُ فى مدِّها، وتمتدُّ عساكِرُها فتعدُّ حُماةً حماةَ من جندها؛ وهى من الشام المحروس فى مُلتقىٰ مواكبه، ومجرّ عواليه ومجرىٰ سوابِقه ومجمع كتائبه؛ طالما كان بها الحرْب سِجالا، وطالما سابقتْ بها الرِّجالُ آجالا؛ وكان لنا بها فى الحرْب يومان عوَّضنا اللهُ أدناهما بما حفظت المعارك، وضاقت الأرْض بدماء القتْلى ففاض إلى

السَّماء ما ٱلتقىٰ بالشفق من [تلك المسالك][(١)]، وٱتَّصلتْ بالبَرّ والبَحْر من جَانِبَيْهـا ؛ وٱتَّصفَت بأنَّها مَهَبُّ الرِّياح، ومَرْكَزُ الرِّماح ؛ لِمَـا يَهُبُّ لنا من بُشْرَى النصر ويَخْفِق من عَصَائِبنا المنصورة عليهـا .

فلمَّـا تَطَاوَلَ الأمَدُ علىٰ خُلُوِّها مِمَّن يَنُوب عن السَّـلْطنة الشَّريفة فى أحْكَامها، ويَثُوبُ إلىٰ تَسْـديد مَرَامِى سِهَامِها ؛ لم تَزَلْ آراؤُنا العاليـةُ تَجُولُ فيمَن يَصْلُح أنْ يُقَـدَّم قَدَمَه إلىٰ رُتْبتها العَلِيـه، ويُجَرِّدَ منها عَزائِمَه المَشْرَفِيَّه ؛ ويَجْمع بها علىٰ طَاعَتِنا الشَّريفةِ مَن فِيها من العَسَاكر المَنْصُورَه، والقَبائِل المَشْهُوره، والطَّوائف المَذْكوره، ويَبْسُط بِسَاط العَـدْلِ فى كافَّة جُنُودها ورَعَايَاها فإنَّهـا بهؤْلاء [illegible] هؤْلاءِ مَعْمورَه ـ فرَأَينا أنَّ أوْلىٰ من حَكَمَ فى عَاصِيها والمُطِيع، وٱتَّخذَ لسُورِيا السُّورَ المَنِيع ؛ مَن هو المَوْثُوق بمـا أمْضَت السَّيوفُ من هِمَمِه، وأرْضَت التَّجَارِبُ من سَـوابِق خِدَمِه ؛ وطَارَتْ سُمْعَـةُ شُكْرِه فى الآفاق، وطَابَتْ أثْنِيَتُـه فجاءت بمـا يُعْرف من الطَّرب لإسحاق[(٢)] ؛ وكان قد تقدّمت له فى عَيْنتَاب، نِيَابَةٌ كَمْ أصابه فيها رَجلٌ بالعَيْن ثم إنَّه من العَيْنِ تَاب ؛ وقَام بين أيْدِى كفلاء مَمَالِكنا الشريفـة حَاجِبا، وفَهِم من أحْكَامهم التى تَلَقَّوْها مِنَّا ما أصْبح لهـا صَاحِبا ؛ فمـا للنِّيَابَةِ إحْكَام أحْكَام إلَّا وهو به عَالِم، ولا تَوْلِيَة حُكْمٍ إلا وقد ٱسْتَحقَّها لِقُرْب ما بيْن الحَاجِب والحَاكِم .

وكان فلانٌ هو المُرْتَضَىٰ لِلبْس هـذه المَفَاخر، والمُنْتَظَرُ الذى كَمْ تَرَكَ الأوَّلُ فيه للآخِر ـ فٱقتضتْ مَرَاسِيمنا المُطَاعةُ أنْ يُزَانَ جِيدُه بهٰذا التقليد، وتُلْقىٰ إليه المَقَالِيد ؛ وتُمَدَّدَ يَدُ هذه الرتبة لتَلَقِّيه، وتخضعَ عُنُقُ هذه المرتبة لتَرَقِّيه ؛ وتحوّل اليه هٰذه النّعمة

---

(١) بياض بالأصل .

(٢) هو إسحاق بن إبراهيم الموصلى مُغَنِّى الخلفاء المشهور .

التي ألحقت قدره بالأكفاء، وأهّلت همّه للاكتفاء، وشرّفت مكانه بما أجمعت عليه آراؤنا الشريفة له من الاصطفاء، وأحسنت به الظنّ لمّا رأت نيّته الجميلة ممثّلة من خاطره في مرآة الصّفاء.

فرسم بالأمر الشّريف - لا زال مرفوعًا به كلّ علم، ممنوعًا به حمى كلّ حرم - أن تفوّض إليه نيابة السّلطنة الشّريفة بحمص المحروسة وأعمالها، وجندها وعمّالها، وعساكرها وعشائرها، وعامرها وغامرها، وأوّلها وآخرها، ودانيها، وقاصيها، وكلّ ما في حدودها الأربعه، وداخل في جهاتها المتّنعه، على أكمل ما جرت به عوائد من تقدّمه، واستقرّت عليه القواعد المتقدّمه.

فاتّق الله في أمورك، واجعل الشّرع الشّريف مشكاة نورك، وعظّم حكّامه، ونفّذ أحكامه، فهم أمنع سورك. واعدل فهو قرار خواطر جمهورك، وتيقّظ لسداد سداد ثغورك، وارفق لتطلق به نطق نطاق شكورك. وأقم الحدود فإنّها زيادة في أجورك. وأمّا العساكر المنصورة، فجمّل بهم في خدمتنا الشريفة مواكبك، وكمّل بعزائمهم مضاربك، ولا تستخدم منهم إلا من يسرّك أن تراه في يوم العرض، وتعقد هوادي جياده السماء بالأرض، واحم أطراف بلادك من عادية الرّجال، واحفظ جانبيها من تخطّف الغارات فسر قيامها [لايدفعه] غير احتيال، واهتمّ بالجهاد تحت صناجقنا المنصورة لأعداء الله متى أجمعوا، وضرّسهم بأنياب أسنّتك فأنت صاحب العصا وهي تتلقّف ماصنعوا، وعمّر بلادها بملاحظتك الجميله، ونمّ أمورها فهي قوام الجنود وهم إلى الثقة في النّصر الوسيله، وسارع إلى ما ترد به مراسمنا الشّريفة عليك لنهديك إلى صراط مستقيم، وعجّل البريد فإنّك تعلم به ما لست بعليم،

وبَقِيَّةُ الوصايا لاحَاجَة إليها لما تعرفه من قديم، واللهُ تعالىٰ يُمَتّعك بكلّ خُلُق كريم؛ والخطُّ الشريفُ أعلاه ... .

النيابة الثانية — نيابة الرَّحْبة .

وهـذه نسخةٌ بنيابتها :

الحمدُ لله الذى أمدَّنا بنَصْره، وشمِل بجُود سلطاننا أهلَ عَصْره، وأيَّده بجنودٍ أوّلُها متَّصلٌ بأوّل عِراقه وآخِرُها بآخِرِ مِصْره، وفرّقَ بسهامِ الأعداءَ فى حَواصل الطير بين حضْنه وخَصْره .

نَحمدُه حمدًا يقومُ بشكره، ويحافظُ علىٰ حُسْن ذكره، ويُستعاذ به إلّا ممّا يُدَمّر على العِدَا من عواقب مكره؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً تُرْغِم مَن جَادَلَه بكُفْره، وتُمزّقه بين كل نَابِ سيف وظُفْره؛ ونشهد أن سيدنا محمدا عبدُه ورسولُه أرسله مُقيمًا لأمره، ومُديمًا فى الجهاد لإعمال بيضه وسُمْره، صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه حَمَلَة سِرِّه، ونَقَلَة هَدْيه بأسْره؛ صلاةً باقيةً فى الوجود بقاء دَهْره، راقيةً آرتقاءَ زُهْره .

وبعدُ، فإنّ الثغورَ بسِدَادها، والبُحُور بإمدادها، والنُّحُور لا تحلَّى بأحسنَ من حلْية نِجَادها؛ والممالكَ المحروسةَ لا تُحْرَس إلا بشُهُب خُرْصَانها، ولا تُسْقىٰ بأنقع مما تُطِلُّه من الدماء سُحُبُ قُرْسَانها؛ والقُرات لا تُحمىٰ مَوارِدُها إلا بأمثال سيوفها القَوَاضِب، ولا تمنعُ مخَاوِضَها[1] إلّا بِدَمٍ خاضب، والحصُونَ لا يَرضىٰ بها كلُّ مَنْجَنيق غضبانَ إلا بوصَال مُغَاضب، والقِلَاع لا تتطلّع عيونُ دَيَادبها إلا لمن ماءُ الكَرىٰ

(١) فى الأصل مخالصها .

فى جُفُونه نَاضِب ، والمَاقِلَ لا تَسْمَح بعقَائِلها إلّا لمن هو علىٰ خِطْبَتِها مُوَاظِب ، وكانت الرَّحْبة ــ حَرَسها الله تعالىٰ ــ هى أوسَعُ مكانٍ رِحَابا ، وأدْنىٰ إلىٰ مطرٍ سحابا ؛ وأوْثَقُ ماأُغْلق على البلاد بَابا ، وأقرب ما سَمِع حُرَّاسُها فى السماء دُعَاءً مُجَابا ؛ قد ملِئت سَمَاؤُها حَرَسًا شَديدا وشُهُبا ، ومَدّتْ كواكبَ الدلو واسْتَقتْ من الغَمام قُلُبا ، وعَدّت ماوراء المَجَرَّة فعُمّيَت دونها المَسَالك ، وحُسِبَت لِلْك ونُسِبَت إلىٰ مالك ؛ ومالكٌ ــ لا أعنِى إلا آبن طَوْقٍ ــ خَازِنُها ، ومَنْزِلُ أمْنٍ وفى غَاب الأُسْد مَسَاكنُها ؛ قد وقَفَت لبَغْداد فى فَمِ المَضيق ؛ وهَمّت بلادُ العدا أن تَخُوضَ الفُرَاتَ إليها فقالت : مالَكِ إلىَّ طَريق ؛ قد آفترّ فى وَجْهِ العساكرِ المنصورة ثَغْرُها الضَّاحك ، وردّ قَرْنَ الشمس فَرْعُها المُتَمَاسك .

فلما أُغْمِد حُسَامها المسْلُول ، وأقلع غَمَامُها وكلُّ هُدْبٍ بالبكاء عليه مَبْلُول ــ آقتضىٰ رأيُنا الشريفُ أن نجدّد لعَرُوسها زِفَافا ، ولبيوتها أقْوَافا ؛ ولسُيُوفها جلاء ، ولسقوفها إعْلاء ، ونولّيَها لمن تكون هِمّتُه فيها جَديدةَ الشَّباب ، أكيدةَ الأَسْباب ؛ ليكون أدْعىٰ لمصالحها ، وأرْعىٰ لمَنَاجِحها ؛ وأوْعىٰ لما يجمعه سَمْعه من مَصَالحها ، وأسْعىٰ فى حِمَاية مَآسيها ومَصَابِحها ؛ وكان فلانٌ هو أصْلَبَ مَن فى كَنَائننا الشريفة عُودا ، وأنْجزَ وُعُودا ؛ وأصْدَق رُعُودا ، وأيْمَن إذا طلع نجمُه فى أفقٍ سُعُودا .

فرسم بالأمر الشريف أن تفوّض إليه نيابةُ الرَّحْبة المحروسة ، علىٰ عادة من تقدّمه وقاعدته ؛ [فليتول ذلك] مقدّمًا تقوى الله والعملَ بما شَرَع ، وآتباعَ مَرَاسمنا الشريفة فمثلُه مَن آتّبع ؛ وحِمَايةَ أطْرافِها ، من كل طَارقٍ إلا طَارقًا يَطْرُقُ بخَيْر ، وصيانَةَ أكْنَافِها ، من كل عِصَابةٍ مُحَلِّقة إلىٰ جَوّها كالطَّيْر ، وحفْظَها من عَادِيَة كلِّ أفّاك وسَفّاك ، وبَادِيَة أعْراب وأتْراك ، وكلِّ فارس فَرَس وراكب بَعير ، وكلِّ وقفة محاصرٍ وحَطْة مُغير ،

وجَانِبَىْ بَرٍّ وبَحْرٍ : فى أحَدِهما المسالكُ تَعْمَىٰ والآخَر لا يُعَام ، وصاحِبَىْ سِرٍّ وجَهْر : هذا تَخشىٰ له عاقبة كَلَامٍ وهذا مُعَاقَبة كَلَام .

وليَتَخَطَّف من الأخبار ما تَلْمع لَدَيْنا بوارِقُه ، ويَتَقَطَّف من الأقوالِ ثَمَرَاتِها ولا يَدَعْ كلَّ ما تجمعُه حَدَائِقُه ، وليجعلْ له من المناصِحِين طلائعَ ما منهم إلّا مَن هو فى انتِهاب الأخبار أبُو الغَارَات ، ومَن إذا ألجَمَه الخوفُ كان له فى لَمْعِ البُرُوق إشارات ؛ وليَتَّخِذْ من الكَشَّافَة من يَسْبِقُ قبلَ أن يرتَدَّ إليه طَرْفُه ، ومن الخيَّالة من لا يرتدّ عن وَقْدِ الرِّماحِ طِرْفُه ؛ ومن القُصَّاد مَن لا يَطْوِى عنه خَبَرا ، ومن الدَّيَادِب من يُبِيرُه وقلَّ أن تُمَار العيونُ نَظَرا ؛ وليَحْفَظ التُّجَّار فى مذاهبِهم غُدُوًّا ورَوَاحا ، ومَسَاءً وصَبَاحا ؛ وليَستَوْصِ بهم خيرًا فإنّهم طالمَا ازْدَانَتْ بهم صدُورُ الخزائِن على امتِلائها انشِراحا ، وليأخُذْ منهم مالِبَيْتِ المَالِ فكَمْ وجَدُوا بعطائه أرْبَاحا ؛ وليُوصِلْ إلىٰ أرباب القَرَاراتِ ما لهم من مُقَرَّرٍ معلوم ، وليُعْطِهم ما تَصَدَّقْنا به عليهم وهو مَشْكُورٌ وإلّا أعْطَاهم وهو مَذْموم ؛ وليُعَمِّر البِلادَ بتَوْطِين أهْل القُرَىٰ ، وإنَامَتِها بالعَدْل مَلْأىٰ الجُفُونِ من الكَرَىٰ ؛ وليَكُنْ للفُرَاتِ متيقِّظا لئلّا يطْغَىٰ بها التَّيَّار ، ويغلِبَ بمدِّها المُخَمّر علىٰ سكْرِها من السُّكْر الحَمَّار ؛ ويقْوىٰ علىٰ سَدِّها قبل أن لا يَقْدِرَ علىٰ مُقَاواة البِحَار ؛ وبتَفَقَّد مَبَانِيها فإنّها من أسْنىٰ ما تتفقَّدُه الأبصار ، وليغلق زُروعها لتكون : ﴿ كَمَثَلِ زَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾ وليَعِفَّ فإنّ العَفَافَ هو الغِنىٰ ، وليُؤَمِّنْ من يَلِيه فإنّ الأمانَ هو المُنَىٰ ؛ وليُقِرَّ ما استَقرّ بيننا وبين القَوْم من صُلْح أكّدَتْ أوَاخِيه ، وأصْبَحَ كلٌّ من أهل الجَانِبَين لا يَفِرُّ من أخيه ، ولا يرخِّص لأحَدٍ فيما ينقُضُه لا فى عَاجِل أمْرٍ ولا فى تَرَاخيه ؛ حتّىٰ إذا كَشَفَت الحربُ عن سَاقِها ، وشدَّتْ عَقْدَ نِطَاقِها ؛ فليكُنْ بحسب مَرَاسِمِنا الشريفة اعتِمادُه فى شَنِّ كلِّ غَارَه ، وسَنِّ كلِّ مَاضٍ

مُرْهفًا غِرَارَه ، وجَوْس خِلَال دِيَارِ العِدا واْختِطَاف كلّ قَمَرٍ من دَارَه ؛ والمُحْرِقَات التى لا تُحْرِقُ نبَاتا حتّى تَشبّ فى ضلوعهم ، والعيَّارة فهى الزّلازل التى تَتَساقَطُ منها مَبَانِى رُبُوعِهم ، ومُوَالاة البُعُوث : فإنّ كلّ بَعْثٍ يتكَفّل بشَتَات جُمُوعِهم ؛ والعمل بكلّ ما تَرِدُ به مَرَاسِمُنا العاليـه ، والمُواصَلة بكُتبِه التى نَرْقُص ما سِوىٰ أخْبارها المُتَوالِيه ، وإرسال كل بريد وحمام تُحَلّق بهما : إمّا رِيحٌ ظاهِرة وإمّا رِيحٌ عَادِيَه ، والله تعالىٰ يقرب له الغايات المنادية ، بمنه وكرمه ! .

النيابة الثالثة — نيابة مِصْيَاف .

وهذه نسخة مَرْسوم بنِيَابتها :

الحمدُ لله الذى صرّف ممالِكَنَا الشّريفَـةَ فى المَـالِك ، وشَرّف بنا كلّ حِصْن لا تَعرِضُ له المَجَرّةُ فى المسالك ، وعَرّف بالتّربِيـة فى خِدْمة أبْوابنا العاليـة إلىٰ أيْن يَنْتهى السَّالك .

نحمده علىٰ نِعَمِه التى نعتدّ بها الحمد من ذلك ، ونَرْغب أن نَلْقَ اللهَ علىٰ أداء الأمانة فيها كذلك ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريكَ له فيما هو مَالِك ؛ ونشهد أنّ محمدا عبـدُه ورسولُه الذى أضاء به كلّ حَالٍ حَالِك ، وأنجىٰ به من مَهَاوِى المَهَالِك ، وجَمع به من الأُمّة ما وَهىٰ وهْىَ كالعِقْد المتهالك ، صلى الله عليـه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاة يجِدُ بها قائلُها فى الدار الآخرة كُلّ هَنَاءٍ هُنَالك ، وسلّم تسليما كثيرا .

وبعـدُ ، فإنّ النظرَ فى أُمُور المـالك هو أوّلُ مايقدّمه المَلِك ، وأولىٰ مايتقدّم إليه مَن سَلَك ؛ ومملكة بَيْت الدَّعْوَة هى من أجَلّ ماتَفَرّدت به ممالِكُنا الشّرِيفَه ، وامتدّت به فى الأمَاكِن المُخِيفَه ؛ وأرْسَلت من قِلَاعِها من يَقْتَلِعُ العِـدا بوُثُوبِه ، ويُسَابِق السّهْم إلىٰ مَطْلُوبِه ؛ ويتَعبّد بمُوَالاتنا التى وَرِثَها عن سَلَفِه فى طَاعَة أئمّتهم ،

وعلموا بها أن الدولة العلوية ما انقضت حتى انتقلت إلينا الولاية على شيعتهم ؛ وأن الملك الإسماعيلى فينا قد انحصر ميراثه ، وأن كل من مات من الخلفاء الفاطميين — رحمهم الله — نحن ورّاثه ؛ فهم بهذا يبذلون نفوسهم فى الطاعة الشريفة التى يرونها فرضا عليهم ، ويبلغون بنا أعلى مراتب الإيمان : لأنهم إذا رأوا منكرا أزالوه بيديهم ؛ كم هجموا على عدو من أعداء الله هجمة طيف ! ، وكم استطالوا بسكين لا يتطاول إلى مباراتها سيف ! ، وكم أوقدوا لهم بارقة عزم فقيل : هذه سحابة صيف ! ، وكم وردوا بالدماء خدّا غدا ينادى : يا كرام الورد ضيف ! . وكانت مصياف — حرسها الله تعالى — هى كرسى هذه المملكة ، وقلعتها هى التى بذوائب الجوزاء متمسكة ؛ وانقضت مراسمنا المطاعة نقل النائب بها إلى مارسمنا به الآن ، فخلت ممن يترقى فيها إلى أعز مكان ؛ واحتاجت إلى من تغنى به عما يقال : من اعتقال رمح وتجريد سنان .

فحصل الفكر الشريف فيمن تقلده هذه النيابة ، ويتقلد أمر هذه العصابة ؛ ويتصرف فى أمورها بمقتضى ما ترد به مراسمنا المطاعة ، ويعلم أنه من شيعتنا : لأنه داعينا فى هذه الجماعة ؛ فرأينا أن أحق [الناس بها] من قدمه ولاؤه ، وعظمه انتماؤه ؛ ونبه عليه اهتمام همه التى لا تشابهها الكواكب فى سيرها ، وعزائمه التى طالما كان بها فى خدمتنا الشريفة «يظل بموماة ويمسى بغيرها» ؛ ولم تزل به مساعيه حتى وصل إلى المزيد ، وأسرع له الشيب فى طاعتنا الشريفة : لأنه فى كل وقت [كان] يسمع قعقعة لجام البريد ؛ وكان فلان هو الذى أشار إليه القول بوصفه ، ودل عليه ثناؤه بعرفه .

فرسم أن تفوض إليه النيابة بمصياف وأعمالها ، على عادة من تقدمه وقاعدته فليقدم تقوى الله تعالى فيما وليه ، ولينشر جناح عدلنا الشريف على من يليه ، وليعمل

بالأحكام الشَّرعيـة فى كل ما يَقْضيه ؛ ولِيَسْلُك فى أهلها أوْضَح المَراشـد ، ولْيبيِّن لهم أنّه يدعوهم إلىٰ سبيل الرشاد إلا ما آدعاه راشـد ؛ ولْيوصِّلْ إلى المجاهدين أرْزاقَهم التى هى أثمـانُ نفوسهم ، وثِمـار مادَنَّى القِطَاف من رُءُوسهم . وأهـلُ من مات أو يموتُ منهـم علىٰ طاعتنا الشَّريفـة فكُنْ عليهـم متعطِّفا ، ومَن طلب منك الإنصَافَ فكُنْ له مُنْصِفا ، وآفعـلْ معهم أحْسنَ الأُسْوَه ، وقلْ لهم عنَّا : إنَّ الصَّدَقاتِ الشَّريفةَ قد آسْتَجابتْ لكم يا أهلَ الدَّعْوه ، وخُذْ بقُلُوبِهـم ، لتَزْدادَ من حُبِّهم ، وقل للمُجاهِدين : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَـاءٌ عِنْدَ رَبِّهِـمْ ﴾ . والأَمْوال فصُنْها من الضَّيَاع ؛ وعِمَـارة البِلاد عَلَيْك بها فإنَّ القَلْعة لا تكون إلا بالمَدِينة والمدينَةَ لا تكونُ إلا بالضِّيَاع ؛ وآمْتِثال مَرَاسِمنا الشَّرِيفةِ وكُلِّ ما يُرسَم به سَارِعْ إلىٰ آعتماده ، وطائفة المُجاهِدِين لا تَدَعْ منهـم إلا مَن هو معتـدّ بِجهاده ؛ والكِتْمانَ الكِتْمانَ ! فبه تُـنالُ المَطالِب ، وتُدْرِكُ المآرِب ؛ وعَلَيْك بقَمْع المُفْسدِين ، ورَدْع المُعْتدِين ، وإقامةِ الحُدُود : فإنَّ بها أقام اللهُ هـذا الدِّين ؛ ونحن نَغْتَنِي بمـا فيـك من المَعْرفه ، وبمـا انت عليـه ــ بحمد الله تعـالى ــ من كمالِ كُلِّ صفَه ، عن آستيعاب الوصايا التى لم تَبْرحْ سَجاياك بها متَّصِـفَه ، والله تعالىٰ يزيدُك من كلِّ نَوْعٍ أشرفه ، والخط الشريف أعلاه ... .

*
* *

وأما الصَّفْقة الشَّمالية ، فالذى يولَّى بهـذه الصَّفْقة عن الأبواب السلطانية ، نِيابَةُ بَعلَبَكَّ فقطْ . وقد تقدّم فى الكلام علىٰ ترتيب المملكة الشَّامية أنَّهـا كانت أوّلا إمْرةَ عشرة ، ثم صارت طبلخاناه ، وأن نائبَ الشَّام يولِّى بها ، وربمـا وليِّتْ من الأبواب الشَّريفَةِ السُّلطانية . وحينئذ فيكون مَرْسومُ نائبها فى قَطْع الثُّلث بـ«ـالمجلس السامى» بالياء .

وهذه نسخة مرسوم بنيابة بعلبكّ :

اما بعد حمد الله على أملٍ حقّق مُنَاه ، وصدّق غَنَاه ، وفرّق عليه سُحُبَ اعتناءٍ أورَقَ به عُودُه وطاب جَنَاه ؛ والصلاة والسلام على نَبِيِّه سيدنا محمد الذى كمّل بناه ، وعلى آله وصحبه ما شَيّد مَعْقِلٌ نَخَارَ مَبْناه ـ فإنّ من أعظم مُدُن الشّام القديمه ، ودُورِ المُلك التى ذهب مَن يَحُلُّها من الملوك وبَقِيَت آثارُه مُقِيمَه ، مدينةَ بَعْلَبكّ وهى التى تحصّن الإسلامُ بقلْعَتِها ، وتحصّل الرعبُ فى قلوب الأعداء [بمنعتها] (١) بنيت على عهد سُلَيمان بن داود عليهما السلام وأتقن بَنّاؤُها ، وهالَت أسوارُها حتّى نُسِب إلى صَنْعة الجنّ بناؤُها ؛ ودعَمت السّماءَ عَمَدُها ، فطالت شُرَفُها حتّى كادت تُخَضْخِض فى سَجْل السحاب يَدُها ؛ وجَمعتْ محاسنَ فى سـواها لا تُوجَد ، وتقرّر بمُلْكها من الملوك : تارةً سـعيدا وتارة أمجد ؛ وما خلَتْ من علماء عظيمى الشان ، وصلحاء يلُمُّهم الجبلان : سِيسُ ولُبْنان ؛ وهى بابُ دِمَشْق المَفْتوح ، وسحابُ الأنواء المَسْفُوحُ بالسُّفُوح ؛ وباب البُروق التى آلَتْ أنّها بأسرارها لاتبُوح ، ومآبُ السِّفارَة التى تغدُو مُحمَّلةً أوْقارَ رَكائبها وتَرُوح ؛ ولهـا العين المُسَبَّلة الرَّواتب ، والجبال الرّاسـية الوَقارِ لمَفْرِقِها الشّائب ، العالية الذُّرى ... ... (٢) من قِطَع السّحائب ؛ و[لما] كان مَن فيها الآن ممّن لا تَسْـتغنى الدولةُ القاهرةُ عن قُرْبه ، ولا تَسْتَثْنِى أحدًا معه فى تجريده سَيْفَه المشهورَ من قُرُبِه ، أجلْنا الرّأىَ فى كُفْءٍ لعَرُوسها ، ومماثل لمركزٍ تأوّد غروسها ، فلم نجِدْ أدرى بأحوالها ، وأدربَ بما يُؤَلِّف على الطّاعة قُلوبَ رجالها ، كمن آستقرّ به فيها مع أبيه المـاضى ـ رحمه الله ـ الوطن [ونالا منه الوطر] ، ومرت [عليهم فيه]

(١) بيـاض بالأصل والتصحيح من المقام .

(٢) « « ولعله : التى كأنهـا متلفعة من الخ .

سنون وأيامٌ هتف بها دَاعِى قصر ، ولا غِنًى [عنه] مع ماله من وِلَايات صَحِب فيها الناسَ وفارَقهم علىٰ وَجْهٍ جَمِيل ، ورَافقَهم ثم انْصرفَ وانصرفوا عنه وما ذَمَّهُ فى النَّازِلين نَزِيل ؛ وكان فلانٌ هو المتوقِّد الشِّهاب ، المُتوقِّل فى تلك الهِضَاب ؛ المشكورَ قولًا ودِينا ، المشهورَ بوَضْع كلِّ شَئْءٍ فى مَوْضعه شِدَّةً ولِينا .

فلذلك رسم ... ... ـ لا زال إحسانه أحمد واختياره مُقَدَّما ـ أن يُرتَّب فى نيابة بَعْلَبكَّ علىٰ عادة من تقدّمه وقاعدته ، مُبْتَدِئًا حُسْن النظر فى الأمور العامه ، لا يَدَعُ ظُلامَه ، ولا يَدَعُ سالكَ طريقٍ إلىٰ سلامه ، ولا يُعِدُّ سَمْعًا إلا لسَماع شُكرٍ لا مَلامَه ؛ ولْيَنْظُرْ فى المظالم نظرًا يجلى به سَدَفها ، وليشكر العشير توطيا يوطأ به هدَفُها ؛ وليُلَاحِظ الأمورَ الديوانية بما يُنَمِّى به أموالَها ، ويُنَدِّى بسحابه المُتَدَفِّق أحْوالَها . والأوقاف فليشاوِكْ واقِفِيها فى إحسانهم ، وليُجْرِ حَسَنَاتِها علىٰ ما كانت عليه فى زمانهم ؛ وليكن لها نعم الكَفِيل فى دوام المحافظة وليَتَفَقَّدْ ما فيها من الحواصل والزَّرَدْخاناه مما يُذْخَر لوقته ، ويُؤَخَّر لفَرْط الشَّغَف به لا لمَقْته . ومن أهمِّ ما يُحْتَفَظُ به قلوبُ الرجال ، وعِمَارَةُ الأسْوار فإنها للفُرْسان المُقَاتِلة مَجَال ، وعليها تُنْصب المجانيق وتُخْتَطَف الآجال . وأمَّا الشَّريعةُ المطَهَّرة : فإنَّ من تعدَّى غرق أو أوْشك أنْ يغرق ، واتِّبَاع أوامِرها : وإلَّا ففيم يُعذَّبُ من يعذِّبُ ويُحْرِق من يُحْرِق ؛ وتقوى الله تعالىٰ هى الوَصِيَّة الجامعه ، والتَّذْكِرة التى تَرْتَدُّ بها الأبصارُ خاشعه ؛ وليَفْهَم هذه الوَصَايا ولا يُخْرِجْ شيئا منها من قَلْبه ، وليَتَبَيَّنْ معانيها ليكونَ بها علىٰ بيِّنةٍ من رَبِّه ؛ والله تعالىٰ يكْشف عنه غِطَاءَ جُنَّتِه ، ويزَعُه عما يأخُذُه ويؤاخذه من نِيَّتِه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

الصنف الثانى(١)

(ممّن [هم] خارجَ دِمَشْق : ممّن يُوَلّى عن الأبواب السلطانية ـ أمراءُ العُرْبان ، وهم على طبقتين :)

الطبقـــة الأولى

(من يُكْتَبُ له منهم تقليدٌ فى قَطْع النِّصف بـ«المجلس العالى» وهو أمير آل فَضْل خَاصّةً : سواءٌ كان مستقلًّا بالإمارة أو شريكًا لغيره فيها)

وقد تقدّم فى الكلام على ترتيب المملكة الشامية نقلا عن "مسالك الأبصار" أنّ ديارَهم من حِمْص، إلى قلعة جَعْبَر، إلى الرَّحْبَة، آخذين على شِقَّى الفُرات وأطراف العِـــراق .

+ + +

وهذه نسخةُ تقليــدٍ بإمْرة آلِ فَضْل : كُتبَ به للأمير شجاع الدين «فضل بن عيسى» عوضًا عن أخيه مُهنّا ، عنــد ما خرج أخوه المذكور مع قَرا سنقر الأفرم ومن معهما من المتسحبين، وأقام [هو] بأطْراف البلاد ولم يُفارِق الخِدْمة ، فى شهور سنة اثنتى عَشْرة وسَبْعِمائة ، من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحَلَبىّ ، وهو :

الحمد لله الذى مَنَح آل فَضْل فى أيّامنا الزاهرة بحُسْنِ الطاعة فَضْلا ، وقَدّم عليهم بقـديمِ الإخلاص فى الوَلاءِ من أنْفُسِهم شُجَاعًا يجمعُ لهم على الخـدمة أُلْفَةً ويَنْظِم لهم على المخالصة شَمْلا ؛ وحَفِظ عليهم من إعْزازِ مكان بيتهم لَدَينا مكانَةً لا تَنْقصُ لهـا الأيامُ حُكْمًا ولا تَنْقُص لهـا الحوادثُ ظِلّا .

---

(١) لم يتقدم تقسيمه الى أصـناف ولعل مراده أن ما تقدّم من التولية فى الصفقات صنف أول وهذا صنف ثان ـ فليتنبه .

نحمدُه علىٰ نِعَمه التى شَمِلَت بِرَّنا، الحَضَر والبَدْو، وأَلهجَتْ بشُكرنا، أَلسِنَةَ العَجَم فى الشَّـدْو والعَرَب فى الحَدْو، وأَعْمَلَتْ فى الجهاد بين يدينا من اليَعْمَلَاتِ ما يُبَارِى بالنَّصِّ والعَنَقِ الصَّافِنَاتِ فى الخَبَب والعَـدْو ؛ ونشهدُ أن لا إله إلَّا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةً نَدْرأُ بها الأمورَ العظام، ونُقَلِّد يُمْنها ماأَهَمَّ من مصالح الإسلام لَمن يَجْرِى بتَدْبيره علىٰ أحسن نِظَام ؛ ونشهد أن محمَّدا عبــدُه ورسولُه المبعوثُ من أعلىٰ ذَوَائب العَرَب وأشْرَفِهـا، المرجُوُّ الشَّـفاعةِ العُظْمىٰ يوم طُولِ عَرْضِ الأُمَم وهَوْلِ مَوْقِفها ؛ صلَّى الله عليــه وعلىٰ آله وصَحْبِــه الذين كَرُمت بالوَفَاء أنسابُهم ، وأضاءت بتقْوَى الله وجوهُهُــم وأحسابُهم؛ صلاةً لا تَزَال الألسُنُ تُقيم نِدَاءَها، والأقلامُ تَرْقُمُ رِدَاءَها؛ وسلَّم تسليمًا كثيرا .

وبعــدُ، فإنَّ أَوْلىٰ من أجْنته الطاعةُ ثمرةَ إخلاصه، وَرَقَّته المخالصــةُ إلىٰ أسْنىٰ رُتَبِ تقْريبه واختصاصه؛ وألَّف بمُبَادَرته إلىٰ الخدْمة الشريفة قلوبَ القبَائل وجمعَ شَملها ، وقلَّده حسْنُ الوَفاء من أمر قومه وإمْرتهم ما نَسْتَشْهِدُ فيه بقول الله تعالىٰ : ﴿ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾ ــ من ارْتَقىٰ إلىٰ أسْنىٰ رُتَب دنياه بحفْظ دينِــه ، ودلَّ تمسُّكُه بإيمــانه علىٰ صحَّة إيمــانه وقُوَّة يَقينه ؛ ولاحَظَتْه عيونُ السَّعادَة فكان فى حزب الله الغالِب وهو حِزْبُنا ، وقابلَتْــه وجُوهُ الإقبال فأرتْه أنَّ المغبُونَ من فاته تقْريبُنــا وقُرْبُنا ؛ ورَأىٰ إحْسانَنا إليه بعين لم يَطْرِفْها الجُحود ، ولم يَطْرُقْها إعراضُ السُّعود ؛ فسَلَك جادَّة الوَفاء وهى من أيمن الطُّرُق طَرِيقًا ، واقتدىٰ فى الطاعة والولاء بمن قال فيهم بمثل قوله : ﴿ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴾ .

ولَـمَّا كان المجلسُ العالِى ... هوالذى حَازَ من سعادَة الدُّنيا والآخرة بحُسْن الطَّاعة ما حَازَ، وفَازَ من بِرِّنا وشُكْرنا بجميل المُبَادَرة إلى الخدْمة بمَـا فَازَ؛ وعَلِم موَاقِع إحْساننا

إليه فعمل على ٱستدامة وَبْلها ، وٱستزادة فَضْلها ؛ والارتواء من معروفها الذى بآء بالحِرْمان [منه] من خَرج عن ظلّها ؛ مع ما أضاف إلىٰ ذلك : من شجاعة تبيتُ منها أعداءُ الدّين علىٰ وَجَل ، ومهـابة تَسْرى إلىٰ قلوب من بَعُد من أهـل الكُفْر سُرَىٰ ما قَرُب من الأجَل ـ ٱقتضتْ آراؤنا الشريفة أن نمدّ علىٰ أطْراف الممـالك المحروسة منه سُورًا مصَفَّحًا بِصِفَاحه ، مشَرَّفا بأسنّة رِمَاحه .

فرُسم بالأمر الشريف العالى ـ لا زال يقلد وَلِيَّه فَضْلا ، ويَمْلأُ ممـالكه إحسانا وعَدْلا ـ أن يفوّض إليه كَيْت وكَيْت : لـمَـا تقدّم من أسْباب تَقْديمه ، وأُومِئَ إليه من عنايتنا بهـذا البيت الذى هو سِرُّ حَديثـه وقَديمه ؛ ولِعِلْمنا بأوْلَوِيَّته التى قُطْبُها الشَّجَاعَه ، وفَلَكُها الطّاعه ؛ ومادّتُهـا الدِّيانةُ والتُّقىٰ ، وجادّتُها الأمانةُ التى لا تسترِقُّها الأهواء ولا تَسْتَفِزُّها الرُّقىٰ .

وليكُنْ لأخبار العَدُوّ مُطّالعا ، ولنَجْوَىٰ حَرَكاتهم وسَكَناتهم علىٰ البُعْد سَامعا ، ولديارهم كلَّ وَقْت مُصَبِّحًا حتّىٰ يظنوه من كل ثَنِيّة عليهم طَالِعا ؛ وليُدِم التّأهُّبَ حتّىٰ لا تَفُوتَه من العَدُوّ غارةٌ ولا غِرَّه ، وليُلْزِمْ أصحابَه بالتيقُّظ لإدامة الجهاد الذى جَرّب الأعداءُ [منه] مَوَاقِعَ سيوفهم غيرَ مَرَّه ؛ وقد خَـبَرْنا من شجاعته وإقدامه ، وسياسته فى نَقْض كلِّ أمْر وإبْرامه ؛ ما يُغْنِى عن الوصايا التى مِلاكُها تقوى الله تعالىٰ وهى من سَجاياه التى وُصِفَت ، وخَصَائِصِه التى أُلِفَت وعُرِفَت ؛ فليَجْعَلْها مِرْآة ذِكْره ، وفاتِحَة فِكْرِه ، والله تعالىٰ يؤيّده فى سرّه وجَهْره ؛ بمنه وكرمه ! : إن شاء الله تعالىٰ .

* * *

وهذه نسخة مَرْسوم شريف بإمْرة آل فَضْل ، كُتب بها للأمير حُسام الدين «مُهَنَّا بن عيسى» من إنشاء الشيخ شهاب الدّين محمود الحلبىّ ، وهى :

الحمد لله الذى أرهف حُسام الدين فى طاعتنا بيد من يُمضى مضاربه بيديه ، وأعاد أمر القبائل وإمرتهم إلى من لا يَصلُح أمر العرب إلا عليه ؛ وحفظ رُتبة آل عيسى باستقرارها لمن لا تزال الوفاء والشجاعة والطاعة فى سائر الأحوال منسوبات إليه ، وجعل حُسن العقبى بعنايتنا لمن لم يتطرق العدوّ إلى أطراف البلاد المحروسة إلا ورده الله تعالى بنصرنا وشجاعته على عقبيه .

نحمده على نعمه التى ما زالت مُستحقَّة لمن لم يزل المقدّم فى ضميرنا ، المعوّل عليه فى أمور الإسلام وأمورنا ، المعين فيما تنطوى عليه أثناء سرائرنا ومطاوى صدورنا ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة توجب على قائلها حُسن التمسك بأسبابها ، وتقتضى للمخلص فيها بذل النفوس والنفائس فى المحافظة على مصالح أربابها ، وتكون للمحافظ عليها ذخيرة يوم تتقدّم النفوس بطاعتها وإيمانها وأنسابها ؛ ونشهد أن محمدا عبده ورسوله المبعوث من أشرف ذوائب العرب أصلا وفرعا ، المفروضة طاعته على سائر الأمم دينا وشرعا ، المخصوص بالأئمة الذين بثوا دعوته فى الآفاق على سعتها ولم يضيقوا لجهاد أعداء الله وأضداده ذرعا ؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين حازوا بصحبته الرتب الفاخره ، وحصلوا بطاعة الله وطاعته على سعادة الدنيا والآخره ، وعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف فلم يزحزحهم عن ظلها الركون إلى الدنيا الساخره ، صلاة تقطع الفلوات ركائبها ، وتسرى بسالكى طرق النجاة نجائبها ، وتنتصر بإقامتها كتائب الإسلام ومواكبها ؛ وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد ، فإن أولى من تلقته رتبته ، التى توهم إعراضها بأيمن وجه الرضا ، واستقبلته مكانته ، التى تخيل صدودها بأحسن مواقع القبول التى تضمنت الاعتداد من الحسنات بكل ما سلف والإغضاء من الهفوات عما مضى ، وآلت إليه إمرته

التى خافَتِ العَطَلَ منه وهى به حَالِيَه ، وعادَتْ منْزِلَتُهُ إلىٰ ما ألِفَتْـه لدينا : من مَكَانَةٍ مكينةٍ وعَرفَتْه عندنا : من رُتْبَةٍ عَالِيَه ـ من أمِنَت شَمْسُ سعادَته فى أيَّامنا من الغُرُوب والزوال ، ووَثِقت أسْبَابُ نِعَمِه بأن لا يُرَوِّع سَرِيرَها فى دَوْلتنا بالانتقاض ولا ظِلَالَهَا بالانتقال ، وأغْنَتْه سوابقُ طاعتِه المحفوظةُ لَدَيْنا عن تَوسُّط الوسائل ، وآحْتَجَّتْ له مواقِعُ خِدَمِه التى لا تُجْحَدُ مواقِفُها فى نِكايَةِ الأعْداء ولا تُنْكَرُ شُهْرتُها فى القَبائل ، وكَفَل له حُسْنُ رأينا فيه بما حَقَّق مَطَالِبَه ، وأحْمَد عَوَاقِبَه ، وحَفِظَ له وعليه مكانَتَه ومَرَاتِبَه ، فما تَوهَّم الاعداءُ أنَّ بَرْقَه ، خَبَا حتّىٰ لَمَع ، ولا ظَنُّوا أنَّ وَدْقَه ، أقْلَع حتّىٰ هَمىٰ وهَمَع ، ولا تَخَيَّلوا أنَّ حُسَامَه نَبَا ، حتّىٰ أرْهَفَتْه عنايَتُنا فحيثما حَلَّ من أوْصالهم قَطَع ، وكيف يُضَاعُ مثلُه ؟ وهو من أركان الإسلام التى لا تنزل الأهواء ولا تَرْتَقِى الأطْماعُ مُتُونَها ، ولا تستقر(١)(؟) الأعداءُ عند جهادها وآجتهادها فى مصالح الإسلام حَسَبَها ودِينَها .

ولما كان المجلس العالى ... هو الذى لا يَحُولُ آعتقادُنا فى وَلَائه ، ولا يَزُولُ آعتمادُنا علىٰ نَفَاذِه فى مصالحنا ومَضَائه ، ولا يتغيَّرُ وُثوقُنا به عمَّا فى خَوَاطِرنا من كمال دِينه وصِحَّةِ يَقِينِه ، وأنَّه ما رُفِعت بين يَدَيْنا رايةُ جِهَادٍ إلّا تلقَّاها عَرَابَةُ عَزْمه بيَمِينِه ؛ فهو الوَلِيُّ الذى حسُنت عليه آثارُ نِعَمِنا ، والصَّفِيُّ الذى نَشَأ فى خِدْمة أسْلافنا ونَشَأ بَنُوه فى خِدَمنا ، والتَّقِيُّ الذى يَأبىٰ دِينُه إلا حِفْظَ جانبِ الله فى الجهاد بين يدى عزيمتنا وأمام هِمَمِنا ـ آقتضت آراؤنا الشريفة أن نُصَرِّحَ له من الإحسان بما هو فى مَكْنُونِ سرائرنا ، ومَضْمُونِ ضمائرنا ؛ ونُعْلِنَ بأنَّ رتبته عندنا بمكانٍ لا تَتَطاوَلُ إليه يَدُ الحوادث ، ونُبَيِّنَ أنَّ أعْظم أسباب التقدّم ما كان عليه من عنايتنا وآمتناننا أكْرَمُ بواعث .

(١) لعله "ولا تستقل" .

فلذلك رُسم أنْ يعادَ إلى الإمره علىٰ أُمراء آل فَضْـل ، ومشايخهم ومقدّميهم ، وسائر عُرْبانهم، ومَن هو مضافٌ لهم ومنسوبٌ إليهم، علىٰ عادته وقاعدته .

فليَجْرِ فى ذلك علىٰ عادته التى لا مَزِيدَ علىٰ كمالها ، ولا مَحِيدَ عن مَبْدئها فى مصالح الإسـلام ومآلهـا ؛ آخذًا للجهاد أُهْبَتَـه من جَمْع الكلمة واتّحـادِها، واتّخاذِ القُوّة وإعدادها ، وتَضَافُرِ الهمَم التى ما زال الظّفَـر من موادّها والنّصْرُ من أمْـدادِها ؛ وإلزامِ أمَراءِ العُرْبان بتكميل أصْحابهم،وحِفْظ مراكزهم التى لاتُسدّ أبوابُها إلّا بهم؛ والتّيقُّظ لمَكَايِد عدُوّهم ، والتّنبُّه لكَشْف أحوالهم فى رَوَاحهـم وغُدُوّهم ؛ وحِفظ الأطراف التى هم سُورُها من أنْ تَسَوّرَها مَكَايِد العِـدا ، وتَخَطُّف من يتَطَرّق إلى الثغور من قبـلِ أنْ يرفعَ إلىٰ أُفُقِها طَرْفًا أو يمدّ على البعـد إلىٰ جِهتها المَصُونَة يدًا ؛ وليَبُثّ فى الأعداء من مَكَايِد مَهَابَتِـه ما يمنعهم القَرار، ويُحسّنُ لهم الفِرَار ، ويَحُولُ بينهم وبين الكرىٰ لاشتراك آسم النّوْم وحَدّ سَيْفه فى مُسمّى الغِرَار .

وأما ما يتعلّق بهـذه الرتبة من وصايا قد أُلِفَت من خِلَاله ، وعُرِفَت من كَماله ، فهو ٱبن بَجْدَتِها، وفارِسُ نَجْدَتِها ، وجُهَيْنة أخْبارها، وحَلْبة غايتها ومِضْمارِها ، فَيفْعلُ فى ذلك كلِّه ماشكِر من سيرته، وحُمِد من إعلانه وسَرِيرَته؛ وقد جعلنا فى ذلك وغَيره من مصالح إمْرَته أمْرَه من أمرِنا : فيعتَمِدُ فيه ما يُرضى اللهَ تعالىٰ ورسوله ،ويُبلّغ به من جهاد الأعداء أمَلَه وسُولَه ؛ والله الموفق بمنه وكرمه ! والاعتماد ... .

الطبقة الثانيــــــة

(من عرب الشام ـ من يكتب له مرسوم شريف)

وهم على مرتبتين :

المرتبة الأولى — من يُكتب له فى قَطْع النِّصف، وهم ثلاثة :

الأوّل — أمير آل عَلِىّ ؛ ورتبته « السامى » بالياء . وقد تقدّم أن منازلهم مَرْجُ دِمَشْق وغُوطَتُها، بين إخوانهم آلِ فَضْل وبَنِى عَمِّهم آلِ مِراء، ومنتهاهم إلى الحَوْف والجبابنة، إلى السكة، إلى تَيْماء، إلى البرادع . وأنه ذكر فى "التعريف" : أنهم إنما نزلوا غُوطَةَ دِمَشْق حيث صارت الإمْرَة إلى مُهَنا بن عيسى .

وهــذه نسخةُ مرســوم شريف بإمْرة آل عَلِىّ ، كُتب به للأمير عِزّ الدِّين « جماز » بعد وفاة والده محمد بن أبى بكر ، من إنشاء المقرّ الشِّهابىّ بن فضل الله ، وهى :

الحمد لله الذى أنْجح بنا كلّ وَسِيلَه ، وأحسن بنا الخَلَفَ عمَّن قَضَى فى طاعتنا الشريفة سَبِيلَه ، ومَضَى وخَلَّى ولَده رَسِيلَه ، وأمْسك به دَمْعَةَ السُّيوف فى خُدُودِها الأسِيلَه ، وأمْضَى به كلَّ سيف لا يُرَدُّ مَضَاءُ مَضَارِبِه بِحِيلَه ، وأرْضَى بتقليده كلَّ عُنُق وجَمَّل كلَّ جَمِيلَه .

نحمده على كلّ نعمةٍ جزيله ، ومَوْهِبَةٍ جميله ؛ ونشهد أن لا إله إلّا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً تُرْشِدُ من آتخذ فيها نُجوم الأسِنَّة دليلَه ، وتجعلُ أعداءَ الله بعزّ الدّين ذَلِيلَه ؛ وأنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أكْرم قَبِيلَه ، وشَرَّف به كُلَّ قَبِيلَه ، وأظهر به العَرَبَ على العَجَم وأخمد من نارهم كلّ فَتِيلَه ؛ صلّى الله عليه وعلى آله وصَحْبِه صلاةً بكلّ خَيرٍ كَفِيلَه ، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعـدُ، فإنَّ دولتَنا الشريفـةَ لمَّا خَفَق علىٰ المَشْرِق والمَغْرِب جَنَاحُها، وشَمِلَ البَـدْوَ والحَضَر سَمَاحُها؛ ودخَل فى طاعَتها الشريفةِ كُلُّ راحِلٍ ومُقيم فى الأقطار، وكُلُّ سَاكِنِ خَيْمَةٍ وجِدَار ـ تَرْعَى النِّعَم بإبقائها فى أهْلِهـا، وإلْقائِها فى محلِّها؛ مع ما تقدّم من رِعايةٍ تُوجِب التَّقديم، وتُودَعُ بها الصَّنائِعُ فى بَيْتٍ قَديم؛ وتُزيَّن بها المَواكِبُ إذا تعارضت جَحافلُها، وتَعارَفَتْ شُعُوبُها وقَبائِلُها؛ واَسْتَولَتْ جِيادُها على الأمَـدِ وقد سـبقت أصَائِلُها، وتَداعَتْ فُرْسانُها وقد اَشتبهت مَناسِبُها ومَناصِبُها ومَناصِلَها؛ وكانَتْ قبائِلُ العُرْبانِ ممَّن تعُمُّهم دَعْوتُنا الشَّريفَـه، وتَضُمُّهم طاعتُنا التى هى لهم أكْمَلُ وَظِيفَه؛ ولهم النَّجْدةُ فى كُلِّ باديَةٍ وحَضَر، وإقامةٍ وسَفَر؛ وشَامٍ وحِجاز، وإنْجادٍ وإتْهاز؛ ولم يَزَلْ (لآلِ عَلِيٍّ) فيهم أعْلىٰ مَكانَه، وما منهم إلا من تَوَسَّد سَيْفَه واَفترش حِصَانَه؛ وهم من دِمَشْق المحروسةِ رَدِيفُ أسْوَارِها، وفرِيدُ سِوارِها؛ والنَّازلونَ من أرْضِها فى أقْرب مكان، والنَّازِحُون ولهم إلى الدار بها أقْطار وأوْطان؛ قد أحْسَنُوا حَوْل البلاد الشامية مُقَامَهم، واَسْتَغْنَوْا عن المُقارَعَةِ على الضِّيفَانِ لمـا نصـبوا بقَارِعَةِ الطريق خِيَامَهُـم؛ وباَهَوْا كلَّ قبيلةٍ بقَوْمٍ كاثَرَ النُّجومَ عَدِيدُهم، وأوْقَدوا لهم فى اليَفَاع نارًا إذا هَمَى القَطْر شَبَّتْها عَبِيدُهم؛ وهم مِن آلِ فَضْلٍ حيث كان عَلِيُّها، وحديثُـه فى المسامع حُلِيُّها؛ فلمـا اَنتهت الإمْرَة إلىٰ الأمـير المرحوم شمس الدين، محمد بن أبى بكر رحمـه الله ـ جمعهم علىٰ دَوْلتنا القاهره، وأقام فيهم يبْتَغِى بطاعتنا الشريفةِ رِضا الله والدَّارَ الآخره؛ ثم أمدّه الله من ولده بمن ألْقَىٰ إليه هَمَّه، وأمْضىٰ به عَزْمَه، ونَفَّذ به حكْمَه، ونَفَّل قَسْمَه.

وكان الذى يَحمل دُونَه مشقَّاتِ أمورهم، ويتلقَّىٰ شكاوىٰ آمريهم ومأمورهم؛ ويردُ إلىٰ أبوابنا العاليـة مستمطرا لهـم سحائب نعمنا التى أخضب بهـا مَرَادُهم،

وساروا فى الآفاق ومن جدواها راحلتهم وزادهم ؛ وتفرد بما جمعه من أبوته وإبائه ، وركز فى كل أرض مناخ مطيه ومرتمى خبائه ، وضاهى فى المهاجرة إلى أبوابنا الشريفة النجوم فى السرى ، وحافظ على مراضينا الشريفة فما انفك من نار الحرب إلا إلى نار القرى ؛ وورد عليه مرسومنا الشريف فكان أسرع من السهم فى مضائه . كم له من مناقب لا يغطى عليها ذهب الأصيل تمويها ! ، وكم تنقل من كور إلى سرج ومن سرج إلى كور فتمنى الهلال أن يكون لهما شبيها ! ؛ كم أجمل فى قومه سيره ! ، وكم جمل سريره ! ؛ كم أثمر لها أملا ! ؛ كم أحسن عملا ! ؛ كم سد خللا ! ؛ كم جمع فى مهماتنا الشريفة كل من امتطى فرسا وركب جملا ! ؛ كم صفوف به تقدمت ، وسيوف أقدمت ، وحتوف حمائم الحمام بها على الأعداء ترنمت ! ! .

وكان المجلس السامى الأميرى ، الأجلى ، الكبيرى ، المجاهدى ، المؤيدى ، العضدى ، النصيرى ، الأوحدى ، المقدمى ، الذخرى ، الظهيرى ، الأصيلى : مجد الإسلام والمسلمين ، شرف الأمراء فى العالمين ، همام الدوله ، حسام الملة ، ركن القبائل ، ذخر العشائر ، نصرة الأمراء والمجاهدين ، عضد الملوك والسلاطين « جماز بن محمد » أدام الله نعمته ـ : هو المراد بما تقدم ، والأحق بأن يتقدم ، والذى لو أن الصباح صوارم والظلام جحافل تقدم ؛ فلما مات والده رحمه الله نحا إلى أبوابنا العالية ، ونور ولائه يسعى بين يديه ، ووقف بها : وصدقاتنا الشريفة ترفرف عليه ؛ فرأينا أنه بقية قومه الذين سلفوا ، وخلف آبائه الذين عن زجر الخيل ما عزفوا ؛ وكبيرهم الذى يعترف له والدهم ووليدهم ، وأميرهم الذى به ترعى عهودهم ، وشجرتهم التى تلتف عليه من أنسابهم فروعها ، وفريدهم الذى تجتمع عليه من جحافلهم جموعها .

ورسم بالأمر الشريف أن تفوض إليه إمرة آل علىّ : تامّةً عامّة ، كاملةً شاملة ؛ يتصرّف فى أمورهم ، وآمرهم ومأمورهم ؛ قُرْبًا وبُعْدا ، وغَوْرًا ونَجْدا ؛ وظَعْنًا وإقامه ، وعِرَاقًا وتِهَامَه ؛ وفى كلّ حَقِير وجَلِيل ، وفى كلّ صاحب رُغَاء وثُغَاء وصَرِير وصَلِيل ، على أكمل عوائد أمراء كلّ قبيله ، وفى كلّ أمورهم الكثيرة والقليله .

ونحن نأمرك بتقوى الله فيها صلاحُ كلّ فريق ، وإصلاحُ كلّ رَفيق ، ونَجاحُ كلّ سالك فى طريق . والحكمُ : فليكُنْ بما يوافق الشَّرعَ الشَّريف . والحقوقُ : فخلّصْها على وجه الحق من القوىّ والضَّعيف . والرِّفقُ بمن وَلِيتَه من هذا الجمّ الغفير ، والجمع الكَبِير ؛ وإلزامُ قَوْمك بما يلزمهم من طاعتنا الشَّريفة التى هى من الفُروض اللازمة عليهم ، والقيامُ فى مُهِمَّاتنا الشريفة التى تَبْرُزُ بها مَرَاسِمُنا المطاعةُ إليك وإليهم ؛ وحفظُ أطراف البلاد والذَّبُّ عن الرَّعايا من كلّ طارق يَطْرُقهم إلا بخَيْر ، والمسارعةُ إلى ما يُرْسَم لهم به ما دامت الأسفار فى عَصَاها سَيْر ؛ والإفراج لعَرَبك لانسمح به إلا لمَن له حقيقةُ وُجُود ، وله فى الخِدْمة الشريفة أثَرٌ موجود ؛ ومَنْعُهم : فلا يكونُ إلا إذا تَوَجَّه منعهم ، أو توانَتْ عزائمهم وقَلَّ نَفْعهم ؛ والمَهابةَ : فانْشُرْها كسُمْعتك فى الآفاق ، ودَعْ بوارِقَ سيوفها تُشام بالشّام ودِيمَها تُراقُ بالعِرَاق ؛ وخيولَ التَّقادم : فارتَدْ منها كلّ سابِق وسابِقة تَقِفُ دونهما الرِّياح ، ويحسُدُهما الطّير إذا طارا بغَيْر جَناح ؛ ولا تَتّخِذْ دونَنا لك بِطانَةً ولا وَلِيجَه ، ولا تقطعْ عنّا أخْبارَك البَهِيجَه ؛ ولْيَعْرِفْ قومُه له حَقَّه ، ويُوفُوه من التعظيم مُسْتَحَقَّه ؛ فإنه أميرهم وأمْره من أمْرِنا المُطاع ، فمن نَازَع فقد خَالف النّص والإجماع ، والله تعالى يُوفِّقه ما اسْتطاع ، بمنه وكرمه ! والخط الشريف ... ...

[الثانى — أمير آل فضل] (١) .

وهذه نسخة مرسوم شريف بالتقدمة على عربى آل فضل وآل على ، كتب به للأمير فخر الدين « عثمان بن هبة » وهو :

الحمد لله الذى خص من والى هذه الدولة بالتقدمة والفخر ، ورمى من عاداها بالمذلة والقهر ، ومد فى عمر أيامها حتى يستنفد الدهر ، وحتى توصف أيامها — وإن قصرت — بالمساز : كل شهر يمر منها كالعام واليوم كالشهر .

نحمده على ما منحنا : من تأييد وظفر ، وطوى دعوة من عاندنا بعد النشر ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة إن دخلت شواهدها تحت الإحصاء فلا تدخل فوائدها تحت الحصر ، وأن محمدا عبده ورسوله الذى جعل الله به الهداية فى المبدإ والشفاعة فى المعاد يوم الحشر ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة تسعد بعد الشقاء وتجبر بعد الكسر .

وبعد ، فإن الله سبحانه وتعالى لما مكن لنا فى الأرض ، وجعل بيدنا البسط والقبض ، وأرانا كيف نصنع الجميل ونجمل الصنع ، وكيف نجبر قلب من جعل فى أيامنا جبره بعد الصدع ، وكيف تصبح أنجم ذوى الأقدار فى سماء مملكتنا نيرة المطالع ، وكيف نلقى الخير فى عراصها من رامه إذا كان على الخير فى غير أيامنا مانع ، وكيف نحل التقدمة فيمن إذا عقل فى حللها قيل : هذا هو أحق بها ممن كان ، وهذا الذى ما برحت التقدمة فى بيته فى صدر الزمان ، وهذا الذى إذا ذكر آل فضل وآل على كانت له مرتبة الشرف ولا غرو أن تكون مرتبة الشرف

(١) الزيادة من المقام .

لُعْثمان، وأنّا لا نُعْطِى صَهْوَةَ العِزِّ إلّا لأهلها، ولا نَنْسَخُ الآيَةَ لمن تَقَدَّمَ فى التَّقْدِمة إلا بخَيْر منها أو مِثْلِها؛ ولا نُسَلِّمُ رايَتَها، إلا لمن تُعْقَد عليه الخَناصِر، ولَا يَتَسَنَّمُ ذِرْوَتَها، إلا من هو أَحَقُّ بها وأَهْلها فى الأوّلِ والآخِر .

ولما كان المجلسُ السَّامىّ ، الأمِيرِىّ ، فخرُ الدين، عثمان بن مانع بن هبة : هو المُرادَ بهذا القَوْل الحَسَن ، والمَمْدُوحَ بحَشْدِ هذا المَدْح الذى يَسُرُّ السِّرَّ والعَلَن ، والحَقِيقَ من الإحسان بكُلِّما والخيرِ بِأنِ؛ والخصيصَ من سَوَالِف الخِدَم بمَا والمُفَضَّلَ علىٰ سائرِ النُّظَراءِ ولو قِيسَ بمَن ــ اقتضىٰ حسنُ الرَّأْىِ الشَّريفِ، أن رُسِم بالأمرِ الشريف ــ لا زال ذُو القَدْر فى أيّامه يَرْتَفِع، وذُو الفَضْل فى دَوْلَته لا يَعِزُّ عليه مَطْلبٌ ولا يَمْتَنِع، وذُو الأصَالةِ التى يجتمعُ له فيها من النَّعْماءِ ما لا يَلْتَئِم له فى غَيْرها ولا يجتمع ــ أن تُفوَّضَ إليه التقدمةُ على العُرْبان بالشّام المحروس ، وهم من يأتى ذِكره، علىٰ ما استقر عليه الحالُ فى تَرْتِيبهم؛ وأنَّ مَنازِلَه الدَّارُوم: بُعْدًا وقُرْبا، حَضَرا وبَدْوا، عامِرًا وغامِرا، رائحًا وغاديا، من الرُّسْتَنِ إلى المَلُّوحة . والعَرَبُ: آل فَضْل وآلُ عَلِيّ حيثُ ساروا نزلوا منزلة المذكور، أو بمنزلة الأمير شمس الدين محمد بن أبى بَكْر، والخدمةُ واحدَه ، والكلمةُ علىٰ اتّفاقِ المصالح مُتَعاضِدَه .

فليكن لِلقُوىٰ جسدَ رُوحِها لا بَلْ رُوحَ جَسَدِها، ومجموع القبائل أوْحدَ مُدَدِها إذا صح الأوّل من عَدَدِها؛ وقُطْبَ فَلَكها الذى علىٰ تدبيره مَدارُها ، وعلىٰ تقريره اقتصارُها ؛ وعلىٰ تَقْدِمَتِه تَعْويلُها ، وإلىٰ نِسبة إمارته جُمْلَتُها وتَفْصيلُها؛ ولْيَجْمَعْهم على الطّاعة فإن الطّاعةَ مِلَاكُ الأمْرِ للآمر ، وأُسُّ الخير للبادى والحاضر؛ وليعلم أن لِكلٍّ منهم نِقَابَةً تُعْرف، وعَلَبِيَّةً أصالَةٍ بها يُعَرَّف ؛ ومَنزلةً يَرِثُها الوَلَد عن الوالد، ومَشْيَخةً ترجع من ذلك البَيْت إلىٰ ذلك الواحد، فلْيَحْفَظْ لهم الأنْساب، ولْيَرْعَ لهم

الأسباب، وإذا أُمِروا بأمرٍ من مَهامِّ الدَّولة يتلو عليهم : ﴿ ادْخُلُوا البَابَ ﴾ .
والألزام له ولهم مخاوض تخفظ ، ومفاوز تُلْحَظ ، ومطارِحُ لا تُلْفَظ ، ومَشَاتٍ ومَصَايِف ، ونفائض ومصارف ، ومَرَابِع ، ومَرَاتِع ، ودُنُوٌّ واَقتراب ، وتوطّن واَغتراب ، وإغارةٌ ونَهِيض ، وبَرْقٌ ووَمِيض .

فلْيُرتِّبْ ذلك أجمل ترتيب ، وليَسْلُكْ فيه خيرَ مذهب وتهذيب ، وليَدَعِ العَادِى ، ويُلاحِظِ الرَّائح والغَادِى ، وليُؤمِّن ذلك الجانب فأمْنُنا تُطْرِب أبياتُه المُحَدِّوَ والحَادِى ، وعليهم عداد مقرّر ، وقانونٌ مُحرّر ، ولْيَكُن على يد شَاذِه شاذًا ، ولسبب تأييدهم مَاذًا ، ويعلم أنّه وإن كان قد أغمض من جُفُونه فيما مَضَى ، وأعرض عنه فى الزَّمن الأوّل الذى اَنقضى ، وقُدِّم عليه من كان دُونَه ، فقد ردّ الله له أبكارَ الأمر وعُونَه ، فلا يجعلْ لقائلٍ عليه طَرِيقا ، ولا يَدْخُلْ فى أمرٍ يقال عنه فيه : كان غيرُه به حَقِيقا ، بل يَفُوقُ مَن تقدّم فى الخِدْمة والهِمّة ، والصَّرامَة والعَزْمة ، والله يُوزِعُه شكرَ هذه النّعمة ، والخط الشريف ... ... :

الثالث — أمير آل مِراء ، ورتبته «السامى» بالياء .

وقد تقدّم أنّ منازلهم حَوْرَان . وعن "مسالك الأبصار" أنّ دِيارَهُم بين بلاد الجيدور والجولان ، إلى الزرقاء ، إلى آخر بُصْرى . ومشرّقا إلى حَرّة كشت ، على القرب من مكّة المشرّفة ، زادها الله شرفا .

وهذه نسخةُ مرسوم شريف بإمْرَة آل مِراء ، كتب بها للأمير بدر الدين «شطى بن عمر» وهى :

الحمد لله الذى زَيّن آفاقَ المَعَالى بالبدر ، ورفع بأيّامنا الشريفة خيرَ وَلِىٍّ أضحى بين القبائل جليلَ القَدْر ، ومنح من أخلص فى خِدَم دولتنا الشريفة مَزِيدَ الكَرَم

فأصبح بإخلاصه شديدَ الأزْر، وأجزل برّه لأصائل العَرَب العَرْباء فوفّر لهم الأقسام، وأسبغ ظلالَ كَرَمه على من يَرْعَى الجارَ ويحفَظُ الذّمام .

نحمَـدُه على نِعَمٍ هطَل سَحابُها ، ومِنَنٍ تفتّحتْ بالمسارّ أبوابُها ؛ ونشهدُ أن لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تُقرّبُ صاحِبَها يوم الفَزَع الأكبر، من المحلّ الآمن ، وتُورِدُه نَهر الكَوْثَر، الذى ماؤُه غيرُ آسن ؛ ونشهدُ أنّ سيدَنا محمّدًا عبدُه ورسولُه الذى بعثـه اللهُ من أشرف القبـائل ، وأوْضح بنُورِ رسالتـه الدّلائل ؛ فأنقذ الله به هذه الأمّةَ من ضَلالهـا ، وبوّأها من قُصُور الجِنَان أعلىٰ غُرَفِها وأشرَف ظِلالهـا ؛ صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين أوْضَحُوا مناهجَ الإيمـان ، وشيّدُوا قواعدَ الدِّين إلىٰ أن عَلَتْ كلمتُـه فى كلّ مكان ، [فكان] عَصْرُهم أجْمَلَ عَصْر وقَرْنُهم خيرَ أوَان ؛ وسلّم تسليمًا كثيرا .

وبعـدُ ، فإنّ أوْلىٰ من أدْنيْنا من بِسَاط الاصْطِفاء مَحَلّه ، وارْتَشَف من سَحاب مَعْروفنا طَلّه فوَبْلَه ، ونَالَ من عواطِفنا منزلةَ القُرْب علىٰ بُعْد الدار ، وحكمَ له حسنُ نَظَرِنا لتَشْريف بتوالى غَزِير كَرَمنا المِدْرار[1] .

ولمـا كان المجلس الفلانىّ : هو المشارَ إليـه بهذا النّعْت الحَسَن ، والمَوْصوفَ بالشّجاعة فى السِّرّ والعَلَن ـ رسم بالأمر الشريف ـ لا زال بَدْرُه ، ساطعَ الأنوار ، وبِرُّه ، هامِعَ القِطَار ، وخيرُه يشمَلُ الأولياءَ بجَزِيل الإيثَار وجميل الآثَار ـ أن يستقرّ المشارُ إليـه فى كَيْت وكَيْت : لأنّه البَطَل الشّـديد ، والفَارس الصّـنْديد ؛ وليْثُ الحرب المذكور، ومَن هو عندنا بعَيْن العِنايَة مَنْظُور .

---

(١) لم يذكر خبرا لإن ولعله سقط من قلم الناسخ والأصل « من كرم أصلا ومحتدا ، وسل سيف عزيمته حتى خضعت له رقاب العدا » أو نحو ذلك .

ولْيَثِق من صَدَقاتنا الشّريفة بما يُؤَمِّل ويَعْهد، ولْيَتحقّق قُرْبَه من مَقامنا الشّريف والعَوْدُ أحْمد؛ ولْيَتلقَّ هذا الإحسان بقَلْب منْشَرِح، وأمَل مُنْفَسِح؛ وليجتهدْ فى أمر عُرْبانه الذين فى البلاد، فإنّا جعلنا عليه فى أُمورهم الاعْتِماد؛ وقد أقَمْناه أميرا على عَرَب آل مِراء؛ فلْيُشَمِّر عن ساعد الاجتهاد فى مصالح دولتنا الشّريفة بغير زُورٍ ولا مِراء؛ ولْيَقْمَع المُفْسِدَ من عُرْبانه ويقابله بالنَّكال، والصّالحُ الخيِّرُ منهم يُجزِلُ له النَّوال؛ والوصايا كثيرةٌ ومِثْله لا تُقال؛ والخط الشريف أعلاه حجة فيه، إن شاء الله تعالى.

***

وهذه نسخة مَرْسوم شريف بنصْف إمْرَة آل مِراء، كُتِب به لقناة بن نجاد، فى العشر الأخَر من شهر رمضان سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة. من إنشاء المقرّ الشّهابىّ بن فَضْل الله، وهى:

الحمدُ لله الذى استخدَم لنَصْرنا كلَّ سَيْف وقَنَاه، وكلَّ سُرْعة وأنَاه، وكُلَّ مُثَقَّف تُسْلِي[1] جناياتُه ويَعْذُب جَنَاه، وكُلَّ ماضٍ لا يعُوقُه عن مَقاصده الصالحة يَعُوقُ وهو عَبْدُ مَنَاه.

نحمدُه حمْدَ من أغْناه، ونشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً يَستمِدّ من قَبلها فَلَقُ الصَّباح سَنَاه، ويُفَكُّ منها من قَبْضة السُّيوف عُنَاه؛ ونشهدُ أنَّ محمّدا عبدُه ورسولُه الذى [بوّأه منازل الشرف] وبنَاه، وأحلَّه من العرَب فى مكان يَخْضَع له رأسُ كلِّ جبّار ويخشَعُ بصَرُه ونستَمِعُ لما يُوحَىٰ أُذُناه، صلَّى الله عليه وعلى آله وصَحْبه صلاةً تَخُصُّهم من كل شَرَف بأسْماه وأسْناه، وسلم تسليما.

---

(١) تسلى جناياته — تترك فلا يقتص منه.

وبعـد، فإنّ لكلّ ثاكلةٍ قَرارا، ولكلّ هاجِرةٍ مَزارا؛ ولكلّ مِعْصَم سوارا لايليقُ إلا بزَنْدِه، ولكلّ عُنُقٍ دُرًّا لا يصلُح إلا لعِقْدِه ، ولكلّ سَيْف طال هُجوعُه فى غِمْدِه انسلالا، ولكلّ قَنـاةٍ لم تُعْتَقَل مُدّةً اعتقالا؛ وكانت إمْرةُ آلِ مِراء قد ثُبِّتت من البَيْت الأحْمدىِّ بأوْثق أوْتادها، ووصلت منه فى الرِّفْعة إلىٰ نِجَادها ؛ ولم تزلْ تنتقلُ فى آفاقِها بُدُورُهم الطّالعه ، وتُضِيءُ عليها من صِفاحِهم بُرُوقُهم اللّامعه؛ وتَجُولُ فيها من سوابقهم السُّحُب الهَـامِعه ، وتُغْنِى فى حروبها عزائمُهـم إذا وقَعَت الواقعه؛ وتقدَّمَتْ للمجلس السامىّ، الأميرىّ، الفُلانىّ، بركابنا الشّريف صُحْبَـةٌ حَمِدَ فيهـا السُّرىٰ، وخِدْمةٌ أوقـدَتْ له نَارَ القِرىٰ ؛ وهاجَر إلينا فى وَقْتٍ دلَّ علىٰ وفَائه، وسَهِر إلىٰ قصدنا اللَّيْـلَ وله النجم محيط المُقَلِ بإغْفائه ؛ واْنقطعَ إلينا بأمَلِه ، ولازم من عهدنا الشريف صَالِحَ عَمَلِه ؛ واْسـتحق تَعْجيلَ نِعَمِنا الشريفة وإن تأخرت لأجل مَوْقوت، وأمل نَجَاحُه لا يَفُوت .

فلما آن أن تُفاضَ عليه ثيابُها ، ويُضَاف إليه ثَوَابُها ؛ ويُصَرَّف فى قَوْمه أمْرُه ، ويشرُف بينهم قَدْرُه ؛ ويَعْرِفَ من لم يَعْرِف المِسْـكَ أنّه عندنا ذِكْرُه ، ومَنْ جهل البِرَّ: أنه علىٰ مايُحْمَد عليه شُكْرُه، ومن أنْكرأنّ شيئًا أصْعَبُ من المَوْت:أنّه فى مجال الموتِ صَـبْرُه، ومن خالف فيا هو أمْضىٰ من القَضاء : أنّه فى البيعة صَدْرُه، ومن ادّعى أنّه لا تصيبه البِيضُ والسُّمْر: أنّها مُتقفته وبَتْرُه؛ ورال من هذا البَيْتِ العرِيق الطَّوْدُ وهو ثَابِت ، ونُزِعَ منـه السِّنان لولا أنّه فى قَنَاته نابت؛ و[لولاه] لهـاجت هذه القبيلة إلىٰ من يُقْبِل على نباتها، ويَقِيلُ بها : تارة يُنْجِدُ فى نجدها وأُخرىٰ يجُول فى جَوْلَاتها ـ رسم بالأمر الشريف أن يُقَلَّد من إمْرة آلِ مِراء ما كان الأمير «ثابتُ ابن عَسَّاف» رحمه الله يتقلده إلىٰ آخر وقت ، ويُرفَع فيها إلىٰ كلِّ مُسَامَتَةٍ وسَمْت ؛ ليُكَمِّل ما نقَصَ من التّمام وتَعْرفه ويعلَم أنّه حلَّق إليه حتّىٰ أتىٰ دون نِصْف البَدْر

فاختطف النّصفَ وذلك النّصفُ هو نِصْفُه ؛ ليكون لم إحدى اليدين، وأخرى تقع لسيف بحَدَّين .

وتقوىٰ الله أبركُ ما اشتملت عليه عُودُها، وآنحَبت له زَبيدُها؛ فليتّخذْها له ذروةً ... أنّىٰ سلك من الفجاج ، واقتحم من حَلَك العجاج . وعليه بحُسْن الصُّحْبة لرَفيقه، ويُمْن القَبُول علىٰ فَريقه، وإقامة الحُدُود علىٰ ما شرع الله من دِينه القَويم، وإدامة التّيقُّظ [للثّأر] المُنيم ؛ وإنزال عَرَبه ومن ينزل عليه أو ينزل عليهم فى منازلهم .

وليجْمَعْ قَوْمَه علىٰ طاعتنا الشّريفة كُلَّ الجَمْع، ويُقابِل ما تَرِدُ به مَراسِمُنا المطاعةُ عليه بما أوْجب اللهُ لها من الطّاعة والسَّمْع ؛ وليأْخُذْ للجهاد أُهْبَته ، ويعجِّل إليه هَبّته ؛ وليَقِف من وراء البلاد الشامية المحروسة دَرِيئةً لأسوارها المَنيعه ، ونطاقا علىٰ مَعاقلها الرّفيعه ؛ وسَدًّا من بين أيديها وخلفها لباب كُلّ ذَريعه ، وخَنْدَقًا يحوطُ بلادها الوَسيعه ، وحجابًا يمنع فيها مَن تعدّى الحَقّ وخاضَ الشّريعه ؛ ولا يُفارِق البلادَ حتّى يعبِّس فى وجوهها السَّحاب ، ولا يَعُود حتّى تُؤْذِنَ زُرُوعُها المخيِّمة بذَهاب ؛ والكَرَمُ هو فيه سجايَا ، والعَزْم ما بَرِح لوشّان (؟) أسِنَّته بكلِّ قَناةٍ لحَايَا[1] ، والحَزْمُ بيده المَراوِيّةُ من آل مِرَاءٍ يظْهَرُ له الخفايا ، والشجاعةُ هو فى رُباها المنيرة «ابنُ جَلا وطَلّاعُ الثّنايا» ؛ وما رضع المُرمِل كأفاويق الوِفَاق ، ولا وضع شيْئًا فى موضعه كمُدَارَاة الرِّفاق ؛ فليكن لرَفيقه أكْثَرَ مساعدةً من الأخ لأخيه ، وأكْبرَ مُعاضَدَةً من المِصْرَاع لقَسيمه والجَفْن لجَفْنه والشّيءِ لما يُؤاخيه . هذا يجب ويتعيّن وليس يجمعهما فردُ طاعه ، ولا يلزمهما لشيءٍ واحدٍ آستطاعه ؛ فكيف وهو [و] رفيقه إلينا اعتزاؤُهما ومنّا إعزازهما، وهما قَرِنانِ معْتَنِقانِ : لدينا إجنازُهما وبيدنا إهزازُهما .

---

(١) يريد لحاء بالهمز فاضطر للقلب مراعاة للسجع .

وليحَصِّل من الخيل كلَّ سابقةٍ تليق أن تقــدَّم إلينا، وسابحةٍ فى كل مَهَمهٍ حين يَقْدَمُ علينا . والشَّرْعُ الشريفُ يكون إليه مآبُك، وعليه عَفْوُك وعقابُك، وبمقتضاه عَقْدُ كلِّ نِكاحٍ لا يصح إلا علىٰ وَجْهِه المَرْضِيِّ وإلَّا فهو سِفاح، والميراثُ علىٰ حُكمه لمن جَرَّ إليه وإلا فهو ظُلْمٌ صُراح، وبقيةُ ما نوصيه به إذا انتهىٰ منه إلىٰ هذه النُّبْذَة فما عليه فى سواها جُنَاح . وسبيلُ كلِّ واقفٍ علىٰ تقليدنا هذا أن يُنِيبَ إلىٰ نُصُوصِه، ويؤوبَ إلىٰ عُمومه وخُصُوصه، والحَذَرَ من الخُروج عنــه بقَوْلٍ أو عَمَلٍ ، فالسَّيْفُ أَسْبقُ من العَذَل ، والله تعالىٰ يُمتِّعه بمــا وهبه من العزِّ فى النُّقَل، والمحاسن التى هى يَدُ المسامع والأفواه والمُقَل، والخط الشريف أعلاه ... .

المرتبـــة الثـانيـــة

(من أرباب المراسيم من العرب — من يُكْتَبُ له فى قَطْع الثُّلث بـ«السَّامى» بغير ياء، مفتتحا بـ«أمَّا بعدُ» وهم ثلاثة أيضا)

الأول — أمَراء بنِى مَهْدِىّ ، وهى مقسومة بين أربعــة . ورتبةُ كلٍّ منهـم «مجلس الأمير» .

وقد تقدّم أنَّ منازلهم البَلْقاءُ، إلىٰ مائر، إلى الصوان، إلىٰ عَلَمِ أعفر .

وهذه نسخة مَرْسومٍ شريفٍ بِرُبْع إمْرَة بنى مَهْدِىّ، وهى :

أمَّا بعــدَ حمدِ الله علىٰ نِعَمِه التى حقَّقت فى كَرَمنا المآرب، وأجزلت من الآلاء المَواهِب ، وقرَّبَتْ لمن رَجانا بإخلاص الطاعة ما يأْبَىٰ عليه من المَطَالِب، والصَّلاة والسـلام علىٰ سـيدنا محمدٍ المبعوثِ من أشرف ذَوَائبِ لُؤَىِّ بن غَالِب ، المخصوص باللِّواء الذى لا يَضْحَىٰ مَن أوىٰ إلىٰ ظِلِّه والحَوض الذى لا ظَمَأ بعــدَ وُرُوده

لشارِب ، وعلى آله وصَحْبِه الذين فازُوا من محَبّته وطاعتِه بأسْمى المَراتب وأسْنَى المَناقب — فإنّ أولى من رَفَعت رعايتُنا قَدْرَه ، وأطْلعتْ عنايَتُنا فى أُفُق السعادة بَدْرَه ، وحقّقَتْ آلاؤُنا سُولَه ، وبلّغته صدَقاتُنا مَرامَه ومأمُولَه — من أحكم فى طاعتنا أسْبابَ وَلائه ، وأتقن فى خِدْمَتِنا انتساب بعيده وانتمائه ، وتقرّب إلينا بإخْلاصه فى اجتهاده ، ومَتَّ بما يُرْضِينا من احْتِفالِه بأُمور جِهاده ، مع ما تَميّز به من أسْباب تَتَقاضَى كَرَمَنا فى تَقْديمه ، وتَقْتضِى إجراءَه على ما أَلِفَ أولياءُ الطاعة من حَدِيث إحساننا وقَديمه .

ولما كان فلانٌ هو الذى اختصّ بهذه المقاصد ، وعُنِىَ بما ذكر من المصادر والمَوارد — رُسِمَ أن يُرتَّب فى رُبْع إمْرة بَنِى مَهْدىّ .

فلْيُرتَّبْ فيما رُسِم له به من ذلك قائمًا من وظائفها بما يَجِب ، عالمًا من مصالحها بما يأْتِى وما يَجْتنب ، وافِقًا لاعْتِياد ما يَرِد عليه من المَراسم وقُوفَ المنتَظِر المُرْتقِب ، مُلْزِمًا عَرَبَه من الخِدَم بما يُؤَكّد طاعتَهم ، ومن إعداد الأُهْبَة بما يُضاعِف استطاعتَهم ، ومن المُحافَظَة على أسْباب الجهاد بما يجعل فى رِضَا الله تعالى ورضانا قُوّتَهم وشَجاعتَهم ، ولْيُقَدِّم تقوى الله تعالى بين يديه ، ويجعلْ توفيقَه العُمْدةَ فيما اعْتَمد فيه عليه ؛ والخَيْر يكون ، إن شاء الله تعالى .

*
* *

وهذه نسخةُ مَرْسومٍ شريف برُبْع إمْرة بَنِى مَهْدىّ أيضا :

أمّا بعدَ حمدِ الله على نِعَمِه التى جدّدتْ لمن أخلص فى الطّاعة رُتَبَ السُّعود ، ورَفعتْ مَن نَهض فى الخِدَمِ الشّريفة حقَّ النُّهوض إلى مَناصب الجُدود ، والصّلاة والسّلامِ على سيدنا محمد المخصوص بلواءِ الحَمْد المَعْقود ، وظِلِّ الشّفاعة المَمْدود ،

والحَوْض الذى لا يَنْضُبُ علىٰ كَثْرة الوُرود ؛ وعلىٰ آله وصَحْبه الذين وَفَّوْا بالعهود ، وبَدَتْ سِيمَاهُم فى وجوهِهم من أثَرِ السُّجود ـ فإنَّ أوْلىٰ من اْجتلىٰ وُجوهَ النِّعم ، واْجتَنىٰ ثَمَرَة ما غَرَس من الخِدَم ، واْرتَقىٰ إلىٰ ما أُنْعِم به عليه من التَّقدُّم الذى أقامه السَّعْدُ لاْستحقاقه علىٰ أثبتِ قَدَم ـ من نشأ فى طاعتنا الشَّريفة يَدِينُ بوَلائها ، ويتَقلَّب فى خَيْرِ نِعَمِها وآلائها ، ويتَعبَّدُ بما يُؤَهَّل له من خِدَمِها ، ويبادِرُ إلىٰ مايُنْدَب له من المَهامِّ الشَّريفة بين يَدَىْ مراسمنا أو تحتَ عَلَمِها .

ولمَّا كان فلانٌ هو الذى ذُكِرتْ طاعتُه ، وشُكِرت خِدَمُه وشَجاعتُه ـ رُسم ... ... أنْ يُرتَّب فى رُبْع إمْرة بَنِى مَهْدِىّ ، علىٰ عادة من تقدّمه وقاعدَتِه .

فليرتَّبْ فى ذلك ، قائمًا بما يجب عليه من وظائفها المَعْروفةِ المأْلُوفَه ، وخِدَمِها التى هى علىٰ ما تبرزُ به أوامِرُنا الجاريةُ موقُوفَه ؛ وليكنْ هو وعَرَبُه بصَدَدِ مايُؤْمَرون به : من خِدْمةٍ يبادرون إليها ، وطاعةٍ يُثَابِرون عليها ، وتأهُّبٍ لجهاد ، حيثُ سَرَت الجيوشُ المنصورةُ لم يَبْقَ لهم عائقٌ عن التَّوجُّه بين يديها ؛ وسياسةٍ تأْخذُهم من الطرائقِ الحميدةِ بسُلُوك مايجب ، ويعرفُ بها سلُوكَ مايَسْلُك واْجتنابَ ما يجتَنِب ؛ والخير يكون ، إن شاء الله تعالىٰ .

الثانى — مقدّم زُبَيْد . ومنازلُ بعضِهم بالمَرْج وغُوطَة دِمَشْق ، وبعضهم بصَرْخَد ، وحَوْران .

*

وهذه نسخةُ مَرْسومٍ شريف بتَقْدِمة عرب زُبَيْد ، وهى :

أمَّا بعدَ حمدِ اللهِ الذى أبقىٰ بنا للنِّعم تأْبِيدا ، وأحْسن العاقِبَةَ لأحسن عاقبةٍ أدام لهم فيها تخْلِيدا ، وأحْيا به منهم حَيًّا نكتب لأميرهم وإمْرتِهم فى كُلِّ حِين تقْليدا ؛

ونَقَّل منهم نوفَلاً فلا تزالُ نجدِّدُ فيهم ملابِس الفخار بذكر آسمه تجديدا، ورعَىٰ بنا أبناءَ بيتٍ تناسَقُوا أبناءً وجُدُودا، وتَباشَرُوا بولَدٍ لمَّا خلَف والدَه بأنَّ آبنَ سعيدٍ لا يكون إلّا سَعيدٌ. والصّلاة والسّلام علىٰ نبيه محمد الذى أهلك بسَيْفه كلَّ غاشم، وأنجل بسَيْبه كلَّ غمام لوجنة الرِّياض وَاشم، وأسْعد بسَببه نوفَلا وعبدَ شمس بأخوّتهما لهاشم؛ صلى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه خُلاصة العرب، صلاةً لا يعدُّ ضريبا لها الضَّرَب، وسلَّم تسليماً كثيرا.

وبعدُ، فإنّ العساكرَ المنصورةَ الإسلاميةَ : منهم حاضرةٌ أهلُ جِدار، وباديةٌ فى قِفار، وقومٌ هم المُدُن المُمدَّنة وقومٌ عليها أسوار؛ وهم صنفان : صنفٌ لا تملُّ السيوفَ عَواتِقُهم، وصنفٌ سيوفُهم تُحبَس بها مَناطقُهم؛ والعَرَبُ أكرم [أهل] البَوادى، وأعظمُ قبائلهم تضَرُّمًا كالبرق مُباراةً للسُّحُب الغَوادى؛ قد نَصبُوا بقارعة الطّريق خيامَهم، وسرَّحوا مع أسراب الظِّباء سَوامَهم؛ ووقفُوا دُونَ الممالك المحروسة كَتَائبَ مصْفُوفه، ومَواكبَ بما تُعرَف به العربُ من الشّجاعة موصوفه؛ وزُبيد من أفخرها قَبيله، وأكثرها فوارسَ : [فأمّا أحسابها] فكريمةٌ وأمّا وجوهها فجميله؛ شَاميةٌ أعرقَتْ أنسابا فى يَمَنها، وأتْهمتْ بشَطْء أسنّتها ماتفتّح فى المَجَرّة من سَوْسَنها؛ فما يبيتُ يَطُلُّ منهم علىٰ دِمَن، ولا يُعْرَف فارسٌ إلا إذا تَملّى فى الخَليطَيْن من شَام ومن يَمَن؛ كَمْ فيهم بمَواقِع الطّعانِ فَطِنٌ ذو كَيْس، وكَمْ صَبَغ منهم بالدّماء رايةً حمراءَ يَمَنيّةٌ لا يُنْسب إلىٰ قَيْس؛ كَمْ كَرَب علىٰ مَعْديكَرِبَ منهم فارس، ونُسِب إلىٰ زُبَيد وهو خَشِنُ الملابس؛ منهم صاحب الصَّمْصامة يَقِى مثلها السّيفَ فردا، وكَمْ قتل من أقرانه الشُّجْعان من أخٍ صالحٍ وبوّأه فى العَجَاج بيديه لَحْدا؛ ومن نجومهم الزواهرُ السُّراه؛ وغيومهم الأكابر السَّراه، من لم يَزَلْ حَوْل دِمَشْق وما يليها من جَوْرَان، مَنارةَ مَنازِلَ وأوْطان؛ حامَوْا عن جَنابها المَصُون، وحامُوا حَوْلَ غُوطتها تَشَبُّهاً بحَمائمها

علىٰ الغُصُون ، وماثَلُوا بسيوفهم أنْهارَها ، وبِرِماحِهم حَوْلَ دَوْحاتِ الأَيْك أشجارَها ، وآستَلأَمُوا بمِثْلِ غُدْرانِها دُرُوعا ، وحَكَوْا بما أطَلُّوا من دِماء الأَعْداء شَقائِق رَوْضِها ، وبما جَرُّوا من حُلَلِهم المُسَهَّمَة سيلا ، ولم يَزَلْ لهم من البَيْت النَّوفَلِيّ مَن يجمع جماعتَهم ، ويضُم تحْتَ راية الدولة الشريفة طاعتَهم ، يَخْلُفُ آبْنٌ منهم لأبيه أو أخٌ لأخيه ، وينْتظِم كُلُّ فَرْقَد مع من يناسِبُه وينضاف كُلُّ كَوْكَبٍ إلىٰ مَن يُؤَاخيه .

وكان مجلس الأمير الأجلّ ، فلان بن فلان الزُّبيْدِى ــ أدام الله عزه ــ هو بَقِيَّةَ من سلف من آبائه ، وعرف مثل الأَسَد القَسْوَرة بإبائه ، وآنْحصَر فيه مِن آستحقاق هذه الرُتبة مِيراثُ أبيه ، وآستغرَق جميع ما كان من أمْر قَوْمه وإمْرتِهم بِكِلِه .

فرسم بالأمر الشريف ــ زاده الله تعالىٰ شرَفا ، وذَخَر به لكلِّ سالِفٍ خَلَفا ــ أن يرتب فى إمْرة قَوْمه من زبَيد النَّازلين بظاهر دِمَشْق وبلاد حورانَ المحروس ، علىٰ عادة أبيه المستقرّه ، وقاعدَته المستمرّه ، إلىٰ آخر وقت ، من غير تنْقِيص له عن نَجْم سَعْده فى سِمَة ولا سَمْت ، تقْدِمة تَسملُ جميعَهُم ممَّن أعْرَقَ وأشْام ، وأنْجد وأتْهَم ، لا يخرج أحَدٌ منهم عن حُكْمه ، ولا ينفردُ عن قِسْمه ، لا ممَّن هو فى جِدَار ، ولا ممَّن هو مُصْحِرٌ فى قفار ، يمْشِى علىٰ ما كان عليه أبُوه ، ويقومُ فيهم مَقَامَه الذى كان عليه هو وأولُوه .

ونحنُ نُوصِيك بتقْوَى الله تعالىٰ ، وباتِّباع حكْم الشَّريعة الشريفة ما أقمْتَ علىٰ بلد أو أزْمَعْتَ آرْتحالا ، وجَمْع قَوْمك على الطاعة فُرْسانًا ورُكْبانا ورِجالا ، وآتباع أوامِرها الشَّريفة وأمْر نُوّابنا الذين هم بإزائهم ، وما آعْتزازُ من قِبَلك إلا لمَا مالوا إليه فى آعتزائهم ، والتَّأهُّب أنت وقومك لما رسم به فى لَيْل أو نهار ، وحِمَايَةِ حِمىً أنتم حوله فى صَحْراء مُصْحِرة أو مِن وَرَاء جِدار ، والمطالعة بمن يَنْتقِلُ من أصْحابك

بالوَفَاه، والوصايا كثيرة ومِثْلُك أيْسَرُ ماقال له آمْرُؤٌ كَفاه، والله تعالىٰ يوفقك لما يرضاه، ويُؤْثِرُك فى كلِّ أمْرٍ للعمل بمقتضاه، وسبيل كلِّ واقفٍ عليه العملُ به بعد الخط الشريف شرّفه الله تعالىٰ وأعلاه أعلاه، إن شاء الله تعالىٰ .

النيابة الثانية

(من نيابات البلاد الشامية ـ نيابة حلب . ووظائفها التى يكتب بها من الأبواب السلطانية علىٰ نوعين)

النوع الأوّل

(من بحاضرة حلَب ، وهم علىٰ أصناف)

الصنف الأوّل

(منهم أرباب السُّيوف ، وهم علىٰ طبقتين)

الطَّبَقة الأولىٰ

(من يُكْتب له تقليدٌ ، وهو نائب السَّلْطنة بها ؛ وتَقْليده فى قَطْع الثُّلثين بـ«ـالجناب الكريم»)

وهذه نسخةُ تَقْليدٍ شريفٍ بنيابَة السلطنة بحَلَب ، كُتِب به للأمير استدمر، من إنشاء الشَّيخ شهاب الدِّين محمود الحلبىّ، وهى :

الحمدُ لله حافظِ ثُغُور الإسلام فى أيَّامنا الزَّاهرَة ، بمن يَفْتَرّ عن شَنَبِ النَّصْر سَيْفُه ، وناظِمِ نِطاق الحُصون فى دَوْلتنا القاهرة ، علىٰ هِمَم من لم يَزَلْ يغزُو عدوّ الدِّين قبلَ طُلوعِ طَلائعه طَيْفُه ، وناشرِ لواءِ العَدْل فى أسْنىٰ ممالكنا بيَد من لا يُؤْمَنُ فى الحق فَوْتُه

ولا يُرْهَبُ فى الحُكْمِ حَيْفُه، ومدَّخِر [أجر] الرِّباط فى سَبِيله لمن لم يَبِتْ لَيْلَةً إلا والتَّأْييد نَزِيلُه والنَّصْر سَمِيرُه والظَّفَرُ ضَيْفُه، الذى جعلَ الجهاد فى أَطْراف المَمالك المحروسة سُورًا لعَواصِمِها، والصِّعادَ فى مَقَاتِل أعْداء الدِّين شَجًا فى صُدُورها وشَجًى فى غَلاصِمِها؛ والسُّيُوفَ الحِدَادَ تُزْهَىٰ بمشاركتها لاسم من بَلِيَتْ منه أجْساد أهْلِ الكُفْر بقاسِمِها، ورُمِيتْ منه أعْمارُهم بقاصِمِها؛ وأرْهفَ لهذا الأمرِ من أوْليائنا سيفًا تحلَّى الشَّهْباء بجواهرِ فِرِنْده، وتَتَوقَّع الأعْداء مواقعَ فَتَكَاتِه قبلَ تألُّق بَرْقه من سُحُب غِمْده؛ ويعرِفُ أهْلُ الكُفْر مَضارِبَه التى لاتُطِيقُ مَقَاتِلُهم جَحْدَها، وتتفرقُ عُصَب الضلال فَرَقًا من مهابته التى طالما أغارَتْ علىٰ جيوشهم المتعدِّدَة وحْدَها .

نحمدُه علىٰ نِعَمِه التى جعلت النَّصْر لأجياد ممالكنا عُقُودا، والكُفْرَ للَهَب صَوارِمِنا وَقُودا ، والتَّأْييدَ من نتائج سُيوفنا التى تأْنَفُ أن تُرىٰ فى مَضاجِع الغُمُود رُقُودا؛ ونشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تُعْلِي مَنارَ الهُدىٰ ، وتُطفِئ أنْوار العِدَا، وتُخْلِي أجْسادَ أهلِ الكُفْر من قُوىٰ أرْواحِهم فتَغْدُو كديارِهم التى لا يُجِيبُ فيها إلا الصَّدَىٰ؛ ونشهد أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أعْلَى الله بِناءَ الإيمان بتأذِينه، وأيَّدنا فى الذَّبِّ عن مِلَّتـه ، بكل وَلِيٍّ يتلقَّى رَايةَ النَّصْر بيَمِينه، وأعاننا علىٰ مصالح أُمَّته، بكلِّ سيفٍ تَتَأَلَّق نارُ الأجل من زَنْده ويَتَرَقْرقُ ماء الحياة من مَعِينه؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين وَسَمَتْ أسِنَّتُهم من وجوه الكُفْر أغْفالا،وكانتْ سيوفُهم لمَعاقِلِ أهْل الشِّرك مَفاتِحَ فلمَّا فُتِحت غَدَت لهـا أقْفالا؛ فمنهم مَن فَازَ بمَزِيَّة السَّبْق إلىٰ تَصْديقه ، ومنهم من كان الشيطانُ يَتَنَكَّبُ عن طَرِيقه؛ ومنهم مَن أمَر بإغْمادِ سَيْف الانْتصار لدَمه عن مُرِيقِه ، ومنهم من حاز رُتْبـة أَخْتانه وصِهْره دون أُسْرته الكِرام وفَرِيقِه ؛ صلاةً دائمـةَ الخُلود، مُسْتَمِرَّة الإقامة فى التَّهـائم والنُّجود ؛ وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

وبعد، فإنّ أولى من حلّيت التقاليدُ بلآلئ أوصافه، ومُلئت الأقاليمُ بمواقع مَهابته وإنصافه، وريعت قلوبُ العدا بطُروق خياله قبل خيله، وخاف الكُفرُ كلّ شىء أشبه ظُباه من توقّد شموس نهاره أو حكى أسنّته من تألّق نجوم ليله؛ ومُدّ على الممالك من عزماته سُورٌ مُصفّحٌ بصفاحه، مُشرّفٌ بأسنّة رماحه؛ سامية على منطقة الجوزاء منطقةُ بُروجه، نائية على أمانى العدا مسافةُ رفعته فلا يقدر أملُ باغٍ على آرتقائه ولا رجاءُ طاغٍ على وُلوجه ـ من تمهّدتْ بسداد تدبيره الدُّوَل، وشهدت بسيَر محاسنه السّيَرُ الأُوَل؛ وتوطّدت الممالكُ على أسنّته فحقّقت أنّ أعلى الممالك ما يُبنَى على الأسَل، وسارتْ فى الآفاق سُمعتُه فكانت أسرى من الأحلام وأسبقَ من الأوهام وأسيَرَ من المثَل؛ وصانت الثُّغورَ صوارمُه فلم يَشِمْ برقَها إلا أسيرٌ أو كسير، أو مَن إذا رجع إليها بصَره آنقلبَ إليه البصرُ خاسئًا وهو حسير؛ وزانت الأقاليمَ معْدلتُه فلا ظُلْمَ يغشَى ظَلامُه، ولا جَورَ يُخشَى إلمامُه، ولا حقّ تُدحض حُجّتُه ولا باطلَ يعلُو كلامُه؛ فالبلادُ حيثُ حلّ بعدْله معْموره، وبإيالته مغْموره، وسُيوفُ ذوى الأقلام وأقلامُهم بأوامره فى مَصالح البلاد والعباد مَنْهيّةٌ ومأموره.

ولما كان الجنابُ العالى هو الذى عانق الملكَ الأعزّ نجادُه، والليثَ الذى لم يزَلْ فى سبيل الله إغارتُه وإنجادُه؛ والكميَّ الذى كم له فى جهاد أعداء الله من موْقفِ صدْقٍ يضلُّ فيه الوَهْم وتزِلُّ فيه القدَم، والهمامَ الذى إنْ أنكرتْ أعناقُ العدا مواقعَ سيوفه «فما بالعَهْد من قِدَم»؛ والمِقْدامَ الذى لا تُنْكَر مَشاهدُه فى إرْغام الكُفر ولا تُكْفَر، والزّعيمَ الذى حمتْ مهابتُه السّواحلَ فخاف البحْرُ: وهو العدُوُّ الأزْرق، من بأسه الأحمر، على بَنِى الأصفر؛ والمُقدّمَ الذى كمْ ضاقتْ بسَراياشيعته الفِجَاج، ! وكمْ أشرقتْ نُجوم أسنّته من أُفُق النّصر فى ظُلَم العَجَاج، ! وكمْ حمَى العذْبَ الفُراتَ على البُعد بسُيوفه وهى مجاورةٌ للملح الأُجَاج ! ! ؛ مع سَطْوةٍ أنامت الرّعايا فى مهاد أمْنها،

ورأفة غمرت البرايا بعاطفة إقبالها ويُمنها، ورفق تكفّل لسهل البلاد وحزنها بإعانة مزنها؛ وشجاعة أعدّت الجيوش التى قبله فغدت آحادها ألوفا، وفتكات عوّدت الطير الشبع من وقائعه فباتت على راياته عُكوفا، ومعدلة عمّت من فى إيالته فأضحى الضعيف فى الحقّ قويّاً عنده والقوىّ فى الباطل ضعيفاً.

وكانت البلاد الحلبيّة المحروسةُ هى المملكةَ التى لا تُجارى شَهباؤها فى حَلْبة فخار، والرُّتبةَ التى لا يُؤهَّلُ لها من خواصّ الأولياء الأعزّة إلّا من استخرنا الله تعالى فى تقليد جيد مفاخره بلآلئ كفالتها نخار؛ فهى سور الممالك الذى لا تتسوّره الخطوب؛ وأمّ الثغور التى ما برح يسفر بابتسامها عن شنب النصر وجهُ الزمن القطوب؛ وموطن الرباط الذى كلّ يوم وليلة [فيه] خير من الدنيا وما فيها؛ وعقيلة الأقاليم التى كم أشجى قلوبَ الملوك الأكابر صدودُها وأسهر عيونَ العظماء الأكاسرة تجافيها؛ بل هى عقد درّه حصونُه، وروض سيوف الكماة جداولُه ورماح الحماة غصونُه؛ وحمًى لم تزل عيونُ عنايتنا بعون الله تحفّه وأيدى تأييدنا بقوّة الله تصونه ـ اقتضت آراؤنا الشريفةُ أن نُزهف بحمايتها هذا السيفَ الذى تُسابقُ الأجلَ مضاربُه، وتبطل الحيلَ تجاربُه، ويتقدّم خبرَ عزائمه خبرُها فلا يُدرَى: هل ريحُ الجنوب أسرى وأسرع أم جنائبُه؛ وتبثُّ مهابتُه أمام سراياه إلى العدا سرايا رُعبٍ تَفُلّ جمعهم، وتسبق إلى التحرّز من بأسه بصرهم وسمعهم؛ وتسفر بكل أفق عن تحتها[(1)] مغيره، أو كتيبة تجعلها لمعالى النصر الكامنة مُثيره.

فلذلك رُسم بالأمر الشريف العالى ـ لا زالت أوامرُه مبسوطةً فى البسيطه، وممالكُه محوطةً بمهابته الشاملة ومعدلته المحيطه ـ أن تفوّض إليه نيابةُ السلطنة الشريفة بالمملكة الحلبيّة: تفويضًا يعوّذها من عيون العدا بآيات عزائمه، ويعوّدها

(١) كذا فى نسختين ولعل الصواب "عن شيعة" الخ.

آجتناءَ ثَمر المُنىٰ والأمْنِ من وَدْقِ صَوارِمِه ؛ وينْظِم دَرَارِىَّ الأسِنَّة من أجْياد حُصُونها فى مَكان القَلائد ، ويجعلُ كُماةَ أعْدائها لخَوْفه أضْعفَ من الوُلْدانِ وأجْبنَ من الوَلائد، ويُجرِّدُ إلىٰ مُجَاوِريها من هِمَّته طلائعَ تحصُرُهم فى الفَضاء المتَّسِع ، وتَسُدُّ عليهم مَجالَ الأرْض الفسيحةِ فيَغْدو لهم حَزْنُها الحَزَن الشَّامِل وسَهْلها السَّهْل المُمْتَنِع .

فليتقلَّدْ هـذه الرتبةَ التى بمِثْلِها تَزْهَى الأجْياد ، وبتَقلُّدِها يَظْهَر حسنُ الانْتِقَاء لجواهر الأوْلياء والانْتِقَاد، وبتَفْويضها إلىٰ مِثْـله يُعلَمُ حسن الارْتياد لمصالح البلاد والعِباد، ولْيَزِدْ جيوشَها المنصورة إرْهابا لعَدُوِّهم، وإرْهافاً لصَوارِمِ الجهاد فى رَواحِهِم وغُدُوِّهم، وإدامةً للنَّفير الذى حَبَّبَه اللهُ إليهم ، وقُوَّةً علىٰ مجاوريهم من أهْل النِّفاق الذين يَحْسَبُون كُلَّ صَيْحةٍ عليهم فإنَّهم فُرْسان الجلاد الذين ألِفُوا الوقائع ، وأسْوار الفُراتِ الذين عُرِفُوا فى الذَّبِّ عن مِلَّتِهـم بحِفْظِ الشَّرائع ، وكَشَّافةُ الكُرَب الذين لا يزالُ لهم فى سائر بلاد العِـدا سرايا وعلىٰ جميع مطـالع ديار الكُفـر طلائع؛ وهم بتَقدمته تتضاعفُ شجاعتُهـم ، وتَزِيدُ آسْتِطاعتُهم وطَاعتُهم ؛ وليأْخُذْهم بمضاعفة الأُهَب وإدامةِ السَّـعْى فى حِفظ البلاد والذَّبِّ ، والتشبُّه بأُسُود الغابات التى هَمُّها فى المَسْلُوب لا السَّلب؛ وليهتَمَّ بكَشْف أحْوال عدوِّ الإسلام ليَبْرح[1] آمنًا علىٰ الأطراف من حَيْفِهم، متيقِّظًا لمَكايدِهم فى رِحْلَتَىْ شتائهم وصَيْفِهم ؛ مُفَاجِئًا لهم فى كلِّ منْزِل بسَيْرٍ يُرَوِّعُ سِرْبَهم ، ويُكَدِّرُ شِرْبَهم ؛ ويجعـلُ رُوحَ كلٍّ منهم من خَوْف قُدُومه نافرةً عن الجَسَد، ويَسْلُبُهم بتَوَقُّع مُفاجآتِه القَرَارَ « ولا قَرَارَ علىٰ زَأْرٍ من الأَسَد » ، ولا تزالُ قُصَّادُه بأسْرار قُـلوب الأعْداء مُناجِيـه [ولا تبرح له من أعيـان عيونه بين العـدا فرقة ناجيـه][2] وليحْتَفِل بتَـدْرِيج الحَـمَامِ التى هى رُسُـل أعِنَّته ،

(١) مراده لِيبقَى على الدوام آمنا الخ إلا أن هذه المـادة لا تؤدى هذا المعنى إلا بسبق النفى . تأمل .

(٢) الزيادة مما يأتى قريبا ليستقيم الكلام .

وإقامة الدَّيادب الذين إذا دَعَوْا هَمْهَمَةً بألسنة النيران لبَّتهم ألسنة أسنَّته ؛ وليُمسِ قلوب أعدائه بوَجَلٍ لِقائه قبل الأجل ، وليَزِدْ في الحزم على ابن مزيد الذي لم يُرَ في الأمن إلا في درع مضاعفة « لا يأمَنُ الدَّهرَ أن يُدْعَى على عَجَل »[1] وليجعل أحوال القلاع المحروسة دائما بمرأًى منه ومَسْمَع ، ويُشيّدها من ملاحظته باحتفالٍ لا يَدَعُ لشائمٍ بَرْقَها وحمول أموالها [مطمعا] فقد استكمل حُسْنَ النظر في مصالحها أجمع ؛ وليُقِم منارَ الشرع الشريف بمعاضدة حُكّامه ، والانقياد إلى أحكامه ، والوقوف مع نقضه وإبرامه :

فَلْيَجْعَلْ حكمَ الشريعةِ المطهَّرة أمامَه وإمامَه ، وليُقِمْ أمرَ الله فيمن اقتاده الشرعُ إلى حكمه بجاذب زمامه ؛ وليُعظِّم حَمَلةَ العِلم الذي أعلى الله منارَه ، وأفاض على الأُمّة أنوارَه ، وحفظ بهم على المِلّة سُنّةَ نبيهم صلى الله عليه وسلم وآثارَه ؛ وليكن لأقدارِهم رافعا ، ولمضارّهم دافعا ، ولأوقافهم بجميل الاحتفال عامرا ، وفي مصالحهم بتحلية الأحوال آمرا ؛ ولينشُر لواءَ العدل الذي أمر اللهُ بنشره ، ويشفعه بالإحسان الذي هو مألوفٌ من سجاياه ومعروفٌ من طَلاقةِ بِشْره ؛ ويمدّ على الرعايا ظلَّ رأفته الذي يُضْفِي في النِّعم لباسَهم ، ويُديمُ إلفهم بالرفاهية واستئناسَهم ؛ ويُقِمْ حُكمَ سياسته على مَن لم يستقِم ، ويقف مع رضا الله تعالى في كلّ أمر : فإذا رحم فلله فليرحم وإذا انتقم فلغير الله لا ينتقم ؛ وليُعْنَ بعمارة البلاد ببسط العدل الذي ما احتمى به مُلْكٌ إلا صانه ، والرفق الذي لم يكن في شيء إلا زانه ، وتَوخِّي الحقّ الذي من جعله نُصْبَ عينيه وفّقه اللهُ له وأعانه . وكذلك أمر الأموال : فإنها ذخيرة المُلْك وعَتادُه ، ومادّةُ الجيش الذي إذا صُرِفَتْ إلى مصالحهم هِمَمُه لم يُخْشَ عليه انقطاعُه ولا

(١) يشير إلى بيت من قصيدة لمسلم بن الوليد يمدح بها يزيد بن مزيد الشيباني وهو :

تراه في الأمن في درع مضاعفة * لا يأمن الدهر أن يدعى على عجل

تَقَادُه ، وجميعُ الوصايا قد أَلِفنا من سِيرَتِه فيها فَوقَ ما نقترح ، وخَبَرْنا من مَقاصِدِه فيها ما يقولُ اللسانُ قلبُها : قد عرفتُ ما أَوْمأْتَ إليه من مَقاصِدِك فَاسْتَرِح ؛ وملاكُها تقوى اللهِ تعالىٰ ورضَانا ؛ وهو المألوف من عَدْلِه وإنْصافه ؛ والله تعالىٰ يُديمها بتأييده وقد فعل ، ويجعله من أركان الإسلام وأعلام المسلمين وقد جَعل ؛ بمنّه وكَرَمه ، والاعتمادُ ... ... إن شاء الله تعالىٰ .

***

وهــذه نسخةُ تقليدٍ شريفٍ بنيابَة حَلَب أيضا ، كُتب بهــا عن السلطان المَلِك النّاصر «محمد بن قلاوون» للأمير شمْس الدّين «قراسُنْقر» باعادته إليها . من إنشاء الشيخ شِهاب الدّين محمود الحلَبى ، وهى :

الحمدُ لله الذى جعل العَواصِمَ بإقامَة فَرْض الجِهَاد فى أيّامنا الشريفة مُعْتَصِمَه ، والثُّغورَ بمــا تفترّ عنه من شَنَبِ النّصر فى دَوْلتنا القاهرة مُبْتَسِمَه ، والصّوارِمَ المُرْهَفة فى أطْرَاف الممالك بأيدى أوليائنا لأرواحِ مَن قَرُب أو بَعُد عنها من الأعداء مُقْتَسِمَه ، والحُصونَ المُصَفَّحة بِصِفَاحنا بأعلام النّصر مُعْلَمَــةً وبسِيَما الظَّفر مُتَّسِمَه ؛ مُعْلِى قَدْرِ مَن أحْسن فى مصالح الإســلام عَمَلا ، ورَافِع ذِكْرِ مَن يبســط إلىٰ عِزّ طاعة الله ورســولِه وطاعَتِنا أمَلا ، ومُجَدِّد سَــعْدِ مَن تَلْبَس الأقلامُ من أوصافه أفْخَر الحُلَل إذا خَلَعَتْ من المحــامد علىٰ أوْصافِه حُلَلا ، ومُفَوِّض زَعامَة الجُيُوش بمواطن الرِّباط فى سبيله إلىٰ مَن إذا فَلَّت مَقاتِلُ العــدا سُيوفَ الجِلادِ كانت عَزَائِمُه من السيوف المُرْهَفَة بَدَلا .

نَحمَــدُه علىٰ نِعَمه التى جعلت طاعَتَنا من آكَدِ أسْباب العُلُوّ ، وخِدْمَتَنا من أنْجح أبوابِ الرِّفْعة بِحَسَبِ المبالَغة فى الخِدْمة والغُلُوّ ، ونِعَمَنا شامِلةً للأولياء بمــا يُرْبِى علىٰ

طَوامِح الآمَال فى البُعْد والدُّنُوِّ ؛ ونشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تُسْتنزلُ بها موادُّ النَّصر والظَّفَر ، وتُسْتجزَلُ بها ذخائرُ التأييد التى كم أَسْفر عنها وَجْهُ سَفَر ، وتُرْهَفُ بهـا سيوف الجهاد التى كم آلفَتْ من آمَن وكَفَّتْ من كَفَر ؛ ونشهد أنَّ محمّدًا عبده ورسولُه الذى أنزل سَكِينَتَه عليـه ، وزُوِيَتْ له الأرضُ فرأىٰ منهـا ما يَبْلُغ مُلْكُ أُمَّته إليه ، وعُرِضتْ عليه كُنوزُ الدُّنيا فأَعْرضَ عمَّا وُضِع من مقاليدها بيدَيْه ؛ صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين رضى الله عنهم ، ونَهَضُوا بمـا أُمِروا به من طاعةِ اللهِ وطاعةِ رسولِه وطاعةِ أُولى الأمْر منهم ؛ صـلاةً دائمةَ الظِّلَال ، آمنةً شَمسُ دَوامِها من الزَّوال ؛ وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

أمَّا بعدُ ، فإن أَوْلىٰ من طُوِّقَتْ أجيادُ الممالك بفرائد أوْصَافه ، وفُوِّقَتْ إلىٰ مَقَاتِل العِدا سِهامُ مَهابَتِه التى تَحُولُ منهم بين كُلِّ قَلْبٍ وشِغَافه ؛ وخُصَّتْ به أُمُّ الثُّغور التى دَرَّ لها حَلَبُها ، ومدّت عليها أفياءَ النَّصر المَمْدودةَ ذَوابِلُها وقُضُبُها ، وأهْدىٰ أَرجَ التَّبلُّج افْترارُها وشَنَبُها ــ مَن تقومُ مَهابَتُه مقامَ الأُلُوف ، وتَجْتَنِي سُمْعتُه من ذَوابِل العزائم ثَمَر النَّصر المَأْلُوف ؛ ويَسْبِقُ خَيالُه سرايا خَيْله التى هى أَسْرىٰ من هُوجِ الرِّياح إلىٰ هَزْم الجُمُوعِ وتَفْريق الصُّفُوف ، وتَنْظِمُ أَسِـنَّةُ رِماحِه فى الوَغَىٰ قلوبَ العدا نَظْمَ السُّطورِ وتَنْثُرُ صِفَاحُه رءُوسَهم نَثْرَ الحُرُوف ؛ وتُحيطُ بنِطَاق الممَـالك المُتَطرِّفَة صَوارِمُه إحاطةَ الأسْوار بالحُصُون ، والحمَائل بالغُصُون ، والهَالاتِ بالأقْمـار ، والجوانحِ بالأسْرار ؛ ولا تَبِيتُ مُلُوكُ العِـدا منه إلَّا علىٰ وَجَل ، ولا يُرىٰ فى الأمْن إلا فى دِرْعٍ مُضَاعَفَة «لا يأْمَنُ الدهرَ أنْ يُدْعَىٰ علىٰ عَجَل» ؛ ولا يَخْفَىٰ عن ألْمَعِيَّته ما يُضْمرُ الأعداءُ من الحركاتِ قبلَ إظْهارها ، ولا يَبْعُد علىٰ عَزَماته ما هى مَلِيَّةٌ به من بَدارِها أعْداءَ الدِّين

بِدَارِها ؛ وإذا جلس لنَشْر المَعْدِلَة تبرّأ الظلم من فكر [ ] البغى والجَوْر على إنسان ، وشَفَع ما تَصَدَّى له من ذلك بمـا أمَر اللهُ به من العَدْل والإحسان .

ولمـا كان الجناب العالى الفُلانى هو الذى مُلِئَتْ قلوبُ العِـدا بُرعْبِه ، وانطَوتْ قلوبُ الرعايا على حُبِّه ؛ وتَهلَّلَتْ وجوهُ المُنىٰ فى سِلْمِه وآستَهلَّت سُحُب المنايا فى حَرْبِه وجمع بين حِدَّةِ البَأْس ولُطْف التُّقىٰ فكان هو الكَمِىّ الذى شَفَع الشَّجاعةَ بالخُضوع لِرَبِّه ؛ وحَاطَ ماوَلِيَه من الأقاليم بسُورَىْ بأسِه وعَدْله فبـات كلُّ أحَدٍ وَادِعًا فى مِهادِه آمنًا فى سِرْبِه ؛ وأغارَتْ سَرايَا مَهابَتِه قبل طُلوع طَلائعه فأصبح كلٌّ من العِدا أسيرَ الذُّعْر قبلَ إمْساكه ـ قتيلَ الخَوْف قبـلَ ضَرْبِه ؛ مع آحْتفال بعمارة البِلادِ ، أعَان السُّحُبَ على رَيِّها ، وآشتمالٍ على مصالح العِباد ، قام فى تَيْسِير أرزاقِهم مقامَ وَسْمِىِّ الغمائم وَوَلْيِها ؛ وتَيَقُّظ لمصالح الثُّغورِ أنامَ عنها عيونَ الخُطوب ، وإشراقٍ فى أُفُقِ المَوَاكب كَسَا وجْهَ الدِّين نُورَ البِشْر ووَجْهَ الكُفْر ظلامَ القُطوب .

وكانت المملكةُ الحَلَبِيّـة عقيلةَ المَعـاقِل ، وعِصْمَةَ العَواصِم ، وواسِـطَةَ عُقود وسِلْكَ فرائد النَّصْر التى كم أضاءَتْ بها إلى الكُفْر وجُوهُ المسالك ، لا تُدْرَكُ فى مِضْمار الفَخَار شَهْباؤُها ، ولا تُرىٰ إلا كما تُرى النجوم فى عيون العِـدا حَصْبَاؤُها ؛ ولهـا من الحُصونِ المَصُونَةِ كلُّ قلعة يتَهَيَّبُ الطَّيْفُ سلوكَ عِقَابِها ، ويتقاصر لَوْحُ الجوّ عن منال عُقَابِها ؛ فهى عَزِيزةُ المَنَالِ ، إلّا على كريم كَفَاءَتِه ، بعيدةُ مَجَال الآمال ، إلا على ما ألِفَت من إيالة كِفايَتِـه ؛ ساميـةُ الأُفُق إلا على شَمْسِه ، نَابيَـةُ الطَّرف إلا على ما عَرَفت من سلوكه فى أمْسِه ، ظَاميَـةُ الغُروس التى أنشأها فى مصالحها إلى ما آعتادَتْه من سُقْيَا غَرْسِه ـ آقتضت آراؤنا الشريفة أنْ تَزِيدَها إشراقًا بشمس

(١) بياض بالأصل .

جَلاله ، واعتلاءً بسَيْفِه الذى رِياضُ الجَنّة تحتَ ظِلاله ؛ وأن نُعيدَ أمْرها إلىٰ مَن طالما حَسن عَدْلُه بُقْعتَها، وحصَّن بأسُه قَلعتَها؛ وأطارت مَهابتُه سُمْعتَها، وأطالتْ سيرتُه سُكُونَ رعاياها فى مِهادِ الأمْن وهَجْعتَها؛ وأعاد وُجودُه أحْوال مُجاورِيها من العِدا إلى العَــدم ، وأبَاد سَيْفُه أرْواح مُعانِدِيهــا : فلو أنكرَتْه أعْناقُهم لم يكن بالعَهْد من قدَم .

فلذلك رُسِم بالأمْر الشَّريفِ ــ لا زالتْ شَمْسُ عَدْله ، مُشْرِقَةً فى الوجود، وغَيْثُ فَضْله ، مستهلًّا الجُود فى التَّهائم والنُّجود ــ أنْ تفوّضَ إليه ... ... تفويضًا يُجَدِّد آرْتِفاعها ، ويُعمِّر وِهادَها وبِقاعَها، ويُؤيِّد آنْدِفاعَ مَضَارِّها وآنْتِفَاعَها؛ ويُعِيدُ الإشْراقَ إلىٰ مَطالِعِها ، والأُمُورَ إلىٰ مواقِعها من سَدَاد التدبيرِ ومَواضِعِها؛ والإقدامَ إلىٰ جُيُوشها وأبْطالها [والشجاعة الى حماتها ورجالها] .

فلْيَطْلُعْ فى أُفُق مَواكِبِها طلوعَ نَعْتِه الكريم؛ ويُجْرِ فى جَوانبِها ما ألِفَتْه من موارد عَدْله الذى فَارقَها غَمامُه وأثَرُ سَيْلِه مُقيم ؛ ويُعاوِدْ مصالحَ تلك المملكةِ التى لا تصلُح أمورُها إلّا عليه ، ويُراجِعْ عِصْمةَ تلك العَقِيلةِ التى لاتطمَحُ أبْصارُ عَواصِمِها إلّا إليه ، ويُلْقِ فى قُلوبِ مُجَاوِرِيها ذلك الرُّعْبَ الذى نَعَىٰ إلىٰ كلٍّ منهم نَفْسَــه وأسْلاه عمّــا فى يَدَيْه ؛ ويُثْبِتْ تلك المهابةَ التى جعلت مَنايا العدا براحَتِه يأمُرها فيهــم وينْهاها ، ويَنْشُرْ فى الرعايا تلك المَعْدلةَ التى هى كالشَّمْس : لا تَبْتَغِى بمــا صَنعتْ مَنْزلةً عندهم ولا جَاها ، ولْتَكُنْ أحْوالَ عدوِّ الإســلام بمرأًى منه علىٰ عادته ومَسْمَع ، ويَكُفَّ أطماعَ الكُفَّار علىٰ قاعدته فلا يحدُثَ لهم إلىٰ شَيْمِ بَرْق الثُّغور مطْمَحٌ ولا فى العــلم بشَنِّها مَطْمَع ؛ وليكنْ من أرصاده، نَهارُ عدوِّ الدِّين ولَيْلُه ، ومن أمْداده، مَجازُ الجهاد حقيقتَه فلا يبرحُ يُبيِّتُهم خَيالُه إذا لم تُصبِّحْهم خَيْلُه ، ولا يبرحُ له من أعْيانِ عُيُونه

بين العدا فرقةٌ ناجيـه ، وطائفـةٌ بأسرار قلوب القوم مناجيـه ، لتكونَ له مقاتلهم على طول الأبد باديه ، وتغدو منازلهم خاويةً بين سراياه الرائحـة والغاديه . وليتعاهَدْ أحوالَ الجيوش بإدامة عَرْضها ، وإقامةِ واجبـاتِ القوّة وفرضها ، وإطالة صيتِ السُّمعةِ المشهورةِ لكُماتها فى طُولِ بلاد العدا وعَرْضها ، وإزاحة أعذارها للرُّكوب ، وإزالةِ عوائقِ آرتيادها للوُثوب ، وإعدادِ العُدَد التى لهـا من أيديهم طلوعٌ و[فى] مقاتل أعدائهم غُروب . وليتفقدْ أحوالَ الحُصونِ المَصُونة بسِدَاد ثُغُورها ، وسَدَاد أُمورها ، وإزاحةِ أعذار رجالهـا ، وإرهاف هِمَم حُماتهـا التى تضيقُ على آمالِ العدا سَعةُ مجالهـا ، وتوفير ذخائرها ، وتعمير بواطنها وظواهرها ، وتحصينِ مسالكها التى يرْهَبُ الخيالُ المتولى إلى العيون سلوكَ محاجرها .

وليُعلِ منـارَ الشّرع الشريف بتشييد مناره وأحكامه ، وتنفيذه لقضايا قُضاته وأحكام حُكّامه ، والوُقوفِ فى كلِّ أمْر مع نَقْضـه فى ذلك وإبرامه ، ورفْع أقدار حَمَلةِ العلْم على ما ألِفوه من الرِّفعـة والسُّموّ فى أيّامه . ولتكُن وطأةُ بأسـه على أهل الفَساد مُشْتَدّه ، وأوامرُه مُتقدّمةً بوضْع الاشـياء فى مواضعها : فلا تُوضع الحِـدّةُ موضعَ الأناةِ ولا الأناة موضع الحِـدّه . وليراع عُهودَ المُوادِعين مهـما آستقاموا ، ويَجمع عليهم إن يَكُفُّوا أناملَ بأْسه التى هم فى قبضتها رَحلُوا أو أقامُوا ، ولتخبر ألسنةُ النيران بشَبِّها على اليَفَاع [والآكام] مَنْ قدم لمكيدة أو طعن بمَطَارِ الحمَامِ - وجميع ما يتعلّق بهـذه المَرْتبة السنية من قواعدَ فإلى سالفِ تدبيره يُنْسب ، ومن سـوابق تقريره وتحريره يُحسَب ؛ فهو آبن بَجْدَتِها ، وفارس نَجْدَتِها ، ومُؤثِّل قواعدها ، ومُوثّر ما حُمِد من آمتداد عَضُدها إلى مصالح الإسلام وساعِدها ؛ فليفعلْ فى ذلك ما يشكره الله والإسلام عليـه ، ويُثبِت الحجّةَ عند الله تعالى فى إلقاء المقاليد إليـه ؛ وملاكُ

الوصايا تقوى الله وهى سَجِيَّة نَفْسه ، وثَمَرة ما اَجْتَنَى فى أيام الحياة من غَرْسه ، ونَشْرُ العَدْل والإحسان فبهما تظهر مَزِيَّة يومه الجميل على أمسه ؛ والله تعالى يجعل نِعَمَه دائمة الاستقبال ، وشمسه آمنة من الغُروب والزَّوال ؛ والاعتماد ... ... :

الطبقة الثانيـــة

(من يكتب له فى قَطْع الثُّلث بـ«المجلس السامى» وفيها وظائف)

الوظيفـــة الأولى

(نيابة القلعة بها)

وهذه نسخةُ مَرْسومٍ شريف بنيابة قَلْعة حَلَب :

الحمدُ لله مُعْلِي قَدْرِ من تحلَّى بالأمانة والصَّوْن ، ورافع مكانةِ من كان فيما عَرَض من العَوارِض نِعْم العَوْن ؛ ومُؤَهِّلِ من أرْشَدَنا إليه لِلاجْتِباء حسنُ الاختبار ، ومُبلِّغ الإيثار من شُكِرتْ عنه محامدُ الآثار .

نحمدُه حمدَ الشّاكرين ، ونَشْكره شكرَ الحامدين ؛ ونشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةَ مُخْلِصٍ فى اعتقاده ، مُبرَّإٍ من افتراء كلِّ جاحدٍ وإلحاده ؛ ونشهد أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أرسله بالحقِّ بشيرًا ونذيرا ، وأيَّده بسُلْطانٍ منه وطَهَّر[به] الأرضَ من دَنَسِ الضَّلالِ تطهيرا ، صلَّى الله عليه وعلى آله وصَحْبه صلاةً لا يزال عَلَم العِلْم بها مَنْشورا ، وسلَّم تسليماً كثيرا .

وبعــدُ ، فإنَّ العِنايةَ بالحُصُون تُوجِب أن لا يُختارَ لهـا إلا من هو مَلِيٌّ بحِفْظها ؛ مُوَفِّر[لهـا] من حُسْن الذَّبِّ غايةَ حَظِّها ؛ حَسَنُ المُرَابَطَه ، مبرَّأٌ من دَنَس الأفعال

السَّاقطه؛ ذو قَلْبٍ [قوىّ] وقَالِب، وعَزْمٍ مازال لمهمات الأمور أشجعَ مُغالِب؛ إذْ هو لِلْرَابِطِين بها أوْثقُ حِرْزٍ حَرِيز، وأصْوَنُ حِجابٍ لِمُبارَزَة ذَوِى التَّبْرِيز؛ [فتصبح به] مستورا عَوارُها، كاتمةً لأسْرَارِها أسْوارُها؛ تخاطبُ مُنازِلِيها من مجانيقها بأبْلغِ لِسان، وتُسافِهُ مُلَاحِيها من أنَفةِ أنْفِها إلا أنه بأعلىٰ مكان .

ولمــا كانت القلعةُ الفلانية بهذه المَنْزِلة الرَّفيعه، والمَكانَةِ التى كلُّ مَكانَةٍ بالنِّسْبة والإضافة إلىٰ عُلُوِّ مكانها المَكانَةُ الوَضِيعَه ـ آخْتَرْنا لهـا وَآبْتَغَيْنا، وَآسْتَوْعَبنا بالتَّأْهِيل لنيابتها ولم نترك فى آسْتِيعَابِنا ولا أبْقَيْنا ؛ فلم نَجِدْ لولايَتِها كُفْأً إلا من نُظِمَتْ عُقود هذا التَّقْليد لتَقْلِيده، ورُتِّلَتْ سُوَرُ هذه المَحامِد بمُبْدِئِ لسان تَقْرِيظه ومُعِيده؛ إذ هو أوْثقُ من يُلْقِىٰ إليــه إقْلِيدُها ، وأكْفأُ مَن يُنْجِزُ به مَوْعُودُها ؛ إذ كان المَكِين ، والثِّقةَ المُتَحَلِّىَ إذ كان التحلِّى ممـا يَزِينُ العاطِلَ المَشِين؛ إن ذُكِر الرَّأْىُ فهو المتَّصِفُ بسَدِيده، أو العَزْمُ فهو الموسُومُ بشَدِيده؛ أو التَّثبُّت فهو من صِفة شَجاعَته، أو حُسْنُ المُظافَرة فهو الباذل فيها جُهْدَ آستطاعته .

ولمــا كانت هذه المناقبُ مَناقِبَه، وهذه المَذاهِبُ مَذاهِبَه؛ رُسِم بالأمر الشَّريف العالى ـ زاده الله مَضَاءً ونَفاذا ، وآسْتِحْواءً وآسْتِحْواذا ـ أن تفوَّض نيابة السَّلْطنة بالقَلْعة الفُلانيَّــة وما هو منسوبٌ إليها من رُبُضٍ ونَواحٍ، وقُرًى وضَواحٍ ، للمجلس السَّامى فُلان .

فلْيَرقَ إلىٰ رُتبتِها المُنِيف قَدْرُها، المُهِمِّ سِرُّها وجَهْرُها؛ ولْيَكُن من أمرِ مصالحها علىٰ بَصِــيرَه ، وَمَن تفَقُّد أحوالهـا علىٰ فِطْنةٍ مازالت منــه مَخْبُورَه ؛ وليأخُذ مُحْرِزَها من الجُنْــد وغيرهم بالمُلازمَة لمــا عُدِق به من الوظائف ، ويتَقَدَّمْ إلىٰ واليهــا مع طَوَّافهــا أوّل طائف؛ وليتفقَّدْ حواصِــلَها من الذَّخائر، وَوَاصِلَها من التَّبْــذِير بمن

يرتّبــه علىٰ حفظها من الأخايرِ، ومهــما عَرِضَ يُسْرِعُ بالمطالعة بأمْرِه، والإعلام بنَفْعه وضَرّه .

هذه نُبْذَةٌ كافيــةٌ للوثُوق بكفايته، والعلم بسَديد كفالته ؛ والله تعـالىٰ يحسن له الإعانَه، ويجزل له الصِّيانَه ؛ والخط الشّريفُ أعْلاه ... ... :

الوظيفـــــة الثانيــــــة

(شدُّ الدَّواوين بحَلَب)

وهذه نسخةُ تَوْقيع بشدِّ الدَّواوين بحَلَب :

الحمدُ لله الذى أرْهفَ فى خدْمة دَوْلَتِنا كلَّ سَيفٍ يُزْهَى النَّصرُ بتَقْليده ، ويُرْوىٰ نَبأُ الفَتْح عن تَجْرِبَته فىٰمصالح الإسلام وتَجْريده، ويَرْوىٰ حَدُّه إذا قابله عَدُوُّ الدِّين من قُلُبِ قَلْبِه ومَوَارِدِ وَرِيده .

نحمدُه علىٰ نِعَمه السابغة حمدَ متعرِّض لمزيده، ونشكره علىٰ مِنَنِه السّائغة شكرَ مستنزلٍ موادَّ تأبيده، ونشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةَ مُقِرٍّ بتَوحِيده، مُسِرٍّ مثل ما يُظْهِرُ من الخضوع لكِبْرِياءِ تَقْديســه وتَمْجيده، مُصِرٍّ علىٰ جهاد من ألحَدَ فى آياته بنَفْسه وجُنُوده ؛ ونشهدُ أنَّ محمدًا عبــدُه ورسولُه أشرفُ من دَعتْ دَعْوتُه الأُمَمَ إلىٰ الاعْتراف بخالقها بعد جُحُوده، وأنجزَ لأُمَّته من الاستيلاء علىٰ الكُفْر سابِقَ وُعُوده، وأمالَ به عَمُودَ الشِّرْك فأهوىٰ إلى الصَّعيد بعد صُعُوده ؛ صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين ما منهم إلا من بَذَل فى طاعة الله وطاعته نهايةَ مَجْهوده، وأطْفأ نارَ الكُفْرِ بعد وُقُودها بإيقَادِ لَهَبِ الجهاد بعــد خُمُوده ؛ صــلاةً تقترن بركوع الفَرْض وسُجُوده، وتُقامُ أركانُها فى أغوارِ الوجود ونُجُوده ؛ وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

وبعدُ ، فإنَّ أَوْلىٰ ما أَجْمَلْنا فى مصالحة النَّظَر ، وأَعْمَلْنا فى ٱرتياد الأَكْفاء له بوادر الفِكَر ؛ وٱخْتَرْنا له من الأَوْلياء من كان مَعْدودا من خَواصِّنا ، مَحْبُوًّا بمَزِيد تَقْرِيبنا ومَزِيَّة ٱخْتِصاصِنا ، أَمْرُ الأَمْوال الدِّيوانيَّه بالمملكة الحَلَبيَّه وتَفْوِيضُ شَدِّ دواوينها المعمورةِ إلىٰ من تُضَاعِفُها رتْبَتُه المَكِينَه ، ونَزَاهَتُه المَتِينَه ؛ ويده التى هى بكمال العفَّة مبسوطه ، وخِبْرَتُه التى بمثلها يحسُنُ أن تكونَ مصالحُ الدولةِ القاهرةِ منُوطَه ؛ ومَنزلَتُه التى تَكُفُّ عن الأَمْوال الأَطْماعَ العَادِيَه ، ومَهابَتُه التى تكفى الأَوْلياءَ من ضَبْط الأعمال بما يَرْوِى الآمالَ الصَّادِيَه ؛ لأَنَّها موادُّ الثُّغور التى ما بَرِحَت عن شَنَبِ النَّصر مُفْتَرَّه ، وأَمْدادُ الجيوشِ التى جعل الله لها أَبدًا علىٰ أَعْدائه الكَرَّه ؛ ورِيَاضُ الجهادِ التى تُجْتَنَىٰ منها ثمراتُ الظَّفَر الغَضَّه ، وكُنوزُ المُلْك التى يُنْفَقُ منها فى سبيل الله القَناطِيرَ المُقَنْطَرةَ من الذَّهب والفِضَّه .

ولما كان فلانٌ هو الذى ٱخترناه لذٰلك علىٰ عِلْم ، ورجَّحْناه لما ٱجتمع فيه من سُرْعَةِ يَقَظَةٍ وأَنَاةِ حِلْم ؛ ونَدَبْناه فى مُهِمَّاتنا الشريفةِ فكان فى كلِّ موْطِنٍ منها سَيْفا مُرْهَفا ، وٱخْتَرناه فكان فى كلِّ ما عَدَقْناه به بين القَوِىِّ والضَّعيف مُنْصِفا ؛ وعَلِمْنا من معرفته ما يَسْتَثِيرُ الأَموال من مَكَامِنِها ، ومن نَزَاهَتِه ما يُظْهِرُ أَشْتات(؟)المصالح من مَعادِنِها ، ومن مَعْدِلَتِه ما يمتِّع الرعايا بٱجْتِناء ثَمَر المُنَىٰ من إحسان دولتنا القاهرة وٱجتلاء مَحاسنها ــ ٱقتضت آراؤُنا الشريفةُ أن نُحَلِّيَ جِيدَ تلك الرتبة بعُقُود صفاته الحَسَنَه ، وأن نُنَبِّهَ علىٰ حُسْن هِمَمه التى ما برحت تَسْرِي إلىٰ مصالح الدولة القاهرة والعيونُ وَسِنَه .

فلذٰلك رُسِم أن يُفوَّض إليه ذلك تَفْوِيضًا يبسُطُ فى مصالح الأموال لِسَانه ويَدَه ، ويَقْصُرُ علىٰ مضاعفة ٱرتفاع الأعْمال يوْمَه الحاضرَ وغَدَه ، ويُحسِّنُ بسدّ ٱلخَلَل

وتتبع الإهمال مصدره الجميل ومورده ؛ ويجعل [له] فى مصالحها العقد والحل ، والتصرف النافذ فى كل مادق من الأموال الديوانية وجل .

فليباشر ذلك بهمة علمنا فى الحق مواقع سيفها، وأمنا على الرعايا بما اتصفت به من العدل والمعرفة من مواقع حتفها، وأيقظت العيون الطامحة لسلوك ما[لا] يجب بما لم تزل تتخيله من روائع طيفها؛ وليثمر الأموال بالجمع فى تحصيلها بين الرغبة والرهبة، ويحمل مايستخرج منها ببركة العفة والرفق: ﴿كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة﴾. وليعف أثر الحمايات ورسمها، ويزل بالكلية عن تلك الممالك الحسنة وسمها القبيح واسمها ؛ وليكن مهم الثغور هو المهم المقدم لديه ، والنظر فى كلف القلاع المحروسة هو الفرض المتعين أداؤه عليه ، فيحمل إليها من الأموال والغلال ما يعم حواصلها المصونه ، ويكفى رجالها الفكر فى المئونه ؛ ويضاعف ذخائرها التى تعد من أسباب تحصينها ، ويصبح به حمل عامها الواحد كفاية مايستقبله مع موالاة الحمول من سنينها ؛ وماعدا ذلك من الوصايا فقد ألقينا إلى سمعه ما [عليه] يعتمد، وعرفناه أن تقوى الله أوفى مابه يستبد وإليه يستند؛ بعد الخط الشريف :

الصنف الثانى

(من أرباب الوظائف بحلب ـ أرباب الوظائف الدينية)

وهم على طبقتين أيضا :

الطبقة الأولى

(من يكتب له فى قطع الثلث بـ«السامى» بالياء ، وتشتمل على وظائف)

منها ـ قضاء القضاة . وبها أربعة قضاة : من كل مذهب قاض ، كما فى الديار المصرية والشام . والشافعى منهم هو الذى يولى بالبلاد كما فى مصر والشام .

وهذه نسخةُ توقيع بقضاء قُضاة الشّافعية :

الحمد لله الذى رفع منارَ الشَّرع الشريف وأقامَه، ونَوّر به كلَّ ظلامٍ وأزالَ به كلَّ ظُلامَه، وجعله صِراطًا سَويًّا للإسلامِ والسَّلامه؛ الذى جعل القَضَاة أعْلامًا، بهم يُهتَدىٰ، ونَصَبهم حُكّاما، بمراشدهم يقتاد ويُقتَدىٰ، وأَخذَ بهم الحقَّ من الباطل حتّى لا يُعتَلّ فى قَضِيَّةٍ ولا يُعتَدىٰ؛ والصّلاة علىٰ سيدنا محمد الذى أوضح اللهُ به الطَّريق، وأبدىٰ به بين الحلال والحرام التّفريق، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصحْبه صلاةً تتكفل لرغَبَاتِ قائلها بالتّحْقيق.

وبعدُ، فإنّ أحقَّ ما وَجّهت الهِمَمُ إلىٰ تصريفه وجْهًا مُسْفِرا، وقربتْ[1] إلىٰ يدِ الاقتطاف من شجرته المباركة غُصْنا مُثْمِرا، وسَهّدت فى الاختيار له والاصطفاء لَحْظًا ما زال للفِكْر فى مصالح الأُمّة مُسْهِرا ــ الشرعُ الشريفُ الذى حرس اللهُ به حَوْمَةَ الدِّينِ وحَمىٰ جانبَه، وحَفظ به أقوالَ الهُدَى عن المجادلة من المُبْتَدعين وأطْرافَه من المجاذَبَه؛ وكانت حِراسَتُه معدُوقةً باختيار الأئمّة الأعْلام، وموقوفةً علىٰ كلِّ مَنْ يُطاعِنُ البِدَعَ عند الاستفتاء برِماحِ الخَطِّ وليست رماحُ الخطِّ غيرَ الأقلام؛ ومُصَرَّفةً إلىٰ كلِّ مُنصِفٍ فى قضاياه حتَّى لو ترافعت إليه اللّيالى لأنْصفها من الأيّام.

ولمّا كان فلانٌ هو مَدْلولَ هذه العبارَه، ومُرتَمىٰ هذه المشارَه، ومُرتَمَق هذه الإشارَه؛ وقد حَلَّ من المَدائح فى محل صَعْبِ المُرْتَقىٰ علىٰ مُتَوَقّله، وطَلع من منازل سعودها فى بُرُوجٍ بعيدَةِ الأوْجِ إلا علىٰ سَيْرِ بَدْرِه وتَنَقُّله؛ وطالما حَكَمَ فأحْكم؛ وفَصَل ففَصَّل؛ ورُوجِعَ فما رَجَع وعَدَل فعدَّل؛ وشهدت مراتبُه الشريفةُ بأنّه خيرُ من تَتَولّها ميراثا واستحقاقا، وأجَلُّ مَن كادت تَزْهُو به مَطَالِعُ النجوم إشْراقًا وإشراقا؛ وكانت حَلَبُ المحروسةُ مركزَ دائرة لأيّامه، وسِلكَ جوهرِ تصريفه الذى

(١) فى الأصل «وصلت» ولم نفهم له معنى يناسب .

طالما تقلدت أحسنَ العقود بنظامه، وقد افتخرتْ به افتخارَ السماءِ بشَمْسِها، والرَّوْضةِ بغَرْسِها، والأفهامِ بإدْراكِ حِسِّها، والأيَّام بما عَمِلَتْه من خَيرٍ في يومها وأسْلفته في أمسِها، وقد اشتاقتْ إلىٰ قربه شَوْقَ النَّفس إلىٰ تردّد النَّفَس، واللَّيلة إلىٰ طلوع النَّجم أولًا فإلىٰ إضاءةِ القَبَس .

فلذلك خرج الأمرُ الشَّريفُ بأن يُجَدّد له هذا التوقيعُ بالحكم والقضاء، بالمملكة الحلَبيَّة وأعمالها وبلادها، علىٰ عادته .

فلْيَستَخِرِ اللهَ تعالىٰ ولْيَستصْحِبْ من الأحكام ما هِمَّتُه مَلِيَّةٌ باسْتِصْحابِه، ويَستوعِبْ من أُمورها ما تتوضح المصالحُ باسْتِيعَابِه، ويُقِمْ بها مَنارَ العَدلِ والإحسان، وينْهَضْ بتدبيرِ ما أقْعدَه منها زَمانَةُ الزَّمان . وعنده من الوصايا المباركه، ما يَستَغْنِي به عن المُساهَمة فيها والمُشارَكه، لكن الذِّكْرَى النافعةُ عند مِثْلِه نَافِقه، فإن لم يكن شُعاعُ هِلالٍ فبَارِقَه، وليتَّقِ الله ما استطاع، ويُحْسِنْ عن أموال اليتامَى الدِّفاع، ويحرُسْ مَوْجودَ من غاب غَيْبَةً يجب حِفْظُ ماله فيها شرعا، ويقطَعْ سَبَبَ من رام لأسباب الحقِّ قَطْعا، ولا يراعِ لحائفٍ حُرْمَةً فإنَّ حُرمات الحائفين لا تُرْعىٰ، وينْظُرْ في الأوقاف نَظَرا يحرُسُها ويَصُونُها، ويبحثْ عنها بَحْثًا يَظْهرُ به كَمِينُها، والله تعالىٰ يسدِّدُه في أحْكامه بمنه وكرمه !

قلتُ : وعلىٰ ذلك تُكْتَبُ تواقيع بقية القُضاة بها من المذاهب الثلاثة الباقية .

ومنها – وَكالةُ بيْت المال المعمور .

وهذه نسخة تَوْقيع من ذلك، كُتب بها لمن لقبه «كمال الدِّين» وهي :

الحمدُ لله الذي جعل كمالَ الدِّين موجودا، في اقتران العِلْم بالعَمَل، وصلاحَ بَيْتِ المال مَعْهودا، في استناده إلىٰ مَن ليس له غيرَ رِضَا الله تعالىٰ وبراءَةِ الذِّمة أمَل،

وارْتقاءَ رُتَبِ المتّقين مقصورًا على من بارتقاءِ مثْلِه من أئمّة الأمّة تَزْهى مناصبُ الدُّول، والاكتفاءَ بالعلماءِ مَحْصُورًا فى الآراء المَعْصُومة بتوفيق الله من الخَلَل .

نحمَدُه على نِعَمه التى جعلت مُهِمَّ مصالح الإسلام، مُقَدَّمًا لدينا، واختصاصَ المَرَاتِب الدِّينية بالأئمّة الأعْلام، مُحَبَّبًا إلينا ؛ ونشهدُ أن لا إله إلّا اللهُ وحده لاشريك له شهادةً رَفَع الجهادُ عَلَمها، وأمضى الاجتهاد كَلِمَها؛ ونشهدُ أنّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أشْرقتْ سماء مِلّتِه، من علماءِ أُمّته، بأضْوإ الأهلَّة، ونطقتْ أحْكام شِرْعَتِه، على ألسِنَة حَمَلَةِ سنّته، بأوْضحِ الأدلَّة ، و بزغتْ شمسُ هدايَتِه فى تَهائِم الوَجود ونُجُوده فانطوت بها ظُلَمُ الأهواءِ المُضِلَّة ؛ صلى الله عليه وعلى آله وصَحْبِه الذين نصحوا لله ولرسوله ، وآثروا رضاه على نفوسهم فلم يكنْ لهم مُرادٌ سوى مَراده ولا سُولٌ غير سُولِه ؛ وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

وبعدُ ، فإنّ أولى من تَلَقّاه كَرُمنا بوَجْه إقباله ، واختارتْ له آلاؤنا من الرُّتَبِ ما صدّه الإجمال فى الطَّلب عن تعلُّقه ببَالِه ؛ ورأى إحسانُنا مكانَه من العِلْم والعَمَل فعَدَق به من مَصالِح المسلمين مالم يتركه أوّلًا إلّا موافقةً له لا رَغْبةً عن خَياله ، ورَعى بِرُّنا وِفادَتَه فاقتضى إعادته من مَناصِبِه إلى مالم يَزَلْ مُشْرِقَ الأُفُق بكمال طَلْعته وطَلْعة كماله ـــ مَن ظهرتْ لَوامِعُ فوائده ، وبهرتْ بدائعُ فرائده؛ وتدفَّقتْ بحارُ فَضائِله، وتألَّقتْ أشعّة دلائله ، وتنوّعتْ فُنُونه : فهو فى كلِّ عِلْمٍ ابنُ بَجْدَتِه ، وفارسُ نَجْدَته ، وحامِل رايَتِه ، وجَوادُ مضماره الذى تَقِفُ جيادُ الأفْكار دُون غايَته .

ولمّا كان فلانٌ هو هذا البحرَ الذى أُشير إلى تدفُّقه ، والبدْرَ الذى أُومِئَ إلى كمال ما تألّق به من أُفُقه؛ وكانت وكالَة بيْت المال المعمورِ بحلَب المحروسة من المناصب التى لايتعيّنُ لها إلا من تُعْقَدُ الخناصر عليه ، ويُشارُ ببنَان الاختصاص إليه ، ويُقْطَعُ

بجميل نُهوضِـه فيما يُوضَع من المصالح الإسـلامية بيدَيْه ؛ وله فى مباشرتها سَوابِق ، وآثارٌ [إن] لم تَصِفْها ألْسِنَةُ الأقْلام أوْحتْ بها تلك الأحْوالُ الحاليةُ وهى نَواطِق ــ اقتضتْ آراؤُنا الشريفــةُ إنْعام النَّظَر فى الإنعام عليـه بمكانٍ ألِفَه ، ومَنْصِبٍ رَفَع ما أسْلفه فيه من جميل السِّيرة قدرَه عندنا وأزْلَفَه .

فرسم بالأمر الشريف ــ لازال بَابُه ثِمالَ الآمال ، وأُفُق السَّعْد الذى لو أمَّهُ البَدْرُ لَمــا فارق رُتَبَ الكمال ــ أنْ يفوّضَ إليه كذا : لمــا ذكر من أسْبابِ عَيَّنَتْه ، وفضائِلَ تَزيَّنتْ به كما زَيَّنَتْه ؛ ووفادةٍ تقاضَتْ له نُزُلَ الكرمِ ، واقتضتْ له مواد الإحسان وموارِدَه فى السُّرَىٰ والإقامة .

فلْيَلِ هذه الرتبــةَ التى علىٰ مِثْله من الأئِمَّة مَدَارُ أمْرِها ، وبمِثْل قُوَّته فى مصالحها يَتضاعَفُ دَرُّ احْتِلابِهـا ويترادفُ احتـلاب دَرِّها ؛ مُراعِيًا حقوقَ الأُمَّة فيما جرّه الإرْثُ الشرعىّ إليهم ، مُناقِشًا عن المسلمين فيما قَصَره مذْهَبُه المُذْهَبُ من الحقوق المَـالِيَّة عليهــم ؛ وَاقِفًا بالحقِّ فيما يثْبُت بطَرِيقِه المُعْتَبر ، تابِعًا لحكْمِ اللهِ فيما يختلف سبيله [و]فيما يحرز بالعيان أو يُحقَّق بالخَبَر ، مُحافِظًا علىٰ مايئُول إلىٰ بيْتِ المال بلُطْفِ تَدْقِيقه ، وحُسْن تَحْقِيقه ، وقَبولِ الدَّافِع بوجْهِه ودَفْعِـه بطَرِيقِه ؛ ولا يَمْنَعُ الحقَّ إذا ثبت بشروطه التى أعذر فيها ، ولا يَدْفَع الواجب إذا تعيَّن بأسْبابِه التى يتقاضاها الشَّرْعُ الشَّرِيفُ ويقتضيهـا ؛ وهو الوكِيل عن الأُمَّة فيما لهم وعليهــم ، ومتولِّى المدافَعــة عنهم فيما يُقِرُّه الشرعُ فى يَدَيْهِم ؛ فلْيُؤدِّ عنهم أمانَةَ دِينِـه ، ويجْتهِدْ لهم فيما وضعناه من أمْرِ هذه الوكالة الشريفة بيَمِينه ؛ ومِلاكُ هذا الأمرِ الوقوفُ مع الحقِّ الجلِىّ ، والتمسُّكُ بالتَّقوى التى تظهر بها قُوَّةُ الأمين وأمانةُ القَوِىّ ؛ والله تعالىٰ يوفِّقه ويسـدِّده .

قلتُ : وفى معنىٰ ما تقدّم من قَطْع الورق والألقاب الحسبةُ ، ونظرُ الأوقاف بالحجاز، وخَطابةُ الجوامع الجليلة، وكِبارُ التّداريس، وما يجرى مجرىٰ ذلك : إذا كُتب به من الأبواب السّلطانية . وإلّا فالغالبُ كتابةُ ذلك بجميعه عن نائب السّلْطنة بها .

الطبقة الثانية

(من يكتب له فى قَطْع العادة «بالسامى» بغير ياء، أو «بمجلس القاضى»)

قال فى "التثقيف": وهم مَن عَدا القضاة الأربعة من [أرباب] الوظائف الدينية . فيدخلُ فى ذلك قَضاءُ العَسْكر، وإفتاءُ دار العَدْل ، وما يجرى مجرىٰ ذلك ، حيثُ كُتب من الأبواب السلطانية .

الصنف الثالث

(من أرباب الوظائف بحَلَب ــ أرباب الوظائف الديوانية، وهم علىٰ طبقتين)

الطبقة الأولىٰ

(من يكتب له فى قطع الثلث بـ«السامى» بالياء . وتشتمل علىٰ وظائف)

منها ــ كتابة السرّ . ويعبّر عنها فى ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية ــ بصاحب ديوان المُكاتَبات، ورُبّما قيل : صاحبُ ديوان الرسائل . قال فى "التثقيف" . ورُبّما كُتب له فى قَطْع النّصف .

وهذه نسخة توقيع شريف من ذلك، وهى :

الحمـدُ لله الذى زان الدَّوْلةَ القاهرةَ، بمَن تغدُو أسرارُها من أمانتِه فى قرارٍ مَكين، وحلَّىٰ أيَّامنا الزاهرةَ، بمن تَبْدُو مَراسِمُها من بلاغته فى عِقْد ثمين، وجمَّل الكُتب السائرة، بمَن إذا وَشَّتْها بَراعتُه وبَراعتُه قيل : هذا هو السِّحْر البيانيُّ إن لم يكن سِحْرٌ مبين .

نحمَدُه علىٰ نِعَمِه التى خصَّت الأسْرار الشريفة بمن لم يَرِثْها عن كَلالَه، ونَصَّتْ فى تَرقِّى مناصب التَّنفيذ علىٰ من يَستَحِقُّها بأصالَة الرَّأْى وقِدَمِ الأصَاله؛ ونشهدُ أنْ لا إلٰه إلا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةً رَقَمَ الإخْلاصُ طُروسَها، وسَقَى الإيمانُ غُروسَها؛ ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى آتاه جَوامِعَ الكَلِم، ولَوامِعَ الهُدىٰ والحِكَم؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبِه الذين كَتَبَ فى قلوبهم الإيمانَ، وكَبَتَ بهم أهلَ الطُّغيان؛ صلاةً يشْفَعُها التَّسليم، ويتْبَعُها التَّعظيم؛ وسلَّم تسليمًا كثيرا .

وبعدُ، فإنَّ أوْلىٰ الرُّتب بارتيادِ مَن تُعْقَدُ علىٰ أوْلَوِيَّتِه الخَناصر، ويُعْتمدُ علىٰ أصالَته التى ما بَرِحَتْ فى الاتِّصال والاتِّصاف بها ثابِتَةَ الأواصر؛ ويعتَقَدُ فى أمانَته التى تأْوى بها الأسْرارُ إلىٰ «صخْرةٍ أعيا الرِّجالَ انْصِداعُها» ويعتَضَدُ بفضائله التى يَقلُّ فى كثيرٍ من الأكْفاء اجْتماعُها؛ ويعوِّلُ فيها علىٰ بَلاغَته، التى أعْطتْ كلَّ مقامٍ حقَّه من الإطْنابِ والإيجاز، ويرجِعُ فيها إلىٰ بَديهَتِه، التى جَرَتْ بها سوابِقُ المعالى إلىٰ غاية الحَقِيقَة فى مِضْمار المَجاز ــ رُتْبَةٌ هى خِزانةُ سِرِّنا، وكِنَانَةُ نَهْيِنا وأمْرِنا؛ فلا يتعيَّنُ لبلوغها إلَّا مَن ومَن، ولا يعين لتَلقِّيها وترقِّيها إلَّا أفراد قلَّ أنْ يكثُرَ مثلُهم فى زَمَن؛ ولا يَحْسُنُ أنْ تكونَ إلَّا فى بَيْتٍ عريقٍ فى أنْسابها، وَثيقٍ فى تَمكُّنِ عُرَا أسْبابها، علمٍ بقواعدها التى إذا اشْتبهت طُرُقُ آدابها كان أدْرَىٰ بها .

ولما كان فلانٌ هو الذى ذُكِرتْ أسباب تعيُّنه لهذه الرُّتبة وتعيينه ، وفُتِحتْ أبواب أولويّته بتلقّى راية هذا المنصب بيمينه ؛ مع أدواتٍ كمَّلتْ مفاخره ، وصفاتٍ جمَّلت مآثره ؛ وكتابة ، إذا جادت أنواؤُها أرضَ طِرْسٍ أخذت زُخْرُفها ، وإذا حاذَتْ أنوارُها وجهَ سماءٍ ودّت الدَّرارىُّ لو حكتْ أحْرُفها ؛ وبلاغةٍ ، إن أطْرتْ بوصْفٍ أغارت الفرائد ، وأعارت دُرَرَها القلائد ، وأتت من رقّة المعانى بما هو أحسنُ من دُموعِ التَّصابى فى خُدودِ الخرائد ؛ وإن أغرتْ بعدُوٍّ أعانتْ علىٰ مقاتِله السُّيوف ، ودلّتْ علىٰ مكامِنه الحُتوف ؛ وديانةٍ ، رفعته عند الله وعندنا إلىٰ المكان الأسنىٰ ؛ وصيانةٍ ، جمعتْ له من آلائنا وآعتنائنا بين الزِّيادة والحُسنىٰ ؛ وأمانةٍ ، أغنته بجوهر وصفِها الأعلىٰ عن التعرُّض إلى العرَض الأدنىٰ ؛ وبراعةٍ ، آعتضد بها يراعُه فى بُلُوغ المقاصد آعتضادَ الرَّقيص بالمَغنىٰ .

فلذلك رُسِم بالأمر الشَّريف أن يفوّض إليه كذا فليُبْشِرْ بتلقّى هذا الإحسان ، بيد الآستحقاق ، وليتلقَّ عقودَ هذا الآمتنان ، الذى طالما قلّد نحْرَه الأعناق ؛ وليُباشر ذلك مباشرةً يسرُّ خُبرُها ويَسرى خبَرُها ، ويشنّف الأسماعَ تأثيرُها وأثرُها ؛ وليسلُكْ فيها من السَّداد ، ما يؤكّد حمْدَه ، ومن حسن الآعتماد ، ما يؤيّد سعْدَه ؛ والوصايا كثيرةٌ وهو بها خبيرٌ عليم ، حائزٌ منها أوفرَ الأجزاء وأوفى التَّقْسيم[1] ؛ وملاكُها تقوَى الله فليجْعلْها عُمدَته ، وليتّخذْها فى كلّ الأمور ذخيرته ؛ والله تعالىٰ يضاعفُ له من لدُنّا إحسانا ، ويرفع له قدْراً وشانا ؛ والآعتماد فى ذلك علىٰ الخطّ الشَّريف . أعلاه الله تعالىٰ أعلاه .

ومنها ــ نظر المملكة الحلبيّة القائم مقام الوزير .

---

(١) فى الاصل : وأوفى التقصير ، ولا معنى له .

*
* *

وهــذه نسخةُ توقيعٍ من ذلك : كُتِب به لعماد الدّين « سعيد بن ريان » بالعَوْد إليها ، وهى :

الحمدُ لله رافعِ قَدْرِ مَن جعل عليه آعتمادا ، ومُجَدِّدِ سَعدِ مَن غدا فى كُلِّ ما يُعْدَقُ به من قواعد النَّظرِ الحَسَن عِمادًا ، ومُسَنِّى حَمْدِ مَن نكَفَّل له جميلُ التَّصرُّف أن لا تُبْعِدَ الأيامُ عليــه مُرادا ، ومُجزِلِ مَوادِّ النِّعم لمَن إذا آستمْطر قَلمــه فى المصالح همىٰ فافتَنّ أفنانًا وأينع تَمْيرًا وأثمر سَدادا ، وإذا أيْقظ نظَرَه فى مُلاحظَة الأعمال آستجلىٰ وجُوهَ المصالح آنتقاءً لِمـا خَفِى منها وآنتِقادا .

نحمَدُه علىٰ نِعَمِه التى لا تزالُ النِّعمُ بها مُجَدَّدَة ، والقواعدُ مُوَطَّدة ، والكرمُ مُعادا ؛ وآلائه التى جعل لهـ الشُّـكرُ آزديادا علىٰ الأبَدِ وآزديادا ؛ ومِنَنِه التى لا يقومُ بهـا ولا بأداءِ فَرْضها الحمْــدُ ولو أنّ ما فى الأرض منْ شجَرةٍ أقلامٌ أو كان البَحْرُ مِدَادا ؛ ونشهدُ أن لا إله إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهـادةً لا تألُو هِمَمُنا آجتهادا فى إعْلاءِ منارِها وجِهادا ، ولا تَكْبُو جيادُ عَزائِمِنا ، دُون أنْ تُسكِنَها من الجاحدين قُلوبًا وتُجرِىَ بها من المنكِرينَ ألْسِنَةً وتُقَلِّدَها من المشركين أجيادا ، ولا تَنْبُو صَوارِمُنا ، حتّى تتّخِذَ لهـا من وَرِيدِ كلِّ مُعانِدٍ مَوْرِدًا ومن قِمِ كلِّ ناكِثٍ أغْمادا ؛ ونشهدُ أنّ محمّدًا عبــدُه ورسوله الذى أسرى اللهُ به إليه فبَلغ فى الآرتقاء سَــبْعا شِدَادا ، وأنزل عليه أشرفَ كُتُبِه بيانًا وأعْجَزِها آيةً وأوْضحِها إرْشادا ، وبعثَه إلىٰ الأحْمر والأسْـوَد فسَعِد من سَعِد به إيمَـانًا وشَقِىَ من شَقِىَ به عِنادا ؛ صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين لم يألُفُوا فى طاعة الله وطاعتــه مِهادا ، صلاةً لا تستطيعُ لهـا الدُّهور نَفَادا ، ولا تَمَلُّها الأسْماعُ تَعْدادًا وتَرْدادا ؛ وسلَّم تسليمًا كثيرا .

وبعـد، فإن أولى من سَمَا به منصبُه الذى عُرِف به قديما، وزُهِيَتْ به رتبته، التى لم يزل فيها لاقتناء الشكر مُستديما ؛ وتحلَّتْ به وظيفته، التى لم يبرح يلبس بها ثوب الثناء قشيباً ويجرّ بها رداءَ السَّعد رقيما، وتقاضتْ له عوارفنا معارفَه التى لم يزل عقدُها فى جيدِ المراتب السَّنيَّة نَظيما ؛ وتطلَّع إليـه مكانُه فكأنَّه بقدَم هجرته لم يبرح فيه وإن بعُدَ عنه مُقيما ـ من لم يزَلْ قلمُه بصَرْفه فى أسنَىٰ ممالكنا الشَّريفـة كاسْمِه سَعيدا، وطَرْف نَظرِه فيما يَليـه من المناصب السَّنيَّة يريه من المصالح ما كان غائبـا ويُدْنِى إليـه من أسباب التَّدبير ما كان بعيدا ؛ فمـا أعْمل فى مصالح الدولَة القاهرة قلمَـا إلا وأقبلتْ نحوَه وجوهُ الأموال سافرَه ، ولا لحَظَ فى مُهمَّات وظائفها أمْرًا إلَّا وعاودَتْه أسْـبابُ التَّثمير النافرَه ، ولا اعترضَ[1] قلمُـه بنُطْقه وفكْره إلَّا وعَدَت الثلاثةُ علىٰ كلّ مافيه عِمارةٌ ما يُفوَّضُ إليه من الأعمال مُتَضافرَه ؛ وذلك لمَـا اجتمع فيـه من عِفَّة نَفْسه وكمال معرفته وطهارة يرَاعه ، واتَّصفَ به من حسن اضطلاعه وجميـل اطِّلاعه ، وجُبِلَتْ عليه طباعُه من نَزاهَةٍ زانت خِبْرته ومَنٍّ يُنقَلُ مشكورا عن طباعه .

ولمـا كان فلانٌ هو الذى حَنَّت إليـه رُتبته وتَلَفَّت إليه مَنْصبُه ودَعتْه وظيفتُه النَّفيسـةُ إلىٰ نَفْسها ، واعتذَرتْ بإقبالها إليه فى يَومها عن نُشوزها عنه فى أمسها ، واشتاقتْ إلى التَّحلِّى بفضائله التى لم تزلْ تُزهَىٰ بما ألِفَته منها علىٰ نُظَرائها من جنسها ـ اقتضتْ آراؤُنا الشريفةُ أن نُجمِّل لها عادتها ونُجدِّدَ له من الإحسان بمباشرتها السَّعيدة إعادتَه، ونُعيدَ إليه بمباشرة نَظرِه الجميل مَسرَّته التى ألِفَها وسعادتَه .

فلذلك رسم ... ـ لا زال برُّه لعماد الدِّين رافعا، وأمْره بالإحسان شافعا ـ أن يفوَّض إليه نظر المملكة الحلبيَّة علىٰ عادة من تقدّمه .

---

(١) لعله : "اعتضد" .

فليباشرْ هذه المملكةَ التى هى من أشهر ممالكِنا سُمْعَة ، وأيْمنها بُقْعَة ، وأحْسَنها بلادا ، وأخْصبها رُبًا ووِهَادًا ، وأكْثرها حُصونا شَواهِق ، وقلاعًا [سوامى](١) سوامق ، وثُغورًا لا تَشِيمُ ما افْترَّ منها البروقُ الخوافِق ؛ مباشَرةً تزيد مصالحَها على ما عَرفْته ، وتُريها من خِبْرته فوق ما ألِفتْه ؛ وتدلُّ على مافيه من كفاءة هذَّبَتْها التَّجارِب ، وهدَتْها الأنوارُ الثَّواقِب ، وصرفَتْها الأفكارُ المطَّلِعة على الطوالع من المغارب ، وسدَّدها إلى الأغراضِ الجميلةِ الخُلوُّ من الأغْراض ، ووقَّفها على جواهر الصَّواب عدمُ اعتراض النَّظر إلى الأعْراض ؛ وأراها التَّوفيقُ ما تأتَّى من وجوه التدبير وما تَذَر ، وعَرَّفتْها المعرفةُ الاحتراسَ من مخالفة الصَّواب فما تزالُ من ذلك على حَذَر ، وفَتَحتْ لها الدُّرْبةُ أبوابَ التَّثمير فما لحظت أمْرًا من الأمور الديوانية إلا وبدت البِدَر ؛ ولتكن النعم المصونةُ المقدَّم لديه ، والنظرُ فى مصالح القِلاَع المحروسةِ هو الغَرَضَ المنْصُوصَ عليه ؛ فلْيُضاعف ذخائرها ، ويتفقَّدْ مواردَ أمورِها ومَصادِرَها ؛ وفى مَعْرِفَتِه بقواعد هذه الوظيفة ما يُغْنى عن الوصايا ، لكن ملاكُها تقوى الله ، فلْيجْعَلْها نَجِىَّ نَفْسه ، وسمير أُنْسه ؛ والخط الشريف ... ...

***

ومنها — نظر الجيش بها .

وهذه نسخة توْقِيع بنظر الجَيْش بالمملكة الحَلَبِيَّة ، وهى :

الحمدُ لله الذى جعل أُفُقَ السعادة بطلوع شَمْسه مُنيرا ، وأقرَّ فى رُتَبِ العَلْياء مَن يغْدُو ناظِرُها بحسْنِ نَظَره قَرِيرا ، وحلَّى مفَارِقَ المناصب السَّنِيَّة بصَدْرٍ إذا تعالَى

(١) الزيادة مما يأتى بعد نحو عشر صفحات .

اللسانُ فى وَصْفه كان بَنانُ البيانِ إليه مُشيرا ، وآختار لأمصار ممالكنا الشريفة من إذا فُوِّض إليه نظَرُها كان بنسْبَتِه إلى الإبْصار حَقيقًا به وجَديرا .

نحمدُه وهو المحمود، ونشكُره شكرًا مُشْرِقَ السُّعود، ونشهدُ أن لا إله إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةَ عذْبةَ الوُرود ، ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أضْحت به شيوخٌ من الإسلام منْشُورة البُنُود ، صلّى اللهُ عليه وعلى آله وصَحْبه ما أوْرق عُود ، وأُولِجَ نهارُ السيوف فى لَيْلِ الغُمُود، وسلّم تسليمًا كثيرا .

وبعـدُ، فإن الله تعالى لما خصّ كُلَّ مملكةٍ من ممالكنا الشريفة بكَثْرة الجُيُوش والأنصار ، وجعَل جُيُوشَنا وعساكرنا تُكاثِرُ عددَ النُّجومِ فى كلِّ مِصْرٍ من الأمْصار، وكانت المملكةُ الشريفةُ الحلبيّةُ هى ركْنٌ من أرْكان الإسلام شَديد، وذُخْرٌ مادعاهم دَاعٍ إلّا ولبّاه منهم عَدَدٌ عَديد ـ وجب أن يُخْتارَ للنَّظر عليها من الأكْفاء من سَمَا فى الرآسة أصْلُه وزَكا فَرْعُه ، فاستحقّ بما فيه من المعرفة تَمْيز قَدْره ورَفْعه ، وفَاقَ فى فَضْل السِّيادَةِ أبْناءَ جِنْسه ، وأشْرقتْ أفْلاكُ المعالى بطُلوع شَمْسه ، وأَقَرَّ [بنظره] نظرَ الجيوش المنصوره، وسارت الأمْثِلَةُ بما آتُّفِق عليه [فيه] من حُسْنِ خِبْرة وخيرَه، وكان فلان هو الذى طلع فى أُفُق هذا الثَّناء شَمْسًا مُنيرَه ، وآختبر بالكِفايَةِ والدِّرايَةِ وآختير لهذا المَنْصب على بَصيرَه ، وهو الذى له من جميلِ المباشرة فى المناصب السَّنية ما هو كالشَّمْس لا يَخْفى والذى أَحْسن النَّظرَ فى الأوْقاف المَبْرورَة حتّى تَمَنَّى كُلُّ منصبٍ جليلٍ أن يكونَ عليه وقْفا ، وهو الذى حَوَى من الفضائلِ ما لا يُوجَدُ له نَظيرٌ ولا شَبيه ، والذى سما إلى رتبة من المعالى رَفيعةٍ وكان ذا الجَدِّ النَّبيه والأب النبيه .

فلذلك رُسِم ... ... ـ لا زالَ يُقِرُّ الناظر بجُودِه ، ويُحسِنُ النظر فى أمرِ جُيُوشِه وجُنودِه ـ أن يفوّض إليه كذا : علماً بأنه أحَقُّ بذلك وأوْلىٰ ، وأنَّ كفايَتَه لا يُستثنى فيها بإلّا ولا بلَوْلا ؛ وأنَّ السَّدادَ مقترنٌ بحسن تَصْرِيفِه ، وعلْمَه قد أغنىٰ عن تعليمه بمواقع التَّشْدِيد وتَوْقِيفه .

فليباشِرْ ذلك بصدرٍ مُنْشرِح ، وأمَلٍ مُنْفَسِح ، عاملًا بالسُّنة من تقوى الله تعالىٰ والفَرْض ، عالمًا بأنَّا عند وُصُولنا إلى البلاد نَأْمُر بعَرْض الجيوش : فلْيَحْمَل علىٰ ما يُبَيِّضُ وجْهَه يوم العَرْض ، ولْيُلْزِمْ عِدَّةً من المباشرين بحَمَل مايلزمُهم من التَّفْريع والتَّأْصِيل ، والتَّجْرِيد والتَّنْزِيل ، وتَحْرِيرِ الأَمْثلة والمقابلة عليها ، وسُلُوكِ الطَّريق المُسْتقيم التى لا يتطرَّقُ الذَّمُّ إليها ، والملاحظةِ لأُمُور الجيوش المنصورة فى قَلِيل الإقطاعات وكَثِيرها ، وجَلِيلِها وحَقِيرها ؛ بحيثُ يكون علمُه محيطًا بذلك إحاطَةَ اللَّيل ، ويشْتَرِطْ علىٰ من يتعيَّن تنزيلُه ما آستطاع من قُوّةٍ ومن رِباطِ الخَيْل ؛ ويقابِلِ الأُمورَ المضطربَةَ بالإضْراب ، ويسلكْ أحْسن المسالك فى سَيْرِه وسِيرَتِه : فإنَّنا فوّضْنا إليه الجيوشَ المنصورةَ من جُنْد المملكة الحَلَبِيَّة ومن أهْل المدِينَة ومَن حَوْلهم من الأعْراب . والوَصايا كثيرةٌ وإن كثُرتْ فعِلْمُها عنده ، وقد ضُرِب له منها مَثَلٌ فلْيكُنْ علىٰ سياقَتِه فيما لم يُذْكر فى العدِّه ؛ وأهَمُّ الأُمور أنْ يتمسكَ من خَشْيةِ الله بالسَّبَب الأقْوَىٰ ، ويجعلَ تقْوَى اللهِ عمادَه فى كلِّ الأمور : فإنَّ خيرَ الزَّاد التَّقْوَىٰ ؛ والخطُّ الشريفُ أعْلاه حجةٌ فيه .

الطبقة الثانية

من يكتب له من أهْل المملكة الحَلبِيَّة فى قَطْع العادة مفتتحًا بـ«رسم» إمَّا مع «مجْلِس القاضى» أو مع «القاضِى الأجَلّ» ككُتَّاب الدَّرج ومن فى رُتْبتهم ، إن كُتب

لأحد منهم من الأبواب السلطانية . وإلّا فالغالبُ آستبدادُ نائب السَّلْطنة بها بالكتابة. فى ذلك . فإن كُتب شئٌ منها من الأبْواب السلطانية، فليمش فيه على نحو ماتقدّم فى الديار المصرية والمملكة الشامية التى قاعدتُها دِمشق .

النـــــوع الثـانى

(من أرباب الوظائف بالمملكة الحلبية — من هو خارجٌ عن حاضرتهـا ، وهم على أصناف)

الصـــــنف الأوّل

(أرْباب السيوفِ، وهم غالبُ مَن يكتب لهم عن الأبْواب السُّلْطانية)

وقد تقدّم أنّ العادةَ جاريةٌ بتَسْمِية مايُكْتب لمن دون أرْباب النيابات العِظام: من دمَشْقَ، وحَلَب، وطَرَابُلُس ، وحَماة ، وصَفَد ، وغَزَّة ، والكَرَك — مراسيم . وأنّ التقاليدَ مختصــةٌ بالنّوّاب العظام المقدّم ذكرهم . ولا يخفى أنّ النياباتِ الدّاخلةَ فى المملكة الحَلَبِيَّة : ممـا هو تحت أمر نائب السَّــلْطنة بحَلَب أكثر من كل سائر الممالك الشامية .

وبالجُمْـلة فأمْرهم لا يخرُج عن ثلاثة أضْرب : إما مُقَــدّم ألف ، كنائب البِيرَة ، ونائب قَلْعــة الرُّوم المعبرِ عنها فى ديوان الإنشاء بقَلْعة المســلمين ، ونائب مَلَطْيَة ، ونائب طَرَسُوس ، ونائب البُلُسْتَيْن ، ونائب البَهَسْنَىٰ ، ونائب آياس المعبرّ عنها بالفتوحات الجاهانية . وإمّا طبلخاناه، كنائب جعبر، ونائب دَرَنْدة ونحوهما . وإما أمير عشرة ، كنائب عين تاب ، ونائب الرّاوَنْدان ، ونائب كَرْكَر ، ونائب بَغْـراس، ونائب الشُّغْر وبَكَاس ، ونائب الدّرْبَساك، ونائب سرِفَنْــدكار، ومن فى معناهم .

وقد تقــدّم فى الكلام على المكاتبات نقلًا عن "التثقيف" : أنّ هؤلاء النوّابَ تختلف أحوالهم فى الارتفاع والانحطاط : فتارةً تكون عادةُ تلك النيابة أميرَ طبلخاناه، ثم يولّى فيها عشرةٌ وبالعكس . وقد تكون عادتُها طبلخاناه فيستقرّ بها مقــدّمُ ألف وبالعكس . والضابط فى ذلك أنّ من يُكتب له المرسوم : إن كان مقدّمَ ألف، كُتب مَرْسومُه فى قَطْع النصف بـ«المجلس العالى» . وإن كان طبلخاناه، كُتب له مرسومُه فى قَطْع النصف أيضا بـ«السامى» بالياء . وإن كان أميرَ عشرةٍ كُتب مَرْسومُه فى قَطْع الثلث . فأمّا ما يُكتب فى قطع النصف، فإنّه يفتتح بـ«الحمد لله» سواء كان صاحبُه مقدّمَ ألف أو أميرَ طبلخاناه .

* * *

وهذه نسخة مَرْسومٍ شريف بنيابة آياس، وهى المعبّر عنها بالفُتوحات الجاهانيّة، يستضاء بها فى ذلك، وهى :

الحمدُ لله الذى جعل من أولياء دَوْلتنا الشَّريفة كلَّ سيفٍ لا تَنْبُو مَضاربُه، واصــطفىٰ لبوادر الفُتوحات من أنصارنا من تُحمَــدُ آراؤه وتجاربُه، وألهمنا حسْنَ الاختيار لمن تُؤْمَن فى المحافظة مآربُه، وتَعذُبُ فى المخالطة مَشاربُه، وحقّق آمالَنــا فى مضاعفة الفَتْح التى أغنَى الرُّعْبُ فيها عما تُدافعُه سيوف الإسلام وتُحاربُه .

نحمدُه حمدًا يضاعِفُ لنا فى التَّأْييد تمكينا، ونشكُره شــكرًا يستدْعِى أن يَزيدنا من فضله نَصْرًا عزيزًا وفتْحًا مُبينا، ونشهدُ أنْ لا إله إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً نُخلِصُ فيهــا يقينًا من المخاوف يَقينا، ونَرِدُ من نَهَلها مَعينا، ونشهدُ أنّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أيده الله بالملائكة والرُّوح، وزَوَىٰ له الأرضَ فرأىٰ مشارقَها ومَغاربَها ونَرْجو أنْ يكونَ ما زَواهُ له مُدّخَرًا لنــا من الفُتوح، صلَّى الله عليــه وعلىٰ آله وصَحْبه

الذين هم خيرُ أُمّةٍ أُخرِجتْ للإسلام ، والذين ما زال الإيمانُ بهم مرفوعَ الألويةِ والأعلام ، والذين لم يبرحْ داعى الضَّلالة تحتَ قهرِ سيوفهم : فإذا أغنَى «جرّت عليه سيوفَها الأحلام» ، صلاةً يطيب اللّسانُ منها فيُطرِب ، ويُعرِب عن صِدْق الإخلاص فى تكرارها فيُغرِب ، وسلّمَ تسليماً .

أمّا بعـدُ ، فإنّ أولى من تستَنِدُ أُمورُ الممالك لعزْمتِه ، ويُلْقِى أمرَ بوادرِ الفتوحات السَّعيدة لهِمّتِه ، و يعتمَدُ فى تدبير أحوال البلاد والعباد على يُمْنِ تصرُّفِه وممتَدِّ نهضتِه ـ مَن لم يزلْ معروفاً سَـدادُ رأْيِه ، مشكوراً فى الخدمةِ الشريفةِ حُسْنُ سَعْيِه ، مؤيّداً [فى] عزْمِه ، مظفرا فى حَزْمِه ، مأمونَ التأثير ، ميمون التـدبير ، كافيًا فى المهمات ، كافلًا بعلوّ الهِمّات ، إذا همّ ألقَى بين عينيه [صادق] عزْمِه ، و إذا اعتُمِد عليه فى مُهِمٍّ تلقّاه بهمّته وحَزْمِـه ، و إذا جُرّدَ كان هو السَّيفَ اسْمـا وفعْلا ، و إذا دارتْ رَحى الحَربِ الزَّبُون فهو الشهمُ الذى لا يخافُ سهْمًا ولا يرهبُ نَصْلا .

ولمـا كان (١) هو بَدْرَ هذا الأُفُق ، ومُقلَّدَ هذا العِقْد ولا يصلُح هـذا الطَّوْق إلا لهـذا العُنُق ، وهو الذى فاق الأولِيـاءَ اهتماما ، وراقَ العُيونَ تقدّمًا و إقداما ، وأرضَى القلوبَ نُصْحًا ووفَاء ، وأنضَى الهِممَ احتفالا للصالح واحتفاء ، طالمـا جُرِّبَ فحُمِد عند التجارب ، وجُرّدَ فأغنَى عن القواضب ، واختُبِرفاختِير ، ونُظِر فى خَصائِصه فلم يُوجَدْ له نظير ـ اقتضَى حسنُ الرَّأْيِ الشريفِ أن تقـلّده فتوحاتِ أنقـذها الله تعـالى من شَرَك الشِّرْك ، وأخرجها إلى النُّور بعد ظلام الإفْك ، و بشّرها أنَّ هـذه سحَـابةُ نَصْرٍ يأْتى وَابِلُه إن شاء الله تعـالى بعد رَذَاذه ، وأنّها مقدَمةُ سَعْدٍ تتلو قولَه تعالى : ﴿ وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ ﴾ .

---

(١) بياض بالأصل والمراد المولى باسمه ولقبه .

فلذلك رُسم ... ... ـ لا زال الفتح فى دولته يزهو بانتظام سلكه، وأيامه الشريفةُ تستردّ مغتصَبَ البلاد من يد الكفر إلى بَسْطة مُلْكه وقبضة مِلْكه، وإحسانه يحمى الحصونَ بسيفٍ يُروّعُ العِدا بأسه وفتكه ـ أن يفوَّض ... ... اعتمادًا على مَضائه الذى لا ينكر مثله للسيف، وركونًا إلى همّته التى تسرى برُعبها إلى قلوب الأعداء سُرى الطَّيف

فليباشرْ النيابةَ المذكورة : مُعمِلًا رأيَه فى تمهيد أحوالها، وتقرير أمورها التى رَاقَ الأولياءَ وراعَ الأعداءَ ما كان من مآلها ؛ مجتهِدًا فى حفظ ما بها من القلاع والحصون، مُبادرًا [إلى] كلِّ ما يَحْمى حِماها ويصُون ؛ قائمًا حقَّ القيام فى مصالح تقريرها، وأحوال تحريرها، وأمور تُمهِّدها، ومنافعَ تُشَيِّدها ؛ وجواصلَ تكفيها، وأسبابِ مصْلحة توافيها بمزيد الاهتمام وتُوَفِّيها ؛ وليكنْ بأحكام الشّرع الشريف مقتديا ، وبنُور العدل والاحسانِ مهتَديا ؛ وبتقوى الله عزّ وجلّ متمسّكا ، وبخشية الله متنسّكا؛ وهو يعلم أنّ هذه الفتوحات [قذى] فى حدَقة العدوّ المخذول وشجًا فى حُلوقهم، وعِلَّةٌ فى صُدورهم وحسْرَةٌ فى قُلوبهم .

فليكن دأبُه الاجتهادَ الذى ليس معه قَرار، والتَّحرزَ الذى يحلّيها أو يحميها فيكونُ عليها بمنزلة سُورٍ أو سِوَار؛ ويُصفّحها من عزْمه بالصِّفاح، ويجعلُ عليها من شُرُفات حزمه ما يكون أحدَّ من أسنّة الرِّماح؛ ثم لا يزالُ احتياطُه محيطًا بها من كلِّ جانب، وتيقُّظُه لأحوالها بمنزلة عينٍ مُراقب، واحتفالُه الاحتفالَ الذى بمثله يُصانُ رداؤُها من كلِّ جانب؛ ثم لا تزالُ قُصّادُه وكُشّافُه وطلائعُه لا يقرّبهم السُّرى، ولا يعرفُون طَعمَ الكرى يطّلعون من أخبار العدا على حقائقها، وتحيّلَ كلُّ فرقة منهم على معرفة الأحوال بينهم بمكرٍ من تعدُّد طُرُقها واتّساع طرائقها، لتكونَ المتجدّداتُ عنده بمنزلة ما يراه

فى مرآة نظره، وسرُّ أمور العدا لديه قبل أن يشيع بينهم ذكرُ خبره؛ والوصايا كثيرةٌ وهو بحمد الله لا يحتاج مع معرفته إلى تبصره، ولا يفتقر مع حسن بصيرته إلى تذكره؛ والله تعالى يتولّاه، ويعينه على ما ولّاه؛ بعد الخطّ الشريف أعلاه .

وأما من يكتب له فى قطع الثلث بـ«مجلس الأمير» وهم العشرات [فقد ذكر فى "التعريف" : أنّه يكتب لهم من الأبواب السلطانية على ذلك .

قلت : وقد تقدّم فى الطبقة السابعة أنّ الكختا، وكركر، والدّربساك، قد تكون عشرةً أيضا . وفى معنى ذلك نيابة عين تاب ، والراوندان ، والقصير ، والشّغر وبكاس، إذا كانت عشرة . ونيابة دبركى إذا كانت عشرة] (1) فيفتتح فيها بـ«أما بعد حمد الله» على عادة ما يكتب للعشرات .

* * *

وهذه نسخةُ مرسومٍ شريف من هذه الرتبة، كُتب به لنائب حجر شغلان من معاملة حلب ، وهى :

أما بعد حمد الله الذى شيّد المعاقل الإسلامية بأكفائها، وصان الحصونَ المحروسةَ بمن شُكرت همّتُه فى إعادتها وإبدائها، وحمى سرحها بمن أيقظ [فى] الخدمة الشّريفة عيونَ عزمه فما ألمت بعد إيقاظه بإغفائها، والصلاةِ والسلامِ على سيدنا محمد الذى انتضى سيوفَ التأييد فأعزّت الهدى وأذلّت العدا حين انتضائها ، وعلى آله وصحبه ما بدت النجومُ فى ظلمائها ، وسرت الغيوم فى فضائها ـ فانّ من شُكرت همَمُه، وثبتت فى الطاعة الشريفة قدمُه، وأشبه عزمُه فى مضائه صارمَه، وأضحت

(1) ما بين القوسين المربعين [ ] وجد ملحقا بهامش نسخة ومؤشرا عليها بالتصحيح فأثبتناه فى الصلب عملا بتلك الاشارة .

ثغور تقديمه باسمه؛ أولىٰ بأن ترفع هذه الدولةُ الشريفةُ من محلّه، وتنشر عليه [من] تكريمها وارف ظلّه؛ وترتضيه لقلاع الإسلام وتشييدها، وتجتبيه لصونها وتأييدها، وتجعله قرّة عينها وحلية جيدها؛ وتُمضي كلمته فى مصالحها، وتُعدق به أسباب مناجحها؛ فيُصبح ولقدره منّا إعلاءٌ وإعلان، ويُمسى وله شُغْلٌ بطاعتنا العالية الشّان؛ وشغل بالمعقل الذى يُحرز بعزمه ويُصان، فلأجل ذلك غدا وله من هذه النيابة على الحقيقة شُغلان .

وكان [فلان] هو الذى جادت عليه دولتنا الزاهرةُ بسحائبها ، وأشرقت علىٰ حظوظه سُعودُ كواكبها ؛ وأسمت له قدرا، وجعلت له إمْرةً وأمْرا، وصرفته إلىٰ نيابة معقلٍ معدودٍ من قلاع الممالك الإسلامية وحُصُونها، ومعاقلها التى علت محلًّا فالجبالُ الشُّمُّ من دُونها ؛ قد أصبح شاهقًا فى مبناه، ممنعًا فى مغناه ؛ محصّنًا برجاله، مصونًا من ماضيين : السّيف فى مضائه والعزم فى احتفاله ـ اقتضىٰ حُسن الرأي الشريف أن نُوقِّله رتبةَ هذه النيابة، وننشر عليه من إحساننا سحابه .

فلذلك رسم بالأمر الشريف ـ لا زال ... ... أن يستقر ... ...

فليحُلَّ هذه النيابةَ المباركةَ مُظهِراً من عزمه ما تُحمد عواقبُه، وتعلو مراقبُه؛ وتسمو مراتبُه ، وتتوضّح سُبلُه ومذاهبُه؛ مُحصّنًا لسرحه، معزّزًا موادّ نُجحه؛ مُراعيًا[1] أحوالَ رجاله ؛ المُعدّين من حُماته وأبطاله ؛ حتّى يغدُوا يقظين فيما ينْدُبهم إليه ويستنهضهم فيه ، مبادرين إلىٰ كل ما يحفظ هذا الحِصن ويحميه ؛ ومن بهذا المعقل من الرّعية فليرفق بضُعفائهم ، وليُعاملْهم بما يستجلب لنا به صالح دُعائهم ؛ والوصايا كثيرةٌ وملاكُها التّقوىٰ، فليتمسّك بها فى السّرِّ والنّجوىٰ، وليغرسها فى كل

(١) فى نسخة : مُرتقبا والمعنى واحد .

قول يُبْدِيه ، وفعل يرتضيه ، فإنّ غُروسَها لا تَذْوَىٰ . والله يوفقه لِصالح القَوْل والعَمَل ، ويصُونُه من الخَطَإ والخَطَل ؛ والخطُّ الشريفُ أعْلاه ، حجة بمقْتضاه ؛ إنْ شاء الله تعالىٰ ، والحمدُ لله وحده .

قلتُ : وقد تقدّم أنّه لا يكتب عن السلطان مَرْسومٌ بنيابة فى قَطْع العادة ، لأنّ ذلك لا يكون إلا لجُنْدِىّ وهو دون ، ومثل ذلك إنما يُكْتب عن نوّاب الممالك .

الصنف الثانى

(ممّا هو خارجٌ عن حاضرة حَلَب ـ الوظائفُ الدِّينية بمعاملتها : من القِلاع وغيرها)

وهى فى الغالب إنّما تصدر الكتابة فيها عن نائب حَلَب أيضا أو قاضيها، إنْ كان مَرجِعُ ذلك إليه . فإن صَدَر شَىْءٌ منها عن الأبْواب السُّلطانية، كان فى قَطْع العادة مفتتحًا بـ«رُسِم» .

وهذه نسخةُ توْقيعٍ من هٰذا النَّمَط يُنْسج علىٰ مِنْواله ، كُتِب به لقاضى قلعة المسلمين، وهى :

رُسِم بالأمْرِ الشريف ـ لا زال عَدْلُه مؤيِّدًا للحُكّام ، ورَأْيُه مسدّدًا فى النّقْض والإبْرام ، وسُلْطانُه يختار للمناصب الدِّينية مَن نطقَتْ بشُكْرِه ألْسنةُ الأنَام ـ أن يستقرّ فى كذا : لِمَا آشْتَهر عنه من عِلْمٍ ودِين ، وظهر من حُسْنِ سِيرَةٍ آقتضتْ له التّعْيين .

فليباشِرْ هذه الوظيفةَ المباركَةَ بالحقّ حاكما ، وللرِّفْقِ مُلازِما ، وللتَّقْوىٰ مداوما ؛ وهو غَنِيٌّ عن الإسهاب فى الوصايا ، مَلِيٌّ بسُلُوك تَقْوَى الله فى القَضايا ؛ والله تعالىٰ يَزِيدُه تأْييدا ، ويضاعِفُ له بمَوَادِّ السعادة تَجْديدا ؛ والعلامةُ الشريفةُ أعْلاه ، حجةٌ بمقتضاه .

الصنف الثالث

(مما هو خارج عن حاضرة حَلَبَ ـ الوظائفُ الدِّيوانية)

وهى إنَّما تصدُرُ فى الغالب أيْضا عن نائب حَلَب . فإن كُتب شىءٌ منها عن الأبواب السلطانية ، كان فى قَطْع العادة مفتتحا بـ«رُسم بالأمْر» .

وهذه نسخةُ تَوْقيع من ذلك ، يستضاءُ به فيما يُكْتَب من هذا النوع ، كُتب بها بنَظَر جَعْبَر ، من مُعاملة حَلَب ، وهى :

رُسم بالأمْر الشَّريف ـ لا زال مُنْهِلَّ النَّدىٰ ، مُسْتَهَلَّ الجَدىٰ ، مُعيدًا للإحسان كما بَدا ـ أن يُعادَ فلانٌ إلىٰ وظيفته : لما أَلِفَتْ من سيرةٍ له لم تَزَلْ تُحْمَد ، وسِيما خَيْرٍ منه علىٰ مِثْل الشَّمْس تَشْهَد ؛ ولأمَانَتِه التى لم تزَلْ تَفْتَرُّ بها الثُّغور ، وتَخْضَرُّ بها المَعاهِدُ : تارةً فى طَوْقِ النَّحْر وتارةً فى نُحُور البُحور ؛ وأصالةٍ آمتدّ ظِلُّها الظَّليل ، وعُرِف منها فى العَصْر حسنُ الأصيل ، وأيْنَعَتْ أكْرَمَ فَرِعٍ زَكَا مَنْبِتُه[1] فى الأرْض المُقَدَّسة وجِوار الخَليل ؛ ولما أسْلف فى هذه المباشرة من عَمَلٍ صالح ، وسَدَادِ آعتمادٍ لم يخرجْ عن تحرير تَقْريرٍ وتقرير مصالح ؛ وكِتَابةٍ رآها الرَّأْئى ونقلها النَّاقل ، وكفاية حفَّتْ عليه مثل العروس المجْلُوَّة من عقائل المعاقل .

---

(١) فى الأصل « منبتها » بالتأنيث .

فليباشر هذه الغروس فقد أنقدها[1] سالف الخدم وأمهرها ، وليثابر سقيا الغروس التى أنشأها فى هذه الجهة وثمرها ، وليسلك مسلكه الذى لم يزل مخيّما على رءوس القنن ، ومهوّما به طرف الأمن لليقظة الذى لا يلمّ به الوسن ، مخوّلا فى وظيفته المبرات ، مستقبلا للمسرّات ، مفتخرا بمباشراته التى تجرى مجاريَ البحار : تارةً الملح الأجاجَ وتارةً العذبَ الفرات ، وهو أعرف بما يقدّمه من أمانة بها يتقدّم ، وديانة يرجّب بها استكفاؤه ويحكّم ، وتقوى الله جماعها فليكن بها متمسّكا ، وبمشاغلها متنسّكا ، والله تعالى يجعل عطاءه موفّرا ، وعمله متدفّقا ليردّ جعبرا جعفرا .

النيابة الثالثة

(نيابة طرابلس ، ووظائفها التى جرت العادة بالكتابة فيها من الأبواب السلطانية على نوعين)

النوع الأوّل

(ما هو بحاضرة طرابلس ، وهو على ثلاثة أصناف)

الصنف الأوّل

(أرباب السيوف ، وهم على طبقتين)

الطبقة الأولى

(من يكتب له تقليد)

وهو نائب السلطنة بها . ومرسومه فى قطع الثلثين ، ولقبه « الجناب العالى » مع الدعاء بمضاعفة النعمة .

---

(١) الذى ورد فى القاموس وغيره أن النقد بمعنى الاعطاء من باب الثلاثى فلعل الهمز من زيادة الناسخ فتنبه .

وهذه نسخةُ تقليد شريف بنيابتها :

الحمـدُ لله الذى جعل لنـا التأييدَ مَدَدا ، والنَّصرَ عَتادًا لا نفقـدُ مع وجوده من لأوليـاء أحَدا ، والعِزَّ وَزَرًا تُصِمُّ شُهبه مسامعَ العِدا : ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِـدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً﴾ . والفَتْحَ ذُخْرا لحيثُ ما نشاء مدَدْنا إليه بقوّة الله يدا ، وشدَدْنا عليه بمعونته عضُـــدا .

نحمدُه علىٰ نِعَمه التى جعلت مَراتِبَ دَوْلتنا فَلَكًا تُشرِقُ فيـه رُتَبُ الأوْلياء إشْراقَ البـدُور ، وثُغُورَ ممـالكنا أُفُقًا حيثما شامَته العِـدا ضُرِبَ بينهم وبينه من سـيوف مَهابَتِنا بسُور ، وقَوائِحَ الفُتوح التَّائيةِ دانيةً من هِمَمِ أصْفيائنا فإذا يمَّموا غَرَضًا طارتْ إليه سهامُهم بأجْنِحَة النُّسُور ، ونشهدُ أن لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً يرفعُ الجهادُ عَلَمها ، وينْصُر الإيمانُ كَلِمَها ، ويزْجى الإيقانُ إلىٰ رياض التأييد دِيَمَها ، ويَسْتَنْطِقُ التوحيدُ بإعلانها وإعلانها سيفَ أيَّامنا الزاهرةِ وقلَمَها ، ونشهدُ أنَّ محمدًا عبـدُه ورسولُه الهـادى إلى الحقِّ وإلىٰ طريق مُسْتقيم ، ونبيُّه المخصوصُ بالآيات والذِّكْر الحَكيم ؛ صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبِه الذين نصرُوا اللهَ فنَصَرهم ، وأظهروا دِينَـه فأعَزَّهم وأظهرهم ، ويسَّرُوا لأُمّته سبُلَ الهُـدىٰ فهداهم وللسَّبيلِ يسَّرهم ؛ صلاةً لا يزال اليقينُ يُقيمُ دعوتَها ، والتَّوحيدُ يعْصِمُ من الانْفِصام عُرْوتَها ؛ وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

وبعـدُ ، فإنَّ أوْلىٰ من تَفْتَرُّ الثُّغورُ بإيالتِـه ، عن شَنَب النَّصْر ، وتَرْمى الحصونُ بكفالته ، مَن شَامَ من العِدا بَرْقَها بشَرَرٍ كالقَصْر ، وتُقسِمُ السَّواحلُ بمهابَته ، مَن جاور من أهْلِ الكُفر بحرُها بين الحَصْـد والحَصْر ، وتمنعُ عَزَماتُه شَوانِيَ العدا أن تَدِبَّ عقارِبُها ، أو تَرْكَبَ اللُّجَجَ بغير أيَّامه[1] مَراكِبُها ، أو يَنْتقِلَ عن ظَهْر البَحْر إلىٰ غير

(١) لعله « بغير أمانه » تأمل .

سيوفه أو قُيوده مُحاربها ــ من لم يزل فى نُصْرةِ الدِّين لامعًا كالبَرْق شِهابُه ، زَاخِرًا كالبَحْرِ عُبابُه ، وَاصِبًا علىٰ الشِّرك عَذابُه ، ظَامِيًا إلىٰ مَوارِدِ الوَرِيد سَيفُه ، سارِيًا إلىٰ قلوب أهْلِ الكُفْر قبل جُفونِهم طَيْفُه ؛ قائمةٌ مقام شُرَفِ الحُصون أسِنَّة رِماحه ، غَنِيَّة بُروجُ الثُّغورِ عن تَصْفيحِها بالجَلْمَد بصَفا صِفَاحِه ؛ مع خِبْرة بتَقْدِمَة الجُيوش تُضاعِفُ إقدامَها ، وتُثَبِّت فى مَواطِنِ اللِّقاءِ أقْدامَها ، وتُسَدِّدُ إلىٰ مقاتل أهْل الكُفْر سِهامَها ، وتُقَرِّبُ عليها فى البرِّ والبحر مَنالَها وتُبْعِدُ مَرامِيَها علىٰ مَن رَامَها ؛ ومَعْدَلة للرَّعايا السُّكونُ فى مهاد أمْنِها ، والرُّكونُ إلىٰ رُبَا إقْبالها ووِهَادِ يُمْنِها ؛ فسِرْبُ الرعايا مصُونٌ بعَدْله ، والعَدْلُ مكنونٌ بين قَوْله وفعْله .

ولما كان فلانٌ هو اللَّيثَ الذى يَحْمِىْ به غَابُه ، والنَّيِّرَ الذى يُزْهِىْ أُفُقٌ تَألَّق فيه شِهابُه ؛ والهُمَامَ الذى تُعْدِى هِمَمُه فُرسانَ الوَغىٰ فتُعَدُّ آحادُها بالأُلُوف ، والشُّجاعَ الذى إذا ٱستعانَتْ سَواعِدُ الشُّجعانِ بسُيوفها ٱسْتَعانَتْ بقُوَّةِ سَواعِده السُّيوف ــ ٱقتضت آراؤُنا الشريفةُ أن تُحَلِّىَ به جِيدَ مملكة ٱنتظمتْ علىٰ وِشَام البَحْر ، وأحاطت بما فى ضميره من بلاد العدا إحاطَةَ القلائد بالنَّحْر .

فرسم بالأمر الشريف لا زال ... ... أنْ يفوِّضَ إليه كَيْت وكَيْت : لِمَا أشير إليه من أسْباب تَعيُّنه لهذه الرُّتبة المَكينه ، وتَحَلِّيه بما وُصِف من المحاسن التى تُزْهىٰ بها عقائلُ الحصون المصُونه .

فَلْيَلِ هذه النيابةَ الجليلةَ بعزْمَة تُجَمِّلُ مواكِبَها ، وهِمَّة تُكَمِّلُ مراتِبَها ؛ ومَهابَةٍ تَحُوط ممالِكَها ، وصَرامَة تُؤَمِّن مسالِكَها ؛ ومَعْدِلة تُعَمِّر ربوعَها ورِباعَها ، ويَقَظة تَصُون حُصونَها وقِلاعَها ؛ وشَجاعَة تَسْرِى إلىٰ العدا سَرايَا رُعْبِها ، وسَطْوَة تُعْدِى السُّيوفَ فلا تستطيع الكُماةُ الدُّنُوَّ من قُرْبِها ؛ وسُمْعَة تُرهِبُ مُجاوريه حتى يُخَيَّلَ البَحر [أنه] من أعوانه علىٰ حَرْبِها .

ولْيُؤْتِ تَقْـدِمةَ الجيوشِ الإسلامية حقَّها من تَدْبيرٍ يجمَعُ على الطاعة أمْرَها وأُمَرَاءَها، ويرفَعُ فى مَراتِبِ الخِدْمةِ الشَّريفةِ علىٰ مايجب أعْيانَها وكُبراءَها، ويُرهِبُ بإدامةِ الاستعداد قُلوبَ أعْدائها، ويربُطُ بأيْزاكِها شَوانِىَ البَحْرِ حتَّى تعتَدَّ الرباط فى ذلك من الفُروضِ التى يُتَعبَّدُ بأدائها، فلا يَلُوحُ قِلْعٌ فى البحْرِ للعدا إلا وهو يَرهَبُ الوقوعَ فى حِبالِها، ولا تلحظُ عينُ عَدوٍّ سَنا البرّ إلا وهى تتوقَّعُ أن تُكْحَلَ بنصالِها؛ ولْيُقِمْ مَنارَ العَدْلِ بنَشْرِ لوائه، ويعضُدْ حكمَ الشَّرعِ الشريفِ برجوعه إلىٰ أوامره وانتهائه؛ وليكُفَّ يدَ الظُّلْمِ [عنها] فلا تمتدّ إليها بنان، وليشْفَعِ العَدْلَ بالإحسان إلىٰ الرعيَّة فإن الله يأمُرُ بالعَدْلِ والإحْسان؛ وفى سيرَتِه التى جعلته صَفْوةَ الاختيار، ونُخْبةَ ما أوْضَحتْه الحقيقةُ من الاختبار، ما يُغنِى عن الوَصِيَّةِ إلا علىٰ سبيلِ الذكرىٰ التى تَنفعُ المؤمنين، وترفَعُ قَدْرَ المُوقنين؛ وملاكُها تقْوى الله تعالىٰ: فليجْعَلْها أمامَ اعتِمادِه، وإمامَ إصْدارِه وإيراده، والله تعالىٰ يُدِيمُ موادَّ تأييده وإسعاده؛ إن شاء الله تعالىٰ.

الطبقة الثانيــــــة

(من يُكْتَب له مرسومٌ شريفٌ فى قَطْعِ الثُّلث بـ«المجلس السَّامى» بغير ياء، وتشتمل علىٰ وظائف)

منها — شدُّ الدَّواوين بطَرابُلُس.

وهذه نسخةُ تَوقيعٍ بها :

الحمـدُ لله مُجَدِّدِ الرُّتَبِ لمَن نهضَ فيها إخْلاصه بمـا يجب، ومُولِى المِنَنِ لمَن إذا اعتُمد عليـه من مُهمَّات الدَّوْلة القاهرة فى أمْرٍ عَرفَ ما يأْتِى فيـه وما يجتنب،

ومُؤَكِّدِ النِّعَمِ لِمَن إذا ٱرْتيدَت الأَكْفاءُ فى الخِدْمة الشَّريفة كان خِيرَةَ مَن يُختار ونُخْبةَ من يُنْتَخَب .

نحمَدُه على نِعَمه التى سَرَتْ إلى الأَوْلِيـاءِ عَوارِفُها ، وٱشْتَمَل على الأَصْـفِياء وافِرُ ظِلالهـا ووَارِفُها ؛ ونشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تُزْلِفُ لديه ، وتكونُ لقائلهـا ذَخيرةً يوم العَرْض عليه ؛ ونشهدُ أنَّ محمدًا عبـدُه ورسولُه أشْرفُ مَبْعوث إلى الأُمَم ، وأكْرم منعُوتٍ بالفَضْـل والكَرَم ؛ صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين وُلُّوا أمْرَ الأُمّة فعدَلُوا ، وسلَكُوا سَنَن سُنَّته فمـا مالُوا عنها ولا عَدلُوا ؛ وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا .

وبعــدُ ، فإنَّ أَوْلىٰ ما ٱختِيرَله من الأوْلياء كلُّ ذى هِمّة عَلِيَّـه ، وعَزْمَة بمصالح ما يُعْدَقُ به من مُهِمَّات الدَّولة القاهـرة مَلِيَّه ؛ وخِبْرة بكلِّ ما يُرَاد منها وَفِيَّه ، ويَقَظة تلْحَظ فى كلِّ ما قرب ونَأىٰ من المصالح الأُمُورَ الباطنةَ والأحْوالَ الخَفيَّه ؛ وصَرامَة تُؤْيِسُ من ٱستلانة جانبِه ، ونَزاهَـة تُؤَمِّنُ من إمالة رَأْيِه فى كلِّ أمْرٍ عن سـلوك واجِبِـه ؛ ومعْرِفَة مُطَّلِعــه ، ونَهْضه بكلِّ ما إن حُمِّلَه من أعْباء المهمَّات الشَّريفــة مضطلِعَه ـ أمْرُ الأموال الديوانية : فإنَّها معادنُ الأرْزاق ، ومَوَادُّ مصالح الإسلام على الإطــلاق ؛ وخزائنُ الدَّولة التى لو ملكَتْها الغمائمُ لأمْسكتْ خَشْـية الإنْفاق ، وذخائرُ الثُّغورِ التى مواقعها من أعْداء الدِّين مواقع الشَّـجَا فى القُـلوب والقَذىٰ فى الأحْداق .

ولمـا كان المجلس السامى هو الذى سَمَتْ به هِمَمُه ، ورَسَخَتْ فى خِدَم الدَّولة القاهرة قَدَمُه ، وتبارَىٰ فى مصالح ما يُعْدَقُ به من المُهِمَّات الشَّريفة سيفُه وقلَمُه ؛ وكانت المملكة الطَّرابُلُسِيَّة من أشهر ممـالكنا سُمْعَــه ، وأغْنها بُقْعَه ، وأعْمرها بلادا ،

وأخصبها رُبًا ووهادا، وأكثرها حُصونا شَواهِق، وقِلاعًا سَوامِيَ سَوامِق، وثغورا لا تَشِيمُ ما ٱفتَرّ من ثُغُورها البروقُ الخَوافِق ؛ ولهـا الخواصُّ الكثيره، والجهـات الغَزِيرَه، والأموالُ الوافِرَه، والغَلّاتُ المتكاثفةَ المُتكاثِرَه ـ ٱقتضت آراؤُنا الشريفـةُ أن نَرْتادَ لها من يسُدُّ خَلَلَ عَطَلِها، ويشُدُّ عَضُد ميَدِها ومَيَلِها، وينْهَضُ من مصالحها بمـا يُراد من مِثْـلِه، ويعيدُ لهـا بحسْنِ المباشرة بَهْجةَ مَن فَقَدَتْه[1] من الأكْفاء من قَبـْـلِه .

فلذلك رسم ... ... أن يفوّض إليه شَدُّ الدواوين المعمورة بالمملكة الطَّرابُلُسيَّة والحصون المحروسة، علىٰ عادة من تقدّمه فى ذلك .

فليُباشِرْ ذلك بمعْرِفة تستخرج الأموال من معادِنِهـا، وتَسْتثير كوامنَ المصالح من مَكَامِنها ؛ وتُثَمِّرُ أموالَ كلِّ معاملة بحسن الآطلاع عليها، وصَرْفِ وَجْه الآعتناء إليها ؛ وتفقُّدِ أحْوالِ مُباشِريها، ومُباشَرةِ ما يتجدَّدُ من وجوه الأموال فيها ؛ وضَبْطِ ٱرتفاعها بعَمَلِ تقْـدِيره، وحِفْظِ متحصَّلِ ضِياعِها من ضَياعِه وصَوْنِ بِذارِها عن تبْـذِيره ؛ ولْيَجْتَهِدْ فى عمـارة البـلاد بالرِّفْقِ الذى ما كان فى شَيْءٍ إلا زانَه، والعَـدْلِ الذى ما ٱتّصف به مُلْكٌ إلا صَانَه، والعِفَّـةِ التى ما كانت فى امرئٍ إلّا وفقه الله تعـالىٰ فى مقَاصِدِه وأعَانَه ؛ ولْيُقَدِّم تَقْوى اللهِ بين يديه، وليعتَمِدْ علىٰ توْفِيقه فيما ٱعتُمِدَ فيه عليه، إن شاء الله تعالىٰ .

قلتُ : وعلىٰ ذلك يكتبُ شدُّ مراكز البريد ونحوها .

---

(١) لعله "مافقدته من عمل الأكفاء" .

الصـــــنف الثـانى

(من الوظائف بطَرَابُلُس التى يكتب لأربابها من الأبواب السلطانيــة ـ الوظائف الدِّينيّة ، وهى على مرتبتيـــن)

المرتبـــــة الأولى

(مَن يُكْتب له فى قَطْع الثلث بـ«المجلس السامى» بالياء، وتشتمل على وظائف)

منها ـ القضاء . وبها أربعةُ قُضاة من المذاهب الأربعة : من كُلّ مذهب قاض .

وهذه نسخةُ تَوْقيع بقَضاء قُضَاة الشّافعيّة بها، يُنْسجُ على منواله ، وهى :

الحمــدُ لله الذى أعَزّ الدِّينَ بعلَمــائه، وعضَّدَ الحكْمَ بالمتقين من أوْليائه، وأوْضح الرُّشْد للمقتدين بمن جعلهم فى الهـداية كنجُوم سَمائه، وجعل لكلٍّ من الأئمة من مطالع الظهور أُفقًا يُهتدىٰ فيه بأنواره ويُقْتدىٰ بأنوائه .

نحمدُه على أنْ جعل سَهْم آجتهادنا فى الآرتياد للأحكام مُصيبا ، وقَسم لكلٍّ من أُفُقَىْ ممالكنا من بركة علماء قَسيمه الآخرِ نَصيبا، ونشهدُ أنْ لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تعصمُ من الهوىٰ فى الحُكْم لعباده، وتَفْصم العرا ممن جاهر فيها بعناده ؛ ونشهدُ أنّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أضاءتْ أنوار ملّته ، فاستَكْشفَ العلماءُ لَوامعَها، ووَضَحتْ آثارُ سُنّته، فأحرز أئمـةُ الأمّة جَوامعَها؛ صلّى اللهُ عليه وعلى آله وصَحْبه الذين دُعُوا إلى الله فأجابُوا، ودَعَوْا إلى الحُكْم بسنّته فأصابُوا؛ صلاةً لا تَزال الألْسن تُقيمها، والإخلاصُ يُديمُها؛ وسلّمَ تسليمًا كثيرا .

وبعــدُ، فإنّ أولىٰ ماآدّىٰ فيه الآجتهادُ جُهْدَه، وبلغ فيه الآرتيادُ حدّه، وآستُضىء فيه بنور التّوفيق ، وآستُصْحبَ فيه تلك آستخارة الله خيرَ رَفيق ــ أمرُ الحُكْم العزيز

وتفويضه إلىٰ من وسّع اللهُ تعالىٰ مجالَ علمه، ومدّد مَناطَ حُكمه؛ وطهّر مَرامَ قلبه، ونوّر بصَرَه فى الحكم وبصيرتَه فأصبح فيهما علىٰ بيّنَة من ربّه؛ فأجرىٰ الحق فى البحث والفُتْيا علىٰ لسانه ويمينه، ونزّهه عن إرادة العلم لغير وجْهه الكريم، ونبّهه علىٰ ٱبتغاء ما عند الله بذٰلك والله عنده أجرعظيمٌ .

ولما خَلا مَنْصِبُ قَضاء القُضاة بطَرابُلُس المحروسةِ علىٰ مذهب الإمام الشافعىّ رضى الله عنه : وهو المَنْصِب الذى يُضِيءُ بالأئمّة الأعلام أُفُقُه، وتلتَقى بالفُضَلاء الكرام طُرُقُه ؛ وتحتوى علىٰ أرْباب الفُنون المتعدّدة مجالسُه ، وتزْكو بالفوائد المختلفة مَغارِسُه ؛ وكان فلانٌ هو الذى أُشيرَ إلىٰ خصائص فَضْله ، ونُبِّه علىٰ أنّ الاجتهاد للأُمّة أفضىٰ إلىٰ إسناد الحكم منه إلىٰ أهله ؛ وأنّه واحدُ زَمانه ، وعلّامة أوانه ؛ وجامعُ الفضائِل علىٰ ٱختلافها ، وقامعُ البِدَع علىٰ ٱفتراق شُبَهها منه وأْتلافها ؛ وحاوى الفروع التى لا تتناهىٰ ، والمُرْبِى علىٰ ربِّ كلِّ فضيلة لا يعرف غيرها ولا يألَفُ سواها ــ ٱقتضت آراؤنا الشريفة أن نجزم من ٱرْتيِاده لهذه الرتبة بهذا الرأى [السديد] ، وأن نُقرّب سُراهُ إلىٰ هذا المَنْصِبِ الذى ناداه بلسان الرّغبة من مَكان بَعيد .

فلذلك رُسم بالأمْر الشّريف ــ لا زال إحسانُه كالبَدْر، يملأ المشارقَ والمغارب، وبِرُّه كالبَحْر، يَقْذف للقريب الجواهر ويبْعثُ للبعيد السّحائب ــ أنْ يفوّض إليه كذا .

فليطلُعْ بذلك الافق الذى يترقّبُ طلوعَه رَقْبةَ أهلّة المواسم ، ويُسْرِعْ إلىٰ تلك الرُّتبة التى تَكاد تَسْتطلِعُ انباءه من الرياح النّواسم؛ وينشُرْ بها فرائدَه التى هى أحقّ

أن تطوى إليها المراحل ، ويَقْدَمْ بها على الأسماع الظّامية لعَذْب فوائِدِه قُدومَ الغَمام علىٰ الرَّوض الماحِل ؛ ويَلِ هـذا المَنْصِبَ الذى هو فيـه بين عَدْل يَنْشُره، وحقّ يظهره، وباطِل يزهِقُه، وغالب يُرهقُه، ومظلوم ينْصُره .

وليكُنْ أمرُ أموال الأيْتام المُهِمّ المقدّمَ لديه، وحَدِيثُ أوْقاف البِرّ من أوّل وأوْلىٰ ما يَصْرِف فِكْرَه الجميـلَ إليه، ويتعاهَدُ كَشْفَ ذلك بنَفْسـه ، ولا يكتفى فى عِلْمه فصـل اليوم باطّلاعه عليـه بأمْرِه[1] فى أمْسِه ؛ وهو يعلَمُ أنّ الله يجعله بذلك مشاركًا للواقفين فى الأجْر المختصّ بهم والشُّكْر المنسوبِ إليهم ، خارجًا من العُهْدَة فى أمْر اليتامىٰ باستعمال الذين يَخْشَوْنَ لَو تَرَكُوا من خَلْفِهم ذُرِّيَّةً ضِعافًا خافُوا عَلَيْهِم؛ وليُقِمْ مَنارَ الحق علىٰ ما يجب وإن سَرّ قومًا وساء قومًا ، ويَقُمْ بالعَـدْلِ علىٰ ما شُرِع : فإنّ «عَدْلَ يومٍ خيرٌ للأرْض من أنْ تُمْطَرَ أرْبعين يومًا» .

وأمّا ما عدا ذلك من أحْوال الحكم وعَوائِدِه، وآداب القضـاء وقَواعِدِه ، فكُلُّ ذلك من خصائصه يُسْتفاد ، ومن مَعارِفه يُسْتزاد ؛ ومِلاكُ ذلك كلّه تقوى الله وهى مِن أظْهرِ حِلاهُ الحَسَنَه ، وأشْرف صِفاتِه التى تَتَداوَلُها الألْسنَة ؛ فلْيَجْعَلْها وسيلةَ تَسْديدِه فى القَوْل والعَمل ، وذَخِيرةَ آخرتِهِ التى ليس له فى غيرها أمَل ، وليقلد العلىٰ فيما حَدّثَتْه من أسْباب نُقْلَتِه فإن كَمالَ العزّ فى النُّقَل ؛ والله تعـالىٰ يمدّه بموادّ تأْييدِه وقد فعل ، ويجعَـلُه من أوليائه المتّقين وقد جَعَل ؛ بمنّه وكَرَمه ! ، إن شاء الله تعـالىٰ .

قلتُ : وعلىٰ ذلك تكتب تواقيع القُضاة الثلاثة الباقين .

ومنها ــ وكالة بيْت المـال .

(1) لعله «على أمره فى أمسه» .

*
* *

وهذه نسخة توقيع من ذلك، وهى :

الحمـدُ لله الذى عَمر بيْتَ مال المسلمين بسَدَاد وَكِله ، ونمو تحْصيله ومَزِيد تمويله ، وتمسّكه بالصّدْق من قِيله ؛ وسُلوكه ماتبيَّن [من] سبيله ، وآعتماده الحق فى دليله ؛ ودَفْعه المَضارَّ وجَلْبه المسارّ بتَخْويله .

نحمدُه علىٰ بِرّه وتَفْضيله ، ونشهدُ أن لا إلٰهَ إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له إلٰهٌ تنزّه عن نِدّه ومَثِيله ؛ ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى بعثه الله لتمـام هذا الدّين وتكْميله ؛ وأنزل عليه المُعْجزات فى تنزيله ، وحَفظ به الذِّكْرَ الحكيمَ من تَبْديله ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه وقَبِيله ؛ وسلّمَ تسليماً .

وبعـدُ، فإن بيْتَ المالِ المَعْمورَ هو نِظامُ الإسلام، وذُخْرُ الأنام ، وفيه محْصولُ المسلمين تحتَ نَظَرِ الإمام ، وفيـه مادّةُ المجاهدين فى سبيل الله علىٰ تطاوُلِ الأيام ؛ وإليه تُجْبىٰ القَناطيرُ المُقَنْطَرةُ من الأمْوال، وعنه تصدُر المبيعاتُ من الأملاك ما بين أراض وأبْنية ومَحال . والوكيلُ علىٰ ذلكَ عنّا بالمَمْلكةِ الطَّرابُلُسيَّة المحروسة هو الذّابُّ عن حَوْزَته، القائمُ بتأْمين رَوْعَته، المجتَهِدُ فى تمييز رَجْعته ؛ وينبغى أنْ يكونَ من العلمـاء الأعْلام الائمّـة ، المعوَّلِ عليهم فى الأُمور المُهِمَّه ، البَصيرِ بمـا يترجّح به جانبُ بيتِ المـال المعمورِ ويَكْشِف كلَّ غُمّه ، العَريقِ فى السِّيادةِ التى آنقادت إليها السجايا الجميلةُ بالأزِمّه .

ولمـا كان فلانٌ هو الرّاقِىَ هَضْبَةَ [هذه] المآثِر، الطّالِـعَ كوكبُ مجْده السّافِر، المستَحِقّ لكلّ آرتقاء على المنابر، ويَعُدُّ سَلَفًا كريمـا نَصيرًا فى المفاخر، ويمُتُّ ببيْتٍ

بحره زاخر؛ وله فى مذهب الإمام الشافعىّ رضى الله عنه بَحْثٌ فاق به الأشباه ... والنظائر، وعنده علمٌ بالمسائل المضروب مَثَلُها السّائر - فلذلك رسم ... ...

فليباشِرْ هذه الوظيفةَ مُحترِزًا فى كلّ ما يأتيه ويَذَره، ويقصِده ويُحرّره، ويُورِده ويُصْدِره، ويبيِّنه ويقدّره، ويُخفيه ويُظهِره، ويُبْديه ويَسْتُره، ويُدْنيه ويُحضِره؛ ويحرِّز جانبَ بيْت المال المَعْمور، بما فيه الحظُّ الموْفور، والغبطَة فى كلِّ الأُمُور، وهو عالمٌ بما فيه صلاحُ الجُمْهور؛ ومن رَغِب فى ٱبْتِياع أرَاض وقَرَاح، وأبْنِيَة وأمْلاك ورِحاب فِسَاح؛ مما هو جَارٍ فى ملْك بيْت المال فليُوفِّر جانبَ القيمَة علىٰ ما فيه الصَّلاح، وهو بحمد الله من بَيْت الدِّين والصَّلاح والإصْلاح، وهو يقوِّى بإسناده الأحاديثَ الصِّحاح؛ ومن له حقٌّ فى بيْت المال فليَسْمَعْ دعوىٰ مُدَّعيه، ولا يصرِف دِرْهمًا ولا شيْئًا إلا بحقٍّ واضح فيما يثبته فيه، وهو وكيلٌ مأمونٌ فى تأتّيه، ومعْنى الوكيل الذى يُوكَلُ إليه الأمر الذى يَليه .

والوصايا كثيرةٌ وأجلُّها تقوَى الله بالسَّمْع والبَصَر واللسان، فمن تمسَّك بها من إنْسان فإنّه يفوز بالإحسان؛ وهو غَنِيٌّ عن الوصايا بما فيه من البيان، واللهُ يجعله فى كَلاءَة الرَّحْمن؛ بمنّه وكَرَمه! . والخطّ الشريف أعلاه ... ... ، إن شاء الله تعالىٰ .

قلتُ : وقد يُكتب لوكالة بيت المال ونحوها بالآفتتاح بـ«أمّا بعدُ» علىٰ قاعدة أصْل الكتابة فى قَطْع الثلث . والكاتب فى ذلك علىٰ مايراه بحسب مايقتضيه الحال .

المرتبـــة الثـانية

(من تواقيع أرباب الوظائف الدينية بطرابلس - من يكتب له في قطع العادة ، مفتتحا بـ«رسم»)

وهذه نسخة توقيع من هـذه الرتبة بوظيفـة قراءة الحديث النبوى ، على قائله أفضل الصلاة والسلام، لمن آسمه «يحيى» يستضاء به فى ذلك، وهى :

رسم بالأمر الشريف - لا زال رميم الفضل بأرواح عنايته يحيا، وأحاديث منته الحسان تعيها أذن واعية من طيب السماع لا تعيا ؛ ولا برحت أولياء خدمه تثنى على صدقاته بألسنة الأقلام ، وتدير على الأسماع من رحيقها كئوسا مسكية الختام - أن يستقر فى كذا آستقرارا ترشف الأسماع ، كئوس روايتها فلا تروى، ورتب كماله يقصر عن طلوعها كل باع ، فمناواته لا تنوى، وربوع معروفه لا تبيد، وآيات صـلاته ينطق بتلاوتها كل بليغ فيبدئ ويعيد ؛ لأنه العـالم الذى أحيا من مدارس العلوم مادرس، والفاضل الذى أضاء بيصر علومه ليل الجهـل ولا غرو :

«فطرة الصبح تمحى آية الغلس» ؛ والكامل الذى لا يشوب كماله نقيصه، والأمثل الذى أنته المعالى رخيصه، والإمام الذى تأتم وراءه الأفاضـل، وتأخر عصره ففاق الاوائل ؛ مادرس إلا وجمع من فوائد «أبى حنيفة» و«آبن إدريس» ، ولا عرس بليل الطلب إلا حمد عنـد إدراك طلبه ذلك التعريس ؛ ولا أعاد الدروس للطلبـة إلا وترشحت منه بالفوائد ، ولا جمع ما فصله العلماء إلا وأتى بالجمع الذى لا نظير له فى الفرائد .

(١) فى الأصل : وتدير على ، وهو تحريف واضح .

فليباشر هـذه الوظيفةَ مُباشَرةً أنوارُ هداها لا تَخْمَد[1]، وليُـلازِمْها ملازمةً تشكره عليها الألسنة وتَحْمَد؛ وأنت ـ أدام الله تعالىٰ فوائدك ـ لا تحتاج إلىٰ الوصايا إذْ أنت بها عَالِم، وبأسْبابِها مُتَمَسِّكٌ وبالقيامِ بها يَقِظٌ غيرُ نائم؛ لكن التقوىٰ [أوْلىٰ] بمن عرف الأمور، ولِبـاسُ سَوابِغِها يُبْعِـدُ كلّ محـذُور؛ والاعتماد علىٰ الخطّ الشريف أعْلاه .

الصـــــنف الثـالث

(من الوظائف بطَرابُلُس التى يكتب لأربابها من الأبواب السلطانية ـ الوظائف الدِّيوانية، وهى علىٰ مرتبتين)

المرتبـــة الأولىٰ

(ما يكـتب فى قَطْع الثلث بـ«المجلس السامىّ» باليـاء، وتشـتمل علىٰ وظائف)

منها ـ كِتَابةُ السِّرّ، ويعبَّر عنه فى ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية بـ«صاحب ديوان المكاتبات» .

وهذه نسخةُ تَوْقيعٍ من ذٰلك، وهى :

الحمدُ لله الذى جعـل الأسْرارَ عنـد الأحْرار، وطَوَى الصُّحُفَ علىٰ حَسَـنات الأبْرار، وأجْرى الأقْلامَ تَرْجُماناً للأفْكار، وجعـل الحَفَظَةَ يكْتُبون الأعمـالَ مع تَطاوُل الأعْمَار، آناءَ اللَّيلِ وأطْرافَ النَّهار، وبَسط المَعانِى أرواحا، والألْفاظَ لهـا أشْباحا، مع التَّكْرار، وأبْهج الصدور بصُدُور الكُتُب والإيراد والإصدار .

(١) فى القاموس نخدت النار كنصر وسمع .

نحمدُه علىٰ فَضْـلِه المِدْرار ، ونشهدُ أن لا إلٰه إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةَ إقْرار ، وعملٍ بالجَوارِح بلا إنْكار ؛ ونشهدُ أنَّ سيدنا محمّدًا عبدُه ورسولُه المصْطَفَىٰ من مُضَرَ بن نِزَار ، المخصوصُ بالمُهـاجِرين والأنْصار ، الثّاوى بأشرف بُقْـعَة تُزَار ، المُشَرِّفُ كُتَّابَ الوَحْيِ : فهم يَكْتُبون بمـا يُمْلِيه عليهم المختار ، وجبريلُ يُلْقِى علىٰ قَلْبه الآيات والأذْكار ، عن رَبِّ العزة المُسْبِل الأسْتار ، صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبه ما نَفَح رَوْضٌ مِعْطار ، وسَحَّ صَوْبُ أمْطار ، وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

وبعـدُ ، فإنَّ مِلاكَ المُلْكِ الشَّريف حِفْظُ سِرِّه ، والاحتفـالُ بكُتُبِه الشَّريفـة ولفظها ودُرِّه ، وخطابها ونَثْره ، وخطها ونَشْره ، وخَتْمها وعِطْره ، وتجهيزها مع الأمناء الثِّقات الذين تؤمن غائلة أحَدهم فى كلّ أمْره ؛ وما أُلْقِيَ السِّرُّ الشريفُ إلّا لأكْمَلِ الأعْيان ، وصَدْر الزَّمان ، وبليغٍ كَسَحْبان ، وفَصيحٍ كقُسٍّ فى هذا الزمان ، وأصيل فى الأنْساب ، وعَريق فى كَرَم الأحْساب ، وفَاضلٍ يعنُو له فَاضلُ بَيْسَان ، ويُنْشِى لفظُه الدرَّ والمَرْجان ، وكاتبُ السِّرِّ فلا يَفُوهُ بلِسان .

ولمـا كان فلانٌ هو واسطة عِقْد الأفاضِـل ، ورأْسَ الرُّؤساء الأماثِل ، وحافِظَ السِّرّ فى السُّوَيْداء مِن قَلْبه ، وناظِمَ الدُّرِّ فى سُطور كُتْبه ؛ والمُورِدَ علىٰ مسامعنا الشريفة من عبارته ألفاظًا عِذَابا ، القائلَ صَوابا ، والمُجيدَ خِطابا ، وإذا جَهَّزَ مُهِمًّا شَرِيفًا راعاه بعَيْنِـه عَوْدا وذَهَابا ، وإذا اسْـتَعطف القُلوبَ النافرةَ عادت الأعْداء أحْبابا ، وإذا ارْعد وأبْرق علىٰ مَارِقٍ أغْنىٰ عن الجيوش وأبدىٰ عَجَبًا عُجابا ، وإذا كتب أنبت فى القِرْطاس رياضا خِصَابا .

فلذلك رسم بالأمْر الشَّريف أنْ يفوّض إليه كذا . فلْيَحُلَّ هذا المنصبَ الشّريفَ حُلُولَ القَمر هالَتَه ، ولْيُعِدْ إليه أيَّام سِرّه وسُروره الفَائتَة ، وليُعربْ عن أُصول ثابِتَة ،

وفُروعٍ فى منابت الخيرِ نابتَة ؛ ولينفِّذ المهماتِ الشَّريفةَ أوّلاً فأوّلا من غير أنْ يعلّق مُهمًّا بغـيره أو يُبَيّتَه إلىٰ غَده، وليحرِّر البَريدَ المنصورَ بيديه غير معتمد فيه علىٰ غير رَشَده، ولا يَغبْ عن وظيفتـه طَرْفةَ عَيْنٍ بل يكون كالنَّجم فى رَصَده لمرْتَصِـده ؛ وليُوصِ كُتَّاب الإنشاء لَدَيْه ، والمتَصَرِّفين بين يديه ، بكتم السِّرِّ فإن ذلك إليه ؛ فإذا أفْشىٰ أحدٌ من السِّرِّ كلمة ، فليَزجُره وليأمُره أن يحفظ لسانَه وقلَمه، وليُعْط كلَّ قضيَّة ماتستحقها من تنفيذ كَلِمَه ، والابتداءاتُ والأجوبةُ فلتَكُنْ ثغورها بألفاظه متشنّبـة وعُقودُها بإملائه مُنتظِمَة ؛ فأمَّا الابتـداءُ فهو على اقتراحه ، وأمَّا الجوابُ فهو علىٰ ما يقتضـيه الكتابُ الوارد باصْطلاحه ، ولا يَعلى إلّا إلىٰ ثقاته ونُصّاحه ؛ والكتبُ الملوكية فليوفّها مقاصدَها ، وليراعِ عَوائدَها ؛ والتَّقوىٰ فهى المُهمّ [من] أمْرِه ، وختامُ عِطْره ، وتمـامُ بَدْره ؛ والوصايا فهى كثيرةٌ لديْه وفى صَـدْره ، والله تعالىٰ يكمِّل به أوْقات عَصْره ؛ بمنّه وكرمه ! والخطُّ الشَّريف أعْلاه ... .

ومنها ــ نظر المملكة ، القائمة بها مقامَ الوِزَارة .

وهذه نسخةُ توْقيع من ذلك ، وهى :

الحمدُ لله مُفيض حُلَل إنْعامنا علىٰ من أخْلص فى طاعتنا الشَّريفـة قلبَه ولسانَه ، ومُولِى فَضـلِ آلائنا العَميمةِ علىٰ مَن أرْهَف فى مصالحها آلةَ عَزْمه وبنَانَه ؛ ومُحَلّى رُتَب عَلْيائنا الشَّريفةِ بمن أشْرق فى سمـاء المَعالى بَدْرُه وإنْسانُه ، وأينعتْ فى غصون الأمان قُطوفُه وأفْنانُه .

نحمدُه حمدًا يبلُغُ [به] أقصى غاية المجْد مَن تبْتَسِم بجميل نَظَره الثُّغور، وتعتصمُ بجميد خَبَره وخِبْرته الأُمور ، ونشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تُشْرق بها

البُـدور، ويُعتَمَدُ عليها فى الايّام والدّهور؛ ونشهدُ أنَّ سـيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه الهـادى إلى الحقّ وإلىٰ طريق مُسْـتقيم، والنّاشرُ لواءَ العَدْل بسَنَنِه الوَاضِح وشَرْعِه القويم؛ وعلىٰ آله وصَحْبِـه الذين آهتدىٰ بهَدْيِهِـم ذَوُو البصائر والأبْصار، وآرتَدَى بأرْدِيَتِهِم المُعْلَمَةِ مقتفى الآثار من النُّظّار؛ وسلَّمَ تسليمًا .

وبعـدُ، فإنَّ أوْلىٰ من أسْندنا إلىٰ نَظَرِه الجميلِ رُتْبَةَ عِزٍّ ما زالتْ بنُو الآمال عليها تَحُوم، وعدَقْنا بتَدْبِيرِه الجميلِ مَنْصِبَ سِيادَة ما برِحَتْ الأمانِىُّ له تَرُوم، واعتَمَدْنا علىٰ هِمَمِه العَلِيَّة فصَـدَّق الخُبْرُ الخَبَر، ورَكَنّا إلىٰ حَمِيـد رَأيِه فشَهِد السَّمعُ له وأدَّى النَّظَـــر .

ولمـا كان فلانٌ هو الذى رَقِىَ فى ذِرْوَةِ هَذِه المعالى، وانتظم به عِقْدُ هذه اللآلى، وحَوىٰ بفَضِيلة البيانِ واللِّسانِ مالم تدركه المُرْهَفاتُ والعَوالى؛ فمـا حلَّ ذِرْوَةَ عزٍّ إلّا حلّاها بنَظَرِه الجميـل، ولا رَقِىَ رُتْبَة سِـيادَةَ إلا وأسْفر فى ذِرْوَتِها وجهُ صُبْحه الجميل، ولا عُدِق بنَظَرِه كَفالَةُ رُتْبَة إلا وكان لهـا خيرَ كَفيل .

فلذلك رُسم بالأمْرِ الشَّريف ـ لا زال ينْتَصِى للرُّتَبِ العَلِيَّـة خيرَ مُنْجِد ومُعِـير، ويَخْتارُ للمَناصب السَّنِيَّةِ نِعْمَ المَوْلىٰ ونِعْمَ النَّصير ـ أنـ يفوَّضَ إليه كذا فإنَّه القَوِىُّ الأمين، والمتمسكُ من تَقْوى الله تعالىٰ وكِفايَتِه بالسَّبَبِ المَتِين، والمُسْتَنِدُ بجميـل كَفالَتِه وحَمِيدِ ديانَتِه إلىٰ حِصْن حَصِين، والمُسْتَذْرِى بأصالَتِه الطّاهرة وإصابَتِه إلى الجُنَّةِ الواقِيَةِ والحَرَمِ الأمين .

فليَقدَمْ خِيرةَ الله تعالىٰ ويُباشِرْ الجهةَ المذكورةَ بعزْمٍ لا يَنْبُو، وهِمّة لا تَخْبُو، وتَدْبِيرٍ يتضاعفُ علىٰ مَمَرِّ الأيّامِ ويَرْبُو؛ ونَظَرٍ لا يعزُب عن مبـاشرته مثقالُ ذَرَّة إلا وهى من خاطره فى قَرارٍ مَكين، وضَبْطٍ لا تمتدُّ إليـه يدُ ملْتَمِس إلا ويَجِدُ من مُرْهَفِه

ما يكُفّ كَفّها بالحدّ المَتين . ولْيضاعِف هِمّته، فى مصالح هذه الجهة التى عَدَقْناها نظره السعيد ، ولْيُوفّرْ عَزْمَته ، فإنّ الحازمَ من ألقَى السّمْعَ وهو شهيد ؛ والوصايا كثيرةٌ ومثله لا يُدَلّ عليها، والتّنْبيهاتُ واضحَةٌ وهو ــ وفقه الله تعالىٰ ــ أهْدىٰ من أنْ يُرشَدَ إليها ؛ واللهُ يوفّقه فى القَوْل والعَمَل، ويُصْلحُ بجميل تدبيره وحَميدِ تأثيلِه كلّ خَلَل ؛ والاعتماد علىٰ الخطّ الشريف ، إن شاء الله تعالىٰ

ومنها ــ نظر الجَيْش بها :

***

وهذه نسخة توقيع بها لمن لقبه «شمس الدّين» وهى :

الحمدُ لله الذى أطْلع فى سماء المَعالى شَمْسًا مُنيرَه ، وأينع غُروسَ أُولى الصّدارَةِ بِعِهادِ سُحُب عَوارِفِه الغَزيرَه ، وأبْدع الإحْسانَ إلىٰ من قَدّمه الاختبارُ والاختيارُ علىٰ بَصيرَه .

نحمدُه علىٰ نِعَمه التى عَمّ فَضْلُها، ومُدّ علىٰ أوْلياء الدولة القاهرة ظلُّها ؛ ونشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تُزْلِفُ لَدَيْه ، وتُسْلِفُ ما يَجِدُه المتمسّكُ بها يَوم العَرْض عَلَيْه ؛ ونشهدُ أنّ محمدًا عبدُه ورسولُه أشرفُ من بُعِثَ إلى الأُمَم كافّه ، وأكْرمُ مَن غدَتْ أمْلاكُ النّصر بآيته حَافّه ؛ صلّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين حازوا بصُحْبته الشّرف ، وفازُوا بطاعة الله وطاعته من الجنان بغُرَف من فَوْقها غُرَف .

وبعدُ ، فإنّ أوْلىٰ ما عُدِق بالأكْفاء ، وأحَقّ ما صُرِف إليه وجه الاعْتناء ، وأجْدرَ ما أُوقِظ له طَرْفٌ كافٍ لا يُلِمُّ بالإغْفاء ــ أمْرُ الجيوشِ المنصورة بطَرابُلُس

المحروسة التى لا ينهض بأعباء مصالحها إلا من عُرِفَ بالسَّداد فى قلمه وكَلِمه ، وأُلِفَ منه حُسْنُ التصرُّف فيما يُبْديه من نزاهته ويُظْهِره من هِمَمه ، بخبرة مُؤَكَّده ، وآراء مسَدَّده ، ومعرفةِ أوْضاع تَرْتيبها وأحوالها ، وقواعد مُقَدِّميها وأبطالها ، وكِفاية تفتح رحاب حالها .

ولما كان فلانٌ هو الصَّدْرَ المَلِىَّ بوافِى الضَّبْط ووافِر الاهْتِمام ، والكافِىَ الذى نطقَتْ بكفايته ألْسِنَةُ الخِرْصان وأفْواهُ الأقلام ، والضَّابِطَ الذى لا يَعْجِزُ فَهْمُه عن إحاطة العِلْم بذَوِى الآلام .

فلذلك رُسِم بالأمْر الشَّريف ــ لا زال يقدِّمُ للراتب ، كَافِيًا مَشْكورا ، ويُرَشِّح للمناصب ، صَدْرًا أضْحَى بالأمانةِ مَشْهورا ــ أنْ يفوّضَ إليه كذا : لأنّه الصَّدْر الذى تزاحَمَتْ ألْسِنةُ الثَّناء عليه ، وترادَفَتْ بين أيْدينا مَحامِدُه فقرّبْنا العوارِفَ لَدَيْه ؛ وشُكِرتْ عندنا هِمَمُه فى سَداد كُلِّ ما يُباشِرُه ، وذُكِرتْ لدَيْنا بالخيْر سيرَتُه وسَرائُره .

فلْيُباشِرْ هذه الوظيفةَ الجليلةَ مُتَحلِّيًا بين الأنام بعقُودِها ، مُطْلِعًا شَمْس نزاهَتِه فى فَلَكِ سُعودِها ؛ ناهِضًا بأعْباءِ مَنْصبه السعيد ، ضَابِطًا قَواعِدَه بكلِّ تحرير تَليد ، متقنًا دِيوانَ الجيوش المَنْصوره ، مُعْمِلًا فى ملاحظتها نافِذَ البَصَر وحُسْنَى البَصيره ؛ مُحَرِّرًا أوراق العِدَّة والعُدَّه ، باذِلًا فى ضَبْط الحِلَى اهْتِمامَه وجُهْدَه ؛ والله تعالى يُسْعِدُ جَدَّه ، ويُجَدِّدُ سَعْدَه ؛ والخطُّ الشريفُ أعلاه ... ... إن شاء الله تعالى .

قلتُ : ورُبَّما كُتِب مفتتَحًا فى هذه الرتبة بـ«أمَّا بعد» فإنها أصْل ما يكتب فى قَطْع الثلث .

المرتبـــة الثانية

(من مراتب أرباب الوظائف الديوانية بطرابُلُس ـ مَن يُكْتب له فى قَطْع العادة بـ«مَجْلس القاضى»)

وهو قليلُ الوقوع . والغالب فى ذلك أن يكتب عن نائب السلطنة بها .

وهذه نسخةُ تَوْقيع من هذه الرتبة بكتابة الدَّسْت بطرابُلُس ، يقاسُ عليه ما عداه من ذلك ، وهى :

رُسم بالأمرِ الشَّريف ـ لا زال أمْره الشريفُ ، يزيد من يَصْطَفيه شَرَفا وبِرُّه المُنيفُ ، يُفيد من يَجْتَبِيه تُحَفا ، وخَيْرُه المُطيفُ ، يُجيد لمن يختاره جُودا ، ويسُرُّ قَلْبَ مَن رفعه إلىٰ صَـدْر الدَّسْت صُعودا ، فيبَوِئُّه من جنَّات العَلْياء غُرَفا ـ أنْ يَسْتقرَّ فى كذا : آستقرارًا تُجْتَنىٰ منه ثِمـار الخيرات ، وتُجْلَىٰ عليه عَروسُ المَسَرَّات ؛ لأنَّه الرئيس الذى تَفْتخِرُ هـذه الوظيفةُ بآنتسابها إليه ، وتجمَّلُ حُلَلُها وألْوِيَتُها إذا نُشرت عليه ؛ والفَاضلُ الذى ألْقتْ إليه البلاغةُ زِمامَها ، والكامِلُ الذى ملك بيانَها ونظامَها ؛ والأديبُ الذى لا يُدْرَكُ فى الآداب ، واللَّبيبُ الذى يقصُرعنه طُولُ عامَّة الطُّلَّاب ؛ كَمْ له من كِتابَةٍ حَسَنة الآتِّساق ، وبلاغَة حصَل علىٰ فَضْلِها الآتِّفاق ، ودِيانَةٍ أطْلَق فيها لِسانُهُ ويَدَه فشكرها الناسُ على الإطْلاق ؛ فهو مُسْتَنَد الرآسـه ، وآبنُ من حاز كلَّ فخَار ورَآسـه ؛ والعَلَمُ المشهورُ عِلْمُه ، وصاحبُ القَلَم المشكورُ رَقْمُه ؛ فالمناصبُ بارتِفاعِه إليها مُفْتخِرَه ، والمراتبُ بعَلائه مُسْتَبْشِره ؛ والأسْمـاعُ بفضائله مُشَــنَّفه ، والأسْجاعُ بكَلِمِه مُشَرَّفَه .

فليباشِرْ هـذه الوظِيفَه ، وليَسلُكْ فيها طَريقَ نَفْســه العَفِيفَه ؛ ولْيُدَبِّج القِصَص بأقْلامه ، ولْيُبهِج التَّواقيعَ بمـا يُوقِّعُ مُبْرَمُ فَصيحِ كَلامه ؛ وليُزَيِّن الطُّروسَ ، بكتابته ،

ولْيُنْعِش النُّفوسَ ، ببلاغتــه ؛ وليجَمَّلْ من المبـاشرة ما تُصْبح منـه مطالعُ شَرَفه مُنيره ، وتُمْسِى به عينُ مُحِبِّه قَرِيرَه ؛ والوَصايا فهو خَطِيبُ مِنْبَرِها ، ولَبِيبُ مَوْرِدِها ومَصْدَرِها ؛ والتَّقوىٰ فلْيلازِمْ فيها شِعَارَه ، ولْيداوِمْ بها علىٰ ما يَبْلُغُ به أَوْطارَه ، واللهُ تعالىٰ يجعــلُ سُعودَه كلَّ يومٍ فى ٱزدِياد ، ويسهلُ له ما يرفعُ ذِكْرَه بين العباد ، بمنّه وكرمه ! . والاعتماد فى ذلك على الخطِّ الشريف أعلاه ، إن شاء الله تعالىٰ .

النــــوع الثـانى

(من الوظائف بطرابُلُس ـ ما هو خارِجٌ عن حاضرتهـا ؛
وهــــم علىٰ ثلاثة أَصْناف أيضـا)

الصِّـــــنْف الأوّل

(أَرْباب السيوف)

وقد تقــدّم أنّه ليس بها مقدّمُ أَلْف سوىٰ نائب السَّلْطنة بها ، وحينئذ فالنيابات بمعاملتها علىٰ طبقتين :

الطبقـــــة الأولىٰ

(الطَّبْلَخاناه)

ومَرَاسِيمُهم تُكتبُ فى قَطْع الثلث بـ«السَّامىّ» بالياء ، مفتتحة بـ«الحمد لله» .

وهــذه نسخةُ مرسوم شَريف من ذلك بنيابة قَلْعة ، تصلح لنائب اللَّاذِقِيَّــة ، يُنْسج علىٰ منوالهــا ، وهى :

الحمدُ لله الذى جعل الحُصونَ الإسلاميّةَ فى أيّامنا الزّاهرة ، مصفّحةً بالصِّفاح ، والثّغورَ المَصُونَةَ فى دَوْلتنا القاهرة ، مشرّفةً بأسنّة الرّماح ، والمعاقلَ المحروسةَ مخصوصةً من أوليائنا بمن يُعَدّ بأسُه لها أوقَى الجُنَنِ وذَبُّه عنها أقوى السِّلاح .

نحمدُه على نِعَمه التى عَوارِفُها عَميمه ، وطوارِفُها كالتّالدة للمَزيد مُسْتَديمه ، ونشهدُ أنْ لا إلٰه إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تنطِقُ الضمائرُ قبل الألسنة بإخلاصها ، وتُشرِقُ القلوبُ بعموم إحاطتها بها واختصاصها ، ونشهدُ أنّ محمّدا عبدُه ورسولُه الذى أشرقتْ بنور مِلّتِه الظُّلَمُ ، وارتوت بفَوْر شريعتِه الأُمَم ، صلّى الله عليه وعلى آله وصَحْبه الذين امتطَوْا إلى جهاد أعداء الله وأعدائه غاربَ الهِمَم ، صلاةً ساريةً كالرِّياح هاميةً كالدِّيَم ، وسلّمَ تسليما كثيرا .

وبعدُ ، فإنّ أَوْلى ما عُقِدَ عليه فى صيانة الحُصونِ الخناصر ، واعتُمِدَ على مِثله فى كفاية المَعاقل إذا لم يكُنْ غيرَ تأييدِ الله وحدَّ السّيف ناصر ـ من هو فى حِفْظ ما يليه كالصُّدور التى تصونُ الأسرار ، والكَمائم التى تحُوط الثّمار ، مع اليَقَظة التى تَذُود الطّيْفَ أنْ يُلِمَّ بحِماهِ حماه ، والفِطْنة التى تَصُدُّ الفكرَ أنْ يتخيّلَ فيه ما اشتمَل عليه وحَواه ، والأمانةِ التى ينوِى فيها طاعةَ الله وطاعةَ رسوله صلّى الله عليه وسلم وطاعتَنا الشريفة ولكلِّ امرئٍ ما نواه .

ولمّا كان فلانٌ هو السيف الذى تروق تجرِبتُه ويَروع تجريدُه ، وإذا ورد فى الوَغَى مَنْهلَ حَرْبٍ فمَشْرَعُه من كلّ كَمِيٍّ وَرِيدُه ـ اقتضت آراؤُنا الشريفةُ أن نُرهِفَ حدَّه بحِفْظ أسْنَى الحصونِ عندنا مكانًا ومكانَه ، وأسْمى المعاقل رِفعةً وعِزةً وصيانَه .

فرُسِم بالأمر الشّريف أن تفوّض إليه النيابةُ بقلعة كذا .

فليباشِرْ هذه النِّيابةَ السَّامِىَ قدرُها ، الكاملَ فى أُفُقِ الرُّتب بدرُها ؛ مباشرةً تصُدُّ الأفكار ، عن توهُّمِها ، والأبصارَ ، عن توسُّمِها ؛ والخواطرَ ، عن تخيُّـل مَغْناها ، والسرائرَ ، عن تمثُّل صورتها ومَعْناها .

ولْيكُنْ لمصالحها متَلمِّحا ، ولنَجْوىٰ رجالِهـا متصَـفِّحا ؛ ولأعذار حُماتِها مُزِيحا ، ولخواطر من أسـباب كفايتها مُرِيحـا ؛ ولمواطنهـا عامِرا ، وبمـا قلَّ وجلَّ من مصـالحها آمِرا ؛ ولوظائفها مُقيما ، وللنَّظر فى الكبير والصغير من أُمُورها مُديمـا ؛ ولخِدْمَتِها مُضاعِفا ، ولكلِّ ما يتعينُ الاحْتفال به من مُهمَّاتها واقِفا ؛ وملاكُ الوصايا تقْوَى الله : وهى أوَّلُ ما يقـدِّمه بين يديه ، وأَوْلىٰ ما ينبغى أن يصْرِفَ نظرَه إليه ؛ فلْيجعَلْ ذلك خُلُقَ نَفْسه ، ومَزِيَّةَ يومِه علىٰ أمْسه ؛ والخير يكونُ . والخط الشريف أعلاه ، إن شاء الله تعالىٰ .

الطبقـــــة الثـانية

(العشرات)

ومراسيمهم إن كُتبت من الأبواب السُّلطانية ففى قَطْع الثلث بـ«السَّامى» بغير ياء ، مفتتحة بـ«أمَّا بعد» إلا أنَّ الغالبَ كتابتُها عن نائب السَّلطنة .

وهذه نسخةُ مَرْسوم شَريف بنيابة قلْعة بَلاطُنُس ، من معاملتها وهى :

أمَّا بعـدَ حمد الله علىٰ نِعَمٍ توالىٰ رِفْدُها ، ووجب شكْرُها وحَمْدُها ، وعَذُب لذَوى الآمالِ وِرْدُها ؛ والصَّلاةِ والسـلامِ علىٰ سـيدنا محمد الذى رُفع به لقُرَيْش مَجْدُها ، فعَلا جَدُّها ، وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً لايُحصَىٰ عَددُها ولا يحصَرُ حَدُّها ــ فإنه لمـا كان فلانٌ ممن قَدُمَتْ تقادمُ خدمه ، وتعالىٰ به إلىٰ العلياء سَامِى هِمَمِه ، وترَفَّع به حُسْنُ

ولائه حتّى أعلت الدولةُ من شأنه ورفعتْ من عَلَمه، وآستكفته لَصُون الحصُون، وجادَتْ عليه بصَوْب إحسان روّى الأمانىَّ فأضحت نَضرَةَ الغُصون؛ وكانت قلعةُ فلانة هى القلعةُ التى شمخَتْ بأنفها على القلاع عُلُوّا، وسامَت الجَوْزاءَ سُمُوّا، فوجب أن لا يُستَحفظَ عليها وفيها، إلّا مَن عُرِف بحسْن المحافظة وتوفّيها؛ وكان المشار إليه هو مِنَ هذه الأوصاف، والوارِدَ من حُسْن الطاعة المورِدَ الصّافى ـ آقتضى حسنُ الرأى الشّريف أن نُنَوِّه بذكره، ونَرفَعَ من قَدْره.

ولذلك رُسم ... ... ـ لا زال ... ... أن تفوّضَ إليه النيابةُ بهذه القلعة المحروسه، وأن تكون بأوانس صِفاته مأنوسه.

فليكن فيما آستُحفِظَ كُفْوا، وليُورِد الرّعيّةَ من حُسْن السّيرة صَفْوا، وإذا تعارَض حكمُ الآنتقامِ وكان الذنبُ دُونَ الحدِّ فليقدّمْ عَفْوا. وعليه بالعَدْل، فإنّه زِمامُ الفَصْل؛ والقلعةَ ورجالَها، وذَخائرَها وأموالَها، فليُمعِن النظر فى ذلك بُكْرةً وأصيلا، وإجمالا وتفصيلا، وتحصيناً وتحصيلا. وعليه بالتمسُّك بالشّريعة المطهّره، وأحكامها المحرّره؛ وليَرْدعْ أهل الفساد، ويقابِلْ من ظَهر منه العناد، بما يؤَمِّن المناهج، ويجدِّدُ المَباهج؛ والوصايا كثيره، فليكُنْ ممّا ذكر على بَصيره؛ أعانَه الله على ما أولاه، ورَعاه فيما آسترعاه؛ والخطُّ الشريف أعلاه، حجّةٌ بمقتضاه؛ والخير يكون إن شاء الله تعالى.

الصـــنف الثـانى

(ممّا هو خارج عن حاضرة طرابُلُس ـ الوظائفُ الدِّينية)

والغالبُ كِتابتها عن نائب السلطنة بطرابُلُسَ. فإن كُتب شىءٌ منها عن الأبواب السلطانية، كان فى قَطْع العادة «بمجلس القاضى» مفتتحًا بـ«رُسم».

وهـذه نُسخة توقيع من ذلك بنظر وقف علىٰ جامع بمعاملة طرابلس، كُتب به لمن لقبه «زَيْن الدين» وهى :

رُسم بالأمر الشريف ـ لا زال كَرِيمُ نَظَرِه يستنيبُ عنه بمصالح بيوت الله تعالىٰ من تَزدادُ بنظره شَرَفًا وزَيْنا ، ويعيّنُ لهـا من الأعيـان من تُسَرُّ به خاطرًا وتَقَرُّ به عَيْنا ، ويمنحُها مَن إذا باراه مُبَارٍ وُجِد بينهما بَوْنا وبَيْنا، ويقرّر لهـا كلَّ كافٍ إذا فاه رَاءٍ بوصف آرائه الملموحة عَيَّنَ صَوابها ولا يجدُ عليها عَيْنا ـ أنْ يستقرّ بالنظر علىٰ كذا : آستقرارًا يَرى الوقفُ بنَظَرِه علىٰ رَيْعه طَلاوَه ، ويجدُ بمباشرته فى صحنه حَلاوَه؛ ويُعْرِب عن آستمراره علىٰ حُسْن الثناء، ويجدُ من نيل رَيْعه أكمل وَفاء؛ لأنّه الناظرُ الذى لا يَمَلُّ إنسانُه، من حُسْن النظر، ولا يكلُّ لِسانُه، عن الأمر بالمصالح ولفظُه عن إلقاء الدُّرَر؛ والشريفُ الذى وُجِدَتْ مخايلُ شَرَفه من فَضْـل خِلاله : والجَوَادُ الحائزُ بجوده قَصَب السَّبْق علىٰ أمثاله ؛ والكاملُ الذى لا تُوجدُ فى صفاته نَقيصَه، والفاضلُ الذى أتتْه الفضائل علىٰ رَغْمِها رَخيصَه .

فليباشِرْ هذا النَّظَر مباشرةً ما تَكَحَّل ناظرُه فيها بالوَسَن، وليُقابلْها من جميل سُلوكه بكل وَجْه حَسَن ؛ وليَبْـدَأْ أوقاف الجـامع المذكور بالعِماره ، وليقطعْ بمُدْية أمانته يَدَ من يَشُنُّ على ماله الغَاره ؛ وليأمُرْ أرْبابَ وظائفـه باللُّزوم، وليخُصَّ كُلًّا منهـم من فَضْـله بالعموم؛ وليتّق الله تعـالىٰ فى القَوْل والعَمَل، وليجتَهِدْ علىٰ أن لا يتخلّل مباشرته الخَلَل ؛ والاعتمادُ علىٰ الخطّ الشريف أعلاه ... .

الصـــــنف الثـالث

(مما هو خارجٌ عن حاضرة طرابُلُس ـ أرباب الوظائف الدّيوانية)

وقلّ أن يُكتب فيها شئٌ عن الأبواب الشّريفة السُّلطانية، وانّ الغالبَ كتابةُ ما يكتب فيها من نائب السّلطنة بطرَابُلُس . فإن اتّفق كتابةُ شئٍ من ذلك عن الأبواب السلطانية ، مَشَىٰ الكاتبُ فيه علىٰ نَهْج ما تقدّم فى الوظائف الدّينيّة : من كتابتــه فى قَطْع العادة بـ«مجلس القاضى» مفتتحًا بـ«رُسم» لا يختلف الحال منــه فى ذلك إلّا فى الفَرْق بين التّعلُّقات الدّينية والدّيوانيّــة . والكاتب المـاهر يصَرِّفُ قلمه فى ذلك وفى كلّ مايحدُث من غيره علىٰ وَفْق ماتقتضيه الحال، وبالله المستعان .

النيـابة الرابعـــــة

(نيابة حَماة . ووظائفُها التى تُكتب بها من الأبواب السلطانية، ما بحاضرتها خاصّة ، وهى علىٰ ثلاثة أصْناف)

الصـــــنف الأوّل

(أرباب السيوف)

وليس بهـا منهم إلّا نائبُ السلطنة خاصّة . ويُكْتَب له تقليــدٌ فى قَطْع الثلثين «بالجناب العالى» مع الدعاء بمضاعَفَة النّعمة .

وهذه نسخةُ تقليد بنيابة حَماة :

الحمدُ لله ذى التّدبير اللّطيف ، والعَوْن المُطيف ، والحِياطَة التى تَسْتوعبُ كُلّ تَصْريف وكلّ تَكْليف .

بحمده بمحامدَ جميلةِ التفويف، حسنةِ التأليف، مكمّلةِ التكييف، بريّةٍ من التطفيف، حريّةٍ بكلّ شكرٍ منيف، وذكرٍ شريف؛ ونشهدُ أنْ لا إله إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً خلص تحريرها عن كلّ تحريف، وتنزّه مقالُها عن تسويد تفنيد أو تسويف؛ ونشهدُ أنّ محمدًا عبدُه ورسولُه صاحبُ الدّين الحنيف، والمبعوثُ بالرّحمة والتّخفيف؛ صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه صلاةً متناوبةً تناوبَ الصّرير والصّريف، والشّتاء والمصيف؛ وسلّمَ تسليمًا كثيرا .

وبعدُ، فإنّ من شيَمِ الدّولةِ وسجاياها، وأحكامِها وقضاياها؛ تقديمَ الأهمّ فالأهمّ، وتحتيمَ الأتمّ من الرّأي وتحكيمَ التّدبير الأعمّ؛ وفعلَ كلّ ما يحوط الممالك ويحفظُها، ويُذكي العيونَ لملاحظتها ويوقظُها: لِما أوجبه اللهُ من حقوقها، وحظَره من عقوقها؛ ولا يكونُ ذلك إلا باختيار الأولياء لضبطها، والتّعويل على الأملياء بالقيام بشرطها، والاستنادِ من الزّعماءِ إلىٰ من يُوفّي من الخرّاجة[1] والعيون وافيَ قسطها .

ولمّا كانت المملكةُ الحمويّةُ جديرةً بالالتفات، حقيقةً بالحياطة من جميع الجهات؛ مستدعيةً من جميل النّظر كلّ ما يحرس ربعَها، ويُديمُ نفعَها، ويُحفّلُ ضرعَها، ويلمُّ شعثَها ويشعبُ صدعَها، ويسرّ سمعَها، ويفعم شرعَها، ويعظّم شرعَها؛ ويكتنفُها اكتناف السّور والسّوار، والهالةِ للبدر والأكمامِ للثّمار؛ وكان فلانٌ هو المتقمّصُ سحابُ هذا الوصف عن بدره المنير، والمتقلّع ضبابُ هذا التّفويض عن نور شمسه المنعشة قوىٰ كلّ نبت نضير؛ والذى بأهليّته لرتبة هذا التفويض ما خاب المستخير، ولا ندم المستشير؛ والذى يفردُه استحقاقُه بهذه الرتبة فلا يقول أحدٌ من كبير ولا صغير امتثالًا للمراسيم الشّريفة فى حقّه : «منّا أميرٌ ومنكم أمير» ـ اقتضىٰ

---

(١) فى القاموس "رجل خرّاج ولّاج كثير الظرف والاحتيال" ولعله المراد هنا .

جميلُ الرأيِ المُنيف ، أن خرج الأمر الشريف ـ لا برح يُحسن التّعويل ، ويَهدِى إلىٰ سواء السبيل ، ويَمْضِى مَضاءَ القضاءِ المُنَزَّل والسيفِ الصَّقيل ـ أن تفوّض إليه نيابةُ السلطنة المعظمة فى مملكة كذا وكذا .

فليَقْــدَمْ خيرةَ الله قائلا وفاعلا ، ومُقيما وراحلا ، ومُوجِّها ومواجِها ومُسَــجِّلا وساجلا ، وعالمًـا وعاملا ؛ ومعتمِدًا على الله فى أمْرِه كلِّه . وليكُنْ من هذه المعرفة قريبًا ، وعلىٰ كلِّ شيءٍ حتّىٰ علىٰ نفسه رَقيبا ؛ وإذا ٱتّقى اللهَ كفاه اللهُ الناس ، وإن ٱتقى الناس لم يُغْنُوا عنه من الله شيئًا فلْيَقِسْ علىٰ هذا القياس ، وليَقْتَبِس هذا الاقتباس .

وأما الوصايا فالعساكر المنصورة هم مِخْلبُ الظَّفَر وظُفُره ، وبهــم يُكْشَف من كل عَدُوٍّ سِرُّه ، ويُخَلَّىٰ وطنُــه ووَكْره ، ويضْرَبُ زيدُه وعَمْره ، ويبَدَّدُ جمعه ، ويُساء صُنْعه ، ويعمىٰ بصرُه ويُصَمُّ سمْعُه ؛ وهم أسوارٌ تُجاه الأسوار ، وأمواجٌ تَدفعُ وتندفقُ أعظم من ٱندفاق البحار ، وما منهم إلا مَن هو عندنا لمن المُصْطَفَيْنَ الأخيار ؛ فأحسن استجلابَ خواطرِهم ، وٱستخلاب بواطنهم وسرائرهم ، وٱستجلاب الشائع من[1] طاعاتهــم فى مواردِهم ومصــادِرِهم ؛ وكُنْ عليهــم شَفُوقا ، وبهــم فى غير الطاعة والاستعباد رَفُوقا ، وأوْجب لهــم بالجهاد والاجتهــاد حُقُوقا ، وٱصرف لهم حِمْــلا لأعباء المهمَّات والملمَّات مُطيقا ؛ وٱستَشِرْ منهم ذوى الرأى المصيب ، ومن أحسن التَّجْريب ، ومن تحقَّق منــه النُّصحَ من الكُهُول والشِّيب ، ممن كلّ بغيرة منــه ما شَبَّ فإنَّ المرءَ كثيرٌ بأخيه ، وإذا ٱجتمعتْ غُصونٌ فى يد أيِّدٍ عسَتْ[2] علىٰ قَصْفِه وقَصْفُ كلٍّ واحدَة فواحدَة لا يُعْيِيه .

---

(١) فى الأصل "السامع مع من" الخ وهو تحريف كما لايخفى .

(٢) فى اللسان "عسى القضيب يبس" . وهو مناسب للقام .

والجهـادُ[1] فهو ملاكُ كلِّ ٱستحواءٍ وٱستحواذ ، وبه تتميزُ أفعـال الكُفّار بالنّفاد وأفعالُ الدِّين الحنيف بالنَّفاذ ، وماجعل اللهُ للدافعين عن دين الله سواه ، ولامُرْتجى صَوْبِ صَواب إلا إيّاه ؛ وعلىٰ ذلك جعـل الله أرزاقهم ، وهيّأ لهم به إرْفاقَهـم ؛ فلْيكرِمْهم بأخذِ الأُهْبه ، فى الآعتلاء والآنصبابِ فى كلِّ هَضْبه ، والآستعداد برباط الخَيْل وكلِّ قُوّه .

ومن الوصايا التى ينبغى أنهـا تُرسَمُ فى جبهات الفِكَر [دون توانٍ] أو ركون أن لا يسْتحْقِر عدوا ، ولا يَسْتهزِئَ بقلّته لا رَواحًا ولا غُدُوًّا ، وليكُنْ للاستظهار مُسْتَوعبا ، ولإعْمـالِ المكايد مسْتَوثِبا ، وللكَشْف بعـد الكَشْف مُسْتَصْحِبا ، وغير ذلك من الأُمور ، التى بها صلاحُ الجُمْهور .

والشَّرع الشريف وتنفيذ أحْكامه ، وتقْوية أيْدى حُكّامه ؛ فهو ميزانُ الإسلام والسَّـلامه ، وقِوامُ الصَّلاح والآستقامه ، وأخُوه المُرْتضِعُ من ثَدْيِ الحَقّ ، العَـدْلُ الذى كم شَاق وكثيرا ما علىٰ أهـل الباطل شَقّ ؛ وعمَّ القريبَ والبعيـدَ ، والسائق والشَّهيد ، والمُريبَ والمريد ، وكلَّ ذِى ضَعْف مُبِيد ، وكلَّ ذِى بأْس شَـديد ، وكلَّ مُسْتَشيرٍ ومُسْتَرِيد ؛ فإنَّ ذلك إذا شَمِل حاط ، وتمّ به الآرتيـادُ والآرتباط ، وهدَىٰ إلىٰ أقْومِ صِراط .

والحدُود فهى حياةُ النفوس ، وبها تُزَالُ البؤُوس ؛ فأقِمْهـا ما لم تُدْرأْ بالشُّبُهات الشرعيه ، والأُمور المَرْعيَّه .

والأموالُ فهى مَجْلَبَـة الرِّجال ، ومَخْلبةُ الآمال ؛ وبهـا يُشَـدُّ الأزْر ، ويَقْوَى الآستظهارُ [و]الظَّهْر ، فيشُـدّ من الذين أمْرُها بهم معْدُوق ، ويقَوِّى أيْديهم بكلّ طريق فى كلِّ طُرُوق ، بحيث لا يؤْخَذ إلا الحق ولا يترك شَىْءٌ من الحقوق .

(١) فى الأصل "والاجتهاد" وهو غلط .

والرعيةُ فهُم عند وَالِى الأمْر ودَائِـعُ : ينبغى أنّها تكون مَحْفوظه ، وبعين الاعتِناء ملْحُوظَه ؛ فأحسن جِوَارَهم ، وأزِلْ نِفَارَهُم ، واكْفُفْ عنهم مَضارَّهم ، ولا تعامِلْهم إلّا بمـا لا تُسْأَلُ عنه غدًا بين يَدَى ربِّك فإنّه يراكَ حِين تَقُوم ، وأعْدِدْ جواباً لذلك فكلُّ راعٍ مَسْئُول .

وأمّا غير ذلك فلا بدّ أن تُطْلِعَك المباشرةُ علىٰ خفايا تُغْنِيك عن المُؤامره ، وستَتَوالَىٰ إليك الأجْوِبةُ عنـد المُسافَرَة فى المكاتبات الوَارِدَة والصّادره ؛ واللهُ يوفقك فى كلِّ مَنْهج تسلُكُه وتقْتَفِيه ، ويسدِّدُك فيما من ذلك تَنْتَحِيه .

قلتُ : أمّا سائرُ أرْباب الوظائف بهـا : كشَدِّ الدواوين ، وشَدِّ مراكز البَرِيد وغيرهما ، فقد جَرت العادة أنّ النائب يستقلُّ بتوليتها . فإن قدِّر كتابةُ شيءٍ من ذلك لأحد بهـا ، كُتب لمن يكون طبلخاناه فى قَطْع النصف بـ« السامى » بغير ياء ، ولمن يكون عشرة فى قَطْع الثلث بـ«مجلس الأمير» كما فى غيرها .

الصـــنف الثـانى

(أرباب الوظائف الدينية ، وهم علىٰ مَرْتبتين)

المرتبة الاولىٰ — من يُكْتب له فى قَطْع الثلث بـ«السامىّ بالياء» . وهم قُضاة القُضاة الأرْبعة .

المرتبة الثانية — من يُكتب له فى قَطْع العادة : إمّا فى المَنْصُورىّ ، مفتتحًا بـ«أما بعدُ » وإما فى الصّـغير مفتتحًا بـ«رُسِم» . وعلىٰ ذلك تُكْتب تواقيع قضاة العَسْكر بهـا ، ومفتى دار العَـدْل ، والمُحتَسِب ، ووَكِيل بيْت المـال ، ووظائف

التّداريس والتصادير، ونظر (١) إن كتب شيءٌ من ذلك عن الأبواب السلطانية، وإلّا فالغالبُ كتابةُ ذلك عن النائب بها (٢) .

النيابة الخامسة

(نيابة صَفد)

قد تقدّم في الكلام على المكاتبات أنّها في رتبة نيابة طرابُلُس وحَماةَ في المكاتبة، وأنّها تُذْكر بعد حَماةَ في المطلقات .

ووظائفها التي تولّى من الأبْواب السّلطانية عَلىٰ ثلاثة اصناف .

الصنف الأوّل

(أرباب السيوف، وفيه وظيفتان)

الوظيفة الأولى

(نيابة السلطنة بها ، ويكتب تقليده في قطْع الثلثين)

وهذه نسخةُ تقليد بنيابة السّلطنة بصَفَد ، كُتب به لسيف الدين «قطلقتمس» السلحدار الناصري ، في سابع رمضان سنة عَشْر وسبعمائة، من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبيّ ، وهي :

الحمدُ لله الذي صانَ الثُّغورَ المحروسةَ من أوْليائنا بسَيْف لا تَنْبُو مَضاربُه، وخصّ أسْنى الممالك المصُونة من أصْفيائنا بعَضْب لا يُفَلُّ غَرْبُه مُحَاربُه، وقدّم علىٰ زَعامَة

(١) بياض بالأصل ولعله الأحباس .

(٢) ترك الكلام على الصنف الثالث وهم أرباب الوظائف الديوانية كما يؤخذ من نظائره السابقة واللاحقة .

الجيوش من خواصّنا لَيْثًا يسكُنُ إليه كلُّ أَسَدٍ من أُسدٍ ذائلةٍ (١) تُغالِبُه ، حافِظَ (٢) نطاق البَحْرِ من أبْطال دولَتنا بكلِّ كَمِىٍّ تصُدّ البحرَ مهابتُه أنْ يَسْتقلَّ براكِبه أو تستقرّ علىٰ ظهره مراكبُه ، وناشِرَ (٢) لواءِ عدْلِنا فى أقالِيمنا بما يُغنى كلَّ قُطْر [عن] أن تتدفّق جداولُه أو تستهلّ به سَحائبُه .

نحمدُه علىٰ نِعَمه التى جعلتْ سيْفَ الجهاد رائدَ أوامرِنا ، وقائدَ جيوشنا إلىٰ مواقف النّصر وعساكرِنا ، وذائدَ أعْداءِ الملة عن أطْراف ممالكنا التى أسْبَقُ إليها من رَجْع النَّفَس فى الدُّجَىٰ تألُّقُ نجوم ذَوابِلنا ، وفى الضُّحَىٰ تبلُّجُ غُرَرِ صَوارمنا ؛ ونَشْهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً يستظلُّ الإيمانُ تحت لِوائها ، وتَعبَق الأكْوانُ بما تنطِق به الألْسنةُ من ارواِئها ، ويُشرق الوجودُ بما يبدُو على الوجوه من رُوائها ، وتُجادِلُ أعداءها فى الآفاق لرفْع كلمة مِلّتها على المِلَل وإعْلائها ؛ ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه خاتَمُ الأنْبياء ، وأشْرف حَمَلَة الأنْباء ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه المخصوصين بأسْنىٰ مراتِب الاجْتباء ، صلاةً دائمةً بدوام الأرْض والسماء ؛ وسلّم تسليمًا كثيرا .

أمّا بعدُ ، فإنّ أوْلىٰ من فُوِّضتْ إليه زَعامةُ الجيوش بأسْنَى الممالك ، وعُدِق به من تَقدُّم العساكر ما يُرجِفُ بمهابته هُناك أرْضَ العدُوِّ هُنالك ؛ وعُقِدَ به للرعايا لِواءُ عدلٍ تَجلَّى بإشراق لَيْل الظُّلْم الحالك ، وعُوِّل عليه من جميل السيرة فيما تَعْمُر به البلادُ وتأمنُ به الرعايا وتَطْمئنُّ به المسالك - من لم يزَلْ فى خدمة الدولة القاهرة سيفًا تَرْهَبُ العدا حدَّه ، ويخافُ أهلُ الكُفر فَتكاته تحقُّقًا أنّ آجالهم عِندَه ، ويتوقّعُ كلُّ كَمِىٍّ من عظماء الشِّرك أنّ رأسَه سيكونُ غِمْده ؛ مع سياسة تشتملُ على الرعايا

(١) ذائلة طويلة الذيلة .

(٢) حق التركيب «وحفظ عطفا على صان» ... ونشر لواء .

ظلالهـا الممتدّه، وسيرة تضعُ الأشياءَ مواضعَها فلا تَضَعُ الحِدّةَ موضع اللّين ولا اللّينَ موضعَ الحِدّه؛ وتوفُّرٍ علىٰ عمـارة البلاد يُعينُ علىٰ رَيِّها طَلَّ الأنْواء والوابل ، وبراءةٍ تجعلُ ما يودَعُ فيها بالبركة والنّمـاءِ : ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾ .

ولمـا كان الجناب العالى هو السيفَ الذى علىٰ عاتِق الدّولة نِجادُه، واللّيثَ الذى لم يزلْ فى سبيل الله إغارتُه وإنجادُه؛ والغيْثَ الذى يُخْصِبُ بمعدِلَتِه البلدُ الماحل ، والأسـدَ الذى تَصُدّ ساكنى البَحْر مهابَتُه فيتحقّقُون أنّ العَطَبَ لا السلامةَ فى الساحل ــ اقتضت آراؤنا الشريفةُ أن نزيدَ حدَّ عزمه إرْهافا، وأن نُرهبَ العدا ببَأسه الذى يردُّ آحادَ ما تقدَّم عليـه من الجيوش آلافا ، وأن نُفوّضَ إليه من أمور رعايانا ما اذا أسند[1] إليه يُوسِعُهم عَدْلًا وإنْصافا .

فلذٰلك رسم بالأمْر الشريف : أن تفوَّضَ إليـه نيابةُ السلطنة الشريفة بصَـفَد المحروسة : تفويضًا يُعلِي قَدْرَه، ويُمضِى فى عموم مصالحها وخُصوصِها نَهْيه وأمْره؛ ويُرْهِفُ فى حفْظِ سواحلها وموانيها بِيضَه وسُمْرَه، ويُصْلِي مُجاورَها من ساكنِى المـاء من بَأْسه المُتَوقِّدِ جَمْرَه .

فلْيَتَلَقّ هذه النعمةَ ببَاعِ شُكْرِه المَديد، ويَترقّ هذه المرتبةَ بمزيّةِ اعْتزامه التى ليس عليها فيما يُعلَقُ به من مصالح الإسلام مَزِيد؛ وينشُرْ بها من عموم مَعْدِلَتِه مالايَخُصّ دونَ قومٍ قومًا؛ ويعمّرْ بلادَها بالعَدْلِ : فإنّ «عدْلَ يومٍ واحدٍ خيرٌ للأرض من أنْ تُمطَرَ أرْبعين يومًا» ؛ ويبسُطْ فيها من مَهابَتِه مايَكُفُّ أكُفَّ البُغاة أن تَمْتدّ، ويمنع رُخَاءَ أهْويةِ أهْلها أن تشتدّ ؛ ويؤَمِّنِ المسالكَ أن تُخاف ، والرعايا أنْ يُجار عليهـم أو يُحاف ؛ ولْيكُنْ مَن فى تَقْدمَته من الجيوش المنصورة مكمَّلى العَدَد والعُدَد ،

(١) فى الأصل "رعايا أسند اليه ما" الخ وهو غلط من الناسخ .

ظَاهِرِى اللَّأْمَةِ التى هى مادّةُ المجالدَةِ وعَوْنُ الجَلَد؛ مُزاحِى الأعْذارِ فيما يُرْسم لهم به من الرُّكوب، مُزالِى العوائق فى التّأهُّب لمـا هم بصَدَدِه من الوُثوب؛ حَافِظِى مَراكِزِهم حِفْظَ العيون بأهْدابِها، آخذِى أخْبار ما يشْغَلُ البَحْر من قطع العدا فى حال بُعْـدها كحَال اقترابهـا ؛ بحيثُ لا يُشْرِفُ علىٰ البرّ من قِطَع المخْذُولِين إلا أسيرٌ أو كَسـير، أو مَن إذا رجَعَ بَصَرَه إلى السّواحل ينقلب إليـه البَصَرُ خَاسئًا وهو حَسِير؛ وليكُنْ أهْلُ الجبـالِ بمهابَته كأ[هلا]لسّهل فى حُسن انقيادهم وطَاعَتِهم، ويصـدّ عنهم بسطوته مَجَال الأوْهام المتّصلة فلاتنْصرف إلىٰ غيرمُجاوِرِيهم من الأعْداء مواقعُ بأْسِهِم وشَجَاعَتِهم؛ وملاكُ الوصايا تقوى الله : وهى من أخصّ أوْصافه، والجمعُ بين العَدْلِ والإحسان وهما من نتائج إنصافه؛ فلْيجْعَلْهما عمدَتَىْ حُكْمه فى القول والعمل، والله تعالىٰ يجعلُه من أوليائه المتّقين وقد فَعل؛ والاَعتِماد ... ... إن شاء الله تعالىٰ .

الوظيفـــة الثانيـــة
(نيـابةُ قَلْعة صَفَد)

وهذه نسخةُ مَرْسومٍ شريف بنيابة قَلْعة صَفَد المحروسة، من إنشاء المقرّ الشهابىّ ابن فضل الله، كُتب به للأمير سيف الدين «أزاق الناصرى» خامس المحرّم سـنة أربع وثلاثين وسبعمائة، وهى :

الحمـدُ لله الذى خصّ الحصونَ برِفْعة ذُراها ، وسُمْعَة مَن فيهـا من رجالٍ تحْمى اها؛ وتَخْطَفُ أبصارَ السيوف بسَناها، وتُصيبُ برميها حتىٰ قَوْس قُزَح إذا راماها .

نحمَدُه حمدًا تبرُزُ به المعاقلُ فى حِلاها ، وتفْخَرُ به عقائل القِـلاع علىٰ سوَاها ، وتشْرُفُ به شُرُفاتها حتّىٰ تجرى المَجَرّةُ فى رُباها؛ ونشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً يطيب جَنَاها ، ويطنب فى السماء مُرْتقاها ؛ ونشهدُ أنّ سيّدنا

محمدًا عبدُه ورسولُه الذى كَتَب به للأمَّة هُـداها ، وكَبَت عِداها ، وبوَّأها مقاعدَ للقتال تَقْصُر دُونَها النجومُ فى سُراها ؛ صلَّى اللهُ عليـه علىٰ آله وصَحْبه صلاةً لا ينقَطِع عنهم قِرَاها ، وسلَّم تسليمًا كثيرًا دائمًا إلىٰ يوم الدين .

وبعـدُ ، فإنَّ صفَدَ صَفَتْ ، ووفَتْ ووَفَتْ ، وكَفَّتْ وكَفَتْ ، وجاورتِ البَحْرَ فما غَمَضَتْ عنـه لدَيادِبها عُيون ، ولا خِيطَتْ لسيوفها بالكَرَىٰ جُفُون ، ولا وَنَتْ لرماحها عَزائمُ شابَتْ لِمَمُها ، ولا آنتَشَتْ من السِّهام نِبالٌ تَفيضُ دِيَمُها ، ولا أطالَتْ مجانيقُها السُّكوتَ إلا لتَهْدِرَ شَقاشِقُها ، وتُهَدَّ بها من الجبال شَواهقُها ، وتَهولَ العدا بما تُريهم من التَّهْويل ، وتَرْمِى به من كفَّاتها الحجارةَ من سجِّيل .

وهى القلعةُ التى يضرِب المثَـلُ بحَصَاناتها ، ويَطْمَئِنُّ [أهلُ] الإسـلام فى إيداع أموالهم وأهْلِهم إلىٰ أماناتها ؛ قد أطَلَّتْ على الكواكب نزولا ، وجَرَّدَتْ علىٰ مِنْطَقَة بُروجِها من البُروق نُصولا ؛ وأتْعبتِ الرياحَ لمَّا حلَّقَتْ إليها ، وأخافَتِ الهلالَ حتَّى وقَف رَقيبًا عليها ؛ وفيها من جنودنا المؤيَّدة مَنْ نَزيدُهم بها مَدَدا ، وتَطيبُ قلوبُهم إذا خرجُوا لجهاد أعداء الله وخَلَّوْا لهم فيهـا مالًا وولَدا . وكانت النيابةُ بهـذه القلعةِ المحروسةِ قد كادتْ تَنطِقُ بِشَكْواها ، وتَتَظلَّمُ ممَّن أساء صُحْبتَها لمَّا تولَّاها ؛ وآقتضَتْ آراؤُنا العاليةُ أن نُزَحْزِحَ ظَلامَه ، عن صَباحِها ، ونُقوِّضَ خِيامَه ، عما فَرَش على الفُلْك الشاهقة من بِطاحِها ؛ وفكَّرْنا فيمَن له بالقِلاع المحروسة دُرْبَةٌ لايخفَىٰ عليه بها سُلُوك ، ولا يُخاف معه علىٰ هذه الدُّرّة الثمينة فى سُلوك ؛ ممَّن حُمِـد فى دَوْلتنا الشريفة مَساءَ صَباح ، ومَن كان فى أبْوابنا العاليـة هو الفَتَّاح ؛ ومَن له هِمَّةٌ تُناطُ بالثُّريَّا مطالبُها ، وعَزْمَةٌ ما آلقضاءُ إلا قَواضِبُها ، ومعرِفَةٌ ما الرُّمْحُ المثقَّفُ إلَّا تَجارِبُها ، وكِفايةٌ ما الغُرُّ الزواهرُ إذا عدِّدت إلَّا مناقبُها .

وكان المجلس السامى – أدام الله عزّه – هو المحلّق إلى هذه المرتبه ، والمخلّق بالأصيل أرديتها المذهبه ؛ والمحقّق فى صفاته الورع ، والمنزّه عن تدنيس طباعه بالطّمع ؛ وله فى الأمانة اليد المشكوره ، وفى الصّيانة مايتع به ذيول السّحاب المجروره ؛ ومن التّقوى ما قرّب عليه المطالب البطيّه ، ومن الفروسيّة ما آتخذ كلّ ذروة صهوة وكلّ جبل مطيّه ، ومن الآستحقاق مايسّهل له من صدقاتنا الشريفة صفد : وفى اللّغة أنّ الصفد هو العطيّه

فرسم بالأمر الشريف – شرّفه الله وعظمه ، وأحكمه وحكّمه – أن يرتّب فى النيابة بقلعة صفد المحروسة : على عادة من تقدّم وقاعدته فى التقرير ، وأمّا كيف يكون آعتماده ، فسنرشده منه بصبح منير .

فقدّم تقوى الله فى سرّك ونجواك ، وآقصر على القناعة رجواك(١) ؛ وآحفظ هذه القلعة من طوارق اللّيل والنّهار ، وأعدّ من قبلك للقتال فى قرى محصّنة أو من وراء جدار ، وآملأ سماءك حرسا شديدا ، وشهبا وكثّر رجالها لتبارى بهم النّجوم فى أمثالها من بروج السماء عديدا ، وخذ إلى طاعتنا الشريفة بقلوبهم وهم على ذلك ولكنّا نريد أن نزيدهم توكيدا ، وتألّفهم على موالاتنا حتّى لا تجد أنت ولاهم إلى المزيد مزيدا ؛ وتفقّد الذخائر والآلات ، وتيقّظ لما تلجئ إليه الضائقة فى أوسع الأوقات ؛ وحصّن مبانيها ، وحصّل فيها من الذخائر فوق ما يكفيها ؛ ومن السّلاح ما هو أمنع من أسوارها ، وأنفع فى أوقات الحاجة ممّا تكنزه الخزائن من درهمها وديناارها ، : من مجانيق كالعقارب شائلة أذنابها ، دافعة فى صدر الخطب إذا نابها ؛ ترمى بشرر كالقصر ، وتنزل من السماء بآيات النّصر ؛ ومن قسىّ : منها ما تدافع بالأرجل مرامى

(١) مراده واقصر رجاءك على القناعه ولكن اضطره السجع فاستعمل مصدرا للرجاء ليس فيا بأيدينا من كتب اللغة فتنبه .

سهامه ، ومنها ماتدوّر بالأيدى كأس حِمامه ، ومنها مايَسْكُت إذا أُطْلق حتّى لايسمع كَلامُ كَلامه ، ومنها مايترنّم إذا غنّى بالحمام صَوْتُ حَمامه ؛ و[من] ستائر يستتر بها وجْهُها المصُون ، ومَنائر يُشاهَدُ منها أقربُ مَن يكونُ أبْعدَ مايكُون ؛ ورهجية تُجلَى بها فى كلّ ليلة عروسُها المُمنَّعه ، ودرّاجة تحاط بهم من جهاتها السِّتّ وحدودها الأربعه ؛ وأقرّ نُوَبَ الحَمامِ الرَّسَائلى فبها تَسْقُط علينا وعليك الأخْبار ، ويُطْوَى المَدَى البَعيدُ فى أوّل ساعة من نَهار ؛ وافتح البابَ وأغلقه بشَمْس ، واحترز علىٰ ما اشتملت عليه من مَال ونفْس ؛ وبقيةُ الوصايا أنت بها أمَسّ ، والله تعالىٰ يزيل عنك اللَّبْس ؛ والاعتماد ... .

الصنف الثانى

(أرباب الوظائف الديوانية)

والذين يكتب لهم من الأبواب السلطانية صاحبُ ديوان الرَّسائل ، وناظرُ المال ، وناظرُ الجَيْش ، ووكيل بيْتِ المال . وما عدا ذلك فإنّه يكتب عن نائبها ، وربما كتب عن الأبْواب السلطانية .

الصنف الثالث

([أرباب] الوظائف الدينية ، وهى علىٰ مرتبتين)

المرتبة الأولىٰ : ما يُكتب فى قَطْع الثلث بـ«السّامى» بالياء ، وهم القضاة الأربعة .

المرتبة الثانية : من يُكتب له فى قَطْع العادة ، وتشتمل علىٰ قَضَاء العَسْكر ، وإفتاء دار العَدْل ، والحِسْبة ، ووكالة بيت المال .

الصنف الرابع (١)

(أرباب الوظائف الديوانية)

والذى يكتب به من الوظائف الديوانية بها ـ ثلاث وظائف، يكتب لكلٍّ منهم فى قطع الثلث بـ«السامى » بالياء، وهم : صَحابةُ ديوان المكاتبات ، ونَظَرُ المَال، ونظرُ الجَيْش . فإن كُتب لأحد غير هؤلاء ، كتب له فى قَطْع العادة .

النيابة السادسة

(نيابة غَزَّة)

وقد تقدّم أنّها تارةً تكون نيابةً، وتارة تكون تقدمةَ عَسْكر ، ومُقدَّمُ العسْكَر بها يراجِع نائبَ الشَّام فىأموره . وبكلِّ حال فالوظائف التى تُولَّى بها من الأبْواب السلطانية علىٰ صِنفين :

الصّنف الأوّل

(أرْباب السُّيوف)

وليس بها منهم إلّا نائبُ السَّلطنة إن كانت نيابةً، أو مُقدَّمُ العَسْكر إن كانت تَقدِمةَ عسكرٍ . فكَيْفما كان فإنّه يُكتب له تقليدٌ فى قَطْع الثلثين بـ«الجناب العالى» مع الدعاء بدوام النِّعمة .

وهذه نسخةُ تقليد بنيابتها : كُتِب به للأمير « عَلَمَ الدِّين الجاولى » من إنشاء الشَّيخ شِهاب الدِّين محمود الحلَبِىّ، وهو :

---

(١) هذا الصنف زائد على مافى التقسيم ومع ذلك هو بمعنى الصنف الثانى وغاية مافى هذا أنه بين فيه اللقب وقطع الورق تنبيه .

الحمدُ لله رافعِ عَلَمِ الدِّين فى أيامنا الزاهرة، بإقامة فَرْض الجهاد وإدامته، وجامع رُتَبِ التقديم فى دولتنا القاهرة، لمن تفترّ الثغور بين ترقرق عدله وتألّق صرامته، وقاطع أطماع المعتدين بمن يتوقّد بأسه فى ظلال رفقه توقّد البرق فى ظُلَل غمامته، وقامع أعدائه الكافرين بتفويض تقدمة الجيوش بأوامرنا إلى كلّ ولىّ يجتنى النّصر ويجتلى من أفنان عزماته ووجاهة زعامته .

نحمده على نعمه التى سدّدت ما يصدر من الأوامر عنّا ، وقلّدت الرتب السنية بتقليدها أعزّ الأولياء منّا منّا، ورجّحت مهمّات الثغور لدينا على ما سواها فلا تعدق أمورها إلا بمن تعقد عليه الخناصر نفاسة به وضنّا؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً لا تزال القلوب بإخلاصها متديّنه ، والألسنة بإعلانها مترنّه ، والأسنّة والأعنّة متبارين فى إقامة دعوتها التى لا تحتاج أنوارها البيّنة إلى البيّنه ؛ ونشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله أشرف مبعوث إلى الأمم ، وأكرم منعوت بالفضل والكرم ، وأعزّ منصور بالرعب الذى أغمدت سيوفه قبل تجريدها فى القمم ؛ صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين نهضوا بجهاد أعداء الله وأعدائه على أثبت قدم، وسروا لفتح ما زُوى له من الأرض على جياد العزائم ونجائب الهمم، وبذلوا نفائسهم ونفوسهم للذّبّ عن دينه فلم تستزلّ أقدامهم حمر النّعم، ولم يثن إقدامهم بيض النّعم؛ صلاةً لا يملّ السامع نداءها ، ولا تسأم الألسن إعادتها وإبداءها ؛ وسلّم تسليمًا كثيرا .

وبعد، فإنّا من حين مكّن الله لنا فى أرضه ، وأنهضنا بمسنون الجهاد وفرضه ؛ وقلّدنا سيف نصره الذى انتضاه ، وأقامنا لنصرة دينه الذى ارتضاه ؛ لم يزل مهمّ كلّ ثغر مقدّما لدينا ، وحفظ كلّ جانب جاور العدوّ برًّا وبحرًا متعينًا على اعتنائنا

ومُحبّباً إلينا ؛ فلا تُرهِفُ لإيالة الممالك إلّا من إذا جرّد سيْفَه أغْمده الرُّعْبُ فى قلوب العدَا، ومَن إنْ لم تَسلُك البَحْرَ خيْلُه بثّ فى قلوب ساكِنيه سَرايَا مَهابَةٍ لا تَرْهبُ مَوْجًا ولا تستبعِدُ مَدىً؛ ومَن إذا تقدّم على الجُيوش أعاد آحادها إلىٰ رُتَب الأُلُوف، وجعل طلائعَهم رُسُلَ الحُتُوف ، وأعْداهم بَأْسه فآستقَلُّوا أعْداءَهم وإن كَثُروا ، وأغْراهُم بمعنَى النِّكايَةِ فى كَتائِب العِـدا : فكَمْ من قَلْب بالرِّماح قد نَظَمُوا وكَمْ من هَامٍ بالصِّفاح قد نَثَرُوا .

ولذٰلكَ لمَّـا كان فلانٌ هو الذى ما زال الدِّين يرفَعُ عَلَمَه ، والإقْدامُ والرَّأْيُ يثبِّتان فى مقاتِل العِدا كُلُومَه وكَلِمَه، والعَدْلُ والبَأْسُ يتَوَلّيان أحْكامه فلا يُمْضِيان إلّا بالحقِّ سَيْفَه وقَلَمَه؛ فكَمْ نكّس رايَةَ عدُوٍّ كانت مُرتَفِعَـه ، وأباح عَزْمُه وحَزْمُه معاقِلَ شِرْكٍ كانت مُمْتنِعَه ؛ وكَمْ زلزَلَ ثَباتُه قَدَم كُفْرٍ فأزالَها ، وهزَم إقْدامُه جُيوشَ باطِلٍ ترهبُ الآسادُ نِزالَهـا ؛ فهو العَـلَمُ الفَرْد ، والبطَلُ الذى لأوْليائه الإقْبـالُ والثَّبات ولأعْدائِه العَكْسُ والطَّرْد ، والوَلىُّ الذى لولا آحْتِفالُنا بنِكايَةِ العِدا لم نسمَحْ بمِثْله ، والهُمام الذى ما عدَقْنا به أمْرًا إلا وقع فى أحْسن مواقعه وأُسنِد إلىٰ أكْمل أهْله .

وكانت البلادُ الغَزّاوِيّة والسَّاحِليّة والجَبليّة على ساحل البَحْر بمنزِلة السُّورِ المشرَّف بالرِّماح ، المصفَّح بالصِّفاح، مُرُوجُه الحُماه، وقُلَلُه الكُماه ؛ لايَشِيمُ برْقَه من ساكِنى البحْرِ إلا أسِيرٌ أو كَسِير، أو مَن إذا رجع إليه طَرْفَه ينْقَلِبُ إليـه البَصَرُ خاسِئًا وهو حَسِير؛ وبهـا الجيشُ الذى كَمْ لسـيوفه فى رِقابِ العِدا من مَواقِع ، ولسُمْعتِه فى قلوب أهْل الكُفْرِ من إغارَة تَرَكَتْها من الأمْن بَلاقِع ؛ وبها الأرض المقدّسـه ، والمَواطِنُ التى هى على التَّقوىٰ مُؤَسّسه؛ والمعابِدُ التى لا تُعْدَقُ أُمورُها إلا بمِثْـله من أهْل الدِّين والوَرَع ، والأعْمالُ التى هو أدْرىٰ بمـا يأْتِي من مصالحها وأدْربُ بمـا

بَدَع ـ اقتضتْ آراؤُنا الشريفـةُ أنْ نَعْلَقَ به نيـابةَ مُلْكِها ، وتزيِّنَ بلالئِ مفاخره عُقودَ سلْكِها ، وأنْ نفوِّضَ إليه زَعامةَ أبطالها ، وتَقْـدِمةَ عساكرها التى تلْقَ البَحْر بأزْخَرَ من عُبابِه والأرْضَ بأثبتَ من جِبالها ، وأنْ نرمِىَ بحْرَها من مَهابَتـِه بأهْولَ من أمْواجِه ، وأمَرَّ فى لَهَواتِ سَاكِنِيه من أُجَاجه ، لتَغْدوَ عقائلُ آهِله ، أرقَّاءَ سيْفِه الأبيض وذَابِله ، ويُتَبِّر العَدُوَّ الأزْرقَ من بنى الأصْفَر، خوفُ بأسه الأحْمر .

فلذلك رُسم بالأمْر الشَّريف أن يفوِّض إليـه كَيْت وكَيْت : تفويضًـا يحقِّق فى مثله رجَاءَها ، ويزيِّنُ بعدْله أرْجاءَها ، ويصونُ ببأْسـه قاطِنَها وظَاعِنَها ، ويَعمُرُ ويغْمُر برِفْقه وإنْصافه مساكنَها وساكِنَها .

فلْيباشِرْ هـذه الرُّتبةَ التى يُكَمَّل به سُـعودُها ، ويُجمَّل به عُقُودُها ، مباشرة يُخيفُ بأسُها اللُّيوثَ فى أجَماتِها ، ويُعينُ عَدْلُهـا الغُيوثَ علىٰ دَفْع أزَماتِها ، ويغْدو بها الحقُّ مرفُوعَ العَـلَم ، مسْمُوع الكَلِم ، ماضِىَ السَّيف والقَلَم ، ممدودَ الظِّلِّ علىٰ من بهـا من أنْواع الأُمَم . وليأْخُذِ الجيوشَ التى بهـا من إعْداد الأُهْبـة بمـا يُزِيلُ أعْذارَهم عن الركوب ، ويُزيحُ عوائقَهم عن الوُثوب ، ويجعلُهم أوَّلَ مُلَبٍّ لداعى الجهاد ، وأسرعَ مُجيب لنداء ألْسـنة السُّيوف الحِـداد ، وينَظِّم أيْزاكهم علىٰ البَحْر انْتِظـام النُّجوم فى أفلاكها ، والشُّذُور فى أسْلاكها ، فلا تَلُوح للأعْداء طريدةٌ إلا طُرِدت ، ولا قِطْعةٌ إلا قُطِعَت ، ولا غُرابٌ إلا حُصَّتْ قوادِمُه ، ولا شَامِخ عمارة إلا وأُتيحَ له من اللَّهاذِم هادِمُه . ولْيُعْـلِ منارَ الشَّرع الشَّريف بإمْضاء أحْكامه ، ومُعاضَـدَة حُكَّامه ، والانْقياد إلىٰ أوامِره ، والوُقوف مع مَوَارد نَهْيه ومَصادِره ؛ ولتَكُنْ وطْأته علىٰ أهْل العناد مشْتَدَّه ، ومعرِفتُه تَضَعُ الأشْياء مواضعها : فلا تَضَعُ الحِدَّةَ موضِعَ اللِّين ولا اللِّينَ موضعَ الحِدَّه ؛ وليَعْلَمْ أنَّه وإن بَعُـد عن أبْوابنا العالية مخصوصٌ منَّا

بمزيّة قُرْبه ، مختص بمنزلة إخلاصه التى أصبح فيها على بيّنة من ربّه ؛ وجميع مايذكر من الوصايا فهو مما يُحكَى من صفاته الحسنه ، وأدواته التى مابرحت الأقلامُ فى وصف كمالها فصيحة الألسنه ؛ وملاكها تقوى الله وهى فى خصائصه كلمة إجماع ، وحِلْية أبصار وأسماع ؛ والله تعالى يُعلِي قدْره وقد فعل ، ويؤيّده فى القول والعمل ؛ والاعتماد ... .



وهذه نسخةُ تقليد بتَقْدمة العَسْكر بغزّة المحروسة :

الحمدُ لله مُبْدئ النِّعم ومُعيدها ، ومؤكّد أسبابها بتجديدها ، ومُعْلِى أقدارها بمزايا مَزِيدها ؛ الذى زيّن أعناقَ الممالك من السُّيوف بتَقْليدها ، وبيّن من ميامنه ما رُدّت إليه بمقاليدها .

نحمدُه بمحامده التى تفوت الدّرارىَّ فى تنْضيدها ، وتفُوق الدُّرَّ فيتمنّى منه عِقدَ فريدها ؛ ونشهدُ أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً نافعةً لشَهيدها ، جامعةً لتَوْحيدها ، ناقعةً لأهل الجُحود بما يُورِّدُ الأرضَ بالدّماء من وَريدها ؛ ونشهدُ أنّ محمّدا عبدُه ورسولُه الذى كاثَر الأمَم بأمّته فى عَديدها ، وظاهَر على أعداء الله بمن يفُلّ بأس حديدها ، فيُرسِلُ من أسنّته نجومًا رُجومًا لمَريدها ، صلّى الله عليه وعلى آله وصَحْبه صلاةً نتظافر بتأييدها ، وسلّم تسليمًا كثيرا .

وبعدُ ، فإنّ من عوائد دَولتنا القاهرة أنْ تَعود بإحْسانها ، وتجُود بثُبوت كلّ قَدَم فى مكانها ؛ وإذا ولّتْ عرف سَحابها عن جهة عادتْ إليها ، أو سَلَبت لها رَوْنقًا أعادت بهجَته عليها ؛ وكانت البلاد الغَزّاوِيّة وما معها قد تمتّعتْ من قدماء ملوك (١)

(١) فى الأصل «ممالك» وهو لايناسب المقام .

بيتنا الشريف، بسيف مشهور، وبطل تُشام بوارقُ عزمه فى الثغور، وهو الذى عمّ بصيّب بلادها سهلا وجبلا ، وعمّر روضها بعدل أغناها أن يسقى طلٌّ طللا ؛ وجمع أعمالها برًّا وبحرا، ومنع جانبيها شامًا ومصرا ؛ وألف أهلها منه سيرةً لولا ما استأثرنا الله به من سرّه لما أفقدناهم فى هذه المدّة حلاوة مذاقها ، وسريرةً لا نرضى معها بكفّ الثريا إذا بسطت لأخذ ميثاقها ؛ ولم نرفع يده إلا لأمر قضى الله به لأجل موقوت ، ومضى منه ما يعلم أنه بمرجوعه القريب لا يفوت؛ لأنّ الشمس تغيب لتطلع بضوء جديد، والسيف يغمد ثم ينتضى فيقدّ القدّ والجيد ؛ والعيون تسهّد ثم يعاودها الرقاد، والماء لو لم يفقد فى وقت لما وجد لموقعه بردٌ على الأكباد .

فلما بلغ الكتاب أجله ، وأخذ حقّه من المسأله ؛ وانتقل من كان قد استقرّ فيها إلى جوار ربّه الكريم، وفارق الدنيا وهو على طاعتنا مقيم ـ اقتضت آراؤنا الشريفة أن نراجع هذه العقيلة كفؤها القديم ، وترجع هذه الأرض المقدّسة إلى من فارقها وما عهده بذميم ؛ من لم تزل به عقائل المعاقل تصان ، وخصور الحصون بحمائل سيوفه تزان، ومباسم الثغور تحمى فى كلّ ناحية من أسنّته بلسان، وحمى الثغرين وما بينهما من الفجاج ، وجاور البحرين فمنع جانبيهما : فهذا عذبٌ فراتٌ وهذا ملحٌ أجاج؛ وله فى العدا وقائع زلزلت لمواقعها الألوف، ومواقف لولا ما نعقت فيها من غربان البين لطال على الديار الوقوف؛ وهو الذى مدحت له فى بيتنا المنصور المنصورىّ من الخدمة سوابق ، وحمدت طرائق ؛ وكثرت محاسن ، وكبرت ميامن، ولمعت كواكب، وهمعت سحائب؛ وصدحت حمائم ، وفتحت كمائم ؛ وعزّت جيوشنا المؤيّدة له بمضارب، وهزّت سيوفًا حدادًا وهو بالسيف ضارب .

وكان المجلس العالى ـ أدام الله تعالىٰ نعمته ـ هو الذى حُمدتْ له آثار، وحسُنَتْ أخبـار، وعَمّتْ مِدَح، وتَمّتْ مِنَح ؛ فرسَمْنـا بإقراره (١) من هذا المَنْصب الشّريف فى مَحلّه، وإعادَته إلىٰ صيِّب وَبْله، وإنامَة أهْلها مُطْمَئِنّين فى عَدْله، وإقرار عُيون من أدْرك زمانَهُ بعوده ومَن لم يدرك زَمانَه بمـا سيَرَوْنَه من فَضْله .

فرُسم بالأمر الشريف ـ لازالتْ ملابِسُ نِعَمِه، تُخْلَع وتُلْبَس بُرودُها، وعَرَائِس كرمه، تُفَارَق ثم تُراجَع غِيدُها ـ أنْ تفوّض إليه أُمور غَزّة المحروسة وأعْمالها وبِلادِها، والتّقْـدِمَةُ علىٰ عساكرها وأجْنادها، والحكْمُ فى جميع ما هو مُضافٌ إليهـا من سَهْلٍ ووَعْر، وبَرّ وبَحْر، وسَواحِل ومَوَانى، ومَجْرى خُيول وشَوانى ؛ ومَن فيها من أهْل عَمَد، ورعايا وتُجّار وأعيان فى بَلَد ؛ ومن يتعلق فيها بأسْباب، ويعدُّ فى صف كتيبَة وكتّاب ؛ علىٰ عادة من تقدّم فى ذلك، وعلىٰ ما كان عليه من المسالك .

وسنخْتَصر له الوصايا لأنّه بها بَصير، وقد تقدّم لهـا علىٰ مسامعه تَكْرير، ورأْس الأُمورِ التّقوىٰ وهو بها جَدِير، وتأْييدُ الشّرع الشريف فإنّه علىٰ هُدًى وكتاب مُنير، والاطّلاع علىٰ الاحوال ولا يُنَبِّئكَ مثلُ خَبير .

والعدْلُ، فهو العُرْوةُ الوُثْقىٰ، والإنصاف حتّى لايَجد مُسْتَحقّا ؛ والعَفافُ فإنّ التّطلع لمـا فى أيْدى النـاس لا يَزيدُ رِزْقا، والاتّصافَ بالذّكر الجميـل هو الذى يَبْقىٰ ؛ وعَرْضُ العَسْكر المنصور ومن ينْضَمُّ إليـه من عَرَبه وتُرْكُمانه وأكْراده، وكلّ مكَبّرٍ فى جَحافِله ومكَثّرٍ لسواده ؛ وأخْذهم بالتأهّب فى كلّ حركةٍ وسُكون، والتّيقُّظ بهم لكلّ سيف مشْحوذ وفُلْك مشْحُون ؛ والاحتراز من قِبَـل البرّ والبَحْر، وإقامة كلّ يزَك فى موضعه كالقِلادة فى النّحْر ؛ ولا يعيّـن إقطاعًا إلا لمن يَقْطَع باستحقاقه ،

(١) فى الأصل «من اقراره فى» وهو تصحيف الا أن يكون الأصل فرسمنا مارسمنا من الخ .

ويقمعُ العدا بما يعرفُ فى صفحات الصِّفاح من أخلاقه ؛ ولا يُخل المباشرين من عنايةٍ تمدُّ إليهم ساعدَ المساعده ، فلا يُخلُّوا فى البلاد بعمارةٍ تغدُو فى حُلَلها مائده ؛ وليحفظ الطُّرقات حفظًا تكون به ممنوعه ، ويمسك المسالكَ فإنّه فى مفرّق طرقاتها المجموعه ؛ وليقدِّمْ مُهمّات البَريد وما ينطِق علىٰ جناح الحمام ، وليتّخذهما نُصْب عيْنيه فى اليَقَظة والمَنام ؛ فربَّ غفلةٍ لا يُستدركُ فائتها ركْض ، ورسالةٍ لا يبلّغها إلّا رسولٌ ينزل من السماء وآخرُ يسيحُ فى الأرْض ؛ ويرصُد ما ترِدُ به مراسمُنا العالية ليسارع إليه مُمتثِلا ، ويطالعنا بما يتجدّدُ عنده حتّى يكون لدينا مُمثَّلا ؛ وهو يعلم أنّه واقفٌ من بابنا الشريف بالمجَاز ، وقُدّام عيننا حقيقةً وإن قيل علىٰ طريق المجاز ؛ فليؤاخذْ نفْسَه مؤاخَذَةَ من هو بين يدينا ، ويعملْ بما يسُرّه أنْ يقدِّمَ فيما يُعرَضُ من أعْماله علينا ؛ والله تعالىٰ يَزِيدُه حُظْوةً لدينا ، ويؤيّد به الإسلامَ حتّى لا يَدعَ علىٰ أعْداءِ الله للدِّين دَيْنا ، والاعتماد ... .

الصنف الثانى

(الوظائف الديوانيــة بغزّة)

وبها ثلاثُ وظائفَ : يُكتب لكلٍّ منها فى قَطْع العادة بـ«السامى» بغير ياء . وهى : كتابةُ الدَّرْج القائمــةُ مقام كتابة السِّرّ ، ونظرُ المــال ، ونظرُ الجيش . قال فى "التثقيف" : أمّا قاضيها ومحتسبُها ووكيلُ بيت المال بها ، فإنّهم نوّابٌ عن أرباب هذه الوظائف بالشّام ، فلا يكتَبُ لأحد منهم شيءٌ عن المواقف الشريفة .

قلتُ : وما ذكره بناءً علىٰ أنّها تقدمةُ عسْكَر . أمّا إذا كانت نيابةً فإنّ هذه الوظائفَ يكتَبُ بها عن الأبواب السُّلطانيــة . وقد يكْتَب حينئذ بوكالة بيْت

المـال والحِسْبة عن النّائب ، ويكون ذلك جميعُه فى قطع العـادة ، مفتتَحًا بـ«أمّا بعـدُ» فى المنصوريّ ، أو بـ«رُسِم» فى الصّغير، علىٰ حَسَب ما يقتضيـه الحالُ . علىٰ أنّه قد حدث بها فى الدولة الظاهرية قاض حَنَفيٌّ يكْتَب له من الأبْواب السُّلْطانيـة .

النيـابة السابعـة

(نيابة الكَرَك . وأرْبابُ الولايات بها من الأبْواب السلطانية علىٰ أصْناف)

الصـنف الأوّل

(أرْبابُ السيوف)

وليس بها منهم غيرُ نائب السَّلطنة، ويكْتَبُ له تقليدٌ فى قَطْع الثلثين بـ«المجلس العـالى» .

وهذه نسخةُ تقليد بنيابة السَّلطنة بالكَرَك، كُتب به للأمير «سيف الدين ايتمش» من إنشاء الشيخ شهاب الدّين محمود الحلبيّ ، وهو :

الحمدُ لله الذى خصّ بعزائمنا مَعاقِلَ الإسلام وحُصُونَه، وبصّرنا باختيار من نُرَتّبهُ فى كلّ مَعْقِل منها من أمْجاد الأُمَراء لِيحْفَظَه ويَصُونَه ، وجعلَها بعنايَتنا روْضًا تَجْتلي أبصارُ الأولياءِ من بيض صِفاحنا نُوره وتَجْتني من سُمْر رِماحنا غُصُونَه، وعوّذَها من آيات الحَرَس بما لا تزالُ حُماتُها وكُماتُها يَرْوُونَ خَبره عن سَيْفنا المنْتَضَىٰ لحفظها ويَقُصُّونه .

نحمدُه علىٰ نِعَمه التى أعلَتْ بِنا بنَاءَ الممالك، وحاطَتْها من نَبْل مهابَتِنا، بما لو تَسَلَّلتْ بِنيـه الأوْهامُ ضاقتْ بهـا المسالِك، وصفَّحَتْها من صِفاح عنايَتنا، بمـا يَحُولُ بَرْقُه

بينها و بين ما يستر طَيْفَ العدا من الظّلام الحالك ؛ ونشهدُ أنْ لا إلٰه إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تعْصِمُ من أوى إلىٰ حَرَمِ إخلاصِها ، وتُنجِي غدًا مَن غدَا من أهْل تقريبها وآختِصاصها ؛ ونشهدُ أنّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أضاءَتْ ملّتُه ، فلم تَخْفَ علىٰ ذى بَصَر ، وعلَتْ شرْعَته ، فغَدا باعُ كلِّ ذى باعٍ عن معارضتها ذَا قصَر ، وسَمَتْ أُمّتُه ، فلو جالدها مُعاد أوبقَه الحصْرُ أو جادَلها مُناو أوثقَه الحَصَر ؛ صلّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين كانت مَعاقِلُهم صَهَوات جِيادِهم ، وحُصُونُهم عَرَصاتِ جِلادهم ، وخِيامُهم ظلالَ سُيوفهم وظِلالُهم أفياء صعادهم ؛ صلاةً لا يزال الإخلاصُ لها مُقيما ، والإيمانُ لها مُديما ؛ وسلّمَ تسليمًا كثيرا .

وبعدُ ، فإنَّ أوْلىٰ الحُصون الإسلامية بأنْ تَحُوطَ عنايتُنا أركانَه ، وتتعاهَدَ رعايتُنا مكانَه ؛ وتُلاحِظَ مهابتُنا أحوالَه فتُحَلِّيها ، وتشاهِدَ أوامرُنا قواعدَه فتشيّدُها بجميل النّظر وتُعليها ؛ وتَحُول سطواتُنا بين آمال الأعداءِ وتَوهُّمه ، وتَحْجُبَ مخافةُ بأسنا أفكارَ أهلِ العناد عن تأمّلِ ما فى الضّمير وتَوَسُّمه ــ حِصْنٌ انعقد الإجماعُ علىٰ آنقطاع قَرِينه ، وآمتناع نَظيره فيما خصّه الله به من تَحْصِينِه ؛ فهو فَرْد الدّهْر العزيزُ مثالُه ، البَعيدُ منَالُه ؛ المسْتكنَّةُ فى ضمائر الأوْدِيَة الغوامض بُقْعته ، المسْتَجنّة بقُلَلِ الجبال الشواهق تَقْعتُه ، السّائرُ فى أقْطار الأرْض صِيتُه وسُمْعتُه .

ولما كانت قلْعةُ الكَرَك المحروسةُ هى هذه العَقِيلَة التى كَمْ ردّتْ آمالَ الملوك رَاغمة ، ومنَعتْ أهواءَ النُّفوس أن تُمثّلها فى الكَرَى الأجْفانُ الحالمه ؛ وكان فلانٌ ممّن ينهضُ مِثلُه بحِفْظ مِثْلها ، ويعلم أنّ أمانَتها التى لا تَحْملها الجبالُ قد أُودعتْ منه إلىٰ كُفئها ووضعت كفايَتها فى أهْلها ؛ فهو سَيْفُنا الذى يَحُوطها ذُبابُه ، ووَلِيُّنا الذى مَن طَمَحَ بَصَرُه إلىٰ أُفُق حلّه أحْرقه شهابُه ، ونَشْوُ أيامنا التى تُنَشّئُ كلّ لَيث يَقْنصُ

الظَّفَر ظُفُرُه وينبو بالسيوف نَابُه ، وغَذِىٌّ دَوْلتِنا الذى ما ٱعتَمَدْنا فيه علىٰ أمرٍ إلّا كَرُم به نُهوضُه وحَسُن فيه مَنَابُهُ ـ ٱقتضت آراؤُنا الشريفةُ أن نَخُصَّها بمهابة سَيْفه ، ونُحَصِّنَها بمـا فيه من قُوّة فى الحقّ تكُفُّ كلَّ باغٍ عن حَيْفه .

فلذلك رُسم بالأمر الشّريف ـ لازالت الحصونُ المصونَةُ تختالُ من ملكه فى أبْهى الحُلَل ، وتعلُو معاقلَ الكُفر بسُلْطانه عُلُوَّ مِلّة الإسـلام علىٰ المِلَل ـ أنْ تفوَّضَ إليه نيابَةُ السلطنة الشريفـة بالكَرَك المحروس تفْويضًا يُعْـلِى قَدْرَه ، ويُطْلِـعُ فى أُفُقِها بَدْرَه ؛ ويُطْلِقُ فى مصالحها سـيْفَه بالحقّ وقَلَمه ، ويُمْضى فى حمايتها أفعالَه وكَلِمَه ، ويسدِّدُ فى أمورها آراءَه المقْرونَةَ بالصّواب وهِمَمَه .

فلْيباشِرْ هذه الرُّتبـةَ العَليّةَ صورةً ومَعْنًى ، المليّةَ إذا طاولَتِ الكَواكبَ بأنْ لا يعلم لهـا (١) أسْمىٰ وأسْنىٰ ؛ ولْيجتهِدْ فى مصالحها ٱجتهادًا يُوالى له من شُكْرِنا المِنَح ، ويأْتِى فيـه من مَواضِينا بالغَرَض المُقْترح ؛ ويزيدُها إلىٰ حَصانَتِهـا حَصانَةً وقُوَّه ، ويَزِينُها بسياسته التى تَغْدو قلوبُ أهْل العِناد بمخافتها مَغْزُوَّه . ولينظُرْ فى مصالح رجالها فيكونُ لحُـاتِهم مُقَدّما ، ولمقدَّميهم مُكْرِما ؛ ولأعذارهم مُزِيحا ، ولخواطِرهم بتَيْسـير مقرّراتهم مُرِيحا . وليكُنْ لمَنار الشَّرع الشريف مُعَظّما ، ولأحْكامه فى كل عَقْد مُحَكّما ؛ ولمـا قَرُب وبَعُد من بلاد نيابته عَامِرا ، ولأكُفّ الجَوْر عن الرعية كَافًّا : فلا يبرحُ عن الظُّلْم ناهِيًا وبالعَـدْل آمِرا ؛ ومِلاكُ الوصايا تقوَى الله فلْيجعلْها حِلْيَةَ نفْسـه ، ونجىَّ أُنْسـه ، ووظيفةَ ٱجتهادِه التى تَظْهَر بهـا مَزِيّةُ يومه علىٰ أمْسِه ؛ والله تعالىٰ يسدِّدُه فى أحْواله ، ويعَضّدُه فى أفعاله وأقواله ؛ بمَنّه وكرمه! .

(١) لعله «بأن لا يعلم أسمى منها وأسنى» .

وهذه نسخةُ تقليد بنيابة السّلطنة بالكَرَك ، كُتب به للأمير «تلكتمر الناصرى» . عند ما كان المقرّ الشّهابىّ أحمد ولَدُ السلطان الملك النّاصر بالكَرَك ، وهو :

الحمدُ لله الذى جعل بنا الممالكَ مُحصَّنةَ الحُصون ، مَحْمِيّةً بكلِّ سيف يقْطُر من حَدّه المَنُون ، مُمَنَّعةً لا تتخطّى إليها الظُّنون ، مُحجَّبةً لا تَرَاها من النجوم عُيون ، رَافلَةً من الكواكب فى عقْد ثَمين ، مَنِيعَةً أشبهت السَّماءَ واشْتَبهت بها فأصبحتْ هذه البروجُ من هذه لا تَبِين .

نحمدُه على نِعَمه التى رفَعت الأقْدار ، وشرَّفَت المِقْدار ، وحَلَّت فى ممالكنا الشَّريفة كلَّ عَقِيلة ما كان مِعْصَمُها المُمتدُّ إلى الهلال ليُتْرَكَ بغَيْر سوار ، ونشهدُ أنْ لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً رفعت للحصون العالية رُتَبا ، ومُلِئَتْ بها سَمَاؤُها حَرَسًا وشُهُبا ، وأعلتْ مكانَها فاقتبسَتْ من البرق نارًا ووَرَدتْ من السَّحاب قُلُبا ؛ ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه أشرفُ من بعثَ وُلاةً على الأمْصار ، وكُفَاةً على الأقْطار ؛ صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وصَحْبِه ما صدَحت الحَمائم ، وسفَحتِ الغمائم ؛ وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

أمَّا بعدُ ، فإنَّ خيرَ من حُمِيتْ به الممالك ، وحُمِيَتْ ــ ولله المِنَّة ــ منه المسالك ، وارْتقَتْ هِمَمُه إلى الشَّمس والقَمر والنُّجوم وما أشبه ذلك ، مَنْ حصل الوُثُوقُ به فى أشْرف مملكة لدَيْنا ، وأفضل ما يُعرض فى دَوْلتنا الشريفة من أعْمالها الصالحة علينا : وهى التى قعدتْ من الجبال على مَفارِقها ، واتَّصلتْ من النُّجوم بعلائقها ؛ وتحدَّرت الغَمائمُ من ذُيولها ، وطفَتْ على السماء وطافَتْ على الكواكب بخَرت المَجَرَّةُ

من سُبُولها . وكان الكَرَك المحروسُ هو المُراد، ومدينتُه التى لم يُخْلَق مثلُها فى البلاد، وقَلْعتُه تتشكّى الرِّياحُ لهـا طلوعَ وَاد ونُزول وَاد؛ وهى أرْضٌ تَمُتُّ بأنّها لنا سَكَن، ونَمَّت مناقبُها بمـا فى قلوبنا من حُبِّ الوَطن؛ وآستقرت للقامات العاليـة أوْلادنَا ــ أعزَّهم الله بنَصْره ــ فانتقلَتْ من يَمِينٍ إلىٰ يسار، وتقابلت بين شُموسٍ وأقْمـار، وجادَ بها البَحْر علىٰ الأنهار .

فلمّـا خَلَتْ نيابةُ السلطنة المعظمة بها عَرَضْنا علىٰ آرائنا الشّريفة مَن تَطْمئِنّ به القلوب، ويحصـلُ المطلوب، وتَجرى الأُمُور به علىٰ الحُسنَىٰ فيما ينُوب؛ وتُبارى عزائمُه الرياح بمرمى كل مقلة وهزّة جيد، ولا يُشَكّ فى أنّه كُفْؤُ هـذه العقيله، وكَافى هذه الكَفالة التى ماهى عند الله ولا عندنا قليلَه، وكافلُ هذه المملكة التى كَمْ بها بَنِيّةٌ أحسنُ من بَنِيَّة وخَمِيلَةٌ أحسن من خَمِيلَه؛ من كان من أبوابنا العالية مَطْلَعُه، وبين أيدينـا الشّريفة لا يُجْهلُ مَوْضعُه؛ طالمـا تكمَّلَتْ به الصفوف، وتَجمَّلَتْ به الوقوف، وحَسُنَ كلّ موصوف، ولم تخف محاسـنُه التى هو بهـا معروف؛ كَمْ له شِيَمٌ عَلِيَّه، وهِمَمٌ جَلِيّه، وتَقدماتُ إقدام بكلّ نهايةِ غايةِ مَلِيّه، وعَزائمُ لهـا بنَعْتِه مَضاءُ السَّـيف وباسمه قُوّةُ الحديد وهى بالنسـبة إليه مُلْكِيّه؛ وكان المجلس العالى ــ أدام الله نِعْمته ــ هو لابِسَ هذه البُرود التى رُقِمَتْ، والعُقودِ التى نُظِمَت، وجامعَ هذه الدُّرَرِ التى قُسِمت، والدَّرارِىّ التى سَمَتْ إلى السماء لمـا وُسِمَت؛ وهو من المَلائك فى الوَقار، وله حُكْمٌ كالمَـاسِ وبأْسٌ يقطَعُ الأحْجار، وهو مَلَكٌ نِصْـفُه الآخَرُ من حَدِيد كما أنّ لله مَلائكةً نِصْـفُهم من الثّلج ونصفهم من نَار؛ وهو الذى آقتضت آراؤُنا الشريفـة أن نجعلَه فى خدمة ولدنا ــ أمتعه الله ببقائنا ــ نائبا بهـا، وقائمـا بحسن مَنابِها؛ والمتصرِّف فيها بين أيديه الكريمه، والمتلقِّ دُونَه لأُمورها التى قلّدنا بها عنقَه أمانةً عظيمه .

فلذلك خرج الأمر الشريف ـ لا زال به سَيْفُ الدِّين ماضيا ، ولا بَرِحَ كُلّ واحد بحكم سَيْفِه فى كلّ تجْرِيد وقَلَمِه فى كلّ تَقْليد راضيا ـ أن تفوض إليه نيابة السلطنة الشريفة بالكَرَك المحروس وما معه علىٰ عادة من تقدّمه فيها ، وقاعدته التى يتكفل لهـا بالإحسان وبكَفّ العُدْوان ويَكْفيها ؛ وكلّ ما فيها من أمْرٍ فهو به منُوط ، وكلُّ عمـل لهـا به محُوط ، وحكْمُه فى مصالحنا الشريفة فى جميع بلادها مبْسُوط ، وله تُطالَعُ الأُمُور ومنه تصـدر المطالعه ، وبه تُزالُ كلُّ ظُلامَه ، وتُزاحُ كلُّ مَلامَه ، ويُؤَيَّد الشرعُ الشريفُ ويؤبّد حُكْمه ، وينتشر علمُه ويُنْشر عَلَمُه ، وتُقامُ الحدودُ بحَـدِّه ، والمهابَةُ بجِدِّه . ورجالُ هذه القلْعة به تتألّف علىٰ طاعتنا الشريفة قُلُوبُهم ، والرعايا يعمهم بالعَـدْل والإحسان وأيْسَرُ ما عنـدنا مَطْلُوبُهم ؛ وهؤلاء هم شيعتنا قبلك ، ورعيّتُنا الذين هم لنا ولَك ؛ فرفْرِف عليهم بجَناحِك ، وخُذْهم بسَماحِك ؛ والمُسارَعةُ إلىٰ امتثال مراسمنا الشريفة هى أوّلُ ما نُوصيك باعتماده ، وأولىٰ ما يُقْبَس من نُورِه ويُسْتمدُّ من أمْدادِه ؛ فلا تُقدِّمْ شيئًا علىٰ الانتهاء إلىٰ أمْرِه المُطاع ، والعَمَلُ فى السّمع والطاعة بأكرله ما يمكنُ أنْ يستطاع ؛ وخِدْمةَ أولادِنا فلا تَدَعْ فيها مُمْكِنًا ، واعلم بأنّ خِدْمتَهم وخدمتَنا الشريفةَ سَـواءٌ لأنّه لا فَرْقَ بينهم وبيننا ؛ وهذه القلْعةُ هى التى أودعناها فى يَمين أمانَتِك ، وحَمَيْناها بسَيْفك وصُنّاها بصِيانَتِك ؛ فاللهَ اللهَ ! فى هذه الوَديعـة ، وأدِّ الأمانَةَ فإنّهـا نِعْمتِ الذَّرِيعَه ؛ واحْفَظْها بقوّة الله وتَحَفَّظْ بأسْوارِها المَنِيعَه ، وعليك بالتّقوىٰ لتَقْوىٰ والوُقُوف عند الشَّرِيعَه ؛ والله تعالىٰ يَزيدُك علوّا ، ويبلّغك مَرْجُوّا ؛ والاعتماد .... .

قلتُ : ورُبَّمـا ولى نيابةَ الكَرَك من هو جَليـلُ الرتبة رَفيعُ القَـدْر ، من أوْلاد السـلطان أو غيرهم ، فتعظُم النيـابةُ بعِظَمِه ، ويُرفَعُ قدرُها بارتفاع قَدْرِه ، وتكونُ مكاتَبَتُه وتقليدُه فوقَ ما تقدّم ، بحسب ما يقتضيه الحال من «الجناب» أو غيره .

وهذه نسخة تقليد بنيابة السلطنة بالكَرَك، كُتب بها عن السلطان الملك الناصر «محمد بن قلاوون» لولده الملك الناصر «أحمد» قبل سَلْطَنَته، وكتب له فيه بـ«الجناب العالى»، من إنشاء الشريف شهاب الدّين، وهى :

الحمدُ لله الذى أسعدنا بوِراثة المُلْك والممالك، وأرشدنا للرّأى المُصيب فى أن نَستنيب من نشاء من ذلك، وأيّدنا بالعَوْن والصّوْن فى حِفظ ما هُنا وحِفظ ما هنالك، وعوّدنا الإمدادَ بيُمْنه المتداوَل والإنجادَ بمنّه المتدارك، وسدّدنا بالفَضْل والإسعاف إلى أن نَتّبع من العَدْل والإنصاف أنجحَ السُّبل وأوْضح المسالك، وعَضّدنا من ذُرّيّتنا بكلّ نَجْل مُعْرِق، ونَجْم مُشْرِق، يَرْشُق شِهابُه، فى الكَرْب الحَالِك ويأْتلِقُ صَوابُه، فى الخَطْب الحَالِك، وأفردنا بالنّظَر الجميل، والفِكْر الجليل، إلى أسعد تخويل تنير بمرآته فى الآفاق الشُّهبُ الطوالِعُ وتَسير بِبُشْراه فى الأقطار النُّجُب الرّواتِك[1] .

نحمدُه! وكيف لا يَحْمد العبدُ المالكَ! ، ونشكره على أن أهّلنا لإقامة الشّعائر وإدامة المَناسك، ونشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له جلّ فى جَبَرُوته، عن مُشابِه وتعالى فى مَلَكُوته، عن مُشارِك، ونشهدُ أنّ سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أنجد جنودَه من المَلإ الأعلى بالملائك، وأمدّ بعوثَه بالنّصر والظّفَر فى جميع المواقف والمَعارِك، وأيّد أُمّتَه بولاية ملوك يجلسُون فى النّعيم على الأرائك، ويَحْرُسون حِمَى الدّين بجهادِهم واجْتِهادِهم من كلّ فاتِنٍ وفاتِك، صلّى الله عليه وعلى آله سُفُن النّجاة المؤمّنين من المخاوف والمنْقِذين من المَهالك، ورَضِىَ الله عن أصحابه الذين نظَمُوا شَمْل الإيمان، وهزَموا جَمْع البهتان، بكلّ باترٍ وفاتِك، صلاةً ورضواناً يُضْحِى لقائلهما

(١) أى القريبات الخطا .

فى اليوم العَبوس الوَجْهُ الطَّلْق والثَّغر الضَّاحك ، ويُنْشر فيُحْشَرُ مع النَّبِيِّين والصدّيقين والشُّهداء والصَّالحين وحَسُن أُولئك ، ما ابْتَهل بصالح الدُّعاء ، وناجح الاستدعاء ، لأيامنا كلُّ عابد وناسك ، وعَوَّل حُسْنُ آرائنا على تقديم مَن هو لجميل آثارنا سالك ، وأقبل بالإقبال سَنَا شِهابِه المُنِير يجلو ماتُثير من ليل نَقْعِها السَّنابك ، فحصل للكَرك والشَّوْبَك بهذا القُدوم فَخَار مَسِيرك بينهما وبين النجوم الشَّوابك .

أمَّا بعــدُ ، فإن الله تعالى آثرنا بتوفير التوفيق ، ويسَّرنا من الهُدَى إلى أقْوم طريق ؛ ووهَبَنا فى الملك النَّسبَ العلىَّ العَريق ، والحسبَ الذى هو بالتَّقديم والتَّحكيم حَقِيق ؛ وقلَّدنا من عَهْد بَيْعة السَّلطنة ما لحمده فى الآفاق تَطْرِيق ، ولعِقْده فى الأعْناق تَطْويق ؛ فَفيَّأنا من شَجَرة هذا البَيْت الشريف النَّاصرىّ المَنْصُورىّ كلَّ غُصْن وَرِيق ، وهيَّأ للبَرِيَّة تكريمًا عميًا بتقديم من له المَجْدُ يتعيَّن وبه السُّؤْدُدُ يَليق ؛ وأطْلَع فى أُفُق أعزّ الممالك علينا من بيتنا شِهابَ عُلًا هو للبدْر فى الكمال والجمال شَبِيهٌ وشَقِيق ، وأطَعْنا أمْر الله تعــالى فى معاملة الوَلد البارّ معاملة الوالد الشَّفيق ؛ وأوْدعْنا لديْه ما أوْدعه الله تعالى لدينا : مملكةً مرتفعةً متسعةً ليرتفعَ محلُّه ويتَّسِعَ أملُه ولا يَضِيق ، وجمَعْنا له أطْرافَها لتكونَ لكَلمته العُلْيا بها الاجتماعُ من غير تفْرِيق .

ولـمــا كان الجناب العالى ، الولدىّ ، الشهابىّ ، سليلُ الملوك والسلاطين ، خَليل أمير المؤمنين : هو الذى تُشير رُتَب الكَفَالة بترقِّيه ، وتقرُّ عيونُ الأولياء بتَعيُّنه لإلْقاء أمرنا المُطاع وتَلَقِّيــه ؛ وتلْهَجُ الألْســنةُ ضارعةً إلى الله تعــالى أنْ يخلِّدَ مُلكَ بيْته الشريف ويُبْقِيه ، وتعرُج إلى السمٰوات دَعَواتُ الأتقياء أن يُوَقِّيَه اللهُ ممــا يتَّقيه ؛ ونُمْســكُ فى هذا المقام لِسانَ المَقال عن مَدْحِه أدبا ، ونترُكُ الافتخارَ بالمــال والعَديد إيثارًا لثواب الله وطَلَبا ؛ ونُذْرِك موعظَةَ الله سبحانه فى كتابه قَصْدًا وأرَبا :

﴿ والبَاقِيَاتُ الصَّالحاتُ خَيرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وخَيرٌ عُقُبًا ﴾(١) . وبِبركَة هذا القصْد يتمُّ لنا فيه المرادُ، ويعمُّ هذه المملكة النفعُ بهذا الإفراد ، فإنها مَعْهَدُ النصر والفتح ، ومشْهدُ الوفْر والمَنح ، ومصْعَدُ العزِّ الذى لمــا وطِئنا صَرْحَه تدَكدَكَ للعدا كلُّ صَرح ، وتملَّك للهُــدى كلَّ سَرْح ، وتنَشّقنا بهــا لقُرب المزار من طِيب طَيْبةَ أعْظَم نَفح ، وقد بقينا بجاه الحــالِّ بها فى تيســير التأييد فكان كاللَّمح ، وجرى خَلْقُنا السَّمْحُ بعد ذلك على عادته فى الحكم والصَّفح ، وسرى ذِكْرُنا فى الشَّرق والغَرْب وللحُدَاة به أطْربُ صَدْح ، وآتى اللهُ من فَضْله مُلْكًا نعماً تَجِلُّ عن العــدِّ والشَّرح ، فيها مَنْشأُ دولَة الدُّول ومنها فَتْح الفتوح ، وبإضافته إلينا تفاؤُلٌ خيرَ مَشْهورٍ ملْمُوح ، كما قيــل قبلها كَرَك نُوح ، فبتطهير الأرض من الكُفّار ، عزائمُنا تغدُو وترُوح ، وبالاستناد بأطْول الأعمــار ، أمارةٌ باديةُ الوضوح ، وآثارُ بركة الاسم الشَّريف المُحمَّدى تظهر علينا فى الحركات والسَّكَنات وتلُوح ، ونفــارُ هذه المملكة المباركة : لاختصاصها بالحَرَمَيْن الشَّريفَيْن عليها طَلاوةٌ وسعادةٌ وفيها رُوح ، وكنّا قد سلَكْنا بهذا الوَلد النَّبيل ، سنّةَ أبى الأنبياء إبراهيمَ الخليل ، فى ولده إسماعيل ، عليهما السلامُ التامُّ فى كلِّ بُكْرة وأصيل ، حيثُ فارقه وأفرده ، وتفقَّده فى كلِّ حين وتعهَّده ، حتَّى شــدَّ اللهُ تعالى به عَضُــدَه ورفع هُو وأبوه قواعِدَ البَيْت وأعانه لمّــا شيَّده ، فأجْمل اللهُ لنا هذا القَصْدَ وأحْمده ، وكمّل هذا الشُّروع وأسْعده ، وأجْزل [له] من فوائِده أوْفر هِبَة وأنجز له من عوائده أصْدق عِدَه ، فأحْللناه فى هذه المــدّة بمملكة الكَرَك فسَلكَ من حُسن السجايا أحْسن مَسْلَك ، وملك قلوبَ الرَّعايا وبمَــا وَهَبَ من المنح تملَّك ، وبسُنَّتِنا فى التَّواضُع للحقِّ مع الخَلْقِ تمسَّك ، وبشِيَمنا وخُلُقِنا فى الجُود تخلّق فبذَل وما أمسك .

---

(١) الحلاوة هو خير أملا ، أنا وخير عقبا فهو فى آية قبلها .

ولما بلغ أشُدَّه واستوى، وبَزَغ شِهابُ عُلاه الذى هو وبَدْرُ السماء سَوا، وحاز مكارِمَ الأخلاقِ وحوى، وفازَ سلطاننا فى نجابته بحسن النية : "وإنَّما لِكُلِّ آمْرِئٍ ما نَوَى" ـ حكّمناه فى هذه النيابة التى ألِفَها وتَرَبَّبها ، وعرف أُمورَها وجَرَّبها ، واستمال خواطِرَ أهلِها وآستَجْلَبَها ، وأدنى لهم لمّا دَنَا منهم الميامِنَ ولمَّا قرَّبها منهم قرَّبها، وآستحقَّ كَفالتَها وآستَوْجَبها، وأظهرَ اللهُ تعالى فيه من الشَّمائل أنجبَها، ومن الخلائق أرحَبَها، ومن الأعراق أطيَبَها، ومن العوارف أنسبَها، ومن العَواطف أقربَها، ومن البَسالة أرهقَها وأرهبَها، ومن الجلالة أحبَّها إلى القلوب وأعْجبَها، ومن السيادة ما أخذَتْ نفْسُه لها أُهبَها، ومن الزيادة ما يتعيَّن [له] شكرُ الله الواهبِ الذى وهَبَها، ومن السَّعادة ما رفَعتِ الأقدارُ على مناكِبِ الكواكبِ رُتَبَها ، وأطلعتْ لحُماته سماءُ العَلْياء شُهُبَها، ورقَتْ على هَامَةِ الجوزاء منَصبَها، وآستصحبتْ من العناية لهذا البَيْت مَزِيَّةً فرض اللهُ بها له الطاعةَ وكتَبها، فاستَخَرْنا الله تعالى الذى يختار لنا ويَخير، وسألناه التأييدَ والتيسير، وفوَّضْنا إليه وهو الكَفيلُ لنا بالتدبير، فى كلِّ مَبْدَإٍ ومَصِير، واستعَنَّا به وهو نعم النَّصير، واقتضى حسنُ الرأْيِ الشريف أن نُسْرج شهابَه المُنير، ونُنتج للأوْلياء يمن التأْثيل بحسن هذا التأْثير، ونُنْهِجَ فى برِّه سُبلًا تقدَّمنا إليها كلُّ ذى منبَرٍ وسَرير، ونُثْلِجَ الصُّدورَ ونُقِرَّ العيونَ بسَعيد هذا الإصدار وحَميد هذا التَّقرير .

فلذلك رسم بالأمر الشريف ـ لا برح أمرُه يصيب السَّدادَ فيما إليه يصير، وخبَرُه يحمل الموافاة فلا ألسنة عن مكافَأة برِّه تقصير ـ أن تفوَّض نيابةُ السَّلطنة الشريفة بالكَرَك المحروس والشَّوبك للجناب العالى، الولدىّ، الشهابىّ، وما ينضم إلى ذلك وينْضَاف ، من جميع الأقطار والأكناف ، وجمعنا له من هذه المملكة الأطراف ، وجعلنا له على سَهْلها وجَبَلها إشراف ، وصرَّفناه منها فيما هو عن علمه

الكريم غيرُ خاف ؛ نيابةً كاملَه ، كافلَةً شاملَه ؛ عامَّه ، تامَّه ؛ وافرَه ، سافرَه ؛ يستلزمُ طاعَتَه فيها الاَفْتِراض ، وتحسم عنه فيها موادُّ الاَعتراض ، وتَنْفُذ مراسمه من غير توقُّفٍ ولا اَنتِقاض ، وتُبْسَطُ يدُه البيضاءُ من غير اَنْقِباض ، ويرتفع رأيه من غير اَنْخِفَاض .

فلتقْدُرْ رَعِيَّةُ هذه البلاد نِعْمةَ هذا التفويض قَدْرَها ، وليسألُوا الله أن يُوزِعَهُمْ لحُسْنِ هذا التفويض شُكْرَها ؛ فقد أنشأَ لهم يُسْرَها ، وأفاء لهم بِرَّها ؛ وألْقىٰ إليهم جُودَها وخَيْرَها ، وأبقىٰ عندهم عِزَّها ونَصْرَها . وليتَّبِعوا السَّبيلَ القَويم ، وليُجْمِعُوا على الطاعَةِ التى تُبْقِى عليهم نِعْمَةَ العافيةِ وتُدِيم ؛ وليَسْمَعُوا ويُطِيعُوا لما يَرِدُ إليهم من المَراسِيم ، فمن لم يَسْتَقِمْ كما أُمِر لا يَسْتَمِرُّ بهذه البلاد ولا يُقِيم ؛ والعاقلُ لنفْسه خَصِيم ، والجاهلَ مَن عَدِمَ النِّعمةَ وحُرِمَ النَّعيم ؛ وفِراسَتُنا تلْمَحُ نتائِجَ الخيرِ من هذا التَّقْديم ، وسِياسَتُنا تُصْلِحُ ماقَرُب منّا وما بَعُد بتعْريف أحْكام التَّحْكيم ؛ وكَيْف لا؟ وهو الكَرِيم بن الكَرِيم ، المؤمَّلُ لتَمام السُّؤْدُد قبل أن يُعْقَد عليه التَّميم ؛ المشتمِلُ على الخلالِ المُوجِبَةِ له الفَضْلَ العَمِيم ، المتوصِّلُ بيُمْنِ حركاته إلىٰ أنْ يكونَ لمثل هذا المُلْكِ العظيم ؛ وإلىٰ أمَانَتِه اَستيداعٌ وإلىٰ صِيانَتِه تَسْليم ، المقْبِلُ وجهدنا الإقبال فتتلو الرِّجال : ﴿ماهَٰذَا بَشَرًا إنْ هَٰذَا إلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ .

ونحن نَأْمُرك من التَّقْوىٰ بما به من الله أُمِرْنا ، ونبصِّرُك من الهدىٰ بما له هُدِينَا وبُصِّرْنا ، ونُبْقِى لديك من بدائعها مابه خُصِصْنا وأُوثِرنا ؛ ونُوصِيك اَتِّباعًا للكِتَاب والسُّنَّه ، ونُؤْتِيك من الهداية مالله فى الإرشاد إليه المِنَّه : فقد وَعَظ ووصَّىٰ لُقمانُ — عليه السلام — اَبْنه ، وأوْصىٰ رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلم مُعَاذَ بنَ جَبَل لمَّا بعثَه إلى اليَمَنِ فحقَّق اللهُ تعالى فى نجاحه رَجاءَه وفى فَلاحه ظَنَّه ؛ ونُذَكِّر جنابك ، ونرجو أن

تكون ممن تنفعه الذكرى، ونسير شهابك، إلى أفق السعد ونأمل أن تيسر لليسرى، ونؤمرك فتزيد علم عزك رفعا ولواء مجدك نشرا، ونأمرك ثقة بحسن أخلاقك، فيتلو لسان وفاقك: ﴿ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصي لك أمرا﴾. فمثلك من أيدته العصم، وأصعدته الهمم، وحمدته الأمم، وأرشدته إلى الحكم ما عهدته فكرته من الحكم، وسددته أعراقه وأخلاقه فلا يزاد على ما فيه من كرم؛ فلا نذكر منك ناسيا، ولا نفكر لاهيا، ولا نأمر وننهى إلا من لم يزل بالمعروف آمرا وعن المنكر ناهيا.

فاتق الله تعالى: فعلى التقوى مرباك، وراقب الله تعالى: فالمراقبة للملوك من بيتك ملاك، وجد في نصرة الحق ولا تأب: فقد أنجد الله تعالى بذلك جدك وأباك، واعدل فبالعدل تعمر الدول وأقم منار الشرع، فهو الأصل الذي يرد إليه من القضايا كل فرع، ومجاله الرحب إذا ضاق الذرع؛ فأيد حاكمه، وشيد معالمه؛ وأكد الإلزام بأحكامه اللازمه.

والأمراء والجند فهم جناح النجاح، وصفاح الصفاح؛ فاعتمد أحوالهم بالصلاح، وأرد فيهم ما استطعت الإصلاح. والخيالة والرجالة الذين يحمى بهم مصون الحصون أن يستباح، فالحظ أمورهم بعين فكرك في كل مساء وصباح، فمن نهض في الخدمة تعين من النعمة أن يزاد ومن قصر في العزم قضى الحزم أن يزاح. والرعايا فهم للإحسان ودائع، وللامتنان صنائع؛ فاعذب لهم من المعدلة المشارع، وانصب لهم من إقامة الحرمة الزواجر والروادع؛ وأخصب لهم من النعمة مربعا يرغب الجانح ويقرب الطائع. وأهل الذمة فآوهم إلى كنف العدل الواسع، واحمهم أن تمتد إلى أنفسهم يد جان وإلى أموالهم يد طامع، وأقم عليهم بأسا يحل بهم إذا اعتدوا

القَواصِمَ والقَوارِعَ ، وأَدِمْ لهم مهابة تَسُدُّ من فساد الذَّرائع ، وعاوِدْ آراءَنا الشَّرِيفَةَ وراجع ، وواصِلْ بأنْبائك السارّة وأفعالِك البارّة وتابِع ، وبما تتطلّع إليه خَواطِرُنا العاطفة من مُتَجَدِّداتك المباركة أتْحِف وطالع ؛ والله تعالى يُشَنِّف بحسْنِ سِيرتِك المسامع ، ويشرِّفُ بحلُول عَدْلك المَحافِلَ والجَامِع ، ويُوزِعُك شكْرَ نعمتِه ويجعلُ لك من عِصْمَتِه أعْظَمَ وازِع ، ويمتِّعك بأيّامنا التى فيها الخيْرُ الشّامِلُ والبِرُّ الجامع ، ويصونُ بجلالك الحُسنَى ما آستَطعْتَ(١) من أَسْنى الودائع ، ويُزيِّن سماءَ العَلْياء بجلالك فمنها لك قمراها والنجوم الطوالع ، ويوفِّق بجميل قصدك إلى أن تأْخذ من القلوب بالمجامع ، ويحقِّق فى إسْعاد جَنابِك المطالب ويُشْرِق بإصْعادِ شِهابِك المطالع ؛ والعلامة ... .

الصنف الثانى — أرْباب الوظائف الدِّينية . وبها قاضٍ واحدٌ شافعىّ ، وتوقيعُه فى قَطْع الثلث بـ«السامىّ» بالياء .

الصنف الثالث — الوظائف الدِّيوانية . وهى ثلاثُ وظائف ، يُكْتَب لكلٍّ منها تَوقيعٌ فى قَطْع العادة . الأُولى كتابة الدَّرج . الثانية نَظَر المال . الثالثة نَظَر الجَيْش .

القســـم الثـالث

(ممـا يكْتَب من الولايات عن الأبْواب السلطانية بالديار المصرية — ما يكتب لأرباب الوظائف بالمملكة الحجازية)

وقد تقدّم أنها تشتمِلُ على ثلاث قواعد :

---

(١) لعله «ما آستحفظت».

القاعـــدة الأولى

(مكة المشرفة ، وبها وظيفتان)

الوظيفـــة الأولى

(الإمارة)

وقد تقدم أن إمارتها فى بنى الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما ، وأنها كانت تولى من أبواب الخلافة ببغداد إلى حين انقراضها ، إلا ما تغلب عليه الفاطميون أصحاب مصر فى خلال ذلك . ثم استقرت آخرا من جهة ملوك مصر إلى الآن . ويكتب له تقليد فى قطع النصف بـ«المجلس العالى» بزيادة ألقاب تخصه ، وقد تقدمت ألقابه فى أول هذا الطرف .

وهذه نسخة تقليد بإمرة مكة المشرفة : كتب بها عن الملك الناصر «محمد بن قلاوون» لأسد الدين «رميثة» بن ابى نمى ، بإمرة مكة المشرفة ، عوضا عن أخيه «عطيفة» عند قتل الامير الدمرجان دار وولده خليل ، من إنشاء المولى تاج الدين ابن البارنبارى رحمه الله ، فى المحرم سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة ، وهى :

الحمد لله الحكيم : فالشريف من اتبع أوامره ، العظيم : فالسعيد من اتقى غضبه بأعماله الزاكية ونياته الطاهره ، الكريم : فالفائز من سلك مراضيه فى الدنيا ليأمن فى الآخره ؛ ومن أخاف عاكف حرم الله وباديه فقد باء بالأفعال الخاسره ، ومن عظم شعائر الله فقد رفل فى حلل الإقبال الفاخره .

نحمده على ألطافه الباطنة والظاهره ، ونشكره ونرجوه وما زال ينجح راجيه ويزيد شاكره ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة من اتخذ الحق ناصره ،

وأَوْدع إخلاصَها ضَمائرَه ؛ ونشهدُ أنّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى بعثه اللهُ من الحَرَمِ فألَّف القلُوبَ النّافِرَه، وفتح مَكّة فطَهَّرها من الزُّمْرةِ الكافِرَه، وقال فى ذلك اليوم : «مَن أَغْلَق عليه بَابَه فقَدْ أمِن» فأمسىٰ أهْلُها ونفوسهم بالأَمْن ظافِرَه؛ صلّى الله عليه وعلىٰ آله بَنِى الزهراء العِتْرة الزاهِرَه، وعلىٰ صَحْبه النُّجومِ السافِرَه؛ وسلّمَ تسليماً كثيرا .

أمّا بعدُ، فإنَّ الحكْمَ [بالعدلِ] شعارُنا ، و باللهِ اقْتِداؤُنا واقْتدارُنا، وفى الإحْسانِ رَغْبتُنا، وفى كلِّ عُنُق مِنّتُنا؛ نَصْفَح ونَمْنح، ونَرْعىٰ مَن أَمْسىٰ قَدِيمَ الهجرة فى وِلايتنا وأَصْبح؛ ونُقيمُ من أهل البيْت لحِفْظِ ذلك البيت الأَصْلَحَ فالأَصْلَح، ونُقدِّمُ من لم يزلْ مقدَّماً وإلىٰ صَوْب الصواب يَجْنَحُ فيَنْجَح ، ونُنْجِى من الهَلَكةِ مَنْ لاح له مَنْهجُ الخير فسلكه فأفْلح .

وكانت مَكَّةُ المعظمةُ هى أُمُّ القُرىٰ، والبَلَدُ الأمِينُ المُجْزَلُ فيه القِرَىٰ؛ نَشأ الإسلامُ فى بِطْحائها ، وحَرّمها اللهُ فلا ينَفّر صَيْدُها ، ولا يُعْضَدُ شَجرها ، ولا تَحِلُّ لُقَطَتُها إلّا لمُنْشِد تأكيدًا لتَشْريفها وإعْلائها؛ وطلَعتْ شمسُ النُّبوّة من شِعابها، وغُسلت الذُّنوبُ بوَبْل سَحابها؛ فيها زَمْزَمُ وَكْزَةُ جِبْرِيل، وفيها بدَأ الوَحْىُ والتّنزيل، وإليها أَعْنقَت الرِّكابُ ففى كلِّ أبْطحَ للَطِىِّ مَسِيرٌ ومَسِيل؛ فكَمْ أتىٰ إليها من سائرِ الناس سائِر، وكم أتىٰ إليها الناسُ رِجالًا وعلىٰ كلِّ ضَامِر؛ فالرَّحمة مُستقِرّة بين نواحيها والعُيونُ تَتَملّىٰ بأنوار تلك الأسْتار حتّى تجْتَليها، والشّفاهُ تتشرّفُ بتَقْبيل ذلك الحَجَر الذى يشهدُ لها فى غَدٍ ويَقِيها؛ فطُوبىٰ لمتّقيها، وسُحقًا لمن أخاف وفْدَ اللهِ فيها؛ ونحنُ قد بصَّرنا اللهُ بخِدْمة بيتِها المحرَّم، وحَرَمِها المعظَّم، وكرَّر إليها حَجّنا وكرَّمه : فللهِ الحمدُ أن كَرَّر حَجّنا وكَرَّم؛ وما بَرِحْنا نُقيمُ فى إمارَتِها من العِتْرة النّبويّة كلَّ شريف النَّسب،

وكلٌّ من يكتسب فيها رضا الله تعالىٰ : وكلُّ آمرئٍ وما آكتسب ؛ فمن أصلح منهم أقمناه ، ومن حاد عن الطاعة وجحد النعمة أزلناه ؛ ومن أخاف فيه السبيلَ لم نجعل له إلى الخير سبيلا ، ومن آستقام على الطريقة توكّلنا على الله ووليناه : وكفىٰ بالله وكيلا .

وكان فلانٌ هو الذى مازالت خواطرُنا الشريفةُ تقدّمه علىٰ بنى أبيه ، وتختاره أميرًا وتجتبيه ؛ وربّما سلفت من بيته هناتٌ صفحنا عنها الصفح الجميل . وما قابلناهم إلا بما يليقُ بمجدهم الحسنىِّ الحسنِ الأصيل ؛ والإمرةُ وإن كانت بيد غيره هذه المدّة فما كان فى الحقيقة أميرٌ عندنا سواه ، لأنّه كبيرُ بيته المشكورُ من سائر الأفواه .

والآن قد اقتضت آراؤنا الشريفةُ أن نقيمه فى بلده أميرًا مفردًا إليه يشار ، وأنْ نصطفيه : وإنّه عندنا لمن المصطفين الأخيار ، وأن نجعلَ الكلمةَ واحدةً ليأمن النزيلُ والجار ؛ ومتىٰ تجاذب الأمرَ كلمتان فسد نظامُه ، ومتىٰ أفرد الحكمُ حسُنت أحكامُه ؛ ومتىٰ توحّد الأمرُ زال الاختلاف ، وزاد الائتلاف ، وأقبلت أيّامهُ .

فلذلك رسم بالأمر الشريف أن تفوّض إليه إمرةُ مكّةَ المشرّفة ، علىٰ عادة والده . فليتقلّد ما فوّضناه إليه من الإمرة والنيابة بمكة المعظمة : شاكرًا ما أنعم اللهُ به عليه من مراضينا التى لا نجاةَ لمن لم ينل منها نصيبًا موفورا ، ولا فوزَ لمن لم يُدركْ منها حظّا كبيرا ؛ وليشرَعْ فى تمهيد البلاد من إزالة المظالم ، وليطهّرها من كلّ مجترىٍ على الله تعالىٰ فى البقعة المحرّمه ؛ ولا يقرّبْ من فى قلبه مرضٌ نُبعْديه ، ولا يرجعْ لمن فيه شقاقٌ ظاهرٌ فى صفحات وجهه وفلتات فيه ؛ وليعلمْ أن هذا بلدٌ حرامٌ حرّمه اللهُ يوم خلق السموات والأرض ، وصيّر حجّ بيته علىٰ مستطيعه من الفرض ؛ وجعله للنّاس معاذًا ومعاذا ، وقال صلّى الله عليه وسلم يوم

عَرَفَةَ : « إنَّ دِماءَكُم وأموالَكُمْ وأعراضَكُمْ عليكُم حرامٌ كحُرمةِ يومِكُم هـذا فى شهرِكُم هذا فى بلدِكُم هذا » .

فليَمنع الدماء من أنْ تُراق ، والأموالَ من أن تُؤخذَ بغير استحقاق ؛ والظُّلْمُ فى البَلَد الحرامِ حَرام ، وبنُو حَسَن أحَقُّ باتباع سُنّة الإسلام ؛ واتّق اللهَ لتلقاه بالوجه الأبيضِ والعمل الأغرّ ، واتّبع سُنّةَ جدّك : فعلى اتّباعها حثٌّ وأمر ؛ والْقَ وفدَ الله فى البرّ والبحر بالحُسنىٰ فهم أضيافه ، وأمّن الحجّ ليَتمّ نُسُكُه وطوافُه .

هذا تقليدُنا لك أيها الشريف : فطِبْ نفسًا بمَراضِينا ، وصَفِحنا عما مَضىٰ ومَنحنا الرِّضا حقًّا يقينا ، لأنّا نتحقّقُ أنّ الإحسانَ يحرُسُنا ويقينا ، إنْ شاء الله تعالىٰ .

⁂

وهذه نسخةُ تقليد شريف لأمير مكّةَ المشرّفة :

الحمدُ لله الذى جعل البيتَ مثابةً للناس وأمنا ، ونَصَب فيه للقانتين رُكْنا ، وجعل أرْضَ الحَرم لاتَبِيدُ بركاتُها ولا تَفْنىٰ ، وجعل لشَجَرة النّسب الهاشمىّ فيها اصْلًا شريفًا كَمْ أخرج غُصنا ، وآتىٰ بَنِي الحَسَن فيها إحسانًا من لَدُنْهُ وحُسْنا ، وأقام منهم أميرًا فى ذلك المحلّ الأسنىٰ .

نحمَدُه فُرادىٰ ومَثْنىٰ ، ونشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةً كاملةَ اللّفظِ والمَعنىٰ ؛ ونشهدُ أنّ محمّدا عبدُه ورسولُه الذى شيّد اللهُ به للدِّين خيرَ مبنىٰ ، وأضحت الضُّلوع علىٰ محبّته تُحنىٰ ، وثمارُ الخَيْر ممابين روْضته ومنبره تُجنىٰ ، وخصّه اللهُ بالشّرع المستقيم والدّين الأهنىٰ ، صلّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصحبه صلاةً فى الصدور لهـا سُكْنىٰ ؛ وسلّم تسليماً .

وبعد ، فإنّ أمّ القرى ، خير البلاد بلا مِرا ، قد جعل الله للناس إليها رحلة وسرى ، وهجروا فى قصدهم إليها لذيذ الكرى ، ونصب فيها بيتا متين العرى ، وأنبع فيها بئرا ماؤها يشفى السقيم ويبرئ الورى[1] ، وجعل فيها للشرف بيتا عالى الذرى ، فأميرها المطاع ، من أهل بيت النبوة لا يخيب ولا يضاع ، ذو همة تخافها السباع ، ويرهبها البطل الشجاع ، يعد من الآباء أسلافا كراما ، كمصابيح السماء تجلو ظلاما ، وقد طيب الله مقامهم وأعلى مقامهم حين جاوروا مقاما .

ولما كان ... ... هو شريف العرب ، المعرق فى النسب ، الطيب الحسب ، المحيى من آثار آبائه ما ذهب ، الشريف النفس : فلا يلتفت إلى العرض الأدنى من الرقة وأكد شكره الحرم وأهله ، وأثنى على صفاء سيرته الصفا وعلى مروءته المروة إذ طاب أصله ، قد اقتفى فى الكرم أباه وجده ، وأمن سبيل الحاج من جهة البر ومن جهة البحر من جدّه .

فلذلك رسم أن يفوض إليه ... ... فليحل البلد الحرام حاكما وآمرا ، وليستجلب له من العاكف والباد شاكرا ، وليحسن للطائفين والعاكفين والركع السجود ، وليتبع آثار آبائه أهل الكرم والجود ، وليؤمن الخائف فى تلك التهائم والنجود ، وليردع الحائف عن حيفه فلا يعود ، وليعلم أنه بواد غير ذى زرع ولكن فيه للبركات ظل ممدود ، وخير مشهود ، وبمكة مولد أشرف مولود ، وجده الحسن رضى الله عنه فليكن حسن الفعال فكما ساد يسود ، وليعرب عن الثناء الأبيض عند ما يتمسك بتلك الستور السود ، وليتلق المحمل الشريف فى كل عام ، بالاحتفال والإكرام ، والطاعة التى يبلغ بها المرام ، وليقف مع أمراء الحاج مقيما لحرمتهم بجميل الاحترام ، وليكف الأشرار من العبيد والموالى ، عن النهب والتخطف لوفد

(١) الورى اسم للقيح يكون فى الجوف .

الله الذى قطع السُّرىٰ بالأيّام والليالى ، ولْيلازِمْ خدمَةَ المَحمِل الشريف علىٰ ما يناسب شَرَفَه ، حتّى يقف بعرفه ، ثم يدفع إلى المزدلفـه ، إلىٰ أنْ يقضِىَ الحجَّ ويرحلَ من مكّة المشرّفه ، وليَكُنْ سياجًا على الحُجّاج ، فى تلك الفجاج ، حتّى لا يفقِدَ أحدُهم عقالا ، ولا يجِدَ اَختزالا ، ويرحَلُون عن مكّة المعظمَة من الذُّنوب خِفافا وبمنّته ثِقالا . والوصايا كثيرةٌ وهو غنيٌّ عن أن نُطيلَ له فيها مَقالا ، وتقوَى الله فمن تمسَّكَ بها حَسُنَ حالا ، وأنتم أهلها كرَّمكم اللهُ أهْلًا وآلا ، والله الله فى حِفْظ جانب الصَّحابة رضى الله عنهـم فليردَعْ عن الخَوْض فيهم جُهّالا ، والله يجعلُه مغمورًا مسرورًا بنِعَم الله تعالىٰ ، بمنّه وكرمه ! .

❖

وهذه وصيةٌ لأمير مكّة ، أوردها فى "التّعريف" :

وليعلَمْ أنّه قد وُلِّىَ حيثُ وُلِد بمكّة فى سُرَّة[1] بَطْحائها ، وأُمِّر عليها ما بين بَطْنِ نَعْمانِها إلىٰ بُحْبوحة رَوْحائها ، وأنّه قد جُعلتْ له ولايةُ هذا البَيْت الذى به تمّ شرفُه ، وعلَتْ غُرَفُه ، وعَرَفَ حقَّه له أبطحُه ومُعَرَّفُه ، إذ كان أَولىٰ وُلاة هذا الحَرَم بتعظيم حُرُماته ، وسُرور جوانبه بما يلُوح من البِشْر علىٰ قَسَماته ، ولأنّه أحقُّ بنى الزَّهْراء بما أبقته له آباؤه ، وألقته إليه من حديث قُصَيٍّ جدّه الأقصىٰ أنباؤه ، وهو أجدرُ من طهّر هذا المسجدَ من أشياءَ يُنزّه أن يلحَق به خُشْ طابِهـا ، وشَنعاءَ هو يعرف كيف يتتبّعها «وأهلُ مكّةَ أعرفُ بشِعابها» .

فليتلقَّ رايةَ هذه الوِلايةِ باليمين ، وليَتوقَّ ما يتخوّف به ذلك البلَدَ الأمين ، وليعلَمْ أنّه قد أعطى الله عَهْدَه وهو بين رُكْن ومَقام ، وأنّه قد بايَع الله : والله عزيزٌ ذُو انتقـام ، وليعْمُرْ تلك المَواطن ، ويغمُرْ ببِرّه البادَّ والقاطن ، وليعمل فى ذلك

(١) فى الأصل «ثمرة» والتصحيح من "التعريف" (ص ١٠٤) .

بما يُنَجِّث عنه نِجارُه[١] ، ويأمَنُ به سُكّانُ ذلك الحَرَم الذى لا يُروِّعُ حَمامُه فكيف جارُه ، ولْيُنصِتْ إلى اسْمِه [عزّ وجلّ] حيث يُعلِنُ به الدّاعى على قُبّة زَمْزَم فى كلّ مساء وليَعْرِف حقّ هذه النِّعمه ، وليُعامِلْ من وُلِّىَ عليهم بما يليق أن يعامَلَ به من وقَفَ تحتَ ميزابِ الرّحمه ، وقد أكّد مَوْثِقَه واللهَ اللهَ فى نَقْضه ، ومدَّ يَدَه على الحجَرِ الأسْودِ يَمينِ اللهِ فى أرضه ، وليَتبصّرْ أين هو فإنّ اللهَ قد استأمَنه على بيتِه الذى بَناه ، وسلَّمه إليه بمَشْعَرِه الحَرامِ ومَسْجِد خَيْفِه ومِناه ، وإنّه البَيْتُ المقصود : وكلُّ من تَشوّق حِمَى لَيْلَى فإنّما قصَدَه أو لَعْلَعَ بلَعْلَعِ فإنّما عَناه ، وفى جَمْعه يجتمِعُ كلُّ شَتيت ، وفى ليالى مِنَاه يَطيبُ المَبيت ، وبمُحَصَّبِه تُقام المواسِم ، وتفْتَرُّ الثّغور البَواسِم ، وتَهُبُّ من قِبَل نَعْمانَ الرِّياحُ النّواسِم ، وفى عَقْوَة دارِه مَحَطُّ الرِّحال فى كلّ عام ، ومقَرّ كلّ ذات عُود تُجْذَبُ بقَلْع وعُودٍ تُقادُ بزِمام ، وإليه تضرِبُ التُّجّار البرارِىَّ والبِحار ، وتأتيه الوُفودُ على كلّ قِطار يُحدَى من الأقطار ، وكلُّ هؤلاء إنّما يأتُون فى ذِمَام الله بيتِه الذى مَنْ دخله كان آمنا ، وإلى مَحَلّ ابن بنْتِ نَبِيِّه الذى يلزمه من طريق بِرّ الضيف ما أخذ لهم وإن لم يكُنْ ضَامِنا .

فليأْخُذْ بمن أطاع مَن عَصَى ، وليرْدَعْ كلَّ مفسِد ولا سيّما العبيدُ فإنّ العبدَ المفسدَ لا يَزْجُره إلا العصا ، وليَتلَقّ الحُجّاجَ بالرُّحْب والسَّعَه ، فهم زُوّارُه وقد دعاهم إلى بيتِه وإنّما دعاهم إلى دَعَه ، وليتلَقّ المَحْمِلَ الشريفَ والعصائبَ المنصوره ، وليخْدُمْ على العادة التى هى من الأدب مع الله تعالى مَعْنًى ومَعَنا صُورَه ، وليأْخُذْ بخواطر التُّجّار فإنّهم سبَبُ الرِّفقِ لأهل هذا البلد وتَوْسِعَةِ ما لَدَيهم ، والمُسْتَجابُ فيهم دَعْوةُ خليله إبراهيم — صلوات الله عليه — إذ قال : ﴿ وَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴾ . ولا تُحيّفْ أموالَهم بغرامَةٍ يَقِلُّ بها الغُنْم ، ولا بظُلامَة فإنّه بإزاء هذا

---

(١) يَنجث يستخرج ونجاره أصله .

البيتِ الذى يُرَدُّ دُونَه من أراد فيه إلحادًا بظُلْم ؛ ولْينظُرْ كيف حُبِس دُونَه الفيل ، وليكُفَّ عادِيَةَ مَنْ جاوره من الأعْراب حتّى لا يخاف ٱبْنُ سَبِيل ؛ ولْيُقِمْ شعائِرَ الشَّرع المطَهَّر ، وأوامِرَ أحْكامه التى قامت بأبويه : بحُكْمِ جدِّه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وسَيْف أبِيه حَيْدر . وليأْمُرْ طوائِفَ الأشْراف وأشْياعَهم وسائِرَ أهْلِ موالاتهم وأتباعهم بلزُوم ما كان عليه صالحُ السَّلَف وما عليه الإجْماع ، وتجنُّبِ ما كانت الزَّيْديَّةُ زادت فيه وكَفِّ الأطماع ، وليتَّقِ اللهَ فإنّه مسئُولٌ لديْه عما ٱسترعاه وقد أصْبح وهو له رَاع ؛ وإيَّاه أن يتَّكِلَ على شرف بَلَدِه ، فإن الأرْض لا تُقَدِّسُ أحدا ، أو شَرفِ مَحْتِدِه ، فإنَّ فى يوم القيامة لا ينفعُ وَلَدٌ والدًا ولا وَالدٌ ولَدًا .

الوظيفة الثانية

(قضاءُ مكّة ، ويكْتَب به تَوْقيعٌ فى قَطْع الثلث بـ«السامىّ» بالياء)

وهذه نسخةُ تَوْقيع بقضاء مَكَّةَ المشرّفة :

الحمدُ لله الذى أنْفذ الأحْكام ، بالبَلَد الحَرَام ؛ وأيَّد كلمةَ الشَّرعِ فى بَلَدِه ومنْشَئِه بين الرُّكْن والمَقَام ، وجعلَ الإنْصافَ الجَزِيل ، حَوْل حِجْرِ إسْماعيل ؛ مُتَّسِق النِّظام .

نحمدُه حمدًا حَسَنَ الدَّوام ، ونشهدُ أنْ لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةَ عبدٍ قائم بحقِّها أحْسنَ القيام ؛ ونشهدُ أنَّ سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه السَّامى من ولد سَام ، والذى قام لله حتّى ورِمَت منه الأقْدام ؛ وأُسْرِىَ به من مَكَّةَ إلى السماء مَرَّتين : فى اليَقَظة والمَنَام ، صلَّى الله عليه وعلى آله وصَحْبه أئمّة الصَّلاة والصِّيام ؛ وسلَّم تسليمًا .

وبعـــد ، فإنّ وظيفة القضـاء بمكّة المعظمة هى أجلّ منصب بتلك الأباطح ، ونورها فى الجبين لائح ؛ فإنّ الشّرع نشأ منهـا والوحى أنزل فيها فزهيت البطائح ، وظهرت النّصـائح ، وأطربت الصّوادح ، وأسكتت النّوائح ، وغمرت المنـائح ، وانتشرت المصالح ، فمن ولى الحكم بها وعدل فذلك هو العدل الصالح ؛ وكيف لا ؟ وماء زمزم شرابه ، وأستار البيت تمسّها أثوابه ، وعلى الله أجره وثوابه ؛ وفى ذلك الجناب الشريف كرم جنابه ، وإذا دعا الله عند الملتزم جاءه من القبول جوابه .

ولمّـا كان فلانٌ هو فرع الدّوحة المثمره ، ومحصّـل من العلوم الشّرعية المـادّة الموفّره ، وله البحوث التى [هى] عن أحسن الفوائد وغرر الفرائد مسفره ، ورضى أهل الحرم ، لمـا جبل عليه من خير وكرم ، [تمسك] بالعروة الوثقى والقوى الأنقى فلا جرم .

فلذلك رسم ... ... ــ لا زال ... ...

فليكن فى أمّ القرى ، كالوالد المشـفق على الورى ؛ وليتمسّك من التّقوى بأوثق العرا ، وليخش ربّ هـذا البيت أنّه سميعٌ يسـمع ويرى ، ووفد الله قطعوا إليـه المراحل فى السّرى ، ليصالحوا كفّه المضمّخ عنبرا ؛ وليقض بين الخصوم بالحقّ فمثله من درأ الباطل : قد جعله الله جار بيت عالى الذّرا ، وفى أرض شرّف الله جبالهـا وقدّس غيرانها فمنها غار ثور وغار حرا ، لأنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلم كان يتعبّد فى غار حرا ، وأوى إلى غار ثور لمـا هاجر مؤيّدا مظفّرا ؛ والوصايا كثيرةٌ وملاكها تقوى الله فليتمسّك بها من أمام ووراء ، والله تعالى يجعل نهاره منوّرا ، وليله مقمرا ؛ بمنّه وكرمه ! .

القاعدة الثانيـــة

(المدينةُ النبويةُ، وبها ثلاث وظائف)

الوظيفـــة الأولى

(الإمارةُ)

والأمرُ فيها على ما مرّ فى إمارة مكّةَ المشرّفة .

وقد تقــدّم أن إمارتها فى بَنِى الحسين بن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنهــما ، ويكتبُ لهــا تقليدٌ فى قَطْع النّصف بـ«المجلس العــالى» أيضا بألقاب مخصوصة ، وقد تقدّم ذكر ألقابه .

وهــذه نسخةُ تقليــد شريف بإمارة المدينة النبوية ، كُتب به للأمير بدر الدين «وُدَىّ[(1)] بن جماز» من إنشاء المقرّ الشهابىّ بن فَضْل الله ، سقى اللهُ عَهْدَه :

الحمدُ لله الذى صرّف أمْرنا فى أشرف البِقاع ، وشرّف قَدْرَنا بمُلْكِ ما انعقد على فَضْله الإجماع ، وعرّف أهلَ طَيْبَةَ الطيّبةِ كيف طلع البدْرُ عليهم من ثَنِيّات الوَدَاع ، وأمدّها بوُدَىّ صُغّر للتّحَبُّب وإلّا فهو وَادٍ متدفّقُ الأجْرَاع .

نحمَدُه على نِعَمِه التى أغنتْ مَهَابطَ الوَحْيِ عن ارتهابِ البَرَد اللّمّاع ، وارتقاء النظر مع بدره المنير إلى كلّ شمس سافرة القِنَاع ، ونشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تُخْمِد من الضلال ما شاع ، ومن البِدَع ما استطار له فى كلِّ أُفُقٍ شُعاع ، ونشهدُ أنّ سيدَنا محمّدا عبــدُه ورسولُه أشرفُ من أنِفَت به حَمِيَّةُ الامتناع ، وأنِفَت

(1) سبق ضبطه مرارا فى ج ٤ بالتكبير تبعا لضبط النسخة والظاهر ماهنا .

بنا سُنّته أن ترعىٰ لأهلها ولا تُراع ، وعصفت ريحُها بمن يمالى دينه فمال إلى الابتداع ، صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه الذين ليس فى فضل أحدٍ منهم نزاع ، وسلّم تسليماً كثيرا .

وبعدُ ، فإن الاهتمام بكلّ جهة علىٰ قدْر شرفها ، وعلىٰ حسَب الدُّرّة الثمينة كرامةُ صدَفها ، والكِمامةُ بثمرها ، والغَمامة بمطَرها ، والهالةُ بما يحلو الدُّجىٰ من قمرها ؛ والمدينة الشريفة النبويّة لولا ساكنُها ما طاجتْ إليها الركائب ، ولا ناجتْ حدائقها غُرُّ السحائب ، ولا وقفت بتأرّج شذَا الروضة الغنّاء بها الجنائب ، ولا بكى متيّمٌ دِمَنَ العقيق بمثله من دم ذائب ؛ ولا هاج إليها البرقُ متألقًا ، ولا هام صبٌّ فيها بظَبيات سَلع والنّقا ؛ ولكنّها مثوى النُّبوّة تُرابُها ، ومهوَى الرُّسل جنابُها ، ومأوىٰ كتاب الله الفسيحُ رحابُها ، دارُ الهجرة التى تعالتْ شمسُ الشريعة بأُفقها ، وتوالتْ سُحُب الهُدىٰ من بين أُبيرقها ؛ وهى ثانيةُ مكّة المعظمة فى فضْلها إلّا ماذهب إليه فى تفضيلها علىٰ مكّة مالكُ بن أنس ، ومنها انبعثتْ للهُدىٰ تَوارة كلّ نُور وشُعاعُ كلّ قبَس ؛ وكانتْ لنبيّ هذه الأمّة صلّى الله عليه وسلم أبْقىٰ داريْه ، وأعلىٰ سماء حوتْ ثلاثةَ أقمارٍ منه ومن جارَيْه .

ولما كان بها لبعْض الوُلاة من الشّيعة مُقَام ، ولهم فيها تحامُلٌ لا يجوز معه من الانتقاد إلّا الانتقالُ أو الانتِقام ؛ حتّى إنّه فيما مضىٰ لمّا كثُر منهم علىٰ بُغْض الصاحبيْن ـ رضى الله عنهما ـ الإصْرار ، واشرأبُّوا فى التّظاهُر بسبِّهما إلىٰ هَتْك الأسْتار ، دبّ من النار فى هذا الحَرم الشريف ما تعلّق بكلّ جدار ، وأبتْ لها حَميّة الغضب إلّا أنْ يطَهّر ما سنّته أيدى الروافِض بالنّار ؛ فلما اتّصل بنا الآن أنّ منهم بقايَا وَجدُوا آباءهم علىٰ أمّه ، واقتدَوْا بهم فى مَذْهب الإماميّة بما لاأراده اللهُ تعالىٰ

ولا رسولُه صلّى الله عليه وسلم ولا أولئك الأئمه ؛ وحضر المجلسُ العالى الأميرىُّ، الأصيلىُّ، الكبيرىُّ العادلىُّ، المجاهدىُّ، المؤيّدىُّ، الزعيمىُّ، المقدّمىُّ، الذُّخرىُّ، الكافلىُّ، الشَّريفىُّ، الحَسيبىُّ، النَّسيبىُّ، الأوحدىُّ، البدرىُّ : عزُّ الإسلام والمسلمين ، شرفُ الأمراء فى العالمين ، نُصرةُ الغُزاة والمجاهدين ؛ جمالُ العترة الطاهره، جلالُ الأُسرة الزّاهره ؛ طِرازُ العِصابة العَلَويّه، كَوكَبُ الذُّرّيّة الدُّرّيّه، خُلاصةُ البقية النّبويّه ؛ ظهيرُ الملوك والسلاطين ، نَسيبُ أميرِ المؤمنين ؛ وُدَىّ بن جَمّاز الحسينى — أدام الله تعالى نِعْمته — بين أيدينا الشريفة بمحضر قُضاة القُضاة الأربعة الحُكّام، ونَدّمَ بأنّ مع طُلوعِ بَدْره المنيرِ لا تَبقى ظُلامةٌ ولا ظَلّام، وتكفّل لأهلِ السُّنة بما أشهدَنا اللهَ به عليه ومَنْ حضر، وتلقّى بإظهار فَضْل الترتيب كما هم عليه : النبيُّ صلّى الله عليه وسلم ثم أبو بكرٍ ثم عُمَر، فما آختصّهما الله بجوارِه إلا ليُثبِتَ لهما على غيرهما إفْضالا ، وليجعَلَ قبورَهُما فى معرفة أقربهم منه درجةً مثالا ؛ لَمّا تواترتْ به الأحاديثُ الشريفةُ فى فضائلهما ممّا هو شِفاءُ الصُّدور ، ووفاءً بعهْده إذ يقول : « عليكم بسُنّتى وسُنّة الخُلَفاءِ الراشدين من بَعْدى عَضُّوا عليها بالنّواجِذ وإيّاكم ومُحْدَثاتِ الأمور » ؛ فلم يَسَعْنا إلا أن نجعلَ له منّا تقليدًا يمحو بجِدّه ما حدث من أحداثِ البِدَع ، ويجدّدُ من عَهْد جَدّه نبينا صلّى الله عليه وسلم فى معرفة حَقّ أصحابه رضى الله عنهم ما شَرَع ؛ وُثوقًا بأنّه من بيْتٍ كان أوّلُ هذا الدِّين الحنيف من دَلّه(1) ، ومبدأُ هذا الحقِّ الظاهرِ ما أثّلته ومثّلته فى سلفه الشريف بأقارب متصله ؛ وأنّه هو المورَّثُ من الفَخار ما ورِثه عن آبائه الكرام، المحدَّثُ عن كرم الجدود بما لا يُحْقَر له جِوارٌ أو يُخفَرُ ذمام ؛ المشرِقُ من الأُسرة العَلَويّة بدرًا تماما، المحدِقُ به من الكواكب العُلْويّة ما يظن به(؟) أبا تسمّى وأبنا

(1) الدلّ الحسَنىّ .

تسامى ، المنتخَبُ من آباء صدق أحسن فى ديارهم الصنيع ، وحفظ من حسَبهم الكريم ما أوشك أنْ يَضيع ، واستضاءَ بلامعة من هُدَى سلفه السابق ، وهامعة من نَدَى ما يرويه السحابُ عن الجُودِ والبرقُ عن المَهارق ، تهتزّ بمقدمه المدينةُ سرورا ، وتفترّ رُباها منه بنَسَب كأنّ على نَسَبِه من شمسِ الضُّحى نُورا ، ويتباشر ما بين لابتَيْها بمن يَحْمِى حِماها ، ويُحيِّى مُحيّاها ، وتتشوّف منه رُبا كلّ ثنيّة إلى آبن جلاها ، وطلّاع ثنايَاها ، مع ما لا يُجحَدُ من أنّ له فيها من أبيه حقّ الوراثة ، وأنّه لما كان هذا ثانِىَ المسجدَيْن آحتاج إلى ثانى آثنين تعظيمًا للواحد وفرارًا من الثلاثة ، ليكونَ هو ومَن فيها الآن بمنزلة يدَيْن كلتاهُما تقبل الأخرى ، وأُذُنَيْن كلتاهما توعى دُرّا ، وعَيْنَين مامنهما إلا مايُدرك أمرًا بعيدا ، وفرقدَيْن لايصلُح أن يكون أحدُهما فَريدا ، وقمريْنِ لا يغلِّبُ أحدُهما على الآخر فى التسمية بالقَمَرَيْن ، وعُمَرَيْن وكفى شرفًا أن لا يُوجَد فى الفَضْل ثالثٌ للعُمَرَيْن .

فرُسِم بالأمر الشريف العالى ، المولوى ، السلطانى ، المَلَكى ، الفُلانى ـ زاد الله به المواطِنَ شرفا ، وزاد به البواطن الشريفةَ حبًّا وشَغَفا ـ أن يفوَّض إليه نصْفُ الإمْرة بالمدينة الشريفة على ساكنها أفضلُ الصلاة والسلام ، شريكًا للأمير سيف الدين ابن أخيه ، ورَسِيلًا معه فيما يَليه ، ولكلٍّ منهما حقٌّ لا يكاد الآخرُ يُخفيه ، هذا له برُّ الوَلَد وهذا له حرمةُ الوالِد لأنّ آبن الأخ ولدٌ وعمّ الرجل صِنوُ أبيه ، فتقسم الإمرة بينهما نِصفَيْن ، وتوسَم جِباهُ الكُتُب الصادرة عنهما لهما بآسْمَيْن .

والوصايا تمتدّ من عنانها ، وتعدّ من أعيانها ، فأوّلها تقْوى الله فإنّها من شعائر القلوب ، وبشائر الغُيوب ، وأمائر نجاح كلِّ مطلوب ، والاعتصامُ بالشريعة الشريفة : فإنّها الحبلُ الممدود ، والجَبَل الذى كَمْ دُونَه من عَقَبة كَئُود ، والانتهاءُ إلى مانص عليه

الكتابُ والسنةُ والإجماع ، وقصَّ جَناح مَن مالَ به الهَوىٰ إلىٰ مجاذبة الأطماع ، وتلقّ وفد الله الزائر بما ألفه نزيلُ هذا الحِمىٰ من كرامة الملتقىٰ ، وتوقَّ المَذَمَّة فإنَّها دَنَسٌ لا يَحمدُ مثلَه نَقاءُ هذا النقا ، ونعني بالمَذَمَّة ما نُسب إلى الرَّوافض من البِدَع التى لا تُطَهِّرها غُرُّ السحاب ، ولا يستبيح معها لدخول المَسْجِد الطَّاهر من قَنِع بمقامه حَوْله التيممَ بالتراب ، ولا يَدَعْ أحدًا من هذه الفِرْقَة الضَّالَّة يعلى ولا يعيِّره بما يكون به مُثْلَه ، ولا يَشُبُّه قَلْبه فى محبَّة أهلِ البَيْت ـ سلام الله عليهم ـ بإناء امتلأَ ماءً ولم تبقَ فيه فَضْلَه .

ولا يظنُّ جاهلٌ منهم أنَّ عليًّه ـ كرّم الله وجْهَه ـ كان علىٰ أحد من الصاحبَيْن معاتبا أو عاتب ، أو أنَّه تأوّلَ فى خِلافتهما معتقدًا أنَّ أحدًا منهم غَاصب ، فما تأخّر عن البَيْعة الأُولىٰ قليلًا إلَّا لاشتغاله بما دَهَمه بموتِ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلم من المَصائب ، وإلَّا فقد اتخذ أُمَّ وَلَدٍ من سَبْيِ أبى بكْرٍ رضى الله عنه لا كما يدّعيه كُلُّ كاذب ، وقد تزوَّج عمرُ بن الخطَّابِ رضى الله عنه ابنتَه أُمَّ كُلْثوم وأقام بأمْره الحُدُودَ وناب عنه وهو غائب ؛ فيكُفُّ من عادِيَة هؤلاء الروافض الأشْرار ما سيَصْلَوْنَ فى المُوافقة بنَاره ، وسيصلُون إلىٰ الموافقة علىٰ ما طار من شَرارِه ؛ ولا يَدَعْ للإمامية إمامًا يقْتَدى به منهم قومُ شِرار ، ولا قاضيًا يقضى بينهم : فإنَّه إنَّما يقطعُ لمن قضىٰ له أو عليه قِطْعةً من نار ؛ ولا عالمًا يرفَعُ له عَلَم ، ولا يُفْتح لهم بفَتْوىٰ علىٰ مذاهبهم فم ، حتَّى ولا ما يتحرّكُ به فى فَمِ الدواة القلَم .

وليُطَهِّرْ هذا المسجِدَ الشريفَ من دَنَسِهم ، وليُمِطْ ما يحملُهُ أديمُ مجلَّداتِ التَّصانيف من نَجَسِهم ؛ وسُكَّانُ هذا الحرم الشريف ومن أقام عندهم من المجاورين ، أو خالطَهُم من زُمَرِ المقيمين والسائرين ؛ يُحسِنُ لأُمورِهِم الكَفَالَه ، ولا يتعرضُ لأحدٍ منهم بما يؤْذى نفسَه ولا ينَالُه ؛ فهم فى جوار نبينا صلَّى الله عليه وسلم وفى شفاعتِه ،

وكلٌّ منهم نَزِيلُ حَرَمِه ومكثّرُ سوادِ جماعته ، وحقُّهم واجب على كل مُسْلِم فكيف على حَامِي ذلك الحِمَى ، بل من له إلى نسبه الشّريف مُنْتَمَى .

وأصْحَبْ رفيقَك بالمعروف فإنّكما مفترقان والسعيد من لا يُذَمُّ بعد فِراقه ، ومُسْتبِقَان إلى كلِّ مَوْرِدٍ لا يُدْرَى أيّكما المُجِدّ فى سِباقه ؛ ومتّفقان على فَرد أمرٍ وأفضَلُكما من داوم صاحبهُ على إرفاقه ، وصَحِبَه على وِفاقه .

وأمّا ما بالمدينة الشريفة من تَهائِمَ ونُجودٍ مُضافةٍ إليها ، ومُسْتظلّةٍ بجُدُرها أو متقدِّمة فى الصّحراء عليها ، فهى ومَن فيها : إما أنْ تُوجدَ بقلوبهم فهم أعْوان ، وإما أن تَنفِر فهم أشبهُ شَيءٍ بالإبل إذا نَفرتْ تعلّق بذَنَب كلِّ بَعيرٍ شيطان ؛ فأقربُهما إلى المصلحة تقريبهم ، وتَأْلِيفُهم بمـا يَقْرُبُ به بعيدُهم ويَزْدادُ قُرْبى قَريبهم ؛ والرُّكبان التى تَتّقد بهم جَمراتُ الأصْباح(١) والعَشايا ، ويَعْتقدُ كلُّ منهم فى مَعاجِه إلى المدينة الشريفة أنَّ تمـامَ الحَجِّ أن تَقِفَ عليها المَطايا ؛ فهم هُجُودُ سُرىً ، ووُفودُ قِرىً ، ورُكُودٌ فى أُفُق الرِّحال خَلَعتْ مُقَلُهـم على النجوم الكَرَى ؛ ومعهم المَحامِلُ الشريفة التى هى مُلْتَفُّ شِعابِهم ، ومحتَفُّ رِكابِهم ؛ وهى من أسِرّتنا المرفوعه ، ومبرّتنا المَشروعه ؛ فعَظِّمْ شعائر حُرُماتها ، وقَبِّلْ أمام منابرها المُمثلةِ مراكِزَ راياتها ؛ وأكْرِمْ من جاء فى خِفارَتِها ، ومن جال فى دُجى اللّيل لا يَسْتضىءُ إلّا بمـا يبدو من إشارَتِها ، وقد أشهدْنا عليك مَن هو لك يَوم القيامة خَصيم ، وأنت وشأنَك فيما أنْت به عَلِيم .

وباقى الوصايا أنْت لهـا مُتَفطِّن ، وعليها مُتَوطِّن ، وما ينتفع الشريفُ بحَسَبِه ، إنْ لم يكُنْ عملُه بحَسَبه ؛ ولا يرتفعُ بنَسَبِه ، إن لم يَجتنِبْ مكان نَشَبِه ، والله تعالى يُمتِّعُ بدوام شرفه ، ولا يضيع له أجرَ حَالِّ عمله الصالح ومَسلفه ؛ والاعتماد ... .

---

(١) فى الأصل «والأجناح» .

وهـذه نسخةُ تقليد شريف بإمْرة المدينة النبوية ، على ساكنها أفضلُ الصلاة والسـلام :

الحمدُ لله الفَرْدِ بلا شريك ، الواحدِ لا من أعداد تقتضِى التَّشريك ، المليك الذى يتناهَى إليه تقليدُ كلِّ مَليك .

نحمَـدُه حمدًا يكمِّل مواهبَ التَّمليك ، ويُحمِد عواقِبَ التَّسليك ؛ ونشهدُ أن لا إله إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تصدَعُ التَّشكيك ، وتصدُّ كلَّ أفيك ، وتَسُدُّ خلَلَ التَّـدريك ؛ ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسـولُه خيرُ من حُمِى به عرِيك ، وحمى عليه تريك ، وحمل حتَّى تأتَّى له التحريرُ فى التَّحريك ، وتأتَّى وما فاته على أعدائه النَّصر الوشِـيك ؛ صلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه صـلاة تخلُص كالذَّهب السَّبيك ، وترفَعُ ما شُيِّدَ وتمنَعُ ماشِيك ، وسلَّمَ تسليماً كثيرا .

أمَّا بعـدُ ، فلمَّـا كانت المدينة الشريفة النبوية — على ساكنها أفضل الصـلاة والسلام — حرمًا لا يُستَباح ، وحمًى ليس إلَّا لمن انتهكه دمٌ مُباح ، وجَناباً ما علَى من حلَّه جُناح ، ومَهبِطَ وَحْيٍ لا يُمسَحُ بأركانِه لغير الملائكة جَناح ؛ ولا يُمسِكُ بعِصمَة من أغضَى فيه على قَذًى ، وسكت لساكِنيه على أذًى .

ولمَّـا اتصل بنا عن الرَّوافِض مالا صَبرَ لمسْلم يرجُو اللهَ واليومَ الآخر عليه ، ولا وَجْهَ لمن قَنِـع فيها بإخراج يديه ؛ ولا عُذرَ لمن لَقِيَ اللهَ مُغضَبا لما يُنْهى إليه ، لامغضبًا لمـا ينال رسولَ الله صلى الله عليه وسلم من التعرّض إلى صاحبيه ، ممـا تقاضَى منَّا ما يمحو ظَلاَمه الممتدّ ، وظُلْمه المشتَدّ ، وبِدَعَهم فسواءٌ من ابتدَعَها ومن ارتَدّ — فكنَّا بتقليدنا الشريف من أعطى اللهَ وأعطانا على قولِه موثقا ، وجرّد عزائِمَ لا تَردُّها من

خدعهم الرُّقَىٰ ؛ وأشهدَ اللهَ عليه ومَن حضر انَّه لايَدَعُ هذه الفرقةَ الضالَّة حتى يَدُعَّ يَتِيمَها ، ويُعِدَّ لمَقاتِل السُّيوف حَطيمَها : ممــا تضمنه نَصُّ ماضِى ذلك التَّقليــد ، وما ضم ذِكْرىٰ لمن كان له قَلْبٌ أو أَلْقَى السَّمعَ وهو شَهِيد ؛ ونَبَّهنا علىٰ أنه بدْرٌ لم يبقَ مع طلوعه ظُلْمَةٌ ولا ظُلامَــه ، ولا إضاعةٌ ولا إضامَه (١) ، ولا ما تَجنَّبُ به الرَّكائبُ تمام الحَجِّ فى مواقِفِها ، ولا تُنْكِر ما جهلتْ فى قِبَاب قُبَاء من معارفها ؛ وتَرِدُ أعطانَهَا ولا يَسُوقُها إلىٰ الأبرقِ بارقٌ على أطْلالِه ، ولا يحجبها إن خيل لهــا فى التخيل مَقيل فى ظِلالِه .

وكان المجلس العــالى ــ أدام الله تعالىٰ نِعمتــه هو المتكفِّلَ بتطْهير ذلك الحَرَم الشريـف من أَلَم كلِّ قولٍ يُفْتَرىٰ ، ولَمِّ كلِّ باطلٍ يُلِمُّ يَقَظةً أو طيْفَ كَرىٰ ، وإزالةِ كلِّ شُحٍّ فيها على من أَمَّل قِرَىٰ أُمِّ القُرىٰ ؛ وإماتةِ كلِّ بِدْعة تُسْكَبُ على مِثْلِها العبَرات ، وإماطَةِ كلِّ أذًى من طريق مِنًى والجمرات ، ومَنْعِ شَقاشِقِ شيعَةٍ تَغْلِى مَراجِلُها من الزَّفرات ، وقَطْعِ كلِّ نَجْوىٰ يُنــادُون بها من وراء الحُجَرات ، وقَلْعِ طائفــة لولا إقامةُ حُدود اللهِ لكفاهم مايُقَطِّع أكبادَهم من الحَسَرات ؛ وكان بها من أولاد أخيه ، بل بعضُه منه وبعضُه من بنى أبيه ، من انْتهىٰ عمَّا تَحلَّىٰ به شِيَمُ الشريف الشريفه ، وأنتهىٰ الى ما لا يَعنيــه ولا يُغْنِيه فى تأخير خَلِيفة وتقــديم خليفه ، وأهمل حقوقاً عواقبُها مع الله تعالى ورسولِه صلَّى الله عليــه وسلم مُخِيفَه ، وأوْهم عقوقا لأصْحابه بل له لقوله : «دَعُوا لِى أصْحابى فلو أنفق أحَدُكم مِثْلَ أُحُد ذَهبًا ماأدرك مُدَّىَ أحدِهم ولا نَصِيفَه» . ويَبْقَى يتَّصِل بنا فى هــذا المعنىٰ مالا يُقالُ ممَّــا يقالُ عنهم ، ويَصِل أذاهم إلى رسول الله صلَّى الله عليه وسلم فى صاحِبَيْه وقد قال : «إن أهل الدرجات

(١) مراده اضاعة الحق كله أو نقص شىء منه الا أنا لم نجد فيا بأيدينا من كتب اللغة من هــذه المادة فعلا رباعيا ليكون هذا مصدرا له ولعله استعمل اللغة العامية ترويجا للسجع .

العُلَىٰ لَيَرَاهم مَنْ تَحتَهُم كما يَرَوْنَ النَّجْمَ الطالع فى أفق السماء، وإنَّ أبا بَكْرٍ وعُمَرَ منهم» يطلبون فى التقـديم على من قَدَّمه الله رَدّ فائِت ما جرىٰ به القَدَر، ويضْرِبون صَفْحًا[1] عمـا لا أراده الله ولا رسولُه صلَّى الله عليه وسلم فى قوله : « لا أدْرِى ما قد بَقِىَ لى فيكم فاقتدُوا باللَّذيْن من بَعـدِى : أبِى بَكْرٍ وعُمَر » . مع ما أضـيف إلى هذا من قَوادِح نواب، وفوائح أبواب؛ وحَوادِث تُزعِجُ مقرّ النبوّة أنباؤُها، وتمتدّ على مشارق الأنْواء ظَلْمـاؤُها ؛ وتُغَـيِّر عوائد الوفـود فى كرامة زائِرهم ، وإدامَةِ بشاشَـةِ الملتَقىٰ لسائرهم ؛ وأمْن سِرْبِهم أن يُراع ، وشِرْبِهم أن يتمثّـل به لغيْر برق شُعاع ، وضَمّهم إلىٰ ذلك الحِمىٰ الذى لا يُضامُ نَزِيلُه ، ولا يُرام فى طَرِيق المجَرّة سَبِيلُه ؛ ولا يضـلُّ سارٍ إليـه ووُجوهُ سكّانِ الحِمىٰ دَليـلُه ، ولا يضيع وقد تلقّاه من النَّسيم بِلَيْله بَلِيلُه ، ولا يقِفُ وقْفَة المُرِيبِ وضَوْءُ الصباح من أيْمَن النَّقَا قِنْديلُه؛ ولا يَخْشىٰ وشَعْبُ ذلك الحىِّ شَـعْبُه وقَبِيلُه قبيله ؛ وإراحة ركَائبهـم التى أزْعجها حَادى السرىٰ، وإمتاعهم بقرب الجِوار عوضًا من دُموعِهم عمّا جَرىٰ .

فلمّـا لم يَبْقَ لمن أشَرْنا إليه ــ مِمّن أعطانا عَهْدَ مَوْثِقِه، وسارَ لا يُريد إلا تَقَاءَ تقاه وبراءة أبْرقه ــ إلّا أن يَحُطَّ بالمدينة الشريفة رِكَابَه، ويُبْعِدَ الشَّكْوىٰ ممـا لا عَهْدَ من معاهدها اقترابَه ــ أصَرَّ مَن فيها من ذَوِى قَرابَته علىٰ مَنْعه أن يدْخُلَها إلّا بقتال يُحِل مَقاصدَ الحَرَم ، ويَحُلُّ معاقد الحُرَم[2]؛ ويُشْعِل نارًا يَصْلىٰ بها من لم تمتدَّ له يدٌ إليها إلى وقود، ويَروعُ من الآلِف فيها من يمتـدّ له فى غير مراتع غزْلان النَّقا سِجاف قيام معقود، وقدِم إلىٰ أبوابنا العاليـة مَنْ كان فيها مقيما ، وأنْعمنا عليـه بإبقاء النِّصْف

(١) مراده أنهـم يطلبون فى تقديم علىّ رد فائت ماأراده الله من تأخيره عنهما ويتركون أيضـا ماورد فى الحديث من الأمر بالاقتداء بعده بأبى بكر وعمر . الا أن العبارة سطت عليها يد النساخ فزادت فيها ما غير مبناها وشوش معناها . تأمل .

(٢) فى الأصل مقاعد وهو تصحيف .

فقاته الكُلُّ لمّا لم يقنع أن يكون قسيا؛ فأبَتْ حميّتنا لله ولرسوله صلّى الله عليه وسلم ولتلك المواطن المعظمة إلّا أن نُطَهِّرها ممّا أسبَلت على سريره أذيالها، وما أطاقت (١) على مضضه الأليم احتمالها .

فرُسم بالأمر الشريف ـ لا زال قَدْرُه عاليا، وبِرُّه لا يخل بودى ولا يخلى مُواليا ـ أن تفوّض إليه إمرةُ المدينة الشريفة النبويّة على ساكنها أفضلُ الصلاة والسلام : مستقلًّا بأعبائها، مستهلًّا سحابُه على أرجائها؛ إمرةً تستوعب جميعَها، وتستوعى لمراسمه رُباها ورُبوعَها وعاصيَها ومُطيعَها، وتهائمَها ونُجودَها، وقريبَها وبعيدَها؛ وكلَّ مايدخلُ لها فى حَدّ، وينتظمُ لها فى عَدّ، وأهلَ حاضرتها وباديتها، وما تقف عليه من السحب(؟) ركائب روائحها وغاديتها؛ ومن تتبسّم بهم ثناياها، وتتنسّم لهم أرواح بكَرِها وعشاياها؛ ومن يضمّهم جناحُها المفضّل، ويلمّهم وِشاحُها المفصّل؛ ويجمعهم جيشُها السائر، ويلفّهم فى شَمْلة الدُّجى قمرُها الزّاهر ـ تفويضًا يدخل فيه كلُّ شريف ومَشروف، ومجهول ومعروف؛ ومستوطن من أهلها، وغريب انتهت [به] إليها مطارح سُبُلها؛ مافيه تأويلٌ، ولا تعليلٌ، ولا استثناءٌ، ولا انثناء، ولا تخرج منه الأرض المغبرّةُ ولا الرّوضة الغنّاء؛ لاشُبْهةَ فيه لداحض، ولا حُجّةَ لمعارض؛ يستقلُّ بها جميعِها بَدْرُه التمام، وبِرُّه الغَمام، وبَحْرُه الذى يأبى فَريدُه أن يُوَاخى فى نِظام؛ وأمْرُه الذى يتلقّى به عن الثقة من سادات بيته مَقاليدَ الأحكام، وتقاليدَ مايجرى به القلمُ ويَمضى السيفُ الحسام؛ إفرادًا له فى التحكيم، وأنَفةً لمثله من ضرر التقسيم، وفرارًا من الشَّركة المشتقة من الشِّرْك : ﴿إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾. ولايةً تامه، عامه؛ كامله، شامله؛ لايبقى من أهل نجد من لايدخل فى حُكْمها، وينضاف

(١) فى الأصل « وأطاقت » .

إلى قِسْمِها ، تَقابُلُ السَّوابِقِ فى غاياتها ، وتُقاتِلُ الجحَافِلُ تحت رَاياتِها ، ويعدُّ مع أهْلِ بَدْر فيها ، ويُعدّ من حقوقها ما يُوَفِّيها .

وقد سَبق من الوصايا ما فيه غِنًى ، إلّا ما لا تخل العوائد به ممّا يُذْكر هنا ؛ وقد حَوَيْتَ بحمد الله فى جميع طباعك ، وجميل انْطباعك ؛ من حقّ اَحترامك ، وصدق اَلتزامك ؛ ما هو كالسَّنا للشَّمْس ، والمُنىٰ للنَّفْس ؛ ممّا تحسدُ علىٰ شَرَفِه النُّجوم ، وتنافسُ العَلْياء ما تعلق به الغُيوم .

فكمِّل بتَقْوى اللهِ شَرفَك ، واَتَّبعْ فى الشريعة الشَّريفة سَلَفَك ؛ وكتابُ الله المنزَّل ، أنتم أهل بَيْت فيكم تَنَزَّل ، وسنةُ جدِّكم سيدِنا رسولِ الله صلّى الله عليه وسلم لاتُهْمَلْ ، وهى مجدكم المؤثل ؛ ومعرفة حقِّ من مضىٰ عنكم ، وإلا فممَّن تُنقل ، ومنكم ، وإلا فممَّن تُؤَمَّل ؛ وإزالةُ البِدَعِ وإلّا فلأىِّ شَىْءٍ سيوفكم تُصْقَل ، و [لماذا][1] رِماحُكم تُعدَّل ؛ والرافضةُ وغلاةُ الشِّيعة هم دنَس من انتمى إلىٰ هذا البَيْتِ الشريف بولائه ، وسبَبُ وقُوف من يقصد الدُّخول تحت لِوائه ؛ فهم وإن حُسبوا من امداده ، لَيْسُوا ـ وحاشىٰ نورُه الساطع ـ إلّا من المكثِّرين لسواده ؛ أرادُوا حفْظ المودّة فى القُربىٰ فأخلُّوا ، وقصدُوا تكثيرَ عدَدِهم فقلُّوا ؛ وأنِفَ من هو برىءٌ من سُوءِ مذْهَبهم ، أن يتظاهَرَ بالوَلاء فيُعدَّ من أهْلِ البِدَعِ بسَبَبِهم ؛ مع أنّهم طمعُوا فى رِضا الله فأخطأتْهم المَطامِع ، وصحيحٌ أنّهم زادُوهم عدَدًا إلّا أنّها كزيادة الشَّغْياء[2] أو كزيادة الأصابِع .

فصَمِّمْ عَزْمَك على ماعاهدْتَ اللهَ عليه من رَفْع أيْدى قُضَاتهم ، ومَنْعِهم هُم ومَن اَتَّبع خُطُواتِ الشَّيطانِ فى سبيل مَرْضاتِهم ؛ وحذِّرْهم ممّا لا يعودُ معه علىٰ أحد منهم ستْرٌ يُسْبل ، ولايبقىٰ بعده لغيرِ السَّيفِ حُكمٌ يُقْبل ؛ فمَن خاض للسَّلَف الصالح بِمَ ذَمّ

(١) الزيادة من "التعريف" ص ١٠٧ .

(٢) فى القاموس : الشغياء السن المخالفة الخارجة عن نبتة الأسنان .

أغرق فى تيّاره، أو قدح فيهم زناد عناد أحرق بناره؛ وألزِمْ أهلَ المدينة الشريفة — على ساكنها أفضل الصلاة والتسليم — بكلمة السنة فإنّها أوّل ما رُفعت بتلك المواطن المعظّمة أعلامُهـا، وسمعت فى تلك الحُجْرة المكرّمة أحكامُها؛ مع تعفية آثار ما ينشأ على هذه البِـدْعة من الفتَن حتّى لا ينعقد لها نَقْعُ مُثار، وتوطئة أكْناف الحمى لئـلّا يبقى به لمبطل فى مَدَارج نُطْقه عِثار؛ والوصية بسُكّان هذا الحَرَم الشريف ومَن ينزل به من نَزِيل، ويُجـاوِرُ به مستقرًّا فى مِهاد إقامة أو مُسْتَوفِزًا على جناح رَحِيـل؛ ومَن يَهْوِى إليهم من ركائب، ويأْوِى إليهم من رُفْقة مالتْ من نَشَوات الكرى بهـم رَاقصاتُ النَّجائب؛ ومن يَصِـلُ من رُكْبانِ الآفاق، وإخوانِ نوًى يتشاكون إليهم مرَّ الفِراق؛ ومن يتلاقى بهـم من طوائف كلُّهم فى بيوت هذا الحَىِّ عُشّاق، وأُمَم شتّى جُموعُهم: من مِصْرٍ وشام ويَمَن وعِراق؛ وما يصل معهم فى مَسِيل وُفُودنا، وسبيلِ جُودِنا؛ ومَحامِلنا الشريفة التى يُنْصَب لنا بهـا فى كلّ أرض سَرِير، وأعْلامنا التى ما سُمّيتْ بالعِقْبانِ إلّا وهى إليها من الأشواق تَطِير؛ فمتى شَعَرتَ بقَدَم رِكابِهم، أو برَقَتْ لك عوارِضُ الأقمار من سَماء قِبابِهم؛ فبادِرْ إلى تلقّيهم، وقبِّلْ لنا الأرضَ فى آثار مَواطِيهم؛ وقُمْ بمـا يجبُ فى طاعة الله وطاعة رسـوله صلّى الله عليه وسـلم وطاعَتِنا [وأخرج عنهم كلَّ يد ولا تُخرِجْهم عن جمـاعتنا] (١).

وأهـل البادية هم حِزْبك الجَيْش اللُّهام، وحِزْبُك إذا كان وَقُودَها جُثَثٌ وهَام؛ وهم قوم لم يؤدِّبْهم الحَضَر، ولا يَبِيتُ أحدٌ منهـم لأَنَفته على حَذَر؛ فاستَجْلِبْ بمُدَاراتِك قلوبَهم الأشتات، وبادِرْ حبال إبلهم النّافرة قبل البَتات؛ وترقّبْ مراسمنا المُطاعة إذا ذَرّتْ لك مَشارقُها، وتأهّبْ لجهـاد أعداء الله متى لمعتْ لك من الحُزُوب بوارِقُها؛ وأحْسِنْ كما أحْسَنَ اللهُ إليك، ولولا أنّ السيْفَ لا يحتاج إلى حِلْية

(١) الزيادة من الوصية الآتية بعد ومن التعريف (ص ١٠٨).

لأطلنا حبائل ما نُمليه عليك؛ فما شَهِد للشّريف بصحّة نَسَبه ، أزكىٰ من عمله بحَسَبه ؛ واللهُ تعالى يقوّى أسبابَك المَتينه ، ويُمتِّعُ العيونَ بلوامعِك المُبينه ، ويُمسك بك ما طال به إرجافُ أهل المدينه ؛ والاعتماد ..... .



وهذه نسخةُ تقليد بإمْرة المدينة النبوية ، وهى .

الحمدُ لله الذى خصّ بالنُّصْرة ، دارَ الهِجْره ، وأطْلع للإيمانِ بَخَفَره ، بتلك الحُجْره . وطيب طَيْبَةَ وأودع فيها سليل الأُسره .

نحمدُه حمدًا نأمن به مكْره ، ونشهدُ أن لا إله إلّا اللهُ وحدَه لا شريك له شهادةَ عبد تمسّكَ بالحَجّ وتنسّك بالعُمْره ، ونشهدُ أنّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى شرّف اللهُ قَدْرَه ، وأنفذَ أمْره ، وأيّده فى ساعة العُسْره ، وكان أكرمَ الناسِ فى العِشْره ، وأسخَى العالَمِينَ إذْ يبسُطُ بالجُود رَاحَتَيْه فما أسْمح عَشْرَه ، صلّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاة ثبَتَتْ شجرتُها من الأرض فاتّصلتْ فروعُها بالسِّدْره ، وسلّمَ تسليما .

وبعدُ ، فإنّ المدينةَ النبويةَ معدِنُ الهُدىٰ والوَقار ، ومَسْكَنُ الرِّضوانِ والأنوار ، ومَهْبِطُ الملائكة الأبرار ، ومنزِلُ الوَحْى فى اللّيل والنهار ، ودارُ الهِجْرة للنبىّ المختار ، وتُرْبةُ مَدْفَنِه الزّاكى المِعْطار ، تُشَدُّ الرِّحالُ إليها من أقاصى الأقْطار ، ويأتى إليها الظّالمون لأنفسهم بالاستغفار ، فيرجعون وقد مُحِيتْ عنهم الأوْزار ، فقلوبُ أهل الاشتياق مُقيمةٌ فى فِناءِ تلك الدّار ، وإن كانت أجسامُهم بعيدةً من وَراءِ البِحار ، وبها من آلِ البَيْت سادةٌ أطهار ، وأُمراءُ كِبار ، يُتقرّبُ إلى الله بحُبّهم فى الإعلان والإضمار ، ويُتوسّلُ بولائهم فى دَعْوة الأسحار ، قد ضمُّوا إلىٰ كَرَم الراحَه ، وسَماحَة

الأنفس المرتاحه ، شجاعةً وبسالة ، وعلويةً فعاله ، وتمسكًا بالمروءة المعروفة بشرف الأصاله ، وهم يتوارثون إمرتها عن آباء سادات ، وكرام لهم فى الفضل عادات .

ولما كان فلان هو بقية الأسرة المتضوعه ، وثمرة الشجرة المتفرعه ، والمخصوص بالوصف الذى رفعه ، والقول الذى اتبعه حين سمعه ـ ما زال فى المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام مشكور الطريقه ، محفوظ الوثيقه ، معروف الحقيقه ، موصوف الآثار الحسنة بين الخليقه ، يجتنى لكل صالحة من تلك الروضة الشريفة المثمرة الوريقه ، ويحمى السرح أن ينتهب ، ويطفئ نار الفتن فما تلتهب ، ويعظم المجاورين والواردين والقادمين على حمى سيد العجم والعرب .

فلذلك رسم أن يستقر... ... ...

فليحل هذا الربع المعمور بالتقى ، وليباشر هذه الإمرة الشريفة زادها الله علوا وارتقا ، وليستعمل السكينة فإنها جملة اللقا ، وليسلك الأدب مع ساكن النقا ، وليعتمد على حسن اليقين فإنه له وقا ، وقد جاور العقيق فأصبح بقلائده الفاخرة مطوقا ، وليحكم بالعدل فى بلد نشأ منه العدل والإنصاف فمنذ اجتمعا فيه ما افترقا ؛ وليصن شرفه من الولوج فى فتنه ، وليغمد سيفه ولا يشهره فى وقت محنه ؛ ويحقن الدماء أن تراق ، ويتلق الزوار بالإرفاق ، فإنهم جاءوا من أقاصى الآفاق ، رجالا وعلى النياق ، تحثهم الصبابة والأشواق .

وكلمة الشرع وشعار السنة فليكن معظما لها باتفاق بغير شقاق ، وشيخ الحرم الشريف وخدامه ومجاوريه فليكرم محسنهم ويعامله بحسن الأخلاق ، ويتجاوز عن مسيئهم بطيب أخلاق ، وحواصل الحرم الشريف المخزونة فيه فلتكن محمية من التبذير فى وقت الإنفاق ، وتلك دارهم سكانها الطيبو الاعراق ؛ والتقوى فمن بينهم

الشريف آثارُها الإشراق ، وعليهم نَزل الفُرْقانُ والتحْريم والطَّلاق ، فماذا عسىٰ أن نُوصيَه وهو أهل الفَضْل على الإطلاق ، واللهُ تعالىٰ يجعلُ نِجارَه فى الفخر مُجَلِّيه فى السِّباق ، بمنّه وكَرَمه ! .



وهذه وصية لأمير المدينة أوردها فى "التعريف" ، وهى :

فكَمِّل بتقوَى الله شَرَفك ، واتَّبِعْ فى الشريعة الشريفةِ سَلَفك ؛ وكتابُ اللهِ المنَزَّل ، أنتم أهْلُ بيْت فيكم تَنَزَّل ، وسنةُ جدِّك سيدِنا رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلم لاتُهْمل ، وهى مَجْدُكم المؤثَّل ، ومَعْرِفةُ حقِّ مَن مضىٰ ، عنكم ، وإلا فعمَّن تُنْقل ، ومنكم ، وإلَّا فممَّن تُؤَمَّل ، وإزالةُ البِدَع وإلَّا فلأىِّ شىءٍ سُيوفكم تُصْقَل ، ولمـاذا رِماحُكم تُعَـدَّل ؛ والرافضةُ وغُلاةُ الشِّيعة هم دَنَس من ٱنتمىٰ إلىٰ هذا البَيْت الشريف بولائه ، وسبَبُ وقُوف من يقصِـد الدُّخول تحت لِوائه ؛ فهم وإن حُسِبوا من أمداده ، ليسوا ـ وحاشىٰ نوره الساطع ـ إلا من المكَثِّرِينَ لسَوادِه ؛ أرادُوا حِفْظ المودَّة فى القربىٰ فأخَلُّوا ، وقصدُوا تكْثير عددهم فقلُّوا ؛ وأنِف مَن هو برىءٌ من سُوءِ مذْهَبهم ، أنْ يتظاهَرَ بالوَلاءِ فيُعَدّ فى أهْل البِدَع بسَبَبهم ؛ مع أنَّهم طمِعُوا فى رضا الله فأخْطأتْهم المطامِع ، وصحيحٌ أنَّهم زادوهم عددًا إلَّا أنَّها كزيادة [الشَّغياء أو كزيادة] (1) الأصابِع .

فصَمِّم عَزْمَك علىٰ ماعاهدْت اللهَ عليه من رَفْع أيدِى قُضَاتِهم ، ومَنْعِهم من ٱتِّباع خُطُوات الشيطان فى سبِيل مَرْضَاتِهم ؛ وحَذِّرْهم مما لا يعود معه علىٰ أحد منهم سِتْر يُسْبل ، ولا يبقىٰ معه لغير السَّيف حُكْمٌ يقبل ؛ فمن خاض للسَّلَف الصالح يمّ ذَمٍّ أغْرق فى تيَّاره ، أو قَدح فيهم زِنادَ عِناد أُحْرِق بنارِه ؛ وألْزِمْ أهلَ المدينة الشريفة النبويّة

(1) الزيادة من "التعريف" . (ص ١٠٧) ومن التقليد الذى سبق ، انظر (ص ٢٥٢) .

بكلمة السُّـنّة فإنّها أوّل ما رُفعتْ بتلك المَواطِنِ المعظمةِ أعْلامُها ، وسُمِعتْ فى تلك الحُجْرة المكرّمةِ أحْكامُها ، مع تعْفِيَة [آثار] ما ينشَأُ علىٰ هذه البِـدْعة من الفِتَن حتّى لاينْعَقِد لها نَقْعٌ مُثار ، وتَوْطِئَة أكْناف[ذلك] الحِمىٰ لئلّا يبْقَىٰ به لمُبْطل فى مدارج نُطْقه عِثَار ؛ والوَصيّةُ بسُكّان هذا الحَرَم الشريف علىٰ الحالِّ به أفضل الصـلاة والسلام ومن ينزل به من نَزِيل ، ويجاوِرُ به مُسْتَقِرًّا فى مِهادِ إقامة أو مُسْتَوفِزًا علىٰ جَنـاح رَحِيل ؛ ومن يَهوِى إليهم من ركائب ، ويأوِى إليهم من رُفْقَة مالَتْ من نَشَوات الكَرىٰ بهـم رَاقِصاتُ النَّجائب ؛ وَمن يَصِلُ من رُكْبان الآفاق ، وإخوانِ نَوًى يَتَشاكَوْن إليهم مُرَّ الفِرَاق ؛ ومن يتلاقىٰ بهـا من طوائِفَ كُلُّهم فى بُيوتِ هذا الحَىِّ عُشَّاق ، وأُمَم شتّىٰ جُموعُهم من مِصْرَ وشام [ويمن](1) وعِرَاق ؛ وما يصل معهم فى مَسِيل وُفودِنا ، وسَبيل جُودِنا ؛ ومَحامِلِنا الشريفة التى يُنْصَبُ لنا بها فى كلِّ أرض سرير ، وأعْلامِنا التى ما سُمِّيتْ بالعِقْبان إلّا وهى إليها من الأشْواق تَطِير .

فمتىٰ شَعَرْتَ بمَقْدَمِ رِكابِهم ، أو بَرَقَتْ [لك](1) عوارِضُ الأقْمـار من سَماءِ قِبابِهم ؛ فبادِرْ إلىٰ تَلَقّيهم ، وقبِّـلْ لنا الأرضَ فى آثار مَواطِيهم ، وقُمْ بمـا يجبُ فى طاعة الله وطاعة رسـوله صلّى الله عليه وسـلم وطَاعَتِنا ، وأخْرِجْ عنهم كلَّ يَد ولا تُخْرِجْهم عن جمـاعَتِنا .

وأهْلُ البادية هم حِزْبُك الجَيْشُ اللُّهام ، وحَرْبُك إذا كان وَقُودَها جُثَثٌ وهَام ؛ وهم قوم لم يؤدِّبْهـم الحَضَر ، ولا يَبِيتُ أحدٌ منهم لأنَفَتِه علىٰ حَذَر ؛ فاسْـتجلِبْ بمداراتك قُلُوبَهم الأشْـتات ، وبادِرْ حبـال إبِلهم النّافِرة قبـل الأنْبِتات ؛ وتَرَقَّبْ مراسِمَـا المطاعةَ إذا ذَرَّت لك مَشارِقُها ، وتأهَّبْ لجهادِ أعداءِ الله متىٰ لَمَعتْ لك

(1) الزيادة من التعريف (ص ١٠٨) .

من الحُروب بوارقُها ، وأحسِنْ كما أحسن اللهُ إليك ، ولولا أنّ السّيف لا يحتاج إلى حِلْيَة لأطلْنا حمائل ما نُمليه عليك ؛ فما شهد للشّريف بصحّة نسبه ، أزكى من عمله بحسبه ؛ والله تعالى يقوّى أسبابك المتينه ، ويُمتّع العيونَ بلوامعك المُبينه ، ويُمسك بك ما طال به إرجاف أهلِ المدينه .

الوظيفة الثانية

(القضاء)

وكان فى الزّمن القديم بها قاض واحدٌ شافعىٌّ ، ثم استقرّ بها قاضيان آخران : حنفىٌّ ومالكىٌّ ، يُكتب لكلٍّ منهم توقيعٌ فى قطع الثلث بـ«السامى» بالياء .

وهذه نسخةُ تقليد بقضاء الشافعية بالمدينة النبوية :

الحمدُ لله الذى جعل الشرعَ الشريفَ دافقَ السّيول ، وفى طَيْبَةَ له الأُصول ؛ ومنها نشأ وتفرّع فله فى البسيطة عُمومٌ وشُمول ، وكلُّ قُطرٍ به مشمول ، وكل ربْعٍ به مأهول ، وتأكّد به المعلومُ وتبدّد به المجهول ، وزالت الشرائعُ كلُّها وهو إلى آخر الدُّهور لا يزول .

نحمدُه وحمدُه يطول ، ونشهدُ أن لا إله إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً عَمرتْ [بها] طُلُول ، ونشهدُ أنّ سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه أشرفُ رسول ، وأكرمُ مأمول ، وأفضلُ مسْئُول ، ومُهنّد من سيوف الله مسلُول ، صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه الطيبى الفُروع والأُصول ، وسلّم تسليمًا كثيرا .

وبعدُ ، فإنّ الشرعَ الشريفَ معدنُه فى أرض ثوى خيرُ الرُّسل فيها ، ومنشأه فى بلدٍ ملائكةُ الله تحميها ؛ فلا يلى أقضيةَ الناس إلّا من طالتْ ذوائبُ علمه ،

وأشرقت ثواقبُ فهمه ، وبُنيت على الأُصول قواعدُ حُكْمِه ، وتحلَّى بالورع فتجلَّى في سماء النجاة كنَجْمه .

ولما كان فلانٌ هو الذي جذبته السعادةُ إلى مقرِّها ، وخطبته المغفرةُ إلى موطن بِرِّها ، وأهّلته الأقدار إلى جوار نبيٍّ هو خاتم الأنبياء وفاتحُ أمرها ؛ وأصبح للحُكْم في المدينة ، مستحقًّا لما فيه من سَكينة ، وتحصيل للعلم ومَن حصَّل العلمَ كان الله مُعينه .

فلذلك رسم أن يستقر ... ...

فليباشرْ منصباً جليلًا في محلٍّ جليل ، وليَعلمَ أنَّ سائر الأمصار تغبطُه وتحسُده وما لمنصبه من مثيل ؛ أينَ يُوجد سواه في كلِّ سبيل ؟ من قاض هو بسيِّد المرسلين نزيل ، ومن يُصْبِح ويُمْسِي جارًا للمُستجير في المحشر الطَّويل .

فاحكُمْ بين ناس طَيْبة بورَعٍ وتأْصيل ، وتحرير في تحريم وتحليل ، واتَّق اللهَ في كلِّ فعل وقيل ، واستقِمْ على الحقِّ حذارَ أن تميل ، فصاحبُ الشَّرع أنت منه قريب . والنبيُّ من الله قَريبٌ وحَبيبٌ وخَليل ، وما ذا عسى أن نُوصيه وهو بحمد الله تعالى كالنَّهار لا يحتاج إلى دَليل .

وأما الخَطَابة : فارْقَ دَرَجَ منبرِها ، وشنِّف الأسماعَ من ألفاظك بدُرِّها ؛ وحرِّرْ ما تقوله من المواعظ فإنَّ صاحب العِظات يسْمعُك ، وتواضَعْ لله فإنَّ اللهَ يرفعك ؛ وهذا المرْقَى فقد قام فيه النبيُّ الأُمِّيُّ سيدُ الثَّقلين ، ومن بعده الخليفتان قُرَّتا العين ، ومن بعدهما عُثْمان ذو النُّورين ، وعليٌّ رضى الله عنه أبو الحَسَنين ؛ فاخْشَعْ ، عند المَطْلَع ، واصْدَعْ ، بما ينفع ؛ وانظُرْ لما تقوله فإنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلم

هناك يسمع، وقاضى المدينة وخَطيبُها يرجو أن ليس للشيطان فيه مطمع، والله تعالى يحوز له الخير ويجمع، بمنّه وكَرَمه ! .

الوظيفـــة الثالثـــة

(مشيخة الحرم الشريف)

وقد جرت العادةُ أن يكون له خادمٌ من الخِصْيانِ المعبَّر عنهم بالطَّواشيَّة ، يُعيَّن لذلك من الأبواب السلطانية ، ويُكْتب له توقيعٌ فى قَطْع الثلث بـ«المجلس السامى» بالياء مفتتحا بـ«الحمد لله» .

وهذه نسخةُ توقيع شريف من ذلك :

الحمدُ لله الذى شرَّف بخِدْمة سيِّد الرُّسل الأقْدار ، وفَضَّل بالتأهُّل للدُّخول فى عداد كرمه بخدْمته مَن اختاره لذلك من المُهاجرين والأنصار، وجعل الاختصاصَ بمجاوَرة حَرَمه أفضلَ غاية تُهجَر لبلوغها الأوطانُ والأوْطار ، وعجَّلَ لمن حلَّ بمسجده الشريف تبوُّأَ أشرفِ روْضة تَرِدُها البَصائرُ وتَرُودُها الأبصار .

نحمدُه علىٰ نِعَمه التى أكملُها خدمةُ نَبِيِّه الكريم، وأفضلُها التوفُّرُ علىٰ مَصالح مُجاوِرى قبْر رسوله الهادى إلى الحقِّ وإلىٰ طريق مُسْتقيم ، وأجملُها الانتظامُ فى سِلْكِ خَدَمة حَرَمه [لأنها] بمنزلة واسطة العِقد الكريم النَّظيم ، ونشهدُ أنْ لا إله إلَّا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةً مُزْلِفةً لديه، مُقرِّبةً إليه، مدَّخَرةً ليوم العَرْض عليه، ونشهدُ أنَّ سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه أشرف نَبِيٍّ بُعث إلى الأسود والأحمر، وأكرمُ من أنار ليْلَ الشِّرك بالشَّرع الأقْمر، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وأصحابه الذين فخرت الحَبَشةُ بهجْرتهم الأولىٰ، ونَجا النَّجاشىُّ بما اتَّخذ عندهم من السَّابقة الحَسَنة واليد الطُّولىٰ، وأولىَ

بِلَالُهُم من السَّبْق إلىٰ خِدْمة أشرَف الأنبياء عليه وعليهم أفضلُ الصلاة والسلام أفضلَ مايُولىٰ، صلاةً لا يزال شهابُها مُرْشِدا، وذِكْرُها فى الآفاق مُغيراً ومُنْجِدا؛ وسلّمَ تسليماً كثيرا .

وبعد، فإنَّ أولىٰ ما اْعتمد عليه (١) مَن أفاء اللهُ عليه من نِعَمِه، وأفاض عليه من مَلابِس كَرَمِه، وشرَّف قَدْرَه بأن أهَّله لخِدمةِ سيدِ الرُّسل بل لَمْشَيَخة حَرَمِه؛ وخَصَّه برُتْبة هى أسنى الرُّتَبِ الفاخِرَه، وأجْمعُ الوَظائفِ لشَرف الدُّنيا والآخره ـ من رجّحه لذٰلك دينُه المَتِين، ووَرَعُه المَكِين، وزُهْدُه الذى بَلَغ به إلىٰ هذه الرتبة التى سيكونُ بها ـ إن شاء الله تعالىٰ ـ وَجيهاً فى الدُّنيا والآخرَة ومن المُقَرَّبين .

ولمَّا كان فلانٌ هو الذى ادرك من خِدْمة سيِّد الرسل غاية سُولِه، وزَكَتْ عند اللهِ هِجرَتُه التى كانت علىٰ الحقيقة إلىٰ الله ورسوله؛ وسلك فى طريقِ خِدْمته الشَّريفة أحْسنَ السُّلوك، وأنْتهَتْ به (٢) السَّعادةُ إلىٰ خِدْمةِ رسول الله صلَّى الله عليه وسلم ليُعْرِضَ بجَوْهَرِها الاعلىٰ عن عَرَضِ خِدْمَة الملوك؛ وفَازَ من مُجاوَرَة الحُجْرة الشريفة بما عَظُمَتْ عليه [به] المِنَّه، وحلَّ به مما بين القبْر والمِنْبَر فى رَوْضَة من رِياضِ الجنَّه؛ وأقام فى مَقامِ جبْريل، ومَهْبِطِ الوَحْىِ والتَّنزيل؛ يتَفَيَّأُ ظلالَ الرَّحمة الوَارِفَه، ويتَهَيَّأُ من تلك النِّعمة بالعَارِفَة بعد العَارِفَه ـ تعيَّن أن يكونَ هو المحلىٰ بعقُود مَشْيَخةِ ذٰلك الحَرَم، والمتولِّىَ لمصالح هذه الطائفة التى له فى التَّقدُّم عليهم أثبتُ قَدَم .

فرسم بالأمر الشريف لا زال ... ... أن تفوّض إليه المَشْيَخة علىٰ خُدّام الحَرَم الشريف النبوىّ: للعِلْم بأنّه العاملُ الوَرِع، والكافِلُ الذى يعرف أدبَ تلك

---

(١) لعله "من اعتمد عليه من" الخ .

(٢) فى الأصل "اليه" .

الوظيفة : من خدْمة الرسول صلى الله عليه وسلم ـ علىٰ ما شُرِع ؛ والزّاهدُ الّذى آثَر جِوارَ نَبِيِّه علىٰ ما سواه ، والخاشعُ الذى نَوىٰ بخِدْمَتِـه الدُّخولَ فى زُمْرة من خَدَمه فى حياته : « ولِكُلِّ آمْرِئٍ مانَواه » .

فلْيستقِرّ فى هذه الوظيفةِ الكَريمةِ قائمًا بآدابها ، مشَرِّفًا بها نفْسَه التى تشبثت من خدمته الشريفة بأهدابها ؛ سالكًا فى ذٰلك مايجب ، مُحافِظًا علىٰ قواعد الورَع فى كلِّ ما يأتى وما يجتنب ؛ قاصِدًا بذٰلك وجهَ الله الذى لايُخَيِّبُ لِرَاجٍ أملًا ، ولا يُضَيِّعُ أجْرَ مَنْ أحْسن عَمَلًا ؛ مُلزِمًا كُلًّا من طائفة الخُدّام بما يُقرِّبُه عند الله زُلْفَىٰ ، ويُضاعِفُ الحسنةَ الواحدةَ سبعين ضِعْفا ؛ هاديًا من ضَلّ فى قوانينِ الخدْمة إلىٰ سواء السبيل ، مُبْدِيًا لهم من آداب سُلُوكه ما يغدُو لهم منه أوْضحُ هاد وأنورُ دَليل ؛ وفيه من آداب دِينِـه مايُغنِى عن تَكْرار الوصايا ، وتَجْـديدِ القَضايا ؛ واللهُ تعالىٰ يسـدِّده فى القَوْل والعَمل ، ويوَفِّقه لخدْمة سيِّد المرسلين صلّى الله عليه وسلم وقد فَعَل ؛ بمنّه وكرمه .

القاعدة الثالثـــة اليَنْبُع

(وبهـا وظيفـــةٌ واحدةٌ ، وهى النيابة)

وقد تقدّم أنّ نيابتها فى بَنِى الحَسَن ، من بنى قتادةَ أيضا . وعدل بهـا عن لفظ الإمارة إلىٰ لفظ النيابة تصغيرا لشأْنها عن مَكّة والمدينة . ويُكتَبُ لنائبها مرسومٌ شريفٌ فى قَطْع الثلث «بالمجلس السامى» بغيرياء .

وهذه نسخةُ مرسوم شريف بنيابة اليَنْبُع ، كُتب به «لمخذم بن عقيل» فى عاشر رجب الفرد سنة أرْبع وثلاثين وسبعمائة ، من إنشاء المقرّ الشّهابىّ بن فَضْل الله ، وهو :

الحمــدُ لله الذى أتمّ لدولتنا الشريفة أنْعُما، وأحْسن فى تقــديم شَريف كلِّ قوم تَقدّما ، وأمضىٰ فى كفّ كفّ الأعداء رُمْحًا سَمْهريًّا وسيفًا مِخْذَما .

نحمدُه حمدًا يكاثِرُ عددَ القَطْر إذا هَمىٰ، ونشهدُ أن لا إلٰه إلّا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادة تؤمّن بالإدمان عليهــا مُنجِدًا ومُتْهِـما ؛ ونشهدُ أنَّ محمّدًا عبدُه ورسولُه الذى شَرُف من إليه آنْتمىٰ ، وعلىٰ نَسَبِه الشريف آرْتمىٰ ، وبجوارِه المَنيع آحْتَمىٰ ؛ صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين طَلَعوا فى صباح كلِّ نَهـارٍ شُموسًا وفى عشيّة كلِّ لَيل أنجما ؛ وسلَّمَ تسليمًا .

وبعــدُ ، فإنَّ أولىٰ من أعدْنا له سعادة جَدِّه ، وعُدْنا إلىٰ عوائِدِه الحُسنىٰ لأبيــه وجَدِّه ؛ ورَعَتْ صدَقاتُنا الشريفةُ له قَصْدَه الجَميل ، وشَرَفه الذى سما به من أصْله إلى النَّجْم فرْع لا ينُالُ طَويل ؛ وأُقِرّت عينُه بِسَكَنِه ، وآستقرّتْ به مراسمنا العالية فى مَسْكَنِه ؛ وأغنتْه عنايَتُنا الشريفةُ عن آنتظار كلِّ نجم سعادة يَطْلُع ، وبعَثَتْ إليه كلَّ خير إلىٰ وَطَنِه وهو «يَنْبُع» ؛ بمنزلةُ نسبه الصَّميم ، والحسَبِ الذى يتمسّكُ به فى قومه كلُّ كَريم ؛ والشَّرف الذى أنارت كَواكبُه ، والوَصْف الذى ينظم الدُّرَّ ثاقبُه[1] .

ولمّـا كان المجلسُ السّـامى ، الأميرُ ، الأجلُّ ، الكبيرُ ، الشريفُ ، الحَسيبُ ، النَّسيبُ ، الأوحدُ ، العضُدُ ، النصيرُ ، الأصيلُ ، فلان الدين ، مجدُ الإسلام ، زين الأنام ، شرفُ الأُمراء الأشْراف ، فخرُ العــتْرة الطّاهره ، جمــالُ الأُسرة الزاهره ، نَسيبُ الخلافة ، عَضُدُ الملوك والسلاطين «مِخْذَم بن عقيل » أيده الله تعالى ــ هو الذى تقدّمت إليه كــلُّ إشاره ، وحسُنَتْ به كلُّ شَارَه ، وتعجّلَتْ له بمراضينا الشريفة من مُخَلَّق الشَّفَق كلُّ بِشارَه ؛ وحصل فى اليَنْبُع ما حصل من الاعتــداء ، وآمتدّتِ الأيْدى به إلىٰ ما كان لحُجّاج بيْتِ الله من وَديعَه ، وظَنّ أنّه لا يشيع خبره

(١) لم يذكر خبرا لإن وهو معلوم من نظائره وكثيرا ماورد كذلك ونبهنا عليه .

فى البَيْداء ، فخالف الوَاجِبَ وتعدّى الشَّريعَــة ؛ فاقتضت آراؤنا الشريفة تفويضَها إلى العارف منها بما يجب، العَالِم من طريق سَلَفه الصَّالح بما يأتى فيها ويَجْتَنِب ؛ العامِلِ فى طاعتنا الشريفةِ بما هو به وبمثْلِه من أهلِ الشَّرف يَلِيق ، المَاشِى فى خدْمتنا الشريفة وفى خدْمَة الوُفود إلىٰ بيْت الله الحرام على الطَّرِيق .

فرُسم بالأمر الشريف ـ أعلاه الله تعالى وشرّفه ، وأنفــذه وصرّفه ـ أن تُفوّض إليه النيابة بالينْبُع على عادة من تقــدّمه وقاعدَته إلىٰ آخر وَقْت :

فليُقَدِّمْ تقوى اللهِ فى كلِّ ماتقدَّم ، ويَقِفْ مع حُكْمِ الشرعِ الشريف فإنّه المُهِمُّ المقدّم ؛ وليَسْتَوصِ بالحُجّاج خيْرًا فإنّهم وَفْدُ الله وهوعليه سَيَقْدَم ، وليؤَمِّن الطَّريقَ فإنّه بين حَرَمَين : بَيْتِ اللهِ ومَسْجِدِ رسوله صلّى الله عليه وسلم ؛ وليحفَظْ أمانةَ اللهِ فيما يَحُلّ ويَخلّف عنده الحُجّاجُ كتب الله سلامتهم من وِدَاعه[1] ، وليأخُذْ بقلوب الجَلّابَة فإنّهم فى تَوسيعهم علىٰ أهلِ الحرمين كالمُتَصدِّقين وإن كانوا تُجّارا ببِضَاعَه ؛ وليُوصِّلْ من تأخّر من أبْناء السبيل إلىٰ مأْمَنِهم ، وليخُصَّ بالعَدْل أهْلَ بلَدِه ليستقرُّوا آمنين فى مَوْطِنِهم ، والرِّفْق فهو الذى بحُلَله يُزيَّن ، وبحَلْيِه يُسْتحسن ، والتّأنّى فى معرفة الحقِّ من الباطل فإنَّ به الخيْطُ الأبيضُ من الخَيطِ الأسْودِ من الباطل يُبَيَّن ؛ ولُزُوم الطاعة ، التى أوْجبها اللهُ لنا علىٰ عباده وقَرّب إليها ، ومُلازَمة الجماعةِ ، التى يكفيه من بركاتها أنَّ يَدَ اللهِ عليها ؛ وإقامة الخِدْمة فيما قِبَلَه من البــلاد ، وكلِّ حاضر وباد ، وكلِّ من كادَ أو كاد ، أو تعرَّض لعنادِ العِبــاد ؛ فمن أقْدم علىٰ مَحْــذُور ، أو تقدّم إلىٰ محظُور ، أو ارْتكب فى الخــلاف أمْرًا من الأمور ، جُرَّه بالبَغْيِ إلىٰ مَصْرَعه ، وحَرِّك السيفَ لمضْجعه ، ودَعِ الرُّمْحَ الذى اعتقــله للشِّقاق يبكى للإشــفاق عليه بأدْمُعه ؛ وقد رأيتَ كيف

(١) مراده «وديعة» ولكن اضطره السجع الى موافقة اللغة العامية . فتنبه .

طَرِيقَتَنا المُثْلَى، وسِيرتَنا التى لا تجد لها مِثلا؛ فاسْلُكْ هذه المَحَجَّه، وحَسْبُك أن تتّخذ بينك وبين الله حُجَّه؛ وفى هـذا عن بقية الوصايا غِنًى ، والله يُزيل عنك الخَوْفَ فى الخَيْف ويُبَلِّغك المُنَى فى مِنًى؛ والاعتماد ... .

القسـم الرابع (1)

(ممـا يُكتب من الولايات عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية ـ مايقَعُ على سبيل النُّدور، وهو الذى يقع فى حين من الأحيان من غير أن يسبق له نظير)

قال الشّيخُ شِهابُ الدين محمودٌ الحَلَبِىُّ فى "حُسْن التوسل": ويحتاج الكاتبُ فيه إلى حُسْن التَّصرُّف على ما يقتضيه الحال .

[فمن ذلك] ما يُكتبُ به للنيابة الخارجة عن المملكة إذا رغب فيها مُتَوَلِّيها .

وهذه نسخةُ تقْليد شريف من ذلك، كَتب به المولى الفاضلُ شِهابُ الدين محمود الحلبىّ لمتملِّك سِيسَ، بإقراره على ما هو قاطع النَّهر من بلاده، وهى :

الحمـدُ لله الذى خصّ أيّامنا الزاهرة ، باصْطناع مُلوك المِلَل، وفضَّلَ دولَتَنـا القاهرة، بإجابة من سألَ بعضَ ماأحْرَزَتْه لها البِيضُ والأسَل؛ وجعل من خصائص مُلْكِنا إطْلاقَ المَمالك وإعْطاءَ الدُّوَل، والمَنَّ بالنُّفوس التى جعلها النَّصرُ لنا من جُملة الخَوَل؛ وأغْرَى عَواطِفَنا بتحقيق رَجاءِ مَن مَدَّ إلى عَوارِفنا كَفَّ الأمَل ، وأفاض بمواهِبِ نِعْمائنا، على من أناب إلى الطاعة حُلَلَ الأمْنِ بعد الوَجَل؛ وانتزع بالآئنا،

(1) تقدم له تقسيمه الى ثلاثة أقسام فقط كما ورد فى الصفحة ١٣٤ من ج ١١ من هذه الطبعة فيكون هذا زائدا على الأقسام .

لمن تمسّك بولائنا ، أرواحَ رعاياه من قبضة الأجل ، وجعل بردَ العفو عنه وعنهم بالطاعة نتيجةَ ما أذاقهم العصيانُ من حرارة الغضب : إذ «رُبّما صحّت الأجسامُ بالعلل» .

نحمده على نعمه التى جعلت عفونا ممّن رجاه قريبا ، وكرمنا لمن دعاه بإخلاص الطاعة مجيبا ، وبرّنا لمن أقبل إليه مثيبًا بوجه الأمل منيبا ، وبأسنا مصيبا لمن لم يجعل اللهُ له فى التمسك بمراحمنا نصيبا ؛ ونشهدُ أن لا إله إلّا اللهُ وحده لا شريكَ له شهادةً تعصم دمَ من تمسّك بذمامها ، وتحسِم موادَّ مَن عاندها بانتقام حُسامها ، وتفصم عُرا الأعناق ممّن أطمعه الغرور فى انفصال أحكامها وانفصامها ، وتقصم مَن قصد إطفاءَ ما أظهره اللهُ من نورها واقتطاعَ ما قضاه من دوامها ، وتجعلُ كلمةَ حملتها هى العليا ولا تزالُ أعناقُ جاحديها فى قبضة أوليائها وتحت أقدامها ؛ ونشهدُ أنّ محمدا عبدُه ورسولُه المبعوثُ بالهدى ودينِ الحقّ إلى كلّ أمّه ، المنعوتُ فى الكتب المنزّلة بالرأفة والرحمه ، المخصوصُ مع عموم المعجزات بخمس : منها الرُّعبُ الذى كان يتقدّمه إلى من قصده ويسبقُه مسيرةَ شهر إلى من أمّه ، المنصوصُ فى الكتب المحكمة على جهاد أمّته الذين لا حياةَ لمن لم يتمسّكْ من طاعتهم بذمّه ؛ صلّى اللهُ عليه وعلى آله وصحبه الذين فتحوا بدعوته الممالك ، وأوضحوا بشرعته إلى الله المسالك ، وجلَوا بنور سنّته عن وجه الزمن كلَّ حالٍ حالك ، وأوردوا من كفر بربّه ورسله مواردَ المهالك ، ووثقوا بما وعد اللهُ نبيّه حين زوَى له ذلك ؛ صلاةً لا تزال الأرض لها مسجدا ، ولا يبرح ذكرُها مغيرًا فى الآفاق ومنجدا ؛ ما استفتحتْ ألسنةَ الأسنّة النصرَ بإقامتها ، وأبادتْ أعداءها باستدامتها ؛ وسلّم تسليما كثيرا .

وبعدُ ، فإنّه لما آتانا اللهُ مُلْك البسيطه ، وجعل دعوتنا بأعنّة ممالك الأقطار محيطه ؛ ومكّن لنا فى الأرض ، وأنهضنا من الجهاد فى سبيله بالسُّنّة والفرض ،

وجعل كلَّ يوم تُعرَضُ فيه جُيوشَنا من أمثلة يَوْمِ العَرْض، وأظَلَّتنا بوادِرُ الفتوح، وأطَلَّتْ علىٰ الأعْداءِ سُيوفُنا التى هى علىٰ من كَفَر بالله وكفر النِّعْمَةَ دعْوةُ نُوح؛ وأيَّدنا بالملائكة والرُّوح، علىٰ من جعل الواحدَ سبحانه ثلاثةً: فانتَصر بالأب والابْن والرُّوح؛ وألقتْ إلينا ملُوكُ الأقطار السَّلام، وبذَلتْ كرائِمَ بلادها وتِلادِها رَغْبةً فى الالتجاء إلىٰ ظِلٍّ أعلىٰ من الأعلام؛ وتوسَّلَ من كان منهم يُظْهِر الغِلْظَةَ بالذِّلَّة والخُضُوع، وتوصَّل من كان منهم يُبْدِى القُوَّةَ بالإخلاص الذى رَأوْه لهم أقْوَى الجُنَن وأوْقَى الدُّرُوع - عاهَدْنا اللهَ تعالىٰ أن لا نَرُدَّ منهم آملا، ولا نَصُدَّ عن مَشارِع كَرَمِنا نَاهِلا؛ ولا نُخَيِّبَ من إحساننا رَاجِيا، ولا نُحَلِّئَ عن ظِلِّ بِرِّنا لَاجيا؛ عِلْمًا أنَّ ذلك شكرٌ للقُدْرة التى جعلها الله لنا علىٰ ذلك الآمِل، ووُثُوقًا بأنَّه حيثُ كان فى قبضتنا متىٰ نَشَاءُ تجمع عليه الأنامِل؛ اللَّهمَّ إلَّا أن يكونَ ذلك اللاجئُ للغِلِّ مُسِرًّا، وعلىٰ عَداوَةِ الإسلام مُصِرًّا؛ فيكونُ هو الجانِىَ علىٰ نَفْسه، والخَائِنَ علىٰ مَوْضِع رَمْسه، والمُفَرِّطَ فى مَصْلحة يَومِه وغده بتذكيرِ عَداوَةِ أمْسه.

ولمَّا كان من تقدَّم بالمملكة الفلانيـة قد زَيَّن له الشيطانُ أعْمالَه، وعقَد بحِبَالِ الغُرورِ آمالَه؛ وحَسَّن له التَّمسُّكُ بالتَّتار الذين هم بمهابتنا محصورون فى ديارهم، مَأسُورُون فى حبائل إدْبارِهم؛ عاجِزُون عن حِفْظ ما لَدَيْهم، قاصِرُون عن ضَبْط ما اسْتَلَبَتْه السَّرايا المنصورةُ من يَدَيْهم؛ ليس منهم إلَّا مَن له عند سُيُوفنا ثَار، ولها فى عُنُقه آثَار، ومن يعلَمُ أنَّه لابدَّ له عندنا من خُطَّتَىْ خَسْف: إمَّا القتلُ أو الإسار.

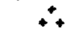
وحينَ تمادَى المذكورُ فى غيِّه، وحمله الغُرورُ علىٰ رُكوبِ جَوادِ بَغْيِه، أمَرْنا جُيوشَنا المنصورةَ فجاسَتْ خِلالَ تلك المسالك، وداسَتْ حَوافِرُ خَيْلها ما هُنالك، وساوتْ فى عُموم القَتْل والأسْرِ بين العَبْد والحُرِّ والمملوك والمالك؛ وألحقتْ رَواسى

جبالهم بالصعيد ، وجعلت حماتهم كزروع فلاتهم منها قائم وحصيد ، فأسلمهم الشيطان ومر ، وتركهم وفر ، وما كرهم وما كر ، وأعلمهم أن موعدهم الساعة والساعة أدهى وامر ، وأخلفهم ما ضمن لهم من العون ، وقال لهم : ﴿ إنى برىء منكم إنى أرى ما لا ترون ﴾ .

وكان الملك فلان ممن تدبر طرق النجاة فلم ير إليها سوى الطاعة سبيلا ، وتأمل أسباب النجاح فلم يجد عليها غير صدق الائتماء دليلا ؛ فأبصر بالخدمة موضع رشده ، وأدرك بسعيه نافر سعده ، وأراه الإقبال كيف ثبتت قدمه فى الملك الذى زلت عنه قدم من سلف ، وأظهر له الإشفاق على رعاياه مصارع من أورده سوء تدبير أخيه موارد التلف ؛ وعرفه التمسك بإحساننا كيف احتوت يده على ما لم يبق غضبنا فى يد أخيه منه إلا الأسى والأسف ؛ وحسنت له الثقة بكرمنا كيف يجمل الطلب ، وعلمته الطاعة كيف يستنزل عوارفنا عن بعض ما غلبت عليه سيوفنا : وإنما الدنيا لمن غلب ؛ وانتمى إلينا فصار من خدم أيامنا ، وصنائع إنعامنا ، وقطع علائقه من غيرنا ؛ فلجأ منا إلى ركن شديد ، وظل مديد ، ونصر عتيد ، وحرم تأوى الملة إليه ، وكرم تقر نضارته ناظريه ، وإحسان يمتعه بما أقره عطاؤنا فى يديه ، وامتنان يضع عنه إصره والأغلال التى كانت عليه ـ اقتضى إحساننا أن نغضى له عن بعض ما حلت جيوشنا ذراه ، وحلت سطوات عساكرنا عراه ، وأضعفت عزمات سرايانا قواه ، ونشرت طلائع جنودنا ما كان ستره صفحنا عنهم من عورات بلادهم وطواه ؛ وأن نخوله بعض ما وردت خيولنا مناهله ، ووطئت جيادنا غاربه وكاهله ، وسلكت كماتنا فملكت دارسه وآهله ؛ وأن يبقى ملك هذا البيت الذى مضى سلفه فى الطاعة عليه ؛ ويستمر ملك الأرمن الذى أجمل السعى فى مصالحه

بيديه ؛ لِتَتَيَمَّن رعاياه به ، ويعلموا أنهم أمِنُوا على أرواحهم وأولادهم بسَبَبِه ، عن طوية مخلصة ونفس مطيعة ، ولا تخشى عليه يَدُ جائِرِه، ولا سريةٌ فى طلب الغِرّة سائره، ولا تَطْرُق كِنَاسَه أُسْدُ جيُوش مفترِسَه، ولا سِباعُ نِهاب مُختلِسَه؛ بل تستمر بِلادُه المذكورةُ فى ذِمام رعايتنا، وحَضانَةِ عِنايَتنا ، وكَنَف إحسانِنا ، ووديعَةِ بِرِّنا وآمتناننا، لا تطمَحُ إليها عينٌ مُعانِد، ولا يمتدُّ إليها إلّا ساعِدُ مُساعِد وعَضُد مُعاضِد.

فليُقابِلْ هذه النِّعمة بشُكْر الله الذى هداه إلى الطاعه ، وصانَ بإخلاص وَلائِه نَفْسَه وتَفائسَ بلاده من الإضاعَه، وليَقْرُنْ ذلك بإصْفاء مَوارد المَوَدّه، وإضْفاء ملابس الطاعة التى لا تزدادُ بحسْنِ الوفاء إلا جِدَّه، وآستمْرارِ المُناصَحة فى السِّرّ والعلَن، وآجتنابِ المُخادَعة ما ظَهَر منها وما بَطَن، وأداءِ الأمانةِ فيما آستقرَّ معه الحلف عليه ، ومُباينَةِ ما يُخْشىٰ أن يَتوجّه بسببه وجهُ عَتْب إليه ، وآستدامَةِ هذه النِّعمة بحفظ أسْبابها، وآستقامَةِ أحْوالِ هذه المِنّةِ برَفْض مُوجِبات الكَدَر وآجْتنابها، وإخلاص النِّيّة التى لا تُعتبر ظواهرُ الأحْوالِ الصالحة إلّا بها .



ومن ذلك ما يكتب به لحكم رُماة البُنْدق

قد جرَت العادةُ أنّه إذا كان للسلطان عنايةٌ برَمْي البُنْدق، أقام لرُماته حاكمًا من الأمراء الذين لهم عنايةٌ برَمْيِ البُندق .

وهذه نسخةُ تَوقيع من ذلك :

الحمدُ لله الذى خصَّ أيّامنا الزاهرةَ ، باستكمالِ المحاسِنِ فى كلِّ مَرام، وجعل [من] أوْلياءِ دَوْلتنا القاهرةِ ، من أصاب من كلِّ مَرْمًى بعيد شاكِلَةَ الصَّوابِ حتّىٰ أصبح

حاكمًا فيه بين كلّ رَام ، وجمع لخواصّنا من أشتات المفاخر ما إذا برزُوا فيه للرياضة ليلًا [أغنت] قِسِيّهم عن الأهلّة ورُجومُها عن رجوم الظّلام ، وسدّد مقاصدَ أصفيائنا فى كلّ أمر فما شُغلوا بمسرّة سرٍّ إلا وكانت من أقوى أسباب التمرّن على خوْض الغمَرات العظام ، واقتحام الحرْب اللُّهام ، واشتمال جلابيب الدُّجى فى مصالح الإسلام .

نحمدُه على نِعمه الوسام ، وأياديه الجسام ، وآلائه التى ما برِحتْ بها ثُغورُ المسارّ دائمةَ الابتسام ، ونشهدُ أن لا إله إلّا الله وحدَه لاشريكَ له شهادةً تعصمُ من الزَّلَل ، وتُؤمِّن من الزّيغ والخلَل ، وتُلبِسُ المتمسّكَ بها من أنوار الجلالة أبهى الحُلَل ، ونشهدُ أنّ محمّدًا عبدُه ورسولُه المنزّه عن الهوى ، المخصوصُ بالوَحْيِ الذى علّمه شديدُ القُوَى ، الدّالُّ على اعتبار الأعمال بصحّة القَصْد بقوله صلّى الله عليه وسلم : « إنّما الأعمال بالنّيات وإنّما لكلّ امرئٍ مانوى » . صلّى الله عليه وعلى آله وصحْبه الذين وفّق الإخلاصُ مساعِيَهم ، ووفّر الإيمانُ دَواعِيَهم ؛ صلاةً دائمةَ الاتّصال ، مستمرّةَ الإقامة بالغُدُوّ والآصال ، وسلّمَ تسليمًا كثيرا .

وبعدُ ، فإنّه لمّا كان رَمْىُ البُنْدق من أحسنِ مالَهَتْ به الكُماة ، فى حال سِلْمِها ، ومن أبهج ما حفِظَتْ به الرُّماة ، حياةَ نُفوسها وعِزّةَ عَزْمِها ؛ على ما فيه من اطّراح الراحة واجتنابها ، واستدعاء الرّياضة واجتنائها ؛ وخَوْض الظُّلُمات فى الظّلام ، وتوخّى الإصابة فى غمَرات الدُّجى التى تخفَى فيها المقاتلُ على حَدَق السّهام ، وارتقاب ظَفَر ، يُسْفِرُ عنه وَجْهُ سفر ، ومُهاجمة خَطَر ، تُفْضِى إلى بلُوغ وَطَر — وله شرائطُ تقتضِى التقدُّمَ بين أربابه ، وقواعدُ لا يخالفها(١) مَن كان مُبرّزًا فى أصحابه ، وأدواتُ

(١) فى الأصل «فى تخالفها» ولا معنى له . تأمل .

كمال، لأنَّه للتحلّى بهذه الرُّتبة منها، وحُسْن خِلال، تُهدَرُ أعمالُ من بَعُد عليه مَرامُها وقَصُرتْ مَساعِيه عَنْها، وعوائدُ معلومةٌ، بين أرْباب هذا الشأْن وكبرائه، ومقاصِدُ مَفْهومةٌ، فيا يتميز به المُصيبُ الحاذقُ على نُظَرائه .

ولمَّا كان الجنابُ العالى الفلانىّ ممَّن يشارُ إليه فى هذه الرتبة بَبَنان التَّرْجيح، ويُرجَع إلى أقواله فيا اقتضى التَّعديلَ فيا بين أرْبابها والتَّجْريح، ويُعملُ فيها بإشارَته الخالصة من الهَوَى والأغْراض، ويُعوَّلُ فيها على قدَم مَعْرفَتِه المميزة بين أقدار الرُّماة مع تَساوِى إصَابة الأغْراض، لاحْتِوائه على غايات الكمال فيها، وسَبْقه منها إلى مقامات حسان لا يُعطيها حَقَّها [الا] مِثْلُه ولا يُوَفّيها - اقتضى رأْيُنا الشريفُ أن نَعدِق به أحكامَها، ونَرُدَّ إلى أمْرِه ونَهْيِه كُبَراءَها وحُكّامَها .

فرُسِم بالأمر الشريف أن يكونَ حاكمًا فى البُنْدق لما يتعين من اختصاصها بجَنابه، ويتبين من أولَوِيّته بالحُكْم فى هذا الفنّ على سائر أرْبابه .

فَلْيَلِ ذلك حاكمًا بشروطه اللّازمة بين أهْله، المعتبَرة بها خلالُ الكمال فى قَوْل كلِّ أحد منهم وفِعْله، المُميِّزة بين تَفاوُتِ الرُّماة بحسب كيفية الرَّمْى وإتقانه، المرجحة فى كَثْرة الطَّير بإمكانه له فى وَقْتِ البروز ومكانه، المُهْدِرَة ما يجب بين أهل هذا الفنِّ إهْدارُه، المُثْبِتَة ما يتعيَّن فى كمال الأدوات إثْباتُه فى قِدَم الكُبَراء وإقْرارُه؛ وليَعْمَلْ فى ذلك جميعه بما تقتضيه مَعْرِفَتُه المجمَعُ فى فَنِّه عليها، ويتقدَّمْ فيه بما تدله عليه خبرَتُه التى ما بَرِحَ وجْهُ الاختيار مصروفًا إليها، والله تعالى يسدِّدُه فى القَوْل والعَمَل، ويبلِّغه مراتِبَ الرِّفعة فى خلاله الجميلةَ وقد فعل، والخيرُ يكون، إن شاء الله تعالى .

قلتُ : ورُبَّما كان المرسومُ المكْتَتَب لمن هو دُون من تقدَّم من أمير عشرة أو مَنْ فى معناه، فيفتتح بـ«أما بعد» ويكمل على نحو ما تقدم .

وهذه نسخةٌ ثانيةٌ لحاكم البُنْدق، مفتتحةٌ بـ«أما بعدُ» وهى :

أمّا بعدَ حَمْدِ اللهِ الذى لا مُعَقِّب لحُكْمِه ، ولا يَعزُب شَىْءٌ عن عِلْمِه ، ولا قُنُوطَ من رَحْمته وَسَعةِ حِلْمِه ، مُلْهِمِ أهل محاربة أعداء دِينِه بالرِّياضة لهـا فى أيّام سِلْمِه ، ومُنْجِز وُعُود السُّعود لمن كان النَّجْم مَبْدأ هِمَّتِـه ، والصَّنْدُقُ حُلَّة سَجِيّته ، والعِزُّ حِلْيةَ ٱسْمه ؛ والصّلاةِ والسلامِ علىٰ سيدِنا محمدٍ الذى هدَى اللهُ بنُورِ ملّته العادلة من تَردَّىٰ فى ظُلُمات ظُلْمِـه ، ورَفَع منارَ النُّبوّة بمـا خصه به من ٱفتتاح التقدّم فى رتبتها وخَتْمِه ؛ وعلىٰ آله وصَحْبه الذين سَرىٰ كلٌّ منهم إلىٰ غاية الكمال علىٰ نجائبِ هِمَّتِـه وجِيادِ عَزْمِه — فإنَّ أَوْلىٰ من رُعِيَتْ له أسْباب قِدَمِه وتَقَدُّمِه ، وفُتِحتْ له أبْواب حُكْمِه فى رُتْبته وتَحَكُّمِه ، وأُعِيدَ إلىٰ مكانته التى رَقّاها باسْتِحقاقِه قَدِيما ، ورُفِعَ إلىٰ منزلته التى لم يَزَلْ بقواعدها خَبِيرًا وبأوْضاعها عَلِيما — مَن ٱرتقىٰ فى رتبته إلىٰ نَجْم أُفُقِها ، وٱقتدىٰ فى مَناهِجه بدَلِيـل مسالكها وطُرُقِها ؛ فأتَىٰ فى مصالحها بيوتَ الإصابَةِ من أبوابها ، ونَقَل فيهـا أوْضاعَ الإجادة عمّن كان أدْرىٰ بها ؛ وتقـدّم فيها تقدُّمَ هِجْرته وسَبْق قِدَمِه ، وبلَغ فى مقاماتها الغايَةَ بين وَثَباتِ سَاعِده وثَبـاتِ قَدَمِه ؛ وجمع من أشـتات الطَّير ما ٱفترق فى غيره ، وحَوىٰ من السَّبْق إلىٰ أنْواعها ما حكم بسَعْد نَجْمِـه ويُمْن طَيْره ؛ فكَمْ ليلةٍ أسْفر فيا أبرزُوه عن صباح نَجاحِه ، وكَمْ طائرٍ زاحم النَّسْرينِ بقوادمه أصْبح لدَيْه محمولًا بجَناحِه ؛ وكَمْ أنزلت أهِلَّةُ قِسِيِّه الطيرَ علىٰ حُكْمِها ، وكَم حَكَتْ بَنادِقُه فى رُجوم الطَّيْرِ المُحلِّقَـة إلى السماء ٱنقضَاضَ نَجْمِها ؛ وكَمْ أبصرَ مقاتِلَ الطَّير وهى من اللَّيل فى ظُلُماتٍ بعضُها فوقَ بَعْض ، وكَمْ ٱشتغل من الطير الواجب بنَدْب رَمْىٍ لم يَشْغَلْه من إعداد الأهبـة للجهاد عن الفَرْض ؛ حتّىٰ كاد النَّسر الطائر إذا توهَّم أنَّ الهلالَ قَوْسُه يَغْدو كأخِيه واقعا ، والمِرْزَم المعلَّق فى الأُفُق يُمْسِى لإشارة

بنادقه الصُّمِّ متتبِّعا ؛ حتى أصبحَ وهو الكبير فى فنِّه بآداب التعريف ، وأضحى وهو الخبيرُ بنَوعِه بطريق النَّقل والتَّوقيف .

ولمَّا كان فلانٌ هو كبيرَ هـذا الفنّ وخبيرَه ، ومُقَـدَّمَ هذا النَّوع الذى لم يزل بَجَلائه عَظِيمَ كلِّ عَصْر وأميره ، وقديمَ هذا المَرْمَى الذى جُلُّ المراد به الجِدُّ لا اللَّعب ، وأليفَ هذا المَرامِ الذى يَنْشَطُ إليـه اللاَّعِبُ ويستَرْوِحُ إليه التَّعِب ـ ٱقتضى الرأىُ الشريف أن نجعلَه حاكمًا فى هـذه الرتبة الجليـلة بمـا علم أو عُلِّمَ منها ، فاصلًا بين أهْلِها بمعرفتـه التى ما برِحَتْ يُؤْخذ بهـا فى قواعدها وينقَلُ عنهـا ـ فرُسِم بالأمر الشريف أن يكونَ حاكمًا فى البُندق .

فليَستَقِرَّ فى هذه الرتبة التى تلقَّاها ، بيمِين كِفَايَتِه ويُمْنِه ، وآرتقاها ، بتَفَرُّده فى نَوْعه وتَقَـدُّمه فى فَنِّه ؛ وليَعتَمِدِ الإنصافَ فى أحكام قَوَاعِدها ، وإجْراءِ أمْرِ أربابها على أحوالهـا المعروفة وعَوائِدِها . ويُنافِس المعْرُوفين بها على التَّحلِّى بآدابها ، والتَّمسُّـك من المُروءَة والأُخُوَّة بأفضـل أهْدابِها ؛ ويُنْصِف بينهم فيما يُعتَـدُّ به من وَاجِبِها ، ويُلزِم الداخلَ فيها بالمَشْيِ على المألُوف من طُرُقها والمعروفِ من مَراتِبِها ؛ ولا يَحكُمْ فى التقديم والتأخير بهَوَى نَفْسه ، ولا يقْبَلْ من لم يَتحَرَّ الصِّدْقَ فى يومه أنّه قُبِل منه فى أمسِه ؛ فإنَّ ٱسْـتِدامةَ شروطها أمانٌ من السُّـقوط عن دَرَجِها ، وإذا حَكَّمْتْ نفوسُ أهْلِها الصِّدْقَ فى أقوالها وأفعالها فقد خَرجَتْ من خَطِّ حَرَجِها ، وليَرْعَ لذَوِى التقدُّم فيها قِدَم هِجْرَتِهم ، وٱشْتِهارَ سيرتِهم الحسنة بين أسْرتِهم ؛ وقد خُبِّر من أوصافه الحَسَنه ، وسَابِقِ رُتْبته التى لم تكن عَيْنُ العِناية عنها وَسِنَه ، ما ٱقتضَى ٱستقرارَ رُتْبته علىٰ مكانتها ومكانِهـا ، وٱكتُفِى له من مَبْسوط الوصايا بعُنْوانها ؛ فليَتّقِ اللهَ فى قوله وعمله ، وليجعَلْ الأعتِماد علىٰ تَوفيقه غايةَ أمَله ؛ والخيرُ يكون : إن شاء الله تعالىٰ .

***

ومن ذلك ما يكتب به فى إلباس الفتوة .

اعلم أن طائفة كبيرة من الناس يذهبون إلى إلباس لباس الفتوة، ويقيمون لذلك شروطا وآدابا جارية بينهم . ينسبون ذلك فى الأصل إلى أنه مأخوذ عن الإمام علىّ كرّم الله وجهه .

والطريق الجارى عليه أمرهم الآن أنه إذا أراد أحدهم أخذ الطريق عن كبير من كبراء هذه الطائفة، اجتمع من أهلها من تيسّر جمعه، وتقدّم ذلك الكبير فيلبس ذلك [1] ثيابا ، ثم يجعل فى كوز أو نحوه ماء ويخلط به بعض ملح، ويقوم كلّ منهم فيشرب من ذلك الماء وينسبه إلى كبيره . وربما اعتنى بذلك بعض الملوك . وقد جرت العادة فى ذلك أنه إذا ألبس السلطان واحدا من الأمراء أن يكتب له بذلك توقيعا :

وهذه نسخة توقيع بفتوة، من إنشاء القاضى محيى الدين بن عبدالظاهر، وهو :

الحمد لله الذى جعل أنساب الفتوّه، متصلة بأشرف أسباب النبوّه، وأفضل من أمدّه منه بكلّ حيل وقوّه ، وأسعد من سما فكان عليا على كلّ من سام علوّه .

نحمده حمدا تغدو الأفواه به مملوّه ، ونشكره على مواهبه بآيات الشكر المتلوّه ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة من جعل إلى منهج التوحيد رواحه وغدوّه ، ونشهد أنّ محمدا عبده ورسوله الذى شدّ الله أزره بخير من أفتى وفتى فنال كلّ فتوىّ من الفتيان به شرف الأبوّة والبنوّه، صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين نصروا وليّه وخذلوا عدوّه، صلاة موصّلة إلى نيل الأمانىّ المرجوّه .

(١) بياض بالأصول، ولعله : المريد أو نحوه .

وبعدُ، فإنَّ خير من اتَّصل به رجاءُ الرجال الأجْواد، وطَوَى البعيدُ إلى تحصيل مَرَامه كلَّ طَوْد من الأطْواد، وأماط به عن مكارم الأخلاق لِثَامَ كلِّ جُود وٱمتطى ظهرَ خير جَوَاد، وٱستمسكَ من ملابس الشَّرف بما يؤمِّن ويؤمِّل وما يشدّ به من كلِّ خير لباسَ التَّقوى، وما تُؤيَّد به عزيمته فتقوى؛ وما يتقيد به على رءُوس الأحزاب، وما يتنزل به عليه أحسنُ آيةٍ من هذا الكتاب ـ من ٱشتهر بالشَّجاعة التى تقدَّم بها على قَوْمه، وحَمِدَ أمسَها فى يَوْمه؛ وبالشَّهامة التى لها ما للسِّهام من تفويق، ولزُرْق الأسنَّة من تحذيق؛ ولبيض الصِّفاح من حدَّة مُتُون، وللسَّمْهرِيَّة من ٱزْدحام إذا ٱزْدحمتِ المَنُون؛ ومن صِدْق العَزِيمة، ماتشهد به كرمَ الشِّيمة؛ ومن شدَّة الباس، مايجتمع [به] على طاعته كثيرٌ من الناس؛ ومن صِدْق اللَّهْجة واللِّسان، ما ٱتَّصف عَفافُه منهما بأشرف مايتَّصفُ به الإنسان؛ ومن طَهارةِ النَّفْس ما يتنافَسُ على مِثْله المُتنافِسُون، ويَسْتضىءُ بأنواره القَابِسُون، ويَرْفُلُ فى حُلَلِ نَعْمائه اللَّابِسُون؛ و[كان] من الّذين أبانُوا عن حُسْن الطاعة وأنابُوا، وإذا دُعُوا إلى ٱسْتِنفار جهادٍ وٱجتهاد لَبَّوْا وأجابُوا؛ والذين لايَلْوُون ألسِنتَهم عن الصِّدْق، ولا يُوَلُّون وجُوهَهم عن الحَقّ؛ والذين لايُقْعِدهُم عن بلوغ الأوطار مع إيمانهم حُبُّ الأوطان، وإذا نَفذُوا فى حَرْب حِزْب الأعْداء لايَنْفُذُون إلا بسُلْطان.

ولما كان فلانٌ ذُو المَفاخر، والمآثر، أميرُ الفِتْيان، مُميِّزُ الإخْوان والأعْيان؛ هو صاحبَ هذا المَحْفِل المَعْقود، والممدُوحَ بهذا المَقالِ المحمُود، والممنوحَ بهذا المقام المشْهُود؛ والثَّناء الذى سَرْبالَهُ بما سَرْبلَه أثوابَ العِزَّة والفَخار، والاعتناء الذى ٱستخير اللهُ فى ٱصْطِفائه وٱختياره فى ذلك نخار ـ ٱقتضَى حُسْنُ الرأى الشريف ـ أكرَم اللهُ أنصارَه، وأعلى منارَه ـ أن نُجيبَ وَسائِلَ مَن وقَفَ فى هذا القَصْد وَقْفةَ سائل، لينَال بذلك كلَّ إحسان وإحْسانَ كلِّ نائل؛ ودعا إلى الكريم العامِّ بالإنعام،

والدعاء لسلطان يُدعَىٰ له ويدعو كلُّ الأنام ، فقال : أسألُ اللهَ وأسألُ سلطانَ الأرض، مَلِكَ البسيطة إمامَ العصر، رافعَ لواءِ النَّصر، ناصرَ الملّة المحمّديّه، مُحيي الدّولة العبّاسيّه، فاتحَ البلادِ والقلاعِ والأمصار، قاهرَ الكُفّار مُبيد الفرنج والأرمن والتّتار، سُلطانَ الزّمان، خُسْرُوانَ إيران، شَاهنشاه القان ، سُلطانَ العالمِ وارثَ المُلْك ، سُلطانَ العربِ والعَجَم والتُّرْك، الذى انتهىٰ إليه عن أمير المؤمنين الإمام الأوّاب، المغوار، علىّ بن أبى طالب ذى الفخار، شرفُ الفُتُوّة واتّصالُ الأنساب.

قلتُ : هذا ما وقفتُ عليه من نُسْخة هذا التّوقيع . وقد ذكر الشيخُ شهابُ الدّين محمودٌ الحَلَبىُّ فى كتابه "حسن التوسل" نسخةَ تقليد أنشأه فى الفُتُوّة ، أسقط منه أوّل الخُطبة وهو : ـ وابتدأ منه بقوله :

نحمَدُه علىٰ ما مَنَحنا من نِعَم شتَّىٰ ، ووهَبنا من عِلْم وحِلْم غدَوْنا بهما أشرف من أفتىٰ، وآتانا ملك خلال الشَّرَف الذى لاينبغى لغيرما اختصنا به من الكمال ولايتأتّىٰ؛ وخَصَّنا به مَن رَفْع أهلِ الطاعة إلىٰ سماء النعَم يتبوَّءُونَ من جِنانِ الكَرَم حيثُ شَاءُوا : وغيرُهم لا تُفَتَّحُ لهم أبوابُ السماءِ ولا يدخلون الجنّة حتّىٰ؛ ونشهدُ أن لا إلٰه إلّا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةَ من انتمىٰ فى فخار أُبوّة التُّقَىٰ إلىٰ حَسَب علىّ، وانتهىٰ فى بأوة البُنُوّة إلىٰ سبَبٍ قوىّ ونَسَب زكىّ، وارتدىٰ حُلَلَ الوقار بواسطة الفُتُوّة عن خيرِ وَصِىّ عن أشرف نَبِىّ؛ ونشهدُ أنّ محمّدًا عبدُه ورسولُه الذى نُور شريعته جَلِىّ، وجاهُ شفاعته مَلِىّ، وبسَيْفِه وبه حاز النَّصر من انتمىٰ وفاء إليه : فلا سَيْفَ إلّا ذُو الفَقارِ ولا فَتَى إلّا علىّ .

وبعدُ، فإنَّ أولىٰ من لَبَّىٰ إحسانُنا نداءَ وُدِّه، ورَبَّى امتنانُنا نِتاجَ وَلائه الموروث عن أبيه وجَدّه، ورقّاه كَرَمُنا إلىٰ رُتبة علاء يَقِفُ جَوادُ الأمل عن بلوغها عند حَدّه،

وتلقّت كرائمنا وفد قصده بالترحيب ، وأنزلت جار رجائه من مصر نصرها بالحرم الآمن والربع الخصيب ، وأدنت لأمله ما نأى من الأغراض حتى بلغه بفضلها سهم اجتهاده المصيب ، وأعلت له من حلل الجلالة ما هو أبهىٰ من رداء السماء الذى تزداد على الأبد جدّة برده القشيب ؛ وخصّته لأبناء المجد بأجلّ بنوّة جعلت له فى إرث خلال الشرف أوفر حظّ وأوفىٰ نصيب ـ من سمت منابر المجد بذكره ، وابتسمت أسرّة الحمد بشكر أوصافه ووصف شكره ؛ واختالت موادّ الثناء بحسن خلاله ، واختارت كواكب السناء إقبال طوالعه بطوالع إقباله ؛ وتمسّك من طاعتنا بأمثل أسباب الهدىٰ ، واعتصم بعروة بنوة الأبناء فأوطأه التوثّق بها رقاب العدا ، واتّصف بمحاسن الشيم فى مودّتنا فأضحىٰ فتيّ السنّ كهل الحلم يهتزّ للندىٰ ؛ وأتىٰ إلينا فأصبح لدينا ملكا مقرّبا ، وأوجب من حقوق الطاعة علينا ما أمسىٰ به لدينا ـ مع جلالة الأبناء ـ ابنا وغدونا له ـ مع شرف الآباء ـ فى نسب الفخر العربىّ أبا ؛ ونشأ فى مهاد الملك فسما به للعلم والعلم ، بالسيف والقلم ، والبأس والكرم ، واعترىٰ إلىٰ أبوّة حنوّنا ببنوّة رجائه فتشبّه بعدل أيامنا : «ومن يشبه أباه فما ظلم» ؛ وتحلّى بصدق الولاء وهو أوّل ما يطلب فى سرّ هذا النسب ويعتبر ، وتحلّى لنكاية عدوّ الإسلام بلطف مكايدة : السيوف تجزّ الرقاب «وتعجز عما تنال الإبر» .

ولما كان فلانٌ هو الذى زان بموالاتنا عقود مجده ، وزاد فى طاعتنا علىٰ ما ورث من مكارم أبيه وجدّه ؛ وزان الملوك فى إقبال شبابه ، وصان ملك أبيه عن عوارض أوصابه باتّباع ما أوصىٰ به ، وأنفت صوارمه أن تكون لغير جهاد أعداء الله معدّه ، وعزائمه أن تتّخذ عدوّ الله وعدوّه أولياء تلقى إليهم بالمودّه ؛ وسهامه أن تسدّد [الا] إلىٰ مقاتل العدا ، وأسنّته أن يبلّ لها من غير مناهل صدور الكفر صدىٰ ؛ مع اجتماع خلال الشرف لشرف خلاله ، وافتراق أسباب السرار عن هالة كماله ؛

وسُؤَالِه ما ليس لغيره أنْ يمدّ إليه يدا ، وٱلتِمَـاسه من كَرَمنا العميم أجَلَّ ما نَحَلَ والدٌ وَلَدا ؛ وأنّه وقف علىٰ قَدَم الرَّجاء الثَّـابِت، ومَتَّ بِقِـدَمِ غُروسِ الوَلاءِ التى أصْلها فى رَوْض المَوَدّةِ نَابِت ؛ وقال : أسْأَلُ اللهَ وأسْأَلُ سُلطان الأرض، القـائمَ بِجهادِ أعْداء الله بالسُّـنّة والفَرْض، فاتحَ الأمْصار، الذى لم تَزَلْ سُيوفُه تُهاجِرُ فى سبيل الله عن غُمودِها إلىٰ أن صار له من الملائكة الكِرَامِ أنْصار؛ الذى كَرَّم الله شرَفَ الفُتُوَّة بٱنْتمائِها إليه، وأعْلىٰ قَدْرَ بُنوّة المُروءَة بٱتّصالها به عن الخلفاء الراشدين عن أب أوّاب عن أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رِضْوَانُ الله عليـه ؛ وأورَثَه من خُلُقِـه الكَرَمَ والبَأْسَ فَتَحَلَّيا منه بأجَلِّ مُوافٍ مُوافِق، ومَنَحَه بحِفْظ العَهْد من خصائصه ما عَهِدَ به إليه النَّبىُّ الأُمّىُّ من أنّه ما يُحِبُّه إلا مُؤْمِنٌ ولا يُبْغِضه إلا مُنافِق؛ أعزَّ الله سلطانه، وأوْطأ جِيادَه مَعاقِلَ الكُفْر وأوْطانه ؛ أن يتقبَّـلَ قَصْدى بقَبُول حَسَن، ويُقْبِـلَ بوَجْه كَرَمِه علىٰ أمَلِى الذى لم يَقْعُدْ به عن فُروض الطاعات وسُنَنِها وَسَن؛ ويَنْظِمَنِى فى سلك عقود الفُتُوَّة ملتزمًا بأسبابها ، مقْتَدِيا بطاعته التى هى أكْمَلُ أنسابها؛ متّصِفًا بموالاته التى لايَثْبُت لهـا حُكْمٌ إلّا بها، آتيًا بشروط خدْمَته التى من لم يأْتِ بها علىٰ ما يجب فـا أَتَى البيوت من أبوابها .

فاستخرنا اللهَ تعالىٰ فى عَقْد لِواءِ هذا الفَخَار لمجْده ففَخَار، ونظمْناه لعقْد هذا المقام الكريم واسطةً لمثله كان يَزِينُها الآدِّخار .

فرُسِم بالأمر الشريف ــ لازال جُودُه يُعْلِي الجُدُود، ويُوَطِّدُ لأبْناء ملوك الزَّمن من رُتَب الشرف فوقَ ما وطَّدَتِ الآباءُ والجُدُود ــ أن تَصِلَ سَبَبه بهذا السَّبَب الكريم ، ونعقِدَ حَسَبَه فى الفُتُوَّة بأواخى هذا الحَسَب الصَّميم ، ونعْدِقَ نَسَبه بأصالة هَذِه الأُبوّة التى هى إلا عن مثْله عَقيم ، ويُفاضَ عليه شِعارُ هذا الخُلُق المتّصل عن أكرم وَصىٍّ بمن قال الله تعالىٰ فى حَقّه : ﴿ إِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ .

فليحلّ هذه الهضْبةَ التى أخذتْ من مرافق العزّ بالمعاقل، ويُحلّ هذه الرتبةَ التى دُونَ بلوغها من نوع الفراقِد ألفُ راقد؛ ويجُرّ رداءَ الفخْر على أهداب الكواكب، ويُزاحِمْ بمواكب مجْده النجومَ على وُرُود نهْر المجرّة بالمناكب؛ وليصِلْ شرف هذه النسبة من جهته بمن رآه أهْلًا لذلك، ولْيُفْتِ فى الفُتُوّة بما علِم من مذهبنا الذى انتهى فيه منّا إلى مالك؛ وليطّلِ على مُلوك الأقطار، بهذه الرتبة التى تفانى الرِّجالُ على حُبِّها، ويَصُلْ على صُروف الأقدار، بهذه العناية التى جعلته ـ وهى حِلْيةُ حزْب الله ـ من حزْبها؛ وليصلْ سِرَّ هذا الفضْل العميم بإيداعه إلى أهْلِه، وانتزاعِه ممن لم يرَه أهْلًا لحمْله.

قلتُ: وما تقدّم مما يُكتب عن الأبواب الشريفة السلطانية بالديار المصرية والممالك الشامية، لأرباب السيوف وأرباب الأقلام وغيرهم: من التقاليد، والتفاويض، والتواقيع، والمراسيم: المُكبّرة والمصغّرة، ليس هو على سبيل الاستيعاب، بل على سبيل التمثيل والتذكير، لِيُنْسَجَ على منواله، ويُنْهَجَ على نَهْجه. فإنّ استيفاءَ ما يكتب فى ذلك مما يشُقّ، ويقفُ القصدُ دونه. بل لا بدّ من حوادثَ تحدُث لم يسبق لها مثال يقتفى أثرُه. فيحتاج الكاتب إلى حُسْن التصرّف فى إيراد ما يلائم ذلك ويُناسبُه. وكلُّ كاتب ينفِقُ من كَسْبه، على قدْر سَعَته، والله تعالى هو الموفق إلى نَهْج الصواب، والهادى إلى طريق الحقّ فى الأمور كلّها، بمنّه وكرمه.

الفصل الثالث

من الباب الرابع من المقالة الخامسة

(فيما يكتب من الولايات عن نوّاب السلطنة؛ وفيه طرفان)

الطرف الأوّل

(فى مقدّمات هذه الولايات، ويتعلق بها مقاصدُ)

المقصد الأوّل

(فى بيان مَن تصدُر عنه الولايات: من نوّاب السلطنة)

اِعلم أنّ نوّاب السلطنة بالديار المصرية لا تصدُر عنهم ولايةٌ فى جَليل ولا حَقير، بل التولية والعَزْل مَنُوطانِ بالسُّلطان، والكِتابةُ فى ذلك مَعْذُوقةٌ به، سواءٌ فى ذٰلك النائبُ الكافلُ، ونائبُ الإسكندرية، ونائبَا الوَجْهين: القبلىّ والبحرىّ، إلا ما يكتبُ عليه النائبُ الكافلُ من القِصَص فى صغائر الولايات: من نَظَر الأوقاف وغيرها، ثم تُعيَّنُ ويُكْتب بها تواقيعُ سلطانية.

أمّا نوّاب السلطنة بالممالك الشامية: وهم نائبُ السَّلطنة بالشام، ونائبُ السَّلطنة بحَلَب، ونائبُ السلطنة بطرَابلُس، ونائبُ السلطنة بحَمَاة، ونائبُ السَّلطنة بصَفَد، ونائبُ السلطنة بغَزّة، إذا كانت نيابةً لا تَقدِمةَ عَسكر.[1]

---

(١) يظهر أن هنا سقطا ولعله «فتصدر عنهم الولاية» أخذا مما تقدم.

المقصد الثانى

(فى بيان الولايات التى تصدر عن نوّاب السلطنة بالممالك الشامية)

قد تقدّم فى الكلام على الولايات الصادرة عن الأبواب السلطانية بالممالك الشامية ، أنّ نُوّاب هذه الممالك يَسْتَبِدّون بتَوْلِية وُلاة الأعمال، وقد يَسْتَبِدّون أيضا بتولية صِغار النُّوّاب ، كالقلاع والبُلْدان التى تكون نيابتها إمْرة عَشَرة . ورُبّما استبدّوا بتولية بعض النيابات التى تكون نيابتها إمْرَةَ طَبْلخاناه ، إلّا أنّ تولية العشرات عن النوّاب أكْثرُ، وتوليةَ الطبلخاناه عن السُّلطان أكثر . أمّا النيابات التى تكون نيابتُها تقدمةَ ألْف ، فإنّها مختصةٌ بالسلطان . والنياباتُ التى يكون مُتولّيها جُنْديًّا أو مقدّمَ حَلْقة فإنّها مختصةٌ بالنوّاب . وأنّ تولية أكابر أرباب الأقلام : ككاتبِ السّرّ، والوزيرِ بالشّام، حيث جعلت وزارةً ، وناظرِ النُّظّار ، حيث جعلت نَظَرا ، وأصحاب دواوين المكاتبات ، ونُظّار المال بسائر الممالك ، ونُظّارِ الجَيْش ، وقُضاة القُضاة بها ـ فإنّ التوليةَ (1) فى ذلك تختص بالسلطان دون النوّاب . وما عدا ذٰلك يولّى فيه السلطانُ تارةً، والنوّابُ أخرى . ورُبّما حصلتِ الولاية فى بعض ذٰلك من بعض النوّاب ثم يُكْتب من الأبواب السلطانية بالحَمْل عليها، على ما تقدمْ بَسْطُ القول فيه هناك، فلْيُراجَعْ منه .

---

(1) أعاد هذه الكلمة لطول الفصل .

المقصـــد الثـالث

[فى افتتاحات التواقيع والمراسيم بتلك الولايات]

تقدّم فى الكلام على الولايات الصادرة عن الأبواب السلطانية أنّه يراعىٰ فيها بَراعةُ الاستهلال فى الافتتاح وأنّ الافتتاح فيها بـ«الحمد لله» أعلىٰ من الافتتاح بـ«أما بعدُ» والافتتاحَ بـ«أمّا بعدُ» أعلىٰ من الافتتاح بـ«رُسِم بالأمر الشريف» وأنّ لفظَ «أمّا بعدُ» أعلىٰ من لفظ «وبعدُ» وأنه يراعىٰ فى الولايات وصفُ المتولِّى والولاية ، ويُؤْتىٰ لكلٍّ أحد من ذلك بما يناسبه من صفات المدح ، ثم يقال : "ولما كان فلان هو المشارَ إليه بالصفات المتقدّمة، اقتضىٰ حسنُ الرّأى أن يستقرّ فى كذا ونحو ذلك" . ثم يؤتىٰ من الوصايا بما يناسبُ مقام الولاية والمتولِّى لها ، ثم يؤتىٰ بالاختتام : من المَشيئة والتّاريخ ، والحَمْدَلة ، والتّصْلية ، والحَسْبَلة .

والأمر فيما يكتب عن النوّاب جارٍ علىٰ هذا المَنْهج إلّا فى أُمور قليلة :

منها ــ أنّ جميعَ ما يُكْتب عن النوّاب بالشّام يقال فيه « تَوْقيعٌ » ولا يقال فيه «تَقْليدٌ» ولا «تَفْويضٌ» وربما قيل «مَرْسُومٌ» فى أُمورٍ خاصّة .

ومنها ــ أن التّوقيع يوصف بـ«الكَريم» لا بـ«الشّريف» فيقال : «توقيعٌ كريمٌ أنْ يستقرّ فلانٌ فى كذا » أو « مرسومٌ كريمٌ لفلان بكذا » بخلاف ما يكتب عن الأبواب السلطانية ، فإنّه يوصف بكونه « شَريفًا » فيقال : « تقليدٌ شريفٌ » و «تَفْويضٌ شريفٌ» و «مَرْسومٌ شريفٌ» و «تَوْقيعٌ شريفٌ» علىٰ ما تقدّم ذكره .

ومنها ــ أنّ[1] الكاتبَ يأْتِى بنون الجمع [جاريا][2] فى ذلك علىٰ من تصدر عنه الولاية ، كما أنّ الولايات عن الأبواب السلطانية [يجرى فيها على][2] العادة فى الكتابة

(١) ذكر هذا فى المخالف سهو فانه موافق لما يكتب عن السلطان أو الملك كما لا يخفىٰ . (٢) بياض بالأصل .

عن الملوك . وكأنهم رَاعَوْا فى ذلك أنَّ المكتوبَ عنه هو السلطانُ فى الحقيقة ، وفعلُ النائبِ كأنَّه فعلُه نفسه ، كما يقال : هَزَم الأميرُ الجيْش ، وفتح السلطانُ المدينةَ ، والذى هَزَم وفتح إنَّما هم جُنُدُه لا هو فى نفْسِ الأمر .

ومنها — أنَّه إذا ٱفتتح التوقيع بـ«رُسِم بالأمر» — لا يوصف بـ«الشَّريف» بل بـ«العالى» علىٰ ما تقدّم . فيقال : «رُسِم بالأمر العالى ، المولوىّ ، السلطانىّ ، المَلَكِىّ ، الفُلانى الفلانىّ» . وكذلك إذا أُتِى بذكر «رسم» بعد الأفتتاح بـ«الحمد لله وأما بعد» فإنَّه يقال فيه : «العالى» دون «الشريف» .

قلتُ : هذا ما كان الأمرُ عليه فى الزَّمن المتقدِّم كما أشار إليه المقرُّ الشِّهابىُّ ٱبن فَضْل الله فى "التعريف" . ثم ٱستقرّ الحال علىٰ وَصْف الأمر بـ«الشريف» فيقال : «رسم بالأمر الشريف العالى» إلىٰ آخره ، كما يكتب عن السلطان .

ومنها — أنَّه يقال فى آخر التوقيع : «والأعتمادُ على الخط الكريم أعْلاه» ولا يقال : «على الخط الشريف» ، كما فى السلطان .

ومنها — أنَّه لا يذكر فى تواقيع النُّوَّاب مستندُ كتابتها ، كما يُكْتب فيما يُكْتب عن السلطان .

المقصد الرابع
(فى بيان الألقاب)

قد تقدّم فى المقالة الثالثة ، فى الكلام على الولايات الصادرَة عن الأبواب السلطانية أنَّ أعلىٰ ما يكتب لأرباب السيوف « المقرّ الكريم » ثم « الجناب الكريم » ثم « الجناب العالى » ثم « المجلس العالى » ثم « المجلس الساميّ » بالياء ، ثم «المجلس السامى» بغير ياء ، ثم «مجلس الأمير» ثم «الأمير» .

وأن أعلىٰ ما يكتب لارباب الوظائف الديوانية : « الجناب العالى » ثم « المجلس العالى » ثم « المجلس السامىّ » بالياء ، ثم « المجلس السامى » بغير ياء، ثم «مجلس القاضى» ثم «القاضى» .

وأن أعلىٰ ما يكتب لأرباب الوظائف الدينية : «المجلس العالى» . ثم آستقر أعلىٰ ما يكتب لهم : «الجناب العالى» و «المجلس العالى» بعده، ثم «السامىّ» بالياء، ثم «السامى» بغير ياء ، ثم «مجلس القاضى» ثم « القاضى» علىٰ ما تقدّم فى أرباب الوظائف الديوانية ، إلّا فيما يقع الآختلاف فيه من الألقاب والنّعوت الخاصّة بكلٍّ منهما .

وأنّ أعلىٰ ما يُكتب لأرباب الوظائف الصّوفيّة : « المجلس العالى » ثم « المجلس السامىّ» بالياء ، ثم « المجلس السامى » بغير ياء ، ثم « مجلس الشيخ » ثم « الشيخ » .

وأنّه يُكتب لأرباب الوظائف العادية : «المجلس السامى ، الصدر الأجل » أو «مجلس الصدر» أو «الصدر» .

وأنّه يُكتب لزعماء أهل الذّمة ألقابُهم المتعارَفةُ . فيُكتب لرئيس اليهود : «الرئيس» ولبطاركة النّصارىٰ : «البَطْرك» ونحو ذلك .

فأمّا ما يُكتب عن نوّاب الشام، فعلى أصْناف، كما تقدّم فى الألقاب التى تكتب عن الأبواب السلطانية ، مع آختلافٍ فى بعض الألقاب بزيادة ونقص ، وعلو وهُبوط .

الصـــــنف الأوّل

(أرباب السـيوف، ولألقابهم مراتبُ)

المرتبة الأولى — المقرُّ الشريف . وبذلك يُكتب للطبقة الأولى من مقدّمى الألوف بالشّام، وحَلَب، وطرابُلُس، إذا وُلّى أحدٌ منهم نَظَر وقف، أو نحو ذلك . أمّا غير هذه الممالك الثلاث ، فقد تقدّم أنّه ليس فى شىء منها تقدمةُ ألف؛ ويقال فيه عندهم : « المقرُّ الشريفُ، العالى، المَوْلَوِىّ، الأميرىّ، الكَبِيرىّ، العالمىّ، العادلىّ، العَوْنىّ، الغياثىّ، الزَّعيمىّ، الظَّهيرىّ، المَخْدومىّ، الفُلانىّ، عزّ الإسلام والمسلمين ، سيّد الأُمراء فى العالَمين ، ناصِر الغُزَاة والمجاهـدين ، زَعِيم جُيوش الموحّدين ، عَوْن الأُمّة، كَهْف المِلّة ، ظَهِير الملوك والسـلاطين ، فلان الفلانى : أعزّ الله تعالى أنصاره » .

المرتبة الثانية — المقرُّ الكريم . وبذلك يكتب للطبقة الثانية من مقدّمى الألوف ، ويقال فيـه : « المقرُّ الكريم ، العـالى ، المَوْلَوىّ » . بنحو الألقـاب المتقدّمة .

المرتبة الثالثة — المقرّ العالى . وبه يكتب للطبقة الثالثة من مقدّمى الألوف، ويقال فيه : « المقرُّ العالى ، المولوىّ » بنحو الألقاب المتقدّمة أيضا [كما][1] يكتبُ لنقيب الأشراف بحَلَب ، وهى : « المقرُّ العـالى، الأميرىّ، الكَبِيرىّ، النَّقيبىّ، الحَسِيبىّ، النَّسِيبىّ ، العَرِيقىّ، الأصِيلىّ، الفَاضِلىّ ، العلّامىّ، العـارِفىّ، المُجِّىّ، القُـدْوىّ، النّاسِكىّ، الزّاهِدىّ، العابِدىّ، الفُلانىّ، جَلال الإسـلام والمسلمين ، جمال الفُضَلاء البارعين، فخر الأُمراء الحاكمين، زَيْن العِتْرة الطاهره، شَرَف الأُسرة

(١) بياض بالأصول .

الفاخره، حُجّة العصابة الهاشميه، قُدْوَة الطائفة العَلَويّه، نُخْبة الفِرْقَة الناجية الحَسَنيّه، شَرَف أُولى المراتب، نَقيب ذوى المناقب، مَلاذ الطُّلّاب الدّاعين، بركة الملوك والسلاطين، فلان : أسبغ الله عليه ظلاله » .

المرتبة الرابعة — الجَناب الكريم . وبه يُكْتب للأُمراء الطَّبلخاناه، ويُقال فيه : « الجناب الكريم، العالى، المَوْلَوِىّ، الأميرىّ، الكَبِيرىّ، العَضُدىّ، النَّصيرىّ، المجاهدىّ، المُؤَيَّدىّ، الذُّخْرِىّ، الظَّهيرىّ، الفُلانىّ، مَجْدُ الإسلام والمسلمين، شَرَف الأُمراء فى العالَمين، نُصْرة الغُزاة والمُجاهدين، ظَهير الملوك والسلاطين، فلان : أعَزَّ الله تعالى نُصْرته » .

المرتبة الخامسة — الجناب العالى . وبه يُكْتب لأُمراء العِشْرينَات، ويُقال فيه : « الجناب العالى، الأميرىّ، الكَبِيرى، الذُّخْرِىّ، النَّصيرىّ، المجاهدىّ، المؤَيَّدىّ، الأوْحدىّ، الأكْمَلىّ، الظَّهيرىّ، الفُلانى، مَجْد الإسلام والمسلمين، شَرَف الأمراء فى العالَمين، نُصْرة الغُزَاة والمجاهدين، ظَهِير الملوك والسلاطين، فلان أدام الله تعالى نِعْمته » .

المرتبة السادسة — المجلس العالى . وبه يُكْتب لأُمراء العَشَرات، ويُقال فيه : « المجلس العالى، الأميرىّ، الكَبِيرىّ، الأجَلّىّ، المُجاهدىّ، العَضُدىّ، النَّصيرىّ، الهُمامىّ، الأوْحدىّ، الذُّخْرىّ، الفُلانىّ، مَجْد الإسلام والمسلمين، شَرَف الأمراء فى العالَمين، نُصْرة الغُزَاة والمجاهدين، عَضُد الملوك والسلاطين، فلان : أدام الله تعالى رِفْعَته » .

المرتبة السابعة — المجلس السامىُّ بالياء . وبه يُكْتب لمقدَّمى الحَلْقة، وأعْيان جُنْد الحَلْقة، ويقال فيه : « المجلسُ السامىُّ، الأميرىّ، الأجَلّىّ، الكَبِيرىّ،

المُجاهِدىّ، الأعَزّىّ، الأخَصّىّ، الأكْمَلىّ، الأوْحدىّ، الفُلانىّ، مَجْد الأُمراء، زَيْن الأكابر، ذُخْر المجاهدين، فلان : أدام الله تَوْفيقه » .

المرتبة الثامنة — المجلس السامى بغير ياء . وبه يُكْتب للطَّبقة الثانية من جُنْد الحَلْقة ، ويقال فيه : « المجلسُ السامى، الأمير، الأجلّ، الكَبير، الغازى، المُجاهد، المرتَضىٰ، المُخْتار، فلان الدِّين، مَجْد الإسلام، بَهاءُ الأنام، زَيْن الأُمراء، فَخْر المجاهِدين، عُمْدة الملوك والسلاطين، فُلان : أعَزّه الله تعالىٰ » .

المرتبة التاسعة — مجلس الأمير. وبه يُكْتب للطَّبقة الثالثة من جُنْد الحَلْقة، ويقال فيه : « مجلس الأمير، الكبير » . بنَحْو ألْقاب السّامى بغير ياء .

المرتبة العاشرة — الأمير . وبه يُكْتب لجُنْد الأُمراء ونَحْوهم ، ويقال فيه : «الأمير الأجلّ» .

الصنف الثانى

(من أرباب الولايات بالممالك الشامية ــ أرباب الوظائف الديوانيــة ، وفيهم مَراتب)

المرتبة الأُولىٰ — المقرّ الشريف. وبه يُكْتب لكَاتِب السِّرّ بالشّام، وصاحِب ديوان الرسائل بحَلَب، ومَنْ فى معناهما .

وهذه ألقابٌ كُتب بها لكاتِب السِّرّ بدِمَشْق بوِلاية مَشْيَخة الشُّيوخ، وبُولِغ فيها جِدَّ المبالغــة، إلّا أنّها ليستْ حَسَنة التَّأْليف، ولَا رائِقــة التَّرتيب؛ وهى : « المقَرّ الشّريفُ ، العالى ، المَوْلَوِىّ، القاضَوِىّ، الكَبِيرىّ، العَالِمىّ، العَامِلىّ، العَـلّامىّ، الإمامِىّ، الفريدىّ، المُفيـدىّ، القُدْوىّ، الحُجّىّ، الأجَلّىّ، الحَـبْرِىّ، المُحَقِّقىّ،

المُدقِّقىّ، الزاهدىّ، العارفىّ، الخاشعىّ، الناسكىّ، المُسلِّكىّ، العابدىّ، المُرشِد الرَّبَّانىّ، الورَعىّ، المهدِّىّ، المشيِّدىّ، المُشيرِىّ، السَّفيرىّ، اليَمينِىّ، المَلاذِىّ، الشَّيخىّ، الفُلانىّ، جلالُ الإسلام والمسلمين، سيِّد الأكابر والرُّؤساء فى العالَمين، عَوْن الأُمَّه، صلاحُ المِلَّه، جمالُ المملكة، نِظام الدَّوْلة، عِزُّ المُلك، لِسانُ المَمالك، زَيْن الأوْلِيـاء، مُظْهِر أنْباء الشَّريعــة وناصِرُها، مُؤيِّد الحقِّ والمُعينُ علىٰ إظهاره، قامِعُ البِـدَع ومُخْفِى أهْلِها، رُحْلَة الحُفَّاظ، عَلَم المُفسِّرين، حُجَّة الطالبين، سَيْف المناظِرين، قُدْوة العُبَّـاد والزُّهَّاد، ملْجأ الصُّلَحاء والعارِفين، حَسَــنةُ الأيَّام، فَرْد الزَّمان، غُرَّة وَجْه الأوان، شيخُ المشايخ، مُفيد كلِّ غَادٍ ورائح، مُوَصِّل السَّالكين، مُرَبِّى الأتْقياء والمُرِيدين، كَنْز السَّالِكين والمُرْشِدين، مُمَهِّد الدُّوَل، مُشَيِّد المـمالك، مُجَمِّلُ الأمصار، مدبِّر أُمورِ سُلْطانه فى اللَّيل والنَّهار، مُجْهِدُ نَفْسِه فى رِضا مولاه، مُعين الخلائق علىٰ حُقُوقِهــم، مُذِلّ حِزْب الشَّـيْطان، مَلاذُ البُلَغاء والمُتكلِّمين، خُلاصَة سَلَف القَوْم المُبارَكين، بَرَكَةُ الملوك والسلاطين، وَلِىُّ أمير المؤمنين، فلان الفلانىّ : أَسْبغ اللهُ تعالىٰ ظلالَه» .

المرتبة الثانية — المقَرُّ الكريم. وبه يُكْتب للطبقة الثانية من أرْباب الوظائف الديوانية . ويقال فيه : «المقرُّ الكريمُ، العالى، المَوْلَوِىّ، القاضَوِىّ» . بنَحْو الألقاب السابقة مع «المقرّ الشريف» .

المرتبة الثالثة — الجناب الكريم. وبه يُكْتب للطبقة الثالثة من أرْباب الوظائف الديوانيّة . وهذه ألقابٌ كُتب بها لبعض الكُتَّاب بكتابة الإنشاء والجَيْش بحَلَب ، وهى : «الجناب الكريمُ، العالى، المَوْلَوِىّ، القضائىّ، الكبيرىّ، العالِمىّ، الفاضِلىّ، البارِعىّ، الكامِلىّ، الماجدىّ، الأوْحدىّ، الأثيرىّ، الأثيلىّ، الأصيلىّ، القَوامىّ،

النِّظامىّ، الفُلانىّ، ضياء الإسلام والمسلمين، أوْحد الفُضلاء فى العالَمين، خالِصَة الملوك والسلاطين، فلان . ضاعف الله تعالى نعمته» .

المرتبة الرابعة — الجناب العالى، وبه يُكتب لكُتّاب الدَّسْت ونحوهم . وهذه ألقابٌ كُتب بها لبعض كُتّاب الدست بالشّام، وهى : «الجناب العالى، القضائىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، الفاضلىّ، الأكْملىّ، البارعىّ، الأوْحدىّ، القوَامىّ، النِّظامىّ، المُفَوّهىّ، الرّئيسىّ، الماجدى، الفُلانىّ، مَجْد الإسلام والمسلمين، شرف الرُّؤساء فى العالَمين، أوحد الفضلاء الماجدين، قُدْوة البُلَغاء، جمال الكُتّاب، زَيْن المُنْشئين، خالِصَة الملوك والسلاطين، فلان . أدام الله تعالى نعْمته» .

المرتبة الخامسة — المجلس العالى . وهذه ألقاب كُتب بها لكاتب دَرْج بالشام جَليل القَدْر، وهى : «المجلْس العالى، القضائىّ، الأجَلّىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، الفاضلىّ، البارِعىّ، الكامِلىّ، الرّئيسىّ، الأوْحدىّ، الأثيرىّ، الأصيلىّ، العَريقىّ، الفلانىّ، مَجْد الإسلام، شَرَف الرُّؤساء فى الأنام، حُجّة البُلَغاء، قُدْوة الفضلاء، أوْحد الأُمَناء، زَيْن الكُتّاب، رَضِىّ الدّولة، صَفْوة الملوك والسلاطين، فلان . أدام الله علوّه» .

المرتبة السادسة — المجلس السامىّ بالياء . وهذه ألقابٌ كتب بها لبعض كُتّاب دِمَشْق بنَظَر الرِّباع وهى : «المجلس السامىّ، القضائىّ، الأجلّىّ، الكبيرىّ، الرّئيسىّ، الأوْحدىّ، الأكْملىّ، الماجِدىّ، الأثيرىّ، الأصِيلىّ، الفُلانىّ، مَجْد الإسلام، شَرَف الرُّؤساء، أوْحد الفُضلاء، صَفْوة الملوك والسلاطين، أدام الله تعالى علوّه» .

المرتبة السابعة — المجلسُ السامى بغير ياء، وهذه ألقابٌ كُتب بها لكُتّاب دَرْج بالشّام، وهى : «المجلسُ السامى، القاضى، الأجلّ، الكبيرُ، الفاضلُ، الأوْحدُ،

الأثيرُ، الرئيسُ، البليغ، الأصيل، فلان الدّين، مجدُ الإسلام، بهاء الأنام، شرفُ الرؤساء، أوحد الفُضلاء، زَيْن الأعيان، فخرُ الصدور، تجمّلُ الأكابر، سَليلُ العلماء، صَفْوة الملوك والسلاطين، فلان : أدام الله تعالى رفعته» .

المرتبة الثامنة — مجلس القاضى . وهى : «مجلسُ القاضِى، الاجلُّ، الكَبِيرُ» والباقى من نسبة ألقاب السامى بغير ياء .

المرتبة التاسعة — القاضى . ويقال فيها : «القاضى، الأجلّ» . ورُبّما زِيد على ذلك قليلا ، كما تقدّم فى السلطانيات .

الصـــنف الثـالث

(من أرباب الولايات بالممالك الشأمية ـ أرباب الوظائف الدّينية ، وفيـه مراتب)

المرتبة الأُولى — المقرّ الشريف . وبذلك يُكتب لقُضاة القضاة ومن فى معناهم .

وهذه ألقابٌ كُتب بها لقاضِى القضاة المـالكىّ بدِمَشْق بتصديرٍ، وهى : «المقرُّ الشريفُ ، العالى ، المَوْلَوىُّ ، القضائىّ ، الكبيرىّ، الإمامىّ، العالمِىّ، العلّامىّ، الفريدىّ، المُفِيدىّ، الخاشعىّ، النّاسكىّ، الرُّحْلِىّ، القُدْوِىّ، المَلَاذىُّ، العابدىّ، المحقِّقِىّ ، المـدقِّقىّ ، المحسنىّ، الحاكمىّ، الفلانىّ، جلالُ الإسـلام والمسلمين ، سيّدُ العلمـاء فى العالَمين ، قُدْوة البارِعين ، سيّدُ المناظرين ، لسانُ المتكلّمين ، مَلاذُ الطالبـين، كَنْز المتفقّهين، إمام الأئمّه، حجـة الأُمّه ، ناصِرُ الشريعـة، فَرْد الزمان، أوحد الوَقْت والأوان، رُحْلة القاصدين، حَكَمُ الملوك والسلاطين، فُلان : أسبغ الله ظلاله» .

المرتبة الثانية — المقرّ الكريم . وبه يُكْتب لمن دُونه من هذه الرتبة .

وهذه ألقاب كُتب بها لقاضي القُضاة بحَلَب بوظيفة دينيّة ، وهي : « المقرّ الكريم، العالي، المَوْلَوِيّ، القاضَوِيّ، الكَبِيرِيّ، العالِمِيّ، العادِلِيّ، الأصِيلِيّ، العَرِيقِيّ، القَوَامِيّ، النِّظَامِيّ، الإمامِيّ، العلّامِيّ، القُدْوِيّ، المُفِيدِيّ، الشَّيخيّ، الرُّكْنيّ، الصاحبيّ، الحاكِمِيّ، المحسنيّ، الفُلانيّ، فلانُ الإسلام والمسلمين، شَرَف الفُضَلاء في العالَمِين، قُدْوة العلماء العاملين، لسانُ المتكلمين، بُرْهان المناظرين، صَدْر المدرِّسين، رُحْلَة الطالبين، بَقِيَّة السلف الكرام الدارجين، بَرَكَةُ الملوك والسلاطين، خالِصةُ أمير المؤمنين ، فلان : أعزّ الله تعالى أحكامه » .

المرتبة الثالثة — الجناب الكريم . وهـذه ألقابٌ كُتب بها لبعض المشايخ بتَدْرِيس بالشّام، وهي: «الجنابُ الكريم، العالي، المَوْلَوِيّ، القضائيّ، الكَبِيرِيّ، العالِمِيّ، الفاضِليّ، المُفِيديّ، الفريديّ، المحقِّقِيّ، المدَقِّقِيّ، الأوْحديّ، الأكْمليّ، الفُلانيّ ، مجدُ الإسـلام والمسلمين ، شَرَفُ العلماء في العالمين ، جمال الفُضَلاء المدرِّسين، خالصةُ الملوك والسلاطين، فلان : أسبغ الله تعـالى ظِلَّه » .

المرتبة الرابعة — الجناب العالي . وهذه ألقابٌ من ذلك كُتب بها لقاض من قضاة العسكر بالشام ، وهي : « الجنابُ العـالي ، القضائيّ، الكبيريّ، العالميّ، الفاضليّ ، الرئيسيّ، الأكمليّ، الإماميّ ، العلّاميّ ، المفيديّ، المحقِّقيّ ، الفَريديّ ، البارعيّ، المدَقِّقِيّ، الأوحديّ، القُدْويّ، الحَبْريّ، الحافظيّ، الأصيليّ، الأثيريّ، النّاسكيّ، الوَرَعِيّ، العلّاميّ، مجدُ الإسلام والمسلمين، شَرفُ العلماء العاملين، زَيْن الحُكّام في العالمين، حُجّةُ المذهب، إمام البلغاء، مُفْتي المسلمين، مُفِيد الطالبين، قُطْب الزُّهّاد، مَلاذُ العُبّاد، خالصةُ الملوك والسلاطين، فلان : أدام الله تعالى نعمته» .

المرتبة الخامسة — المجلس العالى . وهى : « المجلسُ العالى ، القضائىُّ ، الأجلّ ، الكبيرىُّ ، العالمىّ ، الفاضلىّ ، الكاملىّ ، الرئيسىّ ، الأوحدىّ ، الأثيرىّ ، الأثيلىّ ، الأصيلىّ ، العَريقىّ ، الفُلانىّ ، مجدُ الإسلام ، شَرفُ الرُّؤساء فى الأنام ، حُجّة الفُضلاء ، صَدْر المدرِّسين ، مُرْتَضَى الملوك والسلاطين ، فلان : أدام الله تعالى عُلوّه » .

المرتبة السادسة — المجلس السامى بالياء . وهى : «المجلسُ السامىُّ ، القضائىُّ ، العالمىّ ، الفاضلىّ ، الكاملىّ ، الأوحدىّ ، الأصيلىّ ، العَريقىّ ، المحقِّقىّ ، الفُلانىّ ، مجدُ الإسلام والمسلمين ، أوحدُ الفضلاء فى العالَمين ، صَدْر المدرِّسين ، أوحد المفيدين ، مُرْتَضَى الملوك والسلاطين ، فلانٌ : أدام الله سعادته » .

المرتبة السابعة — المجلسُ السامى بغير ياء . وهى : «المجلس السامى ، القاضى ، الأجلُّ ، الكبيرُ ، الأحد ، المرتضىٰ ، الأكملُ ، فلانُ الدين ، مجدُ الإسلام ، بهاءُ الأنام ، زَيْن الفُضَلاء ، أوحدُ العلماء ، رَضِىُّ الملوك والسلاطين ، فلان : أدام الله عِزّه» .

المرتبة الثامنة — مجلس القاضى . وهى : « مجلسُ القاضى ، الأجلُّ » بنحو الألقاب المذكورة فى «السامى» بغير ياء .

المرتبة التاسعة — القاضى . وهى : «القاضى الأجلُّ» علىٰ ما تقدّم .

الصنف الرابع

(من أرباب الولايات بالممالك الشامية — مشايخ الصوفية)

ولم أقف علىٰ شىْء من ألقاب ما كُتِب من هذا الباب ، سوىٰ [ما كُتِب] فى مَشْيخة الشيوخ بالشام لكاتب السرّ ، وقد تقدّم ذكره فى أول الألقاب الديوانية

هناك. وألقاب الجناب العالى فيما كُتِب به فى مشيخة الزاوية الأمينيّة بدمشق، وهى: « الجنابُ العالى، الشيخىُّ، العالمىّ، العاملىُّ العلّامىّ، الأوحدىّ، القُدوىّ، العابدىّ، الزاهدىّ، الوَرِعىّ، الناسكىّ، الخاشعىّ، المُسلِّكىّ، المُرقِّىّ، الربانىّ، الأصيلىّ، الفلانىّ، مجدُ الإسلام، حَسَنةُ الأيام، قُدوة الزُّهّاد، ملاذ العُبّاد، جمالُ الوَرِعين، مُرَبِّى المريدين، أوحد السالكين، خلفُ الأولياء، بركة السلاطين، فلانٌ : أعاد الله تعالىٰ من بركته » .

ومن هذا يُؤخذ ما حدث كتابته ممـا هو فوق ذلك أو دُونه .

الصنف الخامس

(من أرباب الولايات بالممالك الشامية ـ أُمراء العُرْبان)

ولم أقِف علىٰ شيء ممـا كُتِب به من ألقابهـم، سوىٰ ألقاب «السّامِى» بغير ياء لبعض أُمَراء بنى مَهْـدِىّ، وهى : « المجلسُ السامى، الأميرُ، الأجلُّ، الكبيرُ، المجاهدُ، الأصيلُ، العَرِيقُ، الأوحد، فلانُ الدين، مَجْدُ الإسلام، بهـاءُ الأنَام، شرفُ العُرْبان، زَيْنُ القبائل، عُمْـدة الملوك والسلاطين، فلانٌ : أعَزّه الله تعالىٰ » . وعليه يُقاس ما عساه يُكْتب من هذا النَّمَط .

الصنف السادس

(من أرباب الولايات بالممالك الشامية ـ أربابُ الوظائف العادية، كرآسة الطّبّ ونحوها)

وألقـاب رئيس الطّبّ : « المجلسُ العـالى، القضائىُّ » علىٰ نَحْو ما تقـدّم فى الدِّيوانيات .

الصنف السابع

(من أرباب الولايات بالنيابات الشامية ــ زعماءُ أهلِ الذِّمّة)

وهى رآسة اليهود، وبَطْرَكيّة النّصارىٰ .

أما رئيسُ اليَهُود، فالذى رأيتــه لهم من ألقــابِه فى عَهْدٍ قديم، كَتَبه ٱبن الزكى فى الدولة الأيُّوبية . قال فى ألقابه : «الرئيسُ، الأوحدُ، الأجلُّ، الأعزُّ، الأخَصُّ، الكَبير، شَرَفُ الداووديين، فُلانٌ» .

وأما بطْرَكُ النَّصارىٰ، فرأيتُ لهم فيه طريقتين :

الطريقة الأُولىٰ : «البَطْرَكُ المحتَشِمُ، المبَجَّلُ، فلانٌ، العالِمُ بأُمور دِينِه، المُعَلِّمُ أهْلَ مِلَّته، ذُخْرُ المِلَّة المسيحيَّه، كبيرُ الطائفة العِيسَوِيَّه، المشكورُ بعَقْله عند الملوك والسلاطين، وفقه الله تعالىٰ» .

الطريقة الثــانية : «مجلسُ القِسِّيس، الجليل، الرُّوحانِىّ، الخطير، المتبتل، ابن المَطْران، النّاصِب، الخاشع، المبجَّل، قُدْوةُ دِين النَّصرانيَّه، فَخْرُ الملة العِيسَوِيَّه، عمــاد بنى المَعْمُودِيّه، جمالُ الطائفة الفُلانيه، صَفْوة الملوك والســلاطين، فلان : أدام اللهُ تعالىٰ بهجَته» .

المقصـــد الخـــامس

(فى بيان مقادير قَطْع الوَرَق المستعمل فيما يُكْتب عن نوّاب الممالك الشامية)

قد تقدّم فى المقالة الثالثة، فى الكلام علىٰ مقادير قَطْع الوَرَق، أنّ الورقَ المستعملَ فى دواوين الممــالك الشامية علىٰ ثلاثة مقادير : قطع الطلحية الشامية الكاملة، وهو

فى عَرْض الطَّلحية المعبر عنها بالفَرْخة وطُولها. وقطع نصف الحَمَوِىّ، وهو فى نصف عَرْض الطلحية التى فى قَطْع الحموىّ وطُولِها ، ورُبَّمـا نقصتْ فى الطول . وقَطْع العادة، وهو علىٰ نَحْوٍ من قَطْع العادة البلدى . وقد تقدّم ذكره .

فمـا كان منهـا فى طول الشامىّ الكامل كُتب بقـلم الثلث . وما كان فى قَطْع نِصْف الحموىّ كُتب بقَلَم التوقيعات . وما كان فى قَطْع العـادة كُتب بقَلم الرِّقاع . ثم ما كان فى قَطْع الطلحية، آفتتح ما يكتب فيـه بـ«الحمدُ لله» . وما كان فى قَطْع نِصْف الحَمَوِىّ، آفتتح ما يكتب فيه بـ«أمَّا بعد حمد الله» . وما كان فى قطع العادة، آفتتح ما يُكْتب فيـه بـ«رسُم بالأمرِ الشريف» سـواء فى ذلك علَتِ الألقـابُ أو آنحطَّتْ، حتّىٰ إنه رُبَّمَا كتب بـ«المقرّ» فى قَطْع العادة، آعتباراً بحال الوَظِيفة .

المقصـــد السادس

(فى بيانـ ما يكتب فى طُرَّة التواقيع)

اعلم أنَّ النوابَ بالممـالك الشامِيَّة عادتُهـم فى العلامة كتابة اسم النائب ، كما أنَّ السلطانـ فيما يُكْتب عنه من الولاية يكتب فى العلامة اسمه . وحينئذٍ فيحتاجُ الكاتبُ إلىٰ أنْ يكتُبَ فى أعْلى الدَّرْج فى الوسـط ما صورته : « الاسم الكريم » ثم يكتبَ من أوّل عَرْض الدَّرْج ما صورته : «توقيعٌ كريم باستقْرارِ المقرِّ الشريف أو الكريم ، أو الجناب الكريم أو العـالى ، أو المجلس العالى أو السامى ، أو مجلس الأمير أو القاضى، أو الشيخ، ونحو ذلك، فى كذا وكذا إلىٰ آخره» . فإن كان فيـه معلومٌ كتب آخرا : « بالمعلوم الشاهـد به الديوان المعمور ، أو الشاهـد به كتابُ الوَقْف » ونحو ذلك ثم يكتب : «حَسَب ما رُسم به علىٰ ما شُرِح فيه » . ولفظ :

«حَسَب ما رُسم به» ممـا جرَتْ به عادة كُتَّابهم، بخلاف ما يكتب به من الأبواب السلطانية علىٰ ما تقدّم ذِكْرُه .

وهذه طُرّة تَوْقيع بنقابة الأشراف بحَلَب المحروسة، كُتب به للشريف «غياث الدين احمد» بن محمد بن إبراهيم المعروف بابن المملوح، وهى :

تَوْقيعٌ كريمٌ بٱستقرار المقرّ العـالى، الأميرىّ، الكَبيرىّ، الشّريفىّ، النّقيبىّ، الحسيبىّ، الأصيلىّ، العِزّىّ، بَرَكة الملوك والسـلاطين، أحمد ٱبن المقرّ العـالى، الشّريفىّ، النّقيبىّ، الشّهابىّ، أحمد الحسينى، أسبغ الله ظلالهما، فى وظيفـة نقابة السّادة الأشراف، ونظر أوْقافها، والحكم فى طوائفهم على ٱختلافهم أجمعين، عِوَضًا عن والده المشار إليه بِرِضاه، علىٰ عادته فى ذٰلك ومُسْتقِرّ قاعِدَته، وتعاليمه المستمرة إلىٰ آخر وَقْت، حسَب ما رُسم به بمقتضَى الخَطّ الكريم، علىٰ ما شُرح فيه .

✦✦✦

وهذه نسخة طرة توقيع بكشف الصفقة القبلية بالشام، ممـا كُتِب به لـ«غرس الدين خليل الناصرىّ» وهى :

تَوْقيعٌ كريمٌ بأن يستقرّ الجنابُ الكريمُ، العالى، المَوْلوىّ، الأميرىّ، الكَبيرىّ، الغَرْسىّ، ظهير الملوك والسـلاطين، خليـل الناصرى، ادام الله تعـالىٰ نعمته، فى كَشْف البـلاد القبلية المحروسـة بالشام المحروس، علىٰ عادة من تقدّمه فى ذلك ومُسْتَقِرّ قاعدته، حسب ما رُسم به، علىٰ ما شرح فيه .

✦✦✦

وهذه نسخة طُرّة توقيع بالمِهْمِنْدارِيّة بالشام المحروس، كُتِب به لـ«غرس الدين خليل الطناحى» وهى :

توقيعٌ كريمٌ باستقرار الجناب العالى، الأميرى، الكبيرى، الفرسى، عضد الملوك والسلاطين ، خليل الطناحى ، أدام الله تعالى نعمته ، فى وظيفة المهمندارية الثانية بالشام المحروس ، عوضًا عن حُسام الدِّين حسن بن صاروجا ، بحكم شغورها عنه ، لما اتفق من الغضب الشريف عليه ، واعتقاله بالقلعة المنصورة بحلب المحروسة ، على أجمل عادة ، وأكمل قاعدة ، حسب ما رُسم به ، على ما شُرح فيه .



وهذه نسخةُ طرّة توقيع بتصدير الجامع الأُموى بالشام ، كُتِب به للقاضى «ناصر الدين» بن أبى الطَّيِّب كاتبِ السِّر بالشام ، وهى :

توقيعٌ كريمٌ بأن يستقرّ المقرُّ الشريف ، الناصرىُّ ، محمدُ بن أبى الطيب العمرى ، العثمانى ، الشافعى ، صاحبُ ديوان الإنشاء الشريف بالمملكة الشريفة الشامية المحروسة ، عظّم اللهُ تعالى شأنَه ، فى وظيفة التَّصدير بالجامع الأُموى المعمور بذكر الله تعالى ، عِوَضًا عن القاضى صَدْر الدِّين عبد الرحمن الكَفَرى الشافعى ، بحكم وفاته إلى رحمة الله تعالى ، بمالَه من المعلوم الذى يشهدُ به دِيوان الوقف المبرور ، حسب ما رُسم به ، على ما شرح فيه .

✦ ✦ ✦

وهذه نسخةُ طُرّة توقيع بإعادة مَشْيخة الشُّيوخ بالشام إلى القاضى «ناصر الدين ابن أبى الطَّيِّب» المذكور أعلاه ، وهى :

توقيعٌ كريمٌ بأن تُفوّض إلى المقرّ الشريف العالى ، المَوْلَوِى ، القاضوِى ، النّاصرى ، محمد بن أبى الطيب العمرى ، العثمانى الشافعى ، صاحب ديوان الإنشاء الشريف بالمملكة الشريفة الشامية المحروسة ، أعاد اللهُ تعالى من بركاته ، وأسبغ

ظلاله ؛ مشيخةُ الشُّيوخ بالشام المحروس، وَظِيفَتُه التى خرجتْ عنه ، المرْسُومُ الآن إعادتها إليه، عوضًا عمن هى بيده، بمعلومه فى النظر والمشيخة، الشاهدِ بهما ديوانُ الوَقْف المبرور، إلىٰ آخر وقت، علىٰ أجمل العوائد، وأكْمل القواعد ، حسب ما رسم به، علىٰ ما شرح فيه .

✦

وهذه طُرَّةُ توقيع بالحَمْل على النزُول والتقرير الشَّرعىّ، بالزاوية الأمِينيَّة، بالقُدس، كُتب به للشيخ «برهان الدين المَوْصِلىّ» وهى .

توقيعٌ كريمٌ بأن يُحْمَل الجناب العالى ، الشيخىّ، البرهانىّ ، إبراهيم ابن سيدنا المرحوم الشيخ القطب، تقىّ الدِّين أبى بكر المَوْصِلىّ، رضى الله عنه وأعاد من بركاتهما، فى وظيفتى النظر والمشيخة، بالزاوية الأمِينية بالقُدس الشريف، علىٰ حُكم النزول الشَّرعىّ، واستمرار ذلك بمقتضاهما، ومَنْع المنازع بغير حُكْم الشَّرع الشَّريف، حسب ما رُسم به ، علىٰ ما شُرح فيه .

✦

وهذه طُرَّة مَرْسوم برُبْع تَقْدمة إمْرة بنى مَهْدىّ ، كُتب به لـ«عيسى بن حناس» وهى :

مَرْسومٌ كريمٌ بأن يستقرّ المجلسُ السامى ، الأمير ، شرفُ الدِّين ، عيسى بن حناس(؟)، أعزّه الله تعالىٰ، فى ربْع تَقْدمة بنى مَهْدىّ، علىٰ عادة من تقدّمه ، حملا علىٰ ما بيده من التَّوقيع الكريم، علىٰ ما شُرِح فيه .

✦

وهذه طُرَّةُ توقيع ببَطْرَكية النصارىٰ المَلَكيَّة بالشام ، كُتِب به لـ«داوُد الخورى» وهى :

تَوْقِيعٌ كريمٌ بأن يستقرّ البطريرك ، المحتشم ، المبجّل ، داود الخورى ، المشكور بعقله لدى الملوك والسلاطين ، وفّقه اللهُ تعالىٰ ، بطريركَ الملكيّة بالمملكة الشريفة الشامية المحروسة ، حسب ما آختاره أهلُ ملّتِه المقيمون بالشام المحروس ، ورغبوا فيه ، وكتبوا خُطُوطَهم به ، وسألُونا تقريره دون غيره ، حسب ما رُسِم به ، علىٰ ما شُرِح فيه .

المقصد السابع

(فى بيان كيفية ترتيب هذه التواقيع)

قَدْ جرتْ عادةُ كُتَّاب هذه النيابات أنْ تُكتب الطُّرَّةُ بأعلى الدَّرْج كما تقدّم . ثم يترك وَصْلان بياضًا بما فى ذلك من وَصْل الطُّرة ، ثم تُكتب البسملة فى أوّل الوَصْل الثالث ، ثم يُكتب تحت البَسْملة علىٰ سمت الجلالة : «المَلَكِىُّ الفلانِىُّ» ثم يخلّىٰ بيت العلامة نحو ستة أصابع معترضة ، ثم يُكتب السطر الثانى ويوافى كتابة السّطر ، ويكون ما بينهما بقَدْر أصبعين ، والباقى علىٰ نحو ما تقدّم فى السلطانيات .

الطرف الثانى

(فى نُسَخ التواقيع المكتتبة عن نُوّاب السلطنة بالممالك الشامية)

قد تقدّم فى المقالة الثانية أنّ بالبلاد الشامية سَبْعَ نيابات : دِمَشْق ، وحَلَب ، وطَرَابُلُس ، وحَمَاة ، وصَفَد ، وغَزّة إن كانتْ نيابة ، والكَرَك . وأنّ اعلاها دمَشْق ، ثم حَلَب ، ثم طَرَابُلُس . وفى معنىٰ طَرَابُلُس حَماةُ وصَفَدُ .

وقد آقتصرت فى نسخ التواقيع علىٰ ما يكتب فى ثلاث نيابات [تقديما لها] [1] على ما عداها .

(١) بياض بالأصل .

النيابة الأولى الشام
(والتواقيع التى تكتب بها على خمسة أصناف)

الصنف الأوّل
(ما يُكتب بوظائف أرباب السيوف، وهو على ضربين)

الضرب الأوّل
(ماهو بحاضرة دِمَشْق، وهو على مراتب)

المرتبة الأولى
(ما يفتتح بـ«الحمد لله» وفيها وظائف)

وهذه نسخ تواقيع من ذلك :

نسخة تَوْقيع بولاية دِمَشْق :

الحمدُ لله الذى جعل هذه الأيّامَ الزاهرةَ تنقُلُ أوْلياءَ آلائه الشريفة إلى أعْلى المراتب، وتُجْزِل لهم من مِنَنِه الجمّة المواهب ، وتُضاعف لهم النّعمةَ بكرمها الذى إذا انْهمَلَ كان كالغَيْث السّاكب .

نحمدُه على أنْ جعل نَظَرنا يلْمَحُ أهلَ الهِمَم ويُراقب ، ونشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً يَبْلُغ قائلُها ببركتها المُنىٰ والمآرب، وتَهُونُ عليه كلُّ المَصاعب ؛ ونشهدُ أنّ سيدَنا محمّدًا عبدُه ورسولُه الذى أظهر اللهُ بِبِعْثَته الحقَّ فى المشارق والمغارب، وأنار به ظُلَم الغَياهب؛ صلّى اللهُ عليه وعلى آله وأصْحابه الذين شيّدوا مَنَار الإسلام وأقاموه بالسيوف القَواضب، وسلّم تسليمًا كثيرا

وبعـدُ ، فإنّ المناصب بمُتولّيها ، والمَعالِيَ بمُعلّيها ، والعُقودَ ليْسَتْ بمن تُحلّيه بل بمن يُحلّيها ، وأطْيَب البِقاع جنابًا ماطاب أرجًا وثمارا ، وبحر خلالَه كلُّ نَهرٍ «يروع حَصاه حَالِيَـةَ العَذارَىٰ» ورنّحتْ مَعاطفَ غُصُونه سُلافُ النّسيم فتراها سُكَارىٰ ، وتمتدّ ظلال الغُصون فيخال أنّها علىٰ وجَنَات الأنْهار عذَارا .

ولمّـا كانت دمَشْقُ المحروسة لهـا هـذه الصفات ، وعلىٰ ضَفّاتها تَهُبُّ نَسَماتُ [هذه] السِّمات ، لم يتّصِفْ غيرُها بهذه الصفه ، [ولا اتفق أولو الألباب إلا علىٰ محاسـنها المختلفه] (١) وكان الجنـابُ الكريمُ هو من أعيان الدّولة وأماثِلِهم ، ووُجُوه رُؤَسائهم وأفاضلهم ، وله فى طاعتها آسـترسالُ الأمْنِ من سُوء مَواطِن المخَـاوف ، ووَصل فى وَلائها القـديمَ بالحديث والتّالدَ بالطّارف ، وتولّىٰ مُهمّاتِ الخِـدَم فأبانَ فى جميعها عن مَضاءِ عَزْمه ، وكان من حُسْنِ آثاره فيهـا ما شَهَرَ غُفْلَها بوَسْمِه ، فمن نَاوَاه من أقْرانه أرْبىٰ عليه وزاد ، ومن بَارَاه من أنْظاره أنْسىٰ ذِكْرَه أو كَاد .

فلذلك رُسم بالأمر الشّريف أنْ يستقرَّ فى ولاية مدينة دِمَشْق المحروسة .

فلْيباشِرْ هـذه الولاية : عامِلًا بتقْوَى الله تعالىٰ التى أمر بهـا فى مُحْكَم الكِتَاب ، حيثُ يقولُ : ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَاأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ . ولْيَشْمَلْ كافّةَ الرّعايا بالحِفْظ والرِّعايه ، ويُجْزِلْ حَظَّهم من الملاحظة والعنايَه ، وليُساوِ فى الحقّ بين ضعيفهم وقويِّهم ، وفقيرِهم وغَنِيِّهم ، وليُلْزِمْ أتباعَه بحِفْظِ الشوارع والحارات ، وحِراسَتِها فى جميع الأزْمِنَة والأوْقات ، مع مُواصَلة التّطْواف كلّ ليلة بنَفْسه فى أوفىٰ عِدّه ، وأظْهَرِ عُدّه ، مُنْتَهيا فى ذلك وفيما يُجارِيه إلىٰ مايَشْهد باجتهاده ، ويُعْرِبُ عن سَـدَاده ، ويُعْلِمَ منه صَوابُ قَصْدِه وآعْتِماده ، وبَذْلُ مُناصَحَته فى إصْدارِه وإيرادِه ، والله تعالىٰ يُعينُه علىٰ ماوَلّاه ، ويحفَظُ عليه مانَوَّله وأَوْلاه ، بمنّه وكرمه .

(١) الزيادة مما تقدّم فى الصنف الثالث فى تواقيع أرباب الوظائف فى حاضرة دمشق ليستقيم الكلام .

*
* *

وهذه نسخةُ تَوْقيع بنَظَر الجامع الأمَوِىّ، لصاحب سَيْف : كُتِب به فى الدَّولة الظَّاهِرِية « برقوق » لناصر الدين « محمد » ابن الأمير جمال الدين، عبد الله ابن الحاجب، عند مُصَاهَرته الأمير بطا الدوادار، وهى :

الحمدُ لله الذى قدّم أعْظَمَ الأُمراءِ لِيَعُمَّ مَواطِنَ الذِّكر بنَظَرِه السَّعيد، وأقام لتعْظِيم بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أنْ تُرفَعَ، [أميرا] فى الاكتساب للأُجور أسرعَ من البَرِيد، وأطْرب المَسامِعَ بِسيرَتِه فى أحْسن مَعْبَدٍ جُلِّيَتْ فيه عَرُوسٌ مَهْرُها كتابُ الله تعالىٰ والنُّورُ من زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ ولا غَرْبِيَّةٍ ومَرْئِىّ(١) عليه من مكانٍ بَعِيد .

نحمدُه علىٰ أنْ أحلَّ ناصرَ الدين بجَماله الأسْنىٰ أشْرفَ المراتب، وبَوَّأه المحلَّ الرَّفيعَ الذى بَلَّغ به الأُمّةَ المحمديةَ المآرب، وسارَ خبرُ سيرَتِه فى المشارق والمغارب، وبَلَّغ بمُشارَكَةِ نَظَرِه السعيدِ الشَّاهدَ والغائب ؛ حمدًا نرفَعُه على النَّسر الطائر، ونتمثَّلُ بقول القائل : كَمْ تَرَكَ الأوّلُ للآخِر؛ ونشهدُ أنْ لا إلٰه إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له الذى خلق العباد لعبادته، وفضَّل بعضَ المساجد علىٰ بعضٍ لِمَا سبق فى عِلْمه من إرادته؛ ونشهدُ أنَّ سيدَنا محمّدا خيرَ الخلائق عبدُه ورسولُه الذى سنَّ الجُمعة والجَماعه، وعَمَر المساجِدَ بالرُّكوع والسُّجود إلىٰ قيام السَّاعَه ؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصحْبه الذين اتّبَعُوه فى قيام الليل إلّا قليلا، ولا زَمُوا المساجِدَ بُكْرَةً وأصيلا، وحضُّوا على الجماعة إلىٰ يومٍ تَكُونُ الجِبالُ فيه كَثِيبًا مَهِيلا ؛ وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

وبعدُ ، فلمّا كان جامعُ دِمَشْقَ المحروسةِ رَابِعَ المساجد ، ومَوْطِنَ كلِّ راكِعٍ وساجد، وتَقْصِدُه الأُمَمُ من الأقطار، ولم يَخْلُ من العبادة فى اللَّيل والنهار، ورَواتِبُ حُكَّام الشريعة عليه، والعُلَماءُ الأعْلام تَبُثُّ فيه العلومَ وتَأْوِى إليه ؛ وغالبُ المساجد

(١) فى الاصل «ومرئية» ولم نفهم معناه .

إلىٰ سِمَاط وقفه مُضافه، وخطابتُه تُضاهي مرتبة الخلافه؛ وهو أجلُّ عجائب الدُّنيا التي وُضعت علىٰ غير مثال، وبه يفتخر أهلُ الهُدىٰ علىٰ أهلِ الضَّلال — تعيَّن أنْ يكونَ الناظرُ في أمْره مَن عَظُم قَدْرا، وطاب ذِكْرا؛ وفتح لوقفه بابَ الزِّيادة علىٰ مُضيِّ الساعات، وجمع أمْوالَه بعد الشَّتَات؛ ووصل الحُقُوقَ لأربابها الذين كأنَّهم جرادٌ منتشر، ولم يُضعْ من ماله مثقالَ حَبَّة ومن قال: إنّه صدقةٌ فيومُه يومُ عَسر؛ وعمّ جميعَ المساجد المضافة إليه بالفَرْش والتَّنوير، وبدأ الأئمّة والمُؤذّنين والخَدَمةَ بعد العمارة على الكبير والصَّغير.

وكان الجنابُ الكريم — ضاعف الله تعالىٰ نعْمَته — هو الذى يقوم فى هذا الأمر أحسن مَقَام، ويَصْلحُ له فى مَصْلَحته الكلام.

رُسم بالأمر العالى، المَوْلَوِيّ، السُّلْطانيّ، المَلَكيّ، الظّاهريّ، السَّيْفيّ — لازال هذا الدِّين القيِّم قائمًا بحُمْده، والمساجدُ المعمورةُ [معمورةً] بإكرام مسْجده — أنْ يستقرّ الجنابُ الناصريُّ المشار إليه فى النَّظر السعيد على الجامع الأُمَويّ المعمور بذكْر الله تعالىٰ، وأوْقافه المبرورة، علىٰ أجْمل العوائد، وأكْمل القواعد؛ بالمعلوم الشاهد به ديوانُ الوقْف المبرور، إلىٰ آخر وقت.

فلْيُباشرْ ذلك: لِمَا يُعرَفُ من فعاله الحَسَنَه، وخبْرته التى نطقتْ بها من المحابر الأفواهُ ومن الأقْلام الألْسنَه؛ ولِمَا حازه من فَضيلَتي السَّيْف والقَلَم، وأعمالٍ التى بَدَتْ للْمُهْتدى بها كنُورٍ لا نارٍ علىٰ عَلَم؛ ولْيُعمِّرْ مادثَر من الأوقاف ولْيُوصِّل الحُقُوقَ إلىٰ أرْبابها، ولْيَدْفعِ الأموالَ إلىٰ مَن هو أوْلىٰ بها؛ ويكُفّ كَفَّ الظُّلْم ولْيُبلّغ المستحقّ المآرب، ولْيَحْجِبِ الخَوَنةَ عن التَّوصُّل إلىٰ مثقال ذَرَّة بجِدّه فهو كَحدّه حَاجِب؛ ولْيبْدأ بالعمارة والفَرْش والتَّنوير فى جميع الأوقات، وأرباب الصَّلاة

والصّلات . والوَصايا كثيرةٌ وهو بها أدرَى، وتقوى الله عزّ وجلّ ملاكُها ولا زال يُفيـدُها كما يُعلّمُ الشّجاعةَ زيدًا وعَمْرا، والله تعالى يجعلُه أبدًا للدّين ناصرا، ويُصْلحُ عَمَلَه أوّلا وآخرا ؛ والاعتماد فى معناه، على الخطّ الكريم أعلاه .

المرتبـــة الثـانية

(ما يُفتتح بـ«أما بعـد حمدِ الله» وفيها وظائف)

وهذه نسخة توقيع ... ... الزكاة[(1)]، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُبَاتة ، وهى:

أمّا بعدَ حمدِ الله مُسْعِدِ من زَكّاه عَمَلُه، ووَفّاهُ وعْدَ الخيرِ أملُه ، ومُصْعِدِ من وَفّقتْ فى تدبيرِ الوظائف تَفاصيلُ أمْرِه ووُفّرتْ فى تَميرِ الأموال جُمَلُه ؛ والصّلاةِ والسلامِ على سيدنا محمدٍ عبدِه ورسولِه الذى أمَرَنا بالصّلاة والزّكاه، وشفَى جانبَ الدّينِ القيّمِ من الشّكاه، وعلى آله وصَحْبِه الذين سارَ على نَهْجِه القويمِ سائرُهم، وتزكّى ـ وإنّما يتزكّى لنفسه ـ مُنْجِدُهم وغائرُهم ـ فإنّ أحقّ الوظائف أنْ يُنـدَبَ لحمايتها الحُسام، ويَترتّبَ لكفايتها من تحلّت بالمحامد شِيَمُه الجِسام ـ وَظيفةُ الزّكاة التى وصلت سببَ مكانها بإمكانها، وبُنِيتْ شريعة الإسلام على أحَدِ أركانها، ومُدِحَت المملكةُ بمعالى البِرّ والإحسان المُنَظّمة من دِيوَانها .

ولـمّا كان فلانٌ ممّن زكَتْ صِـفاتُه ، وسَمتْ بالجميـل سِماتُه ، ووَضَحتْ كَفاءَتُه ودرايتُه، وصَلحتْ حِمايتُه الحُساميّة ووِقايتُه، وكان اليُمْنُ فى قَبْضة مَضائه، وتجْريدِه وانتضائه، وكان نُفُوذ أمْرِه واقفًا عند حدّه واقعًا على وَفْقِ ارْتضائه ـ تعيّن أنْ يوصلَ سَبَبُ الشّدّ بأسْبابِه، ويُرْجَعَ إليه فى الزكاة المستحَقّ نِصابُها حتّى يقال : رَجَع الحقّ بالحُسام إلى نِصابِه .

(1) بياض بالأصل ولعله : بتولية وظيفة الزكاة الخ .

فلذلك رُسِمَ أن يرتب ... ... عِلْمًا بأنّه الكافى الذى إذا شَدَّ سَدّ، وإذا قصر رأيه علىٰ الصُّنْع الجميـل مَدّ، والخبـيرُ الذى إذا جمـع مالًا وعَدَّده كان مَشْكُورا ، وإذا فرّقه فى مُسْتَحِقّيه كان خِلافَ الغيرِ بالخيرِ مَذْكُورا ؛ والنّاهضُ الذى ما تبرّم بمَضايِق المُهِمّات ولا شَكاها، والمَهِيبُ الذى قد أَمِنَ مَن سار بالبضاعة إليـه وقد أفلح من زَكّاها .

فليستقِرَّ فى هذه الجهة ٱستقرارًا يَزِيدُ مَكانه وإمْكانَه ، ويُثمِّـرُ عملَه وديوانَه ، وليوصِّلْ كُلَّ ذى حقٍّ إلىٰ حَقّه فإنّمـا بُسِطتْ أيْدى وُلاةِ الأُمورِ ليَبْسُطَ عدْلَهُ مُتولّيها وإحْسانَه . وتقوى الله تعالىٰ هى العُمْدة : فلْيُحقّقْ بآعتمادها فيـه ظُنونَ الرّاجين ، وليَسْتَعِنْ بها علىٰ رِضا المستنهِضين له وعلىٰ رِضا المحتاجين ، والله تعـالىٰ يلْهِمُه الخيرَ فى ذَوِى الصادِرِ والوَارِدِ حتّى يكونُوا إلىٰ خيرِ «لاجِين» خيرَ لاجِين .

٭٭٭

وهـذه نسخةُ توقيع بشـدّ الحوطات بدِمَشْق . كُتب به لشَرف الدين يحيى بن العفيف، [بإجرائه] علىٰ عادته، وحمله علىٰ مابيده من التّوقيع الشّريف، وهى :

أمّا بعـدَ حمدِ الله الذى سهّل الخيْراتِ بأسْبابها ، وأقرّ فى الوظائف السّنية كُفاةَ أرْبابِها، وكمّل أدواتِ من حنّكتْه التّجارِبُ فى المُباشرات حتّىٰ دخل المَناصِبَ العَلِيّةَ من أبوابها ؛ والصلاةِ والسـلامِ الأتمّين الأكْملين علىٰ سـيدنا محمدٍ الذى جاءَ برشْد الشريعـة وصَوابِها ، وعرّف بحسْنِ الصَّنيعة وثوابِهـا ؛ وعلىٰ آله وصحْبـه وعِتْرته الطاهرين ـــ فإنّ أوْلىٰ من لفَتْنا إليه جِيـدَ الإحْسانِ ، وألْقينا إليه طَرْفَ التّكْريم فبلّغ الأمانيَ والأمان، ولحظْناه بعيْنِ عِنايتنا فنال من فَضْلنا ما أخْجل الغيْثَ الهتّان، ومنَحْناه من بِرّنا ما شَرح له صَدْرا، وٱستصْحَبْنا له ما ألِفه من كَرَمنا وجعلْنا له بعدَ

عُسْرٍ يُسْرا ، وأيقظْنا حَظَّه وقد كاد أن يَخْفَىٰ ، وأطْلَعْنا كوكَبَ سَعْدِه بعد أن كاد يَخْفَىٰ — مِن ألِفتْ مُهِمّاتُنا منه الهِمَمَ العَلِيَّه ، وسلك بين أيدينا المَسالِكَ المَرْضيَّة ، وأُمِنَ علىٰ أموال الحَوْطات الدِّيوانية فنَمَتْ بحُسْنِ أمانَتِه ، وشكرتِ الدولةُ جميلَ تَدْبيره ودِرايَتِه .

وكان المجلس العالى فلانٌ — أدام الله عِزَّه — هو الذى أخْبَر عنه الوَصْفُ بما أثبته العِيان ، وأظهر الاختبارُ منه حُسْنَ السِّيرَة والسَّريرة والسَّجايا الحِسان .

فلذلك رُسِم بالأمر العالى — أعلاه الله تعالىٰ ، وضاعف إحْسانَه علىٰ أهلِ الهِمَم ووَالىٰ — أنْ يَستمرَّ المشارُ إليه فى شَدِّ الحَوْطات الديوانية بدِمَشْق المحروسة ، علىٰ عادته ، ومُسْتقرِّ قاعدته ، وحَمْله علىٰ مابيده من التَّوقيع الشريف المُسْتَمِرِّ حُكْمُه .

فليُباشِرْ هذه الوظيفةَ علىٰ أجْمل عوائده ، وليعُدْ إليها علىٰ أكْمل قواعده ؛ إلَّا أنَّ التَّذْكِرة بتَقْوى الله تعالىٰ لابُدَّ من اقتباس ضِياها ، والتَّنبيه علىٰ سُلوك سبيل هُداها ؛ فتُكْنُ قاعِدةَ أمله ، وخاتِمةَ عَمَله . والاعْتمادُ فى معناه ، علىٰ الخطِّ الكريم أعلاه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

المرتبـــة الثـالثة

(من تواقيع وظائف أرباب السُّيوف بدِمَشْق — ما يُفْتتح بـ«رُسِم بالأمر العالى» وفيه وظائف)

وهذه نُسَخُ تَواقيعَ من ذلك :

نسخةُ تَوْقيع بشَدِّ مراكز البريد ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتة ، كُتب بها لمن لقبه «بدر الدين» فى سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة ، وهى :

رُسم بالأمر العالي ـ لا زالت البُرُدُ سائرةً بأوامرِ عدْله المَديد ، وهَوامر جُوده المَجيد ، وسوائر الأخبار عن بأسه ونَدَاه المَروىُّ سَنَدُهما عن ثابتٍ ويَزيد ، ولا بَرِحت جَوامِعُ عطاياه وقضاياه : هذه فاتحةً لمصالح الآمال بابَ الزِّيادة وهذه فاتحةً لمصالح الإسلامِ بابَ البَريد ـ أنْ يستقرّ المجلسُ علىٰ عادته الأُولىٰ ، وقاعدتِه التى ما بَرِحتْ قَدَمُ مساعيــه فيها المقدَّمةَ ويدُ أمانتِه الطُّولىٰ ؛ علمـًا بكَفَاءته التى شَهِدتْ بها حتّى الخيل المـاثلاتُ خُرْسا فأفصَحتْ ، المواصلاتُ سَعْيًا فأنجَحتْ ، المُورِياتُ قَدْحًا إلا أنّ ألْسنةَ الأحوالِ فى شهادتها ماقدَحَتْ ، المُغيراتُ علىٰ السُّرىٰ صُبْحًا مادار عليها شَفَقُ العَشِىِّ فاغْتبقتْ ، حتّى دار عليها شَفقُ الفَجْر فاصْطبحَتْ . ومَراكزُ الطُّرُق التى حَمْها مَهابَتُه فكأنّها مراكزُ الأَسَل ، ومَراكِضُ السُّبَل ، كلُّ وادٍ منها وما حمل وكلِ حَدَبٍ وما نَسَل ؛ وآعتمادًا علىٰ سَدادِ عَزْمِه الذى وافق خُبْرُه الخَبَر ، ورَشادِ سَعْيه الذى كلُّ أوقاتِه من وُجوهِ الإجادة ووُجُوهُ الجيـادِ غُرَر ؛ ورُكُونًا إلىٰ أنّه الكافى فيما يعتَمِدُه ويراه ، السّارى فى المُهِمّات لايَمَلُّ وهَيهاتَ أنْ يَمَلَّ البَدْرُ من سُراه ؛ كَمْ أعان الإسلامَ علىٰ ما آتّخذه من قُوّةٍ ومن رِباطِ الخَيْل ، وكَمْ جاد علىٰ الجِياد علىٰ الغَيْث[1] حتّى سارَتْ بين يديه كالسَّيْل ، وكم حَفِظ عليها قُوتَها وقُوّتَها فبعدَ ما كانت تَموتُ بالعَدَد صارت تَعيشُ بالكَيْل .

فليُباشِرْ ما عُوِّل فيه عليه ، وأُعِيد من حَقِّه وإن كان خرج عنه إليه ، وليُطلِقْ يدَ أَمْرِه ونَهْيِــه بمـا يَسُرّه أنْ يُقَــدِّمَه بين يديه ؛ حَرِيصًا علىٰ أنْ تَنْطِقَ هذه الدّوابُّ الخُرْسُ غَدًا بثَنائه ، مُجْرِيا لقوائمها وللإقامة بهـا علىٰ عادة إجْرائه ، متَخَيرًا لهـا كلَّ حَسنِ الإمْرة والسِّياسة عند رَحيلها وقُدومها ، ومَن إذَا عُرِضَتْ عليه بالعَشِيِّ الصّافناتُ الجِيادُ طَفِقَ مَسْحًا ولٰكنْ بإماطةِ الأذىٰ عن جُسُومها ؛ مُوسِّعًا عليها من

(١) لعله زائد من قلم الناسخ .

المبانى والأحوال كلَّ مَضيق، آمِرًا بما يحتاج إليه نوعُها البديعُ من صناعَتَىْ ترشيح وتطبيق؛ مُستأمِنًا من الأيدى من يَرُدُّ عنها الأيادىَ الضّائعة ومن يُساوى بينها فى الأقوات حتّى لا تكونَ كما قال الأوّل: «خَيلٌ صِيامٌ وخَيلٌ غيرُ صائمه»؛ مُتَحرِّيًا فى تكفيتها أجملَ الطُّرق والطّرائق، مُستَجلِبًا صُنوفَ العَليق فلا تنقطع من برِّه العلائق؛ والله تعالى يمدّه بعونه ورَشَده، ويجعلُ عزمَه سابقًا إلى التوفيق «سَبْقَ الجوادِ إذا استولى على أمَدِه»، بمنّه وكرمه!.

* * *

وهذه نسخةُ توقيع بنقابة النُّقباء، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتة أيضا، كُتب بها لشهاب الدين «بولاق» عوضا عن أبيه، فى سنة أربع وثمانمائة، وهى:

رُسم بالأمر العالى ـ لازال بإنعامه يُسفِرُ عن وجهِ الأملِ نِقابَه، ويَحفَظُ لكافِى الخدمة أعقابَه، ويَلوِى باستمرار النِّعَم أدوارَ الزّمان وأحقابَه، ويُطلِعُ فى آفاق دولته شهابَ كلِّ عزمٍ تَحمَدُ عساكرُه المنصورةُ ارتقاءه وارتقابَه ـ أن يرتَّب المجلسُ السامى، الأمير: ... ... علمًا بأوصافه الحَسَنه، وأوضاعه التى لا يحتاجُ الحكمُ بفضلها إلى إقامة بيِّنه، وكفاءته التى تنطق بها ألسنةُ الأحوال المُؤمِنة وقلوبُ العساكر المُؤمِنه، وهمّته التى إذا وقفت المواقفُ على الأعداء عرّفته أصحابَ المَيمنة ما أصحاب المَيمنه، وتصديقًا لدلالة عزمه الواعِد، وتحقيقًا لحماية شهابه الواقِد؛ وركونًا إلى قيامه مَقام أبيه رحمه الله فى الخدمة حتّى كأن لم يفقِدْه من الجيش فاقد؛ وأنّه لدرجات الاستحقاق راقٍ، وأنّه العوضُ عن أبٍ لاقَى منيّته وكلُّ امرئٍ لاقِى المَنيّة وابنُ لاقٍ؛ وأنّه كُفءُ هذه المنزلة كما حكم الرأىُ واقتضى، وكما شَهِد(؟) لعترته بغُرَرِ الفوائد وكيف لا وهو ابنُ النّقيب المُرتضى!.

فليتلق بشهابه المضيء هذا المطلع الأسنى، وليقم في هذه الوظيفة على قدم الخدمة صورة ومعنى؛ مقدّما على النقباء تقديم إمامهم، معلّما لجند الإسلام معلوم مقامهم؛ مالئا بإتقان معرفة الحلى سمع من استملاه، محظيا للجندي معينا له على حصول الخير حتى يشكره شكر من أطعمه وحلّاه؛ ناظما للمواكب عقد مجتمعها الثمين، مصاحبا لها صحبة يثنى بها عليه وحسبه أن يكون من أصحاب اليمين، مرتبا لها أحسن ترتيب، منقّبا عن محاسن تجمّلها : فإن اسم النقيب مشتق من التنقيب. وليكاثر حملة السيوف فإنه حامل سيف وعصا، وإنه بهذه مخلّص حقوق من أطاع وبهذا موبق نفس من عصى؛ وليحرص على أن يقوم بوعد الاجتهاد المنجز، وعلى أن يكون سيف تحريض على جرحى الأعداء مجهز، وعلى أن يحصل في مواطن الجهاد على الأجرين: أجر المقاتل وأجر المجهز؛ والله تعالى يجدّد في الخير طرائقه، ويؤيد عزمه الجيشي حتى تلهج بشكره ألسنة الأعلام الخافقة، والاعتماد ... ...

* * *

وهذه نسخة توقيع بشدّ خزائن السلاح، من إنشاء ابن نباتة أيضا، وهي :

رسم بالأمر الشريف - لا زالت الأفلاك بنجوم السعد من سلاحه، وصواعقها من أعوان صفاحه، و[illegible] الرامح من أنصار رماحه، ولا برح يعمل مغادن الأرض [illegible] ذهبها وحديدها على يدي بأسه وسماحه - أن يرتب ... ... لأنه الناهض الذي تزين الوظائف بسمته و[illegible]، وتعين المصالح والمناجح بعزمه وحزمه؛ والمسدد من آرائه سهاما، والمجرّد من اهتمامه كلّ ماضي الحدّ إذا كان بعض الاهتمام كهاما؛ والوفيّ في شدّ الجهات قولا وعملا؛ والملي بحمل السلاح واستعماله على رغم القائل [illegible] أصبحت لا أحمل السلاح ولا [illegible]؛ والخبير بمحاسن الاقتراح، والكافي ولا

عَجَبَ إذا سَلَّمت له ذَوُو الوظائف وألقت عليه السلاح! ؛ ذُو العَزْم الأشدّ، والرَّأْى الأسَدّ ، والذَّكِىُّ الذى إذا تَناوَلَ بعضَ الأسْلِحَة وآنتسبت شجاعَتُـه رَأيتَ القَوْس فى يَدِ عُطَارِدَ فى بَيْتِ الأسد .

فلْيُباشِرْ هذه الوظيفةَ المُبـارَكةَ بعزْمٍ أقطعَ من حُسام، وأمانةٍ أقومَ من ألِف وصِيانَةٍ أحْصَنَ من لَام؛ مُعتبِرًا لأحوالهـا، مُقرِّرًا لمطالب مآلها من مالهـا؛ مُوَفِّرًا من أسْلحتها التى تتوفَّر بها من الخَيْر سِهامُه، مُنْصِفًا لصُنّاعِها الذين يُحَمَدُ عند آستعمالهم صَنِيعُه وآهتِمامُه؛ مُكثِّرًا لخزائنها من ذخائر العُدَد ، مُجَهِّزًا لجيوش الإسلام من ماقَدّ عَمَلُها بأنفع مَدَد : من قِسِىّ تقضى أهلها بقَطْع أعمـار العدا ، وسُيوف صَقيلة إذا نادَتْ دِيارَ النّاكثين أجابت النـدا؛ ودُرُوعٍ تموّجت غُدرانُها إلا أنها فى مَهالك الحرب لا تَغُور ، ورِماحٍ آطّردَتْ كُعُوبُها فكلُّها علىٰ عدُوّ الإسْـلام كَعْبٌ مدَوّر ؛ إلىٰ غير ذلك ممـا يدُلُّ علىٰ عَزْمِه الحميـد، ويَقْضى للنِّعمة عليه بالمَزِيد؛ والله تعالىٰ يثقِّفُ عزْمه ، ويُوفِّرُ من السِّلاح والنّجاح سَهْمَه .

⁂

وهذه نسخةُ تَوقيعٍ بشَدِّ الجَوالى، من إنشاء ابن نُباتَةَ أيضا، وهى :

رسم بالأمر الشريف ــ لا زالَتْ سُعودُ أوامرِه واضحةَ الأدِلَّه، نافذَةَ الحُكْم علىٰ كلِّ مِلَّه، قائمةً لِخصْبِ البِلاد بالعَدْل مَقام السُّحُب المُسْتَهِلّه ــ أن يرتَّب فلانٌ فى شدّ الجوالى بدِمَشْق المحروسة : لمـا ظَهر من نَجابَتِه ، وآشْتهر من حَزْمِه ومَهَابتِه ؛ وبَدا من هِمَمه العَوالى، وعَزائِمه التى تجلُو صَـدأ الهَمِّ بالجوالى، وإذا قيل لحاسده : له ولأبيه إمْرَةُ الخَيْل قال : والجَوىٰ لى ، وأنّه الكافِى الذى إذا آستُنْهِضَ كانت عَزائمُه شابَّه، ونَفَحاتُ ذِكْرِه الجميلِ هَابَّه ؛ ونَجْلُ الهُمام الذى أشهد على كَفاءَته النَّهارَ وعلى

تَعَبُّـده الليل ، وأعدّ لمصالح الإسلام مَا ٱستطاعَ من قُوّةٍ ومن رِبَاطِ الخَيْل ، وأنّ ... مَرْباه جميلا ، ومنْشاه فى منازل الخير دَليل .

فلْيُباشرْ هذه الوظيفةَ المباركةَ بعَزْمٍ يُثَمِّـر مالهـا ، ويقرِّرُ على السَّداد أحْوالها ، ويَسْتَخلِصُ الحقَّ من أهلِ الاعتقاد الباطل ، ويَسْتَخْرِج الوَفْر من أهْل الجَلَد المـاطل ، فلا نَصْرانىّ إلّا وهو يتضرّع تحت الزُّرْقاء من بَأْسه ، ولا يَهُودىّ إلا وهو يشْكُو الصُّفْراء فى رَأسِـه ، ولا سَامِرىّ إلّا والنارُ الحَمْراءُ مُطِلَّةٌ علىٰ أنْفاسِـه ، حتّىٰ تكون أوْصافُ شدِّه مَتْلُوّة ، وعَزائمُه فى الجَوالى مَجْلُوّة ، وهِمَمُه جاريةً علىٰ إبلاقها ومأْلُوفها ، مُجزِّئَةً لأقْلام الحساب والدّراهم علىٰ حُرُوفها ، صَحيحةَ الوَزْن غير مَنْهوك ، آخِذَةَ الدِّينـار من وَازِنِه وهو كالمأْخُوذِ منـه مَصْكُوك ، شَـدًّا تَعقِدُ علىٰ ٱختياره الخناصر ، وكما أنّ للإسلام منه قُوّةً فليكُنْ للوظائف الدينية منه ناصر .

الضـــــرب الثـانى

(ممن يكتب له عن نائب السلطنة بالشام من أرباب السيوف ـ من هو بأعمال دمشق ، ومَواضعُهم علىٰ ثلاث مراتبَ أيضا)

المرتبـــــة الأولىٰ

(ما يُفتتح بـ«ـالحمدُ لله» وفيها وظائف)

وهذه نسخ تواقيع من ذلك :

نسخةُ تَوْقيعٍ بنيابة بعَلَبَكّ كُتب بها لركن الدين «عمر بن الطحان» وهى :

الحمدُ لله الذى جمّل بمحاسن زَيْنِه من ٱستحقّ الصُّعودَ إلىٰ أعلَى المنازل ، وجَعل نجمَ سَعْده بارتقائه إلىٰ سماء المناصب طالعًا غير آفل ، وصانَ بعقْلِه الراجحِ أحْصنَ المعاقل ،

نحمده على إحسانه الواصل ، وغيث جوده الذى هو على الدوام هاطل ؛ حمدًا ينطق بمدح معدلته كل لسان قائل ، ويزيد خيره على كل عام قابل ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الذى ألحق جياد الأواخر بالأوائل ، وجعل أجمل الأمراء يفوق البدور الكوامل ؛ ونشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله الذى جعله لديه أعظم الوسائل ، وتلازم هو وجبريل فى علو المنازل ، والتقدم فى المحافل ؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه سادات العشائر والقبائل ، والمجاهدين فى سبيل الله بالبيض البواتر والسمر الذوابل ؛ وسلم تسليمًا كثيرا .

وبعد ، فلما كانت بعلبك المحروسة من أعز بلاد الإسلام ، وأبهج مدن الشام - تعين أن نعين لها حاكمًا دينًا خبيرا ، أمينًا أميرا ، شجاعًا مهتابا(١) ، بطلا برمحه وسيفه فى صدور الأعداء ورقابهم طعانًا ضرابا ؛ وكان الجناب الكريم فلان : - ضاعف الله تعالى نعمته ، وحرس من الغير مهجته - من بيت كان على التقوى أساسه ، وعدت لدفع المعضلات أناسه ، واشتهرت همتهم فلا يرد لهم سهم ولا يطاق باسه ؛ طالما نفوا عن الدين الحنيفى خبث الكفر بعد ما تمكنت أدناسه ، وشمروا عن ساعد الاجتهاد فمحى بسيوفهم ضلال الشرك وأرجاسه ؛ وهو أعزه الله تعالى ممن شجى بشجاعته ، حلوق الكتائب ، ووفى بعدله وحسن سياسته ، حقوق المناصب ؛ وقام فى خدمة الدولة الشريفة أحسن قيام ، وهذبته بمرورها الليالى والأيام ؛ وتأهل لحلول الرتب العلية ، وتعين لارتقاء المراتب السنية ؛ فأردنا أن نختبره فيما نوليه ، ونخبر عزمه فيما نوليه .

فلذلك رسم بالأمر العالى - لا زال أمره مستمر الإحسان ، مجزلا لذوى الاستحقاق عوارف النعم الحسان - أن يستقر الجناب الكريم المشار إليه - ضاعف

---

(١) فى الأصل «مهابا» ولم يجئ من هذه المادة فعل رباعى بهذا المعنى بل الوارد هابه وأهتابه .

اللهُ تعالى نعمتَه ـ فى نيابة السَّلطنة الشريفة ببعلَبَكَّ المحروسة والبِقَاعين المعمورَيْن، على عادة من تقدّمه فى ذلك، ومُسْتَقِرّ قاعدته، بالمعلوم الذى يشهدُ به الديوان المعمورُ، إلى آخر وَقْت .

فليباشِرْ هذه النيابةَ الشريفةَ بخاطرٍ مُنْفَسِح حَاضر، وقلبٍ مُنْشَرِحٍ على الخَيْرات مُشَابِر؛ وليتَّخِذِ الشرعَ الشريفَ إماما، وليَتَوَخَّ أوامرَه ونَواهيَه نقضًا وإبراما؛ وليقفْ عند حُدوده المشروعة، ولا يتعدَّها ومن يتعدَّ حُدُودَ الله فيدُه من الإيمان مَنْزُوعة؛ وليُلِنْ جانبَه للرَّعِيَّة، وليَحْمِلْهم من العَدْل والإنصاف على المَحجَّة الواضحة الجَلِيَّة؛ فإنّهم الرعية الضعفاء الصالحون الذين أنعم اللهُ عليهم بتَفْويض أمورهم إليه[1]، وليعرِّفْهم قولَ النبى صلَّى الله عليه وسلم : «اللَّهُمَّ من وَلِيَ من [أمور][2] أمّتى شيئًا فرفَق بهم فارْفُق به ومن شَقَّ عليهم فاشْقُق عليه»؛ وليعمِّر البلاد، وليقمع أهلَ الفساد، وليمهِّدْ البِقاع، وليُحْيِ مَواتَ الضِّياع؛ وليُقِمْ على القَلْعة المنصورة الحَرَس، ولا يغفُلْ عن حِفْظها بمعرفته التى أكَّدتْ له من السَّعادة سَبَبا، واللهُ تعالى يبلِّغه من إحساننا أَرَبا، ويُنْجِح له من فَضْلنا طَلَبا، ويَحرُسُه بسورتَيْ فاطرٍ وسَبا؛ والاعتمادُ فى معناه، على الخط الكريم أعلاه .

✦

وهذه نسخةُ توقيع بكَشْف البلاد القبلية، كُتب به لغَرْس الدين خليل الناصرىّ فى الدولة الظاهرية «برقوق» وهى :

الحمدُ لله الذى جرَّد من أولياء هذه الدَّولة الشَّريفة سُيوفًا تَحْسِمُ موادَّ الفَساد، وتُبِيدُ أهلَ الزَّيْغ والعِناد، وتعُمُّ ببأسها وبعَدْلها البِلاد . حمدًا مستمرًّا على الآباد،

(١) فى الأصل : العلماء، والصحيح من الرسالة الآتية بعد .

(٢) الزيادة من الرسالة الآتية بعد .

مُزَوَّدًا غَرْسَها النافعَ ونِعْمِ الزّاد ؛ ونشهدُ أنْ لَا إلٰه إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له رَبُّ العِباد، القائمُ علىٰ كلِّ نَفْسٍ بمـا كَسبَتْ والمُجازِى لها بمـا عَمِلَتْ يوم يَقُوم الأشْهاد؛ ونَشْهدُ أنَّ سـيدَنا محمدًا خيرَ الخلائِق عبـدُه ورسولُه الذى بلَّغه فى الدنيا والآخرة أقْصَى المُراد، وفَضَّلَه على الخلائق : الآلافِ والمِئِينَ والعَشَراتِ والآحاد؛ صلَّى الله عليـه وعلىٰ آله وصَحْبِه الذين فتَحُوا البـلاد، بسيوفِهم الحِداد ، ومَزَّقَتْ رِماحُهم من مُخالِفِى دِينِهم القَويم القُلوبَ والأكْباد، وسلّمَ تسليمًا كثيرا إلىٰ يوم التَّناد .

وبعدُ ، فلمّـا كانت المملكةُ القِبْلِيّة جُلَّ البلادِ الشاميـه ، وبها أرزاقُ العَسا كرِ الإسلاميه؛ وطَرِيق الحاجِّ إلىٰ بيْت اللهِ الحَرام ، وزِيارةِ نَبِيِّه عليـه أفضلُ الصَّلاةِ والسلام ؛ وإلى الأرْض المُقَدَّسه ، التى هى على الخَيْراتِ مُؤَسَّسَه؛ وإلى الأبْوابِ الشريفةِ السلطانيه، ومَمَرُّ التُّجّار قاصِدِين الدِّيارَ المِصْرِيَّة؛ ومَنازِلَ العُرْبان، ومَواطِنَ العشران(١) ــ وجب أن يُفَوَّض حُكْمُهـا إلىٰ من عُرِف بالشَّهامَة والشجاعه، واليَقَظَة التى لا يغْفُلُ بها عن مصْلَحة المُسْلمين ساعَه ؛ من أثْمر غَرْسُـه وما يغوه ، وأيْنَـع بالمُروءة والفُتُوّه ؛ وتقدَّم فى الكمال علىٰ زَيْدٍ وعَمْرو ، وأضْرَمَ فى قُلوب الأعداء نارًا أحَرّ من الجَمْر .

وكان الجنابُ الكريمُ ــ أدام اللهُ نِعْمته ــ هو المشهورَ بهذه الصِّفات، والمَنْعوتَ بالشَّجاعَة والإقْدام وحُسْن الأدَوات .

فلذلك رُسِم بالأمْر العالى ــ لا زَال إحْسانُه يُثْمِرُ غَرْسا، وجُودُه يسُرُّ نَفْسا ــ أنْ يستقرَّ الجنابُ المشارُ إليـه فى كَشْف البِلاد القِبْلية المحروسةِ على مِنْوال من تقدَّمه وعَادَته، وحُدودِه فى ذلك ومُسْتقرِّ قاعدَته .

(١) لم يرد هذا الجمع فيا بأيدينا من كتب اللغة ولعله ارتكب القياس فى اللغة بجعله كرعيف ورغفان وقطيع وقطعان .

فليُباشر ذلك بهمّته العليّه، وشجاعته الأحزميّه، ونفسه الأبيّـه؛ وليُبيّض وجهه في هـذه النّوبة حتّى يطرب الناس بالنّوبة الخليليّه؛ وليعدل في الكبير والصـغير، وليقمع رءوس عشـير اتخذوا رأسهم مولى : فلبئس المولىٰ ولبئس العشير؛ وليدفع أذىٰ العرب، وليحذّرهم شرًّا اقترب؛ وليُكثر الركوب إلىٰ المعـاملات ، ولا يخش من كثرة الحركات، وليعلم أنّ كلّ ما هو آتٍ آت؛ وليتخذ الشّرع الشريف إماما، وليتوخّ أوامره ونواهيه نقضًا وإبراما؛ وليقف عند حدوده المشروعه، ولا يتعدّها: ومن يتعدّ حدود الله فيدُه من الإيمـان منزوعه؛ وليُلن جانبه للرّعيّه، وليحملهم من العـدل والإنصاف على المحجّة الواضحة الجليّة؛ فإنّهم الرعيةُ الضُّعفاء الذين أنعم الله عليهم بتفويض أمورهم إليه، وليعتمدْ قولَ النبيّ صلّى الله عليه وسلم : «اللّهمّ من ولِيَ من أمورِ أمّتي شيئًا فرَفق بهم فارْفُق به ومن شقّ عليهم فاشْقُق عليه»؛ والوصايا كثيرةٌ وتقوى الله عزّ وجلّ نظامُها وقوامها، واتّبـاعُ سُنّة نبيّه سيدنا محمدٍ صلّى الله عليه وسلّم قيادُها وزمامُها ، والاعتمادُ في معناه ، على الخطّ الكريم أعلاه .

⁂

وهذه نسخةُ توقيع بكشف الرّملة، كُتب به لأبي بكر «أمير علم» ، في الدولة الظاهرية «برقوق» وهي :

الحمدُ لله الذي قلّد أجياد المجاهدين، سـيف نصره ، وأكّد بعزائم أهلِ اليقين ، حمايةَ حوزَة الإسلام وصيانةَ ثغره؛ وجعل ألسنةَ أسنّة المرابطين في فم الثّغر زينًا إذا ازدان بغرّة بدره، وأنزل بأعداءِ الدّين قوادحَ نِقمه وقوارعَ قهره .

أحمدُه أن حمىٰ بأولي النّجدة والبأس للسلمين حِمىٰ، وأشكره علىٰ ماهمَع من صَيّب نعمائه وهَمىٰ ؛ وأشهدُ أن لا إله إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً أتخذُها عنـد الله

ذُخرا ، وأرجو بها فى العُقْبىٰ أجرا ، وأشهدُ أنَّ محمدا عبـدُه ورسولُه الذى أيَدَ يدَه بالسَّيف وأمدَّه أيدا ، وعلىٰ آله الذين حَلَّىٰ بهم للإسلام جِيدا ، وصَحْبِه الذين جلَّا ببَوارِق صِفاحِهم ، وخَوارِق رِماحِهم ، غُمَم المجال ، وغَمَم القتـال ، فلم يُهمِل الأعداءَ ولم يُمْهِلْهم رُوَيْدا .

وبعـدُ ، فإنَّ أولىٰ مَن جُعِل فى نَحْر البَحْر هُماما صارِمْ[1] ، وأشدّ من قاطع أعداء الدين وصارَمْ ؛ من تُضرَبُ بشجاعته الأمثـال ، ويُورِدُ فى صـدور الأبطال صُمَّ الأسَل النِّهال ، ويَحْمِى حِمَى الثَّغر فلا يَدَعُ عدوّا ولا يَرْهَبُ نَهْبا ، ويَرُقّ رِقابَ الكُفْر فيُؤْمنون وإن كان وراءهم مَلِكٌ يأخُذُ كلَّ سَفِينة غَصْبا .

ولمـا كان الجناب الكريم فلانٌ ـ أدام الله تعالىٰ نعمته ـ هو الذى أخلص فى الطّاعه ، ونصح سُلْطانَه حسب الطاقة والاسْتِطاعه ـ رُسِم بالأمر الشريف العالى ـ لازال سـيفُ عدله ماضيا ، وكُلٌّ بحُكْمِه راضيا ـ أن يستقرّ الجنابُ المشارُ إليه كاشفًا بالرملة المعمورة ، علىٰ عادة من تقدّمه فى ذلك .

فلْيُباشِرْ ذلك مُعَمِّرًا تلك البـلادَ بعَدْلِه ، مُجتهدًا علىٰ إيصال الحقّ إلىٰ أهْـلِه ؛ وليتخذِ الشَّرعَ الشريفَ إماما ، وليَتوخَّ أوامِرَه ونَواهيَه نَقْضا وإبْراما ؛ وليَقِفْ عند حدوده المشروعه ، ولا يتعدّها : ومن يتعدَّ حُدودَ الله فيدُه من بِرّ الإيمان منْزوعه ؛ ولْيُلِن جانبَه للرّعيّـه ، وليحملهم من العَدْل والإنْصاف على المَحَجّة الواضحة الجليّه ؛ [فإنّهم الرعيةُ الضُّعفاء الذين أنعم اللهُ عليهم بتَفْويض أُمُورهم إليه][2] وليعتمدْ فيهم قولَ النّبى صلّى الله عليه وسـلم : «اللّهمَّ من وَلِيَ من أُمُورِ أُمتى شيئًا فرفَق بهم فارْفُق به ومن شَقَّ عليهم فاشْقُقْ عليـه» . والوصايا كثيرةٌ وأهمُّها التَّقْوىٰ فليلازمْ عليها فإنّها

(١) يوقف عليه بلغة ربيعة . (٢) الزيادة مأخوذة مما تقدم .

تحفظُه ، وبالسيادة والسعادة تلحظُه ، والله تعالىٰ يكمِّل توفيقَه ، ويسهِّل إلىٰ نُجْح المقاصد طَريقَه ، والاعتماد فى معناه ، على الخط الكريم أعلاه .

قلتُ : ومن تأمَّل وصايا هذه التواقيع الثلاثة المتقدّمة الذكر علم ما كان عليه كُتَّاب الزمان ، من انتزاع الفقرات من توقيع ، وترصيعها فى توقيع آخر من غير تغيير لفظ فى أكثرها .

المرتبـــة الثـانية

(من تواقيع أرباب السيوف ممّن بأعمال دِمَشْق ـ مايُفتتح بـ«أما بعـد حمد الله» وفيهـا وظائف)

وهذه نسخ تواقيع من ذلك .

نسخةُ توقيع بنيابة بعلَبَكَّ لمن دون من تقدّم فى المرتبة الأولىٰ ، من إنشاء الشيخ جمال الدِّين بن نُباتة ، كُتب به لمن لقبه «ناصر الدين» : وهى

أمَّا بعدَ حمدِ اللهِ الذى لم يُخْلِ مملكةً إسْلاميةً من قُوّةٍ ولا ناصر ، ولم يُحِلْ أمرَها على ذِى عَزْمٍ قاصر ، ولم يُحَلِّ وَجْهَها إلا بمن نُبِّىَ به القديمُ وشَهِد له المُعاصر ، ولم يُلْقِ مقاليدَها إلا لمن وَضَح برأيه الإبهامُ وثَبتتْ بفَضْلِه الشهادةُ وعُقِدتْ علىٰ ذِكْره الخَناصر . والصلاةِ والسلامِ علىٰ سيدِنا محمدٍ الذى شيَّد معالمَ الدِّين وأركانَه ، وجدَّد مكان الحقِّ وإمْكانه ؛ وعلىٰ آله وصَحْبِـه الذين تابعوا فى الخلق عَدْلَه وإحسانَه ، وشايَعُوا فى النَّصر نَصْلَه وسِنَانَه ، ما استناب الوَدْقُ فى سُقْيا الرِّياض غُدْرانَه ، وخلَع على الغُصونِ خِلعًا خَطَر فيهـا الزَّهر بأكمامه وعقَد من الثَّمرِ تيجانَه ـ فإنَّ شَرفَ الأماكن بساكنيها ، وحُصُونَ الديار بنُفُوس قاطِنيها ، والمَنازلَ بكواكبها ، والمناصبَ

بنَصيبها من الكفاءة ونائبها، وإنّ مدينةَ بعلبكّ علَمٌ فى المدائن مرفوعُ الخطَّه، وجِسْمٌ من جُسوم الديار قد آتاه اللهُ بَسْطَه؛ بِنْيَتُهُ سليمانَ عليه السلام فهى بالملك قديمة الاختصاص، ومبْتَى الجانُّ المنسوبةُ عُقودُها العليةُ والدُّرّية إلى كلّ بنَّاء وغوّاص؛ وشامُ الشّام المُعجبه، وروْضةُ نَداه المُعشِبَه؛ وثنِيَّة ثغره الباسم، وعَرْفُ أعْراق حياه النّاسم؛ ومأْوَى صُلَحائه أحْياءً بين أوطانها، وأمْواتًا بين صَفيح لُبْنانها؛ لو عُرِضَت البلادُ سُحُبًا لقيل لسَحابها : يا كثير المِنَن، ولو صُوِّرَتْ أناسِيَّ لقيل لإنسانها : باطَيِّب النَّجْرِ واللّبَن؛ لا يُمْنع ماعُونُها، ولا ينْقطِعُ عَوْنُها عن البلاد وما أدراك ماعَوْنُها؛ ولا تليق من النوّاب إلّا بكُلّ سَرِيّ العزْم والهِمّه، عَلِيّ الآراء فى المُلِمّة المُدْلَهِمّه؛ ناجح القَوْل والعمل، صالح لأن يُثنى على نيابته البعلبكّية صالحو المدينة والجَبَل؛ مُكَمّل لسلوك الحقّ الأنجى والعزم الأنجد، مُؤَهّل لارتقاء الرُّتب التى تماحدنا[1] ولها الأمجد.

وكان فلانٌ هو جُملةَ هذا التّفصيل، وجَمالَ هذا التّفضيل؛ وكُفءَ هذه العَقيلَه، وسَعْدَ هذه المنزلة التى مدّت بالسّيف والقلَم ذِراعَه ونظّمَتْ من البناء إكليلَه

فلذلك رُسم بالأمر الشريف ــ لا زالت الممالكُ بمحاسنِ أيّامه إرَمَ ذاتِ العِماد، والبلادُ ذاتَ الخصْبِ السَّنِيِّ لا ذاتَ السَّنةِ الجَماد ــ أن يرتَّبَ فى نيابة بعلبكّ المحروسة : مُجدّدًا بهمّته العالية عُلُوَّ صَرْحِها، وحِمايةَ سَرْحِها، ورِعايةَ جَبَلِها وسَفْحِها، مُورِيًا فى مصالحها زنادَ فكره التى لا تمكّنُ أقوالُ العُداة من قدْحِها، مُصَرِّفًا لأوامره كيف شاءتْ، مُنصِفًا للأحوال المَنُوطَةِ برعايته إن دنَتْ أو تناءتْ، باسطًا لعدْل قلمه على المُجيدين، وسَطَوات سَيْفه على المعتدين، وَازِعًا بمهابته مَن جاور جبال

(١) لعله "التى إذا خلت من ماجد تناولها" الخ .

العَمَل من الضَّالِّين، ﴿فعسىٰ أُولٰئك أن يكونُوا من المُهْتَدِين﴾ وليَتَبوَّأ منها معْقِلاً يحمُده المُناصِر والمُهاجِر، وليَحُطْ منها ثغرًا مَساوِيكُه الأسَلُ والمَسْعَىٰ إليه علىٰ المَحاجِر؛ وليُجْرِ أُمور الديوان علىٰ سَنَنِ التَّمْيير والتَّثمير، وليُـدَبِّرِ الأوقافَ المبرورةَ بمحـاسن التَّدْبير، وليُشارِكْ أهلَها فى الأجْرِ الأوّل بالأجْرِ الأخير؛ والأسْوار هى وقُلوبُ الرِّجال من أهَمِّ ما يُعَمِّرُه، ووُفورُ الحَواصِل والسِّلاح ممَّـا للوَلِيِّ ولِقاءِ العَدُوِّ يدَّخِرُه، وتقْوَى الله عزَّ وجلَّ ممـا لا يزالُ لِسانُه يَسْتَحْلِي القولَ فيه فيُكَرِّره؛ والله تعالىٰ يمدُّه بإعانته ولُطفه، ويكْفِيه ما أهَمَّ من الأُمور فمـا كُفِي مَن لم يَكْفِه .

* * *

وهذه نسخةُ توقيع بولاية الولاة بالشَّام المحروس لمن لقبُه «عزُّ الدِّين» من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتة أيضا ، وهى :

أمَّا بعدَ حمد الله الذى جعل للوُلاة فى هذه الدَّولة عِزًّا يتجدَّد، وعَزْمًا يتشدَّد، وبعلاً يتعدَّىٰ إذا حكم وزيدا لا يتعدَّد (١) ، وكافِيَ وُلاةٍ يتَلَذَّذُ الواصِـفُ بذِكْرِ اهتمامه الذى إذا اهتَمَّ لا يتَلَدَّد، وإذا اعتُبِرَ عزْمُه وحَزْمُه فهذا فَضْلٌ يتجدَّد ، وهذا وصف لا يتحدَّد . والصلاة والسلام علىٰ سيد الخلق محمد، وعلىٰ آله وصَحْبِه ذوى العِزّ المؤبَّد، والعَزْم المؤيَّد ، ما كتَب قلمُ الغَيْثِ الجائد علىٰ طِرْسِ الرَّوْض بخَـوَد — فإنَّه لمـا كانت الوُلاة فى خدمة البلاد جيْشًا يحمُون سَرْحَها ، ويعْمُرون صَرْحَها، ويخصِبُون بالعَدْل قبل العِمارة سَفْحَها ، ويحكُمون فى رعاياها، ويتحكَّمُون فى قَضاياها ، ويقْرَعُون ثُغُورَها ويفْرعُون ثَناياها — تعيَّن أن تقـدَّم علىٰ هذا الجَيْش المذكورِ أميرًا يقرِّرُ أمرَها ، ويُنَسِّق من مَيْمنته ومَيْسرته يمْنَها ويُسْرَها ؛ ويجرِّدُ من الرَّأْى سِـلاحَه ، ويَسُرُّ قلْبَه بالتَّدْبير ويرِيشُ جَناحَه .

(١) كذا فى الاصل بالاهمال ولعل صوابه «وفصلا اذا حكم لا يتعدى ورأيا لا يتعدد» .

وكان المجلسُ الساميَ هو الأميرَ الدَّالّ عليه هذه الإماره ، المَعْنِيَّ بهذه الشَّارَة والاشاره؛ المُسْتحِقَّ بشريف نَفْسه مَدَارِجَ الآرتقاء ، ومَبَاهِجَ الآنْتِقاد والآنْتِقاء ؛ المُسْبِلَ أذيالَ مَفاخِره أىَّ إسْبال، المَرْقُومَ بآسمه ورَسْمه علىٰ أرجاء الوِلايات : «عزٌّ يدُومُ وإقْبال» ؛ المُقيمَ من أمانَته ومَهابته بين حِرْزَيْن، الشَّهْمَ الذى لا يَذِلُّ وهو من نَعْته ومُنْتَسِبه بين عِزَّيْن؛ الصَّمْصَامَ الذى تُسَرُّ [به] يدُ من آرتضاه وآنتضاه، والمَـاشيَ على الحقِّ الظَّاهر حتَّىٰ يقال : أهَذا وَالِي الوُلاةِ أمْ قاضِي القُضَاه ؟ .

فلذلك رُسِم بالأمرِ الشريف ـ شَرَّفه اللهُ وعظَّمه ـ أن يَستقرّ... ... ... آعتمادًا علىٰ شَهامَتِه التى بِمثْلها تُمَهَّـدُ البِلاد ، وكَفَاءته التى تُفْصِحُ بالخيرات السَّنِيَّةِ ألْسِـنَةَ الجَماد ؛ وصَرامَتِه التى تَشُدُّ علىٰ أيْدى الوُلاة فيَردُّون الحُقوقَ من أيْدى الآغْتِصاب، ودِرايَته التى ينتَسِبُون إليها فيُنْشِدُون :

وكُنَّا كالسِّهامِ إذا أصابَتْ * مَرامِيها فَرَامِيها أصَاب(1)

فلْيباشِرْ هذه الرُّتبةَ بكُفْئها : من العَزْمِ العالى، والقَدْرِ الغالى؛ والمَعْدِلَةِ التى تَمَسَّكُ منها الأحوالُ بأوْثقِ العُرا ، وتتلُو سَـيَّارتها المرفقة : ﴿ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي القُرَىٰ ﴾ . مُراعِيًا لجميع الأحْوال ، مُثَمِّرًا لمَرْبع الأمْوال؛ وَالِيًا علىٰ وُلاةٍ إن شَكَوْا فى صُنْع الله فـا لهم من اللهِ من وَالٍ ، ماشـيًا منْ تَقْوَى الله تعالىٰ فى كلِّ أمرٍ على أقْوىٰ وأقْومِ منْوال ؛ واللهُ تعـالىٰ يُخْصِب البـلادَ بغَمامِ رَأْيِه الصَّيِّب ، ويُطَيِّبُ الأماكنَ المَنْبِتةَ بِمثْلِه : « وكلُّ مَكانٍ يُنْبِتُ العِزَّ طَيِّب» .

✤

وهذه نسخةُ توقيعٍ بولاية البَلْقاء والصَّلْت ، من إنشاء آبن نُباتة، وهى :

---

(1) الرواية : أصابا بألف الإطلاق ، وحذفت هنا لمراعاة الفاصلة .

أمّا بعد حمد الله مُضاعِف النِّعمه، ومُرادِف رُتَب الإحسان لمن أخلص في الخدمه، ومُجدِّد منازِل العزّ لمن طلعتْ كواكبُ اهتمامه في آفاق الأُمور المُهِمّة، ومُؤكِّد سِهام الخَير المقتَسمه، لمن سدّد في شَرَف الأغراض رأيه بل سَهْمَه. والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبيّ الأُمّيّ هادي الأُمّه، وعلى آله وصَحْبه حُماة الدِّين من العوارض المُلِمَّة، صلاةً تكونُ بين أرواحهم الزّكيّة مَودّةً ورَحْمه — فإنّ أحقَّ الأولياء بمزيد الآلاء المتّصله، وتجديد النِّعَم المقبِلَة وتقديم المساعي التي لا تلبَس حُلَلَ الفَخار إلا مُكتَمِلَه — من وَضَحَتْ في صفات الفَضْل آياتُه، وتقابَلَتْ في حالَتي التّدْبير سَطَاهُ وأناتُه، ورَوَى غُلّةَ البَلَد الخائف ففاض على المُعتدين جَدْوَلُ سيفه وجرَتْ بالدّم قَناتُه، وقام على قَدَم الاجتهاد، وقَسَّم بين جَفْنِه وجَفْن سَيْفه السُّهاد.

ولما كان المجلسُ هو المقصودَ بهذه الكِتابَه، والمشهودَ له في طَلَق هذه الغَايه، والعالي بهَمِّه على ذوي الارتقاء، والوالي الذي إذا ركِبَ الوُلاةُ لاشتهار ذكْرٍ كان من بينهم فَارِسَ البَلْقاء، والناهضَ بتَثمير الأموال غَمامُ رأيه الصَّيِّب، والطَّيِّبَ بسياسته مَحَلُّ الولاية: «وكلُّ مكانٍ يُنْبِتُ العِزَّ طَيِّب» — تعيّن أن تَتَزيّدَ مَنْصِبَه إذا تزيّدتِ المناصب، وأن تَستمرَّ مرتبتُه إذا مَرّتْ لذهابها المَراتِب؛ وأن يشتملَ في استمرارها عليه، وأن يكون في إعراب الدّولة القاهرة مُضافًا ومُضافًا إليه.

فلذلك رسم بالأمر الشريف — أعلى الله تعالى أبدًا عِمادَه، وجعَل لوُلاة أيّامه الحُسنى وزيادَه — أنْ يستمرَّ على ولاية البَلْقاء على عادته، وأنْ تُضافَ إليه ولايةُ الصَّلْت[1]: جمعا له بين الأُخْتَين حَلالا، والذِّروتَين مَنالا، والرّايتَين نُهوضًا بهما

(١) لم يذكرها القاموس ولا ياقوت وفي تقويم البلدان هي بليدة وقلعة من جند الأردن.

وآستقلالا، وعلمًا بوفاء عزمه الذى أمَر أمْرِه، ورفعًا لقَدْره الذى حسُن أن يقولَ لمنصب البلقاء : «لنا الأبلَقُ الفرْدُ الذى سارَ ذِكْرُه»، وتيمّنًا بغرّة الصَّلْت فإنّ الصَّلْتَ هو الجبينُ الواضحُ بِشْره، وكيف لا؟ وهو الكافى الذى جمعَ مالَ الجهاتِ فأوعىٰ، وقسم فنونَ المصالح جِنسًا ونوعا، وحَسَم أدواءَها بحُسامِ رِفْقه كَرْهًا وطوْعا .

فليباشِرْ بالعزِّ واليُمنِ جهتيْه، وليأخُذْهما بكلتَا يديْه، وليفض وَجْه عزمه فى أرض الدولة حتّىٰ يكون شبهَ البلقاءِ اللازم لإحدى ولايتيه؛ محصّنًا بِسِماكَىْ سيفِه وقلمِه فنِعْم البلْدتان، مُثمِرًا بسَدادِ قولِه وفعلِه ومن دونهما جنّتان؛ مُوفيًا للحقوق، مُعفيًا لاعتراف النّعمة من العقوق، راقِيًا بهمته ــ إن شاء الله تعالى ــ إلىٰ رُتَبٍ لو رامها نجمُ الأُفُق لعاقَهُ العيُّوق، عامِلًا بتقوَى الله عزّ وجلّ فإنّ خيرَ الدنيا والآخرة بتقوَى الله مَعْذُوق؛ والله تعالى يُوضِّح لرأيه أجمَلَ الطرائق، ويُنجِح على البلقاءِ وغيرِها سَعيَه السّائق، وفكْرَه السابق؛ بمنه وكرمه! .

* * *

وهذه نسخةُ توقيع بولاية نَابُلُس، من إنشاء آبن نباتةَ أيضا، وهى :

أمّا بعدَ حمدِ الله علىٰ ماهنّأ من المواهب، وهيّأ من علِيِّ المراتب، وأنجز من وُعُود السُّعود بعد مِطَالِ المَطَالِب، وزيّن من سماء الوظائف عند إزهائها بزينة الكواكب، وعمَّر من صُدُور الوُلاة والولاية بعلِيٍّ تُثْنِى عليه الرعيّةُ «ولو سكتُوا أثنَتْ عليه الحقائِب» . والصلاةِ علىٰ سيدنا محمد عبده ورسوله الذى جرّد لنَصْر الإيمان حدَّه القاضب، وحِزْبَه الغالب، وندَب لإحياء الحقّ عليه بعد ماهمّت به النّوادب؛ وعلىٰ آله وصحبه الذين هم فى المَمَات جمالُ الكُتُب كما كانوا فى الحياة

جَمالَ الكَتائب ، صلاةٌ تتعطر بنفحاتها الصَّبا وتتقطّر من خَلف سُراها الجَنائب ـ فإنّ عقائِلَ الولايات أولىٰ بخِطْبة أكْفائها ، ورَغْبة السَّراة من ذوى اصْطِفائها ، ونِسْبَة من يقوم للأُمور المُعَلَّلَة بقانُونها وشِفائها .

ولما كانت بَلَدُ نابُلُس المحروسة من أعلىٰ عقائل البلاد قَدْرا ، وأمْرإ الجهات أمْرا ، وأسْرى الولايات مَحَلًّا وذِكْرا ، وأوفَق النَّواحى من زمان بَنى أيُّوبَ علىٰ تَكاليف المُلْك صَبْرا ، وأنْزَه البِقاع التى لو رآها المَلِكُ المِصْرِىّ لما آستَغْلىٰ غُوطَةَ الشَّام بشِبْرَيْن من شِبْرا ، بَلَدٌ أعارتْه الحمامةُ طَوْقَها وحلَّت الثَّناء فوقَ طَوقه ، ونجَم نبات واديها الزَّهَر حتَّى تَساوَى النَّجْمان من تَحْته ومن فَوْقه ـ تعيَّن أن يُختار لولايتها من تَعيَّن وَلاؤُه ، وتمكن فى الرُّتَب عَلاؤُه ، وتبيَّن فى مصالح الولايات آحتفالُه وآحتِفاؤُه ، وشُهِر وَفاؤُه بالخِدْمة فلا شَرَف بسعى إلا له منه شِينُه ورَاؤُه وفَاؤُه ؛ من شَهِدَت السَّواحلُ الشاميَّةُ فى مُباشَرته أنَّه أجْرَى منها المالَ بَحْرا ، وأفاض الوَصْف دُرّا ، وشَهِدت الزَّكاة ـ وديوانُها المَادِحُ ـ أنَّه أفلَحَ من زَكَّاها خَبَرًا وخُبْرا .

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف أن يُرتَّب فلانٌ ... ... عِلمًا بأنَّه الأوحَدُ الذى جمع الأوصافَ المتقدِّمَه ، وأسْمَعَ من المحامد نَتِيجَةً لها من كلا قَوْلِه وفِعْلِه مُقَدِّمَه ، وأطلع فى آفاقِ الوَظائف كنُجوم الجَوْزاء الثَّلاثة رأْيَه وسَيفَه وقَلَمَه ، وأطْلَع علىٰ محاسِنِ التَّدْبير فكان فى رَعايا بَلَدِه ممَّن تَواصَوْا بالصَّبْر وتَواصَوْا بالمَرْحَمة ؛ وأنَّه الكافى الذى إذا وَلِىَ ثمَّر ، وإذا صال على المُفْسِدِينَ دَمَّر ، وإذا شَامَت المُهِمَّاتُ بارِقَ عَزْمٍ ، أسْبَلَ وإذا سَامَتْ قُواهُ شَمَّر ؛ وأنَّه الأمينُ إذا تَصرَّف ، والمأمُونُ إذا تعرَّف ، والشُّجاعُ إذا تحصَّنت البلادُ بنَسَبِه الحِصْنِىّ : فَسواءٌ فى شُمول الأمْن ما توسَّط منها وما تَطرَّف .

فليُباشِرْ هذه الولايةَ المباركةَ بعَزْم يُوضِّح بِشْرَها ، ويُنجِح أمْرَها ، ويُقيم فى خِطْبَة عُلاه عُذْرَها ؛ وحَزْم يُثمِّر مالها وغِلالَها ، ويَنْقَع غُلَّتَها ويَضَعُ أغْلالَها ؛ وبأْس يَدَعُ

المُفسِدَ من سَيْفه أو قَيْده فى طَوْقٍ أو حِجْل ، ويَذُرُ السَّارِقَ والمَارِقَ يشير بلا كَفٍّ ويَسْعىٰ بلا رِجْل ، مُشَيِّدًا لنواحيها بالتَّرغيب والتَّرهيب علىٰ أوْثَق المبَانى ، مُصْلِحًا بين أهْلِ الأهْواء حتّى لا يَضُرّ قولُ القائل : «رَفيقُكَ قَيْسِىٌّ وأنت يَمَانِى» ؛ مُتَفَقِّدًا من الأحوالِ كُلَّ جَليلٍ وحَقير ، ناهِضًا فى تَلَقِّى المهمات علَىٰ قدم التقدم بالعَزْم الأثير ، جاعِلًا من لَدَى مَحَجَّة عَمَله لصلاح العشيرة نِعْم العَشير ، عاملًا بتقوى اللهِ تعالىٰ فى كُلِّ أمْرٍ وإليها بالحديث يُشير .

⁂

وهذه نسخةُ توقيع بشد الدَّواوين بغَزَّة ، من إنشاء ٱبن نُبَاتة ، كُتب به لـ«علاء الدّين بن الحصنىّ» المقدّم ذِكْره فى التَّوقيع قبْله ، وهى :

أمَّا بعدَ حمدِ اللهِ علىٰ كلِّ نعمةٍ جَلَّتْ ، ونَعْمَةٍ فى أهْلِها حلَّتْ وحَلَّتْ ، ورتبة بانتساب كافيها وباسمه تحصنت على الحقيقة وتَعَلَّت ؛ والصلاةِ والسلامِ علىٰ سيدنا محمدٍ خيرِ من سَلَّمتْ عليه الألسنةُ وصلَّتْ ، وسُلَّت به سُيوفُ النَّصر وصلَّت ؛ صلاةً دائمةً ما أمْلَيتْ على الأسماع فمَلَّتْ ، ولا قابلَتْها وُجوهُ الملائكة إلّا تَهلَّلَتْ ولا سُحُبُ الرِّضْوان إلّا ٱنْهلَّتْ ـ فإنّ منزلةً يُستَحَقّ [من] مُهِمَّات الدَّولة خَبَرُها ، ويُستدعىٰ من جانِبَىْ مصرَ والشّام سَبْرُها ، ويُمَدّ إليها من ناحيتَىِ الساحلِ والجَبَلِ سُراها وسَيْرُها ، وتلك وظيفةُ شدِّ الدَّواوين للمعمورة بغَزَّة المحروسة التى تُلْتقَط من ساحِلِ بحْرها دُرَرُ الخير المقتَبَل ، وتقول المهمّات الشريفةُ لسَراةِ ٱستنهاضِها : ياساريةُ الجَبَل ـ حَقِيقةٌ أن يُتَخَيَّر لها من الشاكرين من يُحمَد ٱجتهادُه وجِدُّه ، ومن السَّابِقين إلى المقاصد من يَحْسُنُ ـ كما يقال ـ تَقْرِيبُه وشَدُّه ، ومن شُكِرَتْ فى الولايات آلاؤُه ، ومَن إذا علا نَظَرُ رَأْيِه فى المصالح قيل : دَام عَلاؤُه ، ومَن إذا دَبَّر جهةً قالت بلسان الحال : لقد زاد فى المصالح حُسْنا ، ولقد تَحَصَّنَتْ بانتساب ذِكْرِه فلا عَدِمْتُ منه حِصْنا .

ولذلك رُسم بالأمر الشريف أنْ يستقرّ ... ... لمـا عُرِف من حَزْمه وعَزْمِه، ولمـا جُدِّد فى مقدّمات القَدْر من رفْعـه و فى إعْلاء المهمّات من جَزْمه ؛ ولمـا عُهِد من هِمَمه فى جِهاتٍ دَبَّرها ، وفى وِلَاياتٍ ثَمَّرها، وفى وَظائفَ شـدَّها : أمّا علَى العُتَاة فشـدّدها وأمّا علَى المُسْتحِقّين فيَسَّرها ؛ ولمـا آشتهر من ذِكْره الذى لا بَرِحَ عليًّا، ولمـا ظهر من دِرايته التى جعلتْ كوكبَ سَعْده وسَعْيه دُرِّيًّا ، ولمـا بَهَر من تَمَيُّزه الذى إذا هَزّ عصاه بيَدٍ تُساقطُ على المقاصد رُطَبًا جَنيًّا .

فلْيباشِرْ هذه الوظيفةَ المباركةَ مباشرةً تُبيِّضُ لهـا وَجْهًا وعِرْضًا، و إذا أثنىٰ عليه المُثْنِى تَبَرُّعًا كافَاه حتّى يكونَ قَرْضا، مجتهدًا فى تَثْمير الأموال والغِلال ، ضَابِطًا لأُمور الدِّيوان حتّى لايشْكُو الخَلَّةَ ولا الاخْتِلال، قائمًـا بحقوقِ الخِدْمه، مُسْتزِيدًا ـ بشُكْر الأقوال والأفعال ـ لمـا يرتَّخُ له من أقسام النِّعْمه ، عليًّا علىٰ كلِّ حالٍ إذا وَقَّت الفِكْرُ قَدْرَه و إذا ذَكَر اللّسانُ آسْمَه .

المرتبـــة الثـالثة

(من تواقيع أرباب السيوف بأعمال دِمَشْق ما يفتتح بـ«رُسم» وفيها وظائف)

وهذه نسخ تواقيع من ذلك :

نسخةُ توقيع بنيابة قلعة القُدْس ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتة ، كُتب بها لشرف الدين « موسى الرّدادى» وهى :

رُسم ... ... ـ لا زالتْ وُلَاة أيّامه عاليةَ الشَّرَف، ساميةَ المُسْتَشْرَف آويةً من جَنّات خَير الدُّنيا والآخرةِ إلىٰ غُرَفٍ من فَوْقها غُرَف ـ أن يستقرَّ المجلسُ السامى ... ... علمًا باهتمامه الوَفِى ، وآعتزامه المتيقّظ إذا نام حَدُّ المَشْرَفى ؛ وآستنادًا إلىٰ رأْيه الذى

يقولُ نجمُه الطّالِعُ: «مَا أبعَدَ العَيْبَ والنُّقصانَ من شَرَفِى» ! ! ، وإرْشادِ سَعْيِه إلى أن اتّخذَ من الأرض المُقَدّسةِ دارا ، ومن حَرَمِه الشّريفِ جارا ، واتّقادِ ذِهْنِه وشجاعته اللّذَيْن آنس بهما من جانب الطّورِ نارا ، وكَيْف لا ؟ وقد قالت هِمّتُه : يا مُوسَىٰ أَقْبِلْ ولا تَخَفْ ، وأخرِج يدكَ البيضاءَ فى النيابة تَكُنْ أحقّ من اعْتَرف بها الإحسان واعْتَرف .

فليُباشِر ما فُوِّض إليه مُباشرةً يعلُو بها شَرَفُ اسْمِه ومُسَمّاه ، ويبْدُو للاختيار والاختبار فضلُ التقدّم الذى إذا بدا له كفاه ، وليُجْرِ بهذه الرُّتبة رأياً حسَنَ الإحكام ، وليُواظِبْ علىٰ حِفْظِ هذه القلْعة التى فُتِحَ بها عليه فإنّها من أعْظم فُتوح الإسلام ، وليُمِدَّ عليها من كِفايَتِه سُوراً حَوْلَ سُورِها ، وليتفقّدْ رِجالَها وعُدَدَها تفقُّدَ الشُّهب فى دَيْجُورِها ، وليرُدَّ عنها بعَزْمِه الرّدّادىّ عُيونَ الأعادِى الزُّرقَ حتّى لا يراعَ فى أرضِ الحَرَم ولا حَمامَاتُ طُيورِها . وليَشكُرْ نعْمَةً أوتْه إلىٰ هذه المنازل الطّاهِرَه ، وليقرّبْ لِيَد آمله طَلَبَ خير الدنيا والآخِرَه . وليقدّمْ من الوصايا تقْوَى الله التى عن أصْلها تتفرّعُ نِعَمُه الباطِنَةُ والظّاهِرَه ، حتّى يجعلَ له فى الوَادِى المُقَدّس رَبْعاً مأنوسا ، وجَمْعا مَحْروسا ، وأحاديثَ حَسَنَةً تقولُ لمُسْتَمِع مِثْلِها فى الآفاق : (هَلْ أتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ) . واللهُ تعالىٰ يمدُّه بإعانته ، ويُلْهِمُه شكْرَ ما رُزِقَ من فَضْل مكانه ومكانَتِه ؛ بمَنّه وكَرَمه !

* * *

وهذه نسخةُ تَوْقيع بنيابة قلْعة صَرْخَد لمن لقَبُه «جمال الدين» وهى :

رُسِم بالأمرِ ـ لا زال يتخيّر لقلاعه النّائبَ ويتحيّزُ[1] من النّائبَه يُمِدُّها بسَحائبِ بِرّه وفِكَرِه الصّائبَه ، وينْدُب لخدمتها كلّ سَيْف يُرضِى النّادِبَ ويُقِيم علىٰ غيرها النّادِبَه ـ

(١) أى ينتحى .

أن يُرتّب مجلسُ الأمير ... ... لأنّه الكافي الذى تُسَرُّ الحُصونُ بأمثاله ، وتَبْتسمُ شُرُفَاتُ القِلاعِ لإقْباله ، وتَنشرِحُ منازِلُها بتنقُّلِ نجومِ الهداية من أفعاله وأقواله ؛ والمَلِيُّ بأداء الخِدمه ، والمرَشَّحُ لمـا هو أوفىٰ وأوفرُ من الأُمور المُهِمَّه .

فليُباشِرْ نيابةَ هذه القَلْعة القـديم أثرُها ، والشَّهِيرِ خَيْرُها وخَبَرُها ، بعزْمة سَـيفٍ قاطعه ، وحِدَّةِ بأسٍ ذائعَه ، ومَهابَةِ ذِكْرٍ لشياطين النِّفاق عنها رَادعَه ؛ فإنَّها من بِناء المَرَدَة : فليَرُدَّ عنها آفةَ جِنسِها ، ولْيَحُطْ بِرُقَىٰ عَزائمِه حَوْلَ نَفاسَـتِها ونَفْسِها ، وليُجْرِ أمرَها على السَّدَد(١) ، وليَبْنِها بلُزومه المَهْدِى أوْثقَ ممَّـا بناها أُولئك بالصُّفَّاح والعَمَد ، وليَرِضِ الآثار السُّلَيمانيَّـة بسُلَيمـانَ بيت الملازمة علىٰ طُولِ الأبد ، وليَجْتَهِدْ فيما هو بصَدَدِه حتى تُدَمَّر بتَدْمُرَ جوانِحُ الحَسَدَة بالكَمَد ، مكثِّراً بذِكْرىٰ مَهابَته لعَـدَدِها ، مُوَفِّراً لعُدَدِها ، مُستوجِباً لاستجلاب الإنعام عليه باستجلاب مَدَدِها .

✥

وهذه نسخةُ توقيع بنيابة قَلْعة الصُّبَيْبَة ، وهى :

رُسِم بالأمر العالى ــ لا زال إحسانُه يُعيدُ إلىٰ الحُصون نَاصِرَها وزَيْنَها ، ويُفيـدُ أصحابَ الهِمَم صَوْنَها ، ويحْرُسُها بمن إذا نَظَر فيها وحَمَاها كان عَوْنَها وعَيْنَها ــ أن يستقرّ المجلسُ الساميُّ الأميريُّ ... ... لمـا ألِفَتْه هـذه القلعةُ المنصورةُ من تحْصينِه وتحْسينِه ، وعَرفَتْه من تَرْتيبِه فى عِمارتِها وتَزْيِينِه ، ولأنّه الأدْرىٰ بالمصالح العائد نفْعُها ، والأدْربُ بمَناجِحها الجيـدِ وقْعُها ؛ الذى باشرها من قبلُ فأحْسنَ السُّلوك ، ونَصَحَ هذه الدولةَ القاهرةَ فأثنىٰ علىٰ سيرتِه مُلُوكُ الحُصُونِ وحُصونُ المُلوك .

فليَعُدْ إلىٰ هـذا المَعْقِل المَنِيع عَوْدَ المـاء إلىٰ مَشارِبه ، وليَسِرْ فى أرجاء أبْراجِهـا مَسِـيرَ القَمَر بين كَوَاكِبِه ، ولْيتفقّدْ أُمورَ رجالهـا المستخدَمين ، وليَستَجْلِبْ قلوبَ

(١) السَّدَد [بالتحريك] الاستقامة كالسداد .

حَفِظَتها الأقدمين، مُتَحاشِيًا من رَأْيِ القاصر الغَبِيّ، قائمًا بالمُهِمّات التى تُزاحَم منه بَشَيْخٍ لا تُزاحَمُ بِصَبِيّ، مُقيمًا على رَفْع الأدْعية لهذه الدولة القاهره، مُسْتَزِيدًا بالشُّكر لِنِعَم الله الباطنة والظّاهره، مُجْتَهِدًا مُعْتَمِدًا على تَقْوَى الله تعالى التى جعلت له مكانًا مَكِينًا فى الدُّنيا وطَرِيقًا سَهْلًا إلى الآخره؛ والله تعالى يُنْجِحُ قَصْدَه، ويتقبلُ جِهادَه وجُهْدَه؛ بمَنّه وكَرَمه! .

قلتَ : هـذا كان شأنُها حين كان يُولَّى بهـا مقدَّمُ حَلْقةٍ أو جُنْدىٌّ من الشّام . لكن قد تقدّم فى الكلام على ترتيب الممالك الشّاميّة فى المقالة الثالثة أنّها ٱستقرّتْ فى الدولة الناصرية «فَرَج» فى سنة أربع عشرة وثمـانمِائة [ولاية](1) .

وحينئذٍ فتكونُ ولايتها من الأبْواب السلطانية . فإن عادت إلى ما كانت عليـه أوّلًا، عاد الحكْمُ كذلك .

⁂

وهـذه نسخةُ توقيع بنيابة قَلْعة حِمْصَ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتة، وهى :

رسم بالأمر ــ لا زال يَنْدُبُ لخدْمة قِلاعِه كلَّ مَنِيفِ مُخْتَبَر، ومُجَرَّبٍ عَبرتْ عليه العِبَر، ومُؤَدٍّ لفرائض الخدْمة : إمّا بقِيامٍ عنـد الصِّبا وإمّا بقُعود عند الكِبَر ــ أن يُرتَّب فلانٌ فى نيابة قَلْعـة حِمْصَ المنصورةِ إجابةً لسُؤاله فيما سأله : من التَّوفُّر على مواصلة الصَّلَوات، ورَفْع الدَّعوات، وجمع ثَوابِ الجهاد والخَلَوات؛ وتَقَضِّى باقى العُمْر وادِعا، مُتَنَسِّكًا طائعا؛ إذا بكى بجواره حتّى النَّهْرُ العاصى رَقَّ عليه فمـا يعْدَم منـه بُكا .

---

(1) بياض بالأصل والتصحيح من بقية الكلام ومما تقدّم .

فليباشر نيابة هذه القلعة التي خبرها ومخبرها، المليّ سماعها ومنظرها، المطلّة على مراكز الزّماح المشهوره، ومهابّ الرياح : إمّا بغيث السّهام ممطرة وإمّا بسهام الغيث ممطوره، المجاورة لسيف الله «خالد» فهي بإعراب المجاورة منصوبة غير مكسوره، متبرّا لأحوالها، مستدعيا لما تحتاج إليه من عددها وعدد رجالها، محصّنا باستدعاء السّلاح وسلاح الأدعية الجديرين بأمثالها .

⁂

وهذه نسخة توقيع بنيابة قلعة جعبر، قبل أن تنقل إلى حلب، وهي :

رسم بالأمر الشريف ـ أعلى الله تعالى في سماء الملك كواكبه، ونصر في أقطار الأرض كتبه وكتائبه، وصرّف بأوامره العالية كلّ نائب وفرّق بها كلّ نائبه ـ أن يرتّب ... ... علما بأنّه الكافي الذي تعقد على همّته الخناصر، ويثني على تقديم عزائمه القديم والمعاصر، وتقوى الجهات وتنتصر باسمه بعد أن كانت بغير قوّة ولا ناصر، واعتمادا على كفاءته النافعه، وشهامته الرائقة الرائعه، ودرايته التي تضيء بها القلعة وتسمو حتّى يقول الأستيقان : ما هذه شميس[1] هذه شمس طالعه .

فليباشر هذه القلعة القديم أثرها، الحميد خبرها وخبرها، المصغّر[2] تصغير التّحبيب والتّحسين اسمها ومنظرها، المنفرد سهلها بذيل الآفاق فتمسك[3] بسحبها، المنشدة لارتقاب نهضة حال من علم ابن منصور بها، راقيا صرحها، راعيا بالمصالح

(١) كذا في الأصل وصوابه شميسة .

(٢) هذا الوصف يناسب قلعة الصبيبه فانها هي المصغرة .

(٣) في الأصل «متمسكا» .

سَرْحَها ؛ مُجْتهِدًا فيما يقضى لقَدْره بالرِّفعه ، ولرائد أمَلِه بخِصْبِ النُّجْعَه ، جاعلًا هذه المنزلةَ أوّلَ دَرَجاته : وحَسْبُه بمنزلةٍ يكونُ أوّلُ درجاتِها قُبَّةَ قَلْعَـه ؛ واللهُ تعالى يُسَدِّدُ عَزْمَه وحَزمه ، ويُحْمِدُ فى الكُفَاة خَبَره كما أحمدَ فيهم آسْمَه ؛ بمنّه وكَرَمه ! .

وهذه نسخةُ توقيع بنيابة مَغَارَةِ زَلَّايا ، من إنشاء آبن نُباتة ، وهى :

رُسم بالأمر ـ لا زال يَزِيد قِلاعَ الإسـلامِ عَلاءً فى السِّـمَةِ والآسم ، وفى القُوّةِ والجسْم ، وفى آعتناء يجمع لعقيلتها بين الحُسْن والقِسْم ـ أن يُرتَّب مجلسُ الأمير ... ... لقيامه بواجب الخِدْمه ، ومُلازَمة فَرائِضها المُهِمَّه ؛ وعَزْمَته الوَفيَّة فى النَّفس ، الزّائد وَصْفُها على الأمس ، العَلِيِّ نَسَبُها وحَسَبُها : فتارةً إلى العُلَى وتارةً إلى الشَّمْس .

فليباشِرْ هـذه القلعةَ التى عَلَتْ بنَفْسها محلًّا وسَكَنًا ، وقال سَاكِنُ مَغَارِها لثـانِى آثنين من حَزْمِه وعَزْمِه : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا ﴾ ، وأَسْتَعْلِ ثَنِيَّتَها فأنْشَـد : «أنا آبنُ جَلا وطَلّاع الثَّنايا» ، ونادَى بُقْعَتَها : هذا عَزْمى وحَزْمى لا يقالُ ولا يازَلّايا ؛ مُجْتَهِدًا فى سَداد أُمورها ، وتَحصينِها بالمهابة القائمَـة مقام سُورِها ؛ مُسْتَجْلِبًا ما يحتاج إليـه وما يُرتَّب من عُدَّه ، مُلازمًا لُزومَ الخَمْس لأوقات مُباشَرَتِهـا لا يُوصف بالزّوال بل بطُول المُدَّه .



وهذه نسخةُ توقيع بولاية القُدس ، من إنشاء آبن نُباتة ، وهى :

رُسم بالأمر ... ... لازال يشمَلُ بظِلّه وفَضْلِه ، ويُجَمِّلُ بإحسانه وعَدْله ، ويُنَقِّلُ شمس الوُلاة من البُرْجِ الطّاهر إلى مثْلِه ـ أن يُنْقَلَ فلانٌ من كذا إلى ولاية

القُدس الشريف : عِلمًا بكفَايته التى تقدّمتْ، وشَهامَته التى تحكَّمتْ، وإمامَته التى سَلِمت فيا سَلَّمت، وهِمَّتِه التى وضَحَتْ شَمسًا فلا تُنْفَس، وقالتْ لقيامه فى المصالح: ﴿ٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بالوادِ المُقَدَّس﴾ .

فلْيباشِرْ هذه الولايةَ مباشرةً تَمحُو بضياء شَمْسه ظُلَمًا وظَلاما، وتقولُ لنَارِ الحوادث فى المَشاهدِ الجليلةِ : ﴿ يانَارُ كُونِى بَرْدًا وسَلَاما ﴾ ؛ مُجتهِدًا فيا هو بصَـدَده ، عارفًا بوُجُوه المصالح حتَّى يكونَ السَّكَنُ أعْرفَ بشَمْسِ بَلَدِه ؛ ناهضًا بأمورِ الدِّيوان جَلِيَها وخَفيِّها، وعبْءِ المهمات حَافلِها وحَفيِّها؛ مستزيدًا بالشكر لمبادئ النِّعَم، قائلًا فى محلِّ البَلَدين المُبارَكين : ماسِرْتُ مِن حَرَمٍ إلّا الى حَرَم .

* * *

وهذه نسخةُ توقيع بولاية غَزَّةَ، وهى :

رُسم بالأمر – لا زال يُنْشِئُ فى رِياض الإحْسانِ غَرْسا، ويُحقِّق فى ٱستحقاق الكُفاةِ حَدْسا ، ويُقـدِّمُ من لا تزال الوِلاياتُ تَحمَـد له يومًا وتذكر لقومِه أمْسا – أن يُرتَّب ... ... لِمَا عُرِفَ من عَزْمه الذى جرَّد منه الاخْتيار والاخْتبار جَميلا، وكَمالِ شَخْصه الذى ٱتَّخذه التوفيق فلم يقل : ﴿ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلًا ﴾ ؛ واعتماد الذى يُصْبِحُ فى المحامد ويُمْسى، وينافسُ مَرْباهُ فهذا يقول : ثَمَرى وهذا يقولُ : غَرْسِى .

فلْيباشِرْ هـذه الولايةَ بعَزْمٍ مقْتَبِل الشَّبِيبَه، وحَزْمٍ لايُفْقِدُ الرأْىُ المحيـلُ تَجْريبَه فى المصالح وتَجْريبَـه؛ وتَقَعٍ فى المهِمَّاتِ وردْعٍ للفسدين تُحمَـدُ مواردُه ومصادرُه، وذِكرٍ له حَسَنٍ تُلْتقطُ من ساحِل الشام جَواهرُه؛ مُسْتزيدًا لمـا رَشَحَ له من درجات

الأُمور المُهِـمَّه ، مُنَزَّهَ العِرْض عن كلّ لائِمَـةٍ مُرَجِّحًا تقْوَى الله تعالىٰ فى كلّ مُلِمَّه ؛ والله تعـالىٰ يُحْمِد فى الخِـدْمة آثارَه ، ويُعِزُّ فى ولاية حربه الساقَةَ إذا هانت الحرب على النُّظّاره .

⁂

وهذه نسخةُ توقيعٍ بولايةِ لُدّ، لمن اسمه «نجم الدين أيّوب» وهى :

رُسِم بالأمر ـ لا زالتْ نُجومُ أوامِرِه سَعِيدَه ، وظِلالُ عوارِفه مَدِيدَه ، ومَنازِل الولايات حامِدَةً لمن يُقَدِّمه وطَوالِعُ أُفقِها حَمِيدَه ـ أن يُرَتَّب ... ... اعتمادًا علىٰ كَفاءَته التى تُشَيِّدُ له مَجْدا، وتُعقِبُ مَسْعاه حَمْدا، وتكْفِى من هذه الجهة وأهلِها بَلَدًا وقَومًا لُدًّا ؛ لمـا احْتَوَىٰ عليه من مُوجِبات الاصطناع ودَواعِيه ، وفاتَ باستقلاله أمَدَ مُساجِلِه ومُنَـاوِيه ؛ واشْتَمَل على الخِـلال التى قَضَتْ بتَقْدِيمه ، والأفعالِ التى استدْعَتِ المبالغة فى تَفْخِيمه وتكْرِيمه ؛ وسَلَكَ من المخالصة ما يُوجِب الاستِحقاقَ والاسْتِيجاب، ويُوصِّلُ حَمِيدَ مَسْعاه إلىٰ بُلُوغِ الآمال وإدْراكِ المحابّ .

فليُباشِرْ هـذه الولايةَ : عامِلًا بتَقْوَى الله تعـالىٰ فيما يُسِرُّه ويُعلِنُه ، مُعْتمِدًا فيها غايةَ ما يَستطِيعُه المُكَلَّفُ ونهايةَ ما يُمْكِنُه ؛ ولْيُسوِّ بين القَوِىِّ من أهلِ هذه الولاية والضَّعِيف ، ولا يجعلْ فى الحقّ فَرْقًا بين المَشْروف والشَّرِيف ؛ ويَمُـدَّ علىٰ كافَّتهم رِواقَ السُّكون والأَمَنَـه ، وليُجْرِهم فى المَعْدلة على العادة الجميلة الحَسَـنَه ؛ وليأخُذْ فى الأُمور الدِّيوانيَّة بالاجتِهـاد مُراعِيًا فى ذلك حال العِمارَه ، آتيًا مِن الإحسان إلى الرَّعية ما يكون للعَدْل شارَه ؛ وافِيًا فى ذلك كلّه بالمَطْلوب، صابِرًا علىٰ تكاليف المُهِمّات ولا يُنْكَرُ الصَّبْرُ لأيُّوب .

***

وهــذه نسخةُ توقيع بولاية بَيْسانَ ، لمن لقبــه « شهاب الدين » من إنشاء ٱبن نُباتة ، وهى :

رُسم بالأمر ــ لا زالتْ شُهُبُ أوقاتِه سَـعيده ، وسُحُبُ هِبَـاتِه ساحِبَـةَ الجُود مَدِيدَه ، وبحورُ نَعمائه الحقيقيَّةُ كَبُحورِ الأعارِيضِ المجازِيَّة : كاملةً مُنْسرِحَةً مَدِيدَه ــ أن يستقرَّ ... ... اعتمادا علىٰ عَزْمِهِ المُنِيرِ شِهابَه ، الكثيرِ توقّدُه فى أوقات المهمات وٱلْتِهابُه ، وٱستنادًا إلىٰ كَفاءَتِه التى يشهدُ بها وَلاؤُه فى الخدْمة ووِلَايَتُه ، وشَهامتِـه التى يُحْزَمُ بهـا فى الأمر رَأْيُه وترفع فى الخدْمةِ ولايتُـه ومهابتُه ، وعِلْمًـا بسياسَتِه التى يقمعُ بها أهْـلَ الفساد ، وتكادُ تفخَر بَيْسانُ بفَضْـلها كما فَخَرتْ بـ« فاضِلِها » على البلاد .

فلْيَقُمْ فى وظيفته علىٰ قَدَمِ ٱجتهاده ، وكَرَم ٱرْتيادِه وٱعْتيادِه ، شَافِيًا لأحوال أهْل ناحيته من الوَصَب ، مُثَمِّرًا الغلالَ والأموالَ بعزْمٍ قد ٱرتفعَ وٱنتصب ، ظاهِرًا فى الخدمة مَجْهودُه ، مُلَيِّنًا لحَـديدِ من عصى عليــه فى عمله كما اورثه داوُدُه ، والله تعالىٰ يوفّقه .

***

وهذه نسخةُ توقيع بولاية صَيْدا ، لمن لقبــه « شجاع الدين » بـ« المجلس العالى » وهى :

رسم بالأمر العالى ــ أنفذه اللهُ فى الأقطار ، ونَجَّح بولاته أيّامَ الأوطان والأوْطار ، وأجرىٰ بشُكْرِه سُفُنَ الركائب ورَكائبَ السُّفن إذا سَـفَّ وإذا طار ــ أن يسـتقرَّ فلانٌ : ... ... رُكُونًا إلىٰ عَزْمه وحَزْمه ، وسُكونًا إلى ٱهتمامه الذى حَكَمَ فيه الاختبار

بعلمه ، وعلمنا أنّ للولايات به الانتفاع ، ولحصونها الامتناع والارتفاع ، وأنّه إذا ولِيَ رَعىٰ وإذا أقوىٰ[1] كان أعصم راع ، وإذا فكّر فى الرأى ووقب فى المُهِمّ كان نعم الشجاع .

فليباشر ولايةَ عمله ناهضًا بأعبائه ، رافعًا بالعدل لأرجائه ورجائه ، حريصًا علىٰ طيبِ الأخبار المنتشرة من كافور صُبحه ومسك مسائه . وليتفقّد أحوالَ برّه وبحره ، ويتيقّظ لذلك البَرّ وجَهره ، وذلك البحر وسرّه ، حتىٰ يتحدّث البحرُ عن عزمه ولا حرج ، ويسير ذكرُه كنسيم الروض لاضائعَ الصنع ولكن ضائعُ الأرج ، ويعتمدْ مصالحَ النواحى وسُكّانها ، والأموالِ ودِيوانها ، والجهاتِ وضُمّانها ، ونجوم التقسيطات فى البلدة وتحرير ميزانها ، ويجمعْ بين اللِّينِ والشدّة بسياسة لا يخرُجُ بها الرأىُ عن إبّانها ، وتقوى الله تعالىٰ هى العمدةُ فعليها يَعتمِد ، وعلىٰ رُكنها يستنِد ، حتىٰ تجعلَ له على المصالح أيدا ، وحتّى تَثْنِى نحو الثناء عليه عمرًا وزيدا ، وحتىٰ تجعلَ له بأسًا فى الأعداءِ يكيدُ كيدا ، وحُسنَ ذِكرٍ فى البلد يَصيدُ «صَيدا» .

⁂

وهذه نسخةُ توقيع بولاية قاقُون ، من إنشاء ابن نُباتة ، وهى :

رُسم بالأمر ــ لا زال ينْدُبُ لمصالح الولايات سُيوفا ، ويقدّمُ ظنًّا فى الكُفاة يعلم أنّه سَيُوفىٰ ، ويُدْنِى من ثمرات الإنعام والإرغام لأيدى المجتنِين قُطوفا ــ أنْ يستقرّ ... ... اعتمادًا علىٰ همّته الشائده ، ودرايته السائده ، وأمانته الشاهده ، وصفاتِ عزمِه التى هى فى الولايات «معنٍ» وهى «زائده» ؛ مجتهدًا علىٰ أن يُثمر عملَ ولايته فتزكُو أعمالُه ، وتَرِدُ عليه المُهِمّاتُ فتتلقّاها بالكفاءة أفعالُه المعروفةُ وأقوالُه ، وتشهدُ منه الأحوال معنًى بل معانِيَ يثبت بها فى الأذهان قبولُه وإقبالُه .

(١) أقوى . نزل بالقفر ــ أعصم ــ أمنع وأحفظ لرعيته من الاغتيال .

* * *

وهذه نسخةُ توقيع بولاية صَرخد، من إنشائه، لمن لَقَبُه «جمال الدين» وهى :

رُسم بالأمر أعلاه آلله تعالىٰ، وبلّغ بأيّامه الرّتبَ وأهلَها آمالا، وزانَ الولايات بما يُنتِج من مُقدِّمة فِعْله وقَوْله جمالا ــ أن يُرتَّب مجلسُ الأمير... ... ... لأنّه الكافِى الذى عُرِفتْ فى المهمّات هِمّتُه، وأُلِفتْ عَزْمتُه، وأُدِيرتْ أوصافُه عُقَارًا صَرْخَدِيَّةً ولا عجب أن سرَتْ بالنّواحى خدمتُه؛ والنّاهضُ الذى وَفَّى الولايةَ حقَّها، وأدّى الأمانةَ وسلَكَ طُرُقَها، وأطلعَ فى سَماء الولاياتِ شُهُبَ رأيِه فحمَىٰ وزان أُفُقَها.

فليباشِر هذه الولايةَ بعَزْمٍ سَنِىّ، وحَزْمٍ سَرِىّ، ومَهابةٍ تأخذ للضّعيف من القَوِىّ؛ ودِيانةٍ تَمْشى مِن الكفاءة والأمانة على صِراطٍ سَوِىّ، مُثَمِّرًا للمال والغلال، رَاقِمًا لِحُلَلِ الذِّكْر بحُسْن الحلال، مُحَسِّنًا لذِكْرِ ولايتِه حتّىٰ يجمعَ لها بالوصْف والنّعت بين الحُسن والجمال، وإيّاه والجُبْنَ عن المهمّات فما كل جُبْنٍ صَرْخَدِىّ محمودُ العاقبة والمآل .

* * *

وهــذه نسخةُ توقيع بولاية سَلَمِيَة، مِن إنشائه، كُتب به لـ«شهاب الدين الحجازىّ» وهى :

رَسم ... ... ــ لا زال يُطْلِعُ شُهبَ الوُلاة مُشْرِقَه، ويُنْشِئُ سُحُبَ الإحسانِ مُغْدِقَه، ولَا بَرِحتْ أقلامُ علائِمِه كالغُصون بأحسن ثمراتِ الدَّوْح مُثْمِرةً مُورِقَه ــ أن يُرتَّب ... ... عِلمًا أنّه الناهضُ الذى إذا وَلِىَ كَفِىَ، وإذا طَبَّ الولايةَ المعتلّةَ بتقديمِ المعْرِفة شَفَىٰ؛ ورُكُونًا إلىٰ عَزْمه الذى أبَىٰ لِشهابِه أن يخْمَد، وكفاءَته التى

قَضَتْ لاسْمِه بالعَوْد : فإنّ العَوْد أحمد ، واعتمادًا علىٰ سيرته الحَسَنة السَّمْحَه ، الحقيقة بالرِّقْعه ، وعلىٰ سَطْوَته بالمُفْسدين التى حَسُنَتْ أن يُقال فيه : «لقد أوْقع الجَحّاف بالبِشْر وَقْعه»(١) .

فليباشِرْ هذه الولايةَ بعزْمه المُتَوالِي ، واجتهادِ رأيه الذى يُطْرِبُ بارِقُه المُتَعالِي ؛ جاريًا علىٰ عادة سَدَده ، مُجتهدًا فيما هو بصَدَده ؛ مُسَدَّدًا ــ إن شاء الله ــ فى القَوْل والعَمَل ، مانعًا لناحيَته الأعْرابيَّة من تَطرُّق الخَلَل وتَطرُّف الجَلَل ؛ مُصْلحًا بالتَّدْبير عمل مايشهدُ بعزائمه الوَفِيَّه ، وهِمَمِه الجَليلَة الجَليَّه ، وإذا سأل عن شَدِّ الوُلاةِ واحدٌ قيل : سَلْ ميَّةَ عن سَلَمِيَّه .

* * *

وهذه نسخةُ توقيع بشَدِّ مُتحصِّل قُمامة ، من إنشاء ابن نُباتة ، وهى :

رُسِم بالأمر ــ بسطَ اللهُ تعالىٰ على الأُمَم مَهابَتَه وظِلَّه ، وبأْسَه وفَضْلَه ، ووَجَّه إليه آمالَ الخَلْق من كلِّ قِبْله ، وأعلىٰ آراءَه التى يقال لعَدْلها : «لقد جُدْتَ حتّىٰ جُزْت فى كلِّ مِلَّه» ــ أن يُرتَّب... ... ... مضافًا لما بيَده ، واستنادًا إلىٰ صحيح خَبَره فى الكفاءة وعُلُوِّ سَنَده ، وارتيادًا لهِمَمِه التى إن رواها مُسلمٌ عن طَوْعه رواها نَصْرانِيٌّ عن تَجلُّده ؛ وسُكونًا إلىٰ حَرَكته التى تُحصِّلُ مالا ، وتَصِلُ إلىٰ مالا ؛ وتستخرِجُ الوَفْرَ من مَكْمَنه ، وتأخذُ الحقَّ [من] قُدّام يَدَي الماثل ومن خَلْف أُذُنه ؛ وعِلْمًا أنّ المتحصل قُمامَةَ مثْلُ عَزْمه المختار ، ورِفْقه الذى يستنزل دَرَّ القصد المِدْرار ، واجتهاده الذى زَرَعه المستنهضُونَ فاستوىٰ علىٰ سُوقه يُعْجِبُ الزُّرّاعَ ليَغيظَ بِهِمُ الكُفّار .

فليباشِرْ هذه الوظيفةَ بشِدَّة ولِين يحصل كلّ واحدٍ منهما فى مَوْضعه ومَقامه ، وحَقِّ مُنيرٍ يجعل سَبْتَ نُورِ كلِّ لياليه وأيامه ؛ وأمانةٍ مُدِلَّه ، وكفاءةٍ مُظِلَّه ؛ وصيانةٍ

(١) صدر بيت للأخطل وتمامه «الى الله منها المشتكى والمعول» والجحاف اسم رجل والبشر اسم جبل .

وجبُ مَزِيدَ الخيرِ إذًا له ، ومهابَةٍ إذا أُدخِلَتْ مُسْتَخْرَجَ قُمَامَةَ أَصْلحَتْه وجَعلتْ عِزَّةَ أهلِها أذلَّه ؛ لا يَثْنِي هِمَمَه التَّقِيسه ، ولا يَلْتَفِت ـ كما يقال ـ لتَبْخير الكَنِيسَه ؛ بل يستعملُ فِراسَةً تَرُوعُ مَن حَمَلَ عن أداءِ الحقِّ بُهتانا ، ومناقَشَةً تكْشِفُ عن جبالِ التَّجلُّد أكْنانا ، ورأْفَةً مع ذلك بالظَّاهري العَجْز : ذلك بِأنَّ منهم قِسِّيسِينَ ورُهْبانا ، ومتابعةً للضَّرائبِ القديمة لا يُصْرف عنها ، وآستخلاصَ ما على الرَّأس حتَّىٰ يقال : «ليس تحتَ الزَّرْقاءِ أخْضَع منها» ؛ عاملًا بتقوى الله تعالىٰ فإنَّ أهلَ معاملَته أهلُ ذِمَّه ، مجتهدًا في آستحقاق ما يترشَّح له من ولاياتِ الأُمور المهِمَّه .

الصــــنف الثــانى

(ممَّا يكتب لأرباب الوظائف بدمَشْق ـ تواقيعُ أرباب الوظائف الدِّينية ، وهي علىٰ ضربين)

الضــــرب الأوّل

(مايكتب لمن هو بحاضرة دِمَشْق ، وهو علىٰ ثلاث مراتب)

المرتبة الأولىٰ

(مايُفتتح بـ«الحمــدُ لله»)

وهذه نسخ تواقيعَ من ذلك :

تَوْقِيعٌ بنَظَرِ الحِسْبَة بالشَّام ، كُتب به للقاضي « نور الدين عليّ بن أبي الفرج » بـ«ـالجناب الكريم » وهو :

الحمدُ لله الذى جعل مقامَ الأولياءِ عليًّا، ورَقىٰ بهم إلى طُورِ العناية فأشرق نُورُهم سَنِيًّا، ووفّقهم للأمر بالمعروف فلم يَزَلْ غَيْثُ النَّدىٰ بهم وَلِيًّا، وزَنَّد سُبُلِ الرَّشاد والحكمة وَرِيًّا .

نحمدُه حمدًا كثيرًا طيِّبًا زَكِيًّا ، ونشكره شُكرًا لا يزال غُصْنُه بالزِّيادة جَنيًّا ؛ ونشهدُ أنْ لا إله إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً نُكرِّرها بُكْرَةً وعَشِيًّا ، ونسلُك بها صراطًا سَوِيًّا ؛ ونشهدُ أنَّ سيدَنا محمّدًا عبدُه الذى آختاره صَفِيًّا ، وقرَّبه نَجِيًّا ، ورسولُه الذى قام به الحقُّ وأصبح به الباطلُ خَفِيًّا ؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً ينال بها المُؤمِنُ يوم العَطَش رِيًّا ، ويحوزُ بها فى جَنَّة المأْوَىٰ حُلَلًا وحُلِيًّا ، وسَلَّمَ تسليمًا كثيرا .

أما بعــدُ ، فإنَّ أولىٰ ما يَلزمُ الفكرُ [فيه] ويتعيَّن ، ويتمُّ النُّجْحُ بحسْنِ النَّظَرِ فيه ويتبيَّن ــ أمْرُ الحِسْبة الشريفة : فإنَّهــا المَنْصب الذى به صَلاحُ أحوال الرَّعِيَّه ، وقِوَامُ إقامَةِ الحُــدود الشَّرعِيَّه ؛ تَسْلك العامَّةُ لمُستَوْلِيه سُبُلَ صَنائِعه ذُلُلا ، وتَكْسُو بإتقانهــا أنواع بضائعها حُلَلا ؛ وينْتَفِعُ بمعرفتــه الآمرُ والمأمور ، وتُحاطُ المعَايِشُ عن غِشْــيانِ الغِشِّ من حُرْمته بسُور ؛ وتطمئِنُّ القلوبُ بإصــلاحِ المطاعِمِ وتَهَنِّىٰ ، وتقولُ الألْسِنَةُ : شُكْرًا لمن سنَّ هذه السُّنَّةَ الشَّريفةَ وسَنَّىٰ ، وردَع ذَوِى الغِشِّ عن غَوايَتِهم : فَمَنْ غَشَّنا ليس مِنَّا ؛ لاسِيَّما بِدِمَشْقَ فإنَّها شامةُ البلاد المحروسه ، ومَوْطِنُ البركة المأْثورَةِ والبَهْجةِ المأْنوسه ؛ بلدٌ شاعَ ذِكْرُها فى المغارب والمشارق ، وإنَّ محاسِنَها لن تُقاسَ بغيرها : والجامعُ الفَارِق .

وكان فلانٌ ممن تَحَلَّىٰ من عُقود المحــامد بجــواهِرِها ، وآرْتَدىٰ من حُلَلِ المآثر بمفاخِرِها ؛ وعُرِفَ بالنَّهْضة والعَفَاف ، وآتَّصف بجميل المَعْرفة والإنْصاف ؛ وحَسُنَتْ سِيرتُه فى أحكامه ، وحُمِدَت قواعد تعدّده (١) ونَضَارةُ نِظامه .

---

(١) لعـــله "تعهده" .

فلذلك رُسم بالأمر العالى ــ لا زال يُولِى جميلا ، ويولّى فى الوظائف السَّنيّة جليلا ــ أنْ يستقرَّ المشارُ إليه فى نَظَر الحِسْبة الشريفة بالشام المحروس، على عادة مَن تقدَّمه فى ذلك، والقاعدة المستمرّة، بالمعلوم المستمر للوظيفة المذكورة، إلى آخر وقت : وضعًا للشىء فى محلّه ، وتفويضًا لجميل النّظر إلى أهله .

فليباشر ذلك آمرًا بالمعروف وناهيا عن المُنكَر، سالكًا من حُسْن الطريقة ما يُحمد به ويُشكر، ويَسُرُّه حين تُتلى سُوَرُ محاسنِه وتُذكر ؛ متفقّدًا أحوالَ العامّة ومعايشها فى كلّ آن، ملتفتًا فى أمر ما يُكالُ أو يُوزَنُ إلى قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ . مُشمّرًا عن ساعده فى الإجراء على العوائد المُستحبّة ، مُحترزًا فيما يأمر به : فإنّ الله تعالى لا يَخفى عليه مثقالُ حبّة ؛ ولْيَنظُرْ فى الدّقيق والجليل ، والكثير والقليل ؛ ولْيستكثِرِ الأخبار ، ولْيستعلِمِ الأسعار ، ولا يَغفُلْ عن تعاهد السُّوقة آناءَ الليل وأطرافَ النّهار ؛ ولْيُلاحِظْ أمر السِّكّة السلطانية بإصلاح العيار، وضَبْط أحوالِ النّقود بمقدار ؛ ولْيُقِمْ من خَدَمَتِه رقيبًا على من اتّهم فى صنعته أو اسْتَرَاب . ولْيُبالِغْ فى النّظر فى أمر المآكل والمشارب فإنّ أكثرَ الدّاء من الطعام والشّراب ؛ ولْيزْجُرْ بتأديبه مَن افترى ، أو تلَقّى الرُّكبانَ أو غدا فى الأقوات مُحتكرا ؛ ولْيعلَمْ أنّه قُلِّد أمرَ هذه الوظيفةِ المباركةِ : فلْيختَرْ من يستنيب ، ولْيُبصِرْ كيف يسلُك برعايته مَن حكم عليه فما يَلفِظُ من قولٍ إلّا لديه رقيب ؛ والوصايا كثيرةٌ وأصلُها التقوى التى هى أجلّ ما يقتنِى المؤمنُ ويكتسب ، وأجدرُ بالزّيادة : ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ . والله تعالى يُديم علاه، ويتولاه فيما تولّاه .

وهذه نسخةُ توقيع بنظر الجامع الأُمويّ ، من إنشاء الشيخ جمال الدّين بن نُباتة ، كُتب به للقاضى «عماد الدين بن الشيرازى» فى الدولة الصالحية «صالح بن الناصر محمد» بـ«ـالجناب الكريم» وهى :

الحمدُ لله الذى أَذِنَ لبيوته أنْ تُرفَع فرفَع عِمادَها ، وأعاد أحْسنَها إلىٰ نظر من صَرَّف أُمُورَها بمـا حَسُن وصَرَفها عمَّا دَهىٰ ، وأحْيا الآثارَ الأُمويّةَ حتّىٰ غدتْ كالهـاشمية تدعو أجْوادَها وسُجّـادَها ، وأنجزَ وعدَ أهْلِها بمن أشارتْ إلىٰ مُباشَرته أعلامُ أعلامِ المنابر بالأصابع ونَصَّت المآذنُ أجْيادَها .

نحمَـدُه علىٰ ماهَيّأ من الفوائد، وهَنّأ من العوائد، ونشهدُ أنْ لا إله إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً يقومُ بها الخطابُ شاهدًا ويقومُ بها الخُطباءُ فى المَشاهد ، ونشهدُ أنَّ محمّدًا عبـدُه ورسولُه الذى أُوتِىَ الجَوامِعَ من الكَلِم وجُعلتْ له الأرضُ من المساجد ؛ صلَّى الله عليـه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين عَمَرُوا بُيوتَ العبادات بهدَايتـه ، وظَهرُوا فى مَجَالِ الجَمْع ومَجال الجموع تحتَ رايتـه ؛ صلاةً متصلة السَّـير كالسَّيْل ، مُسْـبِلَةَ الغمام كالذَّيل ، واضحةً كرَدْع الخَلُوق لدُلُوك الشَّمْس فائحةً كفَتِيت المِسْـك إلىٰ غَسَقِ اللَّيل .

وبعـدُ ، فإنَّ أوْلَى الأُمور الدِّينية بتَقْديم الاهْتِمام، وتَقْرِير الاعتزاء إلىٰ الاعتزام؛ وتَسْديد مبادى الرَّأْىِ وزَهَراتُه على الأكْمام ـ أمرٌ تكونُ إقامةُ الصَّلَوات أحَدَ أركانه ، وتقريرُ المصالح مُشيرًا إلىٰ عُلُوّ شانه ، وأرزاقُ العُلماءِ والصُّلَحاءِ تُسْـتَدَرُّ من سَبَلِه وهَتّانه .

وكان الجامعُ الأَموىّ بدمَشْق المحروسة لهذه الأَرْكان بمنزلة الأُسّ الرَّاسخ تَمْكينَه، والفَرْع الشَّامخ فى وَجْه السَّحاب عِرْنِينُهُ؛ وبُنْيَةَ زمان بنى أُميـة الذين عَفَا شَرَفُ مَفاخِرِهم وما عَفا شَرفُه ونَخْرُه، ووَكْرَ الإسلام الذى مَضَى لُبَدُ أَمْثاله وما بقِى إلَّا نَسْرُ السماء ونَسْرُه؛ ذُو المَرْأَى الشارح والفضْـل المَشْرُوح، والحُسْنِ الذى إن تغَـالَى فى وصـف الجوامع قَوْمٌ قيـل: باب الزِّيادَة مفتوح؛ تَفْخَرُ به دمشـقُ وحُقَّ لهـا على كلِّ مِصْرٍ أن تَفْخَرَ، وتَبعَثُ نظراتُ حُسْنِه الفَخْرَ من حَمَلة فُصوص التَرْخيم إلى الأَسْوَدِ والأحمر؛ يَحْمَـدُ المُجاوِرُ به مَغْنـاه وغِنَاه، ويَسَعُ أربابَ العِـلْم والمَقاصِـدِ نَادِيه ونَدَاه، ويُطالِـعُ المِسْكُ سُطورَ مِياهِهِ المُتَجَدِّدة فأوّلُ ما يُقْرأُ من تَنْبِيـه عَزْمِه بابُ المِيَـاه؛ وقد عُهِـد أنْ يتولَّى نظَرَه كلُّ سَـنِىّ المفاخر، سَرِىّ المآثِر؛ كَرِيم الفَرْع والأَصْل، ماضِى العَزْم كالنَّصْل، حائزٍ من أقلامه أَمَدَ العَلْياء وقَصَب الخَصْل.

ولذلك رُسِم بالأمر الشَّريف ـ لا زال وجْهُ الفَضْـل بدَوْلته الشريفـة وَاضِحا، وميزانُ العَـدْل والإحسان رَاجِحا، ولا زال فى كَنَفِ مَن منّ به على الدِّين والدنيا وآتاهما صَالِحـا ـ أن يُفَوَّض إلى فلان نظَرُ الجامع الأُمَوىّ المذكور: لمـا عُرِف من أنه الرئيسُ الذى ماسَاد سُدًى، والكاملُ الذى إذا آنس [سَارٍ] نارَ فِكْرَته وجد على النار هُدًى؛ وأنّه باشَرَ نظَرَ هذا الجامـع قديمًا فجَمَّلَه، ورَصَد سَناه فكَمَّلَه، واسْتشهدَ فى مَحْضَر دِيوانه على النَّزاهَة أقلامَه المُعَـدَّلَه، وتَدْبيرَه المُعَدَّ لَه؛ وكَثَّر أوقافَه وكانت قد اضْمَحَلَّتْ، وشَـيَّد عمائرَه وكانت قد اسْتَقَلَّتْ، وملأ حَواصِـلَه وكانت أقلامُ المُكْتَسِبَة تُنشِدُ: «أسائلُها أىّ المَوَاطِنِ حَلَّتْ»؛ ولَـا أَلِفَ هذا الجامعُ المعمورُ من عَواطِفه، وعَرَف من عَوارِفه، وشَهِدَ من جُلوسـه لمصالح وقْفه أحْسنَ الله مكافأةَ جَالِسه ووَاقِفه، فأثبتَ فى صَدْر المحافل أنَّ الله تعالى قَدْ رزَقَه من الفَضْل جَنِيباً؛

وكَتَب له من شَرَف الاكتساب والانتساب حَديثًا وقديمـا ؛ وألقىٰ إلىٰ يده قـلم كفاءة وأمانة كان كَرَمُها للآملين خصيبًا وكان قلمُها للخائنين خَصيما ؛ كم وفّر به المصالحَ فوفّى ، وكم جمع بهمّته المحاولة مالًا بجهّز به من جُنْد الدّعاء صفًّا ؛ كم سَرّ بمناقبه سَراة سَلَف مامنهم إلّا جَوادٌ لا يَرضىٰ فى سَبْق المكارم بحاتِمه ، وكاتبٌ يكبُر عن قول الواصف : إنّ ياقوتا فى فصّ خاتَمه ؛ ورئيسٌ هو أجلُّ ما أهدتْ شيرازُ إلىٰ دِمَشْق من عالى طراز الفضْل وعالِمه .

فليباشِرْ مافُوّض إليه بعزم لاتُفَلّ مَضارِبُه ، ورأى لاتأفُل كَوا كبُه ، ومَعْدِن وَفاء بالمَنْصِب لا تبرح لجُنَـاة الخيانة مَهالِكُه ولجُنَاة الجنـان مطالبُه ، ناظرًا فى حُسْن وظيفتها باجتهاد لا يَمَلُّ من النَّظَر ، مُثمِرًا لأوقافهـا بغُصْن قلَمِه الذى لاينكر لأصْله الصّائب أطايبُ الثمَر ، مُلاحِظًا لمَبانى هـذا الجامع بسعادته : وإنّ السّعادةَ لتلحَظ الحَجَر ، صارفًا لذوى الاستحقاق مُستحَقّهم كما عَهِدُوا من إمام بَراعته المُنتظَر ، مجتهدًا علىٰ أن يُرضِىَ الوَظيفةَ والقوم ، مُعينا عَدوىٰ أنامله الخَمْس علىٰ عَدَدها من فريضـة اللّيلة واليَوْم ؛ عالمـا أنّ الله تعالىٰ قد أحْيا هـذا الدّيوانَ فإنّه كما علِم أصْلٌ فى بابه ، آمرًا بمـا يقترح لنظام هذا الدّيوان وكُتّابه ، متفقّدًا حال من إذا عَمّر دواةً فى وَقْف كانت سَبَبًا لعُمْرانه أو سَببًا ــ والعياذ بالله تعالىٰ ــ لخرابه ، مُطالبًا من ظَنّ أنّ حسابَه يُهمَلُ فى دَهْر هذه المباشرة «فكان حِسابُ الدّهر غيرَ حِسابِه» ؛ مُتخيِّرًا من الكُفاة كلّ مأثُور الفَضيلَه ، ومن الأُمَناء كلّ مأمُون الرّذيلَه ، ومن القُوّام كلّ من لايقْعُد عن الواجب ، ومن الوَقّادين كلّ من لايُعابُ بطُول الفَتيله ، جاعلًا تقْوى الله تعـالىٰ فى كلّ ما يأتى ويذَرُ سائقَه إلى الفَوْز ودَليلَه ؛ والله تعـالىٰ يُمِدّه بالسداد ، ويَصِلُ مَفاخِرَه بالسَّـنَد ويحرُس شَرَفَ بَيْته من السّناد ، ويجعلُ كلّ مَنْصِب كريم باسْمه وقلَمه كما قال الأوّلُ : «رَفيعَ العِماد طَويلَ النِّجاد» .

* * *

وهذه نسخةُ توقيع بنَظَر مدرسة الشيخ أبي عمر، من إنشاء ٱبن نُباتة، كُتب به للقاضى «تقىّ الدين» بالجناب العالى، وهى :

الحمدُ لله الذى عَمَر عَهْد التُّقَى بتقيِّه ، وأقرّ نظَرَه بمشاهدة أبيض العِرْض نَقيِّه ، وأخصب مَنازِلَ الأولياءِ بمن ينُوب تَثْمِيرُه وتَدْبيرُه عن الغَيْث مَنابَ وليِّه ، ومَن إذا شَهِد مقامُ الزُّهَّاد بمعْروفه شَهِد سَدادُ العَزْم بسَريِّه .

نحمَـدُه على جَلِيِّ اللُّطف وخَفِيِّه ، ونشهدُ أنْ لا إله إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةَ وافِى الحقِّ و فيِّه ؛ ونشهدُ أنّ سيدَنا محمّدًا عبدُه أكْرِمْ بعَبْده ونَبِيِّه ، ورَسولِه وصَفِيِّه ، صلّى اللهُ عليه وعلى آله وصَحْبه صلاةً يمْزُجُ أرَجُها كافُورَ صباح النهار بمِسْك عَشِــيِّه .

و بعدُ ، فخيرُ النظر ما كان به الثَّوابُ مأْمُولا ، والعمَلُ مَقْبولا ، والآخرةُ للناهض فيه خيرا من الأُولى، وتَخَيُّرُ الأكْفاءِ لمناصبِه الدِّينية سَبَبًا لخير الدّارَيْن مَوْصُولا .

ولـمّا كانت المدرسة الصالحية بجَبَل الصالحية المعروفة بالشيخ العارف أبِى عمر: رضى الله عنه وأرضاه، وسَقَى سَبَلُ الغيث آثارَه الطاهِرَةَ وثَرَاه؛ مما يتعيّن فى مصالحها حُسْنُ النّظر، و يتبيّن فى القيام بأمْرِها فَضْــلُ الآراء والفِكَر؛ إذْ هى زاوية الخـير النافعه ، ومدرســةُ الذكر الجامعه ، وعُشُّ القُرآن المترنِّمــةُ أطْيارُه بخفَقان القُلُوب الخاشعه ؛ وصُفَّةُ الفقراءِ الذين لا يسألُون النّاس إلحافا ، والأصْفياءِ من الطَّمَع الذين لا يتقاضَوْن الدهر إنْصافا و إن صَافَى؛ ومُرتَكَضُ سوابق الأعمال والأقوال، ومَقَرُّ

القُرَّاء والقِراءَة علىٰ ممرّ الليالى الطوال، ومَعْدِنُ التِّلاوَةِ المأْثُور غَنَاؤُها فى ذلك الجَبَل وما كُلُّ المعادن ولا كُلُّ الجبال؛ والبِنْيَةُ لله وتحتاجُ مَن ينظرُ بنُور الله فى وَقْفِها، ويحفظُ مَسالكَ جَمْعِها وصَرْفِها، ويُنمِّى حالَ درْهَمِها بتَدْبيرِه الوَافِى : فرُبَّما أبقَتْها الأحوالُ منه علىٰ نِصْفِها .

وكان فلانٌ ممّن لحَظَ أُمورَها علىٰ بُعْدٍ فشُغِفَ الملْحُوظُ باللّاحِظ، وحَفِظَها علىٰ نَأْيٍ فكأنّما رَوتْ بالإجَازة عن الحافظ؛ وأدارَ عليها من رَشَفَاتِ قلمه نَغْبَةَ السَّاقِى، وأنْهلها شَرْبةً مضىٰ بها ما مضىٰ مِن تَعدُّد المال: وفى الجرائد باقٍ يطلبُ البَاقِى؛ وسأل أهلُها بعد ذلك ملازَمَتَه للنَّظر فلزِمُوا، ورَفَعُوا قِصَصَهم فى طَلَبه لهذه الوظيفة فجَزَمُوا؛ وكَيْف لا؟ وهو نِعْم الناظرُ والإنسان، وفى مصالحِ القَوْل والعَمَل ذُو اليَدَيْنِ واللِّسان، وذُو العزائم التى تَقيَّدتْ فى حُبِّه الرُّتَبُ: "ومَنْ وَجدَ الإحْسَانَ"؛ والمتقدِّمُ فِعْلُه ورأْيُه فى العاجل والآجل، والمأْمونُ الذى يُعزىٰ إلىٰ عقيلة نسبة الرشيد ولا عَجَب أنْ يُعزَى المأْمونُ إلىٰ مَرَاجل(١)، كَمْ جَرتْ ألْسنَةُ الأوْقاف بأوصافه، وكَمْ رَوَى الجامعُ الصحيحُ خبرًا عن مُسَلَّم عَفافه، وكَمْ جدَّد لِبنائه زُخْرُفًا بعدَ ما كاد نَادِبُ الرُّسومِ يَقِفُ علىٰ أحْقافه؛ كَمْ وَفَّر على الأيْتام ميراثَ وَفْرِها، وكَمْ قال آختيارُ الملوك البَاقِيَة : «لأشْكرنَّك ماحَيِيتُ» فقال مَاضِى الملُوكِ ذَوى الأوْقاف : «ولتَشْكُرَنَّك أعْظُمى فى قَبْرِها» ـ فاقتضَى الرأْىُ أنْ يجابَ فى طَلَبه المُهِمِّ سؤالُ القَوْم، وأن يتّصلَ أمْسُ الإقبال باليَوْم؛ وأن تَبْلُغَ هذه الوظيفةُ أمَلَها فيه بعد مامَضتْ عليها من الدَّهر مَلَاوَه، وهذه المدرسةُ التى لولا تَدارُكُه لكانتْ كما قال الخُزَاعِىُّ : «مَدَارسُ آيات خَلَتْ من تِلاوَه» .

---

(١) يشير الى المأمون بن هرون الرشيد العباسى وأمه مراجل .

ولذلك رُسم بالأمر الشريف ـ لا زال يُراعى مصالح المؤمنين ـ أن يفوَّض إليه النَّظرُ على هذه المدرسة المعموره، وأوقافها المبروره؛ إجابةً لسؤال مَن فيها من جماعة الفُقَراء ورَغْبتهم فيه، وارْتقابهم لعزْمه الذى إذا نَظَر حالَها الأوّل تَلا فيه تَلافيه؛ على أنْ يتّبع فى أمْرها شَرْطَ الوَاقِف برَأيٍ غيرِ قاعِد، وإن كان لا يزيد فيها على أرْبعمائة نَفرٍ إلّا أن يَزِيدَ رَيْعُ الوَقْف وهو ـ إن شاء الله ـ ببركته وهمّته زائد.

فلْيباشِرْ ما فُوّض إليه مباشرةَ مَن إذا بَدَأ أعاد، وإذا دُعِىَ لمثل هذا الحال الضَّعيف طَبَّ وعَاد، مثمرا لمالها ـ على عادة غُصْنِ قَلَمِه الأخْضَر ـ أثمارا، مُسْتخلِصًا للبَواقِى من أرْبابها التى تَنْهبُ العينَ وتَدّعى لفَترَاتها انْكسارا؛ قائلًا فى حال هذه المدرسة بالعَطْف، مُساوِيًا فى المُواسَاة بين فُقَرائها عند الميزَان والصَّرْف، نَازِلًا بنُور بِشْره ووُدّه بينهم منازِلَ القَلْب والطَّرْف؛ مُجهِّزًا لجَيْش عُسْرَتِهم فإنّهم جمع للتّلاوة والصلوات، مُتَطلِّعًا لخبَرِهم فإنّهم أجْنادُ صُفوفِ الأسْحارِ وسِلاحُهم الدَّعوات؛ وتَقْوى اللهِ تعالى مُشْتقٌّ منها اسْمُه فلْتكُنْ شَقِيقَةَ نفْسه فى الخَلَوات؛ والله تعالى يحفظُ عليه حَظًّا نَفِيسا، وقَدْرًا للنجوم جَلِيسا، ويُحْيى به مَيّتَ الوظائفِ حتّى يقالَ: أسُلَيمانُ أنت أمْ عِيسى؟ .

* * *

وهذه نسخةُ توقيع بخَطابة الجامِع الأُمَوِىّ، من إنشاء ابنِ نُباتة، كُتِب به باستمرار القاضى تاج الدين «بالجناب العالى» وهى:

الحمدُ لله الذى رفع للمنابرِ رأسًا باسْتِقرار تاجِها، وجمع لصُدُور المحاريب شَمْلًا بعوائد ابْتهاجِها، وزيّن مواقعَ النِّعم بالتّكْرار كما تُزانُ لآلِئُ النِّظام بازْدِواجِها، وبيّن مطالِعَ الفَرَج بعدَ الغمّ: وما الدّهْرُ إلّا لَيْلُ غُمّة ثم صُبْحُ انْفراجِها.

نحمَدُه على معادِ الآمال ومَعَاجِها ، ونشهدُ أنْ لا إله إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تَمشى البصائرُ إلى الحقِّ بِسراجِها ، ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه القائمُ على المنابر لمداواة الفُهُوم وعِلاجِها ، ومُداراة الخُصوم وحِجَاجِها ، القائلُ له تأديبُ ربِّه : (وٱصْبِرْ وما صَبْرُكَ إلَّا باللهِ) آيةٌ يَسْرِى القَطنُ على مِنهاجِها ، صلّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبِه بُحُورِ النِّعَم والنِّقَم عَذْبِها وأُجاجِها ، وبُدُورِ مساجِدِ التُّقىٰ ومَشاهِدِ الوَغَىٰ عند عَجاجِ لَيْلِها ولَيْلِ عَجاجِها ، صلاةً كصَلاتِهم آمنةً من خِداجِها ، ما مدّتْ نَفَحاتُ الروض إلىٰ مخالطة سيرهم يَدَ ٱحتِياجِها ، وما زَجتْ معاليهم النُّجومَ فحُسْنَ بكأس الثُّريّا شرفُ ٱمتِزاجِها .

وبعدُ ، فإنَّ أَوْلَى الناس باستقرار مَناصب الدين العَريقَه ، وٱستمرارِ عُلُوِّ الدّرجاتِ : إمّا من المراتب مجازًا وإمّا من المنابر حَقيقَه ؛ وٱستمطارِ الوظائف بعيادة فَضْله ولا سيّما أعوادُ الخَطابَه ، وٱستبصارِها بلَفْظه ولا سيّما إذا سُلِّمت الرايةُ العباسيّةُ من نُطْقه لعَرَابَه ــ مَن دَرَجَ من عُشِّ فُروعِها خافقًا عليه جَناحَا عَلَمَيْه ، وصَعِد إلىٰ عَرْشِها مُقَبَّلةً بنَظَراتِ الجُفُونِ المتسامية آثارُ قَدَمَيْه ؛ وأَعْرَق نَسَبُه فى مَوْطِن مكانِها المَكين ، وبَلَغ مقامُه مقامَ سَلَفِه أربعين سنةً فى الطُّلوع بأُفُقِها المُبِين ، وقال ٱستحقاقُ ميراثِه : "وماذا تَدَّرِى الخُطَباءُ مِنِّى"[1] * "وقد جاوَزْتُ" بمقام السَّلَف "حَدَّ الأربعين" ؛ ومَن إذا سُمِعتْ خَطابَتُه قال الحَفْل : لافُضَّ فُوه ، ولا عُدِمَ البَيْتُ ولا بَنُوه ، ومن إذا طلَع دَرَجَ المِنْبَر قال المُسْتَجْلُون لِسَناه : أهَلَّ البَدْرُ؟ قيل لهم : أخُوه ؛ ومَن إذا قام فَرِيدًا عُدَّ بألْفٍ من فرائد الرجال تُنَظَّم ، وإذا أقبل فى سَوادِ طَيْلَسانه واحدًا قيل : جاءَ السَّوادُ الأعظم .

(١) الرواية الشعراء وهو شطر بيت لسحيم الرياحى

ولما كان فلانٌ هو معنىٰ هذه الإشاره، وفحوىٰ هذه العبارَه، وصدر هذا التَّصدير : ومَن سواهُ أحقُّ بصفات الصَّداره؟ ، ومن إذا ضُرب المَثَلُ بالخطابة النُّباتيَّة فى حَلَب قال لخطابته بدمشق : «إيَّاكِ أعني فاسمعي ياجارَه»، ومن نشأ فى محلِّ نخار طيب المعاقد، ومَن وضع رِجْلَه على المنابر ومدّ عزمه إلى الفراقد، ومن شمَّر فى أوائل عُمره إلىٰ العَلْياء وَحيدًا وخَلَّف دُونها من أنداده ألفَ راقد؛ ومَن إذا صَعِد لخطابة أنشد الحَفَدَةُ :

ولمّا رَأيتُ الناسَ دُون مَحلِّه * تيقَّنْتُ أنَّ الدَّهْرَ للنَّاس ناقد

وكانت خطابة الجامع الأُمويّ المعمور بذكر الله تعالىٰ بدمشق المحروسة هو الذى[(١)] كلُّ بَنانٍ إلىٰ حُسْنه يُشير، وكلُّ ذى مَذْهب إذا عاين تصنيف وَضْعه قال هذا لفقه المحاسن هو الجامعُ الكبير؛ ميزابُه (؟) المسلم لرشده، المُعْلَم بطرازَى نَسَبه ورشده، المقدّم ليد نصرته سَيْف خطابة لايخرجُ بيَد الأستحقاق عن حَدِّه؛ تكاد المنابرُ تَعُودُ للنَّشأة الأُولىٰ طَرَبًا لسَجْع بيانه، يُسْهِب ويقولُ الناس لَيْته لا أختصر، ويَوَدُّونَ لو لَبِسَ كلَّ يوم سَوادَ أُهْبته وزِيدَ فيه منهم سَوادُ القَلْب والبَصر؛ وعَارضَهُ من العظماء الكُفاة مَن نَوىٰ بَدَلًا فأبىٰ حُنُوُّ الدَّولة إلا عَطْفا، ونَازلَه وَاردٌ من القَضْله ولكن أنزل اللهُ عليه مع القَضاء لُطْفا .

ولذلك رُسم بالأمر الشريف أنْ يستقرَّ علىٰ عادته فى خَطابَة الجامع المذكور، وما يتعلق بذلك : من تَدْريس وتَصْدير، وتَقْرير وتَقْدير، وتأْثيل وتأْثير؛ ومحكوم بالتفويض إليه ومُحكَّم، ومَرْسوم لا يُغَيِّر عليه ما رُسم به وما يُرسَم؛ وأن يُمتِّع دليلُ

(١) الكلام هنا غير مستقيم ولعل الصواب «ولما كان فلان هو معنى الخ وكان الجامع الأموى هو الذى الخ تعين أنه المسلم ليده .

الاعتراض ويُدْفع، ويُكَفّ حتّى تتصل العنايةُ بهذا البَيْت الذى هو من بيوتٍ أذن الله أن تُرْفَع؛ وحتّى يُعلَمَ أنّ قوماً أحسنوا صُحْبة الدُّوَلِ فسَعِدُوا، ونبّهوا عهود الخدمة لأعقابهم ومَجَدُوا، وحتّى يقولَ هـذا النَّجلَ الظافرُ بعد آبائه وأخيه : لَيْتَ أشْياخى بَبَدْرٍ شَهِدُوا .

فليُعِدْ حديثَ مَنْصِبِه القديم ، وليَقُمْ إلى تَشْنِيف الأسماع من نَثيرِ لفْظه بأبهى من العقْد النظيم، وليُفُكَّ أسْرَى القُلوب بروائب إشارَتِه : فإنّه «الفاضل عبدُ الرّحيم»؛ وليُمْسِك العيونَ بوَعْظه وإنْ أقرَّها بمُشاهَدَتِه، وليَحْرِصْ على فخْر الدولة الشريفة به كما فَخَرَ سَيْفُ الدَّوْلَة بابن نُباتَه .

ووصايا هذه الرُّتبة متَشَعِّبةٌ وهو على كلِّ حالٍ أدربُ وأدْرَى بهـا ، وما استقرّت على قَبْض سيوفها يَدُه إلّا ورجَعت الحُقوقُ إلى نِصابِها ؛ وكذلك ما هو معلوقٌ بوظائفه : من مَدارس عُلُوم، ومجالِس نَظَرٍ طالما نظرَ فى كُتُبها وهو الصّحيحُ النَّظْرةَ فى النُّجوم ـ لا يَحْتاجُ فيها إلى مُطالعة الوصايا فإنّه من كلِّ أبوابها دَخَل ، ولا يَمُرُّ بها على أُذُنه فَمُ المُبَلِّغ فإنّها من فَمِه أحْلَى ومن تَسْويغ فَمِه أحَلّ ؛ ولكنّ التَّذْكارَ بتقوى الله تعالى فيما يأتى ويَذَرُ أُسٌّ جَليل ، ووَجْهٌ تتفاضَلُ وُجُوه الألفاظ من ذِكْره على لفْظٍ جَميل، وألفاظُ الخَطيبِ المُتّقِى إذا وصلتْ من القَلْب إلى القَلْب وفتْ بِرَىِّ الغَليل؛ والله تعالى يُمِدُّه بالطّاقة ، ويُجْرِيه على عوائد إسْعاده وإسْعافه ، ويُرْوِى بصواب كَلِمِه الأسْمـاع وبصَوْب النّعام عُهُودَ أسْلافه .

* * *

وهذه نسخةُ توقيعٍ بتَدْرِيس المدْرَسة المسرورية بدمشق، من إنشاء الشّيخ صلاح الدين الصَّفَدِىّ ، كُتب به للشيخ « تَقِىّ الدين السُّبكى » بـ « المقرّ الكريم » وهى :

الحمدُ لله الذى جعل تَقِيَّ الدِّينِ عَلِيًّا، وأوْجده فَرْدًا فى هــذا المَلاَ فكان بكلّ علمٍ مَلِيًّا، وأظهر فضلَه الجليلَ فكان كالصَّباح جَلِيًّا .

نحمدُه على نِعَمِه التى تكاثرتْ فأخجلَت الغمائم، وتوفَّرتِ الألسنةُ على حَمْده فتعلَّمتْ أسجاعَها الحمائم. وتأثَّرت بمُوافقها الأحوالُ فأخملت زَهْر الخمائل فى الكمائم . ونشهدُ أن لا إله إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً لا شُبهةَ تُعكِّر ما صَفَا من لُجَّتها، ولا رِيبةَ تُوعِّر ما تَسهَّلَ من مَحَجَّتِها ، ولا ظُلْمــةَ باطلٍ تكدِّر ما أنارَ من حُجَّتِها . ونشهدُ أنَّ سـيدَنا محمَّدًا عبدُه ورســولُه الذى جُمعتْ فيه مكارمُ الأخلاق ، وتفرَّد بمزايا منهـا أنَّه حَبيبُ الخَــلَّاق ، وشارَكَ الأنبياءَ فى مُعْجِزاتهــم وزاد عليهــم بمـا أُبيحَ له من خَمْسٍ لم يعْطَهُنَّ غيرُه منهم على الإطْلاق . صــلَّى اللهُ عليــه وعلى آله وصَحْبه الذين تفقَّهوا فى الدِّين ، وحازُوا الأُجورَ لمَّـا جرَوْا إلى جَزِّ الغَلاصِم من المُلْحدين، وأَنْزلُوا لمَّـا نازلُوا أبْطالَ الباطلِ والمُعتَلِين من المُعْتَدين ، صلاةً يفُوحُ نَسيمُ رَيَّاها الْمتأرِّج ، ويلُوحُ وَسيمُ مُحيَّاها المتضَرِّج ، ما فرَّجَ العلماءُ مَضايِقَ الجدالِ فى الدُّروس ، وقبَّلتْ ثُغورُ الأقلامِ وَجَناتِ الطُّروس ، وسلَّمَ تسليمًا كثيرا إلى يوم الدِّين .

وبعــدُ ، فإنَّ المــدارسَ ــ عَمَرها اللهُ تعالى بالعلماء ــ لِوَاقفيها شُروط ، ولأهْلها هِمَمٌ أنزَلُهـا بالنجوم مَنُوط ، يغُوصُونَ بُحورَ البُحوثِ فى طَلَب اللآلى ، ويقْطعُون ظُلَلَ الظَّلامِ بالسَّهَر فى حُبِّ المَعالى ، سيَّما المدرسةُ المَسْرُورِيَّة : فإنَّ واقفَها ــ أثابَه الله تعالى ــ شَرطَ فى المُدَرِّس بها شُروطًا قلَّ من يُقِلُّها ، أو يَتحلَّى بعُقُودِها أو يحُلُّها ، وكان مَفْرِقُها قد تَحــلَّى بتاجٍ تَجوْهَر ، ومُغْلَقها قد ضَمَّ منه فاضلًا تمهَّدتْ به قواعدُ المَذْهَب لمَّـا تمهَّر ، فأعرضَ عنها، ونَفَض يدَه منها ، رَغْبةً فى الإقبال على شأنه ، وانْقطاعًا إلى مَالِكِ الأمْرِ وديَّانه ، فخَلا رَبْعُها مــن أُنْسه ، وكادتْ تكون طَلَلًا بعد دَرْسه .

وكان فلانٌ ــ أسبغ اللهُ ظلَّه ــ قد وافق بعضَ ما فيه شرطُ الواقف ، وشهد بنشر علومه البادى والعاكف ، وطاف بكعبة فوائده كلُّ طائف ، ينصرف عنه باللطائف ؛ أمّا "التفسير" فإنّه فيه آيه ، وأمّا "الحديث" فإنّه الرُّحلة فى الرِّواية والدِّرايه ؛ وأمّا "الأصول" فإنّه زار بـ«الرّازى» حتّى آختفى ، وأمّا "الفقه" فلو شاء أملى فى كلّ مسألة منه مُصنّفا ؛ وأمّا "الخلاف" فقد وقع الاتّفاق على أنّه شيخُ المذاهب ، وأمّا "العربية" فـ«الفارسىُّ» يعترف له فيها بالغرائب ؛ إلى غير ذلك من العلوم التى هو لها حاملُ الرّايه ، وله بالتّدقيق فيها أتمُّ عِنايه ، وإذا كان أهل كُلِّ علمٍ فى المَبادى كان هو فى الغايه .

فلذلكَ رُسم بالأمر العالى ــ أعلاه الله تعالى ــ أن يفوّض إليه كذا وكذا : وَضْعًا للشّىء فى محلّه ، ومنعًا لتاريخ ولاية غيره أن يفجأ فى غير مُسْتَهَلّه ؛ فالآنَ أمسى الواقفُ مسرورًا على الحقيقه ، والآنَ جرى الخلافُ فيها على أحسنِ طريقه ؛ وهو ــ أسبغ الله تعالى ظلّه ــ أجلُّ خطرًا من أن يذكَّر بشىء من الوصايا ، وأعظمُ قدْرًا من أن تُدَلّ ألمعيّتُه على نُكَتِها الخفايا ؛ لأنّه بركةُ الإسلام ، وعلّامةُ الأعلام ، وأوحد المجتهدين والسّلام ؛ والله تعالى يمتّع المسلمين ببقائه ، ويُعلى درجات آرتقائه ؛ والخطُّ الكريم أعلاه الله تعالى أعلاه ، حجّةٌ فى ثبوت العمل بمقتضاه ؛ إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخةُ توقيع بتدريس المدرسة الناصرية الجوّانيـة ، من إنشاء الصّلاح الصّفَدى أيضا ، كُتب به للقاضى ناصر الدين «محمد بن يعقوب» كاتب السّرّ يومئذ بالشام ، حين عاد إلى تدريسها بعد آنفصاله عنه ، بـ«المقرّ الكريم» وهى :

الحمـدُ لله الذى بَدأ النِّعم وأعادها ، وأفاءَ المِنَنَ وأفادَها ، وزَان المناصِبَ السَّنِيَّةَ بمن يَليها وزَادَها ، وشادَ عِمادَ المَعالى بأرْبابِها وصانَها عمَّا دَهىٰ .

نَحمَده علىٰ نِعَمِه التى بدأتْ بالمعروف وتَمَّمتْ ، وخَصَّصتْ بالإحسان وعَمَّمتْ ، وبَرَّأتْ من النَّقائِص وسَلَّمَتْ ، وفَلَّتْ بالألْطاف الخَفِيَّة صَوارِمَ الحوادث وثَلَّمتْ . ونشهـدُ أن لا إلٰه إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تُضيءُ بهـا الحَنادس ، وتَزْكُو بأنْوائِها مَنابِتُ الإيمـان والمَغارِس ، وتَسْـمُو بأقْتنائِها إلىٰ عِلِّيِّينَ النفوسُ النَّفائس ، ويُرْغِمُ المؤمنون بإعلائِها من الكُفَّار المَعاطِس؛ ونشهدُ أنَّ سيدَنا محمَّدا عبدُه ورسولُه الذى تَمَّم للناس مكارِمَ الأخْلاق ، وأخجلَ بجُودِ كَفِّه الفَيَّاض صَوْبَ الغَيْث الدَّفَّاق ، وفَضَح البَدْر اللَّيَاحَ فى الدُّجىٰ بنُورِ جَبِينِه البَرَّاق ، وتَقدَّم النَّبيين والمُرْسَـلين فى حَلْبَة الشَّرف علىٰ جَوَادِ فَضْـله السَّبَّاق ؛ صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبِـه أعْلىٰ مَن نَصَبُوا للهُدىٰ أعلاما ، وأرْقىٰ من أصْبح العِلْمُ لفَضْلِهم البَاهِرِ رَقَّاما ، وأحْلىٰ من كان الزمانُ بوُجودِهم وجُودهم للعُفَاة أحْلَاما ، وأقوىٰ من كان الإيمـان بهم إذا آسْتَنْجدَ على الكُفْر أقْواما ، صلاةً لا ينْفَدَ لهـا أمَد ، ولا يَفْنَىٰ لهـا مَدَد ، ما شَبَّ بارِقٌ ونَجَد ، وشَفَىٰ الغَمامُ طَرْف زَهْرٍ من الرَّمد ، وسلَّمَ تسليمًا كثيرا إلىٰ يوم الدِّين .

وبعدُ ، فإنَّ مدارِسَ العِلْمِ الشريفِ لها الذِّكْر الخالِد ، والشَّرفُ الطَّارِفُ والتَّالِد ؛ بها تَتَبيَّنُ فَوَارِسُ الجلادِ فى مَضايِق الجِدَال ، وتتَجلَّىٰ بُدُورُ الكلام فى مَطالِع الكَمَال ، وتَبْدُو شُمُوسُ الجمال فيما لها من فَسِيحِ المجال ؛ والمدْرسةُ الناصرية ــ أثاب اللهُ تعالىٰ وَاقِفَها ــ هى الواسـطةُ فى عُقودِها ، والدُّرَّةُ الثَّمِينة بلا كُفْءٍ لهـا بين قِيَمِ نُقُودِها ؛ قد تَدبَّجَ فيهـا البِناء ، وتأرَّج عليها الثَّناء ، وتَخـرَّج عنهـا الحُسْنُ فإنَّ له بها مَزيدَ آعتِناء .

وكان المقرُّ الفلانىُّ قد نَفَض يَدَه من عِنَانِها، ورَفَض عن اختيار بهاء جِنانها، وثَنَى طَلِبَتَه عن مُجاوَرتها، ورَمَى أُمنيَّته من مُجاوَرتها؛ فساءَ مَن بها من أهل العِلْم فِراقُه، وأوحَشَهم وجْهُــه الذى أخجل البُــدورَ رَونقُه والبحرَ اندفاقُه، وفقدوا مكارمه التى ما سمع «السَّمْعانىُّ» بمثلها ولا وصلت إلى «الصُّولىِّ» ولا ضَمَّتها أوراقُه .

فلذلك رُسم بالأمر العــالى أن يُعاد إلى تدريسها : لأنَّ العَوْدَ أمدحُ وأحمــد، والرُّجوعَ إلى الحَقِّ أسعفُ وأسعد .

فليباشِرْ ما فُوِّض إليه مباشرةً أَلِفَتْ من كمال أدواته، وعُرِفَتْ من جمال ذاته؛ ناشِرًا أعلامَ عُلومه المتنوِّعة، وفضــائله التى تقصُر عن الثَّناء عليهــا أنفاسُ الرِّياض المتضوِّعة؛ فلو عاصَره «ابن عَطيَّــة» أمسك عنه فى تفســيره[1]، أو «صاحبُ الكَشَّاف» لغطَّى رأسَــهُ من تقصيره؛ أو «الرَّافعىّ» لأصبحتْ رايةُ رأيه فى الفقه خافضَــةً رافعه، أو «النَّووىّ» رحمــه الله لاستعار منه زَهَراتِ روضتِه اليانعه؛ أو «الآمِدىّ» لمــا امتدَّتْ له معه فى أُصوله خَطْوَه، أو «ابنُ الحاجِب» لمَــا كان له مع ابن الحاجب حُظْوه؛ أو «ابنُ يَعيش» لمــات ذِكْرُه فى النَّحوِ فكان فَقيدا، أو«ابنُ مالك» لأمسى "تَسْهِيلُه" تعقيدا؛ أو«الشِّبْلىّ» لعلم أنَّه ما شَبَّ له فى التَّصرُّف مِثْلُ شِــبْله، أو «ابنُ عَرَبىّ» لأعرب عن عُجْمَة وما تمسَّك صُوفىٌّ بحَبْله، إلى غير ذلك من إنشاءٍ إنشاءٍ ساد فيه العَبْدَين : «عَبْدَ الحميد» و «عَبْدَ الرَّحيم»، وتَظْمٍ كُلَّمــا نَظْمأُ إلى رَشْــفه طافتْ علينا قَوافيه بكأسٍ مِزاجُها من تَسْنيم، وعلى الجُملة فتفصيلُ معارِفه يَضيقُ عن فَضِّها فَضاءُ هــذا التَّوقيع الكريم، وسَرْدُ محاسنه لا تتَّسعُ له حَواشِ هــذا البُرْدِ الرَّقيم؛ ولكنْ أشارتْ أَنْمُــلَةُ القلَمِ منها إلى نُبْذَه، وعلِمْنا أنَّ القلوبَ تَشْتاقُ إلى أوصافِه فَلَذْنا لهــا من ذلك فِلْذه .

---

(١) لعله «عن تفسيره» .

وأما الوصايا فمثله لا يذكّر بشىء منها ، ولا يقال له : دع هذه الودعة وهذه الدرة صنها ؛ لأن الأمر والنهى له فى ذلك ، وإذا أطلع بدور وصية ضوأ أحوال الدياجى الحوالك ؛ ولكن تقوى الله عز وجل ذكرها فى كل توقيع طرازه المعلم ، ونكتته التى طودها لا ينثل وحدها لا يثلم ، فليكن مستصحب حالها الحالى ، مستصعب فراقها الذى يهونه البال البالى ؛ والله تعالى لايخلى ربوع العلم من أنسه ، ويجعل سعده فى غد زائدا كما زاد فى يومه على أمسه ، والخط الكريم أعلاه ، حجة فى ثبوت العمل بمقتضاه .

⁂

وهذه نسخة توقيع بتدريس المدرسة النورية ، من إنشاء الشيخ جمال الدين ابن نباتة ، كتب به لقاضى القضاة «نجم الدين الحنفى» بنزول والده عنها بـ«الجناب الكريم» وهى :

الحمد لله الذى أنمى أهلة العلم فابدرت ، وفروعه فأثمرت ، ونجومه فاستقلت مطالعها النورية وتنورت ، ولآلئه فى بحار اللفظ والفضل فتجوهرت ، وأنهاره التى أخذت فى المد مأخذ تلك البحار فاسترحبت واستبحرت .

نحمده على نعمه التى قرت وقرت ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة إذا خصلها اليقين وفرت ، وإذا نصلها الإخلاص مضت فى أوداج الباطل وفرت ؛ ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الحاكم فى فصل الأقضية لما شجرت ، والناظم درر الإيمان حتى زهت فى أعناق العقائد وزهرت ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه فئة الحق التى ظهرت وطهرت ، وعصابة الإسلام التى سرت خلفها

(١) مستعار من نصل السيف والرمح والسهم ركب فيه النصال وهو حديد .

سَرايا الدِّين نهاجَرتْ فى الله ونَصَرتْ، صَلاةً طَيِّبةً تَحْلُو إذا تكرَّرتْ، وتَحِيَّةً باقيةً تُشْرِقُ شَمْسُها إذا الشَّمسُ كُوِّرَت، وتَعبَقُ نَفَحاتُ نَشْرِها إذا الصُّحُفُ نُشِرَتْ .

أما بعدُ، فإنَّ مَنازِلَ العِلْم من خَيْرِ ما أبقى الآباءُ للأعْقاب، وأكْلِ ما ذُخِرَ لنُجَباءِ الأبْناءِ علىٰ مَدَى الأحْقاب ، وأعْدل ما شَهِدَ بِلِسانِ حاله المُتَمَثِّل أنَّ وَكْرَ العُقابِ لابنِ العُقاب ؛ وكانت المدرسةُ النُّورِيَّة الكُبرىٰ بِدِمَشْق المحروسةِ هى الواسطةُ والمدارسُ دُرَر ، والصُّبْحُ وأوْطانُ العِلْمِ غُرَر؛ ومنْزِلةُ الحكم الأمْنَع، وبيْتُ القَضاء الذى أذِنَ اللهُ لقَدْرِه أن يُرفَع ، ومكانُ ذِى اليَدِ الماضى سَيْفُ حكمه إذا قُرِعَت العَصَا لذِى الإصْبَع ؛ وذَاتُ العِمادِ التى ٱدَّخرها لنَجْله ، وأعَدَّ فَضْلها فى العِبادِ والبِلاد لفَضْله ؛ وكان ذلك (١) قد نَزَلَ لولده فلانٍ عن الحُكْم علىٰ هذا الحُكْم، ونطق بمَزِيَّةِ الاستحقاقِ وقُلُوبُ بعْض الأعداءِ صُمٌّ بُكْمٌ ؛ ورَغِبَ ـ أجَلَّه اللهُ ـ فيما يَرغَبُ فيه من الانقطاع ذُو السِّنِّ (٢) العالى، والقَدْر الغالى، وٱنتظم تَقْليدَه الشريفَ فكان أجودَ حِلْيةٍ علىٰ أحْسنِ جِيدٍ حَالِى ؛ ثُمَّ التَّوقيعَ بتَدْريس هذه المدرسة التى زُكِّىَ فى أهْلِ الفَضْل شهيدُها، ونَظَرِها الذى خَلَفَ فى حُكْمه ولىُّ عَهْدِه عن أبيه : فللّه أمينُ هذه الخلافة ورَشِيدُها .

ولذلك رُسِم بالأمرِ الشريف أنْ يفوِّض إلىٰ فلانٍ تَدْريسُ المدرسة النُّورِيَّة ونَظَرُها : لاستحقاقه لها بشُفْعَةِ مَنْصِب الحُكْم العزيز، ومَنْشَإِ الفَضْلِ الحَرِيز، ووجيز النزول المكتَتَب، وقَبُول هِبَةِ والده الذى يعتادُ أن يَهَبَ الجليلَ لمن يَهَب ؛ وتَشْرِيفه بإنعامها النَّفيس ، وإجْلاسِه بها علىٰ مَرْتَبَةِ حُكْمٍ وبِساطِ نَظَرٍ وسَجَّادةِ تَدْرِيس ؛ وعِلمًا بأنَّ نجمَ ذلك النَّيِّرِ أوْلىٰ بهذه المنازل ، وشِبْلَ ذلك الأسَدِ أحقُّ

(١) لعله «وكان ذلك الامام الموصوف» أى والد نجم الدين .

(٢) نص أهل اللغة على أن السن بمعنى العمر مؤنثة .

بهذا الغَاب الماثل؛ وأنَّه كوكبُ هذا المَذْهَبِ المُنير، وإمامُ جامِعيَّه المعروفين : كبيرٍ وصَغيرٍ؛ وصاحبُ شَيْبَة العَزْم المقتبل ، والرَّأْيِ المُوفى علىٰ قياس الأمل ؛ وتَجْنيس الجُود والإجادَه ، وتَكْميل بَحْرَي العِلْم والبِرِّ واجتهاد الزِّياده ؛ وأنَّه مِمَّن آتاه اللهُ رِفْعَةً فى القَدْر والاسم ، وزاده بَسْطَةً فى العِلْم والحِسْم ؛ وأحكم بَدِيهَةَ عِلْمه فما تَستوقِفُ الأسماعُ رويَّته ، وأعلاه وعَظَّمه فما هو النَّجْم الذى تَستصغِرُ الأبصار رُؤْيَتَه .

فليُباشِرْ تَدْريسَ هذه المدرسة ونَظَرها بعَزْمه الباهر وَصْفا ، التَّالى بلسان الحَمْد : ﴿وإبراهيمَ الَّذِى وفَّىٰ﴾؛ جاريًا علىٰ أعراقِ نَسَبه المشهور، فائضَ اللَّفْظ والفَضْل فإنَّه بَحْرٌ من البحور؛ مظهِرًا من مَباحِثه التى تقلِّد العُقولَ بأبهىٰ مما تُقلَّد النُّحور، مهتَدِيًا من رَأْيِه ومن بركة الواقِف - رضىَ اللهُ عنه - بنُورٍ علىٰ نُورٍ، واللهُ تعالىٰ يَزِينُ بنَجْمه أُفُقَ السِّياده، ويَزِيدُ فيما وهَبه من الفَضْل إذ كان التَّمامُ يقبلُ زِيادَه .

✤

تَوْقيع بتَــدْرِيس المدرســة الرَّيحانية الحَنَفِيَّة، من إنشاء ابن نُبـاتة ، كُتب به للقاضى «عماد الدين الحنفى» بـ«الجناب الكريم» وهو :

الحمــدُ لله الذى جَمَّل مدارسَ العِلْم بذَاتِ عِمادِها ، وصاحِبِ نَقْلِها واجْتِهادِها ؛ ومُنْشِرِ عَهْدِها ومُنْشئِ عِهادِها ، وواصِــلِ مَناسِبِها التى لو ادَّعاها دُونَه زَيْدٌ لكانت دَعْوىٰ زِيادِها ، ومُفْصِح فتاويهـا علىٰ مِنبرٍ قَلَمٍ اهتز عُودُه ونَفَحَ وأطْرَب : فناهِيكَ بثلاثة أعْوادِها ! .

نحمدُه علىٰ نِعَمِـــه التى قَضَى الحمــدُ بازْدِيادِها ، ونشهدُ أن لا إله إلَّا اللهُ وحده لاشريكَ له شهادةً تُعِدُّها النفس لمَعادِها، ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه هادى الأُمَّة

إلىٰ سبيل رَشادِها ، صلىَّ اللهُ عليـه وعلىٰ آله وصحْبِه بِحارِ العِلْم وأطْوادِها ، ما قامت الطُّروسُ والسُّطورُ لعُيونِ الألفاظِ مَقام بياضها وسَوادِها .

أمَّا بعدُ ، فإنَّ لمذاهبِ العِلْمِ رجالًا يوضِّحونَ طُرُقَها ، ويمدُّون فى المباحث طَلَقها ، ويَعمُرونَ مَدارِسَها ؛ فيالَهَا من ذَاتِ دُروسٍ يكون العُمْرانُ مُعْتلِقَها ومُعْتنِقَها ! .

ولمَّا كانت المدرسـةُ الرَّيحانية بدِمَشْق فى أيدى العُلَماءِ نُخْبةً رَيْحانيَّه ، وشَقيقةَ نَفْسٍ نُعمانيَّه ؛ مأهُولةَ المَنازهِ والمنازلَ بكلِّ ذى فَضْـل جَلِىّ ، وعِلْمٍ مَلِىّ ؛ ووَصْفٍ كريم ، ونفسٍ نفيس يتلقَّاه منها رَوْحٌ وريْحانٌ وجنَّـةُ نَعيم ؛ وخَلَتِ الآنَ من إمامٍ كَرُمَتْ خِلالُه ، وعظُمَتْ خِصالُه ، ومَضَى وتمضِى وما يَبْقَىٰ إلا اللهُ جلَّ عن الحوادث جَلالُه ـ فتعيَّن أن تختارَ لتدْريس مكانَها من يفتخر به المكانُ والزَّمان ، ويتَشيَّدُ بزِيادة عِلْمـه لصاحبِ مذهبها أضعافُ ما شاده زِياد للنُّعمان ؛ من شـيَّد الشريعةَ الشريفـة مَقالُه ومَقامُه ، وعلا عمـادُه إلىٰ عُقودِ الشُّهُب فلله مُرادُه ومَرامُه ؛ من لو عاصره «ابن الحسين» لَحَسُن أن يعترِفَ بقَدْرِه الجليل ، وقال عند محاضرة بَحْثِه كما قال «أبو يوسف» : فصبرٌ جَميل ؛ واستزاد «شمس الشريعة» فكيف «السراج» من لمعه البريقه ، وقال «ابن الساعاتى» : مارأيتُ أرفعَ من هـذا القَدْرِ درجةً ولا أبدعَ من هذا الذِّهْن دَقيقَه .

ولذلك رُسِم بالأمرِ الشريف ـ لازال عاليًا بأمْرِه كلُّ عِماد ، زاهيًا بمحامد مُلْكِه كلُّ ناطِقٍ وجَماد ، أن يفوَّض لفلان ... ... لأنَّه المَعْنِىُّ بمـا تقدّم من الأوصاف الحُلْوةِ إذا تكرَّرتْ ، والمقصودُ بألفاظها إذا تَمنْوَنَتِ الأفهام وتيسَّرت ؛ والمعوَّذَةُ فوائدُ مباحثِـه المفرَّقَةُ بـ «إذا الكَواكِبُ انتثرَتْ وإذا البِحارُ فُجِّرتْ» ؛ وإمامُ المذْهب الحنفىِّ والحُكْمِ الأحْنَفِىّ ، وحَصاةُ القَلْبِ التى تَنْسِف بإشارتها جبال «النَّسَفِىّ» ، ولسانُ النَّظَرِ الذى أشْرَفَ علىٰ بُعْده فاختَفَىٰ فى قُرْبِه المَشْرِقِىّ ؛ وصاحبُ الفُنون وما

وسَقَتْ، وأفنانِ الحُكْمِ والحِكَمِ وما بَسقَتْ، ونُعوتِ الفَضْلِ والفضائِلِ وما عَطَفتْ من البيان ونَسقَتْ .

فلْيَتَوَلَّ تَدْريسَ هــذه المدرســة المعمورةِ مُؤَيَّدَ الولايه، مُجَــدَّدَ البداية حنيفيّتها والنهايه، ســاجِدًا قَلَمُ الفتاوىٰ والفُتُوَّة كلّما تَلا كَرَمُه وَكَلِمُه آيةً بعدَ آيَه؛ مُنْفِقًا من ألفاظه حتّىٰ يَستغنى عن "الكَنْز" وصاحِبِه، ويَرُدَّ فَرعَ المقال على الأصْل وطَالِبِه؛ ويُعرِضَ عن أعارِيضِ "البسيط"، ويُغْرِقَ فى أفْكار وَارِدِه "المحيط". ويمدَّ سماط العلمْ الذى وَفىٰ بعد «القُدُورِىّ» وما خَان، وتَفْخر بقَاضِيها أعظمُ مَدينةٍ فما يضُرُّها فقــدُ «قاضى خان»، وتتذكَّر المَقْدِمِيةُ من طَلَبتِــه فوائد الحَلْقَه، وينتقل الجناب الكريم من تقدِمَتِها إلىٰ ما هو أوفىٰ فى الغَرَض وأوفَرُ فى النَّفَقه؛ والله تعالىٰ يَزيدُ رُتَب العِلْم به سرورا، ويجعلُ له باستطلاعها كِتَابَ حُكْمٍ وحِكَمٍ يلقاه مَنْشُورًا .

⁂

وهذه نسخةُ توقيع بتَصْديرٍ بالجامع الأُموِىّ، كُتب به لقاضى القضاة «علم الدين آبن القَفْصى» قاضى قضاة دِمَشْــقَ بـ«المقرّ الشريف» وهى من تَلْفِيــقِ كُتّاب الزمان . علىٰ أنها بالمدرّس ألْيَقُ منها بالمصدَّر، وهى :

الحمدُ لله الذى أعلىٰ عَلَم أئمّة الدِّين إلىٰ أعلى الغُرَف، وميَّزهم بالعِلْم الشَّريف الذى يَسْمُو شرفُه علىٰ كلِّ شَرف، وأوضَحَ بهــم مَنْهجَ الحقِّ القويم فعَلَا بإرْشادِهم ســبيلُ الهُدىٰ وآنْكشَف .

نحمَــدُه علىٰ ما أفاض من نِعَمه المتواترة كلَّ حِين، ونشكُره علىٰ إحْيــاءِ مَعاهِد المعابِد بمن حَذَا حَذْوَ الأوليــاء المُتَّقين؛ حمــدًا يُظهِرُ الآياتِ المحمَّديّةَ والبراهين، ويَبْسُط ظلَّ مَن هو عن الحقِّ لا يَمِين. ونشهدُ أن لا إله إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له

رَبُّ العالمين ، الذى عَلَّمَ الإنسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ وهو العالم بمـا تُخْفِى الصُّدُورُ ويَعْلَمُ عبادَه المؤمنين ؛ ونشهدُ أنَّ محمّدًا عبدُه ورسولُه الذى أُوتِىَ عِلْمَ الأوّلين والآخِرين ، وكان من دعائه لشَيْبَةَ : « اللّهمّ فَقِّهْهُ فى الدِّين » . صلّى الله عليـه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين عَمِلُوا بمـا علِموا فكانوا أئمّـةَ المسلمين ، والعُمْدَةُ علىٰ أقوالهم التى نقلوها عن خاتَمِ النبيين، علىٰ تَوالِى الأيّام والجُمَع والأشْهُر والسِّنين؛ وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

أما بعدُ، فلمّا كانت أعلامُ العُلماءِ فى الآفاق مَنْشوره، ورُبُوعُ الفوائد بطريقتهم المُثلىٰ معْمُوره، وصُدُورُ المعابِد الشّريفة محتاجة إلىٰ صِلَتِهـا بكُفْئها الفَرْد مَسْرُوره؛ وكان فلانٌ ــ أسْـبغ اللهُ تعالىٰ ظِلاَلَه ، وضاعف جَلالَه ــ هو الذى ملأَتْ مُباشرتُه العُيونَ والأسمـاع ، وانعقدتْ علىٰ تَفَرُّدِه فى عَصْرِه كَلِمـةُ الإجْماع ، واشتَهرَ ذِكْرُه الجميلُ بأنواع المَكْرُمات وأطاعَهُ من مُشكل المذْهَب ما هو علىٰ غيره شديدُ الامْتناع ؛ وأضْحتْ فضائِلُه "المدَوَّنَة" ولفظُه الجَلّاب ، وكَنَفُه "المُوطَّأ" للطَّلَبَة يُغْنيهم عن مَعاهِد « عبـد الوهاب » ؛ وعزيمته لا يُلْحقُ غُبارُها فى المعارِك ، ولا يَظنُّ خُدّامُ العلوم الشرعية والأدبية إلا أمَّ مالك وابن مالك .

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف ــ لازال يجمعُ لمَن بَرَعَ فى العلوم من ألوانِ المناصب المختلفه، ويَرفَعُ قَدْرَ القَوْمِ الذين قُلوبُهم على التقوىٰ مُؤْتَلِفه ــ أنْ يستقرَّ المشارُ إليـه فى وظيفـة التَّصْدير بالجامع الأُمَوِىّ بدِمَشْق المحروسة ــ عمرَه اللهُ تعـالىٰ بذِكْرِه ــ عِوَضًا عن فلانٍ بحُكمِ نزوله عنه برضاه، حَمْلًا علىٰ ما بيده من النُّزولِ الشَّرعىّ، بالمعلوم الذى يشهدُ به ديوان الوَقْف المبرور ، علىٰ أجْمل عاده، وصرفه إليـه مُهنَّأً ميَسّرًا أُسوة أمثاله .

فلْيباشِرْ هـذه الوظيفةَ علىٰ عادة مُباشراته التى حُفَّت بالعُلُوم ، وافتخرتْ بحُسْنِ المَنْطوق الدّالّ على المعنَى المفهُوم ؛ ويمُدَّ مَوائدَ علْمه المحتويةَ علىٰ أنواع الفضائل ،

وليُبيِّنْ ما يَخْفَىٰ على الطَّلَبة بأوْضحِ الدلائل؛ وليؤدِّ الفوائدَ الواصلةَ إلى الأذهان علىٰ أحسنِ أسْلُوب، وليُقرِّرِ الأصولَ التى امتدَّتْ فُروعُها بقواعِدِ السُّنَّةِ المحمَّديَّة وفى ثمرها الجَنِيِّ تقويةُ القُلوب؛ وليُكْرِمْ منهم من يَضِحُ فضله لَدَيْه ويَبِين، وليبْسُطْ هِمَمَهم بقوله صلَّى الله عليه وسلم: "مَن يُرِدِ اللهُ به خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فى الدِّين". وليُوَضِّحْ طريقَ إرْشادِه ليَسْهُلَ سُلُوكُها عليهم، وليجعَلْ وُفُودَ فوائده فى كلِّ وقتٍ واصِلَةً إليهم، وليتَّبِعْ «إمامَ دارِ الهجْرَة» فى مَذْهَبه المُذْهَب، وليخلِّدْ من صفاته الجميلة ما يَذْهَب الزَّمانُ ولا يَذْهَب؛ وليَسْمَحْ للفقهاء بمواصلة فَضْلِه الأعَم، فإنَّه أنْ يُهدَىٰ به واحدٌ خيرٌ من حُمْرِ النَّعَم.

والوصايا كثيرةٌ ومنه يُطلَبُ بيانُها، وبه تَقْوَىٰ أسبابُها ويَعلُو بُنْيانُها؛ ولٰكن الذِّكْرَىٰ تنفَعُ المُؤْمنين، ويَظْهَرُ [بها] سِرُّ خبرهم ويَسْتَبِين؛ وتقوى الله تعالىٰ هى العُرْوة الوُثْقىٰ، والخَصْلَةُ التى بها يعظم كلُّ واحدٍ ويَرْقَىٰ؛ فلْيُواظِبْ عليها، ولْيَصْرِفْ وَجْهَ العناية إليها؛ واللهُ تعالىٰ المسْئُولُ أن يجعلَ عَلَمَ عِلْمه دائمًا فى الآفاق مَنْشُورا، وذِكْرَه الطَّيِّبَ علىٰ ألسِنَةِ الخلائق كلَّ أوانٍ مَذْكورا.

المرتبــــة الثــانية

(مـن تواقيع أربابِ الوظائف الدِّينيــة بحاضرة دِمَشْقَ — ما يفتتح بـ«أما بعدَ حمدِ الله» وفيها عدّةُ وظائف)

وهذه نسخ تواقيع من ذلك.

توقيعٌ بقضاء العَسْكر بدِمَشْــق، كُتب به للقاضى شمْس الدِّين «محمد الإخنائى» الشافعىّ، بـ«ـالجناب العالى» وهو :

أمّا بعدَ حمدِ الله تعالىٰ مضاعِفِ النِّعمه، ومُرادِفِ رُتَبِ الإحسان لمن أخلَصَ فى الخدمه، ومُجدِّدِ منازِلِ السَّعْدِ لمن أطْلَعتْ كواكبُ اهتمامِه فى آفاقِ الأمورِ المُهِمّه؛ والصلاةِ والسلامِ الأتمَّينِ الأكْمَلينِ علىٰ سيدنا محمدٍ وآلِه الذى بُشِّر بنَصْرِ هذه الأمّه، ووُعِدَ بأنْ سيُكشَفُ به غمامُ كلِّ غُمّه، وأنّه يتجاوزُ عن أهْلِها بشفاعته وكيفَ لا؟ وقد أُرسِلَ للعالَمين رَحْمَه، صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبِه صلاةً تُجزِلُ لقائلها نَصيبَه من الأجْرِ وتُوفِّرُ قِسْمَه ــ فإنّ أحقَّ الأولياءِ مَن تأكّدتْ له أسْبابُ السعاده، وكافأْناه بالحُسْنىٰ وزيادَه، وبلّغْناه من إقبالِنا غايةَ مآرِبِه ومَطالِبِه؛ وعُرِفَتْ منه العلومُ التى لا يُشَكُّ فيها، والنَّباهَةُ التى لا يَقدِرُ أحدٌ من أقرانِه يُوفِّيها؛ والخِبْرةُ الوافيةُ الوافِرَه، والدِّيانةُ الباطنةُ والظّاهِرَه؛ وسار بعلُومه المَثَل، وسلك مَسْلَكَ الأولياءِ فى العِلْمِ والعَمَل؛ واعْتُبِرت أحوالُه التى تُوجِبُ التقديم، واخْتُبِرت فِعالُه التى ضاعفَتْ له مزيدَ التكريم.

وكان فلانٌ ــ أدام اللهُ تعالىٰ نِعْمتَه ــ هو الذى أتقن العُلومَ بَحْثًا وتَهْذيبا، وبَرْهَنَ عن المسائلِ الشّرعيةِ بأفهامٍ تَزيدُها إلىٰ الطّالِبين تَقْريبا؛ وأوضح عَوِيصَ مُشْكِلاتِها، وصحّحَ من ألْسُنِ العَرَبِ لُغاتِها.

فلذلك رُسِم بالأمرِ العالى ــ لا زالت شَمْسُه بالعناية مُشْرِقَه، وأنْواءُ فضائلِ أوليائِه مُغْدِقَه ــ أن يستقرّ فلانٌ فى وظيفةِ قَضاءِ العساكرِ المنصورةِ الشاميّة: حَمْلًا علىٰ ما بيَدِه من النُّزولِ الشّرعىّ، علىٰ عادةِ من تَقدّمه فى ذلك وقاعدتِه، ومَعْلُومِه الذى يَشْهَدُ به الديوانُ المعمورُ إلىٰ آخرِ وقْتٍ. فهو الحاكمُ الذى لم يَزَلْ للعساكرِ المنصورةِ نِعْمَ الصّاحب، والمُوردُ علىٰ سَمْعِهِم من الأحكامِ الشّرعيةِ ما يَقْتَدى به الحاضرُ والغائب؛ والقائمُ بأعْباءِ العساكرِ المنصوره، والحافظُ لنظامِ المُلْكِ الشريفِ علىٰ أحسنِ صُورَه.

فليباشرْ هذه الوظيفةَ المباركةَ وليَحُلّ فى قضاء العساكر المنصورة بطَلْعَته السَّنِيّه، وليفصِلْ بينهم فى الأسفار كلَّ قضيّه، وليُعرِّفْهم طُرُقَ القواعد الشَّرْعيّه؛ وليحترز فى كلّ ما يأتيه ويذَرُه، ويقصدُه ويحذَره، ويورِده ويُصْدره.

والوصايا كثيرةٌ ومنه تُسْتفاد، وإليه يَرجعُ أمرُها ويُعاد، ولكن لا بُدَّ للقلَم من المَرَح فى مَيْدان التّذْكار، والتّنْبيه علىٰ منهاج التّقْوىٰ التى هى أجْملُ شِعار؛ واللهُ تعالىٰ يَمنحُه من إحساننا جزيلَ العَطاءِ والإيثار، ويُسْمعُه من أنْباء كَرَمنا كلَّ آونَةٍ أطْيبَ الأخْبار؛ بمَنّه وكَرَمه!.

* * *

تَوْقيعٌ بنَظَر جامع يلبغا اليحياوىّ، كُتب به للامير جمال الدين «يوسف شاه» العُمَرىّ الظاهرىّ بـ«الجناب الكريم» وهو:

أمّا بعدَ حمدِ اللهِ الذى أظْهر جمالَ الأتْقياءِ فى كلّ مَشْهَدٍ وجامع، وقدّمه بما أوْلاه علىٰ كلّ ساجدٍ وراكع، وخصّه من فَضْله بما قَصُرتْ عنه الآمالُ والمَطامع؛ والصلاةِ والسلامِ الأتَمّين الأكْملَين علىٰ سيدنا محمد عبده ورسوله مُولِى الخَيْرِ الواسِع، والإحسان المُتَتابِع، ومَن أحْيا جَوْدُ جُودِه النُّفوسَ وسَرَّ القُلوبَ وأطْرب ذِكْرُ عِظَاته المَسامع؛ وعلىٰ آله وصَحْبِه النُّجومِ الطَّوالِع، والذين أودَعهم العِلْمَ الذى آتاه لإقامَة دِينه من لا تَخيبُ لَدَيْه الوَدائع؛ والتّشْريف و[الإكرام]، والتّبجيل والإعظام — فإنّ أوْلىٰ من رعَيْنا له حقّ الخِدَم، ووُقوفَه فى الطاعة الشريفة علىٰ أثْبت قَدَم، مَنْ قام بما لم يَقُمْ به غَيرُه، وحَسُنَتْ سيرتُه وسَيْرُه.

وكانَ فلانٌ أدام اللهُ تعالىٰ نعمَته، وحَرَسَ من الغِيَر مُهْجَتَه؛ ممّن جَمّل المَسالكَ ودَبّرها، وضَبَط أموالَ الأوقاف وحَرَّرَها؛ وآرْتفَع على الرءُوس، وحصّل أموالَ

الأوقاف التى فَطَر تحصيلُها أ كبادَ الخَوَنَة وسرّ من مُسْتحقّيها النفُوس ــ تعيّن أن نَعْرِفَ له مِقْدارَه الذى لا يَخْفَىٰ، ونُوَفّيَه بعضَ حَقّه فإنّه الذى بالإحسان قد أَوْفَىٰ .

فلذلك رُسِم بالأمرِ الشريف ــ لا زال يُقْبِلُ علىٰ فَضْلِ وَلِيِّه ، ويضاعِفُ له البِرّ المُسْتَمْطَرَ من غَيْثِ جُودِه ووَلِيّه ــ أن يستقرّ فلانٌ فى كذا ، علىٰ عادة من تقدّمه فى ذلك ومُسْتقرّ قاعدته ، بالمعلومِ الشاهدِ به دِيوانُ الوَقْفِ المبْرور إلىٰ آخر وَقْت .

فلْيباشِرْ هذه الأوقاف ، ولْيَسلُكْ فيها طُرُقَ العَدْلِ والإنْصاف ، وليتّبِعْ شَرطَ وَاقفِها ــ رحمه الله تعالىٰ ــ المُجْمَعَ علىٰ صِحّتِه من غير خِلاف ؛ وليُحْيِ ما تَشَعّثَ وتَخرّبَ فى الجامع المُشار إليه وأوْقافِه بعَيْنِ بَصيرتِه ، وليَقُمْ بالمعروف من معْرِفتِه ؛ وهو أعزّه الله تعالىٰ أوْلىٰ مَن باشَره ، وعَمَر دَاثِرَه ، وأحْرىٰ مَن تَحرّىٰ مَبارَّه ومآثِرَه ، ومَيّزَ أوْقافَه ، وتَدارَكَ بتَلافيه تَلافَه . وهو غَنِيٌّ عن شَرْحِ الوصايا فإنّها من آدابِه تُعْرَف ، ومن بَحْرِ أَدواتِه تُغْرَف ؛ ومِلاكُها تقوَى الله تعالىٰ الرَّءُوف ، فلْيكُنْ علىٰ مُسْتَحِقّي هذا الوقف عَطُوف ؛ والله تعالىٰ يُجزِلُ له أجْرا ، ويجعلُ له ما يفعلُه من الخير ذُخْرا .

﴿﴾

تَوْقيعٌ بنظر تُربة أرغون شاه ، كُتِب به « لقجا السيفى بوطا » بـ « الجناب العالى » وهـو :

أمّا بعدَ حَمْدِ الله الذى بَلّغَ الأوْلياءَ من مَبرّاتِه الأمَلَ والإرادَه ، وألْقىٰ مَقاليدَ الأُمورِ إلىٰ مَن اسْتَحقّ بحُسْنِ مُباشرته الزِّيادَه ؛ والصّلاة والسلامِ الأتمّين الأكْمَلين علىٰ سيدنا محمدٍ عبدِه ورسولِه صاحبِ لِواءِ الحَمْدِ والنّصْر ، ومَن جاءتْ آياتُ تَفْضيلِه كفَلَق الصُّبْحِ وجمّلتْ محاسِنُه كلَّ عَصْر ؛ وعلىٰ آله وصَحْبِه الذين نَصَرُوه فنَصَرهم

الله ، وحجَبُوه بأنفُسِهم عن البأس ولم يحْجُبُوه عن النَّاس لخَفْض جَناحِه لمَوْلاه، والتَّشريف والتَّكريم، والتَّبجيل والتَّعظِيم .

ولمَّا كان فلانٌ - أدام اللهُ تعالىٰ نعمَته - هو المعروفَ بالأوْصاف الجميلَه ، والمَنْعُوتَ بالنُّعوتِ التى أتَتْ فى وَصْفه بكلِّ فضيلَه .

فلذلك رُسم بالأمر العالى - لازال إحْسانُه عَميما ، وفَضْلُه لذَوى الاستحقاق أبدًا مُقيما - أنْ يستقرّ فلانٌ فى كذا ، علىٰ عادة من تقدَّمه فى ذلك ومُستَقرِّ قاعدَته ، بالمعلوم الذى يشهدُ به ديوانُ الوقْفِ المبرور إلىٰ آخِر وقْت .

فليباشِرْ ذلك بهِمَّته العَليَّه ، ونفْسه الأبيَّه ؛ والوصايا كثيرةٌ وأهمُّها التَّقوىٰ : فليلازِمْ عليها فإنَّها تحفَظُه ، وبالسِّيادة تَلْحَظُه ؛ واللهُ تعالىٰ يكمِّلُ توفيقَه ، ويُسهِّلُ إلىٰ نُجْح المَقاصِد طَريقَه ؛ بمحمَّدٍ وآله ! .

توقيعٌ بتَدْريس الجامع الأُمَوىّ عوْدًا إليه ، من إنشاء جمال الدين بن نُباتة ، كُتب به للقاضى «فخر الدين المصرىّ» وهو :

أمَّا بعدَ حَمْد الله مُعيدِ الحقّ إلىٰ نصابِه ، والغَيْث إلىٰ مَصابِّه ، واللَّيْث - وإن غاب - إلىٰ مُسْتَقرِّ غابِه ، وشرَفِ المكانِ إلىٰ مَن هُو أحقُّ وأوْلىٰ بِه ، وبَحْرِ العلومِ إلىٰ دَوائرِ محافلِه فى الدُّروس وإلىٰ قوِىِّ أسْبابِه ؛ والصَّلاةِ والسلامِ علىٰ سيدنا محمدٍ الذى هاجر فرَجَع بغَنيمَته وإيابِه ، وطَلَع من ثنيَّاتِ الوَداع طُلُوعَ البَدْرِ المُشْرِق فى أثْناء سَحابِه ؛ وعلىٰ آله وصَحْبه الشائمين سَبَلَ صَوْبِه السَّالكين سَبيلَ صَوابِه ، ما قُطِفَ من غُصُونِ أقلامِ العلماء ثَمَرُ البيان والتَّبيين مُتَشابهًا وغيرَ مُتَشابِه -

فإنَّ شَرَفَ الكواكِبِ فى سيرِها ورُجُوعِها ، ونُمُوَّ تَشَعُّلِها ما بين فَتْرةِ مَغيبِها وطُلُوعِها ؛ لا سيَّما العلماءُ الذين يُهتَدىٰ بأنوارِهم ، ويُقتَدىٰ بآثارِهم ، ومَصابيحُ الحقِّ التى تُقدَحُ ولا يُقدَحُ فى أزِندة أفكارِهم .

وكان من قُصِدَ بهذا التَّلويحِ ذِكْرُه ، وعُرِفَ من هذا المَعْنىٰ المَفهومِ نَخْرُه ؛ قد جُهِد بمجالس التَّصدير بالجامع الأُمَوىّ ماذكرِه من سلفِ أعْيانِه ، وقام بوُجُودِ الدَّليل علىٰ وُجُودِ مَاضِى بُرْهانه ، وجَادل لِسانُه وقَـلَّمَ يَدِه عن الشَّريعة : وغَيْرُه من العِىِّ لا من يَدِه ولا من لِسانِه ؛ ثم هَجَرَ مكانَه هِجْرَةً على العُـذْرِ مَحْمولَه ، وهاجَرَ إلىٰ حَرَمِ الله تعالىٰ وحَرَمِ رَسُولِه صلَّى الله عليه وسلم هِجْرَةً مَقْبُولَه ؛ ورَامَ بعضُ الصِّبيانِ التقدُّمَ إلىٰ رتبة الشيخ فقالت : إليك عَنِّى ، فأنا من مَخْطُوبات الأكابر فما أنا منك ولا أنت مِنِّى ؛ ثم حضر إلىٰ محلَّة الكريم من غاب ، ورجع إلىٰ مُسْتقرّه الأمثل به : وما كُلُّ حَمْزَةَ أَسَدُ الله فليسكُنْ فى ذلك الغَاب .

فلذلك رسم بالأمر الشريف ــ لا زالت صلاتُ مَرَاحِمِه جميلة العوائد ، جليلة الفوائد ؛ وأقلامُها أغصانُها ممدودٌ بها الرِّزقُ فهى على الوصفين موائد ــ أن يستمرّ علىٰ عادته فى كذا وكذا ، وإبطالُ ما كُتِب به لغيره : عملًا باختبار الحاضر ، واختيار نَظَرِ الناظر ؛ وعِلْمًا بأنَّ هذه المرتبةَ لمن له إتقانُ عقلها ونقلها ، وتلاوةً فى موضع الوقف : ﴿ إنَّ اللهَ يأمُرُكُمْ أنْ تُؤَدُّوا الأماناتِ إلىٰ أهْلِهَا ﴾ .

فقولا للممنوع : ما كلُّ عِزٍّ بدائم ، ولا كلُّ ذى طَلَبٍ بكمال الوُجوب قائم ؛ ومن أين لهذه الرتبة مثلُ هذا الكُفْءِ الذى اشتهر فخره ، وزهَتْ به على الأمصار شامه ومصره ؟ ؛ وهذا الإمام ، وكلُّ مُضاهٍ مأمُوم ، وهـذا المِقْدام ، تحت علَمِ العِلْمِ وكلُّ مُباهٍ مهزوم ؛ وهذا الثَّابِتُ وكلُّ نِدٍّ مُشَرَّد ، وهذا الكامل وكل ضِدّ مُبَرّد .

فليستمرّ علىٰ عادته الجميلة مُجِلا لزمانه ومكانه ، مُكمّلا فى وشائع العلم مايَشِى «ابن الصّباغ» من ألوانه؛ مالكًا لما حرّره «الشّافعى»، جازما بفعل مانصبه «الرّافعىّ»، ساميًا عن وفاء الواصف: فسواء فى ذكره إسرافُ بيانٍ أو إسرافُ عىّ؛ شاملًا للطلبة المعتادين بعطفه ، مُقابِلًا للمستفتِين بلطائفه ولُطْفه؛ باحثًا عن دُرَر الجدال بفكره إذا بحث قلمُ بعض المجادلين عن حَتْفه بظِلْفه ، داعيًا لهذا الملك الصالحىّ فإنّ دُعاء العالم الصالح سُورٌ من بين يديه ومن خَلْفه؛ والله تعالىٰ يُجريه علىٰ خير العوائد، ويمدّه باقبال النعم الزوائد؛ بمنّه وكَرَمه! .

*
* *

توقيعٌ بتدريس المدرسة الدماغية بدمشق، من إنشاء ابن نُباتة. كُتب به للقاضى جمال الدين «أبى الطّيب، الحسن بن على» الشافعىّ، وهو :

أمّا بعدَ حمد الله رافعِ مُنادَى العلم بمُفْرَده ، وبَيْتِ التُّقىٰ بقافية سُؤدده ، ونظم المفاخر بمن إذا قيل : «أبو الطّيب» أصغى الحفْلُ لمنشِده، ومشهدِ الفضل بإمامه: وحَسْبُك من يكون «الحسن بن على» إمامَ مشْهده؛ والصلاةِ والسلامِ علىٰ سيدنا محمد عبده ورسوله سيدِ الخلق وسَنَده، وعلىٰ آله وصَحْبه السائرين فى العِلْم والحِلْم علىٰ جَدَده ، ما سَحَب نسيمُ الرّوض بُرْدَه وافترّ لَعَسُ السحابِ عن ثغرِ بَرَده ــ فإنّ للعلم أبناءً ينشئون فى ظِلاله ، ويسكُنون فى حِلاله ، ويفرّقون للخلق بين حرام المشْتَبه وحَلاله ، ويُجمّلون وَجْهَ الزمان : فلا عدِم الزمانُ منهم جمالَ وَجْهه ولا وَجْه جَماله؛ ترتَشِفُ شِفَاهُ المدارس من كَلِمِهم كلَّ عَذْبِ المَسَاغ ، وتُشافِهُ منهم كلَّ ذى فَضْلٍ ما هو عند البلاغ بَلاغ ، وتُشاهد ماخُصُّوا به من الشّرف والرّآسة فلا عَجَبَ أنْ تحلّهم منهما محلَّ الدماغ! .

وكانت المدرسة الشافعية الدماغية بدمشق المحروسة رأسًا فى مدارس العلم، وهامة فى أعضاء منازل ذوى الحكم والحلم؛ لا تسمو همتها إلا بكل سامى العمامه، هامى الفضل كالغمامه، ساجع اللفظ إلا أنه أبهى وأزهى من طوق الحمامه، كائد للملحد مكرم للطالب ولا كيد لابن الخطيب ولا كرامه - واسطة بين العادلية والأشرفية تليق بمن يكون عقد كلامه المثمن، ونظامه الأمكن، وبيانه المنشد "أجارة بيتينا" يعنى بيت النسب وبيت المسكن.

فلذلك رسم بالأمر الشريف - لازال يجدد لوجوه العلم جمالا، ولوجوب الحمد نوالا، ولوجود الفضل كرما ما قال قط ولا نوى: لا - أن يفوض إلى فلان - أيد الله مجده، وحرس للسلمين أباه وأعلى بالسعادة جده - تدريس المدرسة الدماغية المذكورة: لأنه جمال العلم المعقودة على خطبته الآمال، المعدوقة بمقدمات فضله وفصله نتائج الأقوال الصالحة والأعمال؛ المحبوبة إلى الله والخلق سيماه وشيمه ولا نكر: فإن الله جميل يحب الجمال؛ ولأنه العالم الذى إذا قال لم يترك مقالا لقائل، وإذا شرح على قياسه أتى بما لم تستطعه الأوائل؛ وإذا جارى العلماء كاد «إمام الحرمين» يقول: أنا المصلى وأنت السابق، «والغزالى»: من لى أن أنسج على منوال هذا اللفظ الرائق؟؛ «وابن دقيق العيد»: ليت لى من هذه الدقائق بلغه؟، و«ابن الصباغ»: هذا الذى صبغه الله من المهد عالما! ومن أحسن من الله صبغه؟؛ ولأنه العالم الذى أحيا ذكر «ابن نقطة» بعد ما دارت عليه الدوائر، وأغنى وحده دمشق عمن أتى فى النسب «بعساكر»، ولأنه فى البيان ذو الانتقاد والانتقاء، والعربى الذى إن كان لرقاب الفضلاء «ابن مالك» فإن قرينه «أبو البقاء»؛ والكامل حسبا، ومثل جيده المنقود لا يبهرج، والواصل نسبا، ومثل فرعه بعد أصله: «ولله أوس آخرون وخزرج».

فليباشِرْ هذا التّدريسَ بعزائمِ سَريّه، ومَباحثَ تُستثار منها مَعارِفُ القَوْلِ التّبريّه، وطَرائفَ لأَيُحْبَس بدمَشْق علىٰ تقداتهـا المِصْريه، وليَنصُرْ مذهبَ الإمام الشافعيّ رضى الله عنه فإنّ قومَه الأنصار، وليخفِضْ جَناحَه للطَّلَبَة فطالمـا خَفَضَت الملائكةُ أجنحتَها ليَصيرَ فلا عَجَبَ أنْ صار! ؛ ولْيُفِدْ وَافدِيه وهو قاعدٌ أضْعاف ما أفادَهم صاحبُ المكان وهو واقف، وتَقوىٰ الله عزّ وجلّ أولىٰ ما طالعه فى سِرّه وجَهْرِه من "عوارف المعارف" والله تعـالىٰ يمدُّه بإسـعاده ولُطْفه، ويَحُوطُه بمَعقّباتٍ من بين يديه ومن خَلْفه ؛ ويُضيءُ بارقَ كَلِمـه الصّيِّب ، ويُطْرِب أسماعَ الطَّلَبَة بالطّيِّب من معـانى « أبى الطّيِّب » .

✦ ✦ ✦

توقيعٌ بتَـدْريس المدرسة الرُّكْنية الحَنَفيّـة بظاهر دِمَشْق، كُتب به للقـاضى بدر الدين « محمد بن أبى المنصور » الحنفىّ بـ«المقرّ العالى» وهو :

أمّا بعدَ حمـدِ اللهِ الذى أطْلع بَدْرَ الدِّينِ مُشْرِقًا فى منازل السُّعود، وحَرَس سمـاءَ مَجْده فلا يُطيقُ مَنْ رام جَنابَها الأستطراقَ إليها ولا الصُّعود؛ وجعل رُكْنَه الشـديد فى أيّامنا الزاهرةِ المَشـيد وظِلّه الممدود؛ والصلاةِ والسـلامِ الأتمَّين الأكْملين علىٰ سـيدنا محمدٍ ذى الحَوْض المَوْرُود، والكَرَم والجُود ؛ وعلىٰ آله وصَحْبه نجومِ الهُـدَىٰ وأعْيان الوُجود، ما أوْرق عُود، وحُمِدتْ عُقْبَى الصُّـدور والوُرُود؛ صلاةً دائمـةً إلى اليوم الموعود ــ فإنّ أعلامَ الهُدَىٰ لم تزلْ مَنْشورةً بعالمِ العُلَماء، وأقطارَ الأرض ما برِحتْ مُشْرِقَةً بمن تَسْتغفِرُ لهم الحِيتانُ فى البَحْرِ والملائكةُ فى السماء، وطُولُ الأرض إلىٰ فضائلهم أشدّ اضطرارًا وأحوجّ إلى القرب إليهم والأنْتماء؛ وكان فلانٌ ــ أدام الله تعالىٰ تأييدَه ــ من بَيْتٍ شهِدت الأيامُ مَفاخِرَه، وحَمِدَ الأنامُ أوائلَه وأواخرَه،

وأضحت عيونُ الزمان إلى مآثره ناظره، وغُصونُ الفُنون بفرائده ناضره، وأوصافُه الجليلةُ للأبصار والبصائر باهره، وأصنافُ الفضائل من إملائه واردةً صادره .

فلذلك رُسم بالأمر العالى ـ زاده اللهُ تعالى على العلماء إقبالا، وضاعف إحسانَه إليهم ووالى ـ أنْ يستمرَّ المشارُ إليه فيما هو مستمرٌّ فيه : من تدريس المدرسة الرُّكْنية الحَنَفيّة، بظاهر دِمَشْق المحروسة، حملًا على ما بيده من الوِلاية الشَّرعية والتوقيع الشريف: رِعايةً لجانبه وتوفيرا، وإجابة لقَصْده الجميل وتوفيرا، وآستمرارا بالأحقّ وتقريرا .

فليباشِرْ ذلك مباشرةً أُلِفتْ منه، وآشتهر وَصْفُها الزَّكىُّ عنه، وليوضِّحْ للطَّلَبة سُبُلَ الهدايه، وليوصِّلْهم من مقاصِدِهم الجميلَة إلى الغايه، وليَسْلُكْ طريقةَ والده، فإنَّها الطريقةُ المُثْلى، وليتحلَّ من جواهر فرائده، فإنَّها أعلى قيمةً وأغلى، وليُمْلِ على الأسماع فضائلَه التى لا تُمَلُّ حين تُملى .

***

وهذه نسخةُ توقيعٍ بتدريس المدرسة الخاتونية البَرّانية الحَنَفيّة بدمَشْق، كُتب بها للشيخ صدر الدين «علىّ بن الآدمىّ» الحَنَفىّ بـ«ـالجناب الكريم» . وكأنّه فى الأصل لمن لَقبُه . «بدر الدين» لأنَّ البـدْرَ هو المناسب لهذا الآفتتاح؛ فنقله بعضُ جَهَلَة الكُتّاب إلى «صدر الدين» كما تراه . وهذه نسخته :

أمّا بعـدَ حمد الله الذى زان أهْلَ العِلْمِ الشريف ببَدْرٍ أخفى نُورُه الشُّموس، وأعلاه ـ لِمَا حازه من الشَّرف الأعلى ـ على الرُّءوس، وجعل كلَّ قَلْب يأوى إلى تِبْيان بيانه يوم الدُّروس؛ والصلاةِ والسلامِ الأتمَّين الأكملين على سيدنا محمد الذى أذهب اللهُ ببركته عن هـذه الأمّة كلَّ مكْر وبُوس، وخصّهم فى الدُّنيـا بطيب

الحياة وفى الآخرة بسرور النفوس، وعلى آله وصحبه صلاة مثمرة الغروس ـ فإنّ أولى من تنصرف إليه الهمم، من تبدو دلائل علمه كنور لا نار على علم؛ وتسير فضائله فى الآفاق سير الشموس والأقمار، وتبرز إذا يبديها صدره من حجب وأستار.

وكان فلانٌ ـ ضاعف الله تعالى نعمته، وحرس من الغير مهجته ـ هو الذى أشير إلى ما حواه صدره الكريم من الفضائل، وأشتهر فى دروسه بإقامة الحجج وإيضاح الدلائل؛ وبرع فى العلوم الدينيه، وفاق أبناء عصره فى الصناعة الأدبيه، وأنفق كثره على الطلاب، فأصبح "عمدة المحدثين" وأمسى "مختار الأصحاب"، «أبو يعلى» ينزل ببابه، و «آبن عقيل» يرتد على أعقابه؛ و «آبن الحاجب» يرفعه على عينه، و «الرازى» يدخر كسبه لوفاء دينه؛ و «آبن بطة» يطير من مواقع سهامه، و «مقاتل» مجروح بحد كلامه؛ و «آبن قدامة» متأخر عن مجاراته، و «الأثرم» يخرس عند سماع عباراته.

فلذلك رسم بالأمر العالى ـ لازال يجمع لمن برع فى العلوم من ألوان المناصب المختلفه، ويرفع قدر القوم الذين قلوبهم على التقوى مؤتلفه ـ أن يستمر الجناب الكريم المشار إليه بالمدرسة الخاتونية البرانية الحنفيه، حملا على مابيده من النزول الشرعى والولاية الشرعيه: لأنه الخلاصة التى صفت من الأقذار، والعدة ليوم الجدال إذا ولى غيره الأدبار؛ والمختار الذى جنحت المناصب السنية إلى آختياره دون من سواه، رغبة فيما آدخره من الفضائل وحواه؛ "بدايته" "نهاية الطلاب"، وعلومه "تحفة الأصحاب"؛ إن حدث «فآبن معين» بصحة نقله يحيا، أو فسر «فمجاهد» عن مجاراته يعيا؛ و «الزمخشرى» يبعد عن الجوار، و «البغوى» يبتغى الوقوف على الآثار؛ و «سيبويه» عند ما ينحو يقصد "التسهيل" من لفظه المغرب المعرب، و «آبن عصفور» يكاد يطير طربا لما يبديه من "المرقص المطرب"؛

و « أبو يوسف » أصبح بصُحْبته مَنْصورا ، و « محمد بن الحَسَن » أضحى برفعته مَسْرُورا ؛ هو فى القَدْر « علىّ » وفى الطريقة « محمود » وفى العلوم « محمد » ، وفى النطق والحركة « سعيد » وفى النظر « أسعد » ؛ وفى النَّضارة « النعمان » و « طاوس » يتحلَّى جزءا من كمال خِصاله ، و « الحَسَنُ » يقْتَدِى بحسن فعاله ؛ نَشَأ فى العِفَّة والصِّيانَه ، وكَفَلَه التوفيقُ وزانَتْه الأمانَه ؛ فهو بَحْر العلوم ، ومُسْتَخْلِصُ دُرِّها المَكْنونِ ومُظْهِرُ سِرِّها المَكْتوم ؛ لو رآه «الإمام» لقاس عُلاه بالشَّمس المُنيره ، ولو عاصر الأصحابَ لغَدَتْ أعينهم به قَرِيرَه .

فلْيباشِرْ هاتَيْنِ الوَظيفَتَيْنِ اللّتين ا كْتَسَتا به بعد نُورِ الشَّمسِ جَلالا ، ولْيُلْقِ عُلومَه التى يقولُ القائلُ عند سَماعها : هكذا هكذا وإلّا فلا لا ؛ ولْيُعلِّمِ الطَّلَبة إذا أدْهشتهم كثرةُ عُلومه أنَّ فوق كلِّ ذِى علمٍ عليم ، وليتكرَّم عليهم بكَثْرة الإفادة فإنَّ عَليًّا هو الكريم ؛ وليَتَّقِ فى مباشرة النَّظر كلَّ مَثِيلٍ ونظير ، ولا يُنَبِّئك مِثلُ خَبير ؛ وليَجتَهِدْ على عِمارَةِ معاهدها بذكر الله تعالى ، وأداءِ الوظائف بحُسْنِ مُلاحظَته : ليزداد عند الخليقَة جَلالا ؛ وفيه ــ بحمد الله ــ ما يُغْنِى عن تأْكيد الوصايا ، ويُعينُ على السَّداد وفَصلِ القضايا ؛ وكيف لا؟ وهو الخَبيرُ بما يأْتِى ويَذَر ، والصَّدْرُ الذى لا يَعْدُو الصَّوابَ فى وِرْدٍ ولا صَدَر ؛ والله تعالى يَسُرُّ القلوبَ بعُلُوِّ مَراتبِه ، ويُقِرُّ العُيونَ ببُلُوغ مَقاصِدِه ومآربِه ؛ بمنّه وكرمه ! .

*
* *

توقيعٌ بخَطَابة جامع جراح ، من إنشاءِ ابن نُباتة ، كُتب به لـ«شرف الدين بن عمرون» بـ«المجلس العالى» وهو :

أمَّا بعدَ حمدِ الله الذى قَسَم للنابرِ شَرَفًا يتَجَدَّد ، وعَطْفًا من الفُصَحاءِ يتأكَّد ، وعَلَمًا مَرفوعًا لا يتَعَدَّى وعَلَمًا منْصوبًا لا يتَعَدَّد ؛ والصلاةِ والسلامِ على سيد الثَّقلَين

وصاحبِ القِبْلَتينِ محمد ، وعلىٰ آله وصَحْبِه القانتِين القائمين الرُّكَّعِ السُّجَّد ، ما عَظُمَ خَطيبٌ ومجّد ، وبَدا فى حِلْيةِ سيادةٍ وأُهْبةِ خَطابةٍ وهو على الحالين مُسَوَّد - فإنَّ لصَهَواتِ المنابر فُرْسانا ، ولصُدُور المحاريب أعْيانا ، ولعُيونِ المشاهد أناسِىَّ يُراعى منها الاَستحقاقُ لكلِّ عَيْنٍ إنسانا .

ولمّا كان جامِعُ جراح المعمورُ بذِكْرِ الله تعالىٰ ممّا أُسِّسَ على التَّقْوىٰ ، ووُسِم بأهلِ الزُّهْد سِمَةً إذا ضَعُفَتْ السِّماتُ تَقْوىٰ ؛ مجمع الصُّلَحاءِ من كلِّ ناحيَه ، ومُنْتَجَع الفُقَراء : فنِعْمَ الجامعُ لهم ونِعْمتِ الزَّاوِيه ! ؛ ومَفْزَع العُظَماءِ عنـد آستدفاعِ حَرْبٍ وكَرْب ، ومَطْلَعٌ لنُور الهُداة الذى أغْرب فأطلع نجومَهم من الغَرْب - تعيَّن أن نختارَ له الخطباءَ والأئمَّه ، ونَنْتخِبَ لمَنْصِبِه من أفاضل الأُمَّه ، وتتناسَبَ حُضَّار مِنْبَرِه بصاحب علومهم وأعْلامهم وإمامهم ، المسرورين به يوم يَأْتِى كلُّ أُناسٍ بإمَامِهم

فرُسِم بالأمر - لا زالت أعوادُ المنـابِرِ بذِكْرِه أرِجَه ، وأعلامُها كالألْسنة بحَمْده لَهِجَه - أن يفوّض لفلان ... ... عِلْمـًا بآستحقاق شَرَفه لهذه الرُّتبه ، وصُعودِ هذه الذِّرْوة والهَضْبَه ؛ ولأنّه الأوْلىٰ بدرجات الرُّتب النَّفائس ، والأجْدرُ بجَنْىٰ فروعها المَوائِس ؛ والإمامُ على الحـالَيْنِ إذا قامت صُفوف المساجِد وإذا قعـدت صُفُوف المَدارِس ، والعَربِىُّ الذى إذا رَقِىَ ذِرْوة مِنْبرٍ أُطْلِقتْ عليـه لفظةُ فارِس ؛ والوَرِعُ الذى آثر فى مناصبـه الباقيَةَ على الفانيَه ، ومَنابِرَ الحِكَم المُضيئَة علىٰ مراتب الحُكْمِ المـاضيه ؛ وعلىٰ مجالِسِ الدَّعاوىٰ مجالِسَ الدَّعوات ، وعلىٰ مَقـامِ الصِّلاتِ مقـام الصلوات ؛ وعلى القَضاءِ القَرْض ، وعلَى الرَّحَبـة[1] ولو كَفَحِصِ القَطاة من الأرض ؛ وعلىٰ عَرَض الدُّنيـا القليلِ جَوْهَرَ الفَضْلِ الكثير ، وعلىٰ "كِتَابِ أدب القاضى" "كِتَابَ الجامع الصغير" .

(١) لعله وعلى الرحبة المحل الأرق ولو الخ

فليباشرْ هذه الوظيفةَ المباركة : خطيبا تَدْرأُ مواعظُه الخُطُوب ، وَاعِظًا من قَلْبٍ تَقِىٍّ تَصِلُ هدايا تُقَاه إلى القلوب ؛ فَصِيحًا تكاد المنابرُ تهتزُّ طَرَبًا ببيانه ، نَجِيحًا تكاد أَجْنِحَةُ أعلامها تَطِيرُ فَرَحًا بمكانه ؛ شاملًا بنفحات فضله النَّواسِم ، كاملًا ! لو تقدّم زَمانُه لم يُقَلْ : « فلا الكَرَجُ الدُّنيا ولا النَّاسُ قَاسِم » ؛ والله تعالى يسدِّدُ أقوالَه وأفعالَه ، ويرفَعُ على المنابر والرُّتَب والمراتب مقامَه ومقَالَه ، ويُمَتِّعه بهذه الرُّتبة التى أشبهتْ معنًى فى الخلافة : «فلم يكن يصلُحُ إلَّا لها ولم تكن تصلح إلا له» .

المرتبـــــة الثـالثة

(من تواقيع أرباب الوظائف الدينية بحاضرة دِمَشْق — ما يفتتح بـ«رسم بالأمر» وفيها وظائف)

وهذه نسخ تواقيع من ذلك :

نسخة توقيع بالتَّدْريس بالجامع الأُمَوىّ والإفتاء به ، من إنشاء الشيخ جمال الدين آبن نُبَاتة ، كتب بها للشيخ «فَخْر الدين المصرى» آستمراراً ، بـ«المجلس العالى» وهى :

رُسِم بالأمر الشَّريف ــ لا زال لدَوْلَته الفَخْر على الإطلاق ، والمَنّ على الأعناق ، والكَرَم لطالبِى الإرْفاد والإرْفاق ، والتَّكْرِيمُ والتَّقْدِيمُ لذَوِى التَّأهيل والآستحقاق ؛ ولا بَرِحتِ النِّعمُ الثابتةُ للسَّاجعينَ بمَدْحه المُطْرِب قائمةً مقام الأطْواق ــ أنْ يستقرَّ فلانٌ ... ... نفع اللهُ ببقائه ، ورَفَع عُيونَ الأنْجُمِ لدرجات آرْتقائِه ؛ : لفوائده التى شَمِلَت الوَرَى ، وعَلَت الذُّرا ، وحَمِدَت الأفهامُ عند صَبَاحِها السُّرَى ، وقَعد بها مُسْبِلُ ذَيْل الحَيَاءِ وسار بذِكْره من لا يَسِيرُ مُشَمِّرا ؛ ومَنْزِلَتِه التى نَصَبت للهُدَى عَلَمًا ، وألفاظه التى أعْربت عن بَدائِعَ بَهرتْ فما فَتَح بمِثْلِها العلماءُ فَمًا ؛ وآستنباطه

الذى يقول للأول : قال وقلتم ، وأقام وزُلتم ؛ وآحتياطه الذى يقول للسائلين : آهبطوا من آنتساب حلْقته مِصْرًا فإنّ لكم ما سألتُم ؛ وأنّه الفاضلُ الذى ماآستنار بعلمه فتًى فتاه ، والنّافعُ الذى ماآستطَبَّ بكلماته سقيمُ ذهْنٍ فلمّا تحرّكتْ شَفَتاه شَفَتاه ؛ كَمْ جلس للأشغال فتىً أنفَسَ المــارّةِ عن أشغالها ! ، ونصر العِلْمَ فى حلْقته المجنّدة فكان من أمرائها المنصور ولم يكن للأنداد من رجالها ! ؛ كَمْ سُلِّم لبيان بحْثه الحقيقىُّ والمجازى ! ، وكَمْ سُطِّرتْ لمناظرته المحمدية مع أهْلِ الزّيْغ سِيَرٌ ومغازى ! ، وكَمْ خلّص دينارُ فهمه المِصْرىُّ على النّقد فهيهاتَ أنْ يروزَ مثله «الرّازى» ! ؛ كَمْ فخرت مِصْرُ بانتسابه ! ، ودِمَشْقُ بسُقْيا سحابه ! ، وكَمْ قال الرازى : ليْتَ لى هــذا الفخْرَ فأروى فى الأوّلِ بفتىً خطيبه وفى الآخر بفتيٍّ خِطابه .

فليستمِرَّ ــ نفع اللّهُ به ــ علىٰ وظيفته المأثوره ، وحلْقته التى نُصِبتْ علىٰ مَصايد كلمــاته المشْهُوره ، ومائدة علْمــه المنْصوبة وذُيُولُ منــافعها فى الآفاق مجْروره ؛ وليُواظبْ على جُلُوسه بالجامع المنْشرح المشروح ، ودَرْسه المتضمّنِ فتحَ أبوابِ العلوم وغيْره كما يقال : على المفتوح ؛ سالكًا من نَهْجِ الإفادة مَسالكه ، مُكاثرًا بأجنحة فتاويه الطّيارة ما يُبْسَطُ لديه من أجْنحة الملائكه ؛ متصرّفًا علىٰ عادة عبادته فى مَواطنِ العِلْم والعَمَل ، مُسْتَنِدًا فى جِلْسته إلىٰ سارية يقولُ لهــا وقاره وحلْمُــه : يا ساريةُ الجبَلَ الجبَــل ، داعيًا لهذه الدّولة الشريفة : فإنّ دعاء العالم مِثْـله طائرٌ لآفاق القبُول من أوكار القبَل ، واللّه تعالىٰ يُمِدّه بعوْنه ولُطْفه ، ويحوطُ مجالسَ علْمه بالملائكة المقرّبين من بين يديه ومن خلْفه ، بمنّه وكرمه ! .

***

وهذه نسخةُ توْقيع بتَدْريس مَدرسة القصّاعين ، من إنشاء آبن نُباتة ، كُتب به لفخر الدين «أحمد بن الفصيح» الحنفىّ المُقرى بـ«المجلس السامى» وهى :

رُسم بالأمر الشريف ــ لا زال يَقدِّمُ من العلماء أنْفَرَهم ذِكْرا، وأحمدهم أمْرا، وأفْصَحَهُم نَسَبَ فَضائِلَ وفَضائِلَ نَسبٍ يقولُ الاستحقاق : كِلاهُما وتَمْرا ــ أنْ يرتّب فلانٌ ... ... : لما شُهِر من علومه السَّنِيّه، وفوائده السَّرِيّه ؛ ووجوه فضائله الحَسَنه ، وعيونِ كلماته المتيقِّظة إذا كانت بعضُ العُيونِ مستوسِنَه ؛ ولأنّه غريبٌ فى الوَصْف والمكان، وصاحبُ عِلْمٍ لا يكاد يُوجَد له شَقيقٌ وإن كان منسوبًا إلى « النُّعمان » ؛ وإمامُ قراءاتٍ ثَبتتْ له فيها على «أبى عَلِىّ» الحُجّه ، وتوضَّحتْ ببيانه المَحَجّه ؛ وتعينَّ محلُّه الأثير ، وروَى الطالبُ من عِلْمه عن « نافع » ومن ذِهْنه فى الفوائد عن « ابن كَثِير » ؛ وأنّه فَخْرُ الحنفيّة القائمُ فى السُّمْعة مقام « رازِيها » ، المُطِلُّ بِعِنْسِرِ قَلَمه على المعانى إطْلالَ بازِيها ؛ « الأكْمَلُ » الذى له من علوم صَدْره خزانه ، « الصَّدْرُ » الذى كلُّ صَدْرٍ يشهدُ له بعلُوِّ المَكانَه .

فليباشرْ تدريس هذه المدرسة المباركة : حقيقًا بجلوس صَدْرِها ، خَليقًا بتَجْديد شرفها وذِكْرها ؛ مُظْهِرًا لخبايا النُّكَت فى زَواياها ، جَديرًا بأنْ يكونَ فى خفايا المسائل ابنَ جَلَاها وطَلّاعَ ثَنايَاها ؛ يَمْلأُ ببيان بُحُوثه فِكْرَ الواعى وسَمْعَه ، ويُشَيِّرُ ببَنانِ قَلَم فُتْياه ما يتجدَّدُ له من رِفْعه ، ويبْسُط إدلالَ الطَّلَبة حتّى يأكُلُوا فى القَصّاعية معه فى القَصْعه ؛ واللهُ تعالى يَسُرُّه من مدارس الحنفيّة بهذه البدايه ، ويُقرُّه بما يتجدّد من وظائفها التالية : ﴿وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ﴾ بمنه وكرمه ! .

❖

وهذه نسخةُ توقيع بتَدْريس المدرسة الطَّرْخانية، من إنشاء ابن نُباتة، كُتب به للقاضى جمال الدين «يوسف الحَنَفِىّ» بنزولٍ من والده ، وهى :

وُسِم بالأمر الشريف ـ لازالتْ مَواطِنُ العِلْمِ مُكَمَّلَةً بِذِكْرِه ، مُبَجَّلَةً بأمْرِه ، مُؤَهَّلَةً (١) لكلِّ يوسُفِيِّ الجمال يذْكُرُ عزيزُ شامِه عزيزَ مِصْرِه ـ أن يستقرَّ فلانٌ فى كذا ، بحكم ما قرّره مجلسُ الحكم العزيز الشافعيّ ، ونعم المَسالكُ لمذهب شافِعٍ ، واتّباعاً لِما حرّره الجناب الشريف التَّقَوِيّ ذُو النَّسَب الصَّحابيّ الذى كلُّ أمرٍ لأمْرِه تابِعٌ ، وعَمَلاً بما رآه رأيُهُ الكريمُ الذى إذا كان الجمالُ شافعاً كان هو للجمال شافِعٌ ؛ وإذا أنشأ من أبناء العلماء فُروعاً [لا] تميل عليهم الأيام ميله ، وإذا وقفت فى طريقهم الأنداد قال اقتصار نسبه الأنصاريّ : يأبَى الله ذاك وبنو قيلة (٢) ؛ وقبولا لنزول هذا الوالِدِ الذى أعْرَقَتْ فى آفاقِ العِلْمِ مَطالِعُه ، وإقبالاً على هذا الوَلَدِ الذى نجحتْ فى استحقاق التَّقديم مَطامِعُه ؛ وعِلْماً بنجابة هـذا الفاضل الذى طاب أصْلاً وفَرْعاً ، وقَدّم نَفْسَه ووالِدَه وَتْراً وشَفْعاً ؛ وهـذا البَادِى الشَّبيبَةِ الذى يأمُر بفضائله على الشَّيبِ ويَنْهى ، وهـذا الوَاضِحُ الدَّلالَةِ علَى مَفاخِرِ قَوْمِه : فحبَّذا الدَّعْوى وبيِّنَتُها منها ؛ وهذا النَّجيبُ الذى قَدّمه أبوه مُنْجبا ، وذَكاؤُه معجبا ، وقَلَمُه فى الأوْراق مُعْشِبا ، واشْتِغالُه : إذْ قال يُوسُفُ لأبيه يا أبَتِ إنى رَأيتُ من محفوظات كُتُبِي ما يقارب أحَدَ عَشَرَ كَوْكَبا ؛ وإذا دَرَّسَ كان لطَلَبَتِه مَلاذا ، وإذا عانَدَه مُعانِدٌ قال برفيع هِمَّتِه : يُوسُفُ أعْرِضْ عَنْ هٰذَا ؛ وإذا قرأ كُتُبَ فَصاحَتِه أذْهل ذَوِى الألْباب ، وإذا فتح لتفسير كتاب الله فاتِحةً ، عُوِّذَ بفضل : ﴿ الم ذَلِكَ الْكِتَاب ﴾ وإذا رَوَى الأحاديثَ أطربتْ حَقِيقَتُه السماع ، وإذا أخذ فى دَقائق النَّقْل والعَقْل عُلِم وعُقِل أنَّ الفِكْرَة صَناع .

---

(١) فى القاموس «أهله لذلك رآه له أهلا» .

(٢) هى قيلة بنت كاهل أم الأوس والخزرج .

فليباشر هذه المدرسةَ المباركةَ ببيان عَرَبِىٍّ وإن كان نَسَبُها طَرْخانيًّا، وعِلْمٍ رَوْضِىٍّ لا يَعْرِفُ العلماءُ شقيقَه وإن كان مَذْهبُه نُعمانيًّا ؛ ومَباحِثَ تُذْكى نارَ قَريحته : فكم طَبَخَ لأنداده من أصحاب «القُدُورِىّ» قِدْرا ، ولُزومِ دَرْسٍ يسُرُّ أباه بمذهبه : فإنه القاضى «أبو يُوسف» خَبَرًا فى الحقيقة وخُبْرا؛ والله تعالى يصُونُ شبيبتَه المقبلَةَ من طَوارِقِ الحَدَثان، وينفَعُ بعلوم بيْتِه التى من شَكَّ منها فى الحَقِّ فكأنه من الحُدْثان.

* * *

وهــذه نسخةُ توقيع بتَصْدير بالجامع الأُمَوِىّ، من إنشاء ابن نُباتة ، كُتب به لـ«شمس الدين بن الخطيب» وهى :

رُسم بالأمر الشريف ـ لا زالَتْ نِعَمُه ظاهِرةَ الفَضْــل كالشَّمْس ، طَــاهِرةَ الوُضُوح من دَنَسِ اللَّبْس، وَافرةَ النُّمُوِّ فيَوْمُها قاصِرٌ عن الغَدِ زائدٌ على الأمس ـ أنْ يرتَّب فلانٌ فى كذا ويرتَّب له كذا على المصالح، فكم للسلمين فى جامع عِلْمِه مَصالِحُ، وفى مَنافِـع قَصْده مَناجِح ؛ وفى فَوائده نَصيب، وفى طُرُق هُـداه مَعالِم : ولا تُنْكَر "المَعالِم" لابن الخطيب؛ ليتناوَلَ هـذا الرَّاتِبَ المُسْـتَقِرَّ من أحَلِّ الجهات وأجَلِّها، وتكونَ شَمْسُــه المباركةُ خيرَ شَمْسٍ تجْرِى لمُسْتَقَرٍّ لها؛ عِوَضًا عما نزل عنه من تَدْرِيس الحَلْقَــة المعدوقة بصاحب حِمْص وتصـديرًا بالجـامع الأمَوِىّ يبســط به أنواره الشَّمْسِيَّة ، وينقلُ اسمــه إلى إمْرةِ العِلْم بدِمَشْق عوضًا عن الحلْقَــة الحِمْصِيَّة ؛ فليعتمد ما رُسم به ، ولا يتحوّلْ عما قَضَى العدلُ والإحسانُ بموجِبِه .

الضـــرب الثـانى

(من تواقيع أرباب الوظائف الدّينية بالشام ـ
ما يُكتَب به لمن هو بأعمـال دِمَشْق ، وهو على مرتبتين)

المرتبـــة الأولى

(ما يُفْتتح بـ «أما بعدَ حمد الله» وفيها وظائف)

توقيعٌ بتَدْريسِ المدرسة النُّورِيَّة بِدمَشْق[(١)] ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتة ، كُتب به للقاضى زين الدين «عمر البلفيانى» بـ«المجلس العالى» وهو :

أمّا بعـدَ حمدِ الله الذى جعل لوُجوه العِلْم زَيْنًا وأىّ زَيْن ، وأقرّ لأماكنها عَيْنًا بمَن يكونُ التّنبيهُ على فَضْل مكانته فَرْضَ عَيْن ، ونَشر أحاديثَها بمَن إذا حدَّث عن يَدِ تَمكُّنه فى العَقْل والنَّقْل قيل: صدق «ذُو اليدين» ، وأحْيا مذاهِبَها بمَن إذا عُقِدتْ الخَنـاصِرُ على أمثاله العُلمـاء كان أوّلَ العِقْد وثانِىَ الغَيْث وثالثَ « العُمَرَيْن » ؛ والصلاة والسلام على سيدِنا محمدٍ عبـدِه ورسولِه الذى أوضح تَبْيِينَ الهُـدى وسَنَّه ، وأرهف شَبَا الحَقّ وسَـنَّه ، وعلى آله وصَحْبه الذين منهم « عَلِّى » مفتاحُ مَدِينةِ العِلْم و« عُمَرُ » سراجُ أهـلِ الجَنَّه ، ما جَرتْ أقلامُ العِلْم والجُود فى هذه الأيّام الصّالِحِيّة طَلْقَة العِنانِ مُطْلَقة الأعِنّه ـ فإنّ أوْلَى العلماءِ بمدارس عِلْمٍ لا خَلَتْ ، ومَجالِسِ فَهْمٍ عَزّتْ بأهْلِها فلا تَعزّلَتْ ، ومَشاهِدِ عَقْلٍ ونَقْلٍ لاعُقِلتْ ألسِنَتُها بعد مُسْتَحِقّيها ولا انْتَقلتْ ـ من أضاءتْ مِشْكاتُها النُّورِيَّةُ بمصابيح كَلِمه ، وتَفَتّحت كمائمُها النَّوْرِيّةُ عن زَهراتِ الهُدَى بقَطَراتِ قَلَمِه ، وتذكّرت بأوْقاتِه الأخيرة عُهُودَ أهْلِها من هُداة الاسلام وأوْقات ذى سَلَمِه .

---

(١) صوابه بحمص ، كما يؤخذ من التوقيع .

ولمّا كان فلانٌ هو المقصودَ بخلاصة هذا المعنىٰ، والممدودَ إليه نَظَرُ هذا الوَصْف الأسْنىٰ؛ والعالِمَ الذى تشبث بأسباب محاسِنه بلَدُ «الحَرَمَيْن» ، والسابقَ وإن خَلا وقتُه الطاهرُ خلف وقت «إمام الحَرَمَيْن» ؛ كَم اجْتنَىٰ ثمرَ الفوائِدِ من أصْلٍ وفَرْع ! ، وكَمْ بات قَلَمُه من وَرَقِ فَتاويه وإسكاتِ مُناوِيه بين وَصْلٍ وقَطْع ! ؛ كَم صَدَق بَرْقُ بَدِيهَتِه الأفْكارَ حين شَامَتْ ! ، وكَمْ نَبَّهتْ عند ليالى المُشْكِلات «عمر»(١) ثم نامَتْ ! ؛ وكَم تهادت نَظَرَه كُتبُ العِلْم حتّىٰ قال "كتاب الأمّ" : نِعْم الولَدُ النّجيب ، وقال "كتاب الروضة" : نِعم أخُو الغائث الصَّائب علىٰ رِياض القَوْل المُصيب؛ وقال "الشامل" من فضله : هذا لطلبته "نِهاية المَطْلَب"، وقال "التنبيه" علىٰ محاسِنه : لَيتَ «النّابِغةَ» رآه فدَرَىٰ أىُّ الرِّجال «المُهَذَّب» وكانت المدرسة الشَّهيدية النُّورِيَّة بحمْصَ المحروسةِ قد شَهِدتْ مع مَن شَهِد بفَضْله ، وسَعِدَتْ بنُبْله ؛ ووُسِمَتْ بعَلَمِ عِلْمه، وسَمَتْ سمُوّ الشهباء : هذه بمقَرِّ تَدْريسه وهذه بمجلس حكمه؛ ثم زار دِمَشْقَ زَوْرَةً تشوَّقَتْ [إليه] بعدها تلك المشاهد، وتَشَوَّفَتْ إلىٰ العَوْدِ هاتِيكَ المَعاهِد؛ وقَضَى الوفاءُ أن يُعادَ إليها أحْسنَ إعادَه ، وأن يَرجِعَ إلى الأماكن الشهيدية الشاهدة ببِرّه فتكون منه عادةً ومنها شَهادَه، واقتضَىٰ الاستحقاق أن يَرِدَها بالمعلوم المسْتَقِرّ وزيادة وأحْسنُ ما وَرَدَ البَحْرُ فى الزِّيادَه .

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف ــ أعلاه اللهُ وشرَّفه، وحَلَّىٰ بسِيَره الصالِحة سَمْعَ الدَّهرِ وشَنَّفَه ــ أن يستقرَّ فلانٌ فى تَدْرِيس المدرسة النُّورِيَّة بحِمْص المحروسة علىٰ

(١) يشير الى بيت بشار فى مدح عمر بن العلاء أحد عمال المهدىّ .

إذا أيقظتك حروب العدا * فنبــه لهـا عُمَـرًا ثم نم

وبعـــده

فتى لا ينـام على غـــرة * ولا يشرب الماء إلا بدم

عادته ، وعلىٰ نَهْج إفاءته وإفادته ؛ بالمعلُوم المقرَّر له بمجلس الحكم العزيز الشافعي بدِمَشْق المحروسة : رِعايةً لتلك المعاهد النُّوريَّة التى تتأرَّجُ بها الآصالُ والبُكَر، وأنْوارِ القبول القَائِلة لوَفْدها الطارق : «عَلَيْك سلامُ الله ياعُمَر» .

فلْيعُدْ إلىٰ هذه الوظيفة عَوْدَ الحُلِيِّ إلى العاطل ، ولْيقْبِلْ علىٰ رُتْبته المرتَقبة إقْبال الغَيْثِ على الماحِل، ولْيقُلْ بلسان تقدُّمه لمعانديه : إنْ كان أعْجبكم عَامُكم فعُودُوا إلىٰ حِمْص فى قَابِل؛ ولْينصُرْ بِقاعَها الحِمْصِيَّةَ بجِلادِ جِدَاله فإنَّها من أوَّل جُنْد الإسلام ، وليَقُم الآنَ فى هذه الأوقات الشَّاميَّة فإنَّه برَكَةُ الوَقْت والبركَةُ فى الشَّام؛ مُثْمِرًا من أقلام علومه أزكَى الغُرُوس، مُظْهِرًا من مَباحِثه النَّفائس مُبْهِجًا من طَلَبته النُّفوس، عَامِرًا لمعاهدها بدُرُوسه : وياعَجَبًا لمَعَاهِدَ تُعْمَرُ بالدُّروس! ؛ ذاكِرًا للوصايا الحسنة التى لا تُقَصُّ عليه فهو أخْبرُ بها، والتى من أوَّلها وأوْلاها تقْوَى الله تعالىٰ وهى بأفْعاله أمْسَكُ من تفاعيل العَرُوض بسَبَبِها؛ والله تعالىٰ يُعَضِّدُه فى رِحْلَته ومُقَامه، ويمتع الرُّتَب تَارَةً بمجالس دُرُوسه وتارةً بمجالس أحْكامه ، ويُروِى صَدَىٰ مِصْرَ والشَّامِ من موارد عِلْمه : هذه بأوْفىٰ من نيلها وهذا بأوْفرَ من غَمامه .

المرتبة الثانية

(من تواقيع أرباب الوظائف الدينية بأعمال دِمَشْق ـ ما يفتتح بـ«رسم بالأمر» ، وفيها وظائف)

وهذه نسخ تواقيع من ذلك :

نسخةُ توقيع بحِسْبَة بَعْلَبَكَّ : من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة ، كُتب بها لـ«شهاب الدين بن أبى النور» ، وهى :

رُسم بالأمر الشريف ـ لا زالتْ شُهُب أوامِره عاليةَ السَّنا والسَّناء، وفِيَّةً لذَوى الاستحقاق بمَزيد الاعْتناء والاغْتِناء ، جليَّةَ البرّ بمن شهد بحُسْن حِسْبته حتّى لسانُ الميزان وفَمُ الكَيْل وشَفَةُ الإناء ـ أن يستمرّ فلانٌ ... ... لِمَا ذكر من أوصافه التى ضاعَفتْ فيه الرَّغْبه ، وحالفتْ به سُموّ الرُّتبه ، وشَهِدتْ بهـا حِسْبَتُه تِلْو الشُّهود : وحَسْبُكَ من اجتمعتْ علىٰ فضـله شهادةُ الفَرْض وشهادة الحِسْبَه؛ ولِمَا صحّ من كَفَاءته وتَجْرِبته، (وَضَح فى هـذه الوظيفة من تَدْرِيبـه التى تَدْرِى به ؛ ولِمَا تعيّن من استمرار شِهابِه فى المنزلة التى تَكْتَسِى من أضْوائه وتَكْتَسِب، وهـذه الرتبة التى تعلو بمعرفته : وكفاه أنّه يرزق من حَيثُ يحْتَسِب ومن حَيثُ لا يحْتَسِب! ؛ وأنّه فيهـا ذُو الرَّأى الزَّائد، والنَّفع الوارد ، والشِّهابُ الذى نُورُ هُداه فى وجه المريد وأثَرُ كَىِّ حِسْبته فى وَجْه المـارد ؛ وأنّه وَلِيَها ولايةً لا تزال تُذْكَر وتُشْكَر، وعُرِفَ بوفائها وكان أوْفىٰ من أمَرَ بمعروف أو نَهىٰ عن مُنْكَر ؛ وأنَّه قام حقّ القيام حتّىٰ قال البـلد : رَعَى اللهُ زَمانك ، واجْتَهد حتّىٰ قال الاعْتبار للميزانِ : لا تَذْكُر الزَّيْغَ ولا تُحَرِّكْ به لِسانَك .

فلْيَستَمِرّ فى حِسْبته المباركة استمرارًا يُستَحلىَ ذِكْرُه ، ويُستَجْلىَ فى الاسْم شِهابُه وفى السَّمة بَدْرُه ، وليَحتَسِبْ فى نَفْع المسلمين حِسْبَةً يحْتَسبُ بها عنـد الملكة ثَناءه، وعند الملائكة أجْره؛ سالكًا علىٰ نَهْج العَزْم الجميـل ، جاعلًا أوّل نَظَره من أقْوات الرَّعِيَّة فى الدَّقيق والجليل؛ مُسْتَبينًا لما الْتبس من غِشّ المطاعم والمشارب فلم يَستَبِن، حاكمًا ـ ولا سيّمـا فى قاعات بعلبك ـ برأْيٍ يُفرِّقُ بين المـاء واللَّبَن ؛ حاثًّا علىٰ بَيْع المـآكل بخِبْرة من مَلَإ بصَره، حَريصًا علىٰ أن لا يُنْشِدَ لِسانُ الدَّاخِل فيـه « ومَن لم يمُتْ بالسَّيف مات بغَيْره» ؛ دافعًا ضَرر المُجْترِى البائـع عن المُشْترِى المسكين، ذكيًّا فيما يُذَكَّى فيـذْبَح بسِكِّين ويذبح مُتَناوِلَه بغير سكِّين ؛ قاضِياً بالحقّ فى كلّ ما يُشْترَىٰ

وبياع ، متكلمًا فى أنواع الملابس وغيرها بالباع والذِّراع ؛ وَازِنًا بالعَدْل فى كلِّ مَوْزون ومَكِيُول ، رَادِعًا لكلِّ عَمَّـالٍ مُداهِنٍ فى كلِّ مَدْهون ومَعْمول ، حامِلًا على الحـال المستقيم كلَّ حَىٍّ لديه وكلَّ من هو على آلَةٍ حَدْباءَ محمول ؛ ومن زاد فى الإضرارِ فليَمنَعْ زائده ، ومن زاد فى الأشتطاط وتجبير الشراء فليَقطَعْ بالنَّكال زَائدَه ؛ ومن دَنَّس فى الأشرِبة فلا يلبث أن يُغلِّظ التأديبَ وأن يُرِيقَه ، ومن سَقَ الضُّعفاءَ منها كما يقال : سـقيةً فليَسْقِه من السَّوْط ما يكاد يَنثُر جِسْمَه على الحقيقـه ؛ ومن عانَىٰ صـناعةً ليس له فيها يَدٌ فليَلزَمْه بما بَسط فى إفْسادِه اليَدَيْن ، ومن حَكم فى صِناعَةِ الطِّبِّ بما لم يَسُغ فى المسائل فليَصْرِفْه منهـا بخُفَّىْ حُنَيْن ؛ ومن تمرَّد فى مُعامَلَته فليردّه بالقَهْرِ إلىٰ صالح مَرَدِّه ، ومن عَدَا وعَتَا فليُعامِلْه بمـا يخرجه من التَّرح لا من القَرَح من جِلْدِه ؛ مِقْدامًا فى الأمر بالمعروف والنَّهيِ عن المُنكر ولا جَزَع ، مُسْـتعينًا بالديوان فيما أهَمَّ : فإنَّ الله يَزَعُ بالسلطان ما لا يَزَع ؛ مجتهدًا فيما يزيد تَقَدُّم سَـعْيِه المشكور ، وصُـنْعه المبرور ، مُنيرًا لآفاقِ مَنْصِـبه وكيف لا وهو الشِّهـاب بن أبى النُّور؟ ؛ وتقوى الله تعـالىٰ هى السبيلُ الأقوم فليَكُنْ لها مِنْهاجا ، وليُواظِبْ على طريقةِ الحقِّ : فكَمْ شَرٍّ عنها حاد وكَمْ خيرٍ منها جَا ! .

✦ ✦ ✦

توقيعٌ بنظر السبيل بدرب الحجاز ، بالركب الشامىّ ، من إنشاء آبن نُباتة ، كُتب به للقاضى «قطب الدين السبكىّ» وهو :

رُسِم بالأمر ــ لا زال يُقِرُّ بالوظائف الدِّينيـة من يُحِبُّها وتُحِبُّه ، ومَن يتواردُ على ذِكْره بادِى الشُّكر ورَكْبُه ، ومن إذا بَدَتْ مطالـعُ الخَيْرِ فهو نَيِّره وإذا دار فَلَكُ الثناء فهو قُطْبُه ــ أن يستقرّ ... ... : لمـا ذُكِر من وَصْفه الجميل ، وآستحقاقه الذى دلَّ

البرهانُ فى مَحْفِله وبرهَنَ فى مَوْكِبه الدليل ؛ وديانَته التى هى لمبانى الأوْصاف الرَّفيعة أَسَاس، وكَفَاءَته التى لهـا من نَفْسه نَصٌّ ومن نَفْسِ قومه قِياس؛ ومَرْباه فى بَيْتِ تقىٍّ صَحَّت تَجاربُ مَعْدنِه على السَّبْك، و[دلت] مَناقبه على آستحقاق الرُّتَب التى يقول بَشِيرُها : قِفَا نَبْتَسِمْ ! ويقولُ حاسِدُها : قِفَا نَبْك ؛ ولِمَا تقدَّم من تَشَوُّفه لهـذه العَزْمة الناجحه ، وتَشَوُّقه من هـذه المبرَّة الشريفة الصالحيَّـة بسُلوك تلك الفِجاج الصَّالحه ؛ ولأنَّ الضَّعْفَ عاقه عن المـاضى فأطْلقتْه الآنَ هذه القُوَّه ، وجعلتْ له بأَوْفَى القادرين على الحسنات والإحسان أُسْـوَه ، ومكَّنته فى هذه الشُّقَّة الطويلة علىٰ سَحْب أذيال المعروف من منزل الكُسوة إلىٰ منازل ذات الكُسْوه .

فلْيباشِرْ هذه الوظيفةَ المبرورةَ بعَزْمٍ يُبِير من الوَجْد ما كَنَه[1]، وحَزْمٍ يُثِير من المَدْح المشكورِ كَامِنَه ، وسُمْعة علىٰ ألْسنة التذكار يَمْضى وتَبْقىٰ حتّى تكاد تكونُ للكواكب السبعة ثَامِنَـه ؛ مُتَصرِّفًا فى الإرفاد والإرفاق ، بآراء يؤيد الله [بها] الذين هم رِفاقٌ وأىُّ رِفاق؛ مُنْفِقًا فى سبيل الله علىٰ يده أعْدلَ إنْفاق ، حاميا عَدْله من لَفْظة نِفَاق؛ مُخْصِبا بإنعام الدَّولة الشريفـة فى القَفْر المـاحل ، حامِلًا للمنقطع علىٰ أنهض وأبركِ الرواحل؛ مُواصِلًا لنَقْل الأزْواد إقامَته ومَسِيرَه ، وبالماء والشَّراب الطَّيبين الطَّهُورين ضَعيفَه وفَقيرَه ، وبأنواع الأدْوية والعقاقير التى تَعُمُّ متابع الرَّكْب [.و] عقيره ، وتَجْبُر على الحالين كَسِيرَه ، وبوَفاءِ جميع المستحقِّين تَاليًـا عن لسان الدولة الشريفة : ﴿ قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِـيرَه ﴾ داعيا بخُلُود مُلْكها فى تلك المشاهـد التى هى بقَبُولِ مَصَاعِد الدَّعوات ونُزُول مواعد البركات جَدِيرَه؛ واللهُ تعـالىٰ يَتَقَبَّلُ دعاءه وسعيه، ويُحْسن كِلاءَتَه ورَعْيَه، بمنه وكرمه ! .

---

(١) يريد مكنه ولكنه اضطره السجع الى موافقة العامة .

الصــــنف الثــالث

(من التواقيع التى تُكتب لأرباب الوظائف بِدِمَشْقَ ـ مايكتب لأرباب الوظائف الدّيوانية، وهى علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(ما يكتب لمن بحاضرة دِمَشْق منهم ، وهو علىٰ ثلاث مراتب)

المرتبــــة الأولىٰ

(ما يفتتح بـ«الحمـــد لله» وفيهــا وظائف)

وهذه نسخ تواقيع من ذلك :

نسخةُ توقيعٍ بكتابة الدَّسْت بِدِمَشْق ، كُتب به لتـاج الدين « عبـد الوهاب » ابن المنجا التنوخىّ، عِوضًا عن شمس الدين «محمد بن حميد» بالوفاة، وهى :

الحمدُ لله الذى جعل تاجَ الأولياء أيْنما حَلّ حلّى المراتبَ وزانَها، وغَدا على التّحقيق كُفْأَهَا ووِزَانَها ، وألبسها من براعتِـه وبَراعَتِه عقودًا تَزُرُّ دُرَرها وجُمانَها . ومَنَح دَسْـتَها العلىَّ من ألفاظها المَجيدَة بيانَها ، وزادها بأصالَته فَخَـارًا يستصحبُ وقتَها وزَمانَها، وأرتقىٰ ذِرْوَتَها التى طالَمَـا زاد بالمعالى أركانها، فتبوّأ بمزيد المَجْد مكانَهَا .

نحمدُه علىٰ نِعَمِه التى أجزلَتْ إحسانَها، وأجْملتِ آمْتنانَها، ونشهدُ أن لا إلٰه إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تشهدُ القلوبُ إيمـانَها ، ويدّخرُ القائلُ إلىٰ يوم المَخَـاف أمانَها ، ويتَبَوّأُ بهـا فى الدّار الآخرة من يُخلص فيها جَنَانَه جِنانَها ، ونشهدُ أنَّ سيدَنا محمّدًا عبدُه ورسولُه الذى أظهر اللهُ تعالىٰ به الشريعةَ المطهرةَ وأبانَها ، وشرّف هذه الأُمّةَ ورفع علىٰ جميع الأمم شانَها ، وبعثه رحمةً إلىٰ كافّة الخلقِ فأقام بمعجزاته دليلَ

الهداية وبرهانها ، وأطفأ بنور إرشاده شرر الضلالة ونيرانها ؛ وأنحمد بدينه القويم وصراطه المستقيم معتقدات [طوائف] الشرك وأديانها ؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين ما منهم إلا من نزه نفسه النفيسة وصانها ، وسلك فى خدمته وصحبته الطريقة المثلى فأحسن إسرار أموره وإعلانها ، صلاة دائمة باقية تمد بالأجور أقترانها، وسلم تسليما كثيرا .

وبعد ، فإن أولى من جددنا رفعة تاجه ، وسددنا قوله فى مجلس عدل ينشر فيه بكلمة الحق ما انطوى من أدراجه ، وحددنا له محل سفارة يلحظ فيه حوائج السائل فيغنيه عن إلحاحه ولجاجه — من هو فى السؤدد عريق ، ولسانه فى الفضائل طليق ، وقلمه حلى الطروس بما يفوق زهر الرياض وهو لها شقيق ؛ وكان فلان هو الذى علا تاجه مفرق الرآسه ، وجلا وصفه صور المحاسن والنفاسه .

فرسم بالأمر العالى — لا زال يولى جميلا ، ويولى المناصب الجليلة جليلا — أن يستقر المشار إليه فى وظيفة توقيع الدست الشريف بالشام المحروس ، عوضا عن فلان بحكم وفاته إلى رحمة الله تعالى ، بالمعلوم الشاهد به الديوان المعمور إلى آخر وقت .

فليباشر ذلك مباشرة تشكر مدى الزمان ، وتحمد كل وقت وأوان ، وليملأ بالأجور لنا صحفا بما يؤديه عنا من خير وإحسان ؛ والوصايا كثيرة وأهمها التقوى ، فليلازم عليها فى السر والنجوى ، والله تعالى يحرسه ويرعاه ، ويتولاه فيمن تولاه ، والاعتماد ... ...

⁂

[وهذه نسخة] توقيع بنظر الخاص ، من إنشاء ابن نباتة ، كتب به للقاضى «بهاء الدين بن ريان» ، وهى :

الحمدُ لله مُعْلى رُتَبِ الأعيان ، ومبْق أحبَّاء السِّيادة على ممرّ الأحيان ، ومُبْدى "بهاء" المناصب ، بمن فَضْلُه الواضح والصُّبحُ سِيَّان ، ومُنْشى ثمرات المَناقب ، فى مَنابِتِ أهْلِها حيثُ الفَرْعُ باسِقٌ والأصل "رَيَّان" .

نحمدُه على أنْ يسَّر البَيْتَ المعلَّى بحسَنه ، وأيْقظ جَفْن الآمال من وَسَنه ؛ ونشهدُ أن لا إله إلّا اللهَ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تجمع لنا من خيرى الدُّنيا والآخرة كَرَم المُطَّلِبين ، وشَرَف المُنْصِبين ، ونشهدُ أن سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه المشرقُ فضلُه على أهل المَشْرِقَين والمَغْرِبَين ؛ صلَّى الله عليه وعلى آله وصَحْبه الذين أصبح الثناءُ عليهم وقفا ، وٱشتمالُ الذِّكرِ عليهم عَطْفا ، صلاةً تُضِيءُ آفاقَ القَبُول بشَمْعة صُبْح لا تُقَطُّ ولا تُطْفى ؛ وسلَّم .

أما بعدُ ، فإنَّ للمناصب الدينية نِسْبةً ببيوت أهْلِ الدِّيانه ، ولخاصِّ الرُّتَب تَعلقًا بالخاصِّ من ذوى الكَفَاءة والأمانَه ؛ والمنازلُ بكواكبِها المتألِّقَه ، والحدائقُ بمغارِسها المتأنِّقه ، ونفوسُ الدِّيار بسُكَّان معاهدها المُتَشَوِّفة المتشوِّقه .

ولمَّا كان الخاصُّ الشريفَ والوقف المنصوريُّ لوجْه المناصب الشامية بمنزلة حُسْن الشامَتَيْن ، ولرائد الخِصْب من جهتَى الدنيا والآخرة بمحلِّ نَقْع الغمامتين ؛ هذا على صُنْع البرِّ الممدودِ مَقْصور ، وهذا لسَحابِ الخَيْر سَفَّاحٌ لأنهر جِهَة لـ«المنصور» ؛ يعْلُو هذا بالنَّاظر فى دقائقه إلى أعْلَى الدَّرَج ، ويَتْلُو هذا بلسانِ ميزانه المُنْفق على المارستان : ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ﴾ — لايليق الجَمْعُ بين رتبتَيهما إلّا لمن يجمع بسَعْيِه فضْلَ الدَّارَيْن ، ومن يُجيدُ بَنانُ قَلَمه الحَلَبِيّ حَلْبَ ضَرْعَيْهما الدَّارَّيْن ؛ ومَن نَشأ فى بَيْتِ سعادةٍ أذنَ اللهُ لقَدْره أنْ يُرفع ، وأقْلامِ بيته أن تَنْفع ، ولمحاسِنِ ذَوِيه أن تَشْفَعَ بجمالها إلى قلوب الأولياء فتُشَفَّع ؛ ومَن يسُرُّ بروايةِ فَضْله وبرُؤْيته السَّمْعَ والعَيْن ، ومَن يفْتَرِض شَرَفُه وشرفُ

إخائه حُبَّ «الحَسَن» و «الحُسَين» ؛ ومن تَبْتهِجُ جوانحُ المحاريب بتَعبُّده ، وتَلْهَجُ أَلْسِـنةُ مصابيح المساجد بالثَّنـاء على تَرَدُّده وتَودُّده ، وتَسْتَبِقُ جيادُ عَزْمه : فبينَما الكُمَيْتُ فى الشَّهْباء تابِعُ أدَبِه إذا بآبن أدْهَمَ رَسِيلُ تَزَهُّده ؛ ومن تقولُ مناصبُ حَلَب : لله دَرُّ بهائه المُقْتَبَل ! ؛ ومن ينشدُ ثباتُ وَقاره مع لطافة خُلُقه : «ياحَبَّذا جَبَلُ الرَّيَّان من جَبَل» ! ؛ ومن تَنْفَحُ أخبارُه مَنابِعَ الأزْهار ، ومن يشهدُ بفَضْله جيشُ المحراب فى الَّليل و بمباشرته جَيْشُ الحَرْب فى النهار ؛ ومن تأْسى بلدةٌ فارقها فراقَ العَيْن للوَسَن ، ومن يَروى صامتُ دِمَشْق وغيرها من تَدْبيره عن «عامر» وعن «حَسَن» .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف ــ لا زال من ألقابه الشريفة صالحُ المؤمنين ، وعمادُ الدَّاعينَ لدَوْلته القاهرة والمُؤَمِّنين ــ أنْ يفوَّضَ للجناب العالى ... ... فإنَّه المَعْنِيُّ بهذه الأوصاف المتقدِّمَه ، والمقصودُ بإفاضَة حُلَلِها المُعْلَمَه ، والموصوفُ الذى يحلُو وَصْفُه إذا كُرِّر ، ويَسْتَعْبِدُ الأوصافَ والأسمـاع إذا حُرِّر ، والأحَقُّ برتْبَـة عِزٍّ فى النُّظار مَضَى وأبقَى ثناءَه ، ومكانِ نَظَرٍ إن لم يقُـلِ الدعاءُ اليَوْم : أدام اللهُ عِزَّه ! قال : أدام اللهُ بَهـاءَه ، واللَّائِقُ بتَقْرير مَنْصِب تقصُرُ دونَه المطامع ، وتَصْدير ديوانٍ إن آنقطعَتْ روايتُه عن «حَمْزة» فقد آتَّصلتْ روايتُه عن «نافع» .

فلْيباشِرْ هٰذَيْن المَنْصبين المُنْجبَين ، مجتهدًا فى مصالح الخاصِّ الشريف ، والوَقْف الذى لا تحتاج هِمَّتُه فيـه إلى تَوْقيف ؛ حتَّى يكونَ خيرُ الخاصِّ عامًّا ، وأمْرُ الوقف تامًّا ، ورَيعُهما بالبركات خيرَ محفوف ، والمنصوريُّ من جهة المعاضدة قد أضحَى وهو بالعَضُدَيْن موصوف .

والوصايا متعدِّدةٌ وهو أدرَى وأدْربُ بهـا ، وتقوى الله تعالى أوْلَى وَصِيَّةٍ تمسَّكَ المرءُ بسَبَبِها ، وشكرُ النعمة أدلُّ على نَبِيه هِمَمِ الرجال وعلى فضل مُهَذِّبِها ؛ واللهُ تعالى يُسدِّدُ قَلَمه ، ويثبِّتُ فى مطالع العزِّ قَدَمه ؛ بمنِّه وكرمه ! .

* * *

توقيعٌ بنظر الخزانة العاليـة، من إنشاء آبن نُباتة، كُتب به للقاضى «تقىّ الدين آبن أبى الطّيّب» بـ«الجناب العالى» وهو :

الحمدُ لله الذى له خزائنُ السموات والأرض، وبحكمته يَهَبُ منها مايشاءُ لمن يشاءُ رضِىَ المُعانِدُ أم لم يَرْض ، وبِمنّته فُضّلتْ مراتبُ أهلِ التّقىٰ على الرُّتَبِ كما فُضِّلَ على النافلة القَرْض ، وبعنايته بُنِيتْ بيوتُ أهــلِ السِّيادة على الطُّولِ وبَقِىَ صالحُ عملهم إلى العَرْض ، وبهدايته سمــا إلىٰ أعْلَى الخزائنِ من تُقرِضُها أوصافُ قلبــه وقلمِ أبيه أحسنَ القَرْض .

نحمدُه علىٰ مامنح من خزائنِ فَضْله ، ونشكُره والشُّكر ضامنُ المَزِيدِ لأهْله ؛ ونشهدُ أن لا إله إلّا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةً يدَّخرُها الإنسانُ لنيّته وقوْله وفعْله ، ونشهدُ أنّ سيدَنا محمّدًا عبدُه ورسولُه الذى جمع بفَيْئه وفرّق ببذْله ، وأعطىٰ مالم تنْطَوِ ضمــائرُ الأكياس فى صُــدُور الخزائن علىٰ مثْــله ، صلّى اللهُ عليــه وعلىٰ آله وصَحْبه السّالكين سَنَنَ فضيلته وفَضْله ، التابعين فى الكَرَم والبأْس قِياسَ بيانه ونَصّ نَصْله ؛ ما أطْلَعتْ خِزانةُ الوَسْمِىّ آثارَ نُقَط الغَيْث كالدَّراهِم، وخلَعتْ على الدنيا خِلَعَ الروض مُتَقَلِّنسةً بمُسْتديرِ الظّلال مَزْرُورةً بمعقودِ الكمائم ؛ وسلّم تسليمًا كثيرا .

وبعدُ، فإنّ الرُّتَبَ ذخائرُ قومٍ فى خزائن الآختيار، وأخايرُ أهْلٍ تزكو نقودُ شيمهم علىٰ محكّ الآعتناء والآعتبار، وفروعُ خلَفٍ تظهر مَظاهرُ نُصولها الزكيّة سابغةَ الظِّلِّ رائقةَ الزَّهر فائقةَ الثّمار، إذا آحتيج منهم إلىٰ ذخيرة نَفَعتْ، وإلىٰ أخيرِ وَقْتٍ أرْبىٰ علىٰ عزائم الأُوَلِ وما صَنَعتْ، وإلىٰ فُروعِ شجرةٍ سَرَتْ محامِدُها الضّائعةُ : لا ممّــا ضاعَتْ بل ممّــا تضوّعتْ .

ولما كانت رتبةُ نَظَرِ الخزانة العالية بدمشق المحروسة أحقّ بمن هذا وَصْفُه، وهذا نَعْته فى مُقدِّمة الذِّكر الجميل وهذا إليه عَطْفُه؛ إذ هى مرتبةُ العَلْياء ومكانُها، وزُهَرة سَماءِ المملكة وميزانُها؛ ومَنْشأُ غُيوثِ صِلاتها الهَامِره، ومَنْبِتُ رياض خِلَعها الزَّاهِره؛ وأُفُق السعادة ومَطْلَع نجمها المُنير، وجَنَّة أولياءِ الدَّوْلة ولِباسُهُم فيها حَرِير؛ ومَعْنىٰ شَرَف الاكْتِساء والاكْتِساب، ومأْوَى الفاضِل ــ والحمد لله ــ الذى يَحْفظها التحصيلُ بحساب ويُعْطيها الجُودُ بغير حساب.

وكان الجناب ... ...(١) ممن تضم أعطافه أنوار السِّعاده، وتحفُّ أطرافه و ... ...(١) السِّياده، وتَنْتَقِلُ جِلْسته: إمَّا من تنفيذ الديوان لمَرْتَبة وإمَّا من تَدْريس العِلْم لسَجَّادَه؛ ذُو الفَضْل والفضائل حَسَنُ التَّجْنيس والتَّطْبيق، والكتابةُ: من حساب وإنْشاء زاكيةُ النَّثْر علىَ التَّعليق؛ ونفحات البِر من نفحات العيش أجود، والشيبية فيها النهىٰ فكأنه كما قال البحترىّ: نسبٌ أسْوَد؛ والهِمَم التى حاولَتْ مَنال الشُّهُب المُمتنِعة وَلاتَ حِينَ مَناص، والكلمة التى لو عايَنَ «البَصْرىُّ» فرائد نَحْرِها لقال: كلُّ هذه دُرَّة الغوَّاص، والعَزائِم التى رامت المناصبَ فما قَبِلَتْ من خزائنها سوى الرَّفيع وما رَضِيَتْ من دِيوانها سِوَى الخاص؛ كَمْ نَبَّهتْ منه المقاصدُ «عُمَر ثم نَامَتْ!»(٢)، وكَمْ أجلَسَتْه كواكبُ اليُمْنِ فى صَدْرِ مَحْفِل ثم قَامَتْ!؛ كَمْ حَوىٰ من الحَمْد سَنِيّا!، وملأ الرِّباع خيراً وَفِيّا!، وقيَّض اللهُ للفقراءِ والأيتامِ حَناناً من لَدُنْه وزَكاةً وكان تَقِيّاً.

---

(١) بياض بالأصل فى الموضعين.

(٢) أخذه من بيت بشار:

إذا أيقظتك حروب العدا * فنبــه لهـا عُمَـراً ثم نم

يريد عمر بن العلاء أحد عمال المهدىّ وكان على طبرستان.

فلذلك رُسم بالأمر الشّريف ـ لا بَرِحَ صَـالِحَ الدهرِ كالزّهْر ، مالكَ نُفُوس الأوليـاءِ والأعداء : هاتيكَ بالإنعامِ وهاتيك بالقَهْر ـ أنْ يفوّضَ إليه نظرُ الخزانة العالية مُضافًا إلىٰ ما بيَدِه من نظر الخاصّ الشريف : لأنّ مثلَه لا يُصْرفُ عن وَظِيفَة بسَنَاهُ تَعْتَرِف ، ومن نَدَاهُ تَغْتَرِف ، وأنّ اجْتِماعَ العَدْلِ والمَعْرِفَة قَاضٍ بأنّ «عُمَـر» لا ينْصرِف ؛ وأنّ الخاصّ لخـاصّ الأولياءِ أمَسُّ مكَانَه ، وأنّ الخزانَةَ أنْسبُ بمَن عُرِف بالصِّيانَه ؛ وأنّ خَزائِنَ الأرضِ وهي مِصْرُ لو نَطقَ نَظيرُها لقال : ليسَ لِي مِثْلُ هـذه الخِزَانَه ؛ وأنّ عينَ الأعيان أوْلىٰ بالنَّظَر ، وأنّ الأنْظار لا بل الصّحابةُ أحقُّ بـ«عُمَر» ؛ لِمَـا عُلِمَ من سِيرَتِه النَّقِيَّه ، وسَرِيرَتِه التقيه ، وصفاتِه التي يمتَدُّ فيها نَفَسُ القَوْلِ حتَّى ينقطِعَ وفي الأوْصافِ بعدُ بَقِيّةٌ وبَقِيّه .

فلْيباشِرْ ما فُوِّضَ إليه من أعْلَى المراتِبِ المُنْجِبات ، والوظائف المُعْجِبات المُعْشِبات ، والجهاتِ التي مالَهـا كَنِيته الطَّيِّبي : والطَّيِّبون للطَّيِّبات ؛ مُسْتَجِدًّا من نَظَر هـذه الخزانة ثَوْبَ سَعْده الجديد ، مُعْمِلًا في مصارف الذَّهَب والفضَّة بَصَر آرائه الحَديد ؛ مُنَبِّهًا لهـا عَزْمَه العُمَرِيّ ونعم من يُنَبِّه ، مُشْبِهًا فِى الكَفاءَة أباهُ المرْحُومَ وما ظَلَمَ من أشْبَه ؛ مُقَرِّرًا من أحوالِها أحْسن مُقَرَّر ، مُحَرِّرًا من أُمورِها أوْلىٰ ما اعْتُمِدَ والخـزانةُ أوْلىٰ بالمُحَرَّر ؛ حافِظًا لما لها بقَلَمِ التَّحصيلِ حتَّى ينفَدَ قلَمُ الإطلاق ، صائِنًا لوفْرِها حتَّى يُنْفقَه الـكرَمُ خَشْيةَ الإمْساكِ بعد ما أمْسَكَه الصَّوْنُ خَشْيةَ الإنْفاق ؛ مُسْتَدْعِيًا من أصْنافِها كلَّ ماتنوَّعَ وتَصَنَّف ، وتَوشَّع وتَفَوَّف ، مُثْبِتًا كلَّ ماخُلِـع من ديوانها العَزِيزِ وتَخَلَّف ، مُؤَلِّفًا للكَساوِىّ(١) في رِحْلَةِ كلِّ صَيْف وشَتْوَه ، مُواصلًا للأحْمال من دِمَشْقَ علىٰ كلِّ حال من جهة الكُسْوَه ؛ مُنْهِيًا لإنعامها بقَلَمِ الإطلاق التَّام ، مُتلقِّفًا بعصَا قَلَمه في يَدِه البيضاءِ ماتَأْفِكُ عَصَا الأقلام ، حَرِيصًا على أن يكونَ بابُها في الكَرَم كما يقال :

(١) لم يرد هذا الجمع فيا بأيدينا من كتب اللغة . والظاهر أنه جارى العامة فى استعمالهم .

«سَهْلُ الحِجاب مُؤَدَّبُ الخُدّام» ؛ عاملًا بتقوى الله تعالى التى بها يُبْدَأُ الذِّكْر الجميلُ ويُخْتَم ، ويُلْبَس بها فى الدُّنيا والآخرة رِداءُ الخير المُعْلَم ، غَنِيًّا عن تبيين بقايا الوَصايا التى هو فيها بَحْرٌ ، وآبْنُ بَحْرٍ بكتاب "البيان والتبيين" أعلم ؛ والله تعالى يمدّه بفضْله ، ويحفظُ عليـه الفضْل الذى هو من أهْله ؛ ويملأُ آمالَه بغَمام الخَيْر الصَّيِّب . ويُديمُ سعادةَ بَيْتِه الذى لا يَرْفع الشُّكْرَ لطيبه إلا الكَلِمُ الطَّيِّب .

المرتبـــة الثـانية

(من تَواقيع أرْباب الوظائف الديوانية بحاضِرة دِمَشْق ـ ما يُفْتتح بـ«أمّا بعدَ حمدالله»)

وهذه نسخ تواقيع من ذلك :

[نسخة] توقيع بنَظَر الأسْرى ونَظَرِ الأسْوار، كُتب بها لدوادار الأمير «سودون الطرنطاى» كافِلِ الشَّام، وإن كانت هى فى الأصْل ديوانية أو دينيَّة، وهى :

أمّا بعـدَ حمدِ الله الذى خصّ أولياءَه بفَضْله الوَافِر، وعمَّهم بحُسْن نَظَره فأشرق صُبْحُ صَبَاحِهم السَّافر ، وآنْتَضى من عزائمهم لنُصْرةِ الدِّين سَيْفًا يسُرُّ المؤمنَ ويَغيظُ الكافر، وآجْتَبى من الكُفَاة من يشَـيِّدُ مَعاقِلَ الإسلام بفَضْله المتَظَافِر ؛ والصلاةِ والسلامِ الأتَمّين الأكْمَلين على سـيدنا محمد الذى أضاء برسالته الوُجُود ، وخصّه الله تعالى بالصِّفات الفَائقة والمآثر الحَسنة والجُود ؛ وعلى آله وصَحْبه الذين حَرَسُوا المِلّةَ الحَنيفيَّة من جهادهم بأمنع سُور، وأوْهَنُوا جانبَ الكُفْر وأنقذُوا الأسير وجَبَرُوا المكسور ؛ صلاةً دائمـةً مَدَى الأيَّام والشُّهور ، مُعْلِيَةً للأولياء عَلَم النَّصر المنْشُور ـ فإنَّ أوْلى من عَدَقْنا به المناصبَ السَّنِيَّة ، وفوّضْنا إليـه جَليلَ الوظائف الدِّينيَّـة ،

ونُطْنَا به فَكَّ رَقَبَـةِ المُسْلم من أسْره ، وخَلاصَـهُ من عَدُوّه الذى لا يَرْثِى لمسْكَنَته ولا يَرِقُّ لكَسْره، وأجْرَيْنا قَلَمَـه ببَذْل الفِدَاء، وجعلنـا مِدَادَه دِرْياقًا لمرَض الأسْر الذى يعدِلُ ألف دَاء، وأقمناه للعانِى من شَرَك الشِّرْك مُنْقِذا، وللدافع فى بَيْداء العِدَا بحُسْن إعانته مُنْجِدا ، وللأسْوارِ المُمَنَّعة بجميـل نظره مُتَفَقِّدا ــ مِن أضحىٰ فَضْلُه ظَاهِرا، وجلالُه باهِرًا، وخِلالُه مَوْصوفةً بالمحـاسن أوّلًا وآخرا .

وكان فلانٌ هو الذى بَهَرَتْ مآثِرُه الأبصارَ ومَلأَتِ الأسْمـاع ، وٱنعقـدتْ علىٰ تَفَرُّدِه فى عَصْره بالمفاخِرِ كلمةُ الإجْماع ، وسارَتِ الرُّكبانُ بذِكْره الذى طاب وجُودِه الّذى شاع ، وصَفَتْ سَرِيرَتُه، فأضحىٰ جميـلَ الإعلان، وحُمِدتْ سِفارَتُه، فكانتْ عاقِبةُ كلِّ صَعْبٍ ببركتها أنْ لَانَ .

فلذلك رُسِم بالأمر العـالى ــ لازال يُولِى جميلا، ويُوَلِّى فى الوظائف جَليـلا ــ أن يستقرّ المشارُ إليـه فى وظيفتَىْ نَظَرِ الأسْرىٰ والأسْوار بدِمَشْقَ المحروسـة ، علىٰ أجمـلِ عادة ، وأكمل قاعدة ، بالمعلوم الشاهـد به ديوان الوقْف المبرورِ إلىٰ آخر وَقْت : وضْعًا للشىء فى محلِّه ، وتَفْويضًا لجميل النَّظَر إلىٰ أهْله .

فليباشِرْ ذلك مباشرةً تَسُرُّ النفوس، وتَرِيدُ بها الغِلالُ وتَزْكُو بها الغُروس؛ ولْيُجْرِ أحوالَ الوَقْف المـبرورِ علىٰ مقتضىٰ شَرْط الواقف والشَّرع الشريـف ، ولْيَتَصَرَّف فى تحصيل المـال وإنْفاقه أحْسنَ تَصْريف؛ ولْيجْتَهِدْ على تخْليص المأْسور، وإغاثَة مَن ضُرِب بينه وبينه بسُور؛ ويُسارِعْ إلىٰ تَشْييد الأسْوار المُمَنَّعه، وإتقان تحصينها: ليَتضاعَفَ لمن حَوَتْه منّا الأمْنُ والدَّعَه؛ والوصـايا كثيرةٌ وملاكُها تقوىٰ الله تعالىٰ وسُلُوكُ صِراطِ الحَقِّ المستقيم : فليُواظِبْ عليها ، ولْيَصْرِفْ وَجْهَ عنايته إليها ؛ والله تعالىٰ يُديم عُلاه ، ويتولّاه فيما تولاه ؛ بمَنِّه وكرمه .

توقيع بصحابة ديوان الأسرى، من إنشاء ابن نباتة، كتب به للقاضى شرف الدين «سالم بن القلاقسى»، وهو :

أما بعد حمد الله الذى جدد بطالع الشرف قواعد بيت السياده، ومشاهد حوك السعاده، ومصاعد ذرا الأقلام التى قسمت مجانى قصبها للإفاءة والإفاده، ومعاهد القوم الذين سلكوا مسالك سلفهم الحسنى: ولو كان التمام يقبل هنا مزيدا قيل: وزياده. والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى شد الله برسالته أزر الحق وشاده، وعلى آله وصحبه ذوى الأقدار المستزادة المستجاده، ما اتصل بحديث الفضل سنده وأمن بيت التقوى سناده - فإن البيوت المنتظم فخارها، المأمون من عروض الأيام زحافها وانكسارها، أولى بأن تنتخب لهم المناصب كما تنتخب للبيوت المعانى، وتستقرى الوظائف العلية كما تستقرى لمواضع كلمها المبانى، وتختار لنجل الأصحاب(؟) بينهم كل جهة مأمونة الصحابه، موفورة السحابه، مجرورة ذيل الخيرات السحابه، مصونة عن غير الأكفاء كما يصان لجهات حجبا، لائقة بالأفاضل لأن لأوقاف الأسرى بالفاضل نسبا .

فلذلك رسم بالأمر الشريف أن يرتب فى كذا : علما بأنه الرئيس الذى إذا ولى وظيفة كفاها، وإذا وعدها بصلاح التدبير وفاه وفاها، وإذا وصل نسبها بنسبه كان من إخوان صفائها لا من إخوان صفاها، والخبير الذى استوضح بيمن الرأى مذاهبه ومسالكه، والعالم الذى إذا مشى الأمور بسط جناح الرفق وإذا مشى بسطت له أجنحتها الملائكه، والجليل الذى إذا نظر ذهنه فى المشكلات دقق، والكاتب الذى تعينت أقلام علمه وكفاءته إلا أن كلها فى الفضل محقق، هذا وخط عذاره ما كتب فى الخد حواشيه، وليل صباه ما اكتمل! فكيف إذا أطلعت كواكب

المَشِيبِ دَياجيه ، وكَيْف لا ؟ وأبوه ـ أعلَى اللهُ تعالى مَجْدَه ـ صاحِبُ المَجْدِ الأثيل ، والفَضْل الأصِيل ، ووكِيلُ السلطنة الذى إذَا تأمَّلت محاسِنَه قالتْ : حَسْبُنا الله ونِعْم الوكِيل .

فلْيباشِرْ هذه الوظيفةَ برأْيِ يُسَهِّلُ ـ بمشيئة الله ـ عَسِيرَها ، ويفُكُّ ـ بعَوْن الله ـ أسِيرَها ، واجتهادٍ سَنِيٍّ يُحسِنُ قلمُه فى الأُمور مَسْرَى ، واعتمادٍ سَرِىٍّ لا يرى ديوانُ أسرى منه أسْرَى ، مُشْبِهًا أباه فى عَدْلِه ومن أشْبه أباه فما ظلم ، وتوقُّد رأْيه لَدَى طَوْدِ حِلْمٍ وعِلم «فيالك من نَارٍ على عَلَمَ ! » ؛ حتّى يأْمَنَ ديوانُ مباشرته من ظُلْم الظالم ، ويُشْعِل ذكاءَه حتّى يقال : عجبا للْمُشْعِل نَارًا وهو سالم ! ؛ ويُثَمِّر مالَ الجهَةِ بتَدْبيره ، ويشْتَرِك لفظُ إطلاقِ الديوان فى ماله وأسيرِه ، وتَنْتقِلُ الأسْرَى من رُكُوب الأداهِم إلى رُكوب الشُّهْب والحُمْرِ من دَراهِمه ودَنانيرِه ؛ ويُحمد على الإطلاق ، وينفِقُ خَشْيَةَ الإمساك إذا أمْسك [غيره] خَشْيَةَ الإنفاق ؛ ويمشى بتَقْوى الله ـ عزّ وجلّ ـ فى الطَّريق اللَّاحِب ، ويُنْتَسَب إلى ديوانه وقَوْمه فيقال : صَاحِبٌ طَالَما انتسب من سَلَفِه لصاحِب ؛ والله تعالى يُنْجِح لكواكب رأْيِه سَيرا ، ويَجْبُر به من ضَعْف الحال كَسِيرا ، ويُكافِئُ ساداتِ بَيْتِه الذين ﴿يُطْعِمُون الطعامَ على حُبِّه مِسْكِينًا ويَتِيمًا وأسِيرا﴾ .

المرتبـــة الثـالثة

(من تَواقيع أرْباب الوظائف الديوانية بحاضرة دمشق ـ ما يُفتتح بـ«رسم بالأمر الشريف»)

وهذه نسخ تواقيع من ذلك :

نسخة توقيع (١) ... ... من إنشاء ابن نُباتة ، كُتب به للقاضى «علاء الدين بن شرف الدين بن الشهاب محمود» عند موت أبيه وهو صغير ، وهى :

(١) بياض فى الأصل ولعله « توقيع بكتابة السر » .

رُسم بالأمر الشريف ـ لا زال يَجْبر بِبِرِّه مُصابَ الأبناء بآبائهم، ويَبُشّرهم بما يتجدَّد فى كواكب الشَّرف من عَلائهم، ويُعْتِق قلوبَهم من إسارِ الحُزْن حتَّى ينشئوا من الصِّغَر على أنساب عِفَّتِهم وولائهم ـ أنْ يستقرَّ ... ... آعتمادًا على نَجابَتِه الشاهده، ومَخايِل هِمَّته السائده؛ وآستنادًا إلى أصالَتِه التى لا يُبْدِى فَرْعُها إلّا زكىَّ الثَّمَر، ولا يهدِى بَحْرُها إلّا أنفسَ الدُّرَر، ولا يخلِّف أُفقُها إلّا كبيرًا تَسْتصغِرُ الأبصارُ رُؤْيته: والذَّنْبُ للطَّرْف لا للكَوْكَب فى الصِّغَر؛ وعلمًا أنّه من أُسْرةٍ شِهابيَّةٍ لايهتدى فى الإنشاء إلّا بنُورِهم، ولا يُحَدِّثُ بالعجائب إلّا عن بُحُورِهم؛ ولا يُنْبِتُ أقلامَ البلاغة إلّا عُشْبُهم، ولا تُعشِب روضاتِ الصحائف إلا سُحُبُهم، ولا تُثْبِت أفلاكَ الكتابة إلا كُتُبهم؛ صَغيرُهم فى صدور الإنشاء كبير، ومُلَقَّن آيات فَضْلِهم يَرْوى أمْداد الفوائد عن «آبن كثير»، وعليهم بعد «أبى بكر» تقول المحامد لسَلَفه وخَلَفه: منّا أميرٌ ومنكم أمير؛ وأنّه اليومَ لا سَيْفَ إلّا «ذو الفقار» من أذهانهم، ولا فَتًى إلّا «عَلِىٌّ» من وِلْدانهم؛ وأنَّ فَرخ البطِّ سابح، وسَعْد القوم للأنْداد ذَابح؛ وخواتم صُحُف الجمع الظاهر أشبهُ بالفواتح؛ والبلاغةُ فى الدنيا كنوزٌ والأقلام فى أيديهم مفاتح؛ وأنّ الكلام حليته وسِمَتُه[1]، وأنّه إذا خدم دَوْلةً بعد مُخَلِّفه قيل للذاهب: لقد أوحَشَنا وجهُه وللقادم: لقد آنسَتْنا خِدْمَتُه.

فليأخُذْ فى هذه الوظيفة بقُوَّةِ كِتَابَة، وليَتناوَلْ باليُمْن واليمين قَلَم جَدِّه كما تناول رَايةَ مجْده عَرَابَه؛ وليتقلَّدْ بقلائد هذه النِّعَم عقيبَ ما نَزَع التمائم، وليَجْهَدْ فى إمْرارِ كَلِمه الحُلْو الذى أوّلُ سمائه قَطْرٌ ثم صَوْبُ الغمائم؛ مُجوِّدًا خَطَّه ولَفْظَه حتَّى تتناسبَ عُقَدُه، ناشئًا على كَتْم السِّرِّ حتَّى كأنَّ الفؤادَ قبرُه والجَنْبَ لحْدُه، مُهْتديًا بالعَلَم الشِّهابىّ فى بِرِّ أخيه الأكبر فإنّه من بوارق المزن، مُبْتديًا مع أخيه الآخَرِ السرورَ إذْ ينزع

(١) فى الأصل هكذا "وأن الكلا بحلهم".

عنهما لباسُهما من الحُزْن ؛ واللهُ تعالىٰ يَزِيدُ فى فَضْله ، ويُتِمّ عليه النعمةَ كما أتَمّها علىٰ أبِيه من قَبْله ، ويفَقّهه فى السيادة حتّىٰ يُحْسِنَ فى الفَخار رَدّ الفَرْع إلىٰ أصْله .

توقيعٌ بنَظَر مَطَابخ السُّكَّر ، من إنشاء ٱبن نُباتة ، كُتِب به للقاضى « شَرَف الدِّين ٱبن عَمْرون » وهو :

رُسِم ... ... ــ لا زالَتْ سِمَةُ المناصب فى دَوْلَتِه الشّريفة مُشَرَّفَه ، وأقلامُ الكُفاةِ مُصَرَّفَه ، وألفاظُ الشّكْر ثابتةٌ عنــد ذَوِى الاستحقاق ومُصَــنّفَه ، والنَّعْماء المُنْصِــفَة لأمثالهم حُلْوَةَ المذاقين من نَوْع ومن صِفَه ــ أنْ يستقِرّ ... ... لمـا عُرِف من شِيَمِه المُستجاده ، وهِمَمِه المُسـتَزاده ، وكَفَاءَتِه اللّائِق بها حُسْنُ النَّظَر الثّابت بفَضْلِها رَقْمُ الشّهاده ، وأصالتِه التى نَهَض أوّلُهـا بمهمّات الدُّوَل فلو رآه مُعاوِية ــ رضى الله عنه ــ لقال : ياعَمْرونُ أنت عمْرٌو وزياده ؛ ولِمـا أُلِفَ من مُباشرته المُنِيفَــة خُبْرًا وخَبَرا ، وأنظارِه السّاميةَ إلىٰ معالى الأُمور نَظَرا ؛ ووظائفه التى لا يكاد يَبلُغ العُشْرَ منها ذَوُو الهِمَم العَلِيّه ، وجهاتِه التى عُرِف بها سَلَفُه وخَلَفُه فلا غَرْوَ أنْ لَبِس عمامةَ مَفاخِره بيضاءَ وسُكَّرِيّة .

فليباشر هــذه الوظيفةَ الحُلْوةَ مَعْنًى ومَذَاقا ، الجَلِيّــةَ عِقْدًا ونِطاقا ، المحسُوبَةَ علىٰ مطالع الشّرَف وَفْقًا وآفاقا ؛ جاعِلًا شُكْرَ النِّعمة من أوْفىٰ وأوفرِ مزاياه ، وصَلَف الهِمّة من أوْلىٰ وأوّل وصاياه ؛ حافظًا للطـابخ وإنْ كان عادةَ آبائه بَذْلُهـا ، مُدّخِرًا للجِفان وإنْ كانت سِمةَ قِراهُمْ إزالَتُها ونَقْلُها ؛ حَرِيصًا علىٰ أن لايجعل لأيْدِى الأقلام الخائنة مَطْمَحا ، وعلىٰ أنْ يُنْشِدَ كلّ يوم للتّدْبِير لا للتّبذير .

* [لنا] الجَفَناتُ الغُرُّ يَلْمَعْنَ فى الضُّحىٰ *

مُحَرِّرًا لحساب دِرْهَمِها ومَحْمولها، ومَصْروفها ومَحْصولها؛ مُحْتَرِزًا علىٰ مُباشَرتِه من الخَلَلِ فى هذين المكانين، حَذِرًا من كِفَّتِها وقَبَّانِها فإنَّها تتكلَّمُ فى الحَمْد أو فى الذَّم بلسانَيْن؛ بل تُعْلِنُ — إن شاء الله — بحمده المُقَرَّر، وتُكَرِّر الأحاديثَ الحلوةَ عنه فمن عندها خرج حَديثُ الحُلْوِ المكرَّر، والله تعالىٰ يُمِدّ مَساعِيَه بالنُّجْح الوَفِى، ويُلْهِم هِمَّتَه أن تُنْشِد : «ما أبْعَدَ العَيْبَ والنُّقْصانَ من شَرَفِى !» .



توقيعٌ بنَظَر دار الطِّراز، من إنشاء ٱبن نُباتة، وهو :

رُسم بالأمر — لازالتْ سِيَرُه برقُومِ المحامد مُطَرَّزَه، ودَوْلَتُه بمحاسن التأييد والتأبيد مُعَزَّزه، ونِعَمُه ونِقَمُه : هذه على الأعْداء مُجَهَّزَة وهذه إلى الأولياء مُجَهَّزه — أنْ يرتَّب فلانٌ : لكتابَتِه التى رقَّتِ الطُّروس، وطرَّزَتْ بالظَّلْماءِ أرْدِيَةَ الشُّموس، وأثْمرتْ أقْلامُه بمحاسن التَّدبير فكانت فى جهات الدُّوَل نِعْمَ الغُرُوس؛ وحِسَابِه الذى ناقَشَ ونَقَش، ورَقَم الأوراقَ ورَقَش؛ وٱحْتِرامِه الذى عَلَّمَ رَشَدا، وسَلَك طريقاً فى الخِدْمة جَدَدا، وقَوِىَ ٱسمُه وتكاثرتْ أوصافُه فما كان من أنْداده أضْعفَ نَاصرًا وأقلَّ عَدَدا؛ وأنَّه الكافِى الذى إذا قُدِّم نَهَض، وإذا سَدَّد سَهْمَ قَلَمِه أصاب الغَرَض؛ والسَّامِى إلىٰ سماء رُتَبِه بالقَلْب والطَّرْف، والمنزَّهُ لقلمه الحُرّ من أنْ يستعبدَ علىٰ حَرْف .

فلْيباشرْ هذه الوظيفةَ بكَفَاءةٍ عليها المُعَوَّل، وأقلامٍ إذا تمشَّتْ فى دار الطِّرازِ على الوَرَق قيل : «شُمّ الأنُوف من الطِّرَازِ الأوَّل»؛ مُسْتَدْعِيًا لأصْنافها ومالِها، عادلًا فى قِسْمةِ رَجائها ورِجالِها؛ مُعْمِلًا راحَتَه بالقَلَم فإنَّ كتابتها مُتْعِبَه، مُهْتدِيًا فى طُرُق حسابِها فإنَّها طرقٌ مُتَشَعِّبَه؛ ماشِيًا علىٰ نَهْج الاحتراز، ساعيًا إلى الرُّتَب بإرْهاف عَزْمٍ كالسَّيف الجُرَاز، سَعِيدَ السَّعْىِ — إن شاء الله تعالىٰ — حتّىٰ يقولَ سَناءُ الملك

المُسْتَنهض له : هٰذا القاضى السَّعيدُ وهٰـذه دَارُ الطِّراز ؛ والله تعالىٰ يوفِّقُه فى جميع أحْواله ، ويؤيِّدُ مَساعِىَ قَلَمِه الذى تَنْبعُ أقلام الكُفَاةِ علىٰ منْواله .

✦✦✦

توقيعٌ بنظر الرِّباع ، من إنشاء الشيخ صلاح الدِّين الصَّفَدِىّ ، باسم القـاضى نجم الدين «أحمد بن نجم الدين محمد بن أبى الطَّيِّب» ، وهو :

رُسِم بالأمر العالى ـ لا زال نَجْمُ أوليائه(١) يتَّقِدُ نُورا ، وخاطِرُ أوليائه يجِـدُ بالآمال سُرورا ـ أنْ يرتَّب المجلس السامىّ القضائىّ ـ أدام الله تعـالىٰ عُلُوَّه ـ فى نَظَر الرِّباع الدِّيوانية ، ومباشرة الأيْتام ـ حرسهم الله تعالىٰ ـ علىٰ عادة من تقدّمه وقاعدته ، بالمعلوم الذى يشهد به الديوان المعمور إلى آخر وقت : لأنّه النَّجمُ الذى بَزَغ فى أُفُق الرِّئاسه ، وحمَّل ماآثَره قَبِيلُهُ وأنَاسَه ؛ والأصيلُ الذى شاد الفَضْلُ مَجْـدَه ، وأحْكم الفَخْرُ عَقْدَه ؛ والرَّئِيسُ الذى يَصْـدُق التَّفَرُّسُ فى شمائله ، ويحـكُمُ الظن الصائب فى أثْناء مخايله .

فلْيباشِرْ ذلك مباشرةً هى معروفةٌ من هـذا البَيْت ، مألُوفةٌ من كبيرهم وصغيرهم : فإنَّهم لالَوَّ فيهم ولالَيْت ، مُعْتمِدًا علىٰ سُلوك طريقة أخيه وأبيه ، مُجْتهِدًا على آتِّباع آعتِمادهما فى تَوخِّيه الصَّوابَ أو تأبِّيه ؛ حتَّى يقال : هذا صِنْوُ ذلك الغُصْن الناضِر ، وهذا شِبْل ذلك اللَّيْث الخادِر ، وتُصْبِح الرِّباعُ بحُسْن نظره آهِلةً بالأهِلَّه ، كاملةً بالمحاسن التى تُمْسِى الأقمـارُ منها مُسْتَهِلَّه ؛ وتعود الأيْتام بمشارَفته كأنَّهم لم يفْقِدُوا بِرَّ والدهم ، ولم يحتاجُوا مع تَدْبيره إلىٰ مُساعِدهم . والوصايا كثيرةٌ وأهمُّها تَقْوى الله عزَّ وجلَّ فإنَّها الحِصْنُ الأوقىٰ ، والمَعْقِلُ المَنِيعُ المَرْقىٰ ؛ فلْيتَّخِذْها لعيْنَيه نُصْبا ، ولْيشْغَلْ

(١) كذا بالأصل ، ولعله : آلائه .

بهـا ضَميرَه حتَّىٰ يكون بها صَبًّا ؛ والله تعالىٰ يُنَمِّى غُصْنَه الناضر، ويُقِرُّ بكماله القَلْب والنَّاظر! والخطُّ الكريم أعلاه الله تعالىٰ أعْلاه، حُجَّةٌ فى ثُبوت العمل بمـا ٱقتضاه؛ والله الموفِّقُ بمنِّـه وكَرَمه ! .



تَوْقيعٌ باستيفاء المقابلة وٱستيفاء الجَيْش، وهو :

رُسم بالأمر ــ لازالت المناقبُ فى دَوْلته الشريفة شَمْسِيَّةَ الأنوار، قُرَشِيَّةَ الفَخَار، مُشْتَقَّةَ المحامد من الأسمـاء والآثار، مُحَصِّلةً بأقلام اليمين ما يَبْــذُله الكرم من أقْسام اليسار ــ أنْ يستقرَّ ... ... حَسَب الآستحقاق المُقتضىٰ ، والآختيار المُرتَضىٰ ؛ وعَيْنِ الرَّأْي الذى ما بينه وبين الرَّأْي حاجب، وتَقَدُّمِ السُّـنَّة القديمة فإنَّ التقديمَ لقُرَيْش وَاجب؛ ولأنَّ الصفاتِ الشَّمْسيَّةَ أَوْلىٰ بشَرَف آفاقها، ومَنازِلِ إشْرافها وإشْراقها، ومطالع سَـعْدِها المُتَنَزِّهة عن اللَّبْس ، وجلائل قَلَمِها العُطـارِدِىِّ فى يَدِ الشَّمْس ؛ ولأنَّ المشارَ إليــه أحَقُّ بمصاعِدِ المُرتقين ، ولأنَّه تَربَّى فى بَيْتِ التُّقىٰ فكان الله معه إنَّ الله مع المُتَّقين .

فلْيباشِرْ هاتَيْن الوظيفَتَيْن على العـادة المعروفة بعَزْمه السـديد، ومَدَّات قَلَمه التى بَحْرُها فى السبع بَسِيطٌ وظِلُّها فى النَّفْع مَديد؛ ولْيَتَمَثَّلْ بديوان مُقابلة فريدًا لا يَرْهَب مُماثَلَه، وليَجْبُرْ أحوالَها بضَبْطه حتَّىٰ يجمعَ بين الجَبْر والمُقَابَلَه ؛ وليُمِدَّ الجيوشَ المنصورةَ من أوْراقه بأعْلامه ، ومن قَصَباتِ السَّـبْقِ برماحٍ تُعرَف بأقلامه ؛ ولْيَسْــتَرْفِعْ من الحُسْبانات ماعُو بإيضاحه وتكميله من مُقَدِّماتِ ظُلْمٍ وإظلام، وليجمَعْ بين ضَرَّتَى الدنيا والآخرة فى شريعة الإسلام؛ والله تعالىٰ يُمِدُّ قُرَشِيَّته بأنصار من العزْم، وتابعين بإحسانٍ من نوافذ نوافل الحَزْم .

✥

توقيعٌ بصحابة ديوان الأسواق ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتة ، وهو :

رُسم بالأمر ـ لا زالت أسواقُ نِعَمه قائمَـه ، وأجلابُ كَرَمه دائمَه ، ولا بَرِحَت المناصبُ مُكَمَّلةً بكُفَاةِ أيّامه الذين يُحقِّقون ظُنُونَها الساميـة ويرعَوْنَ أحوالَها السَّائمه ـ أن يرتَّب فلانٌ... ...... : عِلمًـا بكتابته التى وَسَمت الدّفاتر أحسنَ سِمَه ، وأسْتَبقَتْ إلىٰ صُنْع الخير المُسَوَّمَه ؛ وكفاءته التى لا تزالُ تَنمو لديه وتَنْتَمى ، وبراعته التى إذا سُئِل عنها السُّوقُ قال : هِىَ عَصَاىَ أتوَكَّأُ عليها وأهُشُّ بها على غَنَمى ؛ ودرايته التى تُعِينُ المملكة على المِيَرْ ، ويَشْهَدُ تيمُّنها أنَّ الخيـلَ فى نَوَاصيها الخيرْ ؛ وتُحقِّق فيه الظَّنَّ والأمل ، وتَحُوطُ السُّوقَ عن الخائن حتَّىٰ يقولَ : لا ناقَةَ لى فى هَذا ولا جَمَل ؛ وأنَّه الكافِى الذى إن قال أو فعل كان مُسَدَّدا ، وإن ضَبَط ديوانَ الشَّدِّ السعيد كان على الزَّائغِينَ من الكَتَبة حَرْفًا مُشَدَّدا .

فليباشرْ هـذه الوظيفةَ المباركةَ مُتمكِّنَ الأسباب ، مَالكَ الحَزْمِ والرِّفق حتَّى تكثُر لَدَيه الجُلَّاب ؛ مُعِيناً لبيتِ المـال على الإنفاق ، قائمـًا بحقوق ذَوِى الأستحقاق ، عَالمًا أنّه [متولى] أكثَر جهات الخير المُطْلَق فليكُنْ بها مشكُورًا على الإطلاق ، مُجتَهِدًا فى رِضا المطالبين حتَّى يتَّبِعُوا سَنَن المُرْسلين فى هذه [الصفة] يأْكُلون الطعامَ ويَمْشُونَ فى الأسْواقِ ؛ مُواظبًا على الديوان الذى هو بصَحابَتِه مَعْذُوق ، سالِكًا سُبُلَ الصِّيانَة والكفاءة فكلاهما نِعْمَ السَّبِيلُ المَطْرُوق ، مُحْترِزًا من ذِى خِيانَةٍ إن غفل عنه طَفِقَ مَسْحًا بالسُّوق ؛ والله تعالىٰ يُوفِّق عزائمه التى هى أشهر من عَلَم ، وهِمّته التى قاسمت «أبا الطِّيب» : «والخيلُ تَشْهدُ والقِرْطاسُ والقَلَم» .

* * *

نسخةُ توقيعٍ بشهادة الخزانة العالية، من إنشاء ابن نُباتة، كُتب به لجمال الدين «عبد الله بن العماد الشيرازى» وهى :

رُسم بالأمر الشريف ـ لا زالتْ سِمَةُ المناصب فى دَوْلته بأسماء الكُفَاة مُجمَّلَه، وخِلَعُ المَفَاخرِ على بُيُوت السيادة مُكَمَّلَه، وخَزائنُ المُلْك بين قَبْضَيْنِ من جِنْسٍ واحدٍ: فبينما هى بأقلام الكُفاةِ مُحْتَفَظَةٌ إذا هى بأقلام الكُفَاةِ مُبذَّلَه ـ أن يستقرّ المجلس السامى ... ... : علما بمحاسنه التى وَضَح جمالُها، وتفسَّح فى العَلْياء مجالُها، ونجح فى مَنابِت الفَضْل أصْلُها، وشَرُف بكواكب اليُمْن اتّصالُها؛ ومَعالِيه التى تهلّل بها وَجْهُ الأصالَه، وكلّ بيْت الرّآسَة والجلالَه، ومَساعِيه التى استوفى بها أجناسَ الفَضْل وتَوْرِيثَه فما أخذها عن كَلالٍ ولا وَرِثَها عن كَلالَه؛ وسِيرته التى تَطْوِى نَفَارَ الأقرانِ حين تُنْشَر، وهمَّته التى أنشدتِ السّعادةُ فَرْعَها الكَرِيمَ : «مبادِيكَ فى العَلْياءِ غايَةُ مَعْشَر»؛ ومَكانَته من بَيْت السيادة الرَّفِيع عِمادُه، البَدِيع سَنَدُه المَنِيع سِنادُه، المَدِيد من تلقاء المَجَرَّة طُنُبُه الثّابتة من حيِّز النُّجوم أوْتادُه؛ وأنّه نَجْل السَّراةِ الذين أخذُوا من الفَضْل فى كلّ وَاد، واسْتَشْهدوا على مَناقِبِهم كلَّ عَدُوٍّ وكلَّ وَادّ؛ وحَمَلُوا من صناعاتهم رَاياتٍ عبَّاسِيَّةً سارتْ بها رِماحُ أقلامِهم تحت أبْدعِ سَواد، ومَلَئُوا قدِيمَ الأوطان بشَرَف الأخير : فسواءٌ على شِيرازَ محاسنُ «ابن العميد» ومحاسن «ابن العماد»؛ وتبيّنتْ مناقبهم بهذا النَّجْلِ السَّعيد طُرُقَ المراتِب كيفَ تُسْلَك، وإحْرازَ المناصب كيف يكونُ لها يَدٌ أرباب البُيُوت أمْلَك، ودَرجاتِ الوظائف كيف تَسُرُّ الوالِدَ بالولد حتّى يقولَ : لا أُبالِي هى اليَوْمَ لِى أمْ لَكَ؟؛ كَمْ استَنْهَضَ والدُه بجليل فكَفَى، وجَمِيلِ قَصْدٍ فوَفَى؛ وأوْقاتٍ عَلَتْ حتى أضحت

إلىٰ علاه تنتسب، ومناصبَ رزقٍ ـ بتقواه فيها ـ من حيث يحتسب ومن حيث لا يحتسب؛ وجاء هذا الولدُ ذخيرةَ والدِه فحسُنت لخزانة الذخيره، وعضّدت الأوّلة من السيادة بالأخيره .

فليباشرْ هذه الوظيفةَ مباشرةً هي أعلىٰ منها وأشرفُ سيرَه؛ مجتهدًا فيما يبيّض وجهَ علمِه ونسبِه ، عارفًا قدْرَ هـذه الرُّتبةِ من أوائلِ رُتَبِه ، متيقِّظَ الأفكار والطَّرْف ، متأرِّجَ المَعْـرِفة إذا ذكَرُوا العَرْف ، زاكيًا تبْرُ شهـادته على التَّعليق فلا يُنْتقدُ عليـه فى مُتحصّل ولا صَرْف؛ حتّىٰ تقولَ الخزانةُ : نِعْم العزْم الشاهد ! وحتّىٰ يشهدَ بوفاء فَضْلِه المَضْمُون ، وحتّىٰ يُعْلَم بأمانته أنَّ عبد الله هو «المأمون» ؛ وتقوى الله تعالىٰ فى الوصايا أوَّل وأولىٰ ما تمسَّـكَ به ، واستقام علىٰ شرَف مذْهَبِه ، والله تعالىٰ يسُرُّ الإسلامَ بتنْبِيه قدْرِه ويُقِرُّ الأوصافَ بمهذَّبِه ! .

⁂

توقيعٌ بشهادة الأسْوار، وهو :

رُسِم بالأمر ـ لا زال يَمُدُّ على الإسـلام من عنايَتِه سُورا ، ويُجدِّدُ للأولياء بِرًّا مَيْسُورا، ويُسْـعدهم بكلِّ توْقيع يكونُ بالحساب يوم القيامة كتابًا يلْقاهُ مَنْشُورا ـ أن يرتِّب المجلسُ ... ... : علمًا بعزْمِه الساهد، وحزْمِه الشاهد ؛ وكفاءَتِه وأمانَتِه التى ما كان وَصْفُهما حديثًا يُفْترىٰ ، ونَظَرًا لحاله وحالِ الأسْوار : فيالها شهادةً كان أصْلُها نظَرا .

فليباشرْ هـذه الرتبةَ المباركَةَ كما عُهِد منه مباشرةً حَسنةَ الآثار، مُشْرِقَةَ الأنْوار، جاعِلةً تلكَ العمائرَ حِلْيةً لدِمَشْق : فبينما هى سُـورٌ إذا هى سِوَار ؛ ضابِطًا لمتحصّلِها ومَصْرُوفِها، محرِّرًا لوقْفِها مُحترِزًا من وُقُوفِها، جاريًا علىٰ جميل عادته، زاكيًا بكرم الله

تعالىٰ على التوفيق تبرّ شهادته ؛ حتّىٰ تشهدَ هذه الوظيفةُ بهمّته المتمكّنة الأسباب، ويُضْرَبَ بين المَدينة وبين من كادَها بسُورٍ باطنُه فيه الرّحمةُ وظاهرُه من قِبَلِه العذاب؛ واللهُ تعالىٰ يسدِّدُه فى كلِّ أمْر، ويحفظُ هِمّته وبركته «ليوم كَرِيهَةٍ وسِدادِ ثغْر» .

***

توْقيعٌ بمشارَفَةِ خزائن السِّلاح، لمن لَقَبُهُ «جمال الدين إبراهيم» وهو :

رُسِم بالأمرِ العالى ــ أعْلى اللهُ تعالىٰ أعلامَ حَمْدِه، وجعل أحكام المَقادير من جُنْدِه، ولا زالتْ أفلاكُ الشُّهُب من خزائن سلاح سَعْدِه ــ أن يرتّب .... : حَمْلا علىٰ حكم النُّزول الشَّرْعىّ، والطُّلوع إلىٰ رُتَبِ الأستحقاق المَرْعىّ؛ وعِلْمـا بكفايته التى بَلّغتْه آمالا ، وجَعَلتْ للوظائف بذِكْرِه جَمـالا، وثمّرتْ بقَلَمِـه للجهات مالا، وأوْصلَتْه علىٰ رَغْمِ الأنْداد لِمَـا لا ؛ وآعتمادًا علىٰ أمانَتِه التى أعدّها مَلاذا، وآكْتفىٰ بها سِلاحُ عَزْمِه نَفاذا؛ وصِيانَتِه التى طَالمَـا أعترض [لها] عَرَضُ الدُّنْيا فقالتْ : يا إبْراهِيمُ أعْرِضْ عن هٰذا؛ واستِنادًا إلىٰ نَشْأته فى بَيْتٍ عَلَتْ فى المناصب أعْلامُه، وصَدقَتْ فى المراتب حُلُومه وأحلامُه، وتَناسَبتِ الآنَ تَصرّفاتُه السعيدةُ : فإمّا فى تَدْبِير الجيوش وإمّا فى تَثْمِيرِ السلاح أقْلامُه ..

فلْيباشرْ هــذه الوظيفةَ المباركةَ بعَزْمٍ بَادِى النَّجا[1] والنّجاح، وقَلَمٍ علىٰ حَالَتَىْ وَظِيفَتِه وهِمّته مَاضِى عزم السِّلاح؛ مقرِّرًا لعَمَلِها ومَعْمولها، ضابِطًا لواصلها ومَحْمُولها؛ حتّى يَذْهبَ لسانُ سَيْفِها بشُكْرِه، وتَطْلُعَ أهِلَّةُ قِسِيِّها بتَيامُنِ ذِكْرِه، وتكون كُعُوبُ رِماحها كُلّهـا كَعْبٌ مُبارَكٌ بمباشرته وبِشْرِه ؛ واللهُ تعـالىٰ يسدّدُ قَلَمَــه فى وظيفته تَسْديدَ سهامِها ، ويُوَفّر له من أنْصِباءِ المَراشِد وسِهامِها .

(١) هو مصدر نجا نجاءً بالمد وقد يقصر،

* * *

قلت : وهذا توقيع بوظيفة بكتابة ديوانيّة لسامرىّ ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتة ، وهو :

رُسم بالأمر — لا زال قلم أوامره الفضىّ يظهر ثمره ، مسمعاً حديث الإنعام الشامل حتى سمره — أن يرتّب فلان فى كذا : علماً بكفايته التى يعذر بها فى قومه على سلوك التيه ، وحذق حسابه الذى هو ألذّ من السلوى لمجتليه ومجتنيه ؛ وقريحته التى إذا اختارها اختيار قوم موسى فاز من العمل بمطلوبه ، وإذا قيل : يا سامرىّ ما قدّمك على القرناء فى الحساب ؟ قال : بصرت بما لم يبصروا به ؛ وأمانته التى حاطت حياطة الصعدة السمراء ، ورفعت رايته على الأنداد قائلة : ما حاط البيضاء والصفراء كصاحب الحمراء ! ؛ واعتمادا على كتابته التى شهدت بها من حسباناته الأسفار المبينة ، وإقرارا لصناعاته التى سحرت الفكر حتى قيل : هذا من شعب القرابين والكهنة .

فليباشر هذا الاستيفاء لأوفى منه مترقّيا ، ولكلمات الاختيار متلقّيا ، ناهضا بالخدمة ، مجدّدا باعترامه الإسرائيلى ذكر النعمة ، عارفا قدر الإنعام الذى رعى وشمل كلّ ذمّة ، سالكا من الاجتهاد فى خدمة حسابه كلّ طريقة ، غائظا لحسّاد من أهل ملّته : فيعبدون العجل مجازا وحقيقة ، مجتهدا فى استنزال المنّ لا المنع ، معوّذا آلاف الحواصل بعشر كلمات راتبة منه فى السمع ، معلّقا على جميعها هيكلا من أمانته فهو أدرى فى الهيكل بشرط الجمع ، صائنا لنفسه من عدوان الخيانة حتى لا يعدو فى سبت ولا فى أحد ، متنزّها عن أكل المال مع الخونة حتى يقال : نعم السامرىّ الذى لا يأكل مع أحد .

الضـــرب الثـانى

(من الوظائف الديوانية بالشام ـ ما هو خارجٌ عن حاضرة دِمَشْق .
وغالبُ مايكتب فيها من التواقيع مفتتح بـ«رُسِم»)

وهذه نسخ تواقيع من ذلك :

نسخةُ توقيع بنظر غَزَّة، وهى :

رُسم بالأمر ـ لازال النَّصْرُ المكرَّر، يَحْلُو بذِكْرِه، والسَّعْد المقترِ، يَجْلُو وُجوهَ الآمالِ بدَهْرِه، ولا بَرِحَ سِراجُ الخِدَم مُضِيأً عنـد ليالى نَهْيِه الحالكِ وأمْرِه ـ أن يستقرّ فلانٌ ... ... : لِمَا عُرِف فى المناصب من نُهوضِه الذى رَاق وراج، وفى المهمَّات من رَأْيِه الذى يمشِّى أحوالَ الجهات المستقيمة بسِراج؛ ولِمَا شُهِر له فى الأنْظار المتعدّدة من عُلُوّ الهِمَم، وفى الوظائف المتردّدة من العَزَمات التى يقول السَّـدادُ : نَبِّهْ [لها] عُمرًا[(1)] ثم نَمْ؛ ولِمَا وُصِف من أمانَتِه ودِرايَته وهما المراد [تان] من مِثْلِه، ورآسـة خَلْقِه وخُلُقِه المُشيدينِ عن حُسْن الثناء وسَهْلِه، وآثاره الحميـدة المتنقِلات وكيف لا ؟ وهو المنتسب إلىٰ سلفٍ يحمَد لسانُ الإسلام أثرَ عَقْلِه ونَقْلِه .

فلْيباشرْ هـذه الوظيفةَ المباركةَ على العادة مباشرةً يُحمد أثرُها، ويُسْنَدُ عن صحيح عزمه خُبْرها وخَبَرُها، ويُورق بغُصون الأقْلام وَرَقُ حِسابها ويَرُوق ثَمَرُها؛ مُجْتهـدًا فهو من نَسْل المجتهِدين فى عوائد التَّحْصين والتَّحصيل، والتَّأثير والتَّأثيل، مَلِيًّا بما يجبُر كَسْر هذه البلاد بالصِّحَّة ويأْسُو جُرْحَها بعد التَّعْديل، حَرِيصًا علىٰ أن يُحْيِيَ ـ بمشيئة الله تعالىٰ وتدبيره ـ عَمَلَها الذى لم يُبْقِ الموتُ من ذَمائه غيرَ القَليـل؛ سالِكًا

(١) أنظر حاشية ٢ ص ٣٨٨ من هذا الجزء .

من النّزاهة والصِّيانة طريقته المُثلىٰ، ومن الكفاءة والأمانة عادته التى ترفع درجته ـ إن شاء الله ـ إلىٰ ما هو أعلىٰ وأغلىٰ؛ مُسترفعًا للحساب ولقدره فى الخدمه، شاكرًا: فإنّ الشُّكر ضمينٌ لازدياد النِّعمة بعد النِّعمه، سراجًا وهّاج الذّكاء على المنار ولا ظُلْمَ مع وُجوده ولا ظُلْمه؛ والله تعالىٰ يُعلى قَدْره، ولا يُطفئ ذِكْره.

توقيعٌ بصحابة ديوان الحرمين، من إنشاء ابن نُباتة، لمن لقبه «شمس الدِّين» وهو:

رُسم بالأمر ـ لا زالت أوامره نافذةً فى الآفاق، عاطفةً عطف النَّسق علىٰ ذوى الاستحقاق، مُطلِعةً شمسَ التُّقىٰ والعلم فى منازل الإشراق ـ أنْ يستقرّ المجلس ... ...: علمًا باستحقاقه لما هو أكثر وأكبر، وأوفىٰ وأوفر، وإطلاعًا لشمسه وإن اعترضها غَمّ غيمٍ فى مطالع شرفها الأنور؛ وإعلامًا بأنّه غيمٌ يزور ويزول، وتقصٌ لا يقيم إلا كما يذهب عارضٌ من أفول؛ واعتمادًا علىٰ ما عُرف من وفاء صحابته، وأُلِف من سَناء درايته ودرابته، ووُصف من أيّام دَيونته[1] بعد أيّام حُكْمه بعد أيّام خطابته! ؛ واستنادًا إلىٰ نشأته فى بيت العلم المستفاد، والحُكم المُستجاد، والفضل المُستزاد، وتربية الوالد الذى كان الاختيار يحلف بالفخر أنه ما يرىٰ أظهر من ذات العماد.

فليباشر صحابة ديوان هذين الحرمين الشّريفين بأملٍ مبسوط، وحالٍ بينما هو منحوسٌ حظٌّ إذا هو ـ إن شاء الله ـ مغبوط؛ واجتهادٍ مضمونٍ لجدواه فضل الزياده، وسيرٍ لا يزال بشمسه حتّى تجرى لمستقرّ لها من منازل السّعاده، ومباشرةٍ لأوقافها تُعان وتُعاد أجمل إعانةٍ وأكمل إعاده، وصحابةٍ يتنوّع فى نفعها ويتعين حتّى تكون [منه] عادةً ومنها شهاده.

(1) أيام كان بديوانه. وهو لفظ سخيف ليس بعربى.

***

تَوْقيعٌ بنظر الشّعْرا و بانياس، من إنشاء ٱبن نَباتة، لمن لقبه «صَدْرالدّين» وٱسمه «أحْمد» بالعَوْد، وهو :

رُسم بالأمر ـ لا زالتْ صُـدُور الكُفاة مُنْشرِحةً فى أيّامه، مُنْسرِحَةَ الآمال فى إنعامه، ولا بَرِح عَوْدُه أحمدَ إلى المناصب فى ظلال سُيُوفه وأقلامه .

ومنـه : فلْيباشرْ هـذه الوظيفة الشاكرَة له أوّلًا وآخِرا، ولْيجتَهِدْ فيما يَزِيدُه من الاعْتناء والاغْتناء باطِنًا وظاهرا، وليستَزِدْ بشُكْره من النّعمة فما أخلفَ وعْدُ المَزِيد شاكرا، ولْيَحْرِصْ على أن يُرىٰ أبدًا فى المراتب صَدْرًا ولا يُرىٰ عن وُرُود الإحسان صَادرا .

***

تَوْقيعٌ بنظر حِمْص، من إنشاء ٱبن نُباتة، كُتب به لٱبن البَدْر ناظِرِ حِمْص بالنُّزول من أبيه عند ما أَسَنَّ، وهو :

رُسم بالأمر ـ لا زال حسنُ النّظَر من مَواهِبِه، ويُمْنُ الظّفَر من مَرَاكبه، وسَقْىُ البلاد صَوْبَ العَدْل من سحائبِـه، ولا بَرِح سنا البَدْرِ من خَدَمه فإذا أحسَّ بالسّرار ألْقَى الخِدمة إلى أزْهرِ كواكبه ـ أنْ يستقرَّ المجلسُ ... ... : لِـمَا عُلِم من رأيه الأسَدِّ، وعَزْمه الأشَدّ، ومَرْبِىٰ والده حتّى يَبِين عِظَمُ الغَناء بالشِّبْل عند ماوَهَن عَظْمُ الأسَد؛ ورُكونا إلى نَجابَتِه التى سَمَتْ أصـلًا وفرْعا، وقدُمتْ غَناءً ونَفْعا، وتبسّمتْ كمائمُ أصْلِها المستأْنَفَة حيثُ كاد الزمانُ يَنْعَىٰ منه يَنْعا؛ وٱستنادًا إلى أنّ الصّناعة شَابّةٌ، ونَسماتِ التّمكينِ هابّة؛ وإلى أنّ أغصانَ العزائم نَضِرَه، وإلى أنّ مع القُدْرة قُدْرَه، وإلى أنّ كوكَبَ العِزّ فى المنزلة قد خَلَف بَدْرَه؛ وٱعتمادًا على سِهام تَنْفيذه الصائبه،

وأحكامُ هِمَمِه الواجبه ، وأقلامُ يَدِه التى تُحسِنُ إخراج الأمل فيه وكيف لا ؟ وهى الحاسبةُ الكاتبه .

فليباشرْ هـذا النَّظَر المفوَّض إليـه سامياً نَظَرُه ، زاكياً فى الخدمة خُبْره وخَبَرُه ، شاكِرًا هـذا الإنعامَ الذى برَّأباه(1) وأسْـعد جَدّه ومَزِيدُ الإنعام مضمونُ المزيد لمن شَـكَرَه ، عالمـًا أنَّ هـذه المملكةَ الحِمْصِيَّةَ من أقْـدم ذخائرِ الأيام ، وأكْرم ما أفاءَ اللهُ من غَنيمتِهـا وظِلِّها علىٰ جُنْدِ الإسـلام ، وأنَّهـا من مراكـز الرِّماح كما شُهِر فلْيُمِدَّهـا من تَدْبيره برماح الأقـلام ؛ وليُواظِبْ بحُسْنِ نَظَرِه علىٰ تقريرِ أحْوالهـا ، وتقريب آمالهـا ، وتأْثير المصالح فى أعْمالها ، ولا يمحِّص أمرها فى التَّضْييق فكفىٰ ما محَّصتْها الأيامُ علىٰ تعاقُب أحْوالهـا ؛ بل يجتهدُ فى إزاحَة أعْذارها بسَـدادِ الرَّأْى الراجح ، وإشاعة الذِّكر الحَسَن مع كلِّ غادٍ ورائح ، ورَفْع الأيْدى بالأدْعية الصالحة فى تلك المشاهد للمَلِك «الظاهر» فى هـذا الوقت والملك «الصالح» ؛ حتَّى يَشهـدَ سَيفُ الله «خالد» بمَضاءِ سَيْفِ حَزْمِه وعَزْمه ، وحتَّىٰ يتوفَّر من غَرَضِ الخيْرِ والحَمْد نَصِيبُ سَهْمِه ، وتقوى الله تعالىٰ أوَّلُ الوصايا وآخرها فلْتكُن أبدًا فى هِمَّة فَهْمِه .

⁂

تَوْقيعٌ بنَظَر الرَّحْبة ، من إنشاء ابن نُباتة لمن لقبه «تاج الدين» وهو :

رُسم بالأمر ــ لا زالَ مَلِيءَ السَّحاب ، بسُقْيا الآمال الوارده ، مملُوءَ الرِّحاب ، بكُفاة الأعمال السَّائده ، مخْدوم الممـالك والأيَّام بأقلام الدواوين الحاسبة وأقلامِ الدواوين الحامدَه ــ أنْ يسـتقرّ ... ... : لكفاءته التى وافق خُبْرها الخَبَر ، ونَشْر ذِكْرُها نَشْرَ الحِبَر ، وصِناعة حِسَابِه التى لو عاش «أبو القاسم المغرّى» لم يكن له فيها قِسيا ،

(1) لعل هذه الكلمة زائدة من قلم الناسخ .

ولو عاصرها «ابن الجرّاح» بقَدَمه وإقدامه لانقلب عنها جريح الفكر هزيما ؛ بل لو ناوأه الشّديد الماعزُ لذُبح بغير سكّين ، والتّاج الطويلُ لرجع عن هذا التّاج الطائل رُجوعَ المِسْكين .

فليباشرْ ما فُوِّض من هذه الوظيفة إليه ، ونبّه الاختيار فيها نَظَره الجميلَ وناظِرَيْه ؛ جارِيا على عوائد هِمَمه الوثيقه ، ماشيا على أنجح طريق من آرائه وأوضح طَرِيقَه ، نازِلا منزلةَ العَيْن من هذه الجهة التى لو صُوِّرَتْ بَشَرًا لكان ناظِرَها على الحقيقه ؛ مُفَرِّجا لمَضَايقها حتّى تكون كما يقال رَحَبه ، مُقْتحِما من حُزُون أحوالها العَقَبة وما أدراك ما العَقَبه؟ ؛ فَكَّ من رقابِ السُّفّار المعوَّقين رَقَبه ؛ وأطعم أربابَ الاستحقاقات فى يومٍ ذى مَسْغَبه ، وساعَفَ بتَيْسير المعلوم كلَّ كاتبٍ ذى مَتْرَبه ؛ حَرِيصا على أن يُغْنِيَ الديوان بوَفْرِه ، ويُغَنِّي حُداةُ التُّجّارِ بشُكْره ، وعلى أنْ يقومَ رجالُ الاستخدام فى المُهِمّات بنَصْره ؛ وعلى أن تُساقَ بفضِّيِّ قلمه الأموالُ أحسنَ سَوْق ، وعلى أنْ يكونَ لأهلِ الرَّحَبة من إحسانه «مَالِكٌ» ومن جَدْوَى تدبيره «طَوْق» ؛ واللهُ تعالى يُوضِّح فى المصالح مِنْهاجَه ، ويُعلِي على رُءُوس الأوصاف تاجَه .

* * *

تَوْقيعٌ بنَظَر جَعْبر قبل أن تُنْقل إلى عمل حَلَب ، من إنشاء ابن نُباتة ، كُتب به «لهِبة الله بن النفيس» ، وهو :

رُسم بالأمر ـ لا زالتِ المناصبُ فى دولته الشريفة تَسْتقبِلُ هِبةَ الله بشُكْرِها ، ونَتائِجَ الذِّكْر النَّفيس بمقدِّمات نَشْرِها وبِشْرِها ـ أنْ يرتَّب ... ... : لكفاءته التى اشتهرتْ ، وأمانَتِه التى طَهُرت فظَهرتْ ، ومُباشَرتِه التى ضاهتْ نُجُوم السماء إذا زَهَرتْ ، ونُجُومَ الأرض إذا أزْهرتْ ؛ وأنّه الذى جُرِّب عَزْمُه فزكا على

التَّجْريب، ورَقِىَ فى مطالع التَّدْريج والتَّدْريب، ونَصَّ حَديثُ ٱجتهاده المقرّب فكان سابِقًا على النَّصِّ والتَّقْريب؛ وأنَّ هـذه البُقْعة المباركة مِمَّن أطاب التَّاريخُ خَبَرها، وقَصَّ سِيَرها، وحَمِدَ صاحِبُها المقيلُ من قَديمِ أثَرها، وعَرَف بركَتَها لمَّـا ٱستسقىٰ بها من السَّماءِ علىٰ لسان بَعْض الحيوان مَطَرَها .

فلْيباشِرْ هذا الثَّغر المحروس بكفاءة باسمَه، وعَزْمةٍ كالحُسامِ لأدْواءِ الأمور حاسمَه؛ ورأيٍ للنَّجاح حَسَنِ الاْستِصحاب، وتَثْمير كما مَلأَ الرَّحبَةَ فلْيَمْلأْ بمضاعفَته الرِّحاب؛ مُوفِّرًا العَددَ للحواصِل وحَواصِل العِدَاد، فاتحًا لأفواه القُفُول بذكره الجميل فى التَّهائم والنِّجاد، ماشيًا فيما يأتى ويذَرُ علىٰ سَداد الطُّرُق وطُرُق السَّداد .

⁂

تَوْقيعٌ بنَظَر البِقاع، من إنشاء ٱبن نُباتة، وهو :

رُسِم بالأمر ــ لا زال يَهَبُ للكُفَاة رِزْقا، ويَهَبُ لتَجْديد المناصب مُسْتَحقًّا، ولا بَرِحَتِ البِقاع بأيّامه الكريمة تَسْعَد كما تَسْعَد الرِّجالُ ولا تَشْقىٰ ــ أن يرتّب ... ... حَسَبَ ما تضمنته مُكاتَبة الجناب الفلانى: مُنَبِّها علىٰ قَدْر هذا الناظر المُهذَّب وصْفُه، المرتَّب علىٰ نَحْو الثناء نَعْتُه وعَطْفُه؛ المشهورِ بمباشرته ٱنتفاعُ الوظائف وٱرْتفاعُها، الشاهدِ بكفاءته وأمانته مَسالكُ الأعمـال وبِقاعُها؛ وٱعتمادًا علىٰ مباشرته الزكيه، وكتابته التى لا يُداهِنها المداهِنُون وهى نِعْمَ البَعْلَبَكِّيَّه[1] .

فلْيباشِرْ هذه الوظيفةَ المُتَيَمِّنَةَ بطالع رَشَده، ومَطَالب سَدَده، عالمًا أنَّ البقاعَ كالرِّجال تَسْـعَد وتَشْقىٰ : فلْيَكُنْ سَعْدُها علىٰ قَلَمِـه ويَده؛ مجتهدًا فيما يُبيِّض وَجْهَ

(١) نسبة الى بعلبك عند من يجعله اسما واحدا ويمنعه من الصرف فأما من يضيف الأوّل الى الثانى ويجرى الأول بوجوه الاعراب فالنسبة عنده بعلىّ .

شَاكِرِه، حَرِيصًا على ازدياد الصفات التى كانت فى عقد حساب العمل مَحَلَّ بنانه فجعلته الآن مَحَلَّ نَاظِرِه ، مُثَمِّرا لأموال النواحى وغِلاَلِها ، واضِعًا عن أرباب الاستحقاقات ما عليها من سُوءِ التدبير : من إِصْرِها وأغلالها ، محتاطًا لنفسه فى الحوطات حتى لا يُذْكَر إلا بخير، ولا يُعرف قلمه إلا بمَيْر، ناثرا حَبَّ حُبِّه حتى تَهْوِى إليه ألفاظُ الثناء هُوِىَّ الطَّير، جاعلا تقوى الله مَقْصَدَه : فإنها السبيلُ إلى فوز الدارين لا غَير .

الصنف الرابع

(مما يُكتب لأرباب الوظائف بالشام - تواقيعُ مشايخ الخوانق ، وهى على ضربين)

الضرب الأول

(ما هو بحاضرة دِمَشْق ، وهو على ثلاث مراتب)

المرتبة الأولى

(ما يفتتح بـ«الحمد لله»)

وهو توقيعُ شَيخ الشيوخ بدمشق : وهى مَشْيخةُ الخانقاه الصلاحية المعروفة بالشُّمَيصاتية . وقد تقدّم أنها يكتب بها أيضا من الأبواب السلطانية . ثم هى تُفْرد تارةً عن كتابة السِّر بالشام ، وتارة تُضافُ إليها .

تَوْقيعٌ بمَشْيَخةِ الشُّيوخ بالشام، من إنشاء الشَّيخ جمال الدين بن نُباتة ، كُتب به للشيخ «علاء الدين علىّ» مفردة عن كتابة السِّرّ، وهو :

الحمدُ لله الذي جعل شَرَف أوليائه عَليا، وفضْلَه الجليــلَ جَليّا، واتّصالَ علائهم كاتصال كَوْكَبِ الشَّرَفِ بإيلاءِ الخيراتِ مَلِيّــا، وحاضِرَ أُفقهم كغائبِه إذا سُطِّرت دَعَواتُه واستمطرت هِباتُه كان على كِلا الحالَين وَلِيّا .

نحمَــدُه على توالى النِّعم الأنيقَــه ، ونشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تستَمِرُّ بأصْلِها فُروعُ الحقيقه ، ونشهدُ أن محمدًا عبدُه ورســولُه أجدرُ الخَلْق بكَرَم الخَليقَــه ، صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وصَحْبــه الذين سَلَكوا بهُدَاه أحسنَ طَريق وسُلِكُوا فى أحْسن طَرِيقَه، صلاةً دائمةً لا تزالُ بها عقائدُ الإخْلاصِ مُوثَقَة وألْسنة الذِّكر طَليقَه ، وتحيّــةً إذا بَدَتْ فِي حَضْرةِ الأَذْكار كانت للأَعْين من النُّور نهــارَه وكانت للأَنْجم مِن القَدْر شَقيقَه .

أما بعدُ، فإنَّ أوْلَى المراتب الدينية بتَقْديم العِنايَه، وتَفْخيم الرعايه، وتكريم التولية ولا سيما إذا كانت منتسبة إلى أهْل الوِلايَه ـ مَرْتبةُ مَشْيخة الشيوخ التى يجمع عبادَ الله الصالحين نِطاقُها، ويَضُمُّهم رِواقُها، وتطلعهم مطالِــعَ كواكب الهُدَى آفاقُها المُنيرة وأوْفاقُهــا .

ولمــا خَلَت الآنَ هــذه الرتبةُ بالشام المحروس من شَـيْخ تَدُور هذه الطائفة على قُطْبِه ، وتجتمعُ على مائدةِ قُرُباته وقُرْبه، وتَمْشى على قَدَمه وتُناجِى صلاحَ أحوالهــا عن قَلْبِــه ـ تعيَّن أنْ نختار لهــا مَن كَمُلت بالله أدَاتُه ، وصَفَتْ فى مشاهد الحقِّ ذَاتُه، وزَكَتْ فى علْمِ الإبانةِ والأمانة شهادتُه المُفْصِحةُ ومشاهَداتُه، وأجمع الناسُ على فوائد تَسْليكه واسْلاكِ قَلْبــه حيث بَدَتْ فى وجوه الحسن حَسَــناتُه ، ووُجُوه الشام شاماتُه ؛ لمــا شُهِر من مَعْرفته وعِرْفانه ، ولمــا دُعِىَ له ببَقَاءِ نُوحٍ لِمَــا فاضَ

فى العِلْم من طُوفانه؛ ولمّا قام فى الأذهان من طبقة قَدْره الموصوف، ولمّا سار من رِسالة أخباره فإذا قالَت الآثارُ: «هذا السّرىُّ» قال الإيثارَ: «وفضْلُه معْروف».

فليباشرْ هــذه المشيخةَ المباركةَ بصَدْرٍ للسّالكين رَحيب، وبِرٍّ للسائلين مُجيب، وفَضْلٍ يقولُ الرائدُ والمريدُ بدار إقامَته: قِفَا نَبْكِ من ذِكْرىٰ مَنْزِلٍ وحَبيب؛ وبِشْرٍ وبُشْرىٰ يملآن عيْنَ المُجتلِي ويَدَ المُجْتَدى، وعَطْفٍ ولُطْفٍ إذا قال الذّاكر لمن مَضىٰ: واحِ مَالِكِي! قال المُعايِنُ: وجَاءَ سَيّدى؛ ولْيُراعِ أمورَ الخَوانِقِ الشاميّة ما غاب منها وما حَضَر، وما سَمِع منها وما نَظَر، ولْيُهذِّبْ قُلوبَ ساكِنيها حتّىٰ يَعودَ كإخْوانِ الصّفاءِ من المَوَدّة قومٌ كانُوا إخوانَ الصّفَا من الحَجَر؛ قائمًا بحقوق الرُّتبة قيام مِثْله من أئمّة العِلْم والعَمَل، داعيًا لهذه الدّولة العادلة فإنّه أقصىٰ دَواعِى الأمل، مُعْرِبًا ـ لأنّ العَرَبيّة من عُلومه ـ عن الإيضاحِ غَنِيًّا عن تَفْصيل الجُمَل؛ وهو المَسْلَك فما يحتاج لتَسْليك دُرَرِ الوصايا، المَخْبُوءُ لمِثْل هــذه الزّوايا المبرورة: فنِعْمَ الزّوايا المَخْبُوّة بنِعْم الخَبايا؛ واللهُ تعالىٰ يُعيد على الأمّة بركاته، ويُمتّعهم باسْتِسْقاء الغُيُوث: إمّا بِبَسْطِها عند بِرّه! وإمّا بِبَسْطِها عند دَعَواته.

✦ ✦ ✦

وهذه نسخةُ تَوْقيعٍ بمشيخة الشيوخ بالشام أيضا، مضافةً إلىٰ كتابة السِّرّ به، كُتب بها للقــاضى ناصر الدين «محمــد بن أبى الطَّيِّب» كاتبِ السّرّ بالشام بـ«المَقَرّ الشريف» وهى:

الحمدُ لله الذى شَرح صُدور أوْليائه بمعرفة الحقّ وأتْباعه، وجعلهم خَواصّه الذين غَدَوْا من أتْباع الحَبيب وأشياعه، ورَفَع ذِكْرَهم علىٰ رُءُوس الأشهاد وآواهُم إلىٰ مَقام الأُنْس فى محلّ القرب بالتّسْليك المُحمّديّ الذى أوْصل إليه مَزيدَه بانْقطاعه، وخَصّهم

ببركات من حضهم على الأعمال الصالحة بقصده الجميل وعلمه الغزير واتضاعه ، ومنحهم بمن أوضح لهم الطريق المستقيم بإبدائه الحق وإبدار إبداعه ، وغذاهم بالحكمة فنشئوا بالمعرفة وصار لهم العقل السليم بالتحفظ من الأهوية الردية فسلمت لهم الطبية على قانون الصحة بحسن تركيبه وأوضاعه ، وأفاض عليهم من بحر علمه ما نالوا به الرشد فصاروا أولياء بملازمة أوراده ومتابعة أوزاعه .

نحمده على ما ألهمنا من وضع الشيء في محله ، وإيصال الحق إلى أهله ، وإجابة سؤال الفقراء وإعانتهم بمن أغناهم عن السؤال بفضائله وفضله ؛ حمدا يعيد كشاف الكرب على مريديه وطلبته ، ويرفع مقام من قام بشعار الدين بتعظيم قدره وعلو درجته ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الذي من تقرب منه ذراعا ، تقرب منه باعا ، ومن أتاه يمشي أتاه هرولة وإذا تقرب إليه عبده بالنوافل أحبه ، ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة﴾ . ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله الذي أضاءت الأكوان من نور هديه فاهتدت به أصحاب المعارف المسلمون لموجدهم الأمر والإراده ، ومن هو روح الوجود الذي أحيا كل موجود وسلك طريق سنته الموصلة إلى عالم الغيب والشهاده ؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين صفت قلوبهم من الأكدار وإلى التقوى سبقوا ، وصدقوا في المحبة فاستحقوا ثناء مولاهم : ﴿من المؤمنين رجال صدقوا﴾ ؛ فمنهم من شمت من فيه رائحة كبد مشوية من خشية الله ، ومنهم من حدث بما شاهده ببصره وبصيرته على البعد ورآه ؛ ومنهم من أحيا ليله واستحيت منه ملائكة السماء ، ومنهم من اتخذه أخا إذ هو باب مدينة العلم وركن العلماء ؛ صلاة دائمة تطيب أوقات المحبين ، وتطرب بسماعها قلوب المتقين أهل اليقين ؛ وسلم تسليما .

أمّا بعدُ، فإنّ أولىٰ مَن قدّمناه، إلىٰ أهْل الصلاح، ورفعْناه، إلىٰ محلّ القُرْب ورُوح الأرواح؛ وحكّمناه، علىٰ أهْل الخَير، ومكّنّاه فى حزْب الله الذى غلَب لمّا اجتهدُوا علىٰ إخراج حزب الشّيطان من قلوبهم وزحَفُوا علىٰ قرارِه بجَيْش التّقوىٰ وسمَتُهم الزُّهْدُ وحُسْن السّيْر؛ ووَلّيناه أجلّ المناصب الذى تجتمعُ فيه قلوبُ الأولياء على الطّاعه، وأحلَلناه أرفعَ المراتِبِ الذى خطبه منهم خِيارُ الجَمْع لجَلْوةِ عَرُوسِ الجمال فى الخَلْوة بعَقْد ميثاق سُنّة المحبّة وشهادة قُلوب الجماعَه - مَن جمّلَه صورةً ومعنىٰ، وافتخَرَ به أحاد ومَثْنىٰ؛ وباشره علىٰ أحْسنِ الوُجوه، وبلّغ كلّا من مُرِيديه وطَلَبَتِه من فضائله وفَضْله ما يُؤَمِّلُه ويَرْجوه؛ ومَدّ موائدَ عُلومه المحْتوِيَةَ علىٰ أنْواع الفضائل المُغَذِّيَة للقلوب، وجلس فى حُلَلِ الرِّضا فكَسَا القَوْمَ الذين لا يَشْقىٰ بهم الجَلِيسُ ملابِسَ التّقوَى المطهرةَ من العُيوب؛ وظهر فى محْفِلِهم للهدَايَة كالبَدْر وهم حولَه هَالَه، وكان دَلِيلَهم إلى الحقّ فغَدَوْا بتَسْليكه من مشايخ الرِّساله؛ وجاهد فى بيان معانى القرآن العَظيم حتّىٰ قيل لمّا فَسّره : هذا «مُجاهد»، واستدَلّ علىٰ تنْزيه من تكلّم به - سبحانه - عن التّشبيه والتعليل "وفى كلِّ شَىْءٍ له آيةٌ تدلُّ علىٰ أنّه واحد"، ونقَل الحديثَ المحمّديَّ الذى هو "مُوَطّا" لتفهيم "الغريب" منه وميز "صَحِيحَه" لكلّ "مُسْلِم" فأطرب بسماعه الوُفُود، وأفاد العباد "تنبيه الغافلين" فقاموا فى الخِدْمة فأصْبحوا تَعْرِفُهم بسِيماهُم : ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِمْ مِنْ أثَرِ السُّجُودِ﴾؛ وخَفَض جَناحَه الذى عبّر به الشّعْرى العبُورَ والنّسْر الطائر، وسار إحْسانُه إلىٰ طوائف الفُقَراء فصار مَثَلًا فحَبّذا "المَثَلُ السّائر".

وكان فلانٌ - أعاد الله تعالىٰ من بركاته وأسْبغ ظِلالَه - هو الذى أقامه اللهُ تعالى لهذه الطائفة المباركة مَرّةً بعد مَرّه، وذُكرتْ صفاتُه الجميلة فكان مَثَله للعيون قُرّه؛

واتّصف بهذه الصّفاتِ التى ملأت الأفواهَ والمسامعَ كما ملأتْ مرءآته المُقَل، وحصل البِشر بمعروفه الذى تبعه السرىُّ أبو يزيدَ بجرىٍ علىٰ عادة القَوْم الكرام و وصـل؛ ونَبعتْ عناصرُ فضائله فكانت شرابَ الذين صفَتْ قلوبهم من كَدَرِها ، وأمطرتْ سحائبُ علومه الإلهيّة الدارّةُ من سمـاء الحقيقة فسالتْ أوديةٌ بقَدَرِها؛ وظهرتْ لُمْعةُ أنوارِ شمْسِ معارفه عنـد التّجلّى على المُريد ، وساق نُفوسَ القائمين لمـا عزّ مَطْلَبهم بأصْلِه الذى شرح طَلاسِمَ قَلْبِ الفَانِى بذِكْرِ الباقِى فغرِقُوا فى بحار المحبّة﴿وجاءَتْ كلُّ نَفْسٍ مَعها سَائِقٌ وشَهِيد﴾ .

فلذلك رُسم بالأمر العـالى ـ لا زال يرفَعُ أهلَ العِلْم والعَمَل إلىٰ أعلىٰ مَقـام ، ويَبْنِى لهم فى جنّات القُرْب قُصورَ الرِّضا : ﴿لهم ما يشاءُون فيها﴾ ومَزِيدُهم الإكرام ـ أن تُفوّضَ إليـه مشيخةُ الشيوخ بالشام المحروس : وَظِيفتُه التى خرجتْ عنـه ، المرسومُ الآنَ إعادتُها عليه ، عوضًا عمّن كانتْ بيده ، بمعلُومَى النّظر والمشيخة الشاهد بهما ديوان الوَقْف المبرور إلىٰ آخر وقْت ، علىٰ أجمـل العوائد ، وأكمل القواعد ؛ تفويضًا نُظمتْ بالقَبول عُقُودُه ، ودامَتْ فى دار السعادة سُعُوده ، وفى دَرج المعالى صُـعوده .

فلْيَتلَقّ ذلك بالقَبول ، وليُبلّغ الفقراءَ من إقبالِه الجَمّ الذى ألْجم عَنْوَه المُنىٰ والسُّول ؛ وليُعامِلِ المُريدينَ بالشّفقةِ المعروفةِ من رَحْمة دِينِـه و إفضاله ، وليشمَلْ كلًّا منهـم بعنايته ولُطْفه فإنّ الخَلْق عِيالُ الله وأحبُّهم إليه أشْفَقُهم علىٰ عِيالِه ؛ وليأمُرْهم بملازمة إقامة الصّـلاة طَرَفَى النهار وزُلَفًا من اللّيل ، و إذا مالوا ـ والعياذُ بالله تعالىٰ ـ يومًا إلىٰ مُنافَسَة بينهم فليَقُل : اتّقوا اللهَ ما استطعتم وكُونُوا عِبادَ الله إخوانًا ولا تميلُوا كلّ المَيْـل ؛ وليُفْسحْ لهم حَرَم الخَيْرِ الذى وقَفُوا فيه تُجاهَ قَصْر تَعبُّده الذى عَلَا بالجَوْهر

الفَرْدِ وقُوَّة الإخلاص ، ولْيُدْخِلْهم منه جَنّـةَ إقبال فوائده التى فيها من أبْكار مَعانيه حُورٌ مقصوراتٌ فى خِيامِ أدائه لم يَطْمِثْهُنَّ إنْسٌ قبلهـم ولا جَانٌّ وأعْجز قَصْرُه العالى وجَوْهَرُه الغالى كُلَّ بَنَّاء وغَوّاص ؛ ولْيجعلْهُم له علىٰ جَبَـل اْعتمادِه ومَرْوةِ مُرُوءَتِه إخْوانَ الصَّفا ، ولْيقِمْهُم فى رُكْنِ مقام المُنـاجَاة اذا زَمْزم مُطْرِبُ حَيِّهم تِلْقاءَ أهل الوفا ؛ ولْيقَـدِّم السابِقِينَ بمعرفة حَقِّهم ونجلتهم بالوَرَع الذى يَغْلبون به الشـيطانَ فإنَّ حِزْبَ الله هم الغالبون ، ولْيُـداوِ قُلوبهم المَرْضىٰ بشراب المَحبَّة وتَرْكيب أدْوِيَة الامتلاء من الدنيا ليغتذُوا وقْتَ السَّحَرِ [بحديث] (هلْ من تائب) ولا يَسْقِهم كاساتٍ تَضعُفُ عنها قوّتُهُم حتّىٰ يُنَقَّوْا من بَرَدَةِ الهَوَى المُضِرَّة ويَغْتَسلوا بحَـارِّ مجارِى دُمُوع الخُشوع ويَلْبسوا جَدِيدَ ملابِسِ التُّقىٰ ويغدوا من الحَبائب . ومنه تُعرف الوصايا ، وعنه تُنْقل المزايا ، وكَرَمُ الأخلاق والسَّجايا ؛ ولْيأمُرِ السالكينَ بمداومة الأعمـال التى قامت بحُسْنِ العقائد واْسـتَقلَّتْ ، ولْيَحُضَّ المُريدينَ أوائلَ التَّسْليك علىٰ ذلك فإنَّ أحبَّ الأعمـال إلى الله تعالىٰ أدْومُها وإنْ قَلَّتْ ؛ وليعرِّفهم المحبةَ بذكرِ الله لئلّا يقُومُوا علىٰ قَدَم الهُيام ، وليبيِّنْ لهم المَعْنىٰ إذا لم يعرفوا المَعْنىٰ ليقطعُوا الهَواجِرَ فى طلب الصِّـيام ؛ وليفرِّق بين الواردات بملازمة الأوْرادِ لئلّا يقعُوا من الاشتباه فى حَيْرة ، ولْيأمُرهم بادِّخار العَمِلِ الصالح لتكونَ التقوىٰ لقلوبهم قُوتاً والزُّهـدُ مِيرَه ؛ وليَقْمَعْ أهلَ البِـدَع ، وليَرفَعْ مَن اتَّضع ؛ وليتفقـد أحوالَ أوقافهم بجميع الخوانق والرُّبُط والزوايا بالجميل من النَّظَر ، وليَزِدْ فى الأجور بما يؤثِّر فيها نظرُه الذى مازال لهم منه أوفرُ نصيبٍ فحَبَّذا العينُ والأثَر ؛ والوصايا وإنْ كثرتْ فهو مُفيدُها وعنده مَنْبعها ، وتقْوى الله الذى هو شَيْخُها ومُرِيدُها فى بيتـه المبارك حَلاوَة ذَوْقها ومَجْمَعُها ؛ والله تعـالىٰ يكلَؤُه فى اللّيل والنهار بآياته البيِّنات ، ويرفعُه بها ويُرقِّيه إلىٰ أعلىٰ الدَّرجات .

المرتبـــة الثـانية

(من تواقيع مشايخ الأمكنة بحاضرة دمشق — ما يفتتح بـ«أمّا بعد حمـــد الله» وفيها وظائف)

نسخةُ توقيع بمشيخة إقراء القرآن ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتة ، كُتب به للشيخ شهاب الدين «أحمد بن النقيب» بـ«المجلس العالى» وهى :

أمّا بعدَ حمدِ الله رَافعِ شُهُبِ الهدىٰ أعلاما، وجاعِلِ رُتَبِ أفضلِها أعلىٰ ما ، ومُحِلِّ أحدِها من مَدارسِ الآياتِ مَنازِلَ بَدرٍ إذا محا المحاقُ من هذا أسمًا أثبتَ من سُمُوِّ هذا قمرًا تَمـاما، ومُسْكِنِه من مواطن الذكر جَنَّاتِ قَوْمٍ بارتقائهم وبَقاءِ ذِكْرِهم خالدين فيها حَسُنَتْ مستقرًّا ومُقاما؛ والصلاة والسلام علىٰ سيدنا محمدٍ أرفعِ من آتّخذ القرآنَ إماما، وأنفعِ من عَقد آستحقاقُ النُّبوّة علىٰ حَمْده خِنْصَرًا وجَلَا الحقُّ بهداه إبهاما؛ وعلىٰ آله وصَحْبِـه أمتعِ من لَبِسَ بسَرْدِ الآياتِ دِرْعًا وآقتسم من بركتها سِهاما — فإنَّ وظيفـةً يكونُ القرآنُ الكريمُ، رَبيعَ فَصْلِها وفَضْلِها، ورُتْبةً يكون الذِّكرُ الحكيمُ، مُداوِيَ قُلوبِ جَفْلِها، ومَشْيخةً يكون مُرِيدَ الآياتِ البيِّناتِ وارِدَ زواياها أهْلِها — لأحَقُّ أن نَتخيَّر لها الأكفاءُ من ذَوِي الفَضْلِ الأثيرِ، والأدِلّاءُ علىٰ أشرفِ نِتاجِ الهداية من ذَوِي الحِلْمِ الساكنِ والعَزْمِ المُثيرِ .

ولـما كانت مشيخةُ إقراءِ القُرآن بالتُّربة المعروفة بأُمِّ الصالح بدِمَشْق المحروسـة : هى كما يقال : أُمُّ العِلْمِ وأبوه، وأخوه وحَمُوه؛ وصاحِبَتُه وأهْلُ الكتابِ والسُّنةِ بَنُوه؛ وخَلَتِ الآنَ من شيخٍ [كان] يحمِي حِماها، وتُقيمُ الخلواتُ والآياتُ من بَرَكتِه وتِلاوتِه بـ«الشَّمْسِ وضُحاها والقَمَرِ إذا تَلاها» وكان فلانٌ هو الذخيرةُ المخبوءةُ لهذا الأمر ، وذو السِّيرة المحبوّة بهذا الشَّرفِ الغَمْر، وصاحِبُ القراءة والبيان الذى لا يَعْوِزُ زمانَ

طَلبتِه [أبو] عُمر[1] ولا أبو عَمرو ، والجامعُ لعلوم كتاب الله تعالىٰ جَمع سلامةٍ فى فَنّه ، وصحّةٍ فى شَرَف ذِهْنه ، وجَواز أمرٍ يشهد أنَّ البَحْرَ يَخْرج [لدى] المشكلاتِ من صَدْرِه ويدخل عند عَقْد الحُبَا فى رُدْنه ، والقارئُ الذى إذا قال مُبيِّناً قال الذى عنده عِلْمُ الكتاب ، والتّالى الذى اذا قَصَر أو مدَّ ، مدَّ إلىٰ سموات العُلَىٰ بأسْباب ، والمُشيرُ إلىٰ علمه المرسوم بمُصْحَفه فلا عَدِمَ إشارتَه ومَرْسومَه أُولُو الألْباب ؛ والمُجلِّى وإن سَمّاه العُرْفُ تاليا ، والمُنَقِّب عن غوامض التَّفْسير : و «آبنُ النقيب» أولىٰ بسند التَّفْسير عاليا ؛ والإمام السُّـنِّى وإن سمّـاه الشرعُ الإمامَ الحاكِمَ دهرا وأقام له فى أُفق كلِّ فضـل داعيا ؛ والسّامى الذى يَسْلُك بفَخْرِه على "العِراقِىّ" أوْضَح مَحجَّه ، والعَربِىُّ الذى ما "للفارِسِىّ" دخولٌ فى باب تَيقُّنه وإن جاء بحُجَّه ، وذو الرِّوايات المَرْوِية سحائبُه ، وخَلَفُ العلماء الأَبْيضُ فمـا «خَلَفُ الأحمر» ممـا يُقارِبُه ، ولا «ثَعلَبٌ» ممـا تَضِجُّ لديه ثعالبُه ، ولا «آبن خَرُوف» ممـا يُدانيه وهو «اللَّيْث» ومن الأقْلام مَخالبُه ، وبقيّـةُ السادةِ القُرَّاءِ المنشدُ قولَ الحَماسِىّ .

وَإنّى من القَوْم الّذيـن هُمُ هُمُ * إذا ماتَ منهم سَيِّدٌ قام صَاحِبُه !
بُدُورُ سماءٍ ، كلّما غابَ كَوْكَبٌ ، * بَدا كَوكَبٌ ، تأوِى إلَيْه كواكِبُه !

تَعيَّن أن يُخْطبَ لهذه المَشْيخة خِطْبَة الفتىٰ لاقتبال مَجْدِه والشّيْخِ لتَوْقيره ، ويُطْلبَ لهذه الرتبة طلبا يَقْضى الأملُ فيه بعنوان تَيْسيره .

فرُسِم بالأمر الشريف أنْ يستقرّ... ...: وضْعًا للأشياء فى مَحلِّها ، ورفعًا لأقْدار الأفاضِل إلىٰ أعلىٰ رُتَب الفَضْـل وأجلِّها ؛ وعِلماً بمقدار هـذا العالم السابِق فى أُفُق الهُدىٰ شهابا ، المُدَفِّق علىٰ رِياض العِـلْم سَحابا ، النّاقِلِ إلىٰ مجالس الاشْـتغال خُطًا يقولُ لهـا المؤْمنُ بالإكرام والكافِرُ بالإرغام : ﴿ يا لَيْتَنِى كُنْتُ تُرَابا ﴾ .

---

(١) هو حفص بن عمر الدُّوري .

حاَق وما قَصَّر ــ أنْ يستقرّ ... ... : حملًا على الوصية التامّة الحكم والأساس، وعلمًا بأنّه ممّن حلَّ فى مشيخته لباسَ بَلاَس[1]، ونزع فى الزُّهد عمـا عُدّ زينــةً فى النّاس ؛ وسرّح شَــعْره حقيقة التّسريح فأطلقه ، ومَحا رِقَّ سَواده وبَياضه فأعتقه ؛ ولازَمَ طريقَ مشايخه فـا ، وشكرِ الحالَ بجمل فى مَنْبِتِ كلِّ شَعْرةٍ لساناً للشّكروفَـا؛ وسَرَّ طائفةً ورَدُّوا علىٰ آثاره مَناهِلَ الوَفا ، وصَفَتْ قلوبهــم ووجوهُهم فدارت عليهـم كُـئُوسُ إخوان الصّفا؛ حتّىٰ مَشَوْا إلىٰ مطالب الخير مَشْيَ الرِّخاخ، وفاخَرُوا أقواماً دنَّسُوا عِزّةَ رُتْبتهم فلولا أدبُهم لأنشدُوهم : «عُقولُ مُرْدٍ ولِحَىٰ أشياخ» .

فليَقُمْ فى مَشْيختِه قياماً يُحْيِي القومَ بأنفاسه، ويُبْهجُهم بكرامة الكَشْف من قلبِـه وتكريم الكَشْفِ من رَاسِه؛ سالِكًا بهم فى طرائق الخير مُسْتبشرين ، آمرًا بتقصير الملابس وَرَعًا حتّىٰ يدخل بهم الى النُّسُك مُحلِّقِين ومُقَصِّرِين ؛ والله تعالىٰ ينفعُ به، ويُثْنِي حالَه بمُذْهَبِ مَذْهَبِه .

الضــــــرب الثـانى

(من تواقيع مَشْيخة الأماكن ــ ماهو بأعمال دِمَشْق، وفيه مرتبة واحدة ، وهى الأفتتاح بـ«رسم»)

وهذه نسخ تواقيع من ذلك :

نسخةُ توقيع بمشيخة الحَرَم الخَليلىّ ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتة، كُتب به للشيخ «شمس الدّين بن البرهان» الجعبرىّ بـ«المجلس» وهى :

رُسم بالأمر الشريف ــ أعلاه الله تعـالىٰ، وبَسَط عدْلَه الذى لا يبلغه الوَاصِفُ ولو تَغالىٰ ، وسَرَىٰ لأولياء بنِى الأولياء بِرّه الذى تَسنَّن بسُـنّة الغَيْث ثم توالىٰ ــ أن

---

(١) البلاس كسحاب المِسْح فارسىّ معرب .

فليباشر هــذه الوظيفةَ مباشرةَ مثله من ذوى الأناةِ والإفاده ، وكُفاةِ المناصب الذين على سَعْيهم الحُسْنىٰ وعلى الدولة تصلُ الزِّياده ؛ وليَسلُك فى الأشغال عادة نُطْقه الأحسن ، وليعامِل طَلَبَته فى المباحث بغير ما ألِفُوا من الخُلُق الأخْشَن ، وليعلَمْ أنّه قد جُمِع بين بِرّه وتُربة الأُمّ كى تقرّ عينُها ولا تحزن ؛ فليسُرّها بنُبْله ، وليبرّها بفضْله ؛ وليُوفِّر السَّعْىَ إليها كلَّ وقتٍ فى المَسير ، وليُفسِّر أحلامَ أملها فيه فمِنْ مُفردات علومه التّفسير ؛ وليُحسِنْ لتلامذته الجَمْع ، وليَحْمِ حِمىٰ رواياتهم من الخطإ ولا عَجَب أنْ يُحمىٰ حِمَى السَّبْع ! ؛ تاليًا كلام ربّه كما أُنْزِل وحَسْـبه ، داعيًا بنَسَب قراءته إلى آبْن كَعْب فحبذا نَسَـبُه المباركُ وكَعْبُه ؛ ناصبًا بمنْظَرٍ شَخْصِه أشخاص أمثاله الأوّل بعد ما ضمّهم صَفيح اللّحْد وتُربُه ، حتّىٰ يَميس «الكِسَائى» فى بُرْد مَسَرّته الفـاخر ، ويفتحَ عيونَ «حَمْزة» علىٰ زَهراتِ رَوْضِ عبِق المباخر ، ويترنّم وَرَشانُ «وَرْش» فى الأوراق علىٰ بَحْرِه الزّاخر ؛ ويظهرَ بفضْله ذِكْرُ «الشّاطبىّ» فيكون «القاضى الفاضل» رحمه الله قد أظْهره فى الزمن الأوّل و«القاضى الفاضل» أجلّه الله قد أظْهره فى الزمن الآخر ؛ وتقوىٰ الله تعالىٰ بها عِلْمِ خِتامُ الوصايا البِيض فليَتناوَلْ مِسْكها الذى هو بشـذَا المسك سَاخر ؛ والله تعـالىٰ ينفع بعلوم صَـدْرِه الذى ما ضاقَ عن السُّؤال فَمَلَّه ، ويمتعُ بعلوّ قَدْرِه الذى إن لم يكُنْ هو لفَضْل الثناء فمَنْ لَه .

المرتبـــة الثالثـــة

(من تواقيع مشايخ الأماكن بحاضرة دِمَشْقَ ـ ما يُفتتح بـ«رُسم بالأمر»)

تَوْقيعٌ بمشيخة الجَوَاليقية ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُبَاتة ؛ وهو :

رُسِم بالأمر ـ لا زال حُسْن آعتقاده يَسْـتَنزِلُ النّصْر فيُنصَر ، ويَستَبصِرُ مطالع الفَوْز فيُبَصَّر ، ويَستَجْلِبُ الأدْعيـةَ الصالحةَ من كلِّ زاهدٍ إذا حام فى أُفُق العبادة

يستقرّ ... ... ـ أدام الله تعالىٰ ببركته الانتفاع ، وباقتداء سلفه الارتفاع ، وأعاد من بركات بيته الذى قام البرهانُ بفضله وقال بوضوح شمسه الإجماع ـ فى مشيخة حرم سيدنا الخليل صلوات الله عليه وسلامه ، علىٰ عادته القديمة المقدّمه ، ومستقر قاعدته المعلومة المعلمه ؛ بعد إبطال ما كُتب به لغيره فإنّ هذا الولىّ أولىٰ ، ولأنّ الحقّ معه وباعُ الحقّ أطولُ على المعنيين إطالةً وطَوْلا[1] ؛ وضعًا للشىء فى محلّه الفاخر ، وحملًا علىٰ ما بيده من تواقيعَ شريفة توارثَ بركتَها مُلوكُ البسيطة فى الأوّل والآخر ؛ وعلمًا أنّه بقيّةُ العلمِ المَشِيد ، والزُّهْد العتيد ؛ وخليفَة السَّلَف الصالح وما منهم إلّا مَن هو «أمين» العزم «رَشيد» ، وأنّه الشيخُ وكلُّ مَن عرفه فى بقائه ولقائه مُريد ، والقائمُ بالمَقام الخليلىّ ـ صلوات الله تعالىٰ علىٰ ساكنه ـ مقامًا مُجتبىٰ ، والمنتسبُ إلىٰ خدمة الحَرَم الإبراهيمىّ مخدوما صلى الله عليه ونسبا ؛ والقديمُ الهجرة فلا تتركه الأوطان ولا تهجُره ، والمُقيمُ بالبلَد الخليلىّ علىٰ إقامة الخيْر : فما ضَرَّه أنّ العَدُوّ يشكُوه إذا كان «الخليلُ» يشكُره ؛ وقد سبقتْ له مباشراتٌ فى هـذا الحرم الشريف فكان عَزْمُها تمامًا ، وشُكْرُها لِزاما ، وكانتْ على الصّادرِينَ والوارِدين كتلكَ النّار النبويّة بردًا وسلاما .

فليعُدْ إلىٰ مباشرة وظائفه المذكورة فى التواقيع الشريفة التى بيـده ، وليكُنْ يومُه فى الفضـل زائدًا علىٰ أمسـه مقصّرًا عن غده ؛ بثناء يتلقّ أضيافَ أبى الأضياف ، بأليفِ أحوالِ الداخلين إليه شتاءً وصيفًا وإن لم تكن رحلةَ إيلَاف ، جاريًا فى بركة التّدبير والتثمير علىٰ عادته وعادة سلَفه فنِعْم الخلَفُ ونِعْم الأسلاف ؛ مُواظبًا علىٰ عادة تقواه ورفْع الأدعية لهـذه الدّولة الشريفـه ، جاعلًا ذلك منـه أوّلَ وآخرَ كلّ وظيفه ؛ والله تعالىٰ ينفع ببركات سلَفه وبه ، ويكافئُ عن الأضياف بَسْطَ راحتِـه بالخيرات وفَضْلَ تعبه .

(١) الأنسب «طُولا وطَوْلا» .

تَوْقيعٌ بمشْيَخة الزاوية الأمِينية بالقُدْس ونَظَرها، كُتب به للقاضى «برهان الدين» ابن المَوْصِلى بـ«ـالجناب العالى» وهو :

رُسم ... ـ لازال يُجْرى الأولياءَ فى مقاصدهم علىٰ أجْمل عادَه، ويَختار منهم لمَواطِن الخَيرِ مَنْ يرعاها بنَظَرٍ يُثمِرُ لهـا السعادَه ـ أن يُحمـلَ فلانٌ فى وظيفتَىِ النظر والمشْيَخة بالزاويةِ الأمينِيَّة بالقُـدْس الشريف، علىٰ حكم النُّزول والتقرير الشرعيَّين المستمرِّ حُكْمُهما إلىٰ آخر وَقْت، وآستمراره فى الوظيفتين المذكورتين بمقتضاهما، ومَنْع المنازِع بغير حكم الشرع الشريف .

فليباشِرْ ذلك بمـا يُقْتدىٰ به من تَسْليكه وتأديبه، وتَسَرُّعِ رَغْبته فى هـذا المقام ومن عناية تَهْذيبه؛ والوصايا كثيرةٌ ولكن لا تُقال لمثْـله إذ هو مُعلِّمُها، وتقوىٰ الله سبحانه أهمُّها وأعظَمُها؛ واللهُ تعـالىٰ المسْئولُ أن يرشدَنا إليها، وأنْ يجعلَ فى كلِّ الأُمور آعتمادنا عليها؛ بمنِّه وكرمه! .

الصـــــنف الخـــامس

(ممَّـا يُكتب لأرباب الوظائف بالشام ـ تَواقيع العُرْبان)

والذى وقفت عليه من ذلك مَرسومٌ مكْتَتَب برُبْع تَقْدمَة بنى مَهْدىّ بـ«ـالمجلس السامى» بغير ياء، كُتب به لـ«ـموسىٰ بن حناس» مفتتحا بـ«ـأمّا بعد» وهو :

أمّا بعدَ حمدِ الله تعالىٰ الذى جمع على الطاعة الشريفة كُلَّ قَبِيلَه، وبسطَ علىٰ ذوى الإخلاص ... ... الظَّليلَه [1]؛ والشهادةِ بأنّه الذى لا إلٰه إلّا هو وحدَه لا شريكَ له

(١) بياض فى الأصل ولعله «ظلال نعمه الظليلة» .

شهادة أتخذها للتوحيد دَلِيلَه، والصلاة والسلام على سيدنا محمد عبده ورسوله الذى اتخذه الله تعالى حبيبَه وخليلَه، وآتاه الدّرجة الرفيعة والوسيلَه، وعلى آله وصحبه صلاةً مباركةً أصيلَه — فإن الأولى لتزكيــة القوم (١) تُرعى، وذا الإخلاص ينجح له كلُّ مَسْعى، والجديرَ بالنّعم من يجيب بالطّاعة حين يُدْعى؛ من سلك فى الخدمة الشريفة مَسْلَك الأسلاف، وتجنّب ما يُفضى إلى الشّقاق والخلاف؛ فعند ذلك رفعنا مَراتبَه، وضاعفنا مَواهبَه، وأنرنا بالإقبال الشّريف كواكبَه، وأجملنا مكاسبَه؛ وبَسطْنا فى رُبْع تَقْدمة بنى مَهْدى كلامَه، ونفّذْنا أمره على طائفته: قولَه وإبرامَه؛ من أضحى مَشكورًا من كلّ جانب، مُجتهدًا فى المصالح وبلوغ المآرب؛ مَن عُرِف بالأمانة فسلكها، واشتهر بالصّيانة فملكها؛ وحاز أوصافًا حَسَنه، وسيرةً نطقتْ بها الألسنَه؛ وكان فلانٌ هو الذى أضحى على عُرْبانه مقدما، ومن أكابرهم معظّما.

فلذلك رُسم بالأمر الشريف — لا زالتْ مراسمُه الشريفةُ عاليةً نافذَه، وأوامرُه بصلة الأرزاق عائده — أنْ يستقرّ ... على عادته وقاعدته: حملًا على ما بيده من التوقيع الكريم.

فليباشرْ هــذه الإمْرةَ مع شُركائه مُباشرةً حَسَنه، وليَسِرْ فيها سيرًا تشكُره عليه الألسِنَه؛ وليُظْهِر السّداد، وليبذُلِ الطّاعةَ والاجتهاد؛ وليَسْلُكِ المسالكَ الحسَنَه، والله تعالى يجعله من الذين يَستَمِعُونَ القَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَه؛ والوصايا كثيرةٌ وملاكها تقوى الله تعالى، والله تعالى يجعلُ إحساننا إليه يتوالى.

قلتُ: وقد تقدّم أنّه يُكتب بإمْرة بنى مَهْدى من الأبواب السلطانية أيضا. على أنّ هذا التوقيعَ من التواقيع الملفّقة، ليس فيه مطابقــة للتواقيع، وليس برائق اللفظ، ولا مُؤْنِق المعنى.

(١) هذا الكلام كما نبه عليه المؤلف بعد غير منسجم بل غير مستقيم.

الصـــــنف الســادس

(ممـا يكتب لأرباب الوظائف بالشام ــ تواقيع زعمـاء أهل الذّمة : من اليهود والنصارىٰ)

وهــذه نُسخة تَوْقيعٍ لبطرك النصارىٰ مفتتحًا بـ« أمّا بعــد » كُتب به للبطرك « ميخائيل » وهى :

أمّا بعدَ حمــدِ الله الذى جعلنا نَشْملُ كلَّ طائفــةٍ بمزيد الإحسان، ونُفيضُ من دولتنا الشريفــة علىٰ كلِّ بَلدٍ آطمئنانًا لكلِّ مِلّةٍ وأمان ، ونُقرُّ عليهـم من آختاروه ونُراعيهـم بمزايا الفَضْــل والآمْتنان ؛ والشَّهادةِ بأنّه اللهُ الذى لا إلٰه إلّا هو الواحدُ الذى ليس فى وحدانيته قَوْلان ، والفَرْد المنَزّه عن الجَوْهر والأقنوم والوالد والولد والحُلول والحَدَثان ، [شهادةً] أظهر إقرارَها اللِّسان ، وعَمِلَتْ بها الجوارِحُ والأركان ؛ والصَّلاة والسلام علىٰ سيدنا محمدٍ عبدِه ورسولِه المبعوثِ إلىٰ كافّة المِلَل والإنْس والجانّ ، الذى بشَّر به عيسىٰ وآمن به مُوسىٰ وأنزل عُمومَ رسالته فى التَّوْراة والإنْجيل والزَّبور والفُرقان ، فصَحَّ النَّقْل بنبوّته وآدمُ فى المــاء والطِّين وأوْضح ذلك البُرْهان ، وعلىٰ آله وصَحْبه الذين شادُوا بإخلاص الوحدانيــه ، وشادُوا أركان الملة المحمّديّه ، وأعزُّوا الإيمان وأذلُّوا الطُّغيان ، صلاةً ينفَحُ طِيبُها ، ويُفصِحُ خَطيبُها ، ويَفرح بها الرحْمٰن ــ فإنّــ أوْلَىٰ من أقمْناه بِطْريكا علىٰ طائفة النصارىٰ الملَكيّه ، علىٰ ما يقتضيه دِينُ النصرانية والمِلّة العيسَوِيّه ؛ حاكمًا لهم فى أمورهم ، مُفْصحًا عمـا كَمَن فى صُدُورهم ــ من هو أهلٌ لهذه البِطْريكيه ، وعارف بالمِلّة المسيحيّه ؛ أخذَه(1) لها أهْلُ طائفته ، لمـا يعلمون مــن خِبْرَتِه ومعرفته ، وكِفَايته ودُرْبَتــه ؛ ونُدِب إلىٰ وِلايةٍ يســتحقُّها علىٰ أبناء جِنْسه ، ورَغِب فى سلوكه لهـا مع إطَابة نَفْسه ، مع ماله من مَعْرفةٍ سَرتْ

(1) يريد اختاره لهـا .

أخبارُها ، وظهرتْ بين النّصارىٰ آثارُها ؛ وكان فلانٌ ـ أدام اللهُ تعالىٰ بهجته ـ هو من النصارىٰ المَلَكيّة بالمعرفة مذكور ، وسيرُه بينهم مشكور ، القائم فيهم بالسّيرة الحسنة ، والسّالك فى مذاهبهم سيرا تشكُره عليها الألسنة .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف ـ لا زال إحسانُه العميمُ لكلّ طائفة شاملا ، وبرّه الجسيمُ لسائر الملك بالفضل مُتواصلا ـ أنْ يستقرّ بطركا على النصارى المَلَكيّة بالشام وأعماله ، علىٰ عادة من تقدّمه فى ذلك ، وتقوية يده علىٰ أهل ملّته ، من تقادم السنين بحُكم رضاهم ، ومنع من يعارضه فى ذلك : حملًا علىٰ ما بيده من التوقيع الكريم المستمرّ حكمه إلىٰ آخر وقت .

فليباشرْ هذه البَطْركيةَ مباشرةً محمودةَ العواقب ، مشكورةً لِما تحلّتْ به من جميل المناقب ، وليحكُمْ بينهم بمقتضىٰ مَذْهبه ، وليسرْ فيهم سَيرًا جَميلًا ليحصلَ لهم غايةُ قَصْده ومَأْربه ، ولينظُر فى أحوالهم بالرحْمه ، وليعملْ فى تعلّقاتهم بصدْق القصْد والهمّه ، وليسلُكِ الطرقَ الواضحةَ الجليّه ، وليتخلّقْ بالأخلاق المرضيّه ، وليفصلْ بينهم بحُكم مذْهبه فى مواريثهم وأنكحتهم ، وليَعْتمِد الزُّهدَ فى أموالهم ومُتعتهم ؛ حتّىٰ يكون كلُّ كبيرٍ منهم وصغيرٍ ممتثلًا لأمْره ، واقفًا عندما يُقدّم به إليه فى سرّه وجَهْره ؛ مُنتصبين لإقامة حُرْمته ، وتنفيذ أمْره وكلمَته ؛ وليُحسن النظرَ فيمن عنده من الرُّهبان ، وليرفُقْ بذوى الحاجات والضُّعفاء : من النّساء والصّبيان ، والأساقفَة والمَطارنة والقِسّيسينَ زيادةً للإحْسان ؛ إحسانًا جاريًا فى المَساء والصّباح ، والغُدُوّ والرّواح .

فليمتثلوا أمْره بالطّاعة والإذعان ، وليُجيبُوا نَهيه من غير خلاف ولا تَوان ؛ ولا يُمكّن النّصارىٰ فى الكنائس من دَقّ الناقوس ، ورفْع أصواتهم بالضّجيج ولا سيما عند أوقات الأذان لإقامة النّامُوس ؛ وليَتقدّمْ إلىٰ جميع النصارىٰ بأنّ كلّا منهم يلزم

زيّه، وماجاءت به الشروط العُمَرِيّة ـ عمرَ بن الخطّاب رضى الله عنه ـ لتكون أحوالُهم فى جميع البلاد مَرْعيّــه؛ وليَخْشَ عالِمَ الخفيّات، وليستعمل الأناةَ والصّبرَ فى جميع الحالات؛ والوصايا كثيرةٌ وهو بها عارف، والله تعالىٰ يلهِمُه الرُّشْد والمعارف .

قلتُ : وهــذا التوقيع فيه ألفاظٌ ومعانٍ غيرُ مستَحْسَنة، وألفاظٌ ومعانٍ مُنكَرةٌ، أفحشُها قولُه : مُفْصِحًا عمــا كَنَ فى صُدُورِهم . فإنّه لا يعلم ماتُخْفِى الصدورُ وتُكِنّه إلّا الله تعــالىٰ .

واعلم أنّه رُبمــا افتتح توقيعُ البطريرك عندهم بـ«رُسم بالأمر» .

⁂

توقيــع لبَطْرك النصارىٰ بالشام أيضــا ، كُتب به للبطريرك «داود الخــورى» بـ«البَطْرك المحتشم» وهو :

رُسم بالأمر ـ لازال يَعِزُّ بالالتجاءِ إلىٰ حَرَمِهِ من يأْوِى إليه، ويَقْصِد عَدْلَه من أهل المِلَل ويعتمدُ عليه ـ أن يستقرَّ فلانٌ ـ وفّقه الله تعالىٰ ـ بطريركَ المَلَكية، بالمملكة الشريفة الشامية المحروسة، حَسَبَ ما اختاره أهلُ ملّتِــه المقيمون بالشام المحروس ورَغِبوا فيه، وكَتبُوا خطُوطهم به ، وسألُوا تقريره فى ذلك دونَ غيره ؛ إذْ هو كبير أهل مِلّته، والحاكِمُ عليهم ما امتد فى مدّته ؛ وإليه مَرْجِعُهم فى التّحريم والتّحليل، وفى الحكم بينهم بمــا أنزل اللهُ تعالىٰ فى التّوراةِ ولم يُنْسخْ فى الإنجيل؛ وشِرعَته مبنيّة على المسامحة والاحتمال، والصّبرِ على الأذىٰ وعَدَم الاكتراث [به] والاحتفال .

فَخُــذْ نفسَكَ فى الأوّل بهذه الآداب ، واعلَمْ بأنّ لك فى المَــدْخل إلىٰ شريعتك طَريقًا إلى البــاب؛ فتخلّقْ من الأخلاق بكلّ جميلٍ ، ولا تَستَكْثِرْ من متاعِ الدنيا

فإنه قليل ؛ وقدّم المصالحة بين المتحاكمين إليك قبل الفصل البتّ فإنّ الصُّلح كما قيل : سيّد الأحكام، وهو قاعدة دينك المسيحىّ ولم تخالف فيه المحمدية الغرّاء دينُ الإسلام ، ونظّف صُدُور إخوانك من الغلّ ولا تقنع بما يُنظّفه ماءُ المعمودية من الأجسام، وإليك الأمرُ فى البِيَع ، وأنت رأس جماعتك والكلّ لك تبع ؛ فإيّاك أن تتخذها لك تجارةً مُربحه، أو تقتطع بها مالَ نصرانىّ تقرّبه فإنّه ما يكونُ قد قرّبه إلى المذبح وإنّما ذبحه ؛ وكذلك الديارات والقلالى ؛ [يتعين عليه أن يتفقّدَ فيها كل أمر فى] (١) الأيام والليالى ، وليجتهدْ فى إجراءِ أُمورها علىٰ ما فيه رفع الشبهات ، وليَعلمْ أنّهم إنّما اعتزلُوا فيها للتّعبُّد فلا يدَعْها تُتّخذُ متنزّهات ؛ فهُم إنّما أحدثُوا هذه الرّهبانية للتّقلّل فى هـذه الدنيا والتّعفُّف عن الفُروج ، وحبَسُوا فيها أنفُسهم حتّىٰ إنّ أكثرهم إذا دخل إليها ما يعودُ يبقىٰ له خُروج ؛ فليحذّرْهم من عملها مصْيدةً للـمال ، أو خلوةً له ولكنْ بالنّساء حرامًا ويكونُ إنّما تنزّه عن الحلال ؛ وإيّاه ثم إيّاه أن يُؤوِى إليه من الغُرباءِ القادمين عليه من يُريب ، أو يكتُم عن الإنهاء إلينا مُشكِلَ أمرٍ ورد عليه من بعيدٍ أو قريب ؛ ثم الحذَر الحذَر من إخفاء كتابٍ يرد [إليه] من أحدٍ من الملوك ، ثم الحذَرَ الحذَر من الكتابة إليهم أو المشى علىٰ مثل هذا السُّلوك ؛ وليتجنّب البَحْر وإيّاه من اقتحامه فإنّه يَغرَق ، أو تلَقّ ما يُلقيه إليه جَناح غُرابٍ منـه فإنّه بالبَيْن ينعَق ؛ والتّقوىٰ مأمورٌ بهـا أهلُ كلّ مِلّه ، وكلّ مُوافِقٍ ومُخالِفٍ فى القِبلَه ؛ فليكُنْ عملُه بها وفى الكناية ما يُغنى عن التصريح ، وفيها رضا الله تعالى وبها أمر المَسيح .

⁂

توقيعٌ برآسة اليهود بالشام، مفتتحا بـ«رسم» من إنشاء الشيخ جمال الدين ابن نُباتة، وهو :

---

(١) مأخوذ من «التعريف ص ١٤٥» .

رُسم بالأمر ـ لا زال جُودُه فى كلِّ مِلَّة ، وغَمامُ كرمه على الخَلْق كأنه ظُلَّة ، وذِمامُ نِعَمه يَبلُغ المسْلِمَ والذِّمِّىَّ من الاستحقاق محلَّه ، أن يستقرَّ الحكيم ... ...(1)

ومنه : ـ وأن يعامِلَهم على ما ألِفوه من الأحكام ، ويُنْصِفَ صاحبَ حَقِّهم من مُتَطَلِّبهم : حتّى لا يعدُوَ أحدٌ فى سَبْتٍ ولا فى سائر الأيّام ؛ ويُهذِّبَ وَحْشِىَّ جاهلهم بإيناسه ، ويعالجَ سَقَم كاهِلِهم حتّى تطلعَ الصفْراءُ من رأسه .

فليَقُمْ مقامًا فى هذه الطائفة القديمه ، وليُعبِّر من أسفارٍ عبرانيَّة عن عوائد قضاياهم النظيمه ؛ مُفَرِّجًا بمعرفته كلَّ حرَّان ، جامعًا كلَّ شَعَثٍ على عَدْلٍ عنده وإحْسان ؛ شاكِرًا لظُلَلِ النِّعمه ، عارِفًا بالعوارف التى تَرْعَى يمينَها كلَّ ذِمَّه .

النيـابة الثـانيـة

(من النيابات التى يُكتب عن نوابها بالولايات ـ نيابة حلَب)

وهى على نحوٍ من نَمَط دِمَشْق فيما يكتب عن نائبها . فيكتب عن نائبها أيضا بالتواقيع لأرباب الوظائف بحاضرة حلَب وأعمالها : من أرباب السُّيوف، وأربابِ الأقلام الدِّينيَّة، وأرباب الأقلام الديوانية، ومشايخ الأماكِنِ وغيرهم ، مُرَتَّبةً على المراتب الثلاث : من الافتتاح بـ«ـالحمد لله» ، والافتتاح بـ«ـأمَّا بعد حمد الله» ، والافتتاح بـ«ـرُسم بالأمر» .

وهذه نسخُ تَوَاقِيعَ ممّا كتب به لأرباب السيوف بحاضرة حلَب وأعمالها ، يُستضاءُ بها فى ذلك :

---

(1) بياض بالأصول .

توقيعٌ بنقابة الأشراف، كُتب به للشريف عزّ الدّين «أحمد بن أحمد الحُسَيْنى» بـ«المقرّ العالى» وهو :

أمّا بعدَ حمدِ الله الذى خلّد السيادةَ فى بيوت الشّريف أحمدَ تخليد ، وقلّد تقاليد السّعادة، لأهلِ الإفادة، أسْعد تقليد ، وجدّد الوِفادَة، لحَرَم العِبادَة، بعزّ العصابةِ المحمدية آكدَ تجديد، والصلاةِ والسلامِ على سيدِ الخلقِ الذى عقد العَهْدَيْن لأمّته ، بالثّقلَيْنِ: من كتاب الله وعتْرته، وسرّ النفوسَ المُؤْمنةَ هُداه بكلّ أبِيٍّ من أُسْرته، وأقرّ العيونَ المراقبةَ بكلّ سَرِىٍّ من أهلِ بيْته تبرُق أنوارُ النبوّة من أسِرّته، وعلى آله حَبْلِ النّجاة لِلْمتمسِّك، وسُبُلِ الهُداة للمتنسّك، وصَحْبِه نجومِ الهُدَى، ورُجومِ العِدَا، وأئمةِ الخَير لمن بهم اقتدى، صلاةً وسلاما، يتعاقبان دَواما، ويتلازَمان على الألْسنة مدَى المَدى لِزاما، ما حَلا بعين وَطَف، وما علا علَوِىٌّ ذُرا شَرف ـ فإنّ أهمّ ما اعتنى به وُلاةُ أمورِ الإسلام ، وأعمّ ما اقتنى منه رُعاةٌ أجورَ الحكّام ـ رِعايةُ مصالحِ أهل البيْت، وانتهازُ الفُرصة فى مُوالاتهم حتّى لا يقالَ لفَواتِها : لَيْت، وتعظيمُ ما عظّم الله تعالى من حُقوقهم ، وتكريمُ ما كرّم رسولُه من بِرّهم واجْتنابِ عُقوقهم ، وتقديمُ أحقّهم بالتقديم لاحق سَبّاقهم إلى غايات العَلوات وسبُوقِهم، والتّعبدُ بالتّعب والاجتهاد فى نفْعهم ، ونَصْبُ النفوس للنّصَب لتجُرّ ذُيولَ الفَخْر بمُوالاتهم ، وإعلائهم على الرءوس ورفْعهم ، اختيارًا لِرأْىِ مَن زاد فى العناية بالعتْرة الطاهرة وأرْبَى، وائتمارا بقوله تعالى : ﴿قُل لَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إلا المَوَدَّةَ فِى القُرْبَى﴾ خصوصًا نِقابةَ الأشراف ، والنّظر فيما لهم من الأوقاف؛ فهى شاملةُ جَمْعهم، وجامعةُ شمْلِهم ، وواصِلةُ نفْعهم ، ونافعةُ كلّهم ؛ وبفضْل مباشرها تُسبَغُ عليهم النّعمه ، وتُستدَرّ ببركة إجماعهم عليه سُحُبُ الرّحمه ؛ وبكَفالته تجمع المِنّةَ لمراتبهم وأحسابهم ، وبإيالته تُدفعُ الظِّنّة عن مَناقبهم وأنسابهم ؛ وهو القائمُ عن وُلاة الأمور من خدَمهم

بفروض الكفايه، والدّائمُ الدّأْبِ لمرآة أدبهم لتَحْسُن لهم الرِّعايه ، فوجب الاحتفال باختيار من يُحلِّى هــذا المَنْصبَ الشريف، وتعيّن الابتهالُ فى امتياز مَن يُسبغُ عليه هــذا الظّلُّ الوريف ؛ ممّن قدّم فى هذه السيادة بيْتُه، وارتفع بخفْض العيْش لقرابته بعَفافِه وديانته صِيتُه؛ وتنزّه عن كلّ ما يَشِــينُ وتبرّأ، واكتسىٰ حُلَلَ الفَخار العليــة ومن أعْراض الدنيا الدّنيّة تعرّىٰ .

وكان فلانُ بن فلانٍ ـ أسبغ الله تعالىٰ ظِلاَلهَم ، وضاعف بمعــالى الشّرف جَلالَهم ـ ممّن حازَ فى هــذه الخلال المَنازِع ، وجاز نِهايةَ هذه الخِصَال بلا مُنازِع ، وورد من حِياض المناقب الجميلة أعْذبَ المَشارع ؛ ودَرَى المراقِىَ إلى المجْد ودَرِب، وبلغتْ نفوس مُحِبّيه من مخايل سُعوده الأرَب ، وقرّتْ عيونُ أقاربه بما حصل له من القُرَب ؛ ونَشَا فى حِجْر السّعاده، وارتضع لِبَان الإفادَه، ولحِقَ بالسابِقينَ الأوّلينَ من أهْــل بيْته فى الزّهاده ، وتبتّل بالإخلاص فظهرتْ علىٰ وَجْهــه أنوارُ العباده ؛ وانعطع على العــل ، وبلغ من العــلوم الأمل : قؤوم تشبث بالجــرة وهو شــامة فى شامه المنسوب :

وَرِثَ السِّيادةَ كابِرًا عن كابِرٍ! * كالرُّمْحِ أنْبوبٌ علىٰ أُنْبــوب.

أصْلُ نَجَارٍ سَما، وفَرْعُ نِجارٍ نَما، وغَيْثُ فَضلٍ همَىٰ؛ أثبتَ فىأعلَى المعالى قدَما، وناسب قَدْرَه سَعْيُه كَرَما ؛ وجلّتْ صفاتُ محاسِــنه اللّائقه ، وحلّت الأفواهَ مَدائحُ سجاياه الرّائقه ، وتملّت الألْسنُ وما ملّتْ ما تُملِى عنه بالخير كلُّ ناطقَه .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف ـ لا زالتْ أوامرُه بِبِرّ آل مُوالاته ماضِيَه، ونَواهيه بقَهْر أهلِ مُعادَاته قاضِيَه ـ أن يستقر ... استقرارًا يُقرُّ عينَ العُلا ، ويسرّ نفوسَ أهلِ الوَلا ؛ ويَضعَ الأشياءَ فى محلّها، ويُسنِدُ الأمور إلىٰ أهْلها ؛ ويَستجلِبُ الأدعيه،

ويحملُ بالوَلاءِ الجميــل ألْوِيَه ؛ ويشرَحُ خواطر الأشراف ويُطَيِّب نفُوسَهم، ويرفعُ بعد مَجود الشُّكر بالدعاء رُءوسَهم .

فلْيُباشِرْ هذه الوظيفةَ مباشرةً يقفُو بها آثارَ بيْته الطاهر، بعَزْمٍ كريم: لكلِّ مُصلح بالخير غامِر، ولكلِّ مُفْسِدٍ بالضَّـيْرِ قاهِر ؛ وحَزْمٍ حَليم : لكلِّ حقٍّ ناصر، ولكلِّ كَسْرٍ جابِر ؛ ولْيصِــلْ بالبِرِّ رَحِمَه، ولْيُلِنْ للضعيف كَلِمَــه ؛ ولْيقُمْ بأعباء هذه الوظيفة قيامَ عَمِّه الشَّريف وأبيــه ، ولْيَصُنْ عن أموال الأوقاف صِيامًا يُقرِّبُه الله تعالى به ويَجْتَبِيه ؛ لِيَحْمَدَ، هــذا المنصبُ الجليل ، فى بيتــه الأصيل ، عودَه على أحمد ؛ ولْينفَعْ قرابَتَه بتَثْمير أموالهم ، وليَشفَع النهضة بالمعرفة فى تثْمير غلالهم ؛ : لتَدُرَّ بركَتُه أخلافَ أرْزاقِهــم ، وتَقِرَّ خواطِرُهم بمضاعفة أرْزاقهم وإطْلاقِهــم ؛ ويُخْصِبَ فى جَنابِه مَرْعاهم ، ويُقرِّب فى بابه مَسْعاهم ؛ وتَنْطِقَ بشكره ألْسِنَتُهم الشريفه، وتَتَّفِق على مَحَبَّته ظِلالُ بيوتهم الوريفه ؛ ولْيَعْتَبِرْ ويَخْتَبِرْ أشغالَهم ولْيَمْنَعْ شُبَّانَهم من الاحتراف بحِرَف الأدنياء ، وليأْمُرِ الآباءَ بتعهُّد تربية الأبناء ؛ وليأْمُرْهم من العَمَل بما يناسب مَعالِيَهم ، وليَجْبُرَهم بتدبيره السَّــديد جَبرًا يُميِّزهم بحُسْنِ السَّمْت من أوليائهم : وكلُّنا من مَواليهـــم .

والوصايا كثيره، وغَيْن عُلومه بتَعْدادها بَصيره؛ وتقوى الله تعالى لا يُهمَلُ النَّصُّ عليها، والإشارةُ بحُسْــن البيان وحَسَــنِ البَنان إليها ؛ فلتكُنْ رُكْنَ ٱسْتِناده، ورأْسَ مال ٱعتِماده؛ والله تعالى يُديمُه فى صُعود دَرَجِ السُّعودِ مُدَّةَ حياته ، ويجمع له خيرى الدنيا والآخرة برَفْع دَرَجاته .

⁂

وهذه نسخةُ توقيع بنقابة الجيوش بحَلَب ، كُتب به لـ«ناصر الدين بن أيتبك» بـ«السامى» بغير ياء، وهى :

رُسم بالأمر الشريف ـ لا زال أمْرُه الشريفُ يُعَضِّد الجيوشَ بأعْضَـدِ ناصر، ويُرشِـدُ أولياءَ الخدْمة إلى ٱرْتقاء رُتَب المعالى فكلُّ إنسانٍ عن إدراك محلِّها قاصر ـ أن يستقرّ فلانٌ ـ أدام الله توفيقَه، وجعل اليُمْنَ والسَّعْد قَرِينَه ورَفِيقَه ـ ... ٱستقرارًا يُظْهر مالم يَخْفَ من نَهْضَتِه وكِفَايته، ويُشْهر مُعْلَن سرِّ يَقَظتِه ودِرايَته؛ لأنَّه الفارسُ الذى أعزَّ كلَّ راجِلٍ بشَجاعته، والمُمَـارِسُ الذى خَبَر الوقائعَ بحُسْن دُرْبَته ودراية صِناعَته؛ والعارِفُ الذى ٱتَّصف بالخِبْرة وحُسْن الصِّفه، وعُرِفَ فى أُموره بالعَدْل والمَعرفه؛ والهُمامُ الذى عَلَتْ هِمَّته فوقَ كلِّ هِمَّه، وكَشف بجزيلِ مُروءَتِه من الكُرُبات كلَّ غُمَّه؛ وسار فى الجيوش سَيرَةَ والِده، فشَهِد كلٌّ بمـا حواه من طارِف الفضل وتالِدِه .

فلْيباشِرْ ذلك : سائرًا فى الجنود أحسنَ سيرَه، مُراقِبًا الله تعالىٰ فيما يُبْديه من القَوْل والفِعْل والعَلانيَة والسَّريره؛ مُلازِمًا مايلزمه من حُقوق هذه الوظيفه، قائمًا بمـا يجب من أداءِ الخِدْمة الشَّريفه؛ ولْينفِّذْ ما يُؤْمَر به من الأوامر، عالِمًـا بمـا يتعيَّن من حقوق المأْمُور والآمِر؛ [وليجتهد] فى جَمْع العساكر وإعلامِهم بالمُهِمَّات، ولْيتفقَّدْ أحوالَ الجُنْـد فى سائر الأوْقات؛ ولْيُسْفِرِ النِّقابَ عن الوُجوه بالحِلْية يوم العَرْض، ولْيُسبِلْ حِجابَ السَّتْرِ علىٰ من أدركه العَجْزُ عن أداء الفَرْض؛ والوَصايا كثيرةٌ لاتحتاج إلى التَّعداد، وتَقْوَى الله تعالىٰ هى العُمْدة فى كلِّ الأُمور وعليها الاَعْتِماد .

⁂

تَوْقيعٌ بالمِهْمَنْدارِيَّة بحَلَبَ، كُتب به لـ«غَرَس الدينِ الطناحى» بـ«الجناب العـالى» وهو :

رُسم بالأمر الشريف ـ لا زالتْ عزائِمُه تَنـدُب للمهمَّات من غُرِسَتْ برِياض ولِيِّه أدْواحُ الهِمَم فزكا غَرْسا، وتُقرِّرُ لهـا من شاب فَوْدُه فى إفادة الوُفُود فأجاب

قَصْدًا وأطاب نَفَسًا؛ ولا بَرِحت عنايته تشمل من أولياء خِدَمها كلَّ شَهْم اذا سل عضبا أزال نفسا وأسال نَفْسا ، وتُعيِّن من أعيانهم كلَّ جميل يودُّ المُنافِسُ لو شاهده ولا تبْخَس يَدُ الرُّقِيِّ منه نَفَسا ـ أنْ يستقرَّ ... ... لأنه ذُو الهِمَم التى لا تُلْحَق جيادُها ، ولا تُسْبَق جَوْدةَ جِيادُها[1] ؛ لا مُنْتهىٰ لصغار هِمَمه فأنىٰ تُدْرَك كِبارُها ، ولا تُدْرك سَوابِقُه فأنىٰ تُقْتفىٰ آثارُها ؛ له قَدَمُ إقدام[2] فى الثَّرىٰ لا يزال راسخا ، وهامةُ هِمَّـةٍ لم يَزَلْ بَشرفُها على الثُّريَّا بَاذخا ؛ ولأنه الفارسُ الذى تُفرِّست فى مخايله الشجاعه ، وتبضَّع الشَّهامةَ فى الحروب فكانتْ أربَح بِضاعَه ؛ كَمْ أزْرتْ سُمْرُ رماحه بهيف القُدود ، وأخجلتْ بِيضُ صِفاحِه كلَّ خَوْدٍ أُمْلود ؛ وكَمْ جُرِّدت من مُطْرِبات قِسيِّه الأوتارُ فتراقَصتِ الرُّءوس ، وشَربتِ الرِّماحُ خَمْر الدِّماء فعرْبدتْ على النُّفوس :

له هِمَمٌ تعلُو السَّحائبَ رِفْعَـةً ، * وكَمْ جاد منها بالنَّفائس والنَّفَس !

وتُجْنىٰ ثِمارُ الفَضْلِ من دَوْحِ غَرْسِه ! * ولا غَرْوَ أن تُجْنَى الثِّمارُ من الغَرْس !

فليباشِرْ هذه الوظيفةَ مباشرةً تَحْمَده فيها الوُرَّاد ، وتَشْكره بالقَصْد ألْسنةُ القُصَّاد . وتَذْكُره البَرِيديَّةُ بالخير فى كلِّ وَاد ؛ ولْيُهيِّئْ لهم [من القرىٰ ما يهيِّئـه][3] المَضيف ، وليُحصِّل لهم التَّالِدَ منه والطَّريف ، وليتلقَّهم بوَجْه الإقبال ، وليبدأْهم بالخير ليحْسُن له المآل ، وليَجْعَلِ التَّقوىٰ إمامه فى كلِّ أمرٍ ذِى بَال ، وليتَّصفْ بالإنصاف فهو أحْمَدُ الأوصاف فى جميع الأحوال .

* * *

تَوْقيعٌ بتَقْدمة البَرِيديَّة بحلَب ، كُتبَ به لعماد الدين « إسماعيل » بـ«المجلس العالى» وهو :

(١) كذا فى الأصل مشيرا إليه بعلامة التوقف ولا توقف لان الأولى جمع جيِّد نقيض الردىء والثانية بجمع جواد للفرس الرائع السابق .

(٢) ذكر القدم وهى أنثى مجاراة للعامة .   (٣) زيادة تطلبها صحة المعنى .

رُسم بالأمر الشريف ـ لا زالت عنايتُـه الكريمةُ تقدِّمُ إلى الرُّتَب العليَّة مَنْ بَنَىٰ أُسَّ إقدامه من المروءة علىٰ أشرف عِمَاد ، وتُعيِّن للمهمّات الشّريفة من ٱمتطىٰ من جياد العَزْم أسبق جَواد، وتَنْدُب لها من أولياء خَدَمه كلَّ نَدْبٍ لم يزل ساعدُ سَعْده مَبنيًّا على السَّـداد ، وتُصْعِد إلىٰ أُفقها من ذَوِى الشَّهامة من فاقَتَ بيمينه الصِّعاد ـ أن يستقرّ ... ... : لأنّه ذُو الهِمَم التى سامىٰ بهـا الفَراقِد ، والكُفْءُ الذى نَشِط إلى القيام بالعزائم إذا قَعد عنهـا من ذَوِى الهِمَم أَلْفُ راقد ؛ والمقـدَّمُ الذى قدَّمه الإقدامُ علىٰ قَضَاء الأُمور المُعْضِـلات ، وحلّىٰ أجيادَ ذَوِى المآرب إذْ حَلَّ لهم منها بيُمْنِ عَزْمه المُشْكلات؛ ماعَلا جَوادَ بَرِيد إلّا وسابَق الطَّرْفَ بل الطَّرْفَ إلى المراد ، ولا نُدِب إلىٰ مُهِمٍّ للحـكم فيه نيلًا لأمَلٍ إلّا قدح من رأيه فى قضائه أَوْرَىٰ زِنَاد ؛ والفارسُ الذى تمـايلَتْ بكفّه العواملُ عُجْبًا فأخجلت الأغْصان ، وحنَتْ إذْ حلَّتْ بقـلوب الأعداء وإن كانت من المُرّان ؛ والشّهْمُ الذى سـبق النَّهم إلى الغَرَض ، والشُّجاعُ الذى ماأعْرَض عن مُحارَبة الأقْران : فصفَّىٰ جَوْهَرَ شجاعته من العَرَض ؛ واليَقِظُ الذى لم يكن بناظره إنْسان، ولا ٱنطبق علىٰ أسيافه المُسَهَّدة بيمينه أجْفان .

فلْيباشِرْ هذه التَّقْدِمَة مباشرةً يشهدُ الحاسدُ له فيها بالتقديم ، ويُقِرُّ الجاحدُ أنَّه أُهْدِى لمـا أُسْدِى إليه إلىٰ صراط عَزْمٍ مُسْتقيم ؛ ولْيطِرْ إلىٰ قضاء المُهِمَّات الشريفة بأجنحة السَّداد ، ولْيمتَطِ من جَوادِ الجَوادِ أسبقَ جواد ؛ ولْيُسَوِّ بين البريدية فى الأشغال ، ولْيُقبِلْ عليهم فيما يرومونه من حُسْن السِّفارة بوَجْهِ الإقبال ؛ ولْيسلُكْ سَنَن الصِّدْق والتَّقوىٰ ولْيجعلْهما له أحسنَ سُنَّة ، ولْيلبَس سَوابِغَ الإنصاف فإنَّها من سِهام الخَلَل جُنَّة .

✥

نسخةُ توقيع بنيابة عينتاب ، كُتب به لناصر الدين «محمد بن شعبان» بـ«ـالمجلس العالى» عوضًا عمّن كان بها ،

رُسم بالأمر الشريف ـ لا زال إحسانُه العميمُ، يرفعُ لناصر الدين قَدْرا، وامْتنانُه الجسيمُ، ينفِّذُ له فى حِفظ المـالكِ المنصورة أمْرا، ويُوَلِّى أمرَ الرَّعيةِ مَن حَسُنَتْ سيرته سِرًّا وجَهْرا ـ أن يستقرّ ... ... : لأنه شَهْمٌ سَهْمُ عِرْفانه مُصيب، وفارسٌ رَبْعُ خَبَرِه وخُبْرِه خَصيب؛ له مَناقِبُ جليلَه، وسيرةٌ محمودةٌ جَميلَه؛ تَنقّلَ فى المراتب تَنقُّلَ البَـدْر فى سُعُوده، وارْتقىٰ ذِروةَ السيادة ارْتقاءَ الكوكب فى منازِل صُعُوده؛ ماباشَر مُباشَرةً إلّا ونُشِرتْ له بها أعْلامُ شُكْره، ولا علا مَنْزلةً إلّا تُليتْ بها سُوَرُ حَمْده وذِكْره؛ لم يزلْ متَّبِعًا للحقِّ فى أحكامه، سالِكًا سُبُلَ الصَّوابِ فى نَقْضه وإبْرامه؛ فَتح له إقْبالُنا الكريمُ بابَه، فلذلك قُدِّم علىٰ غيره فى هذه النِّيابه .

فليباشِرْها مُقْتفيًا آثار العَفَاف، مُرْتديًا أرْديةَ العَـدل والإنصاف؛ مُقيمًا مَنَـار الشرع الشريف، مُنْصِـفًا من القَوِىِّ الضَّعيف؛ واللهُ تعـالىٰ يوفِّقه للصواب فيما تَوَلّاه، والخطُّ الكريمُ شاهد أعْلاه .

قلتُ : وعلىٰ نيابة عينتاب هذه يُقاس مافى معناها من نيابات العَشَرات، فيَجْرى الحكم فى تواقيعها كذلك . أمّا الطبلخانات فقد تقـدّم أنّ الأصلَ أنّه لا يولّىٰ فيها إلّا من الأبواب السلطانية .

***

وهذه نسخةُ مَرْسوم بإمارة الرَّكْب الحَلَبىِّ المتوجِّه إلى الحجاز الشريف، كُتب به لشهاب الدين « أحمد بن الطنبغا » بـ«ـالجنـاب الكريم » . والبياض فيه وصـلٌ واحد، وهى :

رُسم بالأمر العالى ـ لا زال يمنحُ وَفْدَ الله تعالى بمَن لم يزلْ شِهابُ هِمَمه فى أُفُق الصيانة مُنيرا، ويُسْنِدُ أمرَهم إلىٰ كلِّ نَدْبٍ لايزالُ على الحقِّ ظاهرًا وعلىٰ ذَوِى الباطل

ظَهيرا ـ أنْ يستقرّ فلان من أعْيان المَوالى الأمراء الطبلخانات بحلَب المحروسة ـ أعزّ اللهُ تعالىٰ نُصْرتَه ـ أميرًا علىٰ رَكْب الحاجّ الحلَبىّ فى هذا العام المقبل، علىٰ أجْمل العوائد، وأكْمل القواعد، حَسَب ما رُسم به. استقرارًا يحْمَدُ به الوَفْدُ عند صَبَاح هِمَمه السُّرىٰ، ويَبْلُغ بهم قِرىٰ الغُفْران بأُمّ القُرىٰ؛ ويَنالُ به طِيبَ العَيْش بطَيْبة وطَابَه ويُدرِكُ بجياد فَضْله آرَابَه؛ ويُمْنَح به زِيارةَ سَيّد البَشَر عليه أفضل الصلاة والسلام، ويُفَوّق به سَهْم إصابته من البِشْر إلىٰ مَرامِى المَرَام؛ ويشهُد به بين قَبْره ومِنْبره رَوْضَةً من رِياض الجَنّة، ويلبَسُ به سَوابِغَ القَبُول لتكون له من سِهام الذُّنوب أوْقىٰ جُنّة؛ ويتردّىٰ [به] بُرودَ التُّقىٰ حِينَ يَتْرعُ مُحرَّماتِ الإحْرام، ويُقْبِلُ به علىٰ ذِكْر الله تعالىٰ فى الوِهَادِ والبِقَاع والآكام، ويَسْتقبلُ به حَرَمَ بَيْت الله الحرام، ويشبُّ له الهنا حِينَ دخوله المسجدَ من باب بنى شَيْبَه، ويتَعاطىٰ به أسباب التَّوبة، لينالَ من العَفْو من الله الكريم سَيْبَه؛ ولا يقتصر به عن التَّطاول إلى الدعاء إلى الله تعالىٰ لتعُمَّه الرحمةُ بفضْله وطَوْله، ويدخلُ به حرَمًا آمِنًا يُتَخَطّفُ النّاسُ من حَوْله، ويَفْتح به إلى المقام بابًا من الأَمْن إلىٰ يَوم القيامة مُقِيم، ويذْكُر بوقُوفه بعرَفاتٍ وُقُوفَه ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.

فلْيباشرْ هذه الإمْرةَ المباركةَ مباشرةً يتيقظُ منها لهَجْرِ المنام، ولْيَصْرِفْ وجْهَ سهامه إليها فى المَسير والمُقام؛ ولْيُنفِقْ علىٰ الحاجّ من كُنوزِ مَعْدِلته، ولْيجْعَل القيام بمصالحهم من أكْبرِ هِمّته؛ ولْيَسْعَ بالصَّفا فى حِراسَتِهم من أهْلِ الفساد، ولْيعْتَمِدْ صَوْنَهم من ذَوِى العِناد؛ ولْيعامِلْهم بالإرْفادِ والإرْفاق، ولْيقْطَعْ من بينهم شُقّةَ الشِّقاق؛ ولْيجعَلْ تقوَى الله إمامه فى القول والعمل.

وهذه نسخ تواقيع لأرباب الوظائف الدينية بحلب :

توقيعٌ بقضاء القُضاة، كُتب به لقاضي القضاة جمال الدّين «إبراهيم بن أبي جَرادة» قاضي قضاة حلب المحروسة الشهير «بابن العديم» من إنشاء ... ... [1] الحنفي بـ«المقرّ الكريم» وهو .

الحمدُ لله الذي رَفع مَراتبَ المناصب العَليّة وكساها من ملابِس أهلها حُلَلَ الجمال، وجَمع شَملها فاقترنت بإلفها اقترانَ النّيرين: شمسِ الضُّحىٰ وبيتِ الكمال، ورفع عنها يَد المُتطاوِل والمُتناول فأصبح رَقْمُ طِرازها المُوشّىٰ منتسِجًا علىٰ أحسنِ منوال، وقَطع الأطماعَ عن إدراك شأوِها فلا يَصلُ إليها إلّا كلُّ فحْلٍ من الرجال .

نحمدُه علىٰ نِعمه التي اعترف من اغترف من بَحْرِها الوافِر بالخَيْر الكامل والفضلِ المَديد، واقترف من اقتطف ثمارَ جُودِها جَميلَ النَّوالِ المُفيد، وجَزيلَ الإحسان العَديد؛ حمدًا يُوافِي نِعَمَه ويُكافِي مَزِيدَه، ويعمُّ بالإنعام الشّامِل نائلَه ومُرِيدَه؛ ونَشكُره علىٰ مِننِه التي يقصُر لسانُ الإطناب عن حَصْرِها وتَعدادها، وتَعجزُ بَنَاتُ الفكْر عن إدراك وَصْفِها وتَرْدادِها، شُكرًا ينالُ به العَبْدُ رِضا المَعْبود، ويبلغُ به من مقاصِد الكَرَم والجُود غايةَ المقصود؛ ونشهدُ أنْ لا إلٰه إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له ولا ضِدّ، ولا وَالِدَ له ولا وَلَد ولا نِدّ؛ شهادةً تُبَيِّضُ وَجْهَ قائلها عند العَرْض، ويَنْطِقُ بها لسانُ التوحيد يوم تُبَدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرض؛ ونشهدُ أنَّ سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه الذي أظْهرَ اللهُ به الحقّ وأعْلنه، وبهرَ بحقائق مُعْجزاته العُقولَ فاعترف

(١) بياض في الأصل .

كلٌّ بصيغة ما عرّفه وبيّنه ؛ صلّى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين نصر الله بهم الإسلامَ وأيّد أحكامه ، وأحكم بهم مبانِى الإيمان المُنيرة وأيد إحكامه ؛ صلاةً تتعطّر بنفحات عَرْفِها أرجاءُ المدارِس ، ويُنادى لسانُ فضلها لرائد فرائد المعالى على طُول المدَا ، رِسْ (١) ؛ وسلّمَ ومجّد وكرّم ، وشرّف وبجّل وعظّم .

وبعـدُ : فإنّ أولى من لحظته عينُ العناية والقبول ، وأجدرَ من بلغ من مقاصد المناصب العلية غايةَ القصد والسُّول ؛ وأعزَّ مَن رقِىَ ذُرا المعالى وارتقى ، وأجلَّ مَن وُصف بالأوصاف الجميلة ونُعت بالدّيانة والتُّقى ـ مَن سارت سيرةُ فضله فى الآفاق ، ودلّ على صفاءِ السريرة منـه حُسْنُ الأخلاق ؛ واشتهر بالعـلوم الجزيلة ، والمناقب الجليلة ، وعُرِف فى الإنصاف بالأوصاف المحمودة والخصال الجميـلة ؛ وأظهر من العلوم الشريفة ، ماحيّر العقول ، وحقّق من المسائل اللّطيفة ، ماجمع فيه بين المنقول والمعقول ؛ ودقّق المباحث حتّى اعترف بفضله الخاصّ والعام ، وفرّق بين الحقيقة والمجاز فلا يحتاجُ إلى استعارة إذا تشبّه الأخصام ؛ وحكم بمـا أراهُ الله فأحكامُه مَرْضيّه ، وقضاياهُ فى الجملة قد أنتجت فهى مُقدّمةٌ فى كلّ قضيّه ؛ وثابرَ على إلقـاء الدُّروس فى وقتها وأوانهـا ، وقرّر كلّ مسألة فى محلّها ومكانها ؛ وأفاد طُلّاب العلم الشريف من فوائده الجمّـه ، وكشف لهم عن غوامض المباحث فجَـلا عن القلوب كلَّ غُمّه ؛ وجال فى ميادينِ الدُّروس فخـيّر الأبطال ، وحاز قصبَ السّبْق فى حلبـة اللّقـاء فردّ مُتأسّفًا كلَّ بطّـال ؛ ونظر فى أُمور الأوقاف بمـا أراهُ الله فأتقن بحُسْن النظر وجْهَ ضبْطها ، وأجْرىَ أُمورَ الواقفينَ على القواعد المرْضيّة فوافق المشروطَ فى شرْطها ؛ وجمع ما تفرّق من شمْلها فأجْمل وفصّل ، وحفظ أموالها فحصّل

(١) مراده ارس من رسا يرسو .

وأصّل ؛ فهو الحاكم المشهورُ بالعقل والمعرفه ، والناظرُ الذى حمدت الأمورُ تصرّفَه ؛ والإمامُ الذى ائتمّ الأنامُ بأقواله وأفعاله ، والعالمُ الذى يحمدُ الطالبُ إليه شدّ رحاله ؛ والمدرّس الذى أفاد بفقهه المفيد النافع ، وترفّع فى البداية والنهاية فهو المختار فى المنافع ؛ وسلك منهاج الهدايه ، فنال من العلوم الغايه ؛ فبدائعُ ألفاظه لعقائد الدّين منظومه ، وكنزُ عرفانه عزيزُ المطلَب ومحاسنُه المشتملةُ على الكمال معلومه .

ولما كان فلانٌ ـ أعزّ الله تعالى أحكامَه ، وقرنَ بالتوفيق والسداد نقضَه وإبرامَه ؛ هو المشارَ إليه بالأوصاف والنعوت ، والمعوّل عليه إذا نطَق بالفضائل والحاضرونَ سُكوت ؛ والمشكورَ أثرُ بيتِه المشهور ، والمنشورَ علمُ علمِه من السنة والشهور ؛ يالَه من بيتٍ لم يزلْ معمورًا بالتقوى والصلاح ، محميًا بأسلحة أهله : فمن أحكامِهم السيوفُ ومن أقلامهم الرماح ؛ فهو العديمُ المثلِ وبيتُه العديم ، وحرَم فضلٍ يحجُّ إليه الراحلُ والمقيم ؛ فاستحقّ أنْ تقابَلَ مقاصدُه بالإقبال ، ويُقابَل بما يؤمّله مُقابَلة مثلِه ولا كسائر الأمثال .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف ـ لازالتْ مراسمُه المطاعة تقرُّ الحقّ فى يد مستحقّه ، وتردُّ الأمرَ إلى وليّه ومالك رقّه ؛ وتسوق هدَى الإحسان إلى محلّه ، وتضعُ الاستحقاقَ فى يد مستحقّه والحقّ وضعُ الشىءِ فى محلّه ـ أن يستقرّ ... ... بحكم ظُهورِ الحقّ بيده المباركه ، وخَفاءِ الباطلِ الذى ليس له فى الحقّ مُشاركه ؛ استقرارًا مباركًا ميمونًا ، بالخير والسعد مقرونا ؛ لأنّه الأحقُّ بأمر وظائفه ، والطائف حول حرَمِها الممنوع طائفه ؛ وأولى من عُقلَتْ عليه عقيلتُه ، ورُدّتْ إليه فريدتُه ؛ وباشر بنفسه الكريمة ما عهِد إليه سلَفُه ، وانفرد به فلا ينالُه ـ إن شاء الله ـ إلّا خلَفُه ؛

طالما ألِفَتْ منه الأوقافُ مَنَّ الشَّفَقة والخَيْر، وحَفِظَ جِهاتِها المَحْمِيَّةَ عن تطاوُلِ يدِ الغَيْر، ونَعِمَ بحُسْن نَظَرِه من المدارس كلُّ دَارِس، وفازتْ منه الدُّروسُ بالعالِمِ العارِفِ والبَطَلِ المُمارِس .

فلْيباشِرْ ذلك علىٰ ما تقدّم له من حُسْن المباشره، ولْيَجْتَهِدْ ـ علىٰ عوائده ـ فى تحصيل رَيْعه مُثابِرَ على الأُجُور أشَدَّ مُثابَره؛ ولْيَصْرِفْ أموال الأوقاف فى مَصارِفها، بعد العِمارة والتَّثْمير المبدّأيْن فى شَرْط وَاقِفها؛ ولْيَسَوِّ ـ علىٰ مُقتضَىٰ مَعْدِلته ـ بين القَوِىِّ والضعيف: والشابِّ الصَّغير والشَّيخ النَّحِيف، علىٰ قَدْر تفاوُتِهم فى العلم الشريف؛ ولْيُطْلِقْ لسانه فى إلقاء الدُّروس علىٰ عادته، ولْيُمَهِّدْ للشتغلين طَرِيقَ الفَهْم لِينالوا القَصْدَ من إفادته؛ وهو بحمد الله تعالىٰ أوْلىٰ من أدَّى الأُمور علىٰ الوَجْه المستقيم، ووَفَّى المناصِبَ حَقَّها فإنَّ الوفَاء جَدِيرٌ بـ«إبراهيم»[1] .

والوصايا كثيرةٌ وإليه مَرْجوعُها، ومن بِحارِ عِلْمه ودِينِه المتين يَنْبُوعُها؛ والله تعالىٰ يُؤَيِّدُ به المناصب، ويرفعُ بعلُوِّ رُتبته المَراتِب .

✦ ✦ ✦

نسخةُ تَوْقيع بخَطابَةِ جامع، كُتب به لقاضى القُضاة «كمال الدين عمر» ابن قاضى القضاة جمال الدين إبراهيم بن أبى جرادة الحَنَفِىّ، الشهير بابن العديم بـ«المقرّ الشريف» وهى:

رُسِم بالأمر الشريف ـ لا زالتْ عِنايتُه تُرَقِّى فى مَنازل المَجْد من تَأثَّلَ بفَضْـلِه بَهْجةً وكمالا، وتُذَلِّلُ جِيادَها لفُرسانِ الفضائل فتُجيدُ لهم فى مَيْدانِ البلاغة مَجالا،

(١) إشارة الى قوله تعالى: (وإبراهيمَ الذى وفّىٰ) .

وتُسلِّم رايَتَها [إلىٰ من صدق بارق سعده ، ووُهِب من العلم][1] ملكا لا ينبغى لأحَدٍ من بعْده ـ أن يَستقِرّ... ... لأنّه الإمامُ الذى [لو] تقدّم عصْره لكان أحَدَ أئمّة الاجْتهاد، والعارِفُ الذى بلغ بولايَتِه مُريدُ الفَضْل غايةَ المُراد، والعالِم الذى وَجدتْ أخْبارُ علومه نسبة يطابقها فى الخارج صالحُ العمل ، واتّبع سَنَن الكِتاب والسُّنّة فلم يَتخلّلْ طريقتَه المُثلىٰ خَلَل ؛ والمُحقِّقُ الذى وَجَد إلىٰ كُنْه الحقيقةِ أكْمَل مَجاز ، والمُفَوَّهُ الذى بلغ من البلاغة فى كلام البَشر حَدَّ الإعْجاز ؛ إنْ خطبَ شَنَّفَ بدُرَرِ مواعِظه الأسماع ، وشَرَّف بغُرَرِ فرائِده الأسْجاع ؛ واهتَزّتْ أعواد المنابر طَرَبًا لكَلِمِه الطَّيِّب ، وروَّى أُوَامَ[2] القلوب سَحُّ فَضْلِه الصَّيِّب ؛ وإن قرأ فى مِحْرابِه أقَرّ بفَضْلِه الجَمْعُ الجامع ، واستَقلّ «ابْنَ كثير» حين وَجد «الكِسَائِىّ» عارِيًا ممّا لَديْه وفَضْلُه الجَمّ أكمل «نافع» :

خَطيبٌ إذا الصّادِى تَصَدّىٰ لفَضْلِه : * ليَرْوَىٰ ، فأنواعُ العُلُومِ تُغيثُه !

وإنْ يَرْوِ لِلْجُلّاسِ أخْبارَ أحْمَدٍ ، * فخَيْرُ جَلِيسٍ لا يُمَلُّ حَديثُه !

وهو الكامل الذى أدْرك دَرَجاتِ الكَمال فى البِداية فأمِن فى النِّهاية وهو قاصٍ من النقص، وسارت عِيسُ الطُّلّاب إلىٰ حضرته الكريمة واخِدَةً ولكن بالنَّص ؛ والصّاحِبُ الذىٰ استصحب يَسار العُفاة باليَمين، وأزَال ظَنَّ قاصده فى بِرِّه الشامل باليقين ؛ كَمْ أطلق بأقْلامِه المُفيدة مكرمةً بصِلَةِ الأرزاق، ونَسخَ مُحقَّق فَضْلِه رِقاعَ الأُوَل بالعَطاءِ على الإطْلاق ؛ ولو نَظر المَلَكانِ : هارُوتُ ومارُوتُ ماملكه من

(١) الزيادة يقتضيها المقام

(٢) الأوام بالضم العطش .

كتابته السّاحرة لأقرّوا أنّه السّحر الحلال ، ولو قابله «ابن هلال» لانخسف بدر فضله عند الكمال :

فَفِى كَفِّه الأقلامُ تَهْزأ بالقنا ، * وتخشى سِطاها الأُسْدُ فى غاب غابها!
يُروِّعُ سُيوفَ الهنْدوِىِّ يَراعه(١) ، * وقد طار من خوف حديدٌ ذبابها!

فليباشر هذه الخطابة مباشرة ترشف منها كؤوس كلمه الأسماع ، وليكشف لها عن وجوه فضائله القناع ؛ ولينثر عليهم من درر بلاغته ما تلتقطه أفواه المسامع ، ولينشر من طىّ لسانه علم علمه الذى لا يقاس عليه غيره أبى الله والفارق الجامع ؛ وليطرب بمواصيل أسجاعه القاطعة بفضائله المكمّله ، وليظهر ما جمعه من محاسنه التى هى الجمع الذى لا نظير له ؛ ولينفق على الجمع يوم الجمعة مما آتاه الله تعالى من كنوز الفضائل ، وليبلغهم من بلاغته التى أخملت ذكر «قسّ» و «سحبان وائل» ؛ وأنت ـ أسبغ الله تعالى ظلالك ـ معدن الفضائل فأنّى تهدى إليك الوصايا؟ ، والمتّصف بصفات الكمال فكيف تعرض عليك المزايا؟ ؛ ولكنّ الوصية بتقوى الله تعالى من شعائر الإسلام ، والله تعالى يديمك غرّة فى جبهة الأيّام .

وهذه نسخة توقيع بتدريس بالجامع المذكور ، كتب به للقاضى علاء الدين «علىّ الصّرخدىّ» الشافعىّ ، نائب الحكم العزيز بحلب بـ«المقرّ العالى» وهى :

رسم بالأمر ـ لا زالت صدقاته تمنح دروس العلم الشريف بعلىّ العلوم ، وتندب لها من ذوى الاجتهاد من سار بهمّته البرق وسائر النجوم ، وتقرّر للطلبة من

(١) فى الأصول «دوىّ» بتشديد الياء وهو تحريف .

أُولِي العناية من حَقَّق الفضائلَ وآطّلع علىٰ سِرِّها المكتوم، وتُدِيرُ عليهم من مَشْرَب فوائده مايُخَالُ أنَّه الرَّحِيقُ المختوم ـ أن يستقرّ فلانٌ ... ... آستقرارًا تَقَرُّ به أعينُ الطُّلاب، وتُلمَح من صَوْب فضله عين الصّواب، ويُشيَّدُ به دَارِسُ الدروس، ويَطْلُع به في سماء الفضائل أنورُ شُموس، وتُنْشَر به أعلامُ العلوم من طَيِّ الألسنة، ويُذْهِبُ من كلِّ الطَّلَبة في تحصيل العِلْم الشريف وَسَنَه ؛ لأنّه الحَبْرُ الذي شَهِدت بفضله الأسفار، ورَحَلَتْ إلىٰ فوائده الجَمَّةِ السُّفَّار ؛ والبَحْرُ الذي جَرتْ سُفُنُ الأذهان به فلم تُدْرِكْ غاية قَرارِه، وعَجَزت الأمثالُ عن خَوْض تيَّاره ؛ والعالِمُ الذي أقرّ بعلْمه الأعلام، وشَهِدت بإحكام أحْكامِه الأحكام ؛ ما بَرَزَ في مَوْطِنِ بَحْث إلّا وبرّز على الأقران، ولا جاراهُ مُجتهِدٌ إلّا وكانا كَفَرَسَيْ رِهَان، ولا نَطق بمَنْطِقٍ إلّا وأنتجتْ مُقدِّماتُ هِمَمِه العليّة وآجتهاده علىٰ فضله أكمَلَ بُرهان ، ولا أجْرىٰ جِيادَ عُلُومه إلىٰ غايةٍ إلّا مُطلقةَ العِنان، ولا رآه من أخبر عن فَضْله إلّا تمثّل له : ليس الخبرُ كالعِيان ؛ إنْ تصدَّر للفوائد آلتقطَت الأسماعُ دُرَّ عِلْمِه النفيس، وإنْ درَّس تَخالُ الطَّلبةُ أنّه «آبنُ إدريس» ؛ فهو طَوْدُ فَضْلٍ لا يُسامىٰ عُلوًّا ورِفعه، ولا يَنْوِي مُناوأته مُناوِئٌ ولو كان «آبنَ رِفْعه» :

إمامٌ غَدا للسّالكين مُسَلّكًا، * عليمٌ، وكَمْ أوْلَى الفضائلَ مَنْ وَلِي!

عَلَا فأسال البَحْرَ من فَيْض عِلْمه! * وذلك سَيْلٌ جاء بالفَضْل من عَلِ!

فليباشِرْ هذا التّدريسَ المبارَكَ مباشرةً يُثْبِتُ بها فوائِدَه، ويَنْشُر بها فَرائدَه ؛ ويُطرِبُ الطُّلّابَ بطَريفِ العلْم وتالِدِه، ويَجْمَعُ لهم من صِلَة الفَضْل وعائده ؛ وليلازِم المباشرةَ ملازمةً لا يَنْفكُّ عنها أيّام الدُّروس، وليُنِرِ القلوبَ بمصابيح الكِتاب والسُّنّة ويسُرّ النفوس .

وأنت ـ أمتع الله بفوائدك ـ من نورك الوصايا تُقتبس، وكم آنس الطالبُ نارَ فضلِك فأتى منها بأنور قبس، والله تعالى يُبقيك للعلوم كنزًا لا تفنى مواهبه، ويُديمك للطلاب بحرًا لا تنقضى عجائبه.

✦ ✦ ✦

وهذه نسخةُ توقيع بتدريس بالجامع المذكور لحنفىٍّ، كُتب به للشيخ شمس الدين «محمد القرمىّ» الحنفىّ، بـ«ـالجناب العالى»، وهى:

رُسم بالأمر ـ لا زالت عنايتُه الكريمةُ تُطلِعُ شمسَ الدّين للهداية فى أُفق المدارس، وتُشيّد بالعلماء الأعلام من رُبوعها كلّ دارس؛ وتمنحُ الفقهاءَ بمَن إذا تصدّى للإفادة جادت نفسُه بالدُّرر النفائس، وتندُب لها من أولى البلاغة مَن إذا ألّف فضلًا وُجدتْ غُصون أقلامه فى روضات الطروس أحسنَ موائس ـ أن يستقرّ فلانٌ: استقرارًا تُجمّل به الدُّروسُ بالفوائد، وتمنحُ الطّلبةَ منها بالصِّلة والعائد، ويمدُّ لهم من موادِّ العلوم أشرفَ موائد، ويُوردُهم من مناهلها أعذبَ موارد؛ لأنّه شمسُ العلوم ومصباحُها، وقمرُ ليل المُشكلات وصباحُها، وساعدُ الفتاوى الطائرة بفضائله فى الآفاق وجناحُها، وروحُ كُئوس العلوم وراحُها؛ وطليعةُ الحقائق وعُنوانُها، وعينُ الدقائق وإنسانُها؛ والإمامُ الذى ائتمَّ به الطّلّابُ فاستحقَّ الإمامَه، والعالمُ الذى اجتهد على فضل العلوم فاستوجب أن يُنعت بالعلّامه؛ والفاضلُ الذى ضُبطتْ أقواله: للاطلاع على سرّها المكتوم، فاختصّ فعلُ علمه المتعدّى باللُّزوم لاتّصافه بالعُموم؛ كم التقطتْ من دروسه الجواهر، وتمثّل لأبكار فوائده: كَمْ تركَ الأوّلُ للآخر؛ قابلته الأسفارُ عن وجوه فوائدها بالإسفار، وأظهرتْ لذكاء ذكائه ما ضمّنته أحشاؤها من الإضمار؛ فهو المختارُ لهذا التدريس: إذ دُررُ فوائده منظومه، والمُجتبَى للإفادة بسُلوكه طُرقَ الهداية إلى دقائقها المكتومه؛ وكم استنارت الطّلبة

من سَمَرِ فَضْله حتّى كاد أنْ يكون ثالِثَ القَمَرَيْن، وجَمع فى صَـدْره بَحْرَى المنقُولِ والمَعْقول حتّى قيل : هذا "مَجْمع البَحْرَيْن" :

هُو البَحْرُ، إلّا أنّ فيه عَجائِبًـا، * وَوافِرَ فَضْلٍ ليس يُوجَدُ فى البَحْرِ!

بَلاغَتُه السِّـحْرُ الحَلالُ، وإنّمـا * بَديـعُ معانيها يَجِلُّ عن السِّـحْرِ! .

فلْيباشِرْ هذا التَّدْرِيسَ ناثِرًا دُرَرَ فَرائده، ناشِرًا غُرَرَ فوائده، جائدًا بجِياد فَضائِله السّابقة إلى الغايات، عائدًا بِصِلاتِ حقائِقِه لتَكْمُلَ للطَّلَبَة به المَسَرّات؛ ولْيلازِمْ أيّام الدُّروس ما أُسْدِىَ إليه من هـذه الوظيفه، ولْيَرْتَقِ من دَرَج التَّقْوىٰ لغُرَفِ المعارف الشّريفه .

* * *

وهذه نسخةُ تَوْقيعٍ بِإمامةٍ وتَصْـديرٍ بجامع منكلى بغا الشَّمْسى بحَلَب، كُتِب به للشيخ شمس الدين «محمد الإمام»، بـ«الجناب العالى»، وهى :

رُسِم بالأمرـ لا زالتْ صَدَقاتُه العميمةُ تُطلِـعُ شَمْسَ الدِّينِ فى أُفُقِ المعالِى، وتَرْفَعُ من أوليائه خِدْمةَ مَن جِيدُه بالفَضْلِ حَالِى؛ وتَمنحُ بِرَّها مَن أعربَتْ عن لَحْنه الطِّيب وتَشَنَّفتْ من فيه باللآلِى، وتَسْفَحُ غَيْثَ جُودِها علىٰ من أجمع علىٰ طِيبِ مُسامَرتِه ورَفْعِ أدْعيتِه الأسْماعُ والليالى ـ أنْ يستقرَّ فلانٌ ـ أدام اللهُ تعالىٰ ضياء شَمْسه، وبَنىٰ له رَبْع السَّـعد من جُوده علىٰ أسِّـه ـ ... ... لأنَّه الإمامُ الذى شهدتْ بحُسْن قِراءته المَحاريب، والآتِى من فَضْلِ فضائله بالأغاريب؛ والفاضِلُ الذى سلَك طُرقَ الفضائل أحْسن سُلوك، وشَهِد بسَبْق جِياد جُوده فى حَلْبة الاختبار كلُّ حتّى المُلوك؛ والكامِلُ الذى كَمَلتْ أوصافُه المحمودةُ فأمِن النَّقائص، واختصَّ بجميل الشِّيَم وحُسْن الخصائص؛ ما أمَّ إلّا وشَهِد بفَضْلِه كلُّ مأْموم، وأقرّوا أنَّ أسماعَهم ارْتَشفَتْ رَحيقَ فضائله من

تأسيها المختوم ؛ وما سامر الخواصّ إلّا وشهد العوامّ بحُسْن صفاته ، ولا حدّث إلّا وكانت الملوك من رُواته .

فليباشرْ هذه الوظائف المباركة مباشرةً تقرّ بها النّواظر ، وتجتمعُ الألسنةُ على أنّه أكرمُ إنسان وخيرُ ناظر ؛ وليتصدّر لإلقاء الفوائد ، وليُكسِب الأسماعَ من علمه بالطّريف والتّالد ؛ وليتناول معلومه أوان الوُجود والاستحقاق ، هنيئاً مُيسّرا من غير تقييد على الإطلاق ؛ وليتّقِ الله فيما أُسْدِىَ إليه من ذلك ، وليسلُكْ من سَنَن التّقوى - بقَدَم الصّدْق - أحسنَ المسالك .

***

وهذه نسخ تواقيع لأرباب الأقلام الديوانية بحلب وما معها :

توقيعٌ بكتابة الدّست بحلب ، كُتب به لـ«بهاء الدين بن القرفور» ونظر بيت المال بحلب ، بـ«الجناب العالى» ، وهو :

رُسم بالأمر - لا زال ينظم عُقودَ الإحسان فى أجيادِ أوليائه ، ويُجزلُ لهم بوافر نظره وافِىَ عطائه ، ويُجرى بهاءَ الدّين على أحسنِ نظام فيُنجزُ له عِدَةَ وفائه - أنْ يستقرّ ... ... استقرارًا يبلغ به وُجوه الآمال ، ويكسو الدّواوينَ ملابسَ البَهاء والكمال ، ويَزيدُها رفعةً بما يفضلُه من ذلك الجمال ؛ لأنّه الفاضلُ الذى إذا قَصد المَعانِىَ أصاب ، وإذا سُئِل عن كلّ مَعنًى لطيف أجاد وأجاب ؛ والفصيحُ الذى إذا تكلّم أجزل وأوجز ، وأسكتَ كلّ ذِى لَسَنٍ بفصاحته وأعجز ؛ والبليغُ الذى أبدع فى مكاتباته بمنثوره ومنظومه ، واللّبيبُ الذى أطلعَ من أزهار كَلِمه المسموعة فى رياض الطّروس ما يُخجلُ الرّوضَ إذا افتخرتْ بمَشْمُومه ؛ والكاتبُ الذى قطعتْ بمعرفته الأقلام ، والحاسبُ الذى عُقدَت على خبرته خناصرُ الأنام ؛ والأديبُ الذى

جمع بين قلم الإنشاء الشريف(؟)، وحاز ما فى ذلك من تالد وطريف؛ فلله دره من كاتب زين الطروس بحسن كتابته، وجمل الألفاظ والمعانى بجميل درايته وفصاحته.

فليباشر ما عدق به من ذلك مباشرة مقرونة بالسداد، مشكورة المساعى والاعتماد؛ مظهرا براعة يراعه، باسطا يد إيداعه الجميل وإبداعه؛ مفوفا حواشى القصص بتوقيعاته، موشيا برود الطروس بترصيعاته وتوشيعاته؛ ناظرا على اعتماد مصالح بيت المال المعمور، وتحصيل حواصله على الوجه المشهور والطريق المشكور؛ عاملا بتقوى الله عز وجل فى ضبط مصالح ديوان الجيوش المنصوره، سالكا من حسن الاعتماد طرقا على السداد والتوفيق مقصوره؛ والوصايا كثيرة وتقوى الله تعالى عمادها، فليجعلها عمدته فيما يتم به للنفس المطمئنة مرادها؛ وليتناول معلومه المستقر لذلك أوان وجوبه، والله تعالى يبلغه غاية قصده ومطلوبه.

⁂

توقيع بصحابة ديوان الأموال بحلب، من إنشاء ابن الشهاب محمود، كتب به القاضى شمس الدين «محمد بن محمد»، أحد كتاب الدست بحلب، بـ«المجلس العالى»، وهو:

رسم بالأمر — لازالت صدقاته العميمة تشرح نفوسا، وتطلع فى هالات الوظائف السنية عوض الشمس شموسا؛ وتسقى غرس نعمائها الهبات الهنية فتزهى أغصانا يانعة وغروسا — أن يستقر ... ... : لأنه الأوحد الكامل، والرئيس الفاضل؛ ولأنه حاز قصب السبق فى المباشرات، والمناصب الجليلة والمراتب السنيات؛ طالما بذل جهده فى خدمة الدول، وسلك بجميل مباشرته طريق السلف وسبيل الأول؛ فأدرك بحسن سيرته ويمن طريقته نهاية السؤل وغاية الأمل، وأتى الأمور على

قَدَرٍ ولا يقال : علىٰ عَجَل ؛ ولأنّه الأمينُ فى صَنْعة الإنشاء، والتابعُ فى فنّه فُنونَ الأدباء؛ إنْ رقَم الطُّروسَ طرَّز ، وإنْ بارَز الأقران فى مَواطن الافتخار بَرَّز ؛ وإن بَسط الجرائد ، تَغارُ من حُسْنِهنّ الخَرائد ؛ طالمَا نَطق بالحِكَم ، وآشتهر بين أصحابه مثل آشتهار النّار علىٰ عَلَم؛ نَظم المحاسنَ فى نَثره البَديع ، وجَمع بين الأضْداد فيما يُبْديه من الإنشاء ويُحلّيه من التّصْريع ؛ قَدُمت هِجْرتُه فى الخِدْمة الشريفه، وآقتطف من زَهر الصَّدَقات الشريفة أحسنَ مَنْصب وأجمَلَ وَظيفه ؛ وتحلّىٰ جِيدُه بالقلائد ، وحَصّل بسَعْيه مجموعَ الفرائد، فعادتْ عليه الصَّدَقاتُ الشريفةُ بأجْمل العوائد ؛ قد آستحقّ التقديم، وآستوجَبَ من الصَّدَقات العميمة نِهايةَ التّكريم .

فلْيباشِرْ هذه الوظيفةَ مباشرةً حسنةَ الآثار، جميلةَ الإيراد والإصْدار ؛ ناظمًا بقَلَمه الحِسابَ علىٰ أنواعه، مُحكِمًا له علىٰ سداد أوْضاعه ؛ ولْيُطلِعْ شمسَه فى سماء هذه الوظيفه، ولْيَجْنِ من رَوْضها الأريض كلَّ يانعةٍ لَطيفَه ؛ ولْيعلمْ أنّ هذه بَوادرُ خَيْرٍ سَرَتْ إليه، وسَوابِغُ نِعَمٍ خُلِعتْ عليه ؛ وأنّ الصدقاتِ العميمةَ لا بُدَّ أنْ تُولِيَه بعد ذلك بِرًّا، وتَترادَفَ عليه تَتْرىٰ، وتُعلى له بين رِفَاقه المرفقين قَدْرا ؛ ومِثْلُه لا يُنَبَّه علىٰ وَصيّة ، لا دَانيةٍ ولا قَصيّه ؛ لكن التقوىٰ لا بُدَّ منها، ولا يجوز أنْ يُغْفل عنها ؛ فلْيَجعلْها آعتمادَه فى كلِّ الأُمور، ولِيَتناوَلْ معلومَه المقرَّرَ له على الوظيفة المذكورة فى غُرَرِ الشهور ؛ والله تعالىٰ يضاعفُ له بمضاعفة الصدقات عليه أوقاتَ السُّرور، ويَقيه بلُطْفه كلَّ محذور .

✦✦✦

توقيع بنظر بَهَسْنَىٰ، من عمل حَلَب، كُتب به لفتح الدين «صَدَقة بن زين الدين، عبد الرحيم المصرىّ» ، بـ«ـالمجلس السامى»، وهو :

رُسم بالأمر ـ لا زالتْ صدَقاتُه العميمةُ تفتح لأولياء خِدْمته أبوابَ الخيْرات ، ولا بَرِحتْ تُهدِى إليهم أنواعَ المَسَرّات ـ أنْ يستقرّ... ... في وظيفة النظر بمدينة بَهَسْنَى المحروسة عِوَضًا عمّن بها ، بالمعلوم الذى يشهد به الديوان المعمور إلى آخر وقت ، على العادة فى ذلك والقاعدة ، آستقرارًا يَسُرُّ خاطِرَه ، ويُقِرُّ ناظِرَه ؛ لأنّه الماهِرُ فى صناعته ، والرّابِحُ فى مَتاجِر بضاعته .

فلْيباشِرْ هذه الوظيفةَ مباشرةً حسنه ، لتُصْبِح الألْسِنة بشُكْرِها مُعلِنه ؛ وليُصرِّفْ قَلَمه فيما يعود نَفْعُه عليه ، ولْيجتهِدْ فيما يستجلِب الأثْنِية إليه ؛ وليقْبِضْ معلومه أوانَ وُجوبِه هَنِيًّا ، ولْيتناوَلْه بيَدِ آستحقاقه مَرِيًّا ؛ والوصايا كثيرةٌ وهو ـ بحمد الله تعالى ـ غيرُ محْتاجٍ إليها ، لأنّه الفاعلُ لها والدّالُّ عليها ؛ وتقوى الله تعالى عِمادُها ، وبه قِوامُها وسِنادُها ؛ فلْيتمسَّكْ بسَبَبِها فى الحركات والسّكَنات ، واللهُ تعالى يُهَيِّئُ له أسْباب المَسَرّات .

⁂

توقيع بكتابة الإنشاء ونظر الجيش بدَبْرَكِى ، كُتب به للقاضى شهاب الدين «أحمد آبن أبى الطيِّب العُمَرِىّ العُثْمانى» ، بـ«الجناب الكريم» ، وهو :

رُسم بالأمر ـ لا زال يجمِّل الثغورَ بمَن تزهو برَحِيق كَلِمه الطيبِ [المناصب] ، ويُكمِّل محاسنَها بمَن لم تزَل الصُّحفُ تقودُ من جياد فَضْله أجملَ جنائب ، وحَباها بشِهابٍ يُهتدىٰ إلى المقاصدِ بنَجْم رأْيِه الثّاقب ؛ وسَرَّها بكلِّ نَدْبٍ لم تزلْ كُتبه تَرُدُّ من الدُّعّار الكتائب ـ أن يستقرّ... ... فى وظيفتى كتابة الإنشاءِ الشريف والجَيْش المنصور بدَوْرَكِى[1] المحروسة ، عوضًا عن فلان ، بالمعلوم الشاهد به الديوانُ المعمورُ إلى آخر

(١) لعله فى دبركى كما سلف قريبا وتقدّم فى ج ٤ ص ١٣٢ من هذا المطبوع .

وقت . لأنه من بيت رُفع علَمُ قدْره على السحائب، وأنتصبت رايةُ آرائهم بالتمييز فى مواكب العزة عن المواكب ، وأُضيفَ إلىٰ مجدهم شرفُ الكمال فانجرّ بالإضافة ذَيْلُ مجْدهم على الكواكب ، وجزم أُولُو الفضل بنسبتهم إلى المعالى لحازُوا قصبها آستحقاقًا وما زاحموا عليها بالمناكب ؛ وأُسّس أصْلُه علىٰ عماد شرف «الفاروق» و «ذى النُّورَيْن» فتفرّع علىٰ أكمل تناسُل بتناسُب .

النيـــابة الثالثــــة

(مما يكتب من التواقيع بالولايات عن نوّاب السلطنة بها - نيابةُ طرابُلُس)

وهى علىٰ ماتقدّم فى دمَشْق : من تقسيمها إلىٰ تواقيع أرباب السيوف، وتواقيع وظائف أرْباب الأقلام الدينيـة ، وتواقيع أرْباب الوظائف الديوانية ، وأرباب الوظائف بمشيخة الأماكن وغيرهم ،وتقسيم ذلك إلىٰ مايفتتح بـ«الحمد لله» ،وبما يفتتح بـ«أما بعد حمد الله» ، وما يفتتح بـ«رُسم بالأمر» .

وهذه نسخ تواقيع من ذلك :

نسخةُ توقيع بشدّ الدواوين بطرابُلُس ، كُتب به لصلاح الدِّين «صلاح الحافظى» ، بـ«الجناب الكريم» ، وهى :

الحمدُ لله الذى أيّدَ هذه الدولةَ وسدّدها بأنواع الصَّلاح ، وعمّر العالَمَ بعدْل سُلطانها وجعل أيّامَه مقرونةً بالنَّجاح ، وأقام لتدْبير المملكة [كل] كُفْءٍ كافٍ مشهورٍ باليُمْن والفَـــلاح .

نحمده علىٰ نِعَمه الغامرة فى المَساء والصَّباح ، ونشكُره علىٰ آلائه فى كلّ غُدُوٍّ و رَواح ، ونشـهدُ أنْ لا إلٰه إلّا اللهُ وحدَه لا شريك له شهـادةً خالصةً ضَوْئيّةً كالمِصْـباح ،

وأنّ سيدنا محمدًا عبدُه ورسولُه أشرفُ من آصطفاه وأرسله بالدين الحنيفيّ فبشر وأنذر وحلّل وحرّم ... ... وأباح [(١)]، صلّى الله عليه وعلىٰ آله وأصحابه صلاةً دائمةً مستمرّةً ما حيّعل الدّاعى إلى الفَلاح .

وبعدُ، فإنّ أوْلَى الأولياء بمُضاعَفةِ الإحْسان، وأن يعلىٰ له فى المكان والإمكان ـ مَن عُرِف بأجلِّ المباشرات فى الفُتوحات ، وآشتهر فيها بالكفاية والصِّيانة وجَميل التّدْبير وحُسْن الصِّفات .

ولمّا كان فلانٌ هو المُنْفِردَ بهذه الصِّفات الحَسَنه، وآتّفقتْ علىٰ نُعوتِه الجميلةِ الألسِنَه ؛ والوَحيدَ بهذه السَّجايا ، الفَريدَ بشَرف المَزايا ؛ عُقِدت الخناصرُ عليه ، وآقتضت الآراء أنْ يسندَ تَدْبيرُ المملكة إليه : فإنّها لم تَجِدْ لها كُفْأً غيرَه ، ولا من يَجمع شَمْلَ شَتاتِ أقْوالها ولم يفَرِّطْ مثقالَ ذَرَّه .

فلذلك رُسِم بالأمر ـ لازال ينْدُب لتَدْبير الممالك كلّ كُفْءٍ كاف، ويُوردُ أولياءه من موارِد إحْسانِه مَوْردًا عَذْبًا صاف ـ أنْ يفوِّضَ إلى الجناب الكريم ـ أدام اللهُ عُلوَّ قدرِه ، وأيده بالمَعونة فى أمْرِه ـ شَدُّ الدّواوينِ المعمورة بالمملكة الطَّرابُلُسيَّة، بالمعلوم المستقرّ، الشاهد به الديوانُ المعمور إلىٰ آخروقت، علىٰ عادة من تقدّمه .

⁂

وهذه نسخةُ تَوْقيعٍ بالآستمرار فى شَدّ الدّواوين :

الحمدُ لله الذى قَرن الشِّدّة بالفَرَج وجَبَر بعد الآنْكسار، وآمْتحن عِبادَه بأنواعٍ من المِحَنِ ليعلَمَ الصادقين فى الآصْطبار، وأطْلع فى أُفُق العُلا سَعْدَ السُّعودِ ساطعًا

(١) بياض بالأصل ولعله : وحظر وأباح، الخ .

بالنُّور بعد ما غَار ، وجَمع لمن انقطع به حَبْلُ الرَّجاءِ من الخَلْق فتوكَّل عليه بين نَيْل المَطْلوب وتَمْحِيص الأوْزار .

نحمَدُه وفى مَحامِده تَطِيبُ الآثار ، ونَشكُره علىٰ ما أسْبل من النِّعم الغِزَار ، ونشهدُ أنْ لا إِلٰه إِلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له إلٰهٌ كشَف الغَمّ بعـد ما غَمَّ القلوبَ وغَطَّىٰ على الأبصار ، وفَرَّج الهَمّ ، وقد كان ادْلَهَمّ ، وأظلمتْ منه النَّواحِى والأقْطار ، ونشهدُ أنَّ محمَّدًا عبـدُه ورسولُه المصطفىٰ المُختار ، سيِّدُ وَلَدِ آدمَ فى الدُّنيـا وسيدُهم فى دار القَرار ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله الأطهار ، وصَحَابَتِه الأخيار ، ما أظلَم لَيلٌ وأضاءَ نهار .

وبعدُ ، فإنَّ الله تعـالى لَطَف بهذه الدَّولة المعظَّمة فى المُقام والسَّيْر ، فمـا مضىٰ لأحدٍ معها يومُ سُرورٍ إلا والذى من بعـده خَيْر ، ونَصب خِيامَ عَدْلِهـا على الخَلْق وشَرع أطنابها ، ورَغَّب العِبادَ فى فَضْـلِها العميم وفَتح لهم بَابَها ، وجعلها كاشِـفَةً للكُروب المُوجِبَـة للحَزَن والضِّيق ، رَاشِـفةً من خزائن مُلْكه ومعادن نَصْره كأْسَ رَحِيق ، تصِـلُ بقُوَّتِه وتَقْطع ، وتُفَرِّق بإرادته وتَجْمع ، ثم جعل المـآلَ نِظامَ مُلْكها القَويم ، وقِوامَ سِلْكها النَّظِيم ، به تَمْضى أوامِرُه ونَواهيـه ، وتجرى على السَّداد بمـا يُحبُّه ويُرْضيه ، فتعيَّن إعداد مَن يُقيم بعزمه عَمَده ، ويُقْعِد من أخذ منه بغير استحقاق ممن أقعـد الدِّينَ زنده ، وقدَّر الله تعالىٰ فى هـذا الوقت ما قضاه ، ونَفَّذ حُكْمه فيمن خرج عن طاعتـه وأمضاه ، فلم تَبْق مملكةٌ إلّا ومَسَّها وأهْلَها الإضْرار ، ولا بُقْعـةٌ إلّا ولَحِق أهْلَها بأْسُ أُولئك الفُجَّار ، فأدرك اللُّطفُ الإلٰهىُّ ممـالكَ الإسلام ، وحل الرِّكاب الشريف بأرْض الشام ، فكان بَرْدا وسلام ، ونَجا المُخلِصُ وهلك النا كِثُ النَّاكِلُ بقدوم سلطان الإسلام ، خلَّد الله ملكه [ليقذف] بالحقِّ على الباطل ، وأيد اللهُ دولَتَه الشريفةَ بعَوْنه المُتواصل .

وكان فلانٌ له مباشراتٌ عديدَه، وتأثيراتٌ حميدَه؛ وآخر ما كان في وظيفة شدّ الدواوين بطرابلس: فباشرها مباشرةً جميلةَ الأثر، مشكورةَ السَّيْر عند من وَرَد وصَدَر، ودبَّر مهماتٍ يعجز عن حصرها أولُو العقول والفِكَر، وحصَّل للديوان المعمور أموالًا كالطُّوفان ولكن بلا غَرَق، واستُعْجِب منها كيف حصرتْها الأقلامُ أو وَسِعَها الوَرَق! ؟؛ والذي كان بوظيفة الشَّدّ الآن زاهدٌ عنها، ليس له رغبةٌ فيها ولا في شَيْء منها.

فتعين إعادة الجناب الفلانيّ إليها. ورسم بالأمر — لا زالتْ أيام دولته الشريفة تُصْلح الشان، وتُعيد الخير إلى ما كان — أنْ يستقر ... .

فليعُدْ إليها عَوْد الحُسام إلى غِمْده، والماءِ إلى منْهَل وِرْده؛ وليُباشِرْها بمباشرته المعروفه، وعزائمه المألوفه، وهِمَمه الموصوفه، مُسْترفعًا المتحصل ومصروفَه؛ وليتحقّق أنّ الله تعالى سيصلُ رِزْقه فلا يُوجِسْ في نفْسه خِيفَه، وليجعلْ تقوى الله تعالى دأْبَه في كلّ قضيّة ثقيلةً كانت أو خفيفه، والله تعالى يمدّه بألطافه اللّطيفه؛ بمنّه وكرمه.

***

وهذه نسخةُ توقيع بنقابة العساكر بطرابُلُس:

الحمدُ لله الأوّل بلا آخِر، الغنيّ في مُلْكه عن النّاصر، المنزّه في سُلْطانه عن المُؤازِر، المتوحِّد بعدم الأشباه والنّظائر، المُبيد لكلّ مُظاهِر بالعِناد مُجاهِر، العليم بما تُكنّه الأفكارُ وتُجِنّه الضّمائر، الرّقيب على كلّ ما تردّدَ من الأحوال بين سَوادَيِ القلْب والناظر.

وأشهدُ أنْ لا إله إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً خالصةً يُرغَم بها كلُّ جاحِد وكافِر، وأشهدُ أنّ محمدًا عبدُه ورسولُه المبعوثُ والشّركُ مُدْلَهِمّ الدّياجِر، والرُّشْدُ

قد خَيَّم عليه الضَّلالُ فما له من قُوَّةٍ ولا ناصر ، فأقام به الدِّينَ الحنيفِيّ النَّيِّرَ الزَّاهِر ، ورفَع ذِكْرَه فى سائر الأقطار والأمصار على رُءُوس المنابر ، صلّى الله عليه وعلى آله أهْلِ المكارم والمآثر ، ماحَمِدَ السُّرىٰ عند الصَّباح سائر ، ونَمَّ شَرَرُ الشَّرِّ بكلِّ مُناضِلٍ ومناظِر ، وسلّم تسليماً كثيراً .

وبعدُ ، فإنَّ أولىٰ من سِيقَتْ إليه وُفُود النِّعَم ، ومُنِحَ من الخيرات أجْزَلَ القِسَم ، وعُدِقَت الأمورُ بعزائمه ، وآعْتُمِد علىٰ هِمَّتِه التى هى فى المَضاء كأسِلَّته وصَوارِمه ، ورُعِيتْ عُهودُ وَلائه التى لا تُنْكر ، ووُصِفَتْ مَساعِيه التى آستحقّ أنْ يُحمد بها ويُشكر ـ مَن إذا عُوِّل عليه فى المُهِمّات كَفاها ، وإذا آسْتُطِبَّت المُعضلاتُ به شفاها ، وسارَت أنباءُ مهابته غَوْرًا ونَجْدا ، وآتّصف بحُسْن التدبير الذى عليه من الإقبال أكْمَلُ إجْدا .

ولَمّا كان فلانٌ هو الذى تناقَلتْ تَبَاشِيرَ أخبارِه الرُّكْبان ، وأثنىٰ علىٰ شهامَتِه السَّيْفُ والسِّنان ، وشَرُفَتْ بمحاسِنه الأقلام ، وآرتفَع ذِكْرُه بالشجاعة علىٰ رُءُوس الأعْلام .

فلذلك رُسِم ... ... ـ لا زال للدِّين الحنيفِيِّ ناصِرا ، وللأعْداء قامِعًا قاهِرا ، وللحقِّ مُؤَيِّدًا باطِنًا وظاهِرا ـ أنْ يستقرّ الجنابُ العالى المشارُ إليه أميرَ نُقَباءِ العساكرِ المنصورةِ الطَّرابُلُسِيَّة ، عِوَضًا عمَّن كان بها ، علىٰ عادته وقاعدته : لأنّه الحَبْر الذى عُقِدَتْ علىٰ خِبْرته الخناصر ، ووَرِثَ الشَّهامَةَ كابِرًا عن كابِر ، وأضحىٰ بتَدْبيره واضِحَ الغُرَر ، شاهدًا له به العَيْنُ والبَصَر ، إنْ جال بين صُفُوف العساكر كان أسَدا ، وإن رَتَّب جُيوشَها أحْصاها حِلْيةً وعَدَدا .

فلْيباشِرْ هذه الوظيفةَ محرِّرًا أحوالَ العساكر المنصوره ، مقرِّرًا لهم فى مَنازِلهم علىٰ أكْمَلِ عادةٍ وأجْمل صُوره ، بمُناصَحةٍ ضُمِّخ بمِسْكها ، ومُخالَصةٍ قام مَقامَ واسطَة جَوْهر

سلكها؛ ومُلازمة خدمة تأزّرت بها أعطافُه ، وصَفاءِ طويّةٍ شرُفت بهـا أوصافُه ؛ ومحبّةٍ عَذْلٍ جمع فيها بين قوله وفعله ، وإخلاصٍ يحسُن بالمرء أن يكونَ مُلتحفًا بظلّه : لِكَيْ يُتِمَّ الله النّعَم عليـه كما أتمّها على أبيه من قبله ؛ وليَقْصِدْ رضا الله تعـالى في هـذا الأمر ، لا رِضَا زَيْدٍ ولا عَمْرو ؛ والله تعـالى يتولّاه فيما تولّاه ، والاعتماد في ذلك على الخط الكريم أعلاه ، حجةٌ بمقتضاه ، إن شاء الله تعالى .

***

وهذه نسخةُ توقيع بنقابة الأشراف بطرابُلُس بـ«المجلس السامىّ» بالياء ، وكُتِب فيه «القضائى» على خلاف الأصل ، وهى :

رُسم بالأمر ـ لا زال يَرفعُ لذوى الأصالة الشّريفـة قدْرًا ، وينقُلهم إلى الرُّتَب السّنيّة ويُعْلى لهم ذِكْرا ، ويشمَلُهم من إحسانه بمـا يسرّ لهم قلْبًا ويَشرحُ صَدْرا ؛ ويُبلّغهم من المآرب أوفاها ، ومن ملابس القَبول أجملَها وأسناها ـ أنْ يستقرّ فلانٌ ـ أدام الله نِعْمته ـ فى نقابة السّادة الأشراف بالمملكة الطرابُلُسيّة ، على ما تقدّم من عادته فى ذلك : آستقرارًا جاريًا فيه على أجمل العادات ، وآعتمادًا على ما عَهِـد من سَلَفه الشّريف الذّات ؛ ورعايةً له فى تجديد المَسارّ ، وترجيحًا لمـا آشتمل عليه من حُسْنِ الكفاية فى كلّ إيرادٍ وإصدار ؛ ورِفْعةً ليَده الباسطة على أبناءِ جِنْسه ، وتقويةً يجِـدُ أثرها فى معنـاه وحِسّه ؛ رُبّمـا يستوجب به النّعمَ الجزيلة ، وولايةً توليـه من الكَرَم سُولَه ، وعنايةً تُصبح بها رُبوعُ أُنْسه مأهُولة ؛ لأنّه أوْلى أن يُقَرّ فى هـذه الوظيفة ويُزاد ، وأحقّ أن يُرْعَى لمـا سَبق له من السّـداد ، وأجْدرُ أن لا يُضاعَ حَقّه حيث له إلى رُكْنِ الشّرَف المُنيف آستناد .

فليباشرْ هـذه الوظيفةَ المُباركة مبسوطًا أملُه فى المَزيد ، منوطًا رَجاؤه فى نِعَمنا باستئنافٍ وتجـديد ، محوطًا ما بيده من كَرمنا العديد ؛ وهو غنيٌّ أن تُثنَى له الوصايا

ونُعيد، مَلِيٌّ بحسن السجايا التى جُبِلَتْ على التّحْقيق والتّوْفيق والتّسْديد؛ والله تعالى يُطوِّقُ بمَنَنِ جُودِنا منه الجِيد، ويُغدِقُ له سحائبَ رِفْدِنا التى تُجْريه على ما أُلِف من فضلها العديد؛ والعلامة الشريفة ـ أعلاها الله تعالى ـ أعْلاه، حُجّةٌ بمقتضاه.

وهذه نسخةُ توْقيعٍ بشَدّ الشوانى بطرابلس، كُتب به لعلاء الدين «أيدغمش» وهى:

رُسم ... ـ لازالتْ أيامُه، قائمةً بالجهاد فى سبيل الله عزّ وجلّ، وأعلامُه، حائمةً على ٱلْتِقاط مُهَجِ العِدَا فى البرِّ والبَحْر بما يُقرِّبُ لهم الأجل ـ أنْ يستقرّ فلانٌ فى شَدّ الشّوانى المعمورة المنصورة على العادة فى ذلك، بهمّتِه العليه، وعَزْمَتِه التى هى ببلوغ المقاصد مَلِيّه؛ وشَهامَتِه التى تُرهِبُ العِدا، وشجاعَتِه التى تُلْبِسُهم أرْدِيَةَ الرّدى؛ وبَسالَتِه التى تُبْسِلُهم فى البَحْر فتصيِّرهم كالأسماك لا يُسامُ لهم صدى.

فلْيجْتَهِدْ فى ذلك جِدَّ الاجتهاد، ولْيعمدْ فيه السَّداد والسّداد؛ ولْيُوقِظْ أجْفانَ سيوفه من الغَمْض، ولْيُرهِبْ العِدا بشِدّةِ وَطْأتِه التى لها الثّباتُ فى الأرض؛ ولْيلازِمْ مُواظَبَة الشوانى لَيْلًا ونهارا، ولْيكُنْ هو ومَن حَوْلَه لمن بها أنْصارا؛ والله تعالى يُجزِلُ له مَبارا، ويرْفعُ له مقْدارا، بمنّه وكَرمه.

وهذه نسخةُ توْقيعٍ بشَدّ دار الضَّرْب، كُتب به لـ«علاء الدين الدّوَادار»، وهى:

رُسم ... ـ لا زال إحْسانُه يجُود غَماما، وفَضْلُه الشامِلُ على الأولياءِ المتّقين إماما، وسَحائبُ بِرِّ كَرَمه هاميةً على أوْليائِه، هامِلَةً على أصْفيائِه، فتَراهُمْ يَخِرُّونَ للأذْقان سُجّدًا وينْتصبُون قِياما ـ أنْ يستقرّ المشارُ إليه فى شدّ دار الضَّرْب: إعانةً له على الخدمة الشّريفه، وإرْفادًا له بمَعْلومها إذْ هى ليستْ له بوظيفه؛ لأنّه أكبرُ من ذلك قَدْرا،

وأحقُّ بكلِّ منزلةٍ عليّةٍ وأحرىٰ ؛ ولكنْ هـذه الجهةُ هي قانونُ المُعاملَه ، وسكّتُها بشعار المُلْك مُتّصلَة وبين الحقِّ والباطِل فاصلَه ؛ ومنها النُّقوشُ التى هى رُسْتاق الأرزاق ، وصَـدْرُ كلِّ إطْلاق وقنداق ؛ حَكَمٌ ما أُرسِـل فى حاجَة إلّا وأُذِنَ لهـا بالنّجاح ، ولا آستؤمن عليه آمْرؤٌ باذن الإمام إلا وحقٌّ له [الاتصاف] بالصـلاح والفلاح ؛ هذا وهو فى الأصـل مذموم ، وطالبـه محروم : لأنه مقسوم ، والأجل محتوم ؛ ولكن تطهيره من الدنس واجب ، والحسـبة فى عياره حتى يغدو ويودَقُ صفائه من الغِشِّ ناضب .

فليَعْتمِدِ المشارُ إليه فى شَدِّ هذه الجهَة حُسْنَ التقوىٰ ويُلاحِظْ بعزْمه أُمورَها لتكونَ على السَّداد ، ويَعْتمدْ على السَّيد النّاظر فإنّه نِعْم العِماد ، ويُفوِّضْ إليه كَشْفَ الرُّوباص وحَكِّ العيار فهو به أدرىٰ وأحرىٰ وأدْربُ بادْحاض غِشِّ الفَساد ، وليَتناوَلْ مَعْلومَه المُقَرَّر له عنـد الوجوب والاسْتِحْقاق ، هَنِيًّا مُيَسَّرًا خالِصًا من التّنازُع والشِّقاق ، ومِثْلُه فلا يُدَلُّ علىٰ [صواب] : إذْ تَقْوى الله تعالىٰ كلمةُ الفَصْل وفَصْلُ الخطاب ، واللهُ تعالىٰ يجعلُها لنا وله زادًا وحِرْزًا ، وذُخْرًا يوم المَعَاد ورِكْزًا [(1)] .

* * *

وهذه نسخةُ توْقيع بشَدِّ البَحْر بمِينا طَرابُلُس ، وهى :

رُسِم بالأمر ـ لا زال سَيْفُه قاطعًا من الأعداء نَحْرا ، وأمْرُه نافِذًا بَرًّا وبَحْرا ، وفِعْلُه صالحًا دنيا وأُخرىٰ ـ أنْ يستقرَّ الجنابُ المشارُ إليه فى شَدِّ مِينَا البَحْر بطَرابُلُس .

فليُباشِرْ هذه الوظيفةَ شارِحًا لهـا صَدْرا ، فاتِحًا لهـا بحُسْن مُباشَرته الجميلة بَصَرًا وفِكْرا ؛ باعِثًا لهـا فى الآفاق بمباشرته ذِكْرًا جميلا ، باحِثًا عمّا يتعلق بمتحصل المِينَا

(1) يريد زكوة وأخذة الركاز المال المدفون . وذكّر مراعاة للسجع .

المعمورةِ بُكْرةً وأصيلا، مُسَوِّيًا بين الناس فيما رَزَق اللهُ وفَتَح ، وبَثَّ من فَضْلِه ومَنَح ؛ بحيثُ لا يقدِّم عزيزًا ولا يُؤَخِّر ذَليلا ، ولا يُراعى فى ذلك صَديقًا ولا خَليلا .

ولْيقَدِّمْ خَوْفَ الله تعالىٰ علىٰ خَوْف خَلْقِه ، ولْيُسوِّ بين الضَّعيف والقَوِىّ فيما بَسَط اللهُ من رِزْقِه ؛ وآكَدُ ما نُوصيه به تَقْوى الله تعالىٰ فيما هو بصَدَده ، فلْيَجْعلها فى أُمُوره الباطِنَة والظاهِرَة من عُدَده ؛ واللهُ تعالىٰ يقدِّمُه فى مباشَرته لاْقتناء مَحاسن المعروف وزُبَده ، ويرزُقُه من الأجْر على ما يَعْمله من الخَيْر مع تُجّار هذا البَحْر بما هو أكثر من زَبَده .

* * *

توقيعٌ كريمٌ بنيابة اللّاذِقِيّة ، من إنشاء القاضى تاج الدين بن البارنبارى ، كتب به لـ«شمس الدين» ابن القاضى ، بـ«ـالجناب العالى» ، وهو :

الحمدُ لله الذى زاد «شَمْس» الأولياء إشْراقا ، ومَنَحه فى هذه الدَّوْلة الشريفة إرْفادًا وإرْفاقا ، وصَانَ الثُّغورَ المحروسةَ بعزَماته التى سَرَّتْ قُلوبًا وأقرّتْ أحداقا ، وجدَّدتْ لأوْليائها من مَواهِبها عَطاءً وِفَاقا .

نحمدُه علىٰ حُكْمِه وفِعْلِه ، ونشهدُ أن لا إله إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تمنحُ قائلَها مَزِيدَ فَضْلِه ؛ ونشهدُ أنّ سيِّدَنا محمّدًا عبدُه ورسولُه الذى أيَّده اللهُ بملائكته المُقَرَّبين ، وشَدَّ أَزْرَهُ من أصحابه بالآباء والبَنين ؛ صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبه أئمّة الدِّين ، صلاةً تمنحُ قائلَها غُرَفَ الجِنَانِ ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ وسلَّم تسليمًا كثيرا .

وبعدُ ، فإنّ من شِيَم هذه الدَّوْلة إذا بَدأتْ تَعُود ، وإذا نظَرتْ تَجُود ، وإذا قَدَّمتْ وَلِيًّا لحَظَتْه بأعْيُن السُّعود .

وكان الجنابُ العالى ــ أدام اللهُ نِعْمَته ــ عَيْنَ القِلَادَه ، وبَيْتَ السِّيادَه ، ومَعدِنَ السَّعاده ، وأهْلًا أنْ يُدبِّرَ الأُمور ، ويَسُدَّ الثُّغور ، ونيابةُ اللّاذقيّــة مجاورَةُ البُحور ، وجَزيرَةُ العَدُوِّ بينها و بينها نَهارٌ فهى فى أمرِها له قاعدة فى النُّحور ، وقد رأيناه أهْلًا أنْ يَصُونَ نَحْرها ، ويتقلّد أمْرَها ، ويحفَظ بَرَّها ، ويَدْفعَ شَرَّها .

فلذلك رُسِم بالأمر ــ أعلى اللهُ تعالىٰ شَرفَه ــ أنْ تُفَوَّضَ إليه نيابةُ اللّاذقية المحروسة ، علىٰ عادة من تقدَّمه .

فليَسِرْ إليها سَيْرَ الشَّمْس فى أبْراج شَرَفها ، وليُقْبِلْ عليها إقْبالَ الدُّرّة على التّرائب بعد مُفارقَة صَدَفِها ، وأوّلُ ما نأمُره [به] : إرْهابُ العَدُوِّ بالعُدَّة والعَديد ، وإظْهارُ المَهابَة فى القريب والبعيد ، وتفَقُّدُ الأيْزاك بنفْسِه من غير اتّكالٍ علىٰ سواه كما يفعلُ البَطَلُ الصِّنْديد ، وليَخْلَعْ عنه مَلابِسَ الوَشْيِ ويَلْبَس الحَديد ، وليَهْجُرِ المضاجعَ ويَتّخِذْ ظَهر جَوَاده مستَقَرّه العَتِيد ، حتّىٰ ينتَشِرَ له صِيتٌ بين أهْل التَّثْليث كما انتشر صِيتُه بين أهْل التّوحيد .

وابْسُطْ بِساطَ العَدْل ليطَأَه المَوالِي والعبيد ، واحْكُمْ بالحقّ فالحقُّ مُفيدٌ والباطلُ مُبيد ، ومتىٰ تسامعَ التُّجّار بعدْلك جاءُوا بالأصناف والمَتجرِ الجَديد ، وارْكَنْ إلىٰ حُكم الشَّرع الشريف فإنّه يأْوى إلىٰ رُكْنٍ شديد ، واتّقِ اللهَ تَجِدْه أمامَك فيما تَرُوم وتُريد ، وتَمسَّــكْ بالسِّيرة الحسَــنة يَزِدْكَ اللهُ رِفْعَةً وأنت أحَقُّ بالمزيد ، وعقِبها نَسْتَنْجِزُ لك تَشْريفًا شَريفًا مَقْرونًا بتَقْليدٍ أعْظمَ من هذا التقليد ؛ والخطُّ الكريم أعلاه حجةٌ به ، إن شاء الله تعالىٰ .

***

تَوْقيعٌ بنيابة قَلْعَــة حصْن الأكراد ، كُتِب به لشهاب الدين «أحْمد الناصرى» ، وهو :

الحمدُ لله الذى أطلع فى سماء الدِّين شهابا، وفتح لمن خافه واتّقاه إلى الخيرات أبوابا، وحباه من إفضاله وألبسه من حُلَل إنعامه ونعمائه أثوابا .

نحمَدُه على نِعَمه التى أجزل لنا بمَزِيد حَمْدها أنعماً وثوابا، ونشهدُ أنْ لا إله إلّا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً نتّخذُها من النار حِجابا، ونَعُدّ بها فى الآخرة مَفَازاً حدائقَ وأعنابا، وكَواعِبَ أترابا؛ ونشهدُ أنّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى شرّفه على الأنبياء مَنْصباً ونِصابا، وسَبىٰ بطَلْعته وطَلِيعَته قُلوبًا وأحزابا، وقرّبه إلىٰ أنْ كان قابَ قوسَيْنِ وأسمعه من لَذِيذ كلامه خِطَابا، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وأصحابه : أكْرِمْ بِه وبِهِمْ آلا وأصحابا !، وسلّم تسليمًا كثيرا .

وبعدُ، فإنّ أولىٰ من انتُدِبَ، لِحفظ المعاقل الإسلاميّة وانتُخِب، وأحرىٰ من لحَظَتْه عينُ عنايتنا فكان إليها من الهَيْن أقرب، وأحقّ من اعتُمِد علىٰ بَسَالته وإيالَته بما سَبَر من الأنام والأيام وجرّب ـ مَن عُرِف بشجاعة أين منها عَمْرو بن مَعْدى، وأمانةٍ كَفّتْ حين كَفّتْ كَفّ التعدّى؛ وعِفّةٍ جعلها فى أحواله كلّها نُصْبَ العَيْن، وسياسةٍ ما زال يُصْلِح بها بين ذَوِى المُشاقّة ذاتَ البَيْن؛ وكان فلانٌ هو الموصولَ المُقدّم، الموصوفَ بهذه الصفات التى سُرّ السّاحلُ بها فتبسّم .

فلذلك رُسِم بالأمر ـ لا زال يُطْلِعُ فى آفاق الحُصونِ المَصُونةِ شهابا، ويرفعُ الأولياءَ بإحسانه الذى يُؤكّد لهم فى جُوده أسبابا ـ أن يستقر [1] نائبا بقلعة حصنِ الأكراد المحروس وأعمالها، علىٰ عادة من تقدّمه ومُسْتَقرّ قاعدته .

فليباشرْ ما ولّيناه وأوليناه : مُباشرةً تُسْفِرُ عن حُسن فِطْنَتِه وذَكائه، وتُضِيءُ الآفاقَ بنُورِ شِهابها وسَنائه، وتُظهِر مَعْروفَها المعروفَ بعدم غَيْبته وخَفائه؛ مُعْتمِدًا

(١) بياض بأصله ومراده الجناب العالى . أو المجلس العالى .

على الله تعالى فى إبدائه وإنهائه ، شارحًا لكلّ قلب ألائه إحسانُه بعد غلظته وجفائه ، مانحًا من بحرِ جودِه وعدلِه بالدُّرِّ لا بجُفائه ، مكرِّمًا لمن بهذا المعقل : من أمرائه وأجناده وأغنيائه وفقرائه ، مقيماً لمنارِ الشّرع الشريف الذى لا تستقيمُ الأمورُ إلّا بمتابعته وإبدائه ؛ وليُظهِرْ من شجاعته وبسالته ما لا فائدةَ فى خفائه ، وليَشْهَرْ سيفَه ، فى وجه من أظهر حيفَه ، وعدم خوفَه ، من سطوة ربّه وكُرَمائه .

وأعظمُ ما نُوصيه به التقوى ، فإنّه بملازمتها يقوى ، على دفع الشرّ وفعل الخير وإسدائه ، والوصايا كثيرةٌ وهو المجرّب بالعمل بها الذى يرغب فى استيلائه ، والله تعالى يحرقُ بشهاب عدلِه كلَّ متمرّد.... ... .

* * *

واعلم أنّه ربّما كُتب توقيع نائبِ حصنِ الأكراد مفتتحًا بـ«أمّا بعدَ حمدِ الله» .

وهذه نسخةُ توقيعٍ بنيابة حصنِ الأكراد ، كُتب به باسم «شهاب الدين الحاكى» بـ«الجناب العالى» ، وهى :

أمّا بعدَ حمدِ الله الذى جعل شهابَ الدّين يتنقّل فى مطالع سَعْدِه ، وجدّد أثوابَ النّعماء لمن قدِمتْ هجرتُه وظهر خيرُه فأنجز له الإقبالُ صادقَ وعدِه ؛ وأشهدُ أنْ لا إله إلّا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةً تُبلّغ قائلَها إنالةَ قصدِه ، وأشهدُ أنّ محمّدًا عبدُه ورسولُه الذى أيّده اللهُ بنصرٍ من عندِه ؛ صلّى الله عليه وعلى آله وصحبِه الذين كانوا من أنصاره وجُندِه ، صلاةً دائمةً يبلغُ المؤمنُ بها غايةَ رُشْدِه ؛ وسلّم تسليماً كثيرا — فإنّ أولى مَن شمِله إحسانُ هذه الدّولة الشريفة وبلّغه مُرادَه ، وأجزل عليه النِّعَم فكان أحقّ بها لحُسنِ طويّته فأجراه اللهُ على أحسنِ عادَه ، وبلّغه غايةَ القصدِ ومعدنَ السعاده — من سلكَ مسالكَ الأُمناء الثّقات ، واشتهرتْ عنه العفّةُ وحُسنُ الصّفات ، فتعيّن تقديمُه وتقريبُه إلى أجلّ ولايات الفتوحات .

ولمّا كان فلانٌ ـ أدام الله عزّه، وأنجح قصدَه ـ هو المنعوتَ بصفات السّداد، المشهورَ بالنّهضة والشّجاعة فى هذه البلاد؛ الذى حوىٰ المكارم والإفضال، ووافق خُبْرُه خَبَره فى سائر الأحوال .

فلذلك رُسم بالأمر ـ لا زال شهابُ فَضْله ساطعا، ونُورُ إحسانه لامعا ـ أنْ يستقرّ المجلسُ العالى الشّهابىُّ المشارُ إليه فى ولاية الأعمال الحِصْنيّة والمناصف عوضًا عمّن بها، علىٰ عادته وقاعدته : لأنّا وجدْناه شمْس أعيان الأماثل، وألْفَيْناه قليلَ النّظير والمُضاهى والمُماثل؛ وعليه عُقِدَت الخناصر، واتّفقت الآراءُ الثاقبةُ فى الباطن والظاهر؛ ولمّا جمع من كَرَم الشّيَم وجميل الخلال، وحازَ من النّباهة الرفيعة الذُّرا المَديدة الظِّلال .

فليتوجّهْ إلىٰ محلّ ولايته، وليُظْهِرْ ما أكنّه من العدْل والإنْصاف فى ضمائره بحُسْن سياسَته؛ ولْيُنْصِف المَظْلُوم ممّن جارَ عليه واعْتدىٰ، ويتّبِعْ فى ذلك مايُوضّح له من طريق منَار الهُدىٰ؛ ولْيَبْسُط المَعْدلَة ويُمدّ باعَه، وليُبِد الظُّلْم ويَقصِمْ ذِرَاعَه؛ ولْيصْرِف هِمّته فى عمارة البلاد، وتأْمين العِباد، وسُلُوك سُبُل الرّشاد؛ ولْيجْتهِدْ فى سَدّ الخلال، وإصْلاح ما فَسَد بغَيْره من الأحوال؛ وليجْعَلْ تقْوى الله محَجّته، واتّباعَ العدْل حُجّته، وسُلُوكَ الحقّ عُدّته؛ فقد جاءت التّقوىٰ فى التنزيل مُؤكَّدَه، ووردَتْ فى كَثير من السُّور مُرَدَّده؛ والله تعالىٰ يُعينُه علىٰ ما وَلّاه، ويحْرُسُه ويتولّاه، بعد الخط الكريم أعلاه .

⁂

وهذه نسخةُ توقيع بنيابة قلْعة المَرْقَب والولاية بها، كُتب به لصلاح الدين «خليل»، بـ«ـالجناب العالى»، وهى :

الحمدُ لله الذى جعل هذه الدّولةَ الشريفةَ مقرونةً بالتأييد والنّجاح، ووفّق أولياءَها إلى سُلُوك سُبُل السعادة وشيّدها بالصّلاح، وخوّلهم فى أيّامها المراتبَ العلية ليبتهلوا بأدعيتهم وبدوامها فى المَساء والصّباح .

نحمدُه على نِعَمِه التى لا يبرح مُخلِصُها فى ازدياد وارتياح، ونشكُره على آلائه شُكرًا نستحقّ به المَزيدَ كما أوضح فى القرآن أكملَ إيضاح، ونشهدُ أنْ لا إله إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً مُعلِنةً بالفَلاح، وأنّ محمّدًا عبدُه ورسولُه الذى أنزل عليه فى مُحكَم كتابه العزيز : ﴿ اللهُ نورُ السَّمٰواتِ والأرضِ مَثَلُ نورِه كمِشكاةٍ فيها مِصْباحٌ ﴾ صلّى اللهُ عليه وعلى آله وأصحابه الغُرّ الكِرامِ الأشباح، ما ترنّم طائرٌ على غُصنٍ وحَيعلَ الدّاعى الى الفَلاح، وسلّمَ تسليماً كثيرا .

وبعـد، فإن أَولى من عُدِقت به نيابةُ أجلّ المعاقلِ والثغور وفُوِّضت إليه، وعُوِّل فى حِفظها ومباشرتها الحَسَنة الجميلة عليه ــ مَن عُقِدت على حَزمه الخناصر، ووَرِثَ الشّجاعةَ والشّهامةَ كابرًا عن كابر، وهو الذى نَما فرعًا وزكا [أصلا]، وفاق فى المكارم على نُظَرائه قولا وفِعلا، فأضحى وافرَ الثّناء واضحَ الغُرَر، شاهدًا له به العَين والبَصَر .

ولـمّا كان فلانٌ هو المنعوتَ بهـذه الصّفات، والموصوفَ فى مَواقفِ الحروب بما لَدَيه من الثّبات والوَثَبات، المَشكورةَ خِدمتُه، شامًا ومِصرا، المَشهورةَ بين الهِمَم همّتُه، برًّا وبحرا .

فلذلك رُسِم ... ــ لازالتْ مراسيمُه الشريفةُ مَبثوثةً بالعدل والإحسان، ومَعدلتُه تَستدعى بدوام دولته الشريفـة لِسانَ كلِّ إنسان ــ أنْ تفوَّضَ إليـه نيابةُ قلعـة المَرْقَب المحروس، والولاية بالأعمال الشَّرقيّـة، وما هو منسوب إليها، على العادة فى ذلك ومستقرّ القاعدة : إذ هو أحقّ بها وأهلُها، وأكملُ [من] يجمَعُ شتاتَ شَملِها .

فليباشر ما نُدب إليه من هذه الجهات مُباشرةً تقصُر الأفكارُ عن توَهُّمها ، والأبصارُ عن توَسُّمها ، والخواطِرُ عن تخَيُّل مَبْناها ، و[الأذهانُ] عن تمثُّل صُورتها ومعناها ؛ وليكن لمصالحها مُتلَمِّحا ، ولأحوال رجالها مُتصفِّحا ، ولأقدار جهاتها مُرَبِّحا ، وللخواطر بأداء أحوالها على السَّداد مُريحا ؛ ولوظائفها مُقيما ، وللنظر فى الكبير والصَّغير من مصالحها مُديما ، ولحُرْمتها مُضاعِفا ، وعلىٰ كلِّ ما يتعيَّن الاحتفالُ به من مُهمَّاتها واقفا ؛ ويُعِدَّ للعدُوِّ المَخذولِ عند تحرُّكه العزْمَ الشديد ، ويَهجُرْ لِبْسَ الوَشْيِ ويتألَّف لِبْسَ الحَديد ، ويتَّخِذ ظَهْر جوادِه مُسْتَقرَّه العَتيد ؛ ويشمِّرْ للجهاد ذَيْلا ، ومَعاذَ اللهِ أنْ يَمِيلَ عنه مَيْلا ؛ ويبْسُطِ العَدْلَ للرَّعيَّــة ، ويُعامِلْهم المعاملةَ المَرْضيَّة ، ويُحْسِنْ إلى الأمَراء البَحْريَّة ، ويُلاحِظْ مصالِحَهم فى كلِّ قَضيَّة ؛ ويتفَقَّد الرِّجال ، وأرْبابَ الأدراك والشَّوانى ويُحَذِّرْهم من الإهْمــال ، ويأمُرْهم باليَقَظَة والاحتراز فى اللَّيــل والنهــار وسائر الأحوال ؛ وليعمَلْ ما يحتاج إليه من آلات الجهاد ولْيَكُنْ علىٰ حَذَر ممــا يتجدّد كلَّ يوم ، ولْيُوقِعِ الرَّهْبةَ فى قلوب الأعداء بخَيْلِه فى اليَقَظَة وخَيالِه فى النَّوْم ؛ ويتفَقَّد الموانى فى سائر الأوقات فى اللَّيل والنهار ، وليُحَذِّرْ أُمَراء الأتراك من الغَفْلة فإنَّ الغافلَ لا يزال علىٰ شَفَا جُرُفٍ هَار .

ولْيتَّقِ اللهَ فى أقواله وأفعاله . والوصايا كثيرةٌ وهو أدْرَبُ بهــا وأدْرَىٰ ، وأبوابُ الخيرات واسعةٌ وهو إليها أسرعُ وأجْرَىٰ ؛ ولْيشكر اللهَ تعالىٰ علىٰ ما ولَّاه ، والاعتماد على الخط الكريم أعلاه .

✦✦✦

وهــذه نسخةُ توقيع بنيابة حِصْن عَكَّار ، كُتب به لـ « ناصر الدين الكُرْدىّ » ، بـ «الجناب العالى» ، وهى :

الحمدُ لله الذى نَصر هذا الدِّينَ الحنيفيَّ بسيِّد البَشَر، وخصَّ هذه الدولةَ الشريفةَ بالتأييد والظَّفَر، ووافَى الأولياءَ بجُودها الذى لم يزلْ من ذِمَّة الوَفَاء يُنْتَظر .

نحمدُه علىٰ مَنِّه الذى طالما بدا فى جَبَهات الأولياء بِشْرُه وظَهر، ونشكره علىٰ جُوده الذى أغنىٰ عن التَّحْجِيل والغُرَر، ونشهدُ أنْ لا إله إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادة تُنْجِى قائلَها يوم الفَزَع الأكبر، ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أقام اللهُ بسَيْفه الإيمانَ فاشْتَهر، وكَفَّ به يَدَ الطُّغيان وزَجَر، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله ما اتَّصلتْ عينٌ بنَظَر وأُذُنٌ بخَبَر، وسلَّم تسليمًا كثيرا .

وبعدُ، فإنَّ أولىٰ(1) من رُعِيتْ له خِدَمٌ عَدِيدَه، وعُرِفَتْ له فى أجَلِّ الثُّغور مباشراتٌ سَعِيدَه، واشْتَهرتْ شَهامَتُه وكفايَتُه فى الآفاق، وظهرتْ أمانَتُه ظُهورَ الشَّمس فى الإشراق، وتقدّم بذلك علىٰ نُظَرائه وفَاق .

ولمَّا كان الجنابُ العالى هو المنعوتَ بهذه الصفات الجميلة، والمُحْتَوِى علىٰ هذه المزايا الجليله؛ الذى شَاعتْ شجاعتُه مع طَهارة يَد، ولا عَجَبَ فانَّ هذا الشِّبْلَ من ذاك الأسَد!؛ وسارتِ الرُّكبَانُ فى الممالك بنَهْضَتِهما فى المباشرات، وسَدِّ الخَلَل فى المُهِمَّات المُعْضِلات .

فلذلك رُسم ... ـ لازالتْ أيَّامُه مَبْثُوثةً بالعَوَارِف والإحْسان، ومَعْدِلَتُه تستدعى بدوام دَوْلته الشريفة لِسَانَ كلِّ إنسانْ ـ أنْ تفوّض إليه نيابة قَلْعة حِصْنِ عَكَّار المحروس، علىٰ عادة من تقدّمه وقاعدته، بالمرتَّب الشاهد به الديوانُ المعمورُ .

فلْيُقَدِّمْ خِيرَةَ الله تعالىٰ ويَتَوجَّهْ إليها، ويَصْرِفْ وَجْهَ الإقبال عليها، وينظُرْ فى عمارتها ومصالحها، ويَسْتَدْرِكْ ما اسْتَهْدَم من بيوت حَواصِلها؛ لِيُصْبِحَ وَجْهُ هذا الثَّغر

(1) لعل الصواب «فان أولى الأولياء بالمناصب من رعيت» الخ ليستقيم الكلام .

بحُلوله به باسِما ، ويَنْشَرِله من حُسْن تدبيره وجميل تأثيره عَلَما ؛ ولْيُحْسِنْ إلى الأمراء البَحْرِيّه ، ويُنْزِلْهم منازلَهم على العادات المَرْضيّه ؛ ولْيَعدِلْ فى الرَّعيّه ، ويُنْصِف المظلومَ من الظالم فى كلِّ قَضيّه ؛ ويُلْزِمْ أربابَ الوظائف من المقدَّمين والرَّجَّالة بالخدمة بالنَّوبة على العاده ، ويُوَصِّلْ إليهم معلُومَهم من جهاتهم المعتاده ؛ ويَتَّبِع الحقَّ المحْضَ فى كلِّ أمْر ، لا يقتدى برأْى زيد ولا عَمْرو ؛ ولْيَعلَمْ أنّه مُطالَبٌ بالعَدْل فى وظيفته ، فإنّ كلَّ راعٍ مسئولٌ عن رَعيّته ؛ والوصايا كثيرةٌ ومُعْظمها تقوى الله فى سائر الأُمور : فليَتمسّكْ بها يقوىٰ ، فإنّها السَّبَبُ الأقوىٰ ، واللهُ تعالىٰ يتولاه فى السِّرِّ والنَّجْوىٰ ؛ بعد الخطّ الكريم أعلاه .

✥

وهذه نسخةُ تَوْقيع بنيابة بَلاطُنُس بـ«الجناب العالى» ، وهى :

الحمدُ لله الذى أسبغ نِعمَه علىٰ أوْليائه ، وأجْزَلَ كَرَمه علىٰ أصْفيائه ؛ ونشهدُ أنْ لا إله إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تُنْجى قائلَها من وَبِيلِ العذاب ، وتُجَدِّدُ له أسبابَ السعادة فى الدُّنيا ويومَ الحساب ؛ ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه المبعوثُ بالنُّور المُبِين ، المخصوصُ بالدِّين المَتِين ؛ صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وأصحابه ، وأهْله وأصْفيائه وأتْرابه .

وبعدُ ، فإنَّ القِلاعَ المنصورةَ ممّا يتعيّنُ الاحتفالُ بأمْرِها ، والاهْتمامُ بحفْظ رجالها فى سِرِّها وجَهْرها ؛ ومن أجَلِّ قِلاعِ الساحل المحروس ، وأجْمَلِ مساكن البَحْر المأْنوس ، قلعة بَلاطُنُس .

فلذلك رُسِم ... ــ لا زالتْ صَدَقاتُه تشملُ كلَّ أوْحَد ، وتَجْبُر كلَّ وَلِيٍّ أمْجد ــ أنْ يستقرَّ ... ... إذْ هو الخبيرُ ، الذى ليس لمَعْرِفته نَظِير ، والضَّابِطُ الذى يُحاقِقُ على

الجليل والحقير، والنّقير والقطمير، والشّجاعُ الذى هو فى يوم النّضال على أخذ العدُوّ لقدير، والضّرغامُ الذى أعطاه الله القُوّة والمعرفة التامّة فهو بهما جدير .

فليسر إلى الثّغر المحروس، ويعتمد فى أُموره ما هو فيه من الخبرة مغروس .

* * *

وهذه نسخةُ توقيع بتقدمة العسكر بجبلة ، كُتب به لـ«صلاح الدّين الحافظى» ، بـ«الجناب العالى» ، وهى :

الحمدُ لله الذى جعل هـذه الدّولة الشريفة تنقل كلّ ولىّ إلى درجات سعْده ، وتُؤكّد أسبابَ الارتقاء لمن حُمدت مآثره وحسُنت سيرتُه فى اليوم والذى من بعْده ، وتُجدّدُ أثوابَ النّعماء لمن ظهر خيْره وخبرتُه فأنجز له الإقبال صادقَ وعْده .

نحمدُه على نِعمه التى أجزلت لمُستحقّها مواهبَ رِفْده ، ونشكره على مِننه التى خصّتْ كلّ كافٍ بتأثيل مَجْده ، ونشهدُ أنْ لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً يبلُغُ بها قائلُها غايةَ قصْده ، ونشهدُ أنّ سيدنا محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أيّده الله تعالى بنصْرٍ من عنْده ، وآمنه على وحْيِ الرّسالة فنصح الأُمّة غايةَ جُهْده ، صلّى الله عليه وعلى آله وصحْبه الذين كانوا من أنصاره وجُنْده ، صلاةً دائمةً باقيةً يبلُغُ بها المُؤْمنُ غايةَ رُشْده ، وسلّم تسليمًا كثيرا .

وبعـدُ ، فإنّ الجنابَ العالىَ لمّا تقدّمتْ له مباشرات ، فى أجلّ الولايات وأحسنِ النيابات ، وهو يسيرُ فى كلّ منها أجملَ سيْر ، ويُحْسِنُ إلى رعيّتها فلا غرْوَ أنْ يذكروه بكلّ خيْر ، كمْ قام بمُهمّات من غيْر عسْف أهْل البلاد ، وكمْ أعانَ الدّيوان المعْمورَ من غير ضَرَرٍ للعباد ، وكمْ ميّزَ أموالًا فكانت أيّامُ مباشراته أعْياد ، وكمْ له من خِدَم سار بها الرّكابُ وبلغ بها المُراد ، وكمْ أثنى عليه لِسانُ القلم حتّى نفِدَ المِداد ،

وكم وُصِفَتْ هِمَمُه وحُسنُ تأتِّيه فى كلّ توقيع وتقليد على أنّ الكاتبَ ما زاغ عن الحقّ ولا مالَ عن الصِّدق فيها ولا حاد .

فاقتضىٰ محمودُ رأينا الذى ما برِح بعون الله يُصيب، وجميلُ فكرنا الذى ما دعوناه لأمرٍ إلّا وبالإصابة بحمد الله يُجيب، أنْ نُعيّن له وظيفةً تُريحه فيها من التَّعب، وتُوفِّره من تبِعاتِ الطَّلَب ؛ وكان مَن فى تَقدِمَة العسكر بجبلة يَعتريه ألمٌ يعوقُه عن الرُّكوب فى الخِدَم الشريفة والنزول، سيَّما فى هذا الوقت الذى فيه يتحرَّكُ العدُوُّ المخذول .

فلذلك رسم ... ـ لا زالتْ أيّامُه الشَّريفةُ تُيسِّر أسبابَ النَّجاح، وعوارِفُه تُطوىٰ لها أرضُ البُعدِ عن أوليائها كما تُطوىٰ لذى الصَّلاح ـ أنْ يستقرّ الجناب ... ... فى تَقدِمة العسكر المنصور بجبلةَ ، علىٰ عادة مَن تقدّمه وقاعدته .

فليباشرْها مباشرةً تليقُ بشجاعته ، وتُعهَدُ من حُسْن سياسته ؛ وليُكرِم الشَّرعَ الشريف، وليَردَعْ من يَحيدُ عن الحقّ أو يَحيف ؛ وليَجمعِ الأمراءَ المقدّمين والحلقة المنصورة على الركوب فى الخِدْمة الشَّريفه، وليشكرْ نعمةَ الله تعالى اللَّطيفه ؛ وليَتيقَّظْ لردْعِ العدُوِّ المخذول ، وليَعلَمْ أنّا آسترعيناه أمرَ ذلك وكُلُّ راعٍ مَسئُول ؛ وليَتحقّقْ أنَّ العدُوَّ المخذولَ طالبٌ للهالكين منهم بالثّار، وهم قاصدون جبلَةَ فلتكُنْ عنده يَقَظَةٌ وآستبصار؛ وليرتّب الأيزاك وليُعمِّر الموانى بالرجال، ويتفقّدْهم فى الليل أكثر من النهار ؛ وليَهجُرِ النَّومَ فى طَلَب الظَّفَر والمُنىٰ فمن سَهِر لذلك ما خاب ، ولا يأمَنْ مَكيدَتَهم، ويغترَّ بهم فيقولُ : قد ضُرِبَ بينهم وبينها بسُورٍ له باب؛ وباقى الوصايا فهو بها أعلم ، ولم يبرحْ مُتلفِّعًا بثوبِها المُعْلَم ؛ وملاكُها تقوى الله تعالىٰ فمن لم يعمل بها يأثَم، ومن تركها يندَم، ومن لزِمها فهو فى الدارين مُقدَّم ؛ والله تعالى يتولاه ، والاعتماد على الخطّ الكريم أعلاه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

واْعلَمْ أنَّه ربمَّا ٱفتتح تَوْقيعُ مقدّم العسكر بجبلَةَ بـ«أمَّا بعدَ حمد الله» .

تَوْقيعٌ بتقدمة العسكر بجبلة ، ممَّا كُتب به لحسام الدين العلائىّ بـ«الجناب العالى» وهو :

أمَّا بعدَ حمدِ الله علىٰ نِعَمه التى تُجْزِلُ لكلِّ وَلِىٍّ من مَوادِّ فَضْلِها إنْعامًا ، وتَمْنَحُ من عَوارِفِها أقْساما ؛ وتُبَلِّغ من النُّجْح لذوى الاْستحقاق آمالا وتجعلُ فى نُحُورِ الباغين حُسَاما ؛ والشَّهادةِ له بالوحدانية التى لم تزلْ للأولياء المُتَّقين لِزاما ، وترفعُ لهم فى الجَنَّاتِ مَقاما ؛ والصَّلاةِ علىٰ سَيِّدِنا محمدٍ الذى محَا اللهُ بنبوَّته عن الأُمة المحمديَّة آثاما ، وشرَّفَه علىٰ سائرِ خَلْقِه وجعله للأنْبياء خِتاما ؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين ظافَرُوه وبايَعُوه دُهُورا وأعْواما ، صلاةً دائمةً تَزِيدُ مُرَدِّدَها عِزًّا وإكراما ــ فإنَّ الاْهتِمام بكلِّ جِهَةٍ هو علىٰ قَدْرِها ، والعناية بقُطْرِها .

ولما كانت مدينةُ جبلةَ المحروسةِ مخصوصةً بمقام بر(1) السَّند، الزَّاهد الذى ترك الدُّنيا والأهْلَ والوَلد، والوَلِىِّ المبرِّزِ فى عِبادة الخالق ، والمتوكِّلِ الذى لم يدَّخِرْ قُوتَ ساعَةٍ لساعةٍ ٱعتمادًا على الرَّازق ــ تعيَّن النظرُ فى أمْرِها وحِفْظِها من العَدُوِّ المخذول ، وإن كان بهذا السَّيِّد السَّنَد قد تبين حفظها ؛ وكان فلانٌ ممَّن باشرها فأحْسنَ فيها المُباشَره، وكلأ حِفْظَها بيقَظَتِه وعَيْنِه السَّاهِرَه ــ ٱقتضىٰ رأْيُنا أن نُعِيدَه إليها ، ونُسْبِغَ ظِلَّه عليها .

فلذٰلك رُسِمَ بالأمر ــ لا زال حُسَامُه قاطِعًا من الأعْداءِ نَحْرا ، وفِعلُه صالحاً دُنيا وأُخرىٰ ــ أنْ يُعادَ المشارُ إليه إلىٰ تَقْدِمة العَسْكر المنصور بجبلَةَ المحروسة ، عوضًا عمَّن بها ، وعلىٰ عادته وقاعدته .

(1) بياض بالأصول ولعله بركات السيد السند .

فَلْيَعُدْ إليها عَوْد الحُسام إلىٰ غِمده، والمَاءِ إلىٰ مَنْهل وِرْدِه ؛ ولْيُقدِّمْ خيرةَ الله فى المَسير إليها، ولْيَبْسُطِ العَدْل ليأْمَنَ أهلُها بقدومه عليها؛ ولْيُكْرِمْ من بها من العسكر المنصور، ويُحْسِنْ إلى الرَّعِيَّة بها ليُصْبِحَ خَيْرَ مَشْكُور؛ ولْيُنصِف المظلوم ممَّن ظَلَمه، ويَنْشُر للشَّرع الشريف عَلَمَه ؛ ولْيُخَلِّص الحقَّ من القَوِىِّ والضَّعيف ، والدَّنِىِّ والشريف؛ ولْيَلْزِمْ من بهذا الثَّغر بعمل اليزك المعتاد، والتَّيقُّظ لأمْرِ العَدُوِّ المخذول ومضاعفة الاجتهاد، ولْيلازِمْ تقْوَى الله تعالىٰ فى الأقوال والأفعال ، واللهُ تعالىٰ يَمنَحُه من فَضْلِه ما يرجو من الآمال .

✦ ✦ ✦

وهذه نُسَخُ تواقيعَ لأرباب الوظائف الدينية بطَرَابُلُس .

تَوقيعٌ بنظر الحِسْبَة بِطَرَابُلُس، كتب به للقاضى «ناصر الدين بن شيصة» وهو :

الحمدُ لله مُبَشِّر الصابرين، ومُوَصِّل الأرزاق علىٰ يَدِ أصْفِيائه من العالَمِين، ومُعيد كلِّ ولِىٍّ إلىٰ مَنصبه ولو بعد حين .

نحمدُه علىٰ فَضلِه المُبِين، ونشكُره علىٰ أن جَعلَنا مَن عباده المؤمنين؛ ونشهدُ أنْ لا إله إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً نَدَّخِرُها ليَوم الدِّين ، ونشهدُ أنَّ سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه الصادقُ الوَعْدِ الأمين، الذى أرسله بواضح الحُجَج ومُحكَمِ البراهين، وأنزل عليه كتابًا عَرَبيًّا مبين ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه الغُرِّ المُحَجَّلِين ، صلاةً مستمِرَّةً علىٰ ممرِّ الأيام والشُّهور والسِّنين؛ وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

وبعـدُ ، فإنَّ أوْلىٰ من عَزَّزْنا مَوادَّ رِفْده ، وأجْزَلْنا له حُظُوظَ سَعْدِه ، وبلَّغْناه من إقبالنا غايةَ قَصْده ، وحَمِدْنا تَصَرُّفَه من قبلُ عند مارَسَم لما جُدِّد [من] بعدِه؛ وأعَدْناه إلىٰ رتبة ألِفَتْ منه حُسْنَ السياسة والتَّدْبير، وعُرِفَ فيها بالكِفايَة والصِّيانَة

ويُمْنِ التأثير ــ مَن له ولسلفه فى المباشرات الجليلة يَدٌ طُولَىٰ ، فكان بوظيفته أحقّ وأوْلىٰ .

ولما كان المجلسُ العالى هو المُتَّصِفَ بصفات الكمال ، المَشْكُورَ فى سائر الأحوال ؛ فلذلك رُسم بالأمر ــ أنْفذه الله فى الآفاق ، وأجراه بصِلَةِ الأرْزاق ــ أن يُعادَ فلانٌ ــ أدام الله نِعْمته ــ إلىٰ نَظَرِ الحِسْبة الشريفة بالمملكة الطَّرابُلُسِيَّة علىٰ عادته وقاعدته ، مُضافًا إلىٰ ما بيده من بَيْت المـال المَعمور : لأنَّه الفاضِلُ الذى لا يُجارَىٰ ، والعالِمُ بأحْوال الرَّعِيَّة فلا يُناظَرُ فى ذلك ولا يُمـارَىٰ ؛ والفَيْلَسُوفُ الذى يُظْهِر زَيْفَ كلِّ مُرِيب ، والنِّحْرِيرُ الذى بخِبْرته يَسِيرُ كلُّ حَيِفٍ ولَبِيب .

فلْينظُرْ فى الدَّقيقِ والجليل ، والكثيرِ والقليل ؛ وما يُحْصَر بالمقادير وما لا يُحْصَر ، وما يُؤْمَر فيه بمعْروفٍ أو يُنْهىٰ عن مُنْكَر ؛ وما يُشْترىٰ ويُباع ، وما يُقَرِّبُ بتحْريره إلى الجنَّة ويُبْعِدُ عن النـار ولو لم يكُنْ قد بَقِيَ بينه وبينها إلا قَدْرُ باعٍ أو ذِرَاع ؛ وكلِّ ما يُعْمل من المَعايِش فى نَهارٍ أو لَيْـل ، وما لا يُعْرَف قَدْرُه إلا إذا نطق لِسانُ الميزان أو تكلَّم فَمُ الكَيْل ؛ ولْيَعْمل لَديْه مُعَدَّلًا لكلِّ عَمَل ، وعِيارًا إذا عُرِضَتْ عليه المعايير يَعْرِفُ من جَار ومن عَدَل ، ولْيَتفقَّدْ أكْثَرَ هذه الأسْباب ، ويُحَذِّرْ من الغِشِّ : فإنَّ الدَّاءَ أكْثَرُه من الطعام والشَّراب ؛ وليتعرَّف الأسـعار ، ويَسْتَعْلِمْ الأخبارَ من كلِّ سُوقٍ من غيرِ إعلامٍ لأهْلِه ولا إشْـعار ؛ ولْيُقِمْ عليهم من الأُمَناءِ من يَنُوب عنه فى النَّظَر ، ويَطْمَئِنُّ به إن غاب أو حضَرَ ؛ ودارَ النُّقود والضرب التى منها تَنْبَثُّ ، وقد يكون فيها من الزَّيْف مالا يظهر إلا بعد طُولِ اللَّبْث ؛ فلْيَتصَدَّ لِهُمِّها بصَدْرِه الذى لا يَحْرَج ، ولْيَعْرِضْ منها على المَحَكِّ [من رأيه] ما لا يجوز عليه بَهْرَج ، وما يعلق من الذهب المكسور ويروبص من الفضــة ويخرج ؛ ولْيُقِمِ الضَّمانَ على العَطَّارِين والطُّرُقِيَّــة

فى بيْع غرائب العقاقير إلّا ممن لااسْتراب فيه وهو معروف ، وبخطّ طَبيبٍ ماهر لمريض مُعَيَّنٍ فى دواء موصوف ؛ والطُّرقيّة وأهْلَ النّجامة وسائرَ الطوائف المنسوبة إلىٰ سَاسَان ، ومن يأخذُ أموالَ الرِّجالِ بالحِيلَةِ ويأكُلهم باللّسان ، وكلّ إنْسان سُوءٍ من هذا القبيل هو فى الحقيقة شَيْطانٌ لا إنسان؛ فامْنعْهُم كلَّ المَنْع ، واصْدَعْهُم مثْلَ الزُّجاج حتّىٰ لاينجبر لهم صَدْع ، وصُبَّ عليهم النَّكال وإلّا فما تُجدى فى تأديبهم ذاتُ التّأديب والصَّفْع ؛ ومن وَجَدتَه قد غَشّ مُسْلمـا ، أو أكَل بباطِلٍ دِرْهما ؛ أو أخْبَر مُشْتَرِيًا بزائد ، أو خرج عن مَعْهُود العوائد ؛ اشْهره بالبَـلَد، وأرْكِبْ تلكَ الآلَةَ قَفاهُ حتّىٰ يَضْعُف منه الجَلَد ؛ وغير هٰؤُلاءِ [من فقهاء المكاتب ، وعالمـات النساء وغيرهما من الأنواع] (1) ممن يُخَاف من ذئبه العائث فى سِرْب الظباء والجآذر ، ومن يُقْـدِمُ علىٰ ذلك أو مِثْـلِه وما يُحـاذر ؛ ارْشُقْهُم بسِهامك ، وزَلْزِلْ أقدامَهُم بإقْدامِك ؛ ولا تَدَعْ منهم إلّا مَن اخْتَرتَ أمانَتَـه ، واختبرت صِيـانَتَه ؛ والنوّابُ لا تَرْضَ منهم إلا من يُحْسِن نَفَاذا ، ويُحْتسب لك أجرُ اسْتِنابَتِه إذا قيـل لك : مَن اسْتَنبْتَ ؟ فقلت : هذا ؛ وتَقْوَى الله هى نِعْم المسالك، وما لك فى كلّ ماذكرناه بل أكثره إلّا إذا عَمِلْت فيه بمَذْهَبِ مَالِك ، والله تعالىٰ يُسَدِّدُكَ ويُرْشِدُك ويوفّقُك إلىٰ أحْسنِ المسالك .

***

تَوْقيعٌ بالخَطابَةِ والإمامة بالجامع المَنْصورىّ بطَرَابُلُس ، كُتِب به للخطيب «جمال الدين إبراهيم» ، بـ«المجلس السامى» بغير ياء ، وهو :

رُسم بالأمر الشّريف ــ لا زالَ عُودُ مَنابِرِ الإسلام بمَـاءِ إحْسانِه رَطِيبا ، وبُرْدُ شعائر الدين الحَنِيفىّ فى أيّامه الزاهرة قَشِيبًا ، ومَواهِبُه ومَنَاقِبُه تُقِيم لمَـادِحه فى كلّ

(1) الزيادة من «التعريف صفحة ١٢٦» وهى لازمة لاستقامة الكلام .

وَادٍ شَاعِرًا ولمحامِده فى كلِّ نَادٍ خَطِيبا ـ أنْ يُرتَّب المجلسُ السامى، الإمام، العامل: ـ رَحِم الله تعالىٰ السَّلَف، وزاد مَجْدَ الخَلَف ـ خَطِيبًا وإمَامًا بالمَسْجِد الجامع المعمور المَنْصورىّ بطرابلس المحروسة، عِوضًا عن فلان، وعلىٰ عادته وقاعدته، وبمَعْلومه الشاهِد به الديوان المعمور المستَقِرّ باسمه، إلىٰ آخر وقْت: رعايةً لأهليَّتِه الواضحة الدلائل، وفَضِيلته الناطقة الشَّواهد الصَّادقة المَخايِل، وأوْصَافه الجميلة التى بها تُعْرفُ من أبِيه الشَّمائل؛ ولأنّه الصَّدْر آبن الصدرِ النَّجِيب، والخَطِيبُ الإمامُ آبن الإمَام الخطيب؛ والوَلَدُ النَّجِيبُ الذى حَذَا حَذْوَ والدِه فى الصَّلاح ما خَابَ ولا يَخِيب، والنَّجْلُ النَّبِيهُ المُهَذَّبُ الذى أشْبَهَ أبَاهُ فى الدِّينِ والورَع: ومَن أشْبَهَ أبَاهُ فما ظَلَمَ فى النَّباهَة والتَّهذِيب.

فلْيباشِرْ هذه الخَطابَةَ والإمَامَةَ التى هو آبنُ جَلَاها، وطَلَّاعُ ثَنَاياها، زَائِنًا حِلاها، زائدًا عُلَاها؛ وليَرْقَ ذِرْوَةَ هذا المَنْصِب الذى هو أعْلىٰ المناصِب الدِّينيَّه، وليَتَلَقَّ نِعَمَ الله عزّ وجلّ بالشُّكْرِ الذى يُوجِبُ المَزِيدَ ويُكْسِبُ المَزِيَّه؛ وليَقُمْ مقامَ والدِه فى هذه الرُّتْبة السَّنِيَّه، بإخلاص العَمَل وصِدْقِ النِّيَّه؛ مُجَلِّيًا فى مِضْمارِ البيان الذى سُلِّمَتْ إليه أعِنَّتُه، وأُلْقِيَتْ إليه أزِمَّتُه؛ مُحَلِّيًا بقلائد المَواعِظ وفَرائِد الأمْثال أعْوادَ المِنْبر الذى لو أمْكنه لسَعىٰ إليه، مُشَنِّفًا الأسْماعَ بجَواهِرِ الأوامِر وزَواهِر الزَّواجِر التى يَصْدَعُ بها عليه.

ولْيسِرْ سَيْرَةَ والده فى الطَّريقة المُثْلىٰ وسُلُوكِ المَنْهج الأسَدّ، ولْيَجْتَهِدْ فى إحْياءِ رسُومه فى العبادة واقْتِفاءِ آثاره فى العِلْمِ والزَّهادَة حتّىٰ يقولَ الناسُ: هذا الشِّبْلُ من ذَاكَ الأسَد، جاريًا علىٰ أفْضَل العوائد فى دِيانَتِه، سارِيًا بأجْمَل القَواعِد من صِيانَتِه؛ ولْيُوصَّلْ إليه مَعْلُومُه الشاهدُ به الدِّيوانُ المعمورُ المستقِرّ إلىٰ آخر وقْت، علىٰ عادة من تقدّمه وقاعدته: لاستِقْبال مُباشرته أحْيان الوُجوب وأزْمان الاسْتِحْقاق،

رِزْقًا دَارًا ، سَارًا ، هَنِيًا ، مَرْضِيًّا ، من غير تَنْغِيص ، ولا تَنْقِيص ؛ والاعتماد على العلامة الكريمة أعلاه ، وثبوته إن شاء الله تعالىٰ .

⁂

وهذه نسخةُ تَوْقِيعٍ بخَطابَةٍ ، كُتب به للشيخ «صدر الدين الخابورى» ، بـ«المجلس السامىّ» بالياء ، وهى :

رُسِم ... ... ـ لا زالَتْ أيّامُه الشَّرِيفَةُ تَضَعُ الأشْياءَ فى مَحَلِّها ، وتُفَوِّضُ المَناصِبَ المُنِيفَةَ إلىٰ أهْلِها ، وتُشَرِّفُ صُدُورَ المحافل بصَدْرِ العلماء فى حَزْنِها وسَهْلِها ـ أن تُفَوَّضَ إلىٰ فلان الخَطابةُ بالجامع الناصرىّ المَعْروف "بجامع التوبة" بطرابُلُس المحروسة وُجوبًا وتَعيِينًا ، اقْتَضىٰ فى تَقَدُّم الفاضل على المَفْضول تَيقُّنًا وتَبيُّنا ؛ لأنّه الحَبْر الذى لا يُجارَىٰ فى فضائله ، والبَحْر الذى يَجُود فيُجِيدُ بفواضِله ، والصَّدْرُ الذى مُلِئَتْ بفَوائِده وفَرائِده بزمانه مَحافِل صُدُورِهِم وصُدُورُ مَحافِله ؛ كَمْ نطقَتْ ألْسُنُ الأقْلام بأفْواهِ المحابر بفَضْلِه فى الأقاليم والآفاق ، وكَمْ من عبارة بفَصاحَةٍ وبَلاغَةٍ حقَّقَتْ أنّه بها فاتَ الفُصحاءَ والبُلَغاءَ وفَاق ؛ لقد أصْبح شَمْلُ هذا الجامع بهذا الفاضِلِ الذى طال ارْتقابُه له جامِعا ، وأمسىٰ وقد ظَفِرت يُمْناهُ من اليُمْنِ به والبَرَكة بما لم يكن بشَىْءٍ منه فى مِثْل هذه الأيَّام طَامِعا ، فلذلك بادَرَ مِنْبَرُه المُنِيفُ وحلَّ له حَقْوَتَه مُسارِعا ؛ ووَطَّأَ ـ لامْتِطائِه إيّاه ـ صَهْوَتَه ، وغَفَر للدَّهْرِ بهذه الحَسَنَة الجميلة فيما سَلَف منه هَفْوَتَه ؛ وعَلِم أنّه الخطيبُ الذى استَقَرَّ بِطالع المَنابِر من خُطْبَته بما يُفَجِّر من العُيون مَنابِعَ المَدامِع ، ويُشَوِّق إلىٰ الآخرة : من ألفاظٍ يُشَنِّفُ بها المَسامِع ؛ وأنَّ قُسًّا لا يُقاسُ به فى خُطَبِه وعِظَاتِه ، وأنَّ سَحْبانَ يَوَدُّ من خَجَلِه أنْ يَسْحَبَ ذَيْلَه علىٰ مآثِره المَأْثُورة عنه ليُعَفِّى آثارَ فَلَتاتِ كَلِماته ولَفَتاتِ لَفَظاتِه .

فليباشرْ هذه الوظيفةَ المباركةَ باللهِ تعالىٰ مُذَكِّرا، ولِمَا أمرِ عبادَه ونَهاهُم عنه علىٰ أسْماعِهِم مُكَرِّرا ، ويَعْلَمْ أنّه فى المِحْراب مناجٍ لربه ، وَاقِفٌ بين يَدَىْ من يَحُول بين المَرْءِ وقَلْبِه ؛ فليَعْتَصِمْ بالله عزّ وجلّ فى قَوْله وفِعْله ، وليَتَيَقَّنْ أنَّ الكلمة إذا خرجت من قَلْبٍ لا تَقَعُ إلا فى مِثْلِه .

وفى إحاطة عِلْمِه المَشْهور ، وفَضْلِه المَشْهُود المَشْكُور ؛ ما يُغْنِى عن وَصِيَّةٍ بها يَتَذَكَّر ، وتَذْكِرَة فى صحيفة فِكْره تُرْقَم وتُسَطَّر ؛ ولْيُوصَلْ إليه مَعْلُومُه علىٰ هذه الوَظِيفة الشاهدُ به الديوانُ المعمورُ . وليوفِّر خاطِرُه من التَّبَذُّل فى تَحْصيل مَعْلومه الجارى له وطَلَبِه ، وليُعامَلْ بما يَلِيقُ من الإجْلال والإعْظام بوَظِيفته الشَّريفَةِ والمَحَلِّ العالى الرَّفيع من مَنْصِبِه ؛ والعلامةُ الكريمةُ أعْلاه ، حُجَّةٌ بمقتضاه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

***

وهذه نسخُ تواقِيعَ لأرباب الوظائف الديوانية بطرابلس :

نُسخةُ تَوْقيع بشهادة الجيوش بطرَابُلُس ، كُتِب به للقاضى بَدْر الدين «محمد آبن الفرفور» ، ووالِدُه يومئذ ناظر الجيوش بها ، بـ«المجلس العالى» ، وهى :

أما بعدَ حمدِ الله الذى زَيَّن سماءَ المَعالى ببَدْرِها ، وأنْبت فى رِياضِ السّعادة يَانِعَ زَهْرِها ، ورَفَع المناصبَ السَّنِيَّة إلىٰ شَرَف محلِّها ومَحلِّ شَرفها ؛ ونشهدُ أنْ لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً خالِصَةً فى قَوْلِها وفِعْلِها ، وأنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه أرْسله بالمِلَّة الحنيفيَّة قائمًا بفَرْضِها ونَقْلِها ، آمِرًا بالمَعْروف ناهيًا عن المُنْكَر مُبلِّغًا لرسالاتِ رَبِّه كُلِّها ؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً لا يَنْحصِرُ عَدَدُها ، ولا يَنْقضى أمَدُها ، وسلَّم تسليمًا كثيرا — فإنَّ أوْلىٰ من خَطَبَتْه المَنَاصبُ من هو أحقُّ بها وأهْلُها [1] فيها

(١) بياض بالأصل ولعله : وله فيها ، الخ .

نِسْبةٌ لا يُنكر فضلُها، ومُباشراتٌ فى المَمالك الإسلامية مَشْهُوراتٌ بالكِفَاية والعفّة فى بَرّها وبحرها .

ولمّا كان فلانٌ ـ حرس الله جَنابَه وأسْبغ ظِلّ والده ـ هو المَعْنِىّ بهذه الإشارَه، وشَمْسَ هذه الهَالَةِ وبَدْرَ هذه الدّارَه .

فلذلك رسم ... ... ـ زاده الله تعالىٰ عَظَمةً وشَرفا ، ومنحه فى الجِنَان قُصُورًا وغُرَفا ـ أن يستقرّ... ... : اقرارا لعَيْن والده، وجَمْعًا له بين طَرِيف السّعْد وتَالِده؛ لأنّه النَّبْعةُ التى نشأتْ فى رِيَاض السِّياده ، والزَّهْرةُ التى بَرَزَتْ فى كِمَام السَّعاده ؛ فلا يزالُ فَرْعُه ـ إن شاء الله ـ بسعادة هذه الدَّولة الشريفة يَنْمى إلىٰ أنْ يَتأصَّل ، وزهْرَتُه تُزْهِىٰ إلىٰ أنْ تَبلُغَ الإثمارَ وتَتَوصَّل .

فلْيباشِرْ هذه الوظيفةَ المباركَةَ مُباشَرةً تَظْهرُ فيها كِفايَتُه عند الانتقاد، وتحمدُ فيها عُقْبىٰ الاختيار والاختبار والرَّشاد؛ ولْيسْلُكْ فى أمانَته سنن أبيه ـ أسبغ الله ظلَّه ـ التى أحكمها فى كل ما أبْدَىٰ وأعاد ، ويتَّبِـعْ طُرُقَه الهاديةَ إلىٰ سبيل السعادة والإرْشاد ؛ ويُبْـدِ ما اكتسبه من والده عن سَلَفه من هـذه الصِّناعَة وهو أحقُّ بهذا السَّنَد ، ولا يَخْرُجْ عن رَأْيِ أبيه ـ أيّده الله ـ حتّىٰ يقولَ الناسُ : هـذا الشِّبْل من ذَاكَ الأسَد؛ ولْيُشَمِّرْ فى تحصيل الفضائلِ التى تُبْلَغ بها الآمال ، وتَصلُحُ الأحوال؛ ولْيَتَلَقَّ هـذه المباشرَ بعَزْمه الشديد ، بنَفْسه لا بالتَّقْليد، فإنّه شاهدٌ ومَسْئُول، بقوله يوفَّق فى الاستحقاق وفى النُّقود والكُيول ؛ وتَقْوى الله هى السَّبَبُ الأقوىٰ ، فلْيَتَمسَّكْ بحَبْلها يَقْوَىٰ ؛ والوصايا كثيرةٌ فى ذلك ووالدُه بها أعْلم، والله تعالىٰ يُسَلِّكُه سَبيلَ الهدىٰ فإنّه أنْجحُ الطُّرُق وأسْلم ؛ والله تعالىٰ يتولىٰ عَوْنَه ، ويُديمُ صَوْنَه ؛ والاعتماد ... .

توقيعٌ بكتابة الدَّرْج بطَرابُلُس ، كُتب به بـ«المجلس السامىّ» بالياء، وهو :

رُسم بالأمر الشَّريف ـ لا زالتْ مَراسِمُه العالِيَةُ تُطْلِع فى أفلاك المعالى بَدْرًا مُنِيرا هادِيًا إلى الفضائل مَأْمُونًا من السِّرار، ومكارِمُه الوافِيَةُ تَرفَع من أعلام المعانى صَدْرًا كبيرًا رَشيدًا فى البيان أمينًا على الأسرار ، ومَراحِمُه الكافِيَةُ تُقِرّ عيونَ الأعيان والأخيار ـ أنْ يُرتَّب فلانٌ ـ ضاعف الله تعالى أنوارَ فضائله التى يأْتَمّ بها المُسْتَضِىءُ والمُهْتدى ، ويَعْشُو إلىٰ قِرَاهَا المُسْتَعِينُ والمُقْتدى ـ فى كتابة الدَّرْج السعيد بطرابلُس المحروسة بما قُرِّر له من المعلوم الوارد فى الاستِئمار الشَّريف علىٰ ما يتَعيَّنُ بقَلَم الاستيفاء جِهتُه ، ويُبيِّنُ تفْصِيلُه وجُمْلته ؛ نَظرًا إلى استحقاقه الظَّاهر ، وفَضْله الباهر ؛ وبَلاغَتِه التى أفصحتْ عن بيان البَلِيغ القادر ، وفَصاحَتِه التى بلغت الكَمالَ بعَوْن الملك القادر ؛ وإطْرابِه ، فى إطْنابِه ؛ وإعْجازِه ، فى إيجازِه ؛ فله فى الدلائل قُدْرة «المَنْصور» وفى الفضائل قُوّةُ «الناصر» ؛ طالما أزْهر بقلمه «المَهْدىّ» للصواب، «السَّفَّاح» كالسَّحاب ، رَوْضُ العُلومِ والآداب ؛ وأظهر ببيانه «المُنْتَصر» فى الخطاب، «المُقْتَدر» على الاقتِضاب ، طُرُقَ الفُنون ، واضِحةَ العيون، مُحْكَمَة الأسباب ، وسُبُلَ الحِكَم مُفتَّحةَ الأبواب؛ فهو بالسنا والسناء بَدْر «المُسترْشِد» ، وبالجَدا والجَداء «مُعِزّ» «المُسْتنجِد» ؛ وبفَرْط الحَيا والحَياء سَحابُ «المُسْتَمْطِر و«المُستظهِر» ، وبفَرْب الذَّكا والذَّكاء برق «المُسْتَبْصِر» و«المُسْتَنْصِر» .

فليباشرْ هذه الوظيفةَ المباركة «مُعْتصِمًا» بحَبْل التَّقْوىٰ، «مُستعصِمًا» من المُراقبة بالسَّبَب الأقْوم الأقوىٰ ، مُجدِّدًا رُسومَ هذه الصناعة التى رَبْعُها قد دَرَس ومَحلُّها قد أقْوىٰ ؛ فإن «المُتَّقِى لله» «الرَّاضِى» به هو «الرَّاشِدُ» «القَائِمُ» بالسَّعادة،

و «المتوكل» عليه «المطيع» له هو «الواثق» ببلوغ القصد الحائز للاراده؛ وليطرز حلل البيان بوشي بنانه الذى أصبح ديباج الطرس به «معتزا»، وليقوم معانى البديع بعامل قلمه الخطى الذى أمسى الفضل به كالسمهرى قائما مهتزا؛ «مستكفيا» بما يصرعه ويرصعه نظما ونثرا من البدائع، «مستعليا» لما يرفعه ويفرعه من غرر الفقر، ودرر الفكر؛ بخاطره الوقاد النقاد المنقاد الطائع؛ «مقتفيا» فيما ينشئه آثار ما يصدر عن «الحاكم» و«الآمر»، «مكتفيا» فيما يبديه بمقدار ما تبرز به المراسيم والأوامر، «حافظا» للسر «العزيز» كاتبا كاتما فلا يعضده فيه «عاضد» ولا يظفر به «ظافر»؛ «معتمدا» على الكتمان فى جميع ما يورده ويصدره، مقتصدا بالتوفيق فى سائر ما يخفيه ويظهره.

والوصايا فمن آدابه تستفاد، والنصائح فلها منه المبدأ وإليه المعاد؛ فليتسنم ذروة أعلاها، وليتنسم نفحة رياها ....

* * *

توقيع بشهادة دار الضرب بطرابلس، وهو :

رسم بالأمر ـ لا زال رأيه الشريف يقرب من الأمور صوابا، ولا برح أفق سماء مملكته الشريفة يطلع بفلكه بدرا منيرا وشهابا ـ أن يرتب فلان .... : لأنه العدل الذى آشتهرت عدالته، والأمين الذى بهرت فظهرت أمانته؛ والرئيس الذى ما برح صدر المحافل، والفاضل الذى فاق بفضله على الأقران والأماثل، وشهدت بنزاهته المشهورة الأواخر والأوائل.

فليباشر هذه الوظيفة مباشرة مطابقة لعدالته المشهوره، معربة عن أصالته المخبوره، موضحة عن ديانته التى غدت فى العالمين معروفة غير منكوره؛ ليصبح هذا المنصب

مُشْرِقًا بنُوره ، سَنِيَّ الأرْجاءِ بسَاطِعِ ضياء شِهابِه ونُورِ بُدُوره ؛ وهو ـ أعزّه الله ـ غَنِيٌّ عن وَصِيَّة منه تُسْتفاد، أو تَنْبِيه علىٰ أمرٍ منه يُبْدأ وإليه يُعاد؛ ولْيَتَناوَلْ مَعْلُومه الشاهِدَ به الديوانُ المَعْمور هَنِيًّا مُيَسَّرا ، ولا يَقِفْ أملُهُ عنـده : فإنا لَنَرْجُو فوق ذلك مَظْهرا .

⁂

تَوْقِيعٌ بنَظَر اللّاذقيّة ، كُتب به للقاضى «بُرْهان الدين» الأذرعىّ ، وهو :

رُسِم بالأمر ـ أنْفذه اللهُ فى الآفاق ، وطَوَّقَ بِمَنّه وفَواضِـل بِرّه الأعناق ـ أنْ يسـتقرَّ المجلسُ السامى ـ حرس الله مُهْجَتَه ، وأهْلَكَ حَسَدَتَه ـ فى نظر اللّاذقيـة المحروسة ، علىٰ عادة من تقدّمه وقاعدته ، بالمَعْلوم الشاهد به الديوانُ المعمورُ إلىٰ آخِر وَقْت : عِلْمًا بأمانَتِـه المَشْهوره ، وكتابَتِه التى هى بين أهْل الصِّناعَة مَشْكُوره ، وخِبْرتِه التى هى فى المُباشَرات مَعْروفةٌ غيرُ مَنْكُوره ، وكِفَايَتِه المألُوفة المَوْفُوره؛ فإنّه باشَر الحِسْبَةَ الشَّرِيفةَ ونَهىٰ وأمَر ، واتّبع فى أحْكامه ما أمَر به «أميرُ المؤمنين عُمَر» ؛ وضَبَط أموالَ بَيْتِ المـال بحُسْنِ نَظَره ومَيَّزَ وثَمَّر .

فلْيُبـاشِرْ هذه الوظيفةَ المُبارَكةَ مُباشَرةً علىٰ أجْمـل العادات، ويَسْتَرفِعْ مالَها من الحُسْبانات ، ويُوَصِّلْ إلىٰ أرباب الاستحقاق ما لَهم من الحُقُوقات ، علىٰ مايشهدُ به الديوانُ المعمورُ فى سائر الأوقات ؛ فإنّ هذه الوظيفةَ من أجَلِّ المُباشَرات ، ولْيتناوَلْ مَعْلُومه الشاهِدَ به الديوانُ المعمورُ هَنِيًّا مُيَسَّرا علىٰ جارِى العَادة لمن تَقَدَّمه فى الفُروع وسائر الجهات ، ولْيَعْتَمِدْ علىٰ تَقْوَى الله تعـالىٰ فى سائر الحركات والسَّكَنات ؛ والله تعالىٰ يتولّاه ، والاعتماد على الخط الكريم أعلاه .

توقيع أيضا فى المعنىٰ .

لا زالتْ صَدَقاتُه الشريفةُ تقيمُ لأتباع الحقّ بُرْهانا، وتُسْدِى إلىٰ كلّ أحدٍ خيْرا وإحْسانا ـ أن يرتّبَ فلانٌ ناظِرًا باللّاذقيّة المحروسةِ وما هو مضافٌ إليها، علىٰ عادة من تقدّمه وقاعدته ومعلومِه الشاهدِ به الديوانُ المعمور : لأنّه طالمَا باشر نَظَر بيْت المال فوَفّر الأموال ، وأصْلح ما فسد من الأحْوال ، وسَدَّد بحُسْنِ تدبيره الأقوال والأفعال؛ وأظْهر من الأمانة ما تميَّز به فى مباشراته، وفاقَ به على قُرَنائه وأهْلِ زَمانه وأوْقاته ، ثُم باشر الحِسْبَة فسلَكَ فيها مَسْلَك السِّرّ والجَهْر وصِدْق الخَبَر ، وسلك مَسْلك أمير المؤمنين عُمَر .

فلْيباشِرْ هـذا النَّظَر بقلْبٍ مُنْشَرِح ، وأمَلٍ مُنْفَسِح ، ولْيظْهرْ فيه ما جُرِّب به من الأمانَه ، وتجنُّبِ الخِيَانه ؛ ولْيجتَهِدْ فى تحْصيل أموال الدِّيوانِ المعمور ، ويبْسُطْ قلَمَه فى إصلاح الأمور، ولْيُوصِّلْ إلىٰ أرباب المُرَتَّبات ماهو لهم مُسْتَحَق، فانّهم به أوْلىٰ وأحَق ؛ ولْيوصِّل إليه معْلومَه أوانَ وُجُوبه واسْتِحْقاقه ... .

توْقيعٌ بمشارفة حِصْن الأكراد ، كُتب به للقاضى « بَدْر الدين » بـ« المجلس العالى » ، وهو :

رُسِم بالأمر الشّريف ـ لا زالتْ مَراسِمُه العاليةُ تُولِى الأنامَ بِرّا، وتُجدِّدُ بإسْباغ الإنعام بِشْرا، وتُضَوِّعُ فى كلِّ نَادٍ من أنْدية الثّناء والدعاء نَشْرا، وتُطْلِع فى كلّ أُفُق من آفاق السِّيادة من صُدُور الأعيان وأعْيان الصُّدُورِ بَدْرا ـ أن يُرتّبَ فلانٌ فى مُشارَفة حِصْنِ الأكْراد المحروس : لمـا هو عليه من العِفّة والصّلَف ، والنّزاهَة

التى عُرِف بها وآتّصف ، والرّآسَة التى آنتقلتْ إلى الخلَف عن السَّلَف ، والعَدالَة التى لا يتكَلَّف لسُلوك نَهجها : ومن العَجَب خُلُوُّ البَدْر عن الكَلَف! ؛ كَمْ حُفِظَتْ بمباشرته الأموال ، وصَلَحتْ بملاحَظَته الأحوال ؛ وعُقِدت الخناصِرُ على سِيرته وحُسْن سَيْره ، وآشْتَهر بجميل تدبيرٍ أوْجب تقديمَه على غيْره .

فلْيباشِرْ هذه الوظيفةَ التى هى من أجَلِّ الوظائف ، ولْيشكُرْ ما أُولِى من المعروف وأُسْدِىَ إليه من العوارف ؛ ولْيبذُلْ جُهْدَه فى صلاح الأحوال ، وتثمير الأموال ، وتقرير القواعد على السَّداد ، وإجْراءِ العَوائد على وَفْقِ المُراد ؛ فانّه ممّن دلّت خِبْرَتُه على جَميل آثاره ، ولاحَتِ الغِبْطَةُ فى آختياره الذى أغنَى عن تقديم آختباره ؛ كيْف لا ؟ وهو ممّن نَشَأ فى خُدُور فُنُون الكِتابَه ، وآشْتَهر فى مَواطِن النِّضال مع وُفُور الآنتقال بحُسنِ الإصَابَه ؛ فهو إن شاء الإنْشاء بلَغ منه المَرام ، وإن بَسَط الجرائدَ للتصرُّف قيل : هذا الكاتِبُ النَّظّام ؛ كَمْ له من يَدٍ بيْضاءَ فى التَّبييض والتَّسْويد ، وهِمّة عَلْياءَ بلغ بها من السِّيادة ما كان يُرِيد .

فلْيقَدِّمْ خِيرَةَ الله تعالى فى هذا الأمر ويجعلْها إمامه ، وليتمسَّكْ بهـا مُقْتدِيًا بمن قدمها أمامَه ، ولْيكُنْ عند حُسْنِ الظّنِّ به ليبلُغَ من سعادة الدّارَيْنِ مَرامَه .

والوَصايا التى يعمُّ نفْعُها ، ويتعيّنُ على تناسُب الأعْمال جَمْعُها ؛ به تُسْلَكُ سُبُلُها ، وعنـه تُؤْخذ تَفاصيلُها وجُمَلُها ؛ فليسْلُكْ منها الأقْوَمَ الأرْشَـد ، وليتمسَّكْ بالأفود الأحْمد ؛ بحزْمٍ وافر ، وعَزْمٍ غير قَاصِر ؛ ولْيتناوَلْ مَعْلومَه الشاهدَ به الديوانُ المعمورُ أحْيانَ الوُجوب والآستحقاق رِزْقًا دارًا ، هَنِيًّا مُيسَّرًا سَارًا ؛ من غير تقْتير ولا تكْدير ، ولا تنْغِيص ولا تأْخير .

توقيعٌ بمشيخة المقام الأدهمىّ ، كُتب به باسم الشيخ « عبد الله السطوحى » بـ«المجلس العالى» ، وهو :

أما بعدَ حمد الله الذى سقَى محلَنا بإيابه ، وأنبتَ عُشبنا بسحابه ، وأقرأنا كتابَ وَجْهِه وأغنانا عن وَجْه كتابه ، وجعلَ لكلِّ مَقامٍ مَقالًا من صِدْق أوليائه ، ومنحهم بما آختار لهم من سرائر مَواهبِه وعَطائه ، وجمع قُلُوبَ الفُقَراء على العبادة والدعاء بواسطةٍ من أحبابِه وأخِصَّاءِ نُجَبائه ؛ والصلاةِ والسلامِ على سيدنا محمدٍ نجمِ السُّرَى ، ولَيْث الشَّرَى ، وسيِّد من وَطِئَ الثَّرَى ، وعلى آله وصحبه الذين منهم من لو أقسم لأَبَرَّ قَسَمَه ربُّ السما ، وسلَّم تسليما كثيرا — فلمَّا كان الاعتناءُ بالأمور الدِّينيةِ من الواجبات ، والمحافظةُ عليها [مما] تُبادِرُ إليه من النُّفوس الرَّغَبات ؛ وبُيُوت الله تعالى فهى قِوامُ الدِّينِ المَتِين ، ولا يَنْهَضُ بعمارتها إلا الذين اتَّقَوْا وآمنوا بربِّ العالَمِين ، فطُوبَى لهم ونِعْمَ أجْرُ العاملين .

ومن البيوت العامِرَه ، والسَّراة الطَّاهِرَه ، والمقامات التى إذا حلَّ بساحتها أكْمَهُ العيْن بَصَّرته نُجوماً زَاهِرَه — مقامُ من ذِكْرُ كرامته أشأمَ فى أقطارِ الأرض وأيْمن وأنجد وأتْهم ، السَّيِّد الجليل وَلِىّ الله « إبراهيم بن أدهم » ، سيِّد الأولياء ، وسُلْطانِ الأتقياء ، رَحْمةُ الله عليه ما سَارَ على الطَّريقِ سائر ، وما امتطَى ظَهْرَ قَلُوصٍ مُسَافِر ؛ مَقَامٌ بالزُّهْدِ موصوف ، وبالبَركاتِ معْرُوف ؛ وله الإطلاقاتُ المَشْهوره ، والمَناهِلُ المأْثوره ، فى وِرْدِها المَبْروره ؛ قد آستولَتْ عليه يَدُ التَّبْذِير ، وعاد بَعْدُ طُولُ سِماطه فى تقْصير ، وآختلف فيه النِّيَّاتُ فكان فى كيس الفقير (١) ؛ فكَشَف الله هذه النِّقْمَه ، وأدام سَوابِغَ النِّعْمه ؛ وأسْبَل على هذا المقام ظِلالَ الحُرْمه ؛

(١) لعلّ الصواب « فكان فى كيس الغنى بعد أن كان فى كيس » الخ .

وأرسَلَ اللهُ علىٰ عباده المتّقِينَ باعثًا من عنده ، وأيقظَهم لعلْمه بأن كلًّا واقفٌ عند أمْرِه وحَدِّه ؛ وأنطق لِسانَ من لا رَادّ لأمْرِه ، فكشف غُمّةَ هـذا المقام وعَزَل من يُخافُ عليه من سُوءِ تَدْبيره وشَرّه .

فلذلك رُسِم ـ أن تفوّضَ مشيخةُ المقام الجليـل الأدْهمىّ بثَغْر جَبْلَةَ المحروس ـ علىٰ ساكنه الرحمة والرضوان ـ إلىٰ فلانٍ ـ نفع الله ببركاته ، وأعاد على المسلمين من صالح دعواته ـ عِوضًا عمن كان بها بحكم آنفصاله حَسَب ما وردتِ المراسيم الشريفة ـ شرفها الله تعالىٰ وعظمها ـ عند آتصال العلوم الشريفة ـ زادها الله تعظيما ـ بأمر المقام المشار إليه وآعتماد المتصرفين فيه : إذْ وُضِعَت الآنَ الأشياءُ فى محلّها ، وأُسندت الأمور إلىٰ أهْلها ، وقُلِّدتْ هذه المَثُوبَةُ إلىٰ من يُظْهِر سَرائرَ فَضْلها ؛ ولحظت الآراء حِجَر هـذا المقـام والأثر ، ولا شَكّ أنّ السّعادة تَلْحَظُ الحِجَر ؛ كَمْ له من آيات مَشْهورَه ، وكراماتٍ بلسانِ الحَمْـد مَذْكُوره ، ومساعٍ فى الخيرات مَبْروره ؛ وقد عَمّ الزّوايَا بأجْناسِ المَكارِم ، وبَسَـط للزّائرين من إكرامه سِماطًا يقول الزّائرُ : هـذا ولا حَاتِم :

تَزُورُ ديارًا زارَها جُودُ كَـفِّه ، * ومِن دُونِهـا للزّائرِينَ مَراحِلُ ،

وتَرْجِعُ عنهـا والجُفُونُ قَرِيرَةٌ : * كما رَاجَعتْ مأوَى الحُقُوفِ المَساحِلُ !

فلْيَتَلَقّ ـ أعاد الله من بَرَكَته ـ هذه الوِلَايَه ، ولْيجعلْ للمقامِ المُشارِ إليه من خَاطِرِه الكريم أوْفرَ عنايَه ؛ ويستخلفْ عَنْه إذا توَجّه إلىٰ [1] بحِصْنِ الأكراد فإنّها مُسْتَمِرّةٌ بيده وولايتها باقية عليه ؛ وأمْرُها فى إبْدائه وإعادَته عليه ؛ واللهُ تعالىٰ يتولّاه ، فيما ولّاه ؛ والآعتماد ... .

(١) بياض بالأصل ومراده الى مشيخة ... ... بحصن الأكراد .

قلتُ : وقد أتيتُ علىٰ جُمْـلةٍ من تواقيع أرباب الوظائف : بدمَشْـقَ وحَلب وطَرَابُلُس وأعمال كلٍّ منها، يَستغنِي بها المـاهِرُ عمّا سواها، ويَقِيسُ عليها ما عَداها ؛ إذْ لا سبيلَ إلىٰ آستيفاءِ جميعها ، والإتيانِ علىٰ جُمْلتها .

وفيما ذُكِرَ من هذه المـالك الثلاثِ تَنْبِيهٌ علىٰ ما يكتب بحَماةَ وصَفَدَ اللَّتين هـا فى رُتْبـة طَرابُلُس ، وتَلْوِيحٌ إلىٰ ما عداها، ممـا هو دونهـا كغَزَّة إذا كانت نيابة ، والكَرَك التى هى دون ذلك .

والله تعالىٰ هُو الهـادى إلىٰ التوفيق، والمُرْشِدُ للسَّداد ؛ بمنّه وكَرَمه .

تم الجزء الثـانى عشر . يتلوه إن شاء الله تعـالىٰ الجزء الثالث عشر

وأوّله المقـالة السادسـة

(فيما يكتب فى المسامحات، والاطلاقات السلطانية، والطَّرْخانيات وتحويل السنين والتذاكر، وفيها أربعة أبواب)

والحمد لله رب العالمين . وصلاته علىٰ سيدنا محمد خاتم الأنبيـاء والمرسلين وآله وصحبـه والتابعين ، وسـلامه

وحسبنا الله ونعم الوكيل

الخطأ والصواب

ص	س	الخطأ	الصواب
٤	١٥	الجحفا	الجحفة
١١	١٢	غُدُر	غُدَر
١٣	١٠	غِيرة	غَيْرة
١٣	٨	جدّع	جَدَع
١٤	٥	أفتَدَوْه	افتدُوه
١٦	٩	مولى	موليا
٣٥	١٣	عمرو بن سراقة	عمرو بن سرافة
٤٠	٣	خرمة	خزمة
٤١	٢	المنذز	المنذر
٤١	٢٢	ويقال : ودفافة	ويقال : وذفة
٤٧	٢٢	١٩١١	١٩:١
٤٩	٨	عابد	عائذ
٥٠	٢٠	والدبش	والديش
٥٦	١٥	أمر	أسر
٦٠	٣	تُحِلِّينَ	تَحلِّين
٦٠	١٨	داود ابن الحصين	داود بن الحصين
٦٦	٨	الإسلام	الإسلامُ

ص	س	الخطـــأ	الصـــواب
٧١	٥	حُلّت	حَلت
٨٢	١٩	بهند	هند
٨٣	٦	ويهًا دسمة	ويها أبا دسمة
٨٣	١٦	تُذَبح	تُذْبح
٨٦	١٩	حتمة	حثمة
٨٨	١٢	وَجِدْتُ	وجَدتُ
٩٠	٤	وتواعدوه	وتوعدوه
٩٠	١٩	وقال لسان العرب	وقال صاحب لسان العرب
٩٠	١٩	هى	غير
١٠٢	٧	ويكون	وتكون
١٠٥	٢	بديتَه	بديته
١١٢	٦	مِنَته	منّته
١١٥	٢٢	٢٤٠	٢٣٠
١٢٤	٤	يغنى	لا يغنى
١٤٠	١٣	﴿بُيُوتَهم﴾	﴿بُيُوتَهُمْ﴾
١٤٢	٤	﴿يُخْرِبُونَ؟	﴿يُخْرِبون﴾
١٤٣	٤	الفسّادَ	الفسادُ
١٤٤	١٠	خالصا	خالصة
١٤٧	٢١	وأبو عمرو	وأبى عمرو
١٨٨	١٥	نُخرج	نَخْرج

خطـــأ وصـــواب

ص	س	الخطـــأ	الصـــواب
٢١٠	٤	عليمُ	عليمٌ
٢١١	٥	صلى الله الله	صلى الله
٢١٢	١١	محرش	مخرش
٢٢٠	٥	أن يحبثوا	أن يجيئوا
٢٢١	٢٠	الخلاَ	الخلاء
٢٢٥	١٨	بالاثنين	بالاثنتين
١٣٤	١٣	﴿فتحا﴾	﴿فَتَحَا﴾
٢٣٤	٢٠	سورة ٥	سورة « مع حذف الرَّ
٢٣٨	١٦	يا رسول	يا رسول الله
٢٤٠	١٣	﴿كفروًا﴾	﴿كَفَرُوا
٢٥١	١٤	تحرّب	مُحرَّبٌ
٣٠٥	٤	المجنّبة	المجنِّبة
٣٢٤	١٢	غَزَبة	غَزِيَّة
٣٤٠	١٣	رسولَ	رسولُ
٣٥٩	١٥	الجدّ .	الجدُّ
٣٦٢	٢	بَدَرَ	بَدْرٌ



مطابع كوستاتسوماس وشركاه
٥ شارع وقف الخربوطلي بالظاهر ج.ع.م
تليفون ٩٠٠١١٨ س. ت ٦٣٤١١